لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

الأدب العربي وتاريخه

في العصرين الأموي والعباسي

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي

دار الجيل
بيروت

الأدب العربي وتاريخه

في العصرين الأموي والعباسي

الأدب العربي وتاريخه

في العصرين الأموي والعباسي

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

دار الجيل
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فهذه دراسات واسعة جديدة للأدب العربي وتاريخه في عصرين من أزهى عصور الأدب وأزهاها ، وأحفلها بالبلاغات العربية في الشعر والنثر ، وشتى فنون الأدب ، وهما : عصر بني أمية ، والعصر العباسي الأول .

ولا يزال هذان العصران حتى اليوم في أمسّ الحاجة إلى الدراسة والبحث للكشف عن مختلف مقومات الأدب ، وبواعثه ، ونوازعه ، وأصوله ، فيهما .

وقد أرادت جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية في البيضاء بالمملكة الليبية ، رفعاً لمستوى الدراسات الأدبية فيها ، وحرصاً على تقديم مختلف الدراسات الجادة في شتى نواحي المعرفة لطلابها ، أن تجعل هذه الدراسات لأدب العصرين الأموي والعباسي الأول مقررة على طلبة الفرقة الثانية بكلية اللغة العربية إحدى كليات هذه الجامعة الفتية الطامحة .

وبعناية الله ، واهتمام المسئولين في هذه الجامعة ، سوف تصبح الشبيبة الليبية المثقفة ، ومن ينتظم في سلكها من أبناء البلاد الإسلامية الوافدين على هذه الجامعة ، مناط الأمل ، ومدار الرجاء ، في تحقيق آمال المستقبل ،

وفى رفع مستوى الدراسات الأدبية واللغوية فى العالم العربى والإسلامى .

ولا نملك ما نقوله إلا أن نبتهل إلى الله أن يوفق هـــذه الجامعة وخطواتهـا الرائدة فى سبيل الثقافة الإسلامية والعربية ، لتكون فى المستقبل القريب من أهم مراكز العلم والمعرفة فى العالم الإسلامى ، بعناية الملك المعظم إدريس الأول ، راعى الجامعة وواضع أصولها ، وموجهها إلى خير الإسلام والمسلمين ، حفظه الله ورعاه ، ذخراً لليبيا ولنهضتها .

والله يكلل جهود الجامعة وجهود الجامعات العربية والإسلامية ، فى سبيل حرية الثقافة ، بالفوز والنجاح ، إنه أجل مأمول وأكرم مسئول ؛ وما توفيقنا إلا بالله ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

٤ من جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ

٢٠ من أغسطس ١٩٦٦ م

القسم الأول من الكتاب

الحياة الأدبيـــة فى عصر بنى أمية

٤١ — ١٣٢ هـ

— أولا —

الحياة السياسية فى العصر الأموى

قيام دولة بنى أمية وآثاره السياسية والأدبية

— ١ —

حين استولى زعيم الأمويين معاوية بن أبى سفيان عام ٤١ هـ — ٦٦١ م على مقاليد الحكم ، وشئون الخلافة الإسلامية ، نقل عاصمة الخلافة من المدينة والكوفة إلى دمشق فى الشام ، وظلت هى العاصمة الكبرى حتى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ — ٧٥٠ م .

ودمشق هى مدينة جلق القديمة التى أشار إليها حسان فى شعره :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول

ويكاد يكون الإجماع على ذلك(١) .

وسموا دمشق : جلق الخضراء ، والغوطة ، وذات العماد ، ولقبت بالفيحاء ، والفيحاء الواسعة من الدور والرياض .

وترتفع دمشق عن سطح البحر بنحو سبعمائة متر ، وتبعد عن البحر الأبيض المتوسط بنحو ستين ميلا ، وتقوم فى نجد فسيح من الأرض ، يطل عليها من الشمال جبل قاسيون ، ويشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل المانع ، ومن الغرب جبل الشيخ المعروف بحرمون فى التوراة ، وبجبل الثلج عند قدماء العرب .. وهى مدينة سهلية جبلية ، وهبة نهرها الخالد «بردى» الذى كان اليونانيون يسمونه « نهر الذهب » .

وكانت دمشق لقربها من جزيرة العرب ومصر والعراق مدينة تجارية تصل بين الشرق والغرب ، وظلت عامرة على اختلاف العصور نحو أربعة

---

(١) ٨ دمشق ، محمد كرد على ، وقيل إن جلق هى كورة غوطة دمشق كلها .

آلاف سنة ، وقد استولى على دمشق فى القديم الآشوريون والبابليون والفرس والفراعنة والأرمن .

واقتحمها اسكندر المقدونى ودخلت فى حكم خلفائه ضمن دولة اليونان، ثم صارت أغلى درة فى الإمبراطورية الرومانية بعد انهيار اليونان السياسى ، وقبل الميلاد بقرن كامل هاجر إليها النبطيون من جزيرة العرب ، وتتابعت هجرات السلالات والقبائل العربية إليها ، وأخذت تنتشر اللغة العربية رويداً رويدا ، وظلت صبغتها العربية تتكامل طيلة سبعة قرون كاملة حتى بزغ نور الإسلام ، وسطعت أضواؤه المشرقة على أرض جزيرة العرب والشام و بلاد فارس ومصر .

وفتحت الجيوش الإسلامية الظافرة دمشق عام ١٤ من الهجرة - ٦٣٦ ميلادية ، وقد سبق فتحها فتح خالد بن الوليد لغوطتها وانتصاره على بنى غسان فى يوم فصحهم ، ورفعه للعقاب راية الرسول فى أعلى الجبل المطل على المدينة من الشمال ، وكان للعرب قبل فتحها صلات تجارية بها . فأبو سفيان ابن حرب شيخ بنى أمية وأحد زعماء قريش كان كثيراً مايفد عليها ، وله حديث طويل مع هرقل عن الرسول ونشأة الإسلام ، وقد رواه البخارى فى صحيحه .

تولى فتح المدينة كل من أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد ابن أبى سفيان . وحاصروها بعد وقعة اليرموك من الشرق والغرب ، ففتح نصفها عنوة ، ونصفها صلحاً ، فأجراها عمر أمير المؤمنين صلحاً كلها فى العام الرابع عشر من الهجرة ، وسار هرقل عنها بفلول جيشه المهزوم وهو يقول: سلام عليك يا ديار سوريا سلاماً لا لقاء بعده ، وبذلك زالت سيادة بيزنطة على هذه البلاد إلى الأبد .

وتولى إمارة دمشق وضواحيها يزيد بن أبى سفيان ، فلما مات عام ٢١هـ - ٦٤٣ م تولى عليها أخوه معاوية بن أبى سفيان من قبل عمر بن الخطاب . وكان

من قبل يلى ولاية الأردن لعمر ، وظل معاوية أميرا على دمشق عشرين عاما قبل أن يصبح خليفة وقبل أن تنتقل خلافة المسلمين إلى بنى أمية ، فلما أصبح معاوية خليفة للمسلمين كانت دمشق كذلك عاصمة لخلافته ، كما كانت من قبل عاصمة لولايته ، وظل خليفة فيها عشرين عاما أخرى ، بدأت بتنازل الحسن ابن على له عن الخلافة ، وانتهت بوفاة معاوية .

— ٢ —

تولى مقاليد الخلافة فى دمشق طيلة العصر الأموى ثلاثة عشر خليفة ، كان لهم السيادة على العالم الإسلامى كله ، وكانت جيوشهم تسير من نصر إلى نصر ، ويجىء إليهم الخراج من كل مكان يردد شعار الإسلام : « الله أكبر الله أكبر » . . ثلاثة عشر خليفة كانوا غرة الدهر ، وبجمع المجد والفخر ، وشعار الظفر والنصر ، هم :

١ — معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠ هـ : ٦٦١ - ٦٨٠ م)[١] .

٢ — يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤ هـ : ٦٨٠ - ٦٨٣ م) .

٣ — معاوية بن يزيد (٦٤ - ٦٤ هـ : ٦٨٣ - ٦٨٤م) .

٤ — مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥ هـ : ٦٨٤ - ٦٨٥ م)[٢] .

٥ — عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ : ٦٨٥ - ٧٠٥ م)[٣] .

٦ — الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ : ٧٠٥ - ٧١٥ م) .

٧ — سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ : ٧١٥ - ٧١٧ م) .

٨ — عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩ : ١٠١ هـ - ٧١٧ - ٧١٩م) .

---

(١) كان من أعظم ولاته زياد المتوفى عام ٥٣ هـ .

(٢) بدأت فى عهده ثورة ابن الزبير السياسية عام ٦٤ هـ واستمرت حتى قضى عليها عبد الملك عام ٧٣ هـ .

(٣) أشهر ولاته هو الحجاج (٤١ - ٩٥ هـ) .

٩ — يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ : ٧٢٠ - ٧٢٤ م) .

١٠ — هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ : ٧١٤ - ٧٤٣م) .

١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥-١٢٦ هـ : ٧٤٤ - ٧٤٤ م) .

١٢ — يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦ - ١٢٦ هـ : ٧٤٤ - ٧٤٤م) .

١٣ — مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (١٢٦ -١٣٢ هـ: ٧٤٤ - ٧٥م).

هؤلاء خلفاء بنى أمية ، شموس دمشق وملوكها وحكامها ، طيلة واحد وتسعين عاما هى مدة حكم الأمويين فى العالم الإسلامى .

— ٣ —

وقد بنى الخلفاء فى دمشق المساجد والدواوين والقصور ، والمتنزهات ، والقلاع والحصون ، فاتسع عمرانها ، وزادت حضارتها ، وصارت موطنا رفيعاً من مواطن الثقافة والأدب فى العالم الإسلامى ، ووفد إليها الناس فى مختلف أمورهم ومصالحهم ، وهكذا أصاب دمشق من عناية الأمويين ماصارت به كعبة المسلمين فى كل مكان وأعظم مدن العالم وأجملها ، ونعم سكانها بالعدل والأمن والثراء والسؤدد ، و أبان العرب - كما يقول جستاف لوبون - عن تسامح مع كل مدن الشام ، فرضى أهلها بسلطانهم ، وطرحوا النصرانية ، ودخلوا فى الإسلام أفواجا ، وتعلموا العربية .

— ٤ —

وكان خلفاء بنى أمية يبسطون نفوذهم وسلطانهم على الأندلس التى فتحت عام ٩٢هـ - ٧١١م ، وعلى مراكش والجزائر وتونس التى أقام فيها عقبة ابن نافع مدينة القيروان عام ٥٠ هـ - ٦٧٠ م ، وصارت منذ إنشائها موطنا من مواطن الثقافة الإسلامية ، كما كانت رايتهم تخفق على طرابلس وبرقة ومصر وجزيرة العرب ، والشام وبلاد العراق وفارس وخراسان وداهستان

وأفغانستان ، وفتح محمد بن القاسم السند للأمويين عام ٩٣هـ : ٧١٣م فأصبحت ولاية إسلامية من هذا التاريخ ، وأغار الأمويون فى الشام على القسطنطينية عدة مرات، وشنوا الغارات السنوية على الأناضول وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط : صقلية ، سردانية ، مالطة ، واحتلوا قبرص وكريت ورودس ، وهاجموا سواحل إيطاليا ، وغزا فرنسا الحر بن عبدالرحمن عام ٩٩هـ - ٧١٧، واستولى السمح بن مالك بعد ذلك بسنوات ثلاث على مدن كثيرة منها، وقام عبد الرحمن الغافقى عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ م بهجوم كبير عليها ووصل بجيشه الكبير إلى بواتييه قرب باريس ، فقابلهم شارل مارتل بجيش كبير تمكن من هزيمة الغافقى وجيشه الباسل ، فى يوم الجمعة ٧ من شعبان عام ١١٤ - ٢ أكتوبر ٧٣٢ م ، وقتل الغافقى ، وانسحب المسلمون ، وفى هذه الهزيمة يقول أديب فرنسى مشهور هو مسيو كلودفارير : « فى سنة ٧٣٢ م حدثت فاجعة كانت من أشأم الأحداث التى نكبت بها الإنسانية فى القرون الوسطى ، وكان من آثارها أن غمرت العالم العربى طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة ، هذه هى الفاجعة التى أريد أن أمقت ذكراها ، وأعنى بها الانتصار البغيض الذى ظفر به أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين الذين كان يقودهم الغافقى ، فنى ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء ، ويكفى المرء أن يطوف بفكره فى الأندلس ومدنها وحدائقها وحضارتها الخالدة ليعرف ماذا عسى أن تكون قد بلغته فرنسا منذ ذلك العهد السحيق لو أنقذها الإسلام العمرانى الفلسفى المتسامح السلمى » ... وغزا قتيبة بن مسلم عام ٨٧ هـ - ٧٠٦م بلاد ماوراء النهر ، ففتحت بخارى وسمرقند والصغد وغيرها ، وتعمق فى بلاد الهند حتى وصل إلى كاشغر وهى أدنى مدن الصين ، وأرسل عام ٧١٥ م - ٩٦ هـ رسالة إلى إمبراطور الصين يدعوه فيها إلى الإسلام ، ودخلت بلاد ماوراء القوقاز كذلك فى حكم الأمويين ، ودانت كلها بالطاعة فى عهد سليمان بن عبدالملك ،

ودخلت بلاد النوبة فى حكم المسلمين، وكذلك أجزاء من سواحل شرق أفريقيا.

هذا هو المجد الإسلامى الأكبر الذى شاده الأمويون ، وتركوه تراثا خالدا من تراث المسلمين الروحى والفكرى ، ولا يمكن أن ننسى عواصم الثقافة والأدب الكبرى فى دولة الأمويين ، من أمثال : دمشق والفسطاط ومكة والمدينة ، والقيروان والبصرة والكوفة ، وسواها من المدن الإسلامية الكبرى ، التى كافحت من أجل الحضارة والمدنية وتقدم الفكر والثقافة والآداب والفنون ، ونشرت راية المعرفة ، وحاربت الوثنية والإقطاع والظلام ، ونقلت العالم من الهمجية إلى المدنية ومن الوحشية إلى الحضارة ، ومن حياة الغابة إلى حياة الإنسانية المهذبة الرفيعة التى سعدت بحكم المسلمين خلال هذه الأيام الغابرة ، أيام المجد الإسلامى الأكبر .

— ٥ —

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذه الخلافة الإسلامية الكبرى كانت تدار على أحدث نظام فى الإدارة ، وكان الخليفة هو المشرف الأعلى على كل الشئون العامة، وكان يختار ولاة ينيبهم عنه فى إدارة الولاية والأقاليم والمدن ، وكانت الأقطار الإسلامية مقسمة إلى خمسة أقسام كبرى :

١ — الحجاز وينتظم المدينة ومكة والطائف ، ويقيم الأمير بالمدينة ، وكان يضاف إليه أحيانا بلاد اليمن وأحيانا تكون مستقلة بأمير .

٢ — العراق وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان ويقيم الأمير فى الكوفة بعض السنين وفى البصرة بعضها الآخر، وكانت خراسان تستقل أحيانا بأمير يتصل بالخليفة مباشرة ، كما كانت بلاد اليمامة تضاف إلى إمارة العراق أحيانا.

٣ — الجزيرة وأرمينية وتنتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية.

٤ — الشام وكانت مقسمة إلى خمسة أقسام : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين .

٥ — مصر وأفريقية، وتنتظم بلاد مصر وشمال أفريقية، وكانت أفريقية فى بعض الأحيان تستقل بوال لها عن مصر ، ولما فتحت الأندلس كانت تابعة لأفريقية ، وفى بعض الأحيان كانت تستقل بأمير .

وكان كل أمير يختار كذلك ولاة له على الأقاليم والمدن التى فى إمارته ، ويتمتع بالاستقلال الإدارى فى إمارته، يقيم الصلاة بنفسه، وإليه قيادة الجند، وجباية الخراج ، والقضاء بين الناس .

ومع عسر المواصلات فقد كانت هذه الولايات كلها تتصل بالخليفة . بوساطة البريد الذى استعمله معاوية وخلفاؤه .

وفى هذه الأقسام الإدارية كان الأمراء يتخذون الدواوين التى لابد منها لضبط شئون الدولة ، ومن بينها : ديوان الخراج وديوان الرسائل وديوان الخـــاتم .

وكانت لغة الدواوين فى الولايات المختلفة بلغاتها ، إلى أن عربت الدواوين فى جميع البلاد الإسلامية ، وصارت اللغة العربية هى لغة جميعها ، فى شتى الأقاليم والإمارت فى العهد الأموى .

وقد كثرت الأحزاب السياسية فى عصر بنى أمية ، من أمويين وعلويين وشيعة وخوارج وغيرهم ، كما انتشرت ببواعث سياسية العصبيات القبلية بين العدنانية والقحطانية وغيرهما .. وذلك مما أدى إلى نشأة الأدب السياسى فى هذا العصر . .

— ٦ —

وكانت دولة بنى أمية تعتز بالعرب وترفع من شأنهم، ولا تنظر إلى الموالى نظرة رعاية أو تقدير ، فدولة بنى أمية عربية أعرابية (١) وكانت بنو أمية

---

(١) ٢٠٦ / ٣ البيان والتبيين .

لا تستخلف بنى الإماء (١) ولا تبايع لبنى أمهات الأولاد (٢) ، وذلك كله قد نقضته الدولة العباسية التى يصفها الجاحظ بأنها أعجمية خراسانية .

وكذلك حافظ الخلفاء الأمويون على الصبغة والثقافة العربية ، فنشأوا أبناءهم بالبادية يتعلمون فيها الشعر والأدب واللغة، ويكتسبون الملكة والفطرة والطبع ، ويعقدون المجالس الأدبية ويستدعون الرواة والأدباء والشعراء ، ويكافئونهم بجزيل العطاء وسنى المواهب فوق عطفهم وبرهم بالعرب، وقصر وظائف الدولة عليهم وحدهم من ولاية وقيادة جيوش وتنظيم دواوين إلى غير ذلك من كبرى المناصب فى السياسة والقضاء والإدارة .

وهكذا شجعت دولة بنى أمية الجنس العربى وألقت فى يده زمام أمور الدولة ، بعكس بنى العباس .

وقد نمت الحواضر الإسلامية الكبرى كالكوفة والبصرة والفسطاط ومكة والمدينة وسواها من الأمصار .

الأحزاب السياسية وآثارها فى الأدب

١ — كان معاوية رأس الدولة الأموية داهية أريبا حصيفا ، وكان يعتز بأسرته الأموية اعتزازا كبيرا لتؤيد دولته الجديدة وملكه الناشىء الفتى .

وكان أظهر أعماله أنه نقل الحكم الإسلامى من خلافة شورية إلى ملك مستبد يحرص على تثبيته ودعمه وإعلاء صرحه، ولو فوق جثث الضحايا وأشلائهم.

واستعان معاوية فى هذا بأسرته من بنى أمية وبنى عبد شمس ، كما استعان بالقبائل العربية المقيمة فى بلاد الشام وحواليها ، والتى أغدق عليها العطاء ، وهو وال لعمر وعثمان على الشام ، ثم وهو يقارع على بن أبى طالب ويجالده

---

(١) ١٨٠ / ٤ العقد .

(٢) ١٨١ / ٤ العقد . وكان الحجاج يسم أيدى النبط بعلامة يعرفون بها (٧ : ١٦٥ الحيوان ط الحلبى) .

بالسيوف فى سبيل الملك ، ثم وهو خليفة وأمير المسلمين بعد تنازل الحسن ابن على له عن الخلافة .

وعمل معاوية على إيقاع الخلاف بين القبائل المختلفة وضرب بعضها ببعض ، وتحريض بعضها على الآخرين ، وبذلك أحيا العصبية القديمة التى حاربها الإسلام ورسوله وكتابه الكريم ، كما حاربها أبو بكر وعمر طول عهد خلافتهما رضوان الله عليهما .

لم يكن معاوية يثق بأهل مكة والمدينة لانحياز زعمائهما إلى أهل بيت الرسول ، ولا بالعرب المقيمين فى الكوفة والبصرة لأن الكثير منهم شيعيون، ولكنه جهد فى استمالة العرب القاطنين فى بلاد الشام وعلى مشارفها، كما جهد فى استمالة القبائل اليمنية ، وتزوج من إحدى بطونها ، من قبيلة كلب ، أم ابنه يزيد ، كما جهد فى استمالة القبائل القيسية وبعض القبائل المضرية إليه .

وفى سبيل ذلك أكثر من الوعد والوعيد ، وبذل الأموال وفرق العطاء ، وأكثر من الاغداق على أهل الحجاز وبخاصة مكة والمدينة لأنهم أصحاب الرأى النافذ بين المسلمين ، وضاعف عطاء الحسن والحسين أضعافا كثيرة فجعله ألف ألف درهم وكان على عهد عمر خمسة آلاف .

وبذلك استتب الأمر لمعاوية الداهية العبقرى ، وكان يقول تصويراً لدهائه وسياسته : والله لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت إن شدوا أرخيت وإن أرخوا شددت .

٢ — ولمامات معاوية لم يخلفه أحد فى الملك يشبهه فى الدهاء والسياسة، فافترق المسلمون وشبت الثورات وكثرت الأحزاب : من شيعة أنصار بيت على فى الحجاز والعراق ، وزبيريين يشايعون آل الزبير فى الحجاز وغيرها ، وخوارج خرجوا على الاستبداد والملك العضوض ، وأمويين يدافعون عن ملكهم ونفوذهم .

ووجد ملوك بنى أمية أن لاشىء يعيد إلى دولتهم هيبتها واطمئنانها إلا الاستبداد والعسف والطغيان ، فوكلوا بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفى يملأ الأرض رعباً وخوفاوجورا ، ووكلوا بالبلاد الأخرى ولاة يأمرونهم باليقظة والحزم والدهاء والمكر والطغيان .

وهكذا ظلت الدولة تموج بالعصبيات إلى عهد انقضائها ، بل إنها كانت السبب الأخير فى القضاء عليها وتمهيد الأمر لبنى العباس .

٣ — وكان الشعراء يغذون العصبيات ويلقون القصائد الجيدة مشيدة بذكر الأحزاب التى ينتمون إليهاومنددة بمثالب الأحزاب الأخرى ، ومن ذلك أن الهاشميين أخذوايحرضون الكميت الشاعر على إثارة العصبية بشعره ، جاء فى مروج الذهب للمسعودى أن عبيدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب قال للكميت : « إنى قد رأيت أن تقول شيئاً تغضب به بين الناس لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما نحب » فأنشد قصيدة ذكر فيها مناقب بنى نزار من ربيعة ومضر وأطنب فى وصفهم وفضلهم على بنى قحطان وعرض بما كان من شأنهم مع الأحباش وغيرهم ، ومن هذه القصيدة قوله :

لنا قمر السماء وكل نجم تشير إليه أيدى المهتدينا
وجدت الله إذ سمى نزارا وأسكنهم بمكة قاطنينـــا
لنا جعل المكارم خالصات وللناس القفا ولنا الجبينا

وقد ذاع هذا القول فى النزارية واليمنية فافتخر كل قبيل بماله من مآثر .. وفى العصر العباسى قال دعبل بن على الخزاعى ينقض على الكميت قصيدته ويذكر مناقب اليمن ويعرض بل ويصرح بنقائص غيرهم من قصيدة له :

أفيقى من ملامك ياظعينا كفاك اللوم مر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالى يشيبن الذوائب والقرونا

وما طلب الكميت طلاب وتر ولكننا لنصرتنا هجينا
لقد علمت نزار أن قومى إلى نصر النبوة فاخرينا

وهكذا قامت أحزاب سياسية فى هذا العصر كان لها كبير الأثر فى حياة الدولة ، ومن بينها حزب بنى أمية وحزب العلويين ، وحزب الزبيريين ، وحزب الخوارج ، وكان لكل حزب من هذه الأحزاب شعراؤه وخطباؤه .

ونشأ عن إحياء العصبيات الممقوتة آثار كثيرة بعضها سياسى وبعضها اجتماعى وبعضها أدبى :

أما الآثار السياسية فقد كثرت الخلافات والثورات والحروب بين العرب بعضهم وبعض وبين العرب والموالى وبين أبناء وفروع الأمويين أنفسهم ؛ وكثر تبعا لذلك الاضطهاد السياسى لخصوم الدولة .

وأما الآثار الاجتماعية فإنك تعلم أن إحياء العصبية معناه سيطرة التفكير الجاهلى على الناس والساسة ، وبذلك انحرف الأمويون بل الناس كلهم عن منهج الإسلام الذى يجعل الناس إخوة متحابين ويفرض على الحاكم العدل والمساواة والحرص على حريات الناس جميعاً .

وأما الآثار الأدبية فقد عادت الفنون الأدبية الجاهلية القديمة إلى الظهور ، من الفخر الكاذب والمنافرات والمفاخرات المرة بين العرب فى مجتمعاتهم الأدبية وعلى الأخص فى « المربد » بظاهر البصرة وفى الكناسة حوالى الكوفة .

تلخيص

وفى إيجاز شديد نستطيع أن نلمح الآثار السياسية لقيام الحكم الأموى فى استقرار السلطان فى أيدى الحزب الأموى الحاكم ، وفى تصارع القوى السياسية فى الدولة فى هذا العصر التى تتمثل فى الحزب الرئيسى وهو حزب بنى أمية وفى الأحزاب المعارضة من علويين وخوارج وزبيريين وسواهم ، وكانت سياسة الدولة عربية خالصة مما أثار حقد الموالى عليها وكراهيتهم لها ، ونجم عن هذه السياسة قيام الثورات السياسية فى عرض البلاد وطولها وعدم استقرار الأمن ، وقيام الدعاية السرية للهاشميين .

وكان لقيام الدولة آثار أدبية أخرى تتجلى فى نشأة الأدب السياسى فى هذا العصر ، وفى تعدد مواطن الثقافة والأدب ، وفى انتشار اللغة وذيوعها ، وفى تعدد مواسم الأدب وحلقاته فى هذا العهد ، وفى إقبال الخلفاء على الشعر والشعراء والأدب والأدباء ، واغداقهم الأموال الطائلة عليهم ، وفى تنافس الشعراء فى مدح الخلفاء والقرب من مصادر المال والسلطان .

وقيام الأحزاب السياسية فى هذا العصر أصل كبير تفرعت عنه آثار كثيرة من قيام الشعر السياسى والخطابة السياسية ، ومن تعدد مذاهب الشعراء الفكرية والسياسية ، وقيام الهجاء بينهم وازدهار فن المدح والحماسة ووصف المعارك ورثاء القتلى ، وقد أثمر ذلك كله نهضة الشعر وقوته فى هذا العصر الحافل .

ـ ثانيـــاً ـ

عناية الدولة بالأدب واللغة ومظاهرها

اشتدت فى هذا العصر عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب وتجلت فى مظاهر شتى :

١ ـ إحياء الأدب الجاهلى ، إحياء للعصبية وبعثا لها أو بدافع منها ، وإرواء لغلتهم الأدبية ، وبذل الأموال لعلماء اللغة والأدب فى سبيل ذلك .

٢ ـ عقد المجالس الأدبية العامة التى تمس الأدب والشعر والنقد ، ويكون حظ كل ذلك من رعايتهم موفوراً .

٣ ـ كما بذلوا الكثير من عنايتهم فى سبيل المحافظة على اللغة وتدوين النحو ووضع النقط والشكل ونقل دواوين الخراج إلى العربية .

٤ ـ رعاية الكتابة واتخاذ أعلامها كتابا فى ديوان رسائل الخلفاء .

٥ ـ تسامحهم مع الشعراء وإطلاق الحرية لهم .

٦ ـ تشجيع الشعراء ورعايتهم ، جلبا لمدحهم ، ونشرا لمناقبهم ، وتوطيداً لملكهم ، وإحياء لمفاخرهم ومآثر آبائهم . وإغداق العطاء عليهم دون حساب ، واتخاذ الخلفاء شعراء مقربين لديهم .

فقد أعطى عبدالملك أعرابيا وصف ناقته مائة بعير ، وأعطى آخر وصف المطر ألف درهم . وأعطى الوليد بن عبدالملك امرأة وصفت الغيم بعد المحل مائة دينار .. وأعطى سليمان فرسه ومايحمله ويتجمل به لرجل أحسن وصف الفرس ، وأشباه ذلك كثير .

وكان للشعراء النصيب الأوفى من عناية هؤلاء الخلفاء ، لأنهم كانوا أشد

الناس إذكاء للعصبية وتأليفا لقلوب العرب وجمعا لهم على نصرة بنى أمية ، فكانت لهم أعطيات فى بيت المال كل حسب طبقته ومنزلته وأثره فى مدح الدولة والذود عنها . كل ذلك بينما شعراء بنى هاشم وشيعتهم يستلهمون وحى الشعر من حب أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر مما كانوا يستمدونه من أموالهم وأفعالهم .. ومن هذين المددين : المال والمودة ازدهر هذا العهد بالشعر أكثر مما ازدهر به أى عهد سواه .

كان خلفاء بنى أمية يذكون العصبية العربية بكل ما لديهم من قوة ومال ، وكان من أكبر وسائل الاذكاء إحياء ماخلفه العرب من شعر وحكمة وخطب ، وكان أكثر هؤلاء الخلفاء من أقطاب العلم والأدب ، فكانوا يستقبلون فى كل آونة رؤساء العشائر وخطباءها وشعراءها ومن إلى هؤلاء ممن يؤيدون بهم الملك ، ويؤازرون بهم الجماعة ، ويشدون بهم الأعضاد ، وكانوا يستمعون لما يلقيه هؤلاء وما ينقلونه عن أسلافهم من مأثور القول ، ويثيبون عليه ثوابا كريما .

كما كان من الأمراء والرؤساء والقادة والولاة من كانوا يغالون فى هبات الشعراء والخطباء إلى أبعد حد عرف من كرم العطاء .

ومن هؤلاء عبد الله بن العباس ، وعرابة الأوسى ، وطلحة الخزاعى ، والحجاج الثقفى ، وخالد القسرى ، والمهلب بن أبى صفرة ، وسواهم .

ولا بدع فى ذلك ، فهم عرب يهزهم البيان ، ومنهم من كان يتذوق الشعر ويفهمه وينقده كعبد الملك بن مروان ، فوق البواعث السياسية والاجتماعية والدينية ، التى كانت تدعوهم إلى العناية بالأدب والشعر واللغة .

وقد كان الخلفاء والأمراء وغيرهم يحثون الناس على طلب الأدب والشعر واللغة .

قال عبد الملك بن مروان لبنيه : عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم

إليه كان لكم مالا وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا ؛ وقال شبيب بن شيبة : اطلبوا الأدب فانه مادة العقل ودليل عن المروءة ، وقال معاوية : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم (١) .

وننتقل إلى تفصيل مظاهر عناية الدولة باللغة والأدب في هذا العصر ..

(١) ذيوع اللغة وقيامها بمطالب الحضارة

— ١ —

علمت مما سبق أن الفتوحات الإسلامية كثرت فى العصر الأموى حتى وصلت جيوش المسلمين إلى الهند والأندلس ، وحكم العرب هذه البلاد المفتوحة وأخضعوها لنفوذهم وسلطانهم وصاروا حكامها وأمراءها ونشروا فيها دينهم ولغتهم وآدابهم ونزح العرب إلى هذه البلاد المفتوحة فأقاموا فيها وعمروها وخالطوا أهلها ونشروا اللغة العربية فى كل مكان .

وأخذ أهل هذه البلاد المفتوحة يتعلمون العربية ويدرسونها ويتخذونها لغة لهم يتفاهمون بها مع حكامهم وولاتهم من العرب ولم يقفوا عند هذا الحد من التخاطب باللغة والتفاهم بها بل أجادوا العربية ودرسوا آدابها ونظموا الشعر وتفقهوا فى شتى العلوم سواء منها العلوم الإسلامية الأصلية أم علوم ومعارف أممهم القديمة المتمدينة التى أذاعوها ونشروها فى البيئة العربية الإسلامية الجديدة .

يقول ابن خلدون : « ولما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيا هجرت كلها فى جميع ممالكها ، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربى من شعائر الإسلام

---

(١) ٤١ ج ٢ وفيات الأعيان .

وطاعة العرب ، وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم فى جميع الأقطار والممالك ، وصار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم ، وصارت الألسنة دخيلة فيها وغريبة » .

— ٢ —

ولقد قامت اللغة العربية فى العصر الأموى بمقتضيات الدين والملك والسياسة إلى حد بعيد مما يتجلى لك فيما يأتى :

(ا) حولت دواوين الخراج إلى اللغة العربية فى شتى البلاد الاسلامية ، وكانت من قبل تكتب بلغة الاقليم التى هى فيه ، فهى فى العراق بالفارسية ؛ وفى الشام بالروميـــة ، وفى مصر بالقبطية ، فحولت دواوين العراق إلى العربية فى عهد الحجاج وعبد الملك ، كما حولت دواوين الشام من الرومية إلى العربية فى عهد عبد الملك أيضا بعد أن رأى من إدلال كاتبه سرجون ، وكان الذى حولها له فى الشام إلى العربية هو سليمان بن مسرور ، فدب الحزن إلى قلب سرجون حتى لقد قال لمن معه من كتاب الروم : اطلبوا الرزق من غير هذه الصناعة ، فقد قطعها الله عنكم ؛ ولما حول صالح بن عبد الرحمن السجستانى للحجاج دواوين العراق إلى العربية(١) ، أراد الكتاب الفرس أن يحولوا بالمال بينه وبين ذلك ، فبذلوا له مئتى ألف درهم على ألا يفعل فأبى فقالوا : قطع الله أصلك من الدنيا بعد أن قطعت أصل الفارسية . وتم منذ ذلك الحين نقل ديوان العراق ، وكان الذى يتولى الكتابة فيه بالفارسية زادان فروج بن بيدى .

---

(١) وفى العقد الفريد : أن قحذم جد الوليد بن هشام القحذمى هو الذى قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية (١١ ـ ٣ العقد) .

وأما ديوان مصر فقد حوله عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر من قبل الوليد بن عبد الملك ، وكان يقوم بالكتابة فيه بالقبطية انتناش القبطى فصرفه عبد الله وأقام مكانه ابن يربوع الفزارى .

(ب) كما قامت اللغة بالتعبير عن ألوان الحياة الجديدة الناشئة على العرب فى دولة بنى أمية فالقصور الباذخة والجيوش العديدة والغلمان والعبيد والحجاب والقهارم والموسيقى والغناء والجيوش والأساطيل والقلاع والبريد وسك النقود وديوان الخاتم وديوان الرسائل وديوان الجند وغير ذلك من مظاهر الملك وألوان المدنية الجديدة ومشاهد العمران والترف ، قد راض العرب لغتهم على التعبير عنها ، وعما تتطلبه شتى ألوان الحياة ، فلم تعجز اللغة بل نهضت بكل ذلك دون وناة أوفتور ، سواء بما فيها من ألفاظ ومفردات وأساليب وثروة لغوية ضخمة أم بما عربه العرب من الألفاظ الأعجمية . فوضعوا أسماء للمسميات الجديدة : بنقل بعض الألفاظ العربية عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى ، أو بالتعبير عنها بالألفاظ المعربة ، فمن ألفاظ فى تمييز الجند وأنواع أسلحتهم إلى مصطلحات الدواوين ، وما تقتضيه الحضارة والعمران والثقافة .

ومن الألفاظ المعربة : الطست والطبق والبلور واللوز والطنبور والفرسخ والبريد والمارستان ، ومنها : الدبابة ، والعَرَّادة ، والمنجنيق ، والثغور ، والعواصم ، والقصبة ، والولاية ، والحكومة ، والسكة ، والدفتر ، والجريدة(١) .

---

(١) الدبابة : مشددة آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن وفيها الجند ، فينقبون وهم فى جوفها . والعرادة : شىء أصغر من المنجنيق . والثغر كل عورة منفتحة والفم والأسنان وما يلى دار الحرب وموضع المخافة من فروج البلدان . والعاصمة المدينة . والقصبة : القصر والمدينة . والسكة بالكسر : حديدة منقوشة تضرب عليها الدراهم . والدفتر بفتح الدال وكسرها جماعة الصحف المضمومة . والجريدة سفعة طويلة رطبة أو يابسة أو التى تقشر من خوصها .

(ج) ونهضت اللغة بشتى ألوان العلوم والثقافات وتدوينها دون تقصير أو عجز فبدأت النهضة العلمية والفكرية وقام العلماء بتدوين آرائهم فى شتى علوم الدين والدنيا تساعدهم على ذلك لغة طيعة مرنة واسعة الجوانب .

(د) كما عبرت اللغة عن شتى نظم الملك والسياسة والقضاء والإدارة والأدب والفن حتى ورثنا ثروة ضخمة من آثار هذا العصر الأدبية الرائعة .

(٢) ظهور اللحن والعمل على مقاومته

اللحن ونشوء العامية :

١ — علمت أن العرب فتحوا كثيراً من البلاد والأمصار، ودخل أهلها فى دين الله أفواجا وتعلموا القرآن ودرسوا اللغة العربية وتكلموا بها ، فبدأت اللكنة تظهر فى كلامهم كما بدأ اللحن واضحاً فى نطقهم .

ولا شك أن العربي بمخالطته للدخلاء على العربية ولسانها قد أصابته عدواها وانتقلت إليه آثار من لكنتهم ولحنهم .

كما أن نشأة أولاد الأمراء والخلفاء والأثرياء بين أمهات أو مربيات أعجميات كان له أثره فى إفساد طباعهم وفطرهم الأدبية الموروثة .

وفى عهد الدولة الأموية ظهر اللحن والعى وفساد الملكات واللكنة حتى كان الخلفاء والأمراء يدفعون هذه العدوى بتربية أولادهم فى البادية وتثقيفهم على يد الأساتذة والمعلمين حتى يتعودوا البلاغة والفصاحة من صغرهم .

وكان اللحن يقع فى محادثتهم وحوارهم ومعتاد كلامهم .. وقد أسرعوا بوضع اللحن ثم الشكل ثم الإعجام حفظا الألسنة من الفساد وللملكات من العى .

٢ — ولم يقع فى العصر الجاهلى لأن الإعراب جزء من لهجة العربى الفصيح لاينفصم عنها .

كما أنه لم يقع فى عصر النبوة ومابعده من العرب إلا نادراً وذلك لسلامة الملكات وقلة اختلاط العرب بغيرهم وقرب عهدهم بالبداوة . روى أن كاتب أبى موسى الأشعرى كتب عنه كتابا إلى عمر فلحن فأرسل إليه عمر أن قنع كاتبك صوتا، وكان مالحن فيه قوله فى أول الكتاب : « من أبو موسى الأشعرى » . ولحن رجل فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أرشدوا أخاكم فقد ضل .

نعم وقع لحن من الموالى المسلمين فى عهد النبوة ، كما وقع من سلمان الفارسى وكان يرتضخ لكنة فارسية، وبلال وكان يرتضخ لكنة حبشية وصهيب وكان يرتضخ لكنة رومية ، ولكن عذر هؤلاء واضح لأنهم حديثو عهد بالإسلام واللغة ، وشتان بين هذا وبين ماوقع فى العصر الأموى .

٣ — ومن اللحانين خالد القسرى وكان متقدما فى الخطابة ومتناهيا فى البلاغة فخرج عليه المغيرة بن سعيد بالكوفة وهو على المنبر فقال : أطعمونى ماء(١) وكانت أمه نصرانية .

ومن اللحانين أيضاً الوليد بن عبد الملك أشفق عليه أبوه فلم يرسله إلى البادية فتربى فى دمشق وتعلم العربية صناعة فعرض لكلامه اللحن فهو مع بلاغته يقول لأبيه : اقتل أبى فديك، ويقول لغلامه : رد الفرسان الصادان، ويقرأ : ياليتها كانت القاضية برفع القاضية ، ويقول عبد الملك: أضر بالوليد حبنا له فلم نوجهه إلى البادية(٢) .

ومن اللحانين أيضاً عبيدالله بن زياد وكانت فيه لكنة لأنه نشأ بالأساور مع أمه مرجانة . قال مرة : افتحوا سيوفكم فقال : يزيد بن مفرغ :

---

(١) ١٧ ح ١ الكامل للمبرد (٢) ١٥٤ ح ٢ البيان والتبيين

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكان أمرك للضياع

٤ — ويقول عبد الملك بن مروان : اللحن هجنة على الشريف ، وقال غيره : تعلموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض ، ويقول غيره : تعلموا النحو فإنه جمال للوضيع وتركه هجنة للشريف . وكان الخلفاء يكرهون اللحن ويحذرون منه ويعدونه عيبا كبيراً ، حتى لقد قال عبد الملك : شيبنى صعود المنابر والخوف من اللحن وأول لحن ، سمع بالبادية : هذه عصاتى ، وأول لحن سمع بالعراق : حى على الفلاح .

وقد وقع اللحن لكثير فى هذا العصر ، يقول رؤبة وأبو عمرو بن العلاء إنهما لم يريا قرويين أفصح من الحسن البصرى والحجاج ، وغلط الحسن فى حرفين من القرآن ، كما نسب للحجاج لحن فى بعض المواطن .

وأمثلة اللحن واللكنة كثيرة ، ويقول المبرد فى اللكنة : هى أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية (١) وتكون من العجم ، ومن نشأ من العرب مع العجم كما يقول الجاحظ (٢) ، ويقال : فى لسانه لكنة ، إذا أدخل بعض حروف العجم فى حروف العرب ، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول (٣) ، فهى العجز عن وضوح اللهجة وصحة مخارج الحروف .

وبعد فإن آثار اختلاط العرب بالعجم قد ظهرت فى الألسنة فى مظاهر كثيرة هى : اللحن واللكنة ، وضعف الملكة والطبع ، وقد عملوا على مقاومته ، فوضعوا النحو وانشكل والإعجام .

---

(١) ٣٦٩ ج ١ الكامل (٢) ٦٩ ج ١ البيان

(٣) ٤٨ ج ١ البيان

(٣) الحفاظ على العربية

كان لاختلاط العرب بالعجم والموالى أثره فى الألسنة حيث ظهر اللحن واللكنة وضعفت الملكة والطبع .

وكان الخلفاء يكرهون اللحن ويحذرونه للغاية ، حتى قالى عبد الملك بن مروان : شيبنى صعود المنابر والخوف من اللحن .

وللاحتراز عنه وضعوا النحو والشكل والإعجام .

وضع النحو :

أما النحو فهو العلم الذى يرشد إلى معرفة حركة آخر الكلمة ، وقد كان ذلك ضروريا للسان العربى بعد أن دب اللحن إلى الملكات والألسنة ، ولقد كان العرب فى جاهليتهم يعتمدون على سليقتهم السليمة وفطرتهم العربية الصادقة ، فلم يقع منهم لحن ، ولكن اختلاط العرب بالعجم والموالى بعد الفتوحات الإسلامية جعل وضع النحو ضرورة لابد منها للمحافظة على القرآن الكريم ولغته الشريفة .

والناس يختلفون فى الداعى الذى حفز القدماء إلى وضع النحو ، وفيمن وضعه اختلافا كثيرا ، مما سنفصل القول فيه .

أما سبب وضع النحو ففيه روايات كثيرة :

١ — قيل إن معاوية كتب إلى زياد يطلب عبد الله ابنه فلما قدم عليه وجده يلحن فرده إلى زياد وكتب إليه كتابا يلومه فيه على ذلك فبعث زياد إلى أبى الأسود وطلب منه أن يضع شيئا يصلح الناس به كلامهم ويعرفون كلام الله تعالى ، فأبى ذلك أبو الأسود فوجه زياد رجلا وقال له اقعد فى طريق أبى الأسود فإذا مر بك فاقرأ شيئاً من القرآن وتعمد اللحن ، فلما مر أبو الأسود رفع الرجل صوته وقال : إن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر ، فاستعظم

ذلك أبو الأسود وقال عز وجه الله أن يتبرأ من رسوله ثم رجع من فوره إلى زياد وقال له : قد أجبتك إلى ما سألت .

ب — وقيل إن أبا الأسود كان يعلم أولاد زياد وهو والى العراقين يومئذ فجاءه يوما وقال له : أصلح الله الأمير إنى أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت ألسنتهم أفتأذن لى أن أضع للعرب مايعرفون أو يقيمون به كلامهم ؟ قال : لا ، فجاء رجل إلى زياد وقال: أصلح الله الأمير توفى أبانا وترك بنون ، فقال زياد : أدع لى أبا الأسود ، فلما حضر قال : ضع للناس الذى نهيتك عنه .

ج — وقيل إن ابنة لأبى الأسود تحدثت إليه فقالت : ياأبت ما أحسن السماء ؟ فقال نجومها . فقالت : إنما أردت أن السماء حسنة ، فقال لها قولى : ما أحسن السماء ! ثم غدا على على رضى الله عنه فحدثه حديث ابنته وقال : إنى أخاف أن يفسد لسان العرب بمخالطة هذه الحمراء ، فأملى على رضى الله عنه بعض قواعد الكلام وقال له : انح هذا النحو ، فكان ابو الأسود كلما عقد فصلا راجعه فيه أمير المؤمنين فأقره أو هذبه .

د — وقيل إن أبا الأسود دخل على على رضى الله عنه فوجد فى يده رقعة حمراء فقال له ما هذه ياأمير المؤمنين ؟ فقال : إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه ويعتمدون عليه ثم القى الرقعة إلى ابى الأسود فإذا فيها : الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبىء به والحرف ما أفاد معنى . ثم قال لأبى الأسود : انح هذا النحو واضف إليه ما وقع إليك ، واعلم ياأبا الأسود أن الأسماء كلها ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لاظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل الناس ياأبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر وأرد بذلك المبهمات ، قال ابو الأسود ثم وضعت بابى العطف والنعت ثم بابى التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب إن واخواتها فلم أذكر لكن فلما عرضتها على على عليه السلام أمرنى بضم لكن إليها ، وكنت

كلما وضعت بابا عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية فقال لى : ما أحسن هذا النحو الذى نحوت .

وقيل إن أبا الأسود هو الذى ابتكر التقسيم الأول للكلام وأراه عليا عليه السلام فأقره .

٥ — ويروى أيضا أنه قدم أعرابى فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال من يقرئنى شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم فأقرأه رجل سورة براءة فقال إن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر ، فقال الأعرابى أو قد برىء الله من رسوله ، إن يكن الله تعالى برىء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الأعرابى فدعاه فقال ياأعرابى أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال يا أمير المسلمين إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن فسألت من يقرئنى ؟ فاقرأنى هذا سورة براءة فقال إن الله برىء من المشركين ورسوله فقلت له أوقد برىء الله تعالى من رسوله إن يكن الله تعالى برىء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال عمر رضى الله عنه ليس هكذا يا أعرابى فقال كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال إن الله برىء من المشركين ورسوله ، فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ ممن برىء الله ورسوله منهم ، فأمر عمر رضى الله عنه أن لا يقرىء القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع النحو (١)

وأما واضع النحو ، فأغلب الروايات متضافرة على أنه أبو الأسود الدؤلى العالم الخـــالد المتوفى عام ٦٩ ﻫ ، سواء كان هو الذى ابتكره من نفسه أم أن الإمام على بن أبى طالب أرشده إلى الأساس الذى يبنى عليه .

---

(١) نزهة الألبا ص ٧ وما بعدها .

ويقول عبد القادر البغدادى فيه : وهو واضع علم النحو بتعليم على رضى الله عنه (١) .

وكان أبو الأسود غاية فى الذكاء والحذق والعبقرية وكان من سادات التابعين وصحب على بن أبى طالب وشهد معه صفين ثم أقام فى البصرة واتصل بزياد فكان أثيرا لديه وتوفى عام ٦٩ هـ .

وبعد فسواء كان أبو الأسود وضع النحو بنفسه أم أن عليا وضع له الأساس فبنى هو عليه ، فإن لأبى الأسود فضلا عظيما خالدا فى هذا المجال ، وكان أبو الأسود يقيم بالبصرة ، فأخذ عنه تلاميذ كثيرون منهم : نصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ويحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل . وميمون الأقرن . وكلهم من البصرة . وعن هذه الطبقة أخذ الخليل ثم سيبويه الذى كان من أساتذته الخليل وعيسى بن عمر والأخفش الأكبر ، ولما كانت نشأة النحو فى البصرة على يد أبى الأسود وتلامذته فقد نشأ بصريا ودرس فى مساجدها ورجع علماؤه إلى اللهجات العربية حول البصرة ، ولم تنبغ الكوفة فى النحو إلا بعد العصر الأموى فظهرت فيه طبقة الكسائى والفراء ويونس ممن أخذوا عن أبى عمرو بن العلاء ومعاصريه من البصريين ؛ ويعتمد البصريون اعتمادا كبيرا على القواعد المستنبطة من القرآن والحديث وفصيح الشعر وما خالف ذلك يعتبر ساقطا ، أما الكوفيون فكانوا يدونون كل ماخالف لغة قريش من لغات القبائل الأخرى ويعتبرون ذلك فرعا من اللغة وكانوا يعتبرون ماخالف الفصيح شواذ لاتقبع فى الاستعمال .

ومهما يكن من شىء فإن بدء تدوين النحو والكتابة فيه وانتشار مذهب البصريين النحويين ودراسته إنما كان فى عهد بنى أمية .

---

(١) خزانة الأدب جـ ١ صـ ٢٥٦

وضع الشكل :

ونريد بالشكل : الحركات وهى علامات الضم والفتح والكسرة ، والسكون .

ولم يكن فى اللغة العربية فى العصر الجاهلى ولا فى صدر الإسلام شكل. فلما انتشر الإسلام واتسعت الفتوحات واختلط العرب بالعجم ، وخيف على القرآن الكريم واللسان العربى من آثار اللحن ، وضع النحو ، فكان عملا جليلا من أبى الأسود .

ولكن النحو لم يصد هذا السيل المتدفق وتلك العدوى المفسدة ، لأن فائدته اقتصرت على الدارسين والباحثين والمتعلمين فقط ، أما أكثر الناس وجمهورهم فلم يكن يعصمهم من اللحن عاصم واحتيج إلى أمر أكثر من النحو فائدة وأسرع حفظا لألسنة الناس من الخطأ فى قراءة القرآن الكريم .

لذلك كلف زياد والى البصرة من قبل معاوية أبا الأسود الدؤلى أن يضع طريقة لإصلاح اللسان لأن الحمراء (١) قد كثرت وأفسدت من ألسنة العرب ، قال زياد لأبى الأسود : فلو وضعت لنا شيئا يصلح به الناس كلامهم ويعربون به كتاب الله ، فقال أبو الأسود أو أزيد على المصحف شيئا لم يزده السلف !! فقال زياد لقد كتب عثمان المصاحف وما كانت مكتوبة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما من شىء تعلمه وفيه صلاح للمسلمين إلا وهو خير كله ، فأبى أبو الأسود وقال: أولى بذلك غيرى . وأحب زياد أن يحمل أبا الأسود وأن يحفزه إلى العمل فأرصد له فى طريقه من يرفع صوته بالقرآن ويلحن فيه ففعل الرجل وقرأ (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر إن الله برىء من المشركين ورسوله (بكسر اللام)

---

(١) هم الأعجام .

فحزن لذلك أبو الأسود وعاد من فوره إلى زياد وقال له: لقد نظرت فرأيت أن من الخير أن أجيبك إلى ماتطلب فابغنى كاتبا فأرسل إليه زياد ثلاثين كاتبا اختارهم فاختار منهم أبو الأسود أفضلهم وقال له: خذ صبغاً أحمر فإذا رأيتنى فتحت شفتى بالحرف فانقط واحدة فوقه وإذا كسرت فانقط واحدة أسفله وإذا ضممت فاجعل النقط بين يدى الحرف فإذا أتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين وأخذ يملى ، والكاتب يكتب وهو يتفقده حتى أتم المصحف .

ولم يضع أبو الأسود علامة للسكون مكتفيا بأن إهمال الشكل هو السكون وانتشرت طريقة أبى الأسود ، وزاد فيها الناس علامة للتنوين فوضعوا عليه نقطتين واحدة فوق واحدة ، وزاد أهل المدينة علامة التشديد فجعلوها قوسين ووضعوه فوق المشدد المفتوح وتحت المكسور وعن يسار المضموم ووضعوا نقطة الفتحة داخل القوس والكسرة تحت حدبته ، والضمة على شماله ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة وأبقوه على أصله مع الفتحة .

وزاد أهل البصرة السكون فجعلوا السكون جرة أقفيه فوق الحرف منفصلة عنه هكذا (ـ) .

ولم تتداول طريقة أبى الأسود إلا فى المصحف الشريف ، فلم تتجاوزه إلى غيره ثم جاء الخليل بن أحمد فى عهد الدولة العباسية فغير صور الشكل وجعله على هيئة قريبة مما هو عليه الآن .

وضع النقط :

كانت الحروف العربية خالية من النقط فالصاد والضاد ، والدال والذال ، والراء والزاى كل منها تكتب على صورة واحدة من النقط والإعجام.

فاحتيج إلى تمييز الحروف المتشابهة بعضها عن بعض فجعل بعضها

منقوطا بنقطة أو نقطتين أو ثلاث والبعض الآخر خاليا من النقط وذلك هو الإعجام ، فهو « تمييز الحروف المتشابهة بالنقط منعا للبس بينها » ، والإعجام من أعجمت الحرف إذا أزلت عجمته وبينته ولهذا تسمى حروف الهجاء العربية حروف المعجم ، وقد يخصص الإعجام بالحرف المنقوط إذا شاركه فى صورته الخطية حرف آخر مهمل فيقال خاء معجمة وحاء مهملة .

واختلف فى الزمن الذى وضع فيه الإعجام ، فالبعض يقولون إنه كان فى الجاهلية للأدلة الآتية :

١ — عثر على كتب قبل زمن عبد الملك بن مروان فيها إعجام بعض الحروف

٢ — روى عن ابن عباس أن عامر بن جدرة هو الذى وضع الإعجام .

٣ — على أنه لا يعقل أن تبقى الحروف العربية على صورة التباسها هذا إلى عهد بنى أمية فان ذلك يؤدى إلى الإفساد واللبس فى الكلام .

ويقول آخرون إنه وضع فى عهد معاوية .

ويقول سواهم إنه وضع فى عهد عبد الملك بن مروان ، ويروى أن الذى وضع الإعجام نصر بن عاصم وتبعه غيره فأتمه وانتشر بأمر الحجاج .

قيل أزعج الحجاج ما كان يحدث من لبس فى تمييز حروف القرآن (١)

---

(١) كانوا يقرأون « ختار كفور » « جبار كفور » ، ويحرفون أشاء إلى اساء ، وعزة إلى غرة ، و « إياه » فيجعلونها أباه .

وفى ابن خلكان :

« ففزع الحجاج إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الأحرف المختلفة علامات تميزها بعضها عن بعض ، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط افرادا وأزواجا وخالف بين أماكنها فعبر الناس بذلك أزمانا لا يكتبون إلا منقوطا » .

ففزع إلى كتابه ليضعوا علامات تميز الحروف المتشابهة بعضها عن بعض ، وندب لذلك نصر بن عاصم ويحي بن يعمر تلميذى أبى الأسود ، فنقطوا المصحف بصبغ من لون المداد الذى استعمل فى كتابة المصحف ، أما نقط الشكل فبقيت بالمداد الأحمر كما صنع أبو الأسود الدؤلى .

ويقال إن النقط كان موجودا من قديم ولكن الناس أهملوه فظهر التصحيف فى القرآن حتى فزع الحجاج إلى نصر بن عاصم فوضع الإعجام .

(٤) بدء تدوين العلوم

تمهيد :

فى العصر الجاهلى لم تدون علوم ولا ثقافات لأمية العرب وبداوتهم وبعدهم عن الحضارة والعلوم والمعرفة .

وفى عصر صدر الإسلام جمع القرآن الكريم أول مرة فى عهد أبى بكر ، فكان أول كتاب يكتب فى تاريخ العرب ، وشغلتهم الفتوحات وحرصهم على المحافظة على القرآن الكريم ودفع اللبس عنه عن التدوين كما صرفهم عنه قرب عهدهم من البداوة .

فلما جاء العصر الأموى دعا المسلمين إلى تدوين العلوم دواع كثيرة وساعدهم على ذلك :

١ — بدء تحضرهم والحضارة تستلزم العلم دائما .

٢ — قربهم من الأمم المتحضرة ذات الثقافات القديمة كالفرس والروم ووصول بعض آثار حكمتهم وفلسفتهم وتاريخهم إلى المسلمين مكتوبة .

٣ — وجود عناصر كثيرة — تعرف نظام التدوين — داخل الدولة الإسلامية ، كالسريان والفرس وسواهما من العناصر الرومانية والإغريقية .

٤ — انتشار الكتابة بينهم .

٥ — حاجتهم إلى حفظ الشريعة وكتابها وعلومها .

٦ — حاجتهم إلى المعارف القديمة سواء فى الطب أم فى الفلك أم فى غير ذلك من ألوان المعرفة .

٧ — حاجتهم إلى العلوم المختلفة فى حفظ نظام الملك وسياسته ، ولرغبتهم فى الوصول بدولتهم إلى حد بعيد ، من الحضارة والرقى والثقافة ، يحفزهم على ذلك القرآن الكريم ودينهم المجيد .

وكانت مراكز الثقافة الإسلامية فى هذا العصر كثيرة ؛ وأهمها المدينة ومكة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط .

وكان بظاهر الكوفة « الكناسة » وبظاهر البصرة « المربد » وهما سوقان أديبان وعلميان رائجان ، وكان المربد مألف الأشراف(١) ، وسنتكلم عليه بعد قليل .

وسنحدثك عن أهم ما دون فى العصر الأموى من العلوم :

١ — التفسير ، وقد رويت فيه روايات كثيرة عن رسول الله والصحابة رضوان الله عليهم وكانوا يتنافلون ذلك ، وأول تفسير دون هو تفسير ابن عباس رحمه الله المتوفى عام ٦٨ هـ فى الطائف وطبع فى مصر فى المطبعة الأميرية عام ١٢٩٠ فى سفر واحد ، وهو مجموع روايات دونها ابن عباس .

ويتصل بالتفسير قراءات القرآن وقد كثرت العناية بها فى العصر الأموى

---

(١) ٢١٠ / ٣ العقد ، وروى عن الجارود قال : عليكم بالمربد فانه يطرد الفكر ويجلو البصر ويجلب الخبر ويجمع بين ربيعة ومضر (٢٢٣ / ١ البيان والتبيين للجاحظ) .

الذى عاش فيه كثير من القراء كابن كثير م ١٢٠ هـ وعاصم م ١٢٨ هـ ويزيد ابن القعقاع م ١٣٢ هـ .

هذا وللشيعة تفسير قديم ينسبونه إلى محمد الباقر بن على بن الحسين ، ويقال: إن أول من دون فى التفسير مجاهد م ١٠٤ هـ وتفسيره غير موجود .

ولم ينضج هذا العلم إلا فى العصر العباسى .

٢ — الحديث : لم تكن تدون أحاديث رسول الله فى عهده ولا فى عهد أصحابه .

فلما كثرت الفتوحات والحروب الإسلامية وكثرت الثورات والأحزاب السياسية والفرق الدينية ووضع بعض الناس أحاديث على رسول الله ، ويقال إن المهلب بن أبى صفرة كان يضع الأحاديث ليشد بها أمر المسلمين ويضعف أمر الخوارج(١) .

أخذ المسلمون فى التمييز بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة ، واشتهر من المحدثين فى عصر بنى أمية : عاصم بن سليمان م ١٤١ هـ بالكوفة ، وخالد الحذاء مولى قريش المتوفى عام ١٤١ هـ ، وشعبة بن الحجاج م ١٦١ وسواهم.

وأمر عمر بن عبد العزيز ـ بعد أن استخار الله أربعين يوما ـ ابن شهاب الزهرى أو ابن جريج أو أبا بكر بن حزم بجمع الحديث وتدوينه ، فتم ذلك ، وبعث بنسخ منها إلى الأمصار .

٣ — النحو وقد سبق ذكر أمر وضعه وتدوينه وقد وضع الحضرمى كتابا فى الهمز .

٤ — الشعر الجاهلى ، أخذ الرواة والمؤدبون فى رواية الشعر الجاهلى وتدوين آثار منه ويقال إن أول من جمعه حماد الراوية ، ثم ألف فيه بعد ذلك المفضل كتابه « المفضليات » .

---

(١) ابن خلكان ٢ / ١٤٦

٥ — التاريخ ، ويقال إن معاوية استكتب رجلا من أهل اليمن اسمه عبيد بن شرية الجرهمى . بعض أخبار الأوائل فكتبها له . فكان هذا أول كتاب دون فى التاريخ وعنى الأمويون كذلك بعلم الأنساب .

٦ — الفقه ، وقد اشتغل به فى العصرى الأموى جلة الصحابة والتابعين، ويقال إن زيد بن على بن الحسين أملى كتابا فى الفقه وأنه أقدم كتاب فى هذا العلم فى الإسلام .

٧ — أما أصول الدين فيقال إن واصل بن عطاء ألف كتابا فى المرجئة وآخر فى التوبة وآخر فى معانى القرآن .

٨ — وألف يونس بن حبيب كتبا فى الأغانى دون فيها أصول الألحان عن معبد وابن سريج .

٩ — وترجموا فى الطب والكيمياء ، فقد رأى عبد الملك بن مروان وهو أعلم الأمويين بالأدب وأفقههم فى الدين أوراقا فى الكيمياء نقلها خالد بن يزيد (٨٩ هـ) فقال له أف لك أنسب الملوك وهمة الموالى ؟ وكان خالد قد عنى بالكيمياء والطب وقيل إنه درس كتبهما عن رجل من السريان يدعى مريانوس وأنه أمر اسطفان القديم بترجمة هذه الكتب إلى العربية .

وبعد فلم تكن العلوم المدونة فى هذا العصر إلا مجموعة روايات لا أثر للتحقيق والدرس والبحث فيها ، ولكن لا ضير من ذلك ، فقد كانت النواة الأولى لتدوين العلوم فى الإسلام .

وعلى الجملة فقد كان العرب ينظرون إلى تدوين العلوم نظرتهم إلى صناعة الحضر والموالى الصغيرة التى لا يصح لهم أن يحترفوها ، ويأنفون من صناعة التأليف لأنها صناعة الموالى على أيامهم وفى رأيهم .

(٥) الحياة الثقافية فى ظلال الأمويين

— ١ —

كانت تسير اللغة العربية والأدب العربى والثقافة الإسلامية حيثما تسير الفتوحات الإسلامية ، فحيثما يفتح المسلمون البلاد ، تقيم فيها حاميات من جند المسلمين ، وعلى هذه الحاميات قواد من العرب ، وبجانب الجيش أمراء يحكمون هذه البلاد ، وغالباً ما يكونون هم أمراء الجيوش ، وبجانبهم تنزل القبائل العربية المهاجرة تتكلم اللغة العربية ، وتذيع الأدب العربى ، وتأخذ لهجتها ولغتها العربية فى الذيوع بين سكان البلاد الأصليين ببواعث الجوار والاختلاط والسيادة والمصالح المشتركة ، ويقبل من يدخلون فى الإسلام من أهل البلاد الصميمين على تعلم لغة العرب ، والتأدب بآدابهم ، وحفظ أشعارهم ، وتعلم علومهم ، ومن ثم انتشرت اللغة وذاع الأدب فى كثير من البلاد المفتوحة ، وقامت مواطن الأدب فى المملكة الإسلامية المترامية الأطراف التى كانت تستظل بظل الأمويين ، وتتجه إليهم فى كل مناسبة ، وإلى عاصمتهم الكبرى دمشق عاصمة الإسلام وحاضرة خلافة المسلمين إبان حكم الأمويين .

— ٢ —

ومن الجدير بالذكر أن نقول : إن بيئة الحجاز شاع فيها الغناء وخاصة مكة والمدينة ، ولعل السبب فى ذلك كثرة أبناء الموالى فى الحجاز وكثرة الترف فى مدن الحجاز ، وكثرة الفراغ كذلك وظرف الحجازيين ورقتهم ، ويروى أنه كان لمغنى مكة مذهب فى الغناء ، ولمغنى المدينة مذهب كذلك ، وكان بين الفريقين مفاخرات .

واشتهرت بيئة الحجاز الأدبية بالغزل القصصى والعذرى ، وقل هنا الهجاء والمدح ، وكان من شعراء مكة : عمر والعرجى وابن قيس الرقيات

وأبو العباس الأعمى ، كما اشتهر فى المدينة الأحوص وإسماعيل بن يسار وإخوته ، وعبد الرحمن بن حسان ، وعبد الرحمن بن الحكم .

واشتهرت بوادى الحجاز ومثلها نجد بالغزل العذرى . .

وكانت الحجاز مهد المهاجرين والأنصار ، ورجال قريش وأشراف العرب وموطن الصحابة وسادة المسلمين ، وفيها زعماء البيت العلوى : الحسن والحسين ، وأبناء الخلفاء من أمثال: عبدالله بن عمرو ، وعبد الله بن أبى بكر ، وفيها أمثال عبد الله بن الزبير وسواهم من الطامحين فى الخلافة والمناوئين الأمويين ، وقد استعمل الأمويون مع المعارضة فى الحجاز سوط الرهبة والفزع، وبذروا هناك الأموال الضخمة ، فبعد أن كان عطاء الحسن أو الحسين فى عهد عمر خمسة آلاف درهم فى العام صار عطاء كل منهما فى عهد معاوية ألف ألف درهم .

وقد قضى يزيد على ثورة الحسين بمنتهى الشدة عام ٦١ هـ - ٦٨١ م ، وقتل الحسين فى كربلاء من أرض العراق ، واستباح يزيد حرمة المدينة وبطش بزعمائها فى موقعة الحرة المشهورة .

وحكم عبد الله بن الزبير الحجاز تسعة أعوام نودى فيها بلقب الخلافة ، وذلك من عام ٦٤ هـ - ٦٨٤ م حتى ٧٣ - ٦٩٢ م ، وحاصره الحجاج فى مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق وسلم ابن الزبير نفسه وقتل هو وأنصاره ، وكان له فضل كبير فى تعمير الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم وإسماعيل عام ٦٥ هـ

وكانت مجامع المدينة أرقى المجامع الثقافية فى العالم الإسلامى وأحفلها بالشعر الغنائى ، وكانت لها شهرة بالترف والغناء واللهو المباح .

أما بيئة العراق فقد ذاعت شهرتها بالشعر السياسى وكثرت فيها الأحزاب السياسية وثورات المعارضة التى قضى عليها الأميران : زياد بن أبى سفيان المتوفى عام ٥٣ هـ - ٦٧٣ م ، والحجاج بن يوسف الثقفى المتوفى عام ٩٣ هـ - ٧١٢م ، بمنتهى الشدة والقسوة والبطش .

أما الشام فكانت مقر الخلافة ومستقر الحزب الأموى الحاكم وأعوانه وجيوشه الجرارة من جند الشام .

وأما مصر فكان النفوذ فيها للبيت الأموى ، وتنازعها عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم ، ولكنها خلصت للأمويين وحدهم بعد قليل .

وقد امتازت العراق بنشاط الأحزاب السياسية فيه ، وكثرة الفرق الدينية ، واشتهرت مجامع العراق بالتبريز فى علوم اللغة ، وذلك :

١ — لشدة الاحتياج إليها فى العراق ، لفساد الملكات فيه بالاختلاط وكثرة عناصر الموالى بين ربوعه .

٢ — تعدد العناصر والثقافات والأفكار والأجناس فى العراق وامتزاجها .

٣ — كان العراق موطن السريانية ، وكان للسريان قواعد فى منظمة اللغة والنحو .

وكان بين البصرة والكوفة منافسة شديدة فى الأدب والعلم ، ولكن شهرة البصرة كانت باللغة وعلومها من نحو وغيره ، وذلك لتبحرها فى العمران ، ولقربها من البادية التى عرف أهلها بالفصاحة وصدق اللهجة .

أما الكوفة فقد ذهبت شهرتها بعلوم الشعر وروايته .

ومن أشهر مجامع الأدب والشعر فى العراق : مربد البصرة ، وكناسة الكوفة .

— ٣ —

وكانت أهم مواطن الأدب والثقافة فى عصر بنى أمية هى مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط :

١ — أما مكة : فهى البلد الحرام ، مولد رسول الله ، ومهبط الوحى ولما فتحها الرسول خلف فيها معاذ بن جبل يفقه أهلها ، وكان معاذ من

أفضل شباب الأنصار علما وحلماً ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ، وكان يعد من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، ومن أقرئهم للقرآن ، وممن جمع القرآن على عهد الرسول ، وقد روى عنه ابن عباس وابن عمر ومات عام ١٨ هـ فى الشام .

ولما خرج معاذ إلى الشام قال عمر : لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها فى الفقه والفتيا « طبقات ابن سعد ، مجلد ٢ » .

ومن علماء مكة : عبد الله بن عباس ، وكان يجلس فى البيت الحرام ، يعلم التفسير والحديث والفقه والأدب ، وهو وتلامذته يرجع إليهم الفضل فى شهرة مكة العلمية وتوفى عام ٦٨٨ م .

ومن علمائها : عطاء بن أبى رباح ، وطاوس بن كيسان ، ومجاهد بن جبير ، وثلاثتهم من الموالى ومن التابعين .

وكذلك كان من علمائها من التابعين ومن الموالى من الطبقة الخامسة بها : سفيان بن عيينة ، ومسلم بن خالد الزنجى وكانا من أساتذة الشافعى الذى ولد فى غزة ، وحملته أمه صغيرا إلى مكة ، فتعلم الأدب فى باديتها ، وحفظ الشعر ، وتعلم العربية ، ونشأ فى مدرستها يأخذ الحديث والفقه عن علمائها ، ولما قارب العشرين من عمره تحول إلى المدينة يتم دراسته فيها .

وكانت المجالس الأدبية كثيرة فى مكة بين الشعراء ، ولاسيما فى مواسم الحج ، كما كانت تعقد فى المسجد الحرام ، روى المبرد فى كامله (١) أن ابن عباس كان بالمسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبغين موردين ، حتى دخل فجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقالت : أنشدنا فأنشده رائيته المشهورة التى فتح بها عمر صفحة جديدة فى تاريخ الغزل ، ونقله من مظهره التقليدى إلى

---

(١) ١٤٤ و ١٤٥ جـ ٢ الكامل .

لون قصصى جديد كل الجدة عد عمر زعيمه وأبا نشأته ، وأخذ عمر ينشد :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح متهجر ؟

حتى أتى على آخرها ، فأقبل نافع على ابن عباس ، وقال له : يا ابن عباس إنا نضرب إليك أكباد الإبل . نسأل عن الحلال والحرام ، فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من قريش فينشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت (فيخزى) ، وأما بالعشى (فيخسر)

فقال له ابن عباس : ليس هكذا قال ، إنما قال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

فقال له نافع : ما أراك إلا قد حفظت البيت ، قال أجل بل إن شئت أن أنشدك القصيدة فعلت ، قال فإنى أشاء ، فأنشده القصيدة كلها .

٢ — وأما المدينة : فكانت لها شهرتها الأدبية ، وذوقها الحساس ، ونقدها اللماح ، من لدن الجاهلية — حتى كان النابغة يقول : « دخلت المدينة وفى شعرى عهدة ، وخرجت منها وأنا أشعر الناس » وجاء الإسلام وهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وكان له شعراء ينافحون عن دعوته ، ويذودون عن رسالته ، وعلى رأسهم حسان بن ثابت .

ويروى ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وما فى الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر . قيل له : وأنت يا أبا حمزة ؟ قال : وأنا . وابن سلام الجمحى حين يتحدث عن شعراء القرى العربية (مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين) يقول : أشعر هذه القرى قرية المدينة .

وكان حسان بن ثابت ينشد الشعر فى هجاء قريش خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقول له : قل وروح القدس معك ، والله لشعرك عليهم أشد من وقع الحسام فى غبش الظلام . ويروى أن عمر مر ذات يوم بحسان ،

وهو ينشد شعره فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان دعنى من هذا ياعمر ، فوالله لقد كنت أنشد فى هذا المكان من هو خير منك فلا يغير على شيئا .

وتتابعت الأحداث على المسلمين وقامت دولة الأمويين ، فكانت المدينة تحمل دائما لواء المعارضة للحاكمين ، وعاد شعراؤها إلى ماكانوا عليه أيام الجاهلية من هجاء لاذع ، وتنابز وتقاذف ، حتى كان عبد الرحمن بن حسان يهجو معاوية هجاء قبيحا حين استلحق زيادا ، واستفحل الشر بينه وبين عبد الرحمن بن الحكم فى المدينة ، فتهاجيا وتفاحشا .

وكان للشعراء فيها مجالس ، يتناشدون فيها الشعر وينقدونه ، ويستعرضون منه مايعيبون من رديئه ، ويستحسنون من جيده . يروى أن عمر بن أبى ربيعة قدم المدينة ، فاجتمع به الأحوص ونصيب وكثير ، فتحدثوا مليا وأفاضوا فى ذكر الشعراء ، فأقبل كثير على عمر ، فقال له : إنك لشاعر لولا أنك تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشبب بنفسك ، أخبرنى ياهذا عن قولك :

ثم اسبطرت تشتد فى أثرى تسأل أهل الطواف عن عمر (١)

أراك لو وصفت بهذا هرة أهلك ألم تكن قد قبحت وأسأت وقلت الهجر ، إنما توصف الحرة بالحياء والإباء والبخل والامتناع . . ألا قلت كما قال الأحوص :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدور
وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى وإن لم يزر لا بد أن سيزور
لقد منعت معروفها أم جعفر وإنى إلى معروفها لفقير

فانكسرت نخوة عمر ودخلت الأحوص الخيلاء. فأقبل كثير على

---

(١) اسبطرت : أسرعت . تشتد : تعدو .

الأحوص وقال له : لقد أبطل آخرك أولك ، أخبرنى عن قولك :

فان تصلى أصلك وإن تبينى بهجر بعد وصلك لا أبالى

أما الله لو كنت حرا لباليت ولو كسر أنفك . ألا قلت كما قال نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب

فانكسر الأحوص ودخلت نصيبا زهوة ، فلما رأى أن الكبرياء قد دخلته التفت كثير إليه وقال : وأنت يابن السوداء أخبرنى عن قولك :

أهيم بدعد ماحييت فان أمت فواكبدى من ذا يهيم بعدى ؟ (١)

أهمك ويحك من يهيم بها بعدك ؟ فلما أمسك كثير أقبل عليه عمر ، فقال له : قد أنصتنا لك فاسمع ، أخبرنى عن تخيرك لنفسك وتخيرك لمن تحب حيث تقول :

ألا ليتنا ياعز من غير ريبة بعيران نرعى فى الخلاء ونعزب (٢)

كلانا به عر فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدى وأجرب (٣)

إذا ماوردنا منهلا صاح أهله علينا فما ننفك نرمى ونضرب

وددت وبيت الله أنك بكرة هجان ، وأنى مصعب ثم نهرب (٤)

تكون بغيرى ذى غنى فيضيعنا فلا هو برعانا ولا نحن نطلب

فقد تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمى والطرد والمسخ فأى مكروه لم تتمن لها ولنفسك ؟ .

وهكذا كانت المدينة تعج بالشعراء الذين يقولون فلا يبالون من سطوة

---

(١) أنشد البيت فى مجلس عبد الملك فنقده وقال : الجيد أن يقول :

أهيم بدعد ماحييت فان أمت فلا صلحت دعد لدى خلة بعدى

(٢) نعزب : نبعد فى المرعى .

(٣) العر بالضم والفتح : الجرب .

(٤) البكرة الناقة الفتية ، ناقة هجان بيضاء اللون كريمة . المصعب الفحل الذى يترك فلا يركب .

حاكم ولا يرهبون قوة ظالم ، وبالنقاد الذين ينقدون فيحسنون . . ومن هنا كانت عيناثرة بالشعر ، ومنبعا فياضا بالأدب ، لايغيض ماؤه ، ولا يحول رواؤه .

وكانت المدينة من أهم مراكز الثقافة العربية الإسلامية منذ الهجرة ، فقد هاجر إليها النبي صلى الله عليه وسلم وعلم بها أكثر تعاليم الإسلام، وكانت مقام كثير من الصحابة الذين تلقوا عن النبي ورووا أحاديثه ، وكان بها كثير من الموالى الذين أتى بهم أسرى من الممالك المفتوحة وأسلموا وتلقوا العلم من الصحابة وقد اشتهرت المدينة بالعلوم الدينية من تفسير للقرآن ومدارسة للحديث واستنباط الأحكام منهما ، واشتهر من علمائها زيد بن ثابت (١) ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب من الصحابة ، ثم سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير بن العوام (٢٣ - ٩٤ هـ) من التابعين ، ومن عندهم كان الإمام مالك ابن أنس صاحب المذهب المشهور .

ومن علمائها: صالح بن كيسان وكان يؤدب عمر بن عبد العزيز بن مروان.. ومن علمائها كذلك : ابن شهاب الزهرى القرشى (٥١ - ١٢٤ هـ) .

ولم تقتصر المدينة على الشهرة فى المسائل الدينية بل نبغ فيها كثير من رجال التاريخ كمحمد بن إسحاق والواقدى (٢) ، وهما يعدان من أشهر المصادر الأولى للسير والمغازى ، وقد ساعد المدينة على بلوغها هذه المنزلة أنها كانت مقر الخلافة فى عهد الراشدين ومجتمع الموالى الذين سبوا من مختلف البلاد الإسلامية وأغلبهم من عناصر متحضرة . وممن برعوا فى النادرة والفكاهة فى المدينة : الغاضرى وأشعب ، وفى الغناء معبد .

---

(١) يروى أنه ماكان عمر ولا عثمان يقدمان عليه أحدا فى القضاء والفتيا والفرائض والقراءات ، وظل كذلك فى عهد على ومعاوية وتوفى عام ٤٥ هـ ، وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول . هكذا يفعل بالعلماء .

(٢) توفى عام ١٠٧ هـ وله « أخبار مكة » و « فتوح الشام » .

٣ — وأما البصرة والكوفة : فهما أشهر مدن العراق ، والعراق قطر شهر من قديم بالحضارة ا تداولت عليه أمم كثيرة متمدنة وتركت فيه آثارها العلمية والفنية ، وهو إلى ذلك قطر غنى خصب كثرت مياهه وخيراته ، وقد أسست هاتان المدينتان فى عهد عمر بن الخطاب(١) ونزل بهما كثير من الصحابة واختلط فيها العرب بالموالى بالتزاوج والسكنى ، وأصبحتا بعد قليل من أكبر مراكز الحياة العلمية ، فكان فى الكوفة عبد الله بن مسعود من الصحابة وشريح والشعبى وسعيد بن جبير من التابعين ، ثم أبو حنيفة النعمان إمام المذهب المنسوب إليه ، واشتهر من علماء البصرة أبو موسى الأشعرى ٧٠ هـ وأنس بن مالك من الصحابة م ٩٢ هـ ، ثم الحسن البصرى م ١١٠ هـ وابن سيرين م ١١٠ هـ من التابعين.. واشتهرت هاتان المدينتان أيضا بالنبوغ فى علوم النحو واللغة، وتفوقت البصرة فى ذلك ، فكان من علمائها أبو عمرو ابن العلاء . والخليل بن أحمد ، والأصمعى ، واشتهر من الكوفيين الكسائى، وكان بين المدينتين تنافس فى اللغة والأدب والصرف وعلم الكلام ، ولكل علماء يتعصبون لمذهبهم وينصرونه بحججهم ، وكان الكوفيون على الجملة ، أكثر استعمالا للقياس ، والبصريون أكثر إيثارا للسماع ، وكان يعيش فى البصرة الفرزدق وجرير، وفى الكوفة الكميت بن زيد الأسدى وذو الرمة .

٤ — وأما الفسطاط : فكانت فى مقدمة المدن الإسلامية التى ازدهرت فيها علوم العرب الدينية واللغوية واختطت عام ٢١ هـ وأول من اشتهر بها من العلماء : عبد الله بن عمرو بن العاص أحد كبار الصحابة ، ثم عبد الله بن لهيعة (٩٦ - ١٦٠ هـ) وهو من أكبر المصادر الذين يروى عنهم كثير من الأحداث التاريخية فى فتح العرب لمصر، ثم الليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥ هـ) أحد الأئمة الذين يقرنون بمالك وأبى حنيفة لولا أن تلاميذه

---

(١) اختطت البصرة عام ١٤ هـ ، ولم تعمر إلا عام ١٧ هـ ، واختطت الكوفة فى هذا العام ١٧ هـ .

أضاعوا مذهبه ، ثم نزل بها الإمام الشافعي ودرس فيها ووضع مذهبه الجديد. ومن علمائها كذلك نافع م ١٢٠ هـ ، هذا وقد وفد على الفسطاط من الشعراء: جميل وكثير ونصيب والرقيات وأيمن بن خزيم، وأقام فيها أبو العيال الهذلي م ٤٦ هـ ، وسواهم من الشعراء .

وقد دخلت مصر في ظلال الحكم الإسلامي عام ٢٠ - ٦٤٠ م بفضل عمرو بن العاص (٤٧ ق هـ - ٤٣ هـ ٦٦٣ م) ، وقد فرغ ابنه عبدالله بن عمرو ابن العاص (٣٦ ق هـ - ٦٨ هـ : ٦٨٨ م) للعلم والإرشاد وتهذيب الناس .

وهاجر إلى مصر من الصحابة والتابعين الكثير ، وهاجر كذلك إليها الكثير من القبائل العربية .

وقد حكم مصر أثناء خلافة الأمويين واحد وعشرون والياً ، اثنان منهم وليا الحكم مرتين وواحد وليه ثلاث مرات ، وحكم أحدهم البلاد نائبا عن ابن الزبير ولم يلبث أن عزله الخليفة مروان ، وكان من هؤلاء من بيت بني أمية : عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) ، وعبد الله بن عبد الملك الذي وليها عام ٨٦ - ٧٠٥ م وقد أصدر عام ٨٦ هـ أمرا باستعمال اللغة العربية في المعاملات الرسمية ، وبذلك أخذ أهل مصر يقبلون على تعلم العربية ، وينصرفون عن اليونانية والقبطية تدريجا . وفي عام ٨٦ هـ حولت دواوين مصر إلى العربية ، وكان آخر الأمراء عليها عبدالله بن عبدالملك بن مروان الذي ولي مصر عام ١٣٢ هـ . وقد وليها الوليد بن رفاعة الفهمي القيسي قبل عام ١٩ هـ .

ومن علماء مصر في هذا العهد ، أبو عبيدة المغافري ، ونافع المتوفى عام ١٢٠ هـ، وقد بعثه عمر بن عبد العزيز ليعلم أهلها السنن، وعبد الله بن عمرو بن العاص المتوفى عام ٦٨ هـ ٦٨٨ م، والليث بن سعد (٩٤-١٧٥ هـ) وابن لهيعة (٩٦ - ١٦ هـ)

ووفد على مصر فى عهد عبد العزيز بن مروان : نصيب وجميل والليث وكثير وابن قيس الرقيات وأيمن بن خزيم .

٥ — وأما دمشق : فهى عاصمة الأمويين ومنارة العلم والثقافة والأدب ومقصد الناس من كل حـــدب وصوب ، وبها كثير من العلماء والأدباء والشعراء ، فوق من كانوا يفدون إليها من كل جهة رغبة فى المعرفة ، أو حرصا على مال الخلفاء والأمراء .

وممن اشتهر فيها من المسيحيين يوحنا الدمشق .

وقد أخذ خالد بن يزيد بن معاوية صنعة الطب والكيمياء والنجوم عن مسيحيي الشام وتوفى عام ٨٩ هـ . ويقول الجاحظ فيه : كان خطيبا شاعرا كثير الأدب حكيما ، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرب أهل الحكمة : وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات (١) .

وكان سالم مولى هشام وصاحب ديوانه يعرف اليونانية ويترجم بعض رسائل أرسطو .

وكان عدى بن الرقاع يعيش فى الشام .

وكان فى الشام : معاذ وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وعمر بن عبد العزيز والأوزاعى ورجاء بن حيوة وسواهم .

وقد أخذت اللغة القرشية تسود الشام بعد الفتح الإسلامى بعد أن كانت السيادة للغة الآرامية أو اليونانية . (٢) .

---

(١) ٩٣ رسائل الجاحظ نشر السندوبى .

(٢) مصادر البحث :

دائرة المعارف الإسلامية فى الكلام على : مصر ، الفسطاط ، البصرة ، =

(٦) سوق المربد وأثره الأدبى

— ١ —

لمربد (١) البصرة أثر غـــير قليل فى اللغة والأدب والشعر فى العصر الأ وى ، ولا بأس بالإطالة هنا فى حديثه .

= الكوفة ، الشام ، دمشق الخ . معجم البلدان لياقوت ـ خطط المقريزى . عيون الأخبار لابن قتيبة ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ـ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ـ فجر الإســـلام الجزء الأول ـ الحضارة الإسلامية لمحمد كرد على ـ النقائض ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ـ قصة الأدب فى مصر، وهما للخفاجى ـ محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية الجزء الثانى للشيخ محمد الخضرى ـ أخبار مكة للأزرقى ـ مروج الذهب للمسعودى ـ خطط الكوفة لماسينيون شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسى بتعليق الخفاجى وعبد الله عبد الجبار ـ قصة الأدب فى الحجاز لعبد الله عبد الجبار والخفاجى .

(١) هو على وزن منبر ومقود من ربد بالمكان إذا أقام فيه ، وفى الحديث أن موضع مسجد رسول الله كان مربدا ليتيمين فى حجر معاذ بن عفراء فجعله للمسلمين فبناه الرسول مسجداً ، وفى شعر الفرزدق :

عشية ســـال المربدان كلاهما عجاجة موت بالسيوف الصوارم

ثناه مجازا لما يتصل به من مجاورة ، وقد يجوز أن يكون سمى كل واحد من جانبيه مربدا ، وقال الجوهرى: عنى به سكة المربد بالبصرة ، والسكة التى تليها من ناحية بنى تميم ، جعلهما المربدين ، كما يقال الأحوصان وهما الأحوص وعوف بن الأحوص . هذا نص تفسير البيت من اللسان ص ١٥١ ج ٤ .. ويلاحظ أن فى العبارة خطأ مطبعيا فى أول سطر من الصفحة المذكورة ، حيث وردت العبارة هكذا : سماه ، وصحتها : ثناه .

هو ضاحية من ضواحى البصرة ، فى الجهة الغربية منها مما يلى البادية بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال . كان سوقا عامة ، قال الأصمعى : « المربد كل شىء حبست به الإبل والغنم . وبه سمى مربد البصرة (١) ، وإنما كان موضع سوق الإبل وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة إليها . ويظهر أنه نشأ سوقاً للإبل ، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شؤونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه (٢) .

وفى اللسان — فى مادة ب ص ر — وقال ابن شميل : البصرة أرض كأنها جبل من جص وهى التى بنيت بالمربد وإنما سميت البصرة بصرة بها ، فكأن المربد كان موجوداً فى الجاهلية .

وأخبار المربد فى الجاهلية معدومة مما يدل على قلة خطره إذ ذاك ، إنما كان له الخطر بعد أن فتح العرب العراق ، وسكنوه وخططوا البصرة ، فقد أنشئت فيه المساكن بعد أن كان مربداً للإبل فقط ، واتصلت العمارة بينه وبين البصرة حتى قالوا فيه « العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة » . وقد كان المربد فى الإسلام — كما يقول أحمد أمين — صورة معدلة لعكاظ الذى كان سوقاً للتجارة ، وكان سوقاً للدعوات الساسية ، وكان سوقاً للآداب — جاء فى كتاب « ما يعول عليه » : المربد كل موضع حبست فيه الإبل . ومنه سمى مربد البصرة لاجتماع الناس وحبسهم النعم فيه — كان مجتمع العرب من

---

(١) ١٥٠ و ١٥١ ج ٤ لسان العرب ، ومربد الإبل : محبسها ، وقال ابن الأعرابى وأبو عبيدة : المربد فضاء وراء البيت يرتفق به ، ومربد التمر جرينه الذى يوضع فيه (راجع ص ٥١ ج ٤ لسان العرب) وهو الأندر بلغة أهل الشام ، والبيدر بلغة أهل العراق (١٥١ ج ٤ لسان العرب) وأهل المدينة يسمون الموضع الذى يجفف فيه التمر مربدا وهو المسطح والجرين فى لغة أهل نجد (١٥١ ج ٤ اللسان ، و ٢٢٦ ج ١ صحاح الجوهرى) وهو الجرن بلغة أهل مصر .

(٢) أحمد أمين — مجلة الثقافة المصرية .

الأقطار ، يتناشدون فيه الأشعار : ويبيعون ويشترون وهو « كسوق عكاظ » وقال العيني : « مربد البصرة ، محلة عظيمة فيها (أى فى البصرة) من جهة البرية ، كان يجتمع العرب فيها من الأقطار ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون » .

كانت أهم أخبار المربد ما كان بعد قتل عثمان بن عفان من سير عائشة أم المؤمنين إلى البصرة ، فانها نزلت بفناء البصرة ورأت أن تبقى خارجها حتى ترسل إلى أهلها تدعوهم بدعوتها ، وهى المطالبة بدم عثمان وكان معها طلحة والزبير ، ثم سارت إلى المربد معهما وخرج إليها من قبل دعوتها ، وخرج إلى المربد كذلك عامل على على البصرة ، وهو عثمان بن حنيف ومن يؤيده ، وأصبح المربد وهو يموج بمن أتى الحجاز ومن خرج من البصرة ، حتى ضاق المربد بمن فيه . وأصبح المربد مجالا للخطباء ممن يؤيد عائشة ومن معها ، ومن يؤيد عليا وعامله . وأصحاب عائشة فى ميمنة المربد وأصحاب على فى ميسرته ، ويخطب فى المربد طلحة ويمدح عثمان بن عفان ويعظم ماجنى عليه ويدعو إلى الطلب بدمه ، ويخطب الزبير كذلك وتخطب عائشة أم المؤمنين بصوتها الجهورى ويؤيدهم من فى ميمنة المربد ويقولون : صدقوا وبروا وقالوا الحق وأمروا بالحق ، ويؤثر قول عائشة فى أهل الميسرة فينحاز بعضهم إليها ويبقى الآخرون على رأيهم وعلى رأسهم عثمان ابن حنيف ، ويخطبون كذلك يبينون خطأ هذه الدعوة وأن طلحة والزبير بايعا عليا فلاحق لهما فى الخروج عليه ويؤيدهم أبو الأسود الدؤلى وأمثاله ، وهكذا انتقل المربد إلى مجمع حافل كبير .

— ٢ —

وكان العصر الأموى أزهى عصور المربد ، ذلك لأن العرب كانوا قد هدءوا من الفتح واستقرت الممالك فى أيديهم ، وأصبح العراق مقصد العرب يؤمه من أراد الغنى وخاصة البصرة ، جاء فى الطبرى : « أن عمر بن الخطاب

سأل أنس بن حجة وكان رسولا إلى عمر من العراق فقال له عمر : كيف رأيت المسلمين ؟ فقال انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة ، فرغب الناس فى البصرة فأتوها ، وكان المربد باب البصرة يمر به من أرادها من البادية ، ويمر به من خرج من البصرة إلى البادية ، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ويقصده سكان البصرة يستنشقون منه هواء البادية ، فكان ملتقى العرب ، وكانوا يحيون فيه حياة تشبه حياة الجاهلية : من مفاخرة بالأنساب وتعاظم بالكرم والشجاعة ، وذكر لما كان بين القبائل من إحن ، فالفرزدق يقف فى المربد ينهب أمواله فعل كرماء الجاهلية حكى فى النقائض أن « زياد بن أبي سفيان ، كان ينهى أن ينهب أحد مال نفسه ، وأن الفرزدق أنهب أمواله بالمربد ، وذلك أن أباه بعث معه إبلا ليبيعها فباعها وأخذ ثمنها فعقد عليه مطرف خز كان عليه ، فقال قائل : لشد ماعقدت على دراهمك هذه ، أمان والله لو كان غالب مافعل هذا الفعل ، فحلها ثم أنهبها ، وقال : من أخذ شيئا فهو له وبلغ ذلك زياداً فبالغ فى طلبه فهرب ، فلم يزل فى هربه يطوف فى القبائل والبلاد حتى مات زياد .

وأراد عرب البصرة أن يكون لهم من مربد البصرة ما كان لهم فى سوق عكاظ فى الحجاز فبلغوا غايتهم ، وأحيوا العصبية الجاهلية وساعد الخلفاء الأمويون أنفسهم على إحيائها لما كانوا يستفيدون منها سياسيا ، فرأينا ظل ذلك فى الأدب والشعر ، ورأينا المربد فى العصر الأموى يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون ، ويعلى كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسى ، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية .

ومن أجل هذا خلف المربد أجل شعر من هـــذا النوع ، فكثير من نقائض جرير والفرزدق والأخطل كانت أثرا من آثار المربد ، قيلت فيه وصدرت عما كان بينهم من منافرة وخصومة ، يروى الأغانى أن جريرا

والفرزدق اجتمعا فى المربد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما الحجاج والأخطل وكعب بن جعيل .

كان كل من جرير والفرزدق يلبس لباساً خاصا ويخرج إلى المربد ويقول قصائده فى الفخر والهجاء ، والرواة يحملون إلى كل منهما ماقاله الآخر فيرد عليه قال أبو عبيدة : « وقف جرير بالمربد وقد لبس درعا وسلاحا تاما ، وركب فرساً أعاره إياه أبو جهضم عباد بن حصين ، فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشى وسوارا وقام فى مقبرة بنى حصن ينشد بجرير والناس يسمعون فيما بينهما بأشعارهما ، فلما بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال :

عجبت لراعى الضأن فى حطمية (١) وفى الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

ولما بلغ جرير أن الفرزدق فى ثياب وشى قال :

لبست سلاحى والفرزدق لعبة عليه وشاحا كرج(٢) وجلاجله(٢)

وما زالا كذلك يتهاجيان ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة حتى ضج والى البصرة فهدم منازلهما بالمربد فقال جرير :

فما فى كتاب الله تهديم دارنا بتهديم ماخور خبيث مداخله

وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس يسمعون منه ، جاء فى الأغانى : « كان لراعى الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة » .

---

(١) هى الدرع منسوبة إلى حطمة بن محارب وهو رجل كان يصنع الدروع .

(٢) هو مايتخذ من الدمى مثل المهر يلعب عليه وهو لفظ دخيل لاأصل له فى العربية .

(٣) ١٣٢ جـ ٤ الأغانى .

ومما يروى عن الفرزدق فى المبرد ماحدث به الأصمعى ، قال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : لقيت الفرزدق فى المربد ، فقلت : ياأبا فراس ، أحدثت شيئا ؟ فقال : خذ ، ثم أنشدنى :

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس

فقلت : سبحان الله هذا للمتلمس ، فقال : اكتمها ، فلضوال الشعر أحب إلىّ من ضوالّ الإبل .

ولا شك أن المبرد كان له آثار كبيرة فى الأدب فى عصر بنى أمية .

وقد بقى المبرد فى العصر العباسى ، ولكنه كان يؤدى غرضا آخر غير الذى كان يؤديه فى العهد الأموى ، غرضا اقتصاديا لاغرضا أدبيا .

ثم دمره الزنج فى ثورتهم السياسية التى بدأت عام ٢٥٥ هـ .

(٧) الموالى فى خدمة الثقافة واللغة

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية فى عهد بنى أمية ، فشملت الأندلس وشمال أفريقية والشام وجزيرة العرب والعراق وفارس وجزءاً من الهند ، كما وصلت الفتوحات الإسلامية إلى سوى ذلك من النواحى والبلاد .

وخضعت هذه الأمم كلها للحكم العربى ، سواء منها الدول ذات الحضارة أو الدول التى لم تصطبغ بصبغتها ، فوجدوا فى الإسلام العدل والأمن والسلام ، وأخذوا يتعلمون اللغة العربية لأنها لغة الدين والقرآن ولحاجتهم إليها فى التفاهم مع الولاة والحكام والعمال ، وهى فوق ذلك اللغة الأولى فى العالم كله آنذاك ، فهى لغة الثقافة والآداب والعلوم والفنون والسياسة .

وكان لبعد الموالى عن سياسة الدولة وشئونها العامة بإقصاء الأمويين

لهم ، كما كان لانحدارهم من عناصر متحضرة أخذت بقسط من الثقافة والمدنية والمعرفة ، أثر كبير فى تفوقهم فى ميدان العلم والأدب .

فجلسوا فى مجالس الصحابة يدرسون القرآن وعلومه والحديث وروايته والتاريخ وأيامه ومفاخر العرب ومآثرهم ، كما جلسوا فى مجالس الأدباء والشعراء والرواة يثقفون أنفسهم بالشعر ويتأدبون بروايته وبنظمه أحيانا .

فكان من الموالى الشعراء كزياد الأعجم وإسماعيل بن سيار وأخيه موسى شهوات وبشار .

وكان منهم العلماء فى علوم الدين والشريعة كنافع وربيعة الرأى شيخ الإمام مالك وسليمان بن يسار وكان من أعلم الناس وأفقههم وكانوا بالمدينة ، ومنهم مجاهد وعكرمة وعطاء بمكة .

والحسن بن يسار والحسن البصرى وابن سيرين بالبصرة ، ويزيد بن حبيب شيخ الليث بن سعد فى مصر . ومكحول بن عبد الله فى الشام .

إلى غير هؤلاء من الأعلام فى الدين والشريعة والحديث والتفسير واللغة من الموالى فى عصر بنى أمية .

ولما كانت اللغة القبطية ولغة الروم وآدابهما وثقافتهما مازال باقية فى مصر والشام . واللغة الفارسية ما تزال ذائعة فى بلاد فارس وبعض جهات من العراق .

فقد كانت دواوين الدولة ومصالحها الحكومية وأعمالها تكتب فى مصر باللغة القبطية وفى الشام باللغة الرومية وفى العراق وفارس بالفارسية ، وكان لابد من الاستعانة بالموالى فى هذه الدواوين للكتابة فيها ، وظل الأمر على ذلك مدة حتى حولت دواوين (١) العراق إلى اللغة العربية بأمر

---

(١) الديوان الكتاب الذى يكتب فيه أهل العطية ، المرتبات ، ثم نقل إلى =

الحجاج ودواوين الشام فى عهد عبد الملك ودواوين مصر فى عهد الوليد ابن عبد الملك وبذلك انفسح المجال للعرب فى هذه الناحية أيضا .

وكان الذى نقل دواوين الخراج فى العراق إلى العربيـــة صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج وكان صالح من الموالى . أما دواوين الشام فكانت بالرومية وكان يتولى أمورها سرجون بن منصور من عهد معاوية إلى أيام عبد الملك ثم نقلت إلى العربية على يد سليمان بن منصور . أما ديوان مصر فقدكان بالقبطية وحول فى عهد الوليد بن عبد الملك إلى العربية على يد عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر وبذلك خلصت أعمال الدولة للعرب إذ كان ديوان الجند والرسائل وجميع مرافق الدولة عربية ماعدا ديوان الخراج فلما حول صارت سائر أعمال الدولة مصطبغة بالصبغة العربية الخالصة .

وبرز الموالى فى علوم اللغة والأدب وأقبلوا على الثقافة إقبالا شديدا فى هذا العصر .

(٨) اتصال الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية

١ — اتصل العرب فى العصر الأموى بالثقافة اليونانية والرومانية فى مصر والشام وشمال إفريقية ، وكان الأدب فى مصر والشام آنذاك متمثلا فى أدب العصر الإسكندرى الرومانى الذى بدأ باستيلاء الرومان على أثينا ثم على الإسكندرية من أيدى البطالسة ، ثم فتحهم لشواطىء الشام وتغلغلهم فى البلاد . وكانت الإسكندرية مركزا ثقافيا إغريقيا كبيرا فى حوض البحر

= المكان الذى يجتمع فيه الكتاب لذلك، وأول من وضعه عمر فهو أول من دون الدواوين فى الإسلام، وكانت مقصورة على الضرورى منها لمكان البداوة من الأمة .

الأبيض المتوسط ، منذ أسسها الإسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق م ؛ وازدهرت الثقافة الإغريقية فيها فى عصر البطالسة الإغريقيين فى أصلهم ؛ وإذا كان الأدب فى عهدهم صورة الأدب فى العصر الإسكندرى اليونانى ، فإن الأدب فى ظلال حكم الرومان فى مصر والشام كان يمثل نزعة الأفلاطونية الجديدة التى ظهرت فى الأسكندرية متأثرة بنزعة الوثنية اليونانية التى خالطها شىء من التوحيد الذى عرف فى الاسكندرية عن طريق العبريين وكتابهم المقدس ، وقد كان فى الإسكندرية جماعات كثيرة منهم مع النازحين إليها من بلاد اليونان . وكذلك كانت السيادة فى الشـــمال الإفريقى للآداب الرومانية التى هى شرح أو تلخيص لآداب الإغريقيين القدماء .

وفى العراق وفارس التقت اللغة العربية بالأدب الفارسى القديم الذى تأثر بنزعات كثيرة، تأثر بالأدب الهندى ، وبالأدب الإغريقى كذلك عن طريق مدرسة جنديسابور التى أنشأها سابور بن أردشير فى القرن الثالث الميلادى وصارت مركزاً كبيراً للثقافة اليونانية ، ومركزاً للنازحين من اليونان وسهول آسيا الصغرى ، وفى عهد كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) هاجرت جماعات كثيرة من الإغريق من آسيا الصغرى إلى جنديسابور أيضا ، فرارا بوثنيتها من اضطهاد الأمبراطور جوستنيان الذى حاول إجبار سكان الأمبراطورية على اعتناق المسيحية ، ففروا بعقائدهم إلى إلى جنديسابور التى اختلطت فيها الآداب الفارسية بالآداب الهندية والإغريقية .

وقد وعى العرب الكثير من فنون هذه الآداب عن طريق الترجمة التى قام بها السريان أو أبناء الموالى الذين اختلطوا بالعرب فى السكنى والتجارة ومختلف جوانب الحياة .

٢ — وأخذت الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة بوادها المختلفة من علوم دين وعلوم أدب ؛ من حديث وتفسير وفقه وتاريخ ونحو ولغة وأدب

وشعر وغيرها (١) تختلط بالثقافات الوافدة ، وأخذ الأدب يستفيد من هذه الثقافات والآداب كلها على أيدى الموالى الفرس وبخاصة فى العراق وخوزستان ، مما ظهر جليا . فى آخر العصر الأموى .

ويذهب البعض إلى أن أصول النحو العربى اقتبست من أصول النحو السريانى التى وضعها يعقوب الرهاوى (٦٠٤ م) ، وهو رأى واه فإن النحو العربى كان جديدا محضا لاأثر فيه لأحد ولا لأمة .

وكان التقاء الأدب العربى بالأدب الفارسى القديم عن طريق مدرسة جنديسابور حدثا كبيرا حيث بدأ الموالى الأعاجم عملية مزج كبيرة بين الأخيلة الشعرية والحكم والقصص فى الأدبين .

وكان العرب يمثلون مظهرا حضاريا متقدما ، فأنشأوا المكتبات والمدن والمتنزهات والمدارس والمنتديات العلمية والأدبية وغيرها ، وكان عبد الحكم الجمحى فى العصر الأموى قد جعل فى بيته دفاتر أباح لزواره أن يقرأوا فيها (٢) .

---

(١) فى التفسير كان ابن عباس (٦٨ هـ) ومجاهد (١٠٤ هـ) قد بدأ التأليف فيه ، وفى الحديث كان كذلك عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) والزهرى (١٢٠ هـ) ثم الإمام مالك وابن أبى مليكه (١١٩ هـ) والحسن البصرى (١١٠ هـ) والأوزاعى (١٥٩ هـ) . . وفى اللغة وضعت أصول النحو والصرف وكذلك الشكل والأعجام والنقط وغيرها . . وفى التاريخ كان أبو مخنف الأزدى وعوانة بن الحكم الكلبى ووهب بن منبه (٣٤ - ١١٤ هـ) وكعب الأحبار (٣٢ هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (٢٢ - ١٠٥ هـ) وغيرهم .

(٢) ٤ : ٥٢ الأغانى .

(٩) مجالس الأدب فى هذا العصر

تعددت مجالس الأدب والشعر فى هذا العصر ، وكثرت حلقاتهما وقد كان للخلفاء والأمراء عناية بالغة ، واهتمام عظيم بالأدب واللغة والشعر .

فقد كان خلفاء بنى أمية عربا ، يطربهم المعنى الرائق . واللفظ الفائق ، ويعجبهم الأسلوب الناصع ، والتعبير البديع ، والتصوير الجميل ، لما فطروا عليه من ذوق حساس ، وسليقة مرهفة ، وبصيرة ناقدة ، وذكاء متوقد ، وعلم غزير ، ومعرفة بأنساب القبائل وأحسابها ، ومفاخرها ومثالبها .

فلا عجب أن تزداد عنايتهم بكل مظهر يعلى من شأن الأدب ، وأن تعظم رغبتهم فى تشجيع الأدباء ورعاية الشعراء وصيانة التراث الأدبى ، على نحو ما سجلته كتب الأدب ، ووعته صحائف التاريخ ، ونقله الرواة .

وكان من وسائلهم إلى حفظ ملكهم ، والإبقاء على سلطانهم ، أن عمدوا إلى إثارة العصبيات ، وبعث الخصومات ، وإحياء ما اندثر من منافسات الجاهلية وأحقادها ، ليشغلوا الناس بذلك عن مواثبتهم على الملك ، ومساورتهم على السلطان ، ومنازعتهم فيما استقر لهم من أمور الخلافة ، فعاد الشعراء إلى تسجيل ذلك فى أشعارهم ، وتصويره فى قصائدهم ، وشغلوا بالحديث عن أمجاد القبائل ومخازيها ، رغبة فى مدح أو شفاء لحقد ، أو طمعاً فى عطاء .

وكان الخلفاء والأمراء نقدة كلام ، وأمراء بلاغة ، وفرسان فصاحة . وألباء أدباء . يميزون جيد الأدب من رديئه . ويعرفون صحيحه من زائفه . ويقدرون منازل الشعراء . ويزنون الكلام بمعيار صحيح . فيقبلون الجيد ويثيبون عليه ، ويستنكرون الضعيف الزائف ويدلون على موضع نقصه ومكان عيبه ، ذلك لأن لهم من سلائقهم العربية ، وفطرهم الأدبية ، وعلمهم بشوارد الأدب وغرائب الأشعار ، مايعينهم على صدق الحكومة ، ويدفعهم إلى حسن التقدير ، وجمال المثوبة . وهل هناك أدل على صفاء الذوق ، وقوة

الملاحظة ، ودقة النقد وصادق التمييز ، مما يؤثر عن عبد الملك الخليفة الأديب الأريب ، إذ دخل عليه ابن قيس الرقيات ، وقد أمنه بعد خروجه عليه ، فمدحه بقوله :

إن الأغر الذى أبوه أبو العا ... صى عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهب

فقال عبد الملك : يابن قيس ، تمدحنى بالتاج كأنى من ملوك العجم ، وتقول فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله (م) تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه ... جبروت منه ولا كبرياء

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم ، وأعطيتنى ما لا تخرفيه ، وهو اعتدال التاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة . قال قدامة بن جعفر فى (نقد الشعر) : ووجه عتب عبد الملك ، إنما هو من أجل أن هذا المادح عدل به عن بعض الفضائل النفسية التى هى العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم فى البهاء والزينة .

ثم قال له عبد الملك : أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن لا تأخذ فى المسلمين عطاء أبدا .

ومما يدل على شدة ملاحظتهم وحضور بديهتهم وألمعيتهم فى النقد ، أن أبا زيد الأسلمى دخل على إبراهيم بن هشام فأنشده : « يابن هشام ياأخا الكرام » ، فغضب إبراهيم وقال : إنما أنا أخوهم ، وكأنى لست منهم ، ثم أمر به فضرب بالسياط .

ولما أدرك الشعراء أن الخلفاء والأمراء يمنحون جيد الأشعار ، ومتخير القصائد ، منزلة عالية ، ويثيبون عليه مثوبة طائلة ، وأنهم يتجهمون لمواطن العيب ، ويفطنون فى سرعة عجيبة لمكان النقص وموضع الزلل ، وأنهم قد

يعاقبون على ذلك عقوبة أولها حبس العطاء ، وقبض الصلة ، لما أيقن الشعراء من ذلك ، حرصوا أشد الحرص على التجويد والتهذيب ، وبالغوا أعظم المبالغة فى تنقيح بنات أفكارهم ، وتهذيب قصائدهم ، لتفتح لهم القلوب المغلقة وتلين النفوس العصية ، وتستدر العطايا السنية ، وتستل مافى النفس من حقد دفين ، وغل مقيم .

وكان الخلفاء والأمراء يطربون أيما طرب لسماع الجيد من المدح ، والبليغ من الثناء ، وكانوا فى نشوة هذا الطرب ، وفى غمرة تلك الأريحية ، يصفحون عن المسىء ، ويعفون عن المذنب ، ويقبلون شفاعة الشعراء .

ولقد كان الخليفة من خلفاء بنى أمية ينشد بيتا ويغيب عنه قائله فيأرق جفنه ، وينبو به مضجعه ، ويبعث فى طلب الرواة والعلماء حتى يعرف قائله ثم يخلع عليهم العطايا ، ويهب لهم الجوائز . ويصلهم بأكرم الصلات .

وكان هذا من العوامل التى شجعت على رواية الشعر وحفظه وتلقى الأشعار والبحث عنها لدى عارفيها والملمين بها . وهذه العناية البالغة من جانب الخلفاء أحيت من أشعار العرب القديمة ما أوشك الناس أن ينسوه وما قاربوا أن يغفلوه إذ كان الراوية يحظى من عطايا الحكام بمثل مايحظى به الشاعر .

ويؤثر عن معاوية ، أنه كان يقول : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فلقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل ، بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب ، لشد البلوى . فما حملنى على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الأطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح

وكان عبد الملك ، يقول لبنيه : عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا . وقال لمؤدب ولده : إذا رويتهم شعراً فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولى :

يبين الجـــار حين يبين عنى ... ولم تأنس إلى كلاب جارى (١)
وتظعن جارتى من جنب بيتى ... ولم تستر بستر من جدارى (٢)
وتأمن أن أطالع حين آتى ... عليها وهى واضعة الخمـــار (٣)
كذلك هدى آبائى قديماً ... توارثه النجـار عن النجـار

وجلس ذات مرة فى عدة من أهل بيته وولده فقال : ليقل كل منكم أحسن شعر سمعه ، فذكروا لامرىء القيس وطرفة والأعشى وأكثروا ، فقال : أشعر من هؤلاء والله معن بن أوس حيث يقول :

وذى رحم قلت أظفار ضغنه ... بحلمى عنـه وهو ليس به حـلم
إذا سمته وصـل القرابة سامنى ... قطيعتها تلك السفاهة والظـلم (٤)
وأسعى لكى أبنى ويهدم صالحى ... وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم
يحاول رغمى لا يحاول غيره ... وكالموت عندى أن يحل به رغم (٥)
فمـا زلت فى لينى له وتعطفى ... عليه كما تحنو على الولد الأم
لأستل منه الضغن حتى سللته ... وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

---

(١) يكنى بعدم أنس كلاب جاره به عن عدم دخوله بيته مراعاة لحرمة أهله .
(٢) يريد أن جارته تأمن جانبه فلا تستتر منه بالجدار عند خروجها .
(٣) واضعة الخمار أى ملقيته عن رأسها .
(٤) سمته : كلفته .
(٥) الرغم : الذل .

(١٠) صور من العناية باللغة والأدب

— ١ —

قحطت(١) البادية فى أيام هشام بن عبد الملك ، فقدمت العرب من أحياء القبائل ، فجلس هشام لرؤسائهم فدخلوا عليه ، وفيهم درواس بن حبيب وله أربع عشرة سنة ، عليه شملتان وله ذؤابة . فأحجم القوم وهابوا هشاما ووقعت عين هشام على درواس فاستصغره ، فقال لحاجبه : مايشاء أحدأن يصل إلى إلا وصل حتى الصبيان ؟ !

فعلم درواس أنه يريده ، فقال : ياأمير المؤمنين ، إن دخولى لم يخل بك شيئا ولقد شرفنى ، وإن هؤلاء القوم قدموا الأمر أحجموا دونه ، وإن الكلام نشر ، والسكوت طى ، ولا يعرف الكلام إلا بنشره ، فقال هشام : فأنشر لاأبالك ! ! وأعجبه كلامه .

فقال : أصابتنا ثلاث سنين ، سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، وسنة نقت(٢) العظم ، وفى أيديكم فضول أموال : إن كانت لله ففرقوها على عباده المستحقين لها : وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم ؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ، فإن الله يجزى المتصدقين ، ولا يضيع أجر المحسنين واعلم يا أمير المؤمنين أن الوالى من الرعية كالروح من الجسد ، لا حياة للجسد إلا به .

فقال هشام : ماترك الغلام فى واحدة من الثلاث عذراً : وأمر أن يقسم فى باديته مائة ألف درهم . وأمر لدرواس بمائة ألف درهم . فقال يا أمير المؤمنين أرددها إلى أعطية أهل باديتى ، فإنى أكره أن يعجز ماأمر لهم به

---

(١) لباب الآداب ص ٣٥٣

(٢) النقى : مخ العظام وشحمها : ونقى العظم : لستخرج نقيه .

أمير المؤمنين عن كفايتهم : قال : فما لك من حاجة تذكرها لنفسك ؟ قال : مالى من حاجة دون عامة المسلمين !!

ولما عاد درواس إلى منزله بعث إليه هشام بمائة ألف درهم ، ففرقها فى تسعة أبطن من العرب ، لكل بطن عشرة آلاف ، وأخذ هو عشرة آلاف ، فقال هشام : إن الصنيعة عند درواس لتضعف على سائر الصنائع(١) .

— ٢ —

وسأل(٢) يوماً عبد الملك(٣) بن مروان: من أشجع الناس شعراً ؟ فقيل عمرو بن معد يكرب . فقال : كيف ! وهو الذى يقول :

فجاشت(٤) إلى النفس أول مرة فردت على مكروهها فاستقرت

قالوا : فعمرو بن الاطنابة . فقال : كيف ! وهو الذى يقول :

وقولى كلما جشأت(٥) وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

قالوا : فعامر بن الطفيل قال ، كيف ! وهو الذى يقول :

أقول لنفس لايجاد بمثلها أقلى مراحاً إننى غير مدبر

قالوا : فمن أشجعهم عند أمير المؤمنين ؟ قال : أربعة ، عباس بن مرداس السلمى ، وقيس بن الخطيم الأوسى ، وعنترة بن شداد العبسى ، ورجل من بنى مزينة ، أما عباس فلقوله :

---

(١) جمع صنيعة ، وهى المعروف والإحسان .

(٢) مجمع الأمثال ص ٢٢ ج ٢

(٣) كان عبد الملك بن مروان لبيبا عاقلا جباراً ، قوى الهيبة شديد السياسة حسن التدبير تولى الخلافة سنة ٦٥ هـ فوطد أركانها ، وقتل ابن الزبير وأخاه مصعباً ، وكافح حتى استقرت له الأمور ومات سنة ٨٦ هـ .

(٤) جاشت النفس : اضطربت من الفزع ، وأصل جاشت . غثت وفاضت

(٥) ارتفعت من حزن أو فزع .

أشد على الكتيبة لا أبالى أفيها كان حتفى أم سواها

وأما قيس بن الخطيم فلقوله :

وإنى لدى الحرب العوان موكل بتقديم نفس لا أريد بقاءها

وأما عنترة بن شداد فلقوله :

إذ تتقون بى الأسنة لم أخم(١) عنها ولكن قد تضايق مقدمى(٢)

وأما المزنى فلقوله :

دعوت بنى قحافة فاستجابوا فقلت : ردوا فقد طاب الورود

— ٣ —

وقال (٣) عبد الملك بن مسلم : كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج : إنه لم يبق شىء من لذة الدنيا إلا وقد أصبت منه ، ولم يبق لى إلا مناقلة (٤) الإخوان الأحاديث ، وقبلك عامر الشعبي (٥) ، فابعث به إلى يحدثنى .

فدعا الحجاج بالشعبي وجهزه ، وبعث به إليه ، وأطراه فى كتابه .

فخرج الشعبى ، حتى إذا كان بباب عبد الملك قال للحاجب : استأذن لى ، فقال : ومن أنت ؟ قال : عامر الشعبي ، قال حياك الله ! ثم نهض ، وأجلسه على كرسيه ، فلم يلبث أن خرج الحاجب إليه فقال : ادخل .

قال الشعبي . فدخلت فاذا عبد الملك جالس على كرسى ، وبين يديه رجل أبيض الرأس واللحية على كرسى ، فسلمت فرد السلام ، ثم أومأ إلى ،

---

(١) أخم : أجبن .

(٢) تضايق مقدمى : تضايق الموضع الذى هو قدامى من أن يدنوه أحد .

(٣) أمالى المرتضى ص ١٠١ ج ٣ ، خزانة الأدب ص ١١٨ ج ٢ ، الأغانى ص ١٦٢ ج ٩ .

(٤) المناقلة فى المنطق : أن تحدثه ويحدثك .

(٥) هو عامر بن شراحيل كوفى المنشأ ، تابعى جليل القدر وافر العلم ، يقال إنه أدرك خمسمائة من الصحابة توفى سنة ١٠٣ هـ .

فقعدت عن يساره ، ثم أقبل على الذى بين يديه فقال : ويحك ! من أشعر الناس ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين ! فأظلم على ما بينى وبين عبد الملك ، ولم أصبر أن قلت : ومن هذا يا أمير المؤمنين الذى يزعم أنه أشعر الناس ! فعجب عبد الملك من عجلتى قبل أن يسألنى عن حالى ، ثم قال : هذا الأخطل فقلت : يا أخطل أشعر منك الذى يقول(١) :

هذا غلام حسن وجهه مقتبل الخير سريع النماء
للحارث الأكبر والحارث الأصغر والحارث خير الأنام
ثم لهنـد ولهنـد ، فقد أسرع فى الخيرات منه إمام
خمسـة آباء هم ماهم هم خير من يشرب صوب الغمام

فقال عبد الملك : رددها على ، فرددتها حتى حفظها ، فقال الأخطل ، من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا الشعبى ، قال : صدق ، والله النابغة أشعر منى !

قال الشعبى : ثم أقبل على عبد الملك فقال : كيف أنت ياشعبى ؟ قلت : بخير لازلت به ـ ثم ذهبت لأصنع معاذيرى لما كان من خلافى على الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد الأشعث .

فقال : مه ! فإنا لانحتاج إلى هذا المنطق ، ولا نراه منا فى قول ولا فعل حتى تفارقنا ، ثم أقبل على فقال : ما تقول فى النابغة ؟ قلت : يا أمير المؤمنين قد فضله عمر بن الخطاب فى غير موطن على جميع الشعراء ! وذاك أنه خرج يوما ويبابه وفد غطفان ، فقال : يامعشر غطفـان ، أى شعرائكم الذى يقول :

---

(١) قال النابغة هذا الشعر حين نظر إلى النعمان بن الحارث أخى عمرو بن الحارث الأصغر ابن الحارث الأعرج ابن الحارث الأكبر ابن أبى شمر (مهذب الأغانى ص ٢٣٠ ج ٢)

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
ألم تر أن الله أعطاك سـورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب
كأنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة ... لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولست بمستبق أخا لا تلمـه ... على شعث ، أى الرجال المهذب !

قالوا : النابغة ، قال ، فأيكم الذى يقول :

فانك كالليـل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف(١) حجن فى حبال متينة ... تمد بهـا أيد إليك نوازع

قالوا : النابغة ، قال : أيكم الذى يقول :

إلى ابن محـرق أعملت نفسى ... وراحلتى وقد هـدت العيون
أتيتك عارياً خلقا ثيابى ... على خوف تظن بى الظنون
فألفيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : النابغة ، قال : هذا أشعر شعرائكم . ثم أقبل عبد الملك على الأخطل فقال : أتحب أن لك قياضاً (٢) بشعرك شعر أحد من العرب . أو تحب أنك قلته فقال : لا والله ، إلا أنى وددت أنى كنت قلت أبياتا قالها رجل منا ، كان والله مغدف(٣) القناع ، قليل السماع ، قصير الذراع ، قال وما قال؟ فأنشده:

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل ... وإن بليت وإن طالت(٤) بك الطول
ليس الجديد به تبقى بشاشته ... إلا قليلا ولا ذو خلة يصل

---

(١) الخطاف : حديدة حجناء تعقل بها البكرة ، والحجن : الاعوجاج (اللسان مادة خطف) .
(٢) المقايضة . المبادلة والمعارضة .
(٣) أغدف قناعه . أرسله على وجهه .
(٤) يقال : « طال طولك » أى عمرك .

والعيش لا عيش إلا ماتقر به ... عين ولا حال إلا سوف تنتقل
والناس من يلق خيراً قائلون له ... مايشتهى ولام المخطى الهبل
قد يدرك المتأنى بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

قال الشعبي : قد قال القطامى أفضل من هـــذا ، قال : وما قال ؟ قلت : قال :

طرقت جنوب رحالنا من مطرق ... ما كنت أحسبه قريب المعنق

حتى أتيت على آخرها ، فقال عبد الملك : ثكلت القطامى أمه ، هذا والله الشعر ، ثم قال : ياشعبي ، أى شعراء الجاهلية كان أشعر من النساء ؟ قلت : خنساء قال : ولم فضلتها على غيرها ؟ قلت . لقولها :

وقائلة والنعش قد فات خطوها ... لتدركه يالهف نفسى على صخر
ألا ثكلت أم الذين غدوا به ... إلى القبر ، ماذا يحملون إلى القبر !

فقال عبد الملك : أشعر والله منها ليلى الأخيلية حيث تقول :

مهفهف الكشح والسربال منخرق ... عنه القميص لسير الليل محتقر
لايأمن الناس بمساه ومصبحه ... فى كل حى وإن لم يغز ينتظر

ثم قال عبد الملك : ياشعبي لعله شق عليك ماسمعته ، فقلت : إى والله يا أمير المؤمنين أشد المشقة ، إنى قد حدثتك فلم أفدك إلا أبيات النابغة فى الغلام .

ثم قال عبد الملك : ياشعبي ، إنما أعلمناك هذا ، لأنه بلغنى أن أهل العراق يتطاولون على أهل الشام ويقولون : إن كانوا غلبونا على الدولة ، فلن يغلبونا على العلم والرواية ، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق . ثم ردد على أبيات ليلى حـــتى حفظتها ، وأذن لى فانصرفت ، فكنت أول داخل وآخر خارج .

— ٤ —

وقال (١) حماد (٢) الراوية كان انقطاعى إلى يزيد بن عبد الملك . فكان هشام يحفونى لذلك دون سائر أهله من بنى أمية فى أيام يزيد ، فلما مات يزيد ، وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ، فمكثت فى بيتى سنة ، لا أخرج إلا لمن أثق به من إخوانى سراً .

فلما لم أسمع أحدا يذكرنى سنة أمنت فخرجت فصليت الجمعة ، ثم جلست عند باب الفيل . فإذا شرطيان قد وقفا على فقالا لى ياحماد ، أجب الأمير يوسف (٣) بن عمر . فقلت فى نفسى : من هذا كنت أحذر ، ثم قلت للشرطيين . هل لكما أن تدعانى آتى أهلى فأودعهم وداع من لا ينصرف إليهم أبداً ثم أصير معكما إليه ؟ فقالا : ما إلى ذلك من سبيل .

فاستسلمت فى أيديهما وصرت إلى يوسف بن عمر وهو فى الإيوان (٤) الأحمر . فسلمت عليه فرد على السلام ، ورمى إلى كتاب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر ، أما بعد : فإذا قرأت كتابى هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غيرا مروع ولا متعتع (٥) ، وادفع إليه خمسمائة دينار وحملا مهريا (٦) يسير عليه اثنتى عشرة ليلة إلى دمشق » .

---

(١) ثمرات الأوراق ص ١٨٢ ج ١ ، الأغانى ص ٧٥ ج ٦

(٢) هو حماد بن ميسرة ، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، كانت ملوك بنى أمية تقدمه وتؤثره ، وتستزيره ، فيسألونه ويجزلون صلته .

(٣) لم يكن يوسف بن عمر والياً على العراق بعد ولاية هشام بسنة ، وإنما كان الوالى عليها خالد القسرى حتى سنة ١٢٠ هـ ، ثم ولى يوسف بعده .

(٤) الإيوان : البيت يبنى طولا .

(٥) غير متعتع . من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه .

(٦) نسبة إلى مهرة بن حيدان أو قبيلة وهم حى عظيم ، وإبل مهرية . منسوبة اليهم .

فأخذت الخمسمائة الدينار ونظرت فإذا جمل مرحول(١) فوضعت رجلى فى الغرز(٢) ، وسرت اثنتى عشرة ليلة ، حتى وافيت باب هشام ، فاستأذنت فأذن لى ، فدخلت عليه فى دار قوراء (٣) مفروشة بالرخام ، وهو فى مجلس مفروش بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب ذهب ، وحيطانه كذلك ، وهشام جالس على طنفسة حمراء ، وعليه ثياب خز حمر ، وقد تضمخ بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك مفتوت فى أوانى ذهب يقلبه بيده فتفوح روائحه ، فسلمت فرد على ، واستدنانى فدنوت حتى قبلت رجله ؛ وإذا جاريتان لم أر قبلهما ، مثلهما ، فى أذنى كل واحدة منهما حلقتان من ذهب ، فيها لؤلؤتان تتوقدان .

فقال لى: كيف أنت ياحماد ؟ وكيف حالك ؟ فقلت بخير ياأمير المؤمنين، قال أتدرى فيم بعثت إليك ؟ لبيت خطر ببالى لم أدر من قاله . قلت : وماهو ؟ فقال :

فدعوا بالصبوح يوما فجاءت قينة فى يمينهـا إبريق

قلت : هذا يقوله عدى بن زيد فى قصيدة له . قال : فأنشدينها ، فأنشدته :

يكر العاذلون فى وضح الصبح يقولون لى : ألا تستفيق
ويلومون فيك يابنة عبد الله والقلب عندكم موهـوق (٤)
لست أدرى إذ أكثروا العذل عندى
أعدو يلومنى أم صـديق

فطرب ، ثم قال: أحسنت والله يا حماد ، أعد ، فأعدت فاستخفه الطرب

---

(١) مرحول : عليه الرحل (٢) الغرز : ركاب الرحل من جلد ، فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب .
(٣) دار قوراء : واسعة .
(٤) الموهوق : المشدود بالوهق ، وهو الحبل .

حتى نزل عن فرشه ، فقال : سل حوائجك ، فقلت : كائنة ما كانت ؟ قال نعم ، قلت : إحدى الجاريتين ، فقال لى : هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما .

ثم قال الأولى اسقيه فسقتنى شربة سقطت معها فلم أعقل حتى أصبحت فإذا بالجاريتين عند رأسى وإذا عدة من الخدم مع كل واحد منهم بدرة ، فقال لى أحدهم : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : خذ هذه فانتفع بها فأخذتها والجاريتين وانصرفت .

— ٥ —

ودخل رجل من بنى ضنة على عبد الملك بن مروان فقال :

والله ما ندرى إذا ما فاتنـــا ... طلب إليك من الذى نتطلب ؟
فلقد ضربنا (١) فى البلاد فلم نجد ... أحدا سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتنا التى عودتنا ... أولا فأرشدنا إلى من نذهب ؟

فقال عبد الملك : إلى ! إلى ! وأمر له بألف دينار ، ثم أتاه فى العام المقبل فقال :

يرب (٢) الذى يأتى من الخير إنه ... إذا فعل المعروف زاد وتمما
وليس كبان حين تم بناؤه ... تتبعه بالنقض حتى تهدما

فأعطاه ألفى دينار ، ثم أتاه فى العام الثالث فقال :

إذا استمطروا كانوا مغازير (٣) فى الندى
يجودون بالمعروف عودا على بدء

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار

---

(١) ضرب فى الأرض : سافر .
(٢) رب : زاد وأصلح .
(٣) أغزر المعروف : جعله غزيرا . والمغازير لا يكون إلا جمعا لمغزار أو مغزير من صيغ المبالغة ولم أجدهما فى اللسان والقاموس ، وفى المخصص : سحابة مغزار . غزير فيكون جمعا لمغزار حتما .

— ٦ —

وقال عامر الشعبي : وفدت سودة بنت عمارة بن الاشتر الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت، فقال لها : كيف أنت يا ابنة الأشتر ؟ قالت : بخير ياأمير المؤمنين ، قال لها : أنت القائلة لأخيك :

شمر لعمرك أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر عليا والحسين ورهطه ... واقصد لهند (١) وابنها بهوان
إن الامام أخا النبي محمد ... علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه ... قدماً بأبيض صارم وسنان

قالت : ياأمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب ، فدع عنك تذكار ماقد نسي ، قال . هيهات ، ليس مثل مقام أخيك نسي . قالت صدقت والله يا أمير المؤمنين ماكان أخي خفي المقام ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

وبالله أسألك يا أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيته ، قال : قد فعلت ، فقولي حاجتك قالت :

يا أمير المؤمنين إنك للناس سيد ولأمورهم مقلد . والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ويبسط بسلطانك، فيحصدنا حصاد السنبل ويدوسنا دياس البقر ويسومنا الخسيسة (٢) ويسألنا الجليلة وهذا ابن أرطاة قدم بلادي وقتل رجالي وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فقال معاوية : أإياي تهددين بقومك ؟ والله هممت أن أردك إليه على قتب أشرس (٣) فينفذ حكمه فيك . فسكتت ثم قالت :

---

(١) هند هي أم معاوية .
(٢) سامه الأمر : كلفه إياه . تقول : يحشمنا دنايا الأمور .
(٣) القتب : الرحل الصغير . والأشرس . الخشن الغليظ .

صلى الإله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى به ثمنا فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبى طالب رحمه الله ، قال : ما أرى عليك له أثرا ، قالت : بلى ، أتيته يوما فى رجل ولاه صدقتنا فكان بيننا وبينه مابين الغث والسمين . فوجدته قائما يصلى فانفتل (١) عن الصلاة ثم قال برأفة وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم إنى لم آمرهم بظلم خلقك ولا ترك حقك . ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يديك حتى يأتى من يقبضه منك والسلام ، فعزله يا أمير المؤمنين ماخزمه بخزام ولا ختمه بختام . فقال معاوية : اكتبوا بالإنصاف لها والعدل عليها ، فقالت : ألى خاصة أم لقومى عامة ؟ قال: وما أنت وغيرك ؟ قالت : هى والله إذن الفحشاء واللؤم ، إن كان عدلا شاملا ، وإلا يسعنى ما يسع قومى . قال هيهات ، لمظكم (٢) ابن أبى طالب الجرأة وغركم قوله :

فلو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقوله :

ناديت همدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سنى فتحة الباب
كالهندوانى لم تفلل مضار به وجه جميل وقلب غير وجاب

اكتبوا لها بحاجتها .

---

(١) انفتل : انصرف .
(٢) لمظه الشىء : منحه اياه .

— ٧ —

وحبس مروان وهو والى المدينة غلاما من بنى ليث فى جناية جناها فأتته جدة الغلام وهى أم سنان بنت جشمة المذحجية فكلمته فى الغلام فأغلظ مروان لها ، فخرجت إلى معاوية فدخلت عليه فانتسبت فعرفها فقال لها : مرحبا بنابنة جشمة ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تشتمينا وتحضين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة ، وأحلاما وافرة ، لايجهلون بعـــد علم ، ولا يسفهون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ؛ وإن أولى الناس باتباع ماسن آباؤه لأنت . قال : صدقت نحن كذلك . فكيف قولك :

عزب الرقاد فمقلتى لاترقد ... والليل يصدر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لامقام فشمروا ... إن العدو لآل أحمد يقصد
هـــذا على كالهلال تحفه ... وسط السماء من الكواكب أسعد
خير الخلائق وابن عم محمد ... إن يهدكم بالنور منه تهتدوا
مازال مذشهد الحروب مظفرا ... والنصر فوق لوائه ما يعقد ؟ (١)

قالت : كان ذلك ياأمير المؤمنين وأرجو : أن تكون لنا خلفا ، فقال رجل من جلسائه : كيف ياأمير المؤمنين ؟ وهى القائلة :

إما هلكت أبا الحسين فلم تزل ... بالحق تعرف هادياً مهديا
فاذهب عليك صلاة ربك مادعت ... فوق الغصون حمامة قمريا
قد كنت بعد محمد خلفا كما ... أوصى إليك بنا فكنت وفيا
واليوم لاخلف يؤمل بعده ... هيهات تأمل بعده إنسيا

قالت : ياأمير المؤمنين لسان نطق وقول صدق . ولئن تحقق ما ظننا

---

(١) ما مصدرية ظرفية ، تقول : إن النصر لايفارق لواءه مادام معقودا .

فحظك الأوفر ، والله ماورثك الشنآن (١) فى قلوب المسلمين إلا هؤلاء فأدحض (٢) مقالتهم وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قربا ومن المؤمنين حبا قال : وإنك لتقولين ذلك ، قالت : سبحان الله ! والله مامثلك مدح بباطل ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا كان والله (على) أحب إلينا منك وأنت أحب الينا من غيرك . قال : بمن ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاصى . قال : وبم استحققت ذلك عندك قالت : بسعة حلمك وكريم عفوك قال : فما حاجتك قالت : ياأمير المؤمنين إن مروان تبنك (٣) بالمدينة تبنك من لايريد منها البراح ، لايحكم بعدل ولا يقضى بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ويكشف عورات المؤمنين ، حبس ابن ابنى فأتيته فقال : كنت وكنت ، فأسمعته أخشن من الحجر وألقمته أمر من الصاب (٤) ثم رجعت إلى نفسى باللائمة وقلت : لم لاأصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه فأتيتك ياأمير المؤمنين لتكون فى أمرى ناظرا وعليه معديا (٥) قال : صدقت لاأسألك عن ذنبه والقيام بحجته . اكتبوا لها بإطلاقه ، قالت : يا أمير المؤمنين وأنى لى بالرجعة ؟ وقد نفذ زادى وكلت راحلتى ؟ فأمرلها براحلة ومنحة .

---

(١) الشنآن : العداوة .
(٢) أدحض حجته : أبطلها .
(٣) تبنك بالمكان : أقام .
(٤) الصاب : شجر مر .
(٥) أعداه عليه : نصره وأعانه .

— ٨ —

وكان لبيد (١) بن ربيعة جوادا شريفا فى الجاهلية والإسلام ، وكان آلى فى الجاهلية أن يطعم ماهبت الصبا . ثم أدام ذلك فى إسلامه ، وكان له جفنتان يغدو بهما ويروح فى كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم ، ونزل لبيد الكوفة ، وأميرها الوليد بن عقبة ، فبينا هو يخطب الناس إذ هبت الصبا ، فقال الوليد فى خطبته على المنبر : قد علمتم حال أخيكم أبى عقيل ، وما جعل على نفسه : أن يطعم ما هبت الصبا ، وهذا يوم من أيامه ، وقد هبت ريحها : فأعينوه ، وأنا أول من فعل . ثم انصرف الوليد ، فبعث إليه بمائة من الجزر وبهذه الأبيات :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه ... إذا هبت رياح أبى عقيل
أشم الأنف أصيد (٢) عامرى ... طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفرى بما نواه ... على العلات (٣) والمال القليل
بنحر الكوم (٤) إذ سحبت إليه ... ذيول صبا تجاذب بالأصيل

فلما وصلت الهدية إلى لبيد شكره ، وقال : إنى تركت الشعر منذ قرأت القرآن ، ثم قال لابنته . أجيبيه ، فلعمرى لقد عشت دهراً وما أعيا بجواب شاعر .

---

(١) راجع الجمهرة ص ٣٩ ، المستطرف ص ٥٠ ج ٢ ، الأغانى ص ٩٣ ج ١٤ ، بلوغ الأرب ص ٩٢ ج ٣

ولبيد بن ربيعة العامرى هو أحد أشراف الشعراء المجيدين والقواد الفرسان المعمرين وهو من أصحاب المعلقات ، ولما ظهر الإسلام أسلم وحسن أسلامه ، ومات سنة ٤١ هـ .

(٢) الأصيد : رافع رأسه كبرا .

(٣) على العلات : على كل حال .

(٤) الكوم : القطعة من الإبل .

— ٩ —

وكان أسيد بن عنقاء الفزارى من أكثر أهل زمانه وأشدهم عارضة ولسانا وطال عمره ونكبه دهره واختلت حاله ، فخرج عشية يتبقل (١) لأهله فمر به عميلة الفزارى فسلم عليه وقال : ياعم ما أصارك إلى ما أرى ؟ قال : بخل مثلك بماله وصون وجهى عن أموال الناس . فقال : لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك ، فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة . فقالت له : لقد غرك كلام غلام جنح ظلام (٢) . فكأنما ألقمت فاه حجرا ، فبات متململا بين رجاء ويأس ، فلما كان السحر سمع رغاء الإبل وثغاء الشاه وصهيل الخيل ولجب الأموال (٣) فقال : ماهذا ؟ فقالوا : هذا عميلة ساق إليك ماله ؛ فخرج ابن عنقاء له ، فقسم عميلة ماله شطرين وساهمه (٤) عليه ، فأنشأ ابن عنقاء يقول :

رآنى على مابى عميلة فاشتكى ... إلى ماله حالى أسر كما جهر
دعانى فآسانى ولو ضن لم يلم ... على حين لا بدو يرجى ولا حضر
فقلت له خيرا وأثنيت فعله ... وأوفاك ما أبليت من ذم أو شكر
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه ... ترى رداء سابغ الذيل واتزر
غلام رماه الله بالخير مقبلا ... له سيمياء (٥) لا تشق على البصر
إذا قيلت العوراء (٦) أغضى كأنه ... ذليل بلا ذل ولو شاء لانتصر

---

(١) تبقل ، خرج يطلب البقل .
(٢) جنح الليل أو الظلام : الطائفة منه .
(٣) اللجب : الجلبة والصياح واضطراب موج البحر .
(٤) ساهمه : قارعه أى ضرب القرعة .
(٥) السيماء والسيماء والسيميا والسيمياء العلامة : يقول : يفرح به من يراه للطف محياه .
(٦) العوراء : الكلمة القبيحة .

— ١٠ —

ووفدت بكارة الهلالية على معاوية فاستأذنت فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة فدخلت عليه وكانت أسنت (١) وعشى بصرها (٢) وضعفت قوتها ترعش بين خادمين لها (٣) فسلمت وجلست فرد عليها معاوية السلام ، وقال كيف أنت يا خالة فقالت بخير يا أمير المؤمنين قال غيرك الدهر ، قالت كذلك هو ذو غير (٤) من عاش كبر ومن مات قبر . فقال عمرو بن العاص هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يازبد دونك فاحتفر (٥) من دارنا ... سيفا حساما فى التراب دفينا
قد كنت أذخره (٦) ليوم كريهة ... فالآن أبرزه الزمان مصونا

قال مروان : وهى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا ... هيهات ذاك وإن أراد بعيد
منتك نفسك فى الخلاء ضلالة ... أغراك عمرو للشقا وسعيد

قال سعيد بن العاص هى والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى ... فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخر مدتى فتطاولت ... حتى رأيت من الزمان عجائبا
فى كل يوم لايزال خطيبهم ... بين الجميع لآل أحمد عائبا

ثم سكتوا فقالت: يامعاوية كلامك أعشى بصرى وقصر حجتى (٧) وأنا والله قائلة ما قالوا وماخفى عليك منى أكثر فضحك وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك ، اذكرى حاجتك قالت أما الآن فلا .

---

(١) طعنت فى السن . (٢) ضعف نظرها .
(٣) أى تمشى مستندة على خادمين وهى ترتعش لكبر السن .
(٤) أى صاحب أحوال متغيرة .
(٥) أى احفر الأرض فى دارنا لتخرج منها السيف المدفون .
(٦) فى رواية (فكان مذخورا) .
(٧) أعشى بصرى أضعفه ، وقصر حجتى أضعفها .

— ١١ —

ودخل حمزة (١) بن بيض على مخلد بن يزيد بن المهلب ، فوعده أن يصنع به خيراً ، ثم شغل عنه ، فاختلف عليه مراراً ثم لم يصل إليه ، وأبطأت عليه عدته ، فقال ابن بيض :

أمخلد (٢) إن الله ماشاء يصنع ... يجود فيعطى ما يشاء ويمنع
وإنى قد أمات منك سحابة ... فجادت سراباً فوق بيداء تلمع
فأجمعت صرماً ثم قلت لعله ... يثوب إلى أمر جميل ويرجع
فأيأسنى من خير مخلد إنه ... على كل حال ليس لى فيه مطمع
يجود لأقوام يودون أنه ... من البغض والشنان أمسى يقطع
ويبخل بالمعروف عمن يوده ... فوالله ما أدرى به كيف أصنع
أأصرمه ؟ فالصرم شر مغبة ... ونفسى إليه بالوصال تطلع
وشنات بينى والوصال وبينه ... على كل حال أستقيم ويظلع (٣)
فأعقبنى صرماً على غير إحنة ... وبخلا وقدماً كان لى يتبرع
وغيره ما غير الناس قبله ... فنفسى بما يأتى به ليس تقنع

ثم كتبها فى قرطاس ، وختمه ، وبعث به مع رجل ، فدفعه إلى غلامه . فدفعه الغلام إليه .

---

(١) الأغانى ص ٢٣ ج ١٥

وحمزة بن بيض : شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية ، كوفى خليع ماجن وكان منقطعا إلى المهلب بن أبى صفرة ووالده ، ثم إلى أبان بن الوليد ، وبلال بن أبى بردة واكتسب بالشعر من هؤلاء مالا عظيما ، ولم يدرك الدولة العباسية توفى سنة ١٢٠ هـ .

(٢) أمير من بيت إمارة ورياسة وبطولة ، ولى إمارة خراسان على عهد عمر بن عبد العزيز نائباً عن أبيه . ثم رحل إلى الشام وافداً على الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فأعجب به ، مات سنة ١٠٠ هـ .

(٣) الظلع : العرج .

فلما قرأه سأل الغلام : من صاحب الكتاب ؟ قال لا أعرفه ، فأدخل إليه الرجل ، فقال : من أعطاك الكتاب ؟ ومن بعث به معك ؟ قال : لا أدرى ، ولكن من صفته كذا وكذا ، ووصف صفة ابن بيض فأمر به فضرب عشرين سوطاً على رأسه ، وأمر له بخمسمائة درهم وكساه ، وقال : إنما ضربناك أدبا لك ، لأنك حملت كتاباً لا تدرى ما فيه لمن لا تعرفه ، فإياك أن تعود لمثلها .

فقال الرجل : لا والله . أصلحك الله لا أحمل كتاباً لمن أعرفه ولا لمن لا أعرف ، قال : احذر فليس كل أحد يصنع بك صنيعى .

وبعث إلى ابن بيض ، فقال له : أتعرف ما لحق صاحبك الرجل ؟ قال : لا ، فحدثه مخلد بقصته ، فقال ابن بيض : والله — أصلحك الله — لا تزال نفسه تتوق إلى العشرين سوطا مع الخمسمائة أبداً ، فضحك مخلد ، وأمر له بخمسة آلاف درهم وخمسة أثواب ، وقال : وأنت والله لا تزال نفسك تتوق إلى عتاب إخوانك أبداً ، قال أجل والله ، ولكن من لى بمثلك يعتبنى (١) إذا استعتبته ، ويفعل بى مثل فعلك ثم قال :

وأبيض بهلول إذا جئت داره ... كفانى وأعطانى الذى جئت أسأل
ويعتبنى يوما إذا كنت عاتبا ... وإن قلت زدنى قال حقا سأفعل
تراه إذا ما جئته تطلب الندى ... كأنك تعطيه الذى جئت تسأل

فأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب .

---

(١) يقال : أعتبنى فلان ، إذا ترك ما كنت أجد عليه ، ورجع إلى ما أرضانى عنه ، بعد إسخاطه اياى عليه .

خلاصـــة

نستطيع أن نتبين أسباب عناية الدولة : خلفاء وأمراء وولاة وشعبا ، حكاما ومحكومين ، باللغة والأدب فى : عروبة الدولة وفى الرغبة الملحة فى الحفاظ على لغة القرآن الكريم وعلى مآثر العرب وتراثهم ، وفى ميول الحكام إلى الأدب لملكاتهم العربية الخالصة .

وقد تجلت هذه العناية بالأدب فى مظاهر مختلفة ، من سخاء على الأدب وتقريب لرجاله ورغبة فى السماع منهم ولهم ، ومن تنافس الشعراء فى التقرب إلى مجالس الخلفاء والأمراء والولاة ، ومن ظهور الأدب السياسى ، وقيام ديوان الرسائل ، وجمع الرواة للشعر ، إلى ميول الخلفاء الأدبية واحتفائهم بالأدب ، وعقدهم الندوات الأدبية التى يشاركون فيهـــا فى الحوار الأدبى وفى نقد الكلام .

كما تجلت هذه العناية باللغة فى حرص الدولة على سلامة الملكات وعلى مقاومة اللحن ، وفى جمع العلماء لمتن اللغة ، وفى انتشار اللغة وعالميتها .

وقد أثمرت هذه العناية باللغة والأدب ثمارا كثيرة منها : نهضة الأدب والشعر وتعدد فنونهما ، وقيام حركة التجـــديد فى الأدب والشعر ، والنثر الفنى ؛ وحرص الرواة على جمع آداب العرب ودواوين الشعراء ، وبدء حركة التأليف فى الأدب واللغة والعلوم وحركة الترجمة إلى العربية .

وسنفصل الحديث فى كل هذه الجوانب فيما يلى من دراسات .

ـ ثالثـــا ـ

الشعر فى عصر بنى أمية

تمهـــيد :

ازدهر الأدب العربى فى عصر بنى أمية ، شعره ونثره على السواء ، وتعددت فنونه ، وشمله التجديد فى كل مظهر من مظاهره ، واسترعت النهضة التى بلغها آنذاك أنظار النقاد والدارسين .

وكانت الأسباب التى أدت إلى هذا الازدهار ، وإلى تلك النهضة ، كثيرة ومتضافرة : فالدولة عربية الصبغة وملوكها عرب ولغتها هى العربية ، ومواطن اللغة والثقافة والأدب كثيرة فى هذا العصر ، وعناية الخلفاء والأمراء والولاة والشعب بالأدب وتشجيعهم للأدباء موصولة ، وكان لإحياء الأدب الجاهلى وروايته وتدوينه أثر فى هذه النهضة ، وقد أثر القرآن الكريم والحديث النبوى وبلاغات البلغاء من الجاهلية حتى هذا العصر فى الألسنة والأذواق وفى الأساليب والألفاظ ، وفى أغراض الأدب ومعانيه وأخيلته تأثيرا كبيرا ، وتعددت مجالس الأدب ومنتدياته وأسواقه فى هذا العصر ، ومن أشهرها : سوق المربد بالبصرة ، وسوق كناسة بالكوفة .

وقد كان لازدهار الحياة الأدبية فى هذا العصر مظاهره الكثيرة : فمن ذيوع الشعر ونهضته ، إلى نهضة النثر الفنى متمثلا فى الخطابة والكتابة ، إلى ظهور الأدب السياسى والغزل العذرى والقصصى وشعر الشعوبية الذى ظهر على أيدى شعراء الموالى من مثل نصيب وعبد بنى الحسحاس وهما من أصول حبشية ـ والحيقطان وهو من أصل زنجى ، وأبى نخيلة وزياد الأعجم وموسى شهوات واسماعيل بن يسار (١١٠ هـ) ، وإخوته وهم من أصول فارسية . . ومن أغراض الأدب الجديدة كذلك : شعر الزهد والحكمة ،

والعقائد ووصف البلاد المفتوحة ، وكذلك فن القصص التاريخى الذى كتبت به السيرة النبوية .

ونهضة الأدب فى هـــذا العصر ، تجلت آثارها على جميع ألوان الأدب وفنونه .

فقد نبغ الكثير من أعلام الأدباء والكتاب والشعراء ، وأدى الشعر والخطابة والكتابة وسائر ألوان الأدب رسالتها الأدبية فى هذا المعترك الحافل بأسباب النشاط ، ومجامع العلم (١) والأدب قد تعددت وأثمرت ثمارها فى خدمة التراث الإسلامى والأدب العربى .

ولقى الأدب عامة والشعر خاصة عناية من المجتمع العربى الذى كان فى ذلك الحين يحل بالأدب والشعر منه منزلة رفيعة ، ولقى نفس العناية كذلك من المغنين ، كما لقى عناية فائقة من الشعراء الذين أقبلوا على تهذيبه وتجويده ؛ ولقد أغدق الخلفاء على الشعراء العطاء ، واتخذ كل خليفة أو وال لنفسه شاعرا ، واتخذ كل حزب له شعراء .

ولقد تأثر الأدب عند أهل الأمصار بصورة حياتهم ، فكان لكل حزب سياسى أو طائفة مذهبية من الخوارج والشيعة والزبيرية والمروانية والمضرية والقحطانية والشعوبية شعراء وخطباء ينظمون الشعر ويخطبون فى تأييد نحلتهم ، وخلف مربد البصرة وكناسة الكوفة عكاظ فى اجتماع الشعراء والخطباء بهما . كما تأثر الأدب فى الحجاز بحياة المترفين من شبانه ، فنشأ فيه نوع من الغزل الرقيق ومقطعات الغناء ، وما زال يستفحل أمره حتى تحول على لسان بعض مجان الشعراء إلى مجون ولهو .

---

(١) من أعلام هذا العصر : عبيد بن شرية الجرهمى ، محمد بن شهاب الزهرى (٥٠ - ١٢٤ هـ) ، ومحمـــد بن سيرين المتوفى عام ١١٠ هـ ، ووهب بن منبه المتوفى ١١٤ هـ .

وتأثر فى البوادى بحياة أهلها من أصحاب الجد والتوقر والجفاء منهم فبرز فى ثوب الفخر والتباهى والتهاجى والتناقض والمدح والرثاء ونحو ذلك .

وتأثر عند العذريين بنزعة نفوسهم فخطر فى حلة الشعر العفيف الذى يعتبر من أجمل ماقيل من الشعر العربى .

نهضة الشعر فى العصر الأموى :

كانت للشعر دولة عند الجاهليين ، وظلت له مكانته عند الرسول وخلفائه بعد الإسلام .

ثم عنى الأمويون به ، وعملوا على ازدهاره ، وبالغوا فى رعايته . ذلك لأنهم عرب يهزهم الشعر وتسحرهم بلاغته ويولونه عناية كبيرة ، من جانب ، ولأنه سجل تاريخ العرب وأيامهم ومفاخرهم ومآثرهم من جانب آخر ، ولأنه صار لسان الحياة الجديدة ، بما فيها من أحزاب متصارعة . وعصبيات متضاربة ، ورغبات قوية فى إحياء ماضى العرب الأدبى ، وتجديد تاريخهم القومى والعقلى . . ولأنه صار أخيرا وسيلة إلى المال والحياة والعيش الطيب الكريم . .

اشتدت عناية الأمويين ـ خلفاء وأمراء وولاة وزعماء ، ورؤساء ـ بالشعر وعظم تقديرهم للشعراء ، وخصوهم بجزيل العطاء ، وعظيم الصلات ، وعقدوا المجالس لإنشاده وسماعه ، وجلسوا فى الندوات المفتوحة لسماع المحاورات بين الأدباء والشعراء حوله . .

ولا شك أن الشعر قد ازدهر فى هذا العصر ازدهارا كبيرا .

وكانت مجالس الشعر والشعراء ، فضلا عن سوق المربد ، وكناسة الكوفة . مفتوحة ، وكان الحديث فيها يدور كثيرا حول الشعراء الجاهليين وأشعرهم ، وحول شعراء بنى أمية والشاعر الأول فيهم .. هذا كله فضلا عن خصوبة الحركة الأدبية فى العواصم الإسلامية الكبرى ، وخاصة

البصرة والكوفة، إلى عناية القبائل بالشعر إحياء لتاريخها ومفاخرها وأيامها وملاحمها ، وكان شعراء القبائل لسانها الناطق ، وقلبها الخافق ، وسلاحها الرهيب ، وجيشها المدافع عن أحسابها وأعراضها .

وإذا كانت مظاهر نهضة الشعر كثيرة فإن من أسبابها :

١ — تعدد الأحزاب ، فمن سياسية كالشيعة والأموية والخوارج والزبيرية ، إلى أحزاب دينية ، ومن بينها : المرجئة والجبرية والقدرية .

٢ — تقدير الحكام للشعراء ورعايتهم لهم ، واتخاذ الشعراء ناطقين باسمهم ، ونجد مظهر ذلك فى كعب بن جعيل الذى اتخذه يزيد شاعر الشام، حيث كان النجاشى شاعر العراق ، وكان مسكين الدارمى من المؤيدين لبيعة يزيد .. وقد هجا الأخطل الأنصار بأمر يزيد حيث يقول فيما يقول :

ذهبت قريش بالمكارم والعلا واللؤم تحت عمائم الأنصار

وصار الأخطل بعد ذلك شاعر عبد الملك بن مروان السياسى . كما كان عدى بن الرقاع شاعر الوليد بن عبد الملك ، وقرب الوليد إليه أيضا أعشى بنى تغلب . وكان عبد الرحمن بن حسان شاعر الأنصار .

ومن شعراء زياد بن أبى سفيان : حارثة بن بدر ، وكان من شعراء الحجاج : جرير والفرزدق ، ومن شعراء المهلب : كعب الأشقرى ، وحبيب ابن عوف والطفيل بن عامر ، ومن شعراء بشر ابن مروان : جرير والفرزدق وكثير وأعشى شيبان ، ومن شعراء عبد العزيز بن مروان : جميل ، ونصيب ، وكثير ، وابن الرقيات ، وأيمن ابن خريم .

وكان من شعراء مكة أبو العباس الأعمى ، ومن شعراء المدينة الأحوص ، ومن شعراء الكوفة عبد الله الأسدى والكميت ، ومن شعراء البصرة : جرير والفرزدق ، ومن شعراء الجزيرة : الأخطل والقطامى وأعشى تغلب ، ومن شعراء الشام : عدى بن الرقاع ، والأخطل .

٣ — ازدهار الثقافة العربية فى مختلف فروع المعرفة والعلم .

٤ — ازدهار الثقافة الأدبية فى الشعر والأدب والنقد والقصص ، وإحياء التراث الأدبى القديم ، وما تبع ذلك من عقد المجالس لسماع الشعر وإنشاده ونقده وروايته ، ومن اهتمام الخلفاء بتربية أبنائهم على الشعر وتذوقه ، حتى كان معاوية يقول : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فإن فيه مآثر أسلافكم (١) ، وكان عبد الملك بن مروان يقول لمؤدب أبنائه : أدبهم برواية شعر الأعشى ، ويقول لأبنائه : عليكم بطلب الأدب ، فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا ، وكان خلف وكثير من الرواة يدرسون تلاميذهم على قرض الشعر ، وكثر رواة الشعر فى هذا العصر ، ومن بينهم : الشعبى وحماد وأبو عمرو ابن العلاء ، ويونس ، وخلف .

٥ — هذا إلى خصوبة الحياة السياسية وشدة الصراع فيها بين مختلف الأحزاب والعصبيات والطوائف ، وإلى كثرة مظاهر الحضارة ومشاهدها ، وإلى التأثر بالشعر الجاهلى ومناهجه والتأثر كذلك بالقرآن وبلاغته وبالحديث النبوى الشريف وفصاحته أيما تأثر ، وإلى قيام الخصومات الأدبية بين الشعراء ، وإلى اهتمام القبائل بالشعر إحياء لمفاخرها ومآثرها ، وإلى تأثر الشعراء بآداب الأمم الأخرى وبخاصة الفرس .

وكان من آثار هذه النهضة الشعرية ارتفاع منزلة الشعر والشاعر فى عصر بنى أمية ، ونشأة علوم حول الشعر : كرواية الشعر ونقده وتأليف كتب اختيارات فيه ، ومن آثارها كذلك قيام حركات التجديد فى الشعر ، وصقل الشعراء لفنهم وتهذيبهم لأساليب الشعر وتجديدهم فى معانيه وسموهم بأخيلته .

---

(١) ٢ : ٤١ وفيات الأعيان .

وقد بلغ من سيرورة الشعر وذيوعه فى هذا العصر أن أصبح على كل لسان وفى كل فم ، واحتل بذلك مكانة الصحافة اليوم ؛ وكان أقوى مظهر أدبى فى هذا العصر ، بل أصبح الفن الأول من بين فنون الأدب فى عهد بنى أمية .

بيئات الشعر فى العصر الأموى :

على أن الشعر الأموى إنما كانت بيئاته هى الحجاز ونجد والعراق والشام فهى مهد الشعراء ، وفيها نهضة الشعر ؛ أما مصر وكذلك الشمال الأفريقى فلم تحفل بالشعر ولا بالشعراء فى عهد بنى أمية لأنها بيئات جديدة فى الأدب والشعر ، ولم تسترع انتباه الشعراء كثيرا فى هذا العهد .

أما بيئة الحجاز ، فقد اهتم أهلها بالشعر ، وعنوا به وبنقده عناية شديدة ، فكان أن شاع التغنى به ، وظهرت فنون جديدة منه : كالغزل القصصى ، والغزل العذرى . وقد أغدق الخلفاء على شباب الحجاز المال والعطاء ، ليصرفوهم عن المطالبة بالخلافة ، فذاع الترف ، وانتشر النعيم ، وكثر اللهو .

وأما بيئة العراق فكانت صبغتها ثورية ، وانطبع شعرها بالطابع الثورى ، وظهر فيه تبعا لذلك لون جديد هو الشعر السياسى ، الذى كان يدور حول الخصومات السياسية بين الخليفة ومعارضيه من الأحزاب ؛ وقد اهتم ولاة العراق بالشعر وأغدقوا على الشعراء المال ، ومن أشهرهم زياد والحجاج .

وأما بيئة الشام حيث عاصمة الخلافة ومستقر بنى أمية ، وحيث المال والترف ، فقد تساقط عليها الشعراء ، طلبا للرفد ، والتماسا للعطاء ، وطمعا فى المال ؛ وكانت قصائد التهنئة والمدح والفخر تلقى بين أيدى الخلفاء والأمراء والولاة فى دمشق وفى غيرها من مدن الشام العامرة الحافلة بأسباب النشاط .

وأما مصر فلم يبلغ فيها الشعر هذه المنزلة ، مع أن الشعراء كثيرا ما كانوا يفدون على ولاتها مادحين . ومثل مصر شمال إفريقية ، وقد يكون ضياع الشعر فيهما هو سبب ذلك ؛ ويرى أحمد أمين أن الشعر العربى لم ينتقل من بيئته إلى بيئة أخرى ، وأن الشاعر العربى لم يشعر إلا فى بيئته ، فى الجزيرة العربية وما جاورها ، وهذا خطأ واضح ، فان مصر وفارس وشمال إفريقية كانت بعد قليل من هذا العصر من أهم مراكز الشعر ، على أن الاهتمام بالشعراء وبالشعر هو السبب الأول لنمائه دائما ، فإذا قل من يشجع الشعر ويثيب عليه كان فى ذلك ضعفه ، ولا شك أن الشام والعراق والجزيرة العربية كانت دائما موضع عناية بالشعر واهتمام بالشعراء ؛ على أن الشعر لا وطن له ، فكما ينشأ فى البادية كذلك ينشأ فى المدينة ، وإنما مدار ذلك على ما يلقى الشعراء من تشجيع ، وعلى العناية بحفظ الشعر وتدوينه ؛ وانتقال الشعر من بيئة الحجاز إلى الحواضر الكبرى تبعا لانتقال المسلمين إليها ، أكبر دليل على ما نذهب إليه ، وأقوى رد على أحمد أمين ومن يشايعه .

المؤثرات العامة فى الشعر الأموى :

١ — الدين : تأثر الشعر بالدين والقرآن تأثرا كبيرا فى هذا العصر ، مما أدى إلى التطور فى معانيه وأساليبه وبعض أغراضه .

فالشعر الدينى فى هذا العصر ، وكذلك الغزل العذرى فيهما قبسات من روح الإسلام ، وكذلك نجد لجرير مثل قوله :

صلى الملائكة الذين تخيروا والطيبون عليك والأبرار

وابن الرقيات يقول :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
يتقى الله فى الأمور وقد أفـ لح من كان همه الاتقاء

وجميل يقول :

ألا تتقين الله فيمن قتلته فأمسى إليكم خاشعا يتضرع

والطرماح يقول :

إنما الناس مثل نابتة الزر ع متى يأت محتصده

وقطرى يقول :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى

والعجاج يقول فى مطلع أرجوزة له :

الحمد لله الذى استقلت بإذنه السماء واطمأنت

وأعشى همدان يقول فى الحجاج :

أبى الله إلا أن يتمم نوره ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا

هذه الأمثلة القليلة تمثل تأثر الشاعر الأموى فى معانيه وأساليبه بروح الدين والقرآن الكريم .

٢ — السياسة : لعبت السياسة دورها الكبير فى الشعر الأموى ، وقامت الأحزاب السياسية العديدة ، وكان الشعر السياسى صدى لها ، وتبعه كذلك شعر النقائض ، وشعر الشعوبية ، وشعر العصبيات القبلية .

٣ — الثقافة : اتسعت الثقافـــة فى عصر بنى أمية ، فشملت الثقافة الإسلامية والعربية والأدبية ، وتعددت بيئات الثقافة ومواطن العلم : فى مكة والمدينة والحجاز والشام وبخاصة دمشق ومصر والقيروان وطراباس وتونس والبصرة والكوفة وسواها ، وتصدر حلقات العلم فى الممالك الإسلامية الصحابة والتابعون ، واستفاد العرب من معارف الأمم الأخرى فبدأوا فى الترجمة منها إلى العربية ، وأفاد ذلك كله الشاعر العربى ثقافة فى أفكاره ومعانيه وأخيلته وثقافة فى فنه الشعرى .

وانظر إلى ذى الرمة وكان قدريا يقول باكتساب الإنسان لأفعال نفسه الاختيارية يقول :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان فى بالألباب ماتفعل الخمر

فقيل له : هلا قلت : فعولين ، تأنكر ذلك إنكارا شديدا ، لأنه لو قال: فعولين لكان جبريا ، وهو راغب عن الجبر إلى القول بالقدر .

واتضحت مناهج الشعر أمام الشاعر الأموى بتأثير الثقافة ، وأخذ الشباب يتعلم الشعر كما يتعلم الأدب والخطابة تعلما ، وقد أثر ذلك تأثيرا كبيرا فى تطور الشعر الأموى .

٤ — الحضارة : ارتقى ذوق العربى، واتسعت نظراته لمشاهد الحضارة فى كل مكان نزل فيه .

فمن حضارة فنية وحضارة سياسية وحضارة فكرية ، ومن مخالطة لأبناء الحضارات القديمة ، واتصال بعلومها وتراثها الحضارى . . إلى غير ذلك .

وهذا كله مما أفاد منه الشاعر الأموى سعة الخيال ، ورحابه أفق فى الأفكار والمعانى ، وتنوعا فى الأغراض ، وتجديدا فى الأسلوب والأداء .

وفى البيئات الحضرية أخذت لغة الشعر تميل إلى العذوبة والرقة والسماحة ، وقصد الشعراء الأوزان السهلة ، وتخيروا الرجز لقربه من العقلية الشعبية ... من حيث كان كثير من شعراء البادية يحافظون على الأنماط الشعرية القديمة من جزالة وغرابة وفحولة معان وغير ذلك .

وكان شعر الموالى يجمع بين ثقافات منوعة وعقلية ناضجة ؛ لذلك كثرت فيه المعانى الجديدة والأخيلة البديعة، وذهب بعضه فى الشعوبية ومذاهبها .

وبرق الغناء وتعدد مذاهبه رقت لغة الشعر ، وصار المجال فسيحا أمام الشعراء الغنائيين والعذريين والقصصيين .

٥ — الاقتصاد : كثرت الأموال فى أيدى الشعراء العرب فى العصر الأموى ، وكثرت منح الخلفاء والأمراء والولاة لهم ، وعاش الشاعر الأموى بذلك فى ترف كبير . . وكانت الحياة الاقتصادية فى عصرهم تكاد

تبلغ ذروتها رخاء ورفاهية وسعة فى التجارة والزراعة والصناعة حتى لم يجد الخليفة عمر بن عبد العزيز من يأخذ الزكاة .. فلا عجب أن يعيش الشعراء كما عاش الناس فى عصرهم يتمتعون بفراغ وثراء وجاه ، كان من أثره أن أثرى الشعر ، وتمتع الشاعر بالخيرات الكثيرة فى وطنه ، وبسماع الغناء ، واقتناء الجوارى ، وحسن المظهر . . وكان لذلك أثره فى حياة الشعر والشعراء فى هذا العصر العظيم .

التطور والتجديد فى الشعر الأموى

شمل التطور والتجديد فى الشعر الأموى مايلى :

أولا : الأغراض ـ حيث نشأت أغراض جديدة : كالشعر السياسى ، والغزل العذرى ، والغزل القصصى ، وشعر النقائض ، وشعر الشعوبية ، وشعر الرجز .

وكانت هناك أغراض تطورت فى هذا العصر كشعر المدح والهجاء والفخر والرثاء ، والغزل التقليدى والوصف .

ثانيا : من حيث معانى الشعر وأخيلته .

ثالثا : من حيث ألفاظه وأساليبه .

رابعا : من حيث أوزانه وقوافيه .

وسنتحدث عن كل ذلك بالتفصيل :

١ ــ أغراض الشعر الأموى

كانت أغراض الشعر الأموى هى أغراض الشعر الجاهلى ، من مدح وهجاء وفخر ورثاء ووصف ونسيب وغير ذلك من الأغراض القديمة ، التى نجدها ممثلة فى الشعر الأموى أتم تمثيل .

ومن البدهى أن الشعراء فى هذا العصر قد طرقوا جميع الأغراض التى تناولها الشعراء من قبل كالمدح والفخر والهجاء والرثاء والغزل ، ونحو ذلك من الأغراض العامة التى يتداولها الشعراء فى كل عصر ، بيد أن هذه الأغراض قد تأثرت بما جد من مظاهر الحضارة وألوان الترف ، وتشكلت بصورة البيئة وأحوال المجتمع وظروف السياسة .

وقد نشأت أغراض لم تكن موجودة من قبل ، كالشعر السياسى الذى كان صدى لهذه الخصومات السياسية . والعداوات القبلية ، والمنافرات الحربية ، وكأنواع من الغزل لم تكن معروفة من قبل ، وهى الغزل العذرى والغزل القصصى ؛ وألوان من وصف البلاد المفتوحة ، ونحو ذلك من تصوير لعقيدة دينية ، أو دعوة إلى زهد وتقشف ، مما استدعته مظاهر الحياة الجديدة وملابساتها . وكالشعر الشعوبى الذى جد فى هذا العصر . وشعر الرجز .

فالأغراض الجديدة هى :

١ — الشعر السياسى عند شعراء الأحزاب السياسية كقطرى والطرماح ، والكميت وجرير والفرزدق ، والأخطل وعبيد الله بن قيس الرقيات .

٢ — شعر الشعوبية أى الذين يسوون بين العرب وغيرهم من العناصر أو يفضلون العجم على العرب ، ومن هؤلاء اسماعيل بن يسار وإخوته محمد وإبراهيم وهم من عنصر فارسى ، والحيقطان الشاعر وهو من سلالة حبشية ، وابن رباح وهو من أصل زنجى ، وسواهم .

٣ — الغزل القصصى ومن شعرائه عمر بن أبى ربيعة والحارث المخزومى .

٤ — الغزل العذرى ومن شعرائه جميل وكثير وقيس بن الملوح وقيس ابن ذريح ، وتوبة العامرى صاحب ليلى الأخيلية ، وسواهم .

على أن هذه الأغراض جميعها قد اختلفت باختلاف الأقاليم ، وتأثرت بأحوال البيئات ، ففى الحجاز كثر الترف ، وفاض الثراء ، وشغل شباب الهاشميين بما أتيح لهم من فراغ ونعيم ، عن المطالبة بالملك ، والاشتغال

بالسياسة ، وانصرفوا إلى مجالس الغناء ومشاهدة الجمال ، فشاع لذلك الغزل العذرى ، والغزل القصصى .

وفى العراق كثرت الأحزاب واضطرمت العصبيات ، واستحكم الخلاف السياسى ، واشتدت المعارضة لبنى أمية ، فكان الشعر صورة واضحة لما يعتمل فى المجتمع من حياة ثائرة ، وفتنة عارمة ، وخصومات عنيفة ، فهو قوى عنيف يكثر فيه الفخر والهجاء ، ويصطبغ بالصبغة البدوية الجزلة ، وفى هذه البيئة ولد الشعر السياسى الذى يعد جديداً فى هذا العصر .

أما الشام فكان مهد الملك ، ومقر الخلفاء ، ومثابة الشعراء ، وكعبتهم التى يحجون إليها ، حاملين ماجادت به خواطرهم ، وفاضت مشاعرهم ، ثم يعودون وقد احتقبوا سنىّ الجوائز ، وعظيم الصلات . وفى ظلال الخلافة بالشام جرت ريح الشعر رخاء ، تطرق أبواب أغراضه الأخرى فى رفق ويسر : من وصف ومدح ونحو ذلك . وسنتكلم عن كل هذه الأغراض بتفصيل :

الشعر السياسى :

قامت خلافة الأمويين على أسنة الحراب والرماح وعاشت كذلك مدة حياتها . تجالد خصوما أقوياء ، وأعداء ألداء ، يجرحونها بالألسنة ، ويقاومونها بالألسنة ، وكان لكل حزب من خصومها شعراء يتعقبون مثالبها ، ويندون بسياستها ، ويثيرون الحفائظ عليها .

وكان كل شاعر من هؤلاء يشيد بحزبه ، ويدعو له ، ويؤلف القلوب حوله ، ويهجو خصومه السياسيين ، ويرثى شهداء جماعته .

١ — فهؤلاء الشيعة يقف بجوارهم شعراء كثيرون ، فهذا الكميت(١) ينافح عن بنى هاشم ويدافع عن حقهم فى الخلافة فيقول من قصيدة له مشهورة :

(١) الكميت بن زيد الأسدى ولد بالكوفة سنة ٦٠ هـ ، ونشأ بها وأخذ عن علمائها وأدبائها ورَوَى كثيرا من شعر الأقدمين وأخبارهم . وكان عالما بلغات =

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب
ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب

ولم تلهنى دار ولا رسم منزل ... ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه ... أصاح غراب أم تعرض ثعلب (١)
ولا السانحات البارحات عشية ... أمر سليم القرن أم مر أعضب (٢)
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى ... وخير بنى حواء والخير يطلب (٣)
إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نالنى أتقرب
بنى هاشم رهط النبى فإننى ... بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب
خفضت لهم منى جناحى مودة ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب (٤)
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... مجنا على أنى أذم وأقصب (٥)

= العرب وأنسابها ومفاخرها ومثالبها حتى لقد ناظر حمادا فى الرواية فغلبه وألجمه. وقد برع الكميت فى الخطابة والشعر ، وتعصب فى شعره للهاشميين كما كثر أهل الكوفة ، وجاهر بذلك ودافع عن حقهم فى الخلافة وندد بحكم الأمويين ، ومجد آل البيت ومدحهم غير عابىء بغضب بنى أمية ، وقتل عام ١٢٦ هـ ، وكان هارون مولى الأزد يرد على الكميت فى افتخاره بالعدنانية ، ويفخر بقحطان (٧ : ٧٥ الحيوان ـ الخانجى) .

(١) الزجر : الاستدلال على مايتوقع من الحوادث المستقبلة بأصوات الحيوانات وحركاتها وأحوالها ، وقد كان ذلك شائعا بين العرب ولهم فيه قصص أشبه بالخرافات .

(٢) السانحات : الطير المتجه من اليسار إلى اليمين والعرب يتفاءلون بها ويستبشرون . والبارحات ضده ، والأعضب : المكسور القرن .

(٣) النهى جمع نهية ـ بضم النون فيهما ـ وهى العقل .

(٤) خفض جناح المودة : كناية عن كمال الطاعة والحب والامتثال، والكنف: الحمى والمؤئل ، وعطفاه : جانباه . ومعنى البيت أن الشاعر يميل إليهم ويصفيهم مودته ويجد فيهم أهلا له مرحبين به .

(٥) المجن : الترس يتقى به المحارب ضربات عدوه ، وأقصب ـ على البناء للمجهول ـ أشتم وأعاب .

وأرمى وأرمى بالعداوة أهلها وإنى لأوذى فيهم وأؤنب
فما سامنى قول امرىء ذى عداوة
بعوراء فيهم يجتدينى فأجذب (١)
فقل للذى فى ظل عمياء جونة يرى الجور عدلا أين لا أين تذهب (٢)
بأى كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عارا على وتحسب
وقالوا ترابى هواه ورأيه بذلك أدعى فيهم وألقب (٣)
وأحمل أحقاد الأقارب فيكم وينصب لى فى الأبعدين فأنصب (٤)
بحاتمكم غصبا تجوز أمورهم فلم أر غصبا مثله يتغصب (٥)
إذا انتضعونا كارهين لبيعة أناخوا لأخرى والأزمة تجذب (٦)
أقاربنا الأدنون منكم لعلة وساستنا منهم ضباع وأذؤب (٧)

---

(١) العوراء : الكلمة النابية أو الفعلة القبيحة . ويجتدينى يطلب منى اتباعه. فأجذب : أمتنع عليه ، والمعنى : أن الأعداء يشتمونى بسببهم ويحاولون صرفى عنهم فلا أستجيب لهم .

(٢) العمياء : الضلالة . والجونة : السوداء . لا أين تذهب . دعاء عليه بألا يعرف قصده .

(٣) ترابى : نسبة إلى أبى تراب وهو على رضى الله عنه .

(٤) ينصب لى فيكم ـ بالبناء للمجهول ـ أعادى وأحارب .

(٥) تجوز : تنفذ وتمضى . يتغصب : يغتصب .

(٦) أتضعونا أخضعونا . أناخوا لأخرى : دبروا الأمر لبيعة أخرى . والأزمة : جمع زمام . وتجذب : تؤخذ غلابا ، والمعنى أنهم يكرهون الناس على البيعة لأمرائهم واحدا بعد آخر ويتوسلون لذلك بالحيلة والقهر .

(٧) العلة : بكسر العين ـ الحدث يشغل صاحبه عن رعاية شئونه: والأذؤب. جمع ذئب . والمعنى : أنهم شغلوا الهاشميين بالأحداث المتتابعة من قتل واضطهاد وتشريد ، وانطلقوا هم كالوحوش الضارية يبطشون بالناس ويخيفونهم .

لنا قائد منهم عنيف وسائق ... يقحمنا تلك الجراثيم متعب (١)
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا ... وما ورثتهم ذاك أم ولا أب (٢)
يرون لهم حقا على الناس واجبا ... سفاها . وحق الهاشميين أوجب (٣)

والقصيدة هذه هى إحدى هاشميات الكميت ، وهى من عيون الشعر العربى وروائعه ، وقد اكتسبت شهرة كبيرة ، وهى إحدى نماذج الشعر السياسى الذى نشأ فى هذا العصر .

٢ — وهؤلاء الخوارج يقفون دائماً للدولة كالشجى فى الحلوق ، والقذى فى العيون ، ترصد لهم الدولة أعتى القوى ، وأنضى الأسلحة ، فلا تستطيع أن تخضد لهم شوكة ، أو تضعف لهم قوة ، أو تسكت لهم لساناً . فهم بما تغلغل فى قلوبهم من عقيدة ، واستقر فى نفوسهم من مذاهب ، لا يفتأون يجالدون الحاكمين فى عنف ، ويصارعون مخالفيهم فى الرأى ، فى قسوة مرة وصلابة عنيفة ، وهذا قطرى بن الفجاءة يصف موقعة دارت فيها رحى الحرب بينهم وبين أهل البصرة ، فى يوم دولاب ، وهى بلدة بالأهواز ، فى قصيدته التى يقول فيها :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

فهو بهذا يعتبر أعداء حزبه كفاراً ، تستباح دماؤهم ، ويعد قتلى الخوارج شهداء باعوا نفوسهم بجنات النعيم .

---

(١) المراد بالقائد والسائق : الخلفاء والولاة . ويقحمنا : يكلفنا ويحملنا . والجراثيم : جمع جرثومة وهى التراب المجتمع فى أصول الشجر تسفيه الريح فيتأذى الناس منه . (٢) ورثناها : أى الخلافة .
(٣) سفاها - بفتح أوله - جهلا وخفة حلم .

وهذا عمران بن حطان (٨٩ هـ) وكان مغالياً فى التعصب على (علىّ) يمدح ابن ملجم قاتله :

لله در المرادى الذى سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشـــاه بضربته ... مما جناه من الآثام عريانا
ياضربة من كريم ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأفكر فيه ثم أحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

٣ — وهؤلاء الأمويون كانوا أسبق الناس فى ابتداع هذه البدعة ، واستنان هذه السنة ، وإثارة الشعراء وتحريضهم على خصومهم : أثاروا الأخطل شاعرهم على الأنصار ، فهجاهم بقوله :

ذهبت قريش بالمكارم كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

مما اضطر النعمان بن بشير الأنصارى إلى الدخول على معاوية ، متألماً شاكياً ، قائلا فى قصيدة له :

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة ... سترقى بها يوماً إليك السلالم

وقد كثر الشعراء الذين يهجون الأمويين ، وينتقدون سياستهم ، وكان شعراء الأمويين الكثيرون ، يصدون هذه الحملات ، ويردون على هذه الانتقادات ، ويمدحون بنى أمية ، ويهجون خصومهم ، فهذا أعشى ربيعة . يقول فى مدح عبد الملك وهجاء الزبيريين :

آل الزبير من الخلافة كالتى ... عجل النتاج بحملها فأحالهـــا
أو كالضعاف من الحمولة حملت ... ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تنامو عنهمو ... كم للغواة أطلتمو إمهالها
إن الخلافة فيـــكم لافيهمو ... مازلتمو أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا ... فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

وهذا الأخطل يقول :

نفسى فداء أمير المؤمنين إذا ... أبدى النواجذ يوماً صارم ذكر
الخائض الغمرة الميمون طائره ... خليفة الله يستسقى به المطر
فى نبعة من قريش يعصمون بها ... ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عيافو الخنا أنف ... إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
لا يستقل ذوو الأضغان حبهم ... ولا يبين فى عيدانهم خور
شمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا
بنى أمية نعماكم مجللة ... تمت فلا منة فيها ولا كدر

وهذه القصيدة تكاد تختصر فنون الأخطل الشعرية كلها ، وهى التى مدح بها عبد الملك بن مروان بعد انتصاره على مصعب بن الزبير وكان لها ولأخرى مثلها فى الأدب العربى وحياة القبائل العربية شأن عظيم ، بدأ الأخطل هذه القصيدة بذكر أحبته الذين فارقوه وارتحلوا عنه فقال فى مطلعها :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا
وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

ثم وصف حزنه لفراق هؤلاء الأحبة وذهوله وهو ينظر فى آثارهم ويتبعهم طرفه كئيباً مولها ، فشبه نفسه فى هذه اللحظة بالسكران قد عبثت به الخمر ، أو المسحور قد ملك السحر عليه أمره ، وانتهز هذه الفرصة فوصف الخمر وصفاً قصيراً جيداً ، ثم انتقل إلى صاحباته اللاتى ارتحلن فشبب بهن تشبيباً قصيراً حسناً وألم بشىء من أخلاق النساء وإيثارهن للشباب وانصرافهن عن الكهول والشيوخ ، فقال :

ياقاتل الله وصل الغانيات ذا ... أيقن أنك ممن قد زها الكبر
أعرضن لما حنى قوسى موترها ... وابيض بعد سواد اللمة الشعر

ما يرعوين إلى داع لحاجته ولا لهن إلى ذى شيبة وطر

ثم يصف طريقهن ويخلص من هذا كله إلى مدح عبد الملك وتهنئته بالفوز وإثبات حقه فى الخلافة فيقول :

إلى امرىء لاتعرينا نوافله أظفره الله فليهنأ له الظفر

ويمضى فى مدح عبد الملك فيصفه بالبأس والنجدة والجود ، وإيثار المسلمين بالخير والمهارة فى تدبير الأمور ، وقيادة الجيوش وقهر العدو ، ويقص من ذلك ماكان فى حرب عبد الملك لمصعب حتى تم له النصر ، فإذا أرضى عبد الملك انتقل إلى بنى أمية عشيرته فمدحهم أحسن مدح وأجمله ، وصور من أخلاقهم ما أعجب به المعاصرون جميعاً حتى عدوا الأخطل فيه أشعر العرب وذلك قوله :

حشد على الحق عيافو الخنا أنف إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شم العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

على أن الحرب قد وضعت أوزارها بين عبد الملك وأنصار ابن الزبير ، ولكن لها آثارا سيئة لم تزل بعد ، وما زال فى المنهزمين مكر وخداع وكيد . فالأخطل يحذر بنى أمية من هؤلاء المنهزمين ، ويذكرهم بنصحه لهم وحسن بلائه حين دافع عنهم الأنصار ، فيقول :

بنى أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
أحميت عنكم بنى النجار قد علمت عليا معد وكانوا طالما هدروا
حتى استكانوا وهم منى على مضض والقول ينفذ مالا تنفذ الابر
بنى أمية إنى ناصح لكم فلا يبيتن فيكم آمنا زفر

والأخطل شديد الحرص على أن تجنى قبيلته ثمرة النصر فهو يذكر عبد الملك ببلاء تغلب فى الحرب فيقول :

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغوطة الخبر

ويمضى بعد ذلك فى هجاء قيس وتصوير ما أصابهم من ألوان الهزيمة فى المواقع المختلفة تصويراً دقيقاً فيه شدة وسخرية لاذعة ، حتى إذا فرغ من قيس التفت إلى أنصارهم من كليب رهط جرير — الذى كان يدافع عن قيس بلسانه — فيهجوهم هجاء مرا مقذعا . وبذلك تنتهى هذه القصيدة الرائعة.

ولقد كان الأخطل من تغلب ، وتغلب قبيلة من ربيعة كانت تسكن الجزيرة وشمالى الشام ، فلما كان الإسلام أقبلت على هذه البلاد قبائل مضرية من قيس ، فزاحمت فيها ربيعة كما زاحمت فيها العرب اليمانية ، وكانت هذه القبائل القيسية والمضرية قد مالت مع ابن الزبير على بنى أمية ، فاتفقت مصلحة الأمويين واليمنيين والتغلبيين على محاربة القيسية والمضرية فى الشام والجزيرة والعراق ، حتى تم النصر لعبد الملك على مصعب بن الزبير .

ومن هنا كان شعر الأخطل السياسى ذا لونين مختلفين ، فأما أحدهما فالدفاع عن حزب بنى أمية والنضال عن سلطانهم وتثبيت حقهم فى هذا السلطان ، وأما الثانى فالدفاع عن قبيلته تغلب وحلفائها من عرب اليمن المقيمين فى الشام ، والإلحاح فى هجاء القيسيين خاصة والمضريين عامة .

وحياة الأخطل هذه وما أحاط بها من الظروف المختلفة ضمنت له التفوق فى فنون من الشعر لم يكد يبلغ حظه منها شاعر من الذين عاصروه ، فقد كان بحكم اتصاله بالقصر وانقطاعه للأمراء والخلفاء أمدح أهل عصره للملوك ، وكان بحكم هذا الاتصال أيضا أقدر أهل عصره على النضال السياسى ، وكان بحكم حياته الخاصة فى قبيلته واشتراكه الفعلى فيما كان يعرض لهذه القبيلة من بأس الحرب ولين السلم أقدر أهل عصره على وصف الحرب وتصوير ما يعرض فيها من الهزيمة .

والأخطل من فحول الشعراء الإسلاميين ومن رواد الشعر السياسى

فى عصر بنى أمية ، وهو أبو مالك غياث بن غوث المعروف بالأخطل التغلبى ، ولد فى خلافة عمر فى قبيلة تغلب التى كانت تسكن الجزيرة والعراق ، وكانت تدين بالنصرانية ، فأقرها عمر على نصرانيتها ، وقبل منها الجزية ، وقد نشأ الأخطل نشأة بدوية فى الجزيرة ، ويتحدث الرواة أنه بدأ تول الشعر طفلا فهجا امرأة أبيه ثم أمضى شبابه يقول الشعر فيما يعرض لأهل البادية من الخصومة بين الأفراد والقبائل ، فلما كانت أيام معاوية وظهر الشر بين الأنصار وبنى أمية احتاج يزيد بن معاوية ولى العهد حينئذ إلى شاعر يهجو له الأنصار ، فدل على الأخطل فكلفه ذلك ، وقبله بعد أن نكل عنه غيره من الشعراء المسلمين تحرجا من هجائهم ، قبل الأخطل هذه المهمة لنصرانيته ، فهجا الأنصار وألح فى هجائهم وتفضيل قريش عليهم حتى شفى نفس يزيد ، وتعرض هو لخطر عظيم ، وانقطع بعد ذلك ليزيد فلزمه أميراً وخليفة حتى مات ، ثم اتصل بخلفاء بنى أمية بعده ولا سيما عبد الملك بن مروان ، وفى عصر عبد الملك هذا ظهر تفوق الأخطل ونبوغه فى الشعر ، حتى هابه المضريون وحسبوا له حسابا ، وحتى آثره عبد الملك على غيره من شعراء عصره جميعاً ، وأمر من يعلن بين الناس أنه شاعر بنى أمية وشاعر أمير المؤمنين ، ذلك أنه ناصر بنى أميـــة وناضل عنهم حزب الزبيريين كما ناضل عنهم الأنصار من قبل ، وبينما كان نضاله للأنصار أيام معاوية ويزيد عمل شاعر مأجور يريد أن يتصل بالقصر وينال الحظوة فيه ، كان نضاله حزب الزبيريين أيام عبد الملك عملا صادقا مخلصا يدافع به عن مصالح قبيلته ومكانتها :

وكان الأخطل أحد الشعراء الثلاثة السابقين ســـواهم من فحول الإسلاميين وكان مطبوعاً على الشعر ، بعيداً عن التكلف والتعمق فيه ، وامتاز بإجادة المديح والإبداع فى معانيه والتنويع فى ضروبه والتريث فيه ، حتى ربما لبث فى بعض مدحاته سنة كاملة ، وربما نظمها تسعين ثم يكر

عليها بالتمحيص والاختيار ، حتى يحذف منها ستين ويبقى الثلاثين ؛ كما امتاز لنصرانيته بوصف الخمر والترغيب فيها . ولم يقصر فى الهجاء عن صاحبيه كثيراً وفضلهما بقلة التعرض للفحش والبذاءة ، ولكنه كان دونهما فى بقية فنون الشعر ؛ كالرثاء وغيره ، وليس الأخطل سوى سبع مطولات أدركهما بها . ولذلك لم ير قدماء أهل العلم والرواة تسويته بهما لتقصيره عنهما فى التصرف فى سائر أبواب الشعر (١) .

٤ — وهذا عبيد الله بن قيس الرقيات (٢) يمدح حزب الزبيريين، ويأسى لانقسام قريش ، ويذم الأمويين وأهل الشام ، وينعى عليهم عدوانهم على الكعبة المكرمة ، ويمدح مصعب بن الزبير ، فيقول من قصيدة له :

أيها المشتهى فنـــاء قريش ببـــد الله عمرها والفنـاء
إن تودع من البـلاد قريش لا يكن بعدهم لحى بقـاء

---

(١) من المصادر لدراسة شعر الأخطل :
شعراء النصرانية بعد الإسلام ، الشعر والشعراء ، جمهرة أشعار العرب ، طبقات الشعراء لابن سلام ، شعر الأخطل لأنطون صالحانى ، الأخطل لفؤاد البستانى بيروت ١٩٢٦ ، الروائع عدد ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ ، شعراء البلاط الأموى لعمر فروخ ، الأخطل لحنا نمر سلسلة الطرائف الأدبية ، رأس الأدب المكلل فى حياة الأخطل لعبد الرحيم محمود ، الحياه الأدبية بعد ظهور الإسلام .

(٢) عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر قرشى ولد بمكة . ثم انتقل فى أول شبابه إلى المدينة وظل بها زمنا ، ثم رحل إلى الجزيرة والعراق ، وحينما خرج عبد الله ابن الزبير على الأمويين انضم عبيد الله إليه . وحارب فى جيش مصعب . وحرض على القتال واشتد فى شعره على بنى أمية . ولما قتل مصعب وهزم الزبيريون استشفع لدى عبد الملك بن مروان حتى عفا عنه ، ثم سافر إلى مصر ومدح عبد العزيز بن مروان ، واكتسب لديه حظوة عظيمة ، وأكثر شعره فى المدح والسياسة ، وسمى بابن قيس الرقيات لأنه تغزل فى ثلاث نساء اسم كل منهن رقية ، وتوفى عام ٨٥ هـ .

لو تقفى وتترك الناس كانوا ... غنم الذئب غاب عنها الرعاء(١)
هل ترى من مخلد غير أن ال ... ـ له يبقى وتذهب الأشياء
يأمل الناس فى غد رغب الده ... ـ ر ، ألا فى غد يكون القضاء(٢)
عين فابكى على قريش وهل ير ... جع ما فات ـ إن بكيت ـ البكاء ؟
لو بكت هذه السماء على قو ... م كرام بكت علينا السماء
معشر حتفهم سيوف بنى العلا ... ت يخشون أن يضيع اللواء(٣)
ترك الرأس كالثغامة منى ... نكبات تسرى بها الأنباء(٤)
مثل وقع القدوم حل بنا فالـ ... ـناس مما أصابنا أخـــلاء
ليس لله حرمة مثل بيت ... نحن حجابه عليه الملاء(٥)
خصه الله بالكرامة فالبا ... دون والعاكفون فيه سواء
حرقته رجال لخم وعك ... وجذام وحمـــير وصداء(٦)
فبنيناه بعـــد ما حرقوه ... فاستوى السمك واستقل البناء(٧)

---

(١) تقفى ـ بضم أوله ـ تدبر وتولى وتذهب ، وأصله أن المدبر يولى الناس قفاه . والرعاء : جمع راع .

(٢) رغب الدهر : رغائبه .

(٣) الحتف : الهلاك والموت . والعلات : جمع علة ـ بالفتح فيهما ـ وهى الضرة ، وبنو العلات أبناء الرجل الواحد من أمهات شتى ، والمراد هنا الأقارب مطلقا . واللواء : السيادة والملك .

(٤) الثغامة ـ كالنعامة ـ شجرة بيضاء الزهر ، والمراد : أن هذه النكبات قد أشابت رأسه من شدة هولها .

(٥) الملاء : جمع ملاءة ـ بضم الأول فيهما ـ وهى الثوب اللين من قطعة واحدة . والمراد : الستر .

(٦) لخم ـ بفتح فسكون ـ وجذام ـ بضم أوله ـ ، وحمير بكسر فسكون ـ ، وصداء ـ بضم الأول ـ قبائل وأحياء يمنية . وعك ـ بفتح أوله ـ نزارية .

(٧) استوى : استقام . والسمك : السقف . واستقل : ارتفع .

إنما مصعب شهاب من الله ... تجلت عن وجهه الظلماء(١)
ملكه ملك قوة ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياء(٢)
يتقى الله فى الأمور وقد أفـ ... ـلح من كان همه الإتقاء
كيف نومى على الفراش ولما ... تشمل الشام غارة شعواء(٣)
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى ... عن براها العقيلة العذراء(٤)
أنا عنكم بنى أمية ومزور ... ر وأنتم فى نفسى الأعداء
إن قتلى بالطف قد أوجعتنى ... كان منكم لثن قتلتم شفاء(٥)

والشاعر هنا كما رأيناه يذكر ذلك العهد القديم فى أسف شديد ، لافتراق الرأى واختلاف الهوى . وهو يفخر بملك قريش ويرى أنه قوام الدولة ؛ وحياة الشعوب الإسلامية ، وهو يذكر أبطال قريش الذين ناصروا النبى فى حياته وأسسوا دولة قريش بعد وفاته ، وهو إذاً إنما يمدح مصعب بن الزبير ويناصره لأنه ماض فى هذه السنة سنة الاحتفاظ بالملك والسلطان لقريش وحدها، وعبيدالله بن قيس الرقيات مبتكر فى الشعر السياسى حسن الابتكار .

وكان عبيد الله بن قيس الرقيات قرشياً من بنى عامر بن لؤى وكان حريصاً قبل كل شىء على أن يظل السلطان لقريش كما كان قبل الفتنة، وإلى أن تكون أهواء قريش مؤتلفة ، وآراؤها مجتمعة ... وابن الرقيات من ألطف الشعراء الأمويين روحا ، وأعذبهم أسلوبا ، وأيسرهم شعرا، وأخفهم ظلا..

---

(١) الشهاب : الكوكب . وتجلت : زالت وانكشفت .
(٢) الجبروت : القسر والطغيان .
(٣) شعواء : شديدة منتشرة .
(٤) تذهل : تشغل وتنسى . والبرى : جمع برة - بضم الأول فيهما - وهى الخلخال ، وتطلق كذلك على القرط والسوار . والعقيلة : الكريمة المخدرة . والعذراء : البكر .
(٥) الطف : موضع قرب الكوفة دارت فيه معركة بين مصعب بن الزبير وجيش عبد الملك بن مروان . وانتهت بقتل مصعب وكثير من رجاله .

وبعد فهذا اللون من الشعر بحر زاخر . تلاطمت أمواجه ، وتدافعت أثباجه فى هذا العصر المضطرم بألوان العصبيات السياسية والقبلية ، وحسبنا هذه القطرات التى تشف عن أهم عناصره ، وأوضح مناحيه ، من مدح مشوب بالتحريض . أو هجاء توحى به الأحقاد ، أو جدل حول فكرة سياسية ، أو شرح لعقيدة دينية أو حزبية ، فهو بهذه الألوان المتعددة ، والمعانى المتنوعة ، والكثرة الزاخرة ، يعد غرضا جديداً فى هذا العصر .

شعر الشعوبية :

ولقد كانت قسوة الدولة على الموالى فى هذا العصر واعتزازها بكل ماهو عربى ، واحتقارها لكل ماهو أعجمى ، وأنفتها منه ، مما جعل الموالى يضمرون العداوة للعرب ، وإن منعتهم قوة الدولة ، وعنفوان سلطانها ، أن يظهروا بهذه العداوة وأن يعلنوا تلك الخصومة ، ولقد كان يجرى على ألسنتهم أحيانا ما يعبر عما يستكن فى نفوسهم من ضغينة وموجدة على العرب ، ويحاولون أن يظهروا مجد قومهم ، فى عصبية لأجناسهم واعتزاز بشعوبهم . وقد سمى هؤلاء « شعوبيين » (١) . ومن هنا بدأ يظهر لون جديد من ألوان الأدب ، وغرض مستحدث من أغراض الشعر ، هو الشعر الشعوبى ، وقوامه الطعن على العرب ، والاعتزاز بالأعاجم وخاصة الفرس ، والإشادة بحضارتهم ومجدهم وما كان لهم من ملك وسلطان .

وقد اتسع هذا اللون من الشعر اتساعا شاملا فى العصر العباسى حتى خلف ثروة ضخمة من الشعر العربى .

---

(١) نسبة إلى الشعوب جمع شعب ، وهو جيل من الناس أوسع من القبيلة ؛ أو من الشعوب فى قوله تعالى : « وجعلناكم شعوبا وقبائل » ، على أن المراد بالشعوب العجم وبالقبائل العرب .

ومن شعراء الشعوبية فى العصر الأموى : إسماعيل بن يسار (١١٠ هـ) وإخوته محمد وإبراهيم وهم من عنصر فارسى ، والحيقطان الشاعر وهو من سلالة حبشية ، وابن رباح وهو من أصل زنجى .

دخل إسماعيل بن يسار على هشام بن عبد الملك فى خلافته ، فأنشده شعرا منه :

إنى وجدك ماهودى بذى خور ... عند الحفاظ، ولاحوضى بمهدوم
أصلى كريم ومجدى لايقاس به ... ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب ... من كل قرم بتاج الملك معموم (١)
من مثل كسرى وسابور الجنود معا ... والهرمزان : لفخر أو لتعظيم ؟
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا
وهم أذلوا مـــلوك الترك والروم
هناك إن تسألى تنبى بأن لنا ... جرثومة قهرت عز الجراثيم

فغضب هشام ، وقال : أعلى تفخر ، وإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ غطوه فى الماء ، فغطوه فى البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم نفاه من وقته إلى الحجاز (٢) .

وقال إسماعيل فى قصيدة أخرى :

رب خال متوج لى وعم ... ماجد مجتدى كريم النصاب
إنما سمى الفوارس بالفر ... س مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركى الفخر ياأمام علينا ... واتركى الجور وانطقى بالصواب
واسألى إن جهلت عنا وعنكم ... كيف كنا فى سالف الأحقاب

---

(١) القرم : السيد الكريم . معموم : معتم بالعمامة .
(٢) الأغانى ص ١٢ ج ٤

الغزل (١) :

شاع الغزل فى العصر الأموى ، وتعـــددت ألوانه ، واتسعت مظاهره : بل إنه أخذ مظهرا جديداً لم يكن له من قبل ، فقد وجد شعر الغزل مستقلا لايشركه غرض آخر ، وظهرت وحدة الغرض فى القصيدة الغزلية كما وجد شعراء وقفوا حياتهم وفنهم على الغزل ، لايقولون فى غيره ، ولا يطرقون باباً آخر سواه ، فكل خاطرة من خواطرهم ، وكل نزعة من نزعاتهم لاتتصل إلا بالمرأة ، وكل لفظة من ألفاظهم لاتصف إلا جمالها الفاتن ، وحديثها العذب ، وحبها المبرح ، ووصالها الحلو ، وصدها المضنى ؛ وقد انقسم الغزل فى هذا العصر أقساما ثلاثة :

---

(١) الغزل والنسيب والتشبيب ليست بمعنى واحد . أما الغزل فهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن ، وليس فيما ذكرته فى شىء ، وقد نبه على ذلك قدامة فى نقد الشعر (٧٣ نقد الشعر ، و ١١ : ٢ العمدة) ؟ فالغزل التصابى والاستهتار بمودات النساء (٧٣ نقد الشعر) ، وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صبابة (١١٠ الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى لمحمد هاشم) ؛ والنسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن (٧٣ نقد الشعر) فهو أثر الحب وتبريح الصبابة (١١٠ محمد هاشم) ؛ والتشبيب يجوز أن يكون من ذكر الشبيبة وأصله من الارتفاع ويجوز أن يكون من الجلاء يقال شب الخمار وجه الجارية إذا جلاها ووصف ماتحته من محاسنه (٢٢١ : ٢ العمدة) وهو مايقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة فى مطالع الكلام ومايضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم والأطلال (١١٠ محمد هاشم) .

وفى رأيى أن الغزل والنسيب والتشبيب ثلاثتها بمعنى واحد هو وصف الجمال والحب وأثرهما فى النفوس وتصوير عواطف الشاعر أمامهما ، وآماله وآلامه التى يقاسيها فى سبيلهما ، ويسير على ذلك الرأى الأستاذ محمود مصطفى (٢٧٥ الأدب العربى فى العصر الإسلامى) .

١ — الغزل التقليدى :

وهو هذا النوع من الغزل الذى ينظمه الشاعر فى وصف المرأة أو الحنين إليها ، أو مايكون له معها من وصل وصد ، ورجاء ويأس ، وإطماع وامتناع : وإن لم يبرح به هوى ، أو يستبد به حب ، أو تضنيه صبـــابة .

وهذا النوع ليس جديدا فى هذا العصر ، وإنما كان استمرارا لمذهب الشعراء القدامى من الجاهليين ، كما ظل كذلك فى جميع العصور . ومعظمه فتحت به القصائد ، وقد يكون غزلا مستقلا يعبر عن مشاعر النفس وحنينها إلى من تحب .

وشعراء هذا اللون كثيرون فى هذا العصر ، منهم جرير والفرزدق والأخطل وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وذو الرمة ، وغيرهم .

ومن القصائد المشهورة فى هذا الباب قصيدة ابن الدمينة الدالية . . وفيها يقول ابن الدمينة عبد الله بن عبيد الله العامرى التميمى الشاعر الأموى المشهور (١) يحن إلى نجد :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد ؟ لقد زادنى مسراك وجدا على وجد (٢)
أأن هتفت ورقاء فى رونق الضحى
على فنن غض النبات من الرند

---

(١) شاعر من شعراء بنى أمية رقيق النسيب ، مجيد فى الغزل ، مشهور فى روائع قصائده الغزلية . والدمينة أمه .

(٢) الصبا : القبول . وهى تهب من قبل الشرق ، وهجت : ثرت . ومسراك : سيرك ، يقول : متى هبت أيتها الريح فقد زادنى سيرك شوقا وجدد لى هبوبك ما كنت أقاسيه من تباريح الغرام والوجد .

بكيت كما يبكى الوليد ولم تكن ... جزوعاً وأبديت الذى لم تكن تبدى(١)
وقد زعمـــوا أن المحب إذا دنا ... يمل .. وأن النأى يشفى من الوجد(٢)
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذى ود

وفى هذه الأبيات تبدو خصائص الغزل الأموى واضحة من الرقة والعذوبة والجمال وفرط الصبابة ، ولوعة الهيام ، وكثرة إرسال العبرات .

والغزل يتطلب الرقة والعذوبة ، وقد كان ابن الدمينة هنا موفقاً فى اختيار ألفاظه وأساليبه ، التى تمثل قلباً آده الحب ، وصدراً انطوى على أنبل العواطف الإنسانية وأكرمها ، وكأنما كان ابن الدمينة فى هذه الأبيات ممثلا لتأثير الإسلام والقرآن فى الأدب ، فإن هذه الروحية الصادقة ، وتلك العاطفة المشتعلة ، وهذه المشاعر المؤثرة كل ذلك أثر من آثار روحية الإسلام وتأثيره الشديد فى نفوس الشعراء .

---

(١) يخاطب نفسه لائما لها ومنكراً عليها فيقول : أتبكين بكاء الصبى وتظهرين الجزع ، لأن حمامة سجعت على غصن ضحى وعهد الناس بك أنك جلد دائم الصبر . وهتفت : صاحت . وورقاء : حمامة فى بياضها سواد ، ورونق الضحى : حسنه . والغض : الغصن الناضر الطرى ، والرند : ضرب من الشجر . ومعنى البيتين : أتبكى كما يبكى الحزين أو الطفل الوليد لأنك سمعت ورقاء تهتف فى الضحى على أليفها الحبيب ، وقد كنت ليس من عادتك البكاء أو الحزن .

(٢) أى زعم الناس أن الدنو من المحبوب وطول الإقامة معه يورث المحب ملالا وأن النأى عنه يحدث فى النفس سلوا ، وقد تداوينا بكل واحد من ذلك فلم ينجع الدواء وتفاقم الداء إلا أنى وجدت القرب خيراً من البعد لأن فيـــه إحياء للأمل ، على أن تقارب الدار لايجدى شيئا إذا كان المحبوب لايرعى ودا ولا يحفظ عهداً .

يحن الشاعر إلى نجد ، ويبكى لفراق أحبابه ، ويصبو إليهن فيه ، ومن ثم استقبل صبا نجد ، وسألها عن وقت هبوبها من هذا الوطن الحبيب ، وبثها ما حملته نفسه من وجد على وجد ؛ ومن شأن المحب المفارق أن يقف على السبل يتنسم الريح ، ويستنشى بها عند ماتهب عليه قادمة من ديار أحبابه ، يؤثر مسراها فى نفسه وأعماق وجدانه ، ولولا سذاجة الخيال فى شعر ابن الدمينة لظننا أنه شاعر مترف متحضر ؛ ومن مظاهر هذه السذاجة قوله : « بكيت كما يبكى الوليد » . ومن مظاهر الترف والجمال فى الألفاظ قوله : هتفت ورقاء — رونق الضحى — فنن غض النبات ؛ إلى غير ذلك كله ، ومن مظاهر هذه السذاجة كذلك وصفه لحيرته ، حيرة هذا المحب المحروم ممن يحب ، على البعد والقرب على السواء ، وذلك فى بيته . « وقد زعموا » والبيت الذى يليه .

ومن مشهورات قصائد هذا الغزل التقليدى كذلك قصيدة الصمة بن عبد الله القشيرى .

والصمة بن عبد الله القشيرى شاعر غزل عفيف مقل نشأ بالبادية فتربى على الشجاعة والمروءة وعزة النفس ودرج فى معاهد الصبا مع ابنة عمه ريا فأحبها وكلف بها ، ثم خطبها إلى أبيها فاشتط فى المهر ، وركب أبوه رأسه فأبى أن يدفع المهر كاملا ، وتمادى الشيخان فيما ذهبا إليه ، فرأى الشاعر المتيم أن الإقامة بينهما لؤم ، وعزم أن يرحل إلى الشام لعل النأى عن دار الأحبة يسليه عنهم ويشفيه من جوى الحب ، فلما كان فى بعض الطريق ووجد دارها قد غابت واعترضت الجبال بينهما وتحركت بنات الشوق وهتفت دواعى الصبابة كاد قلبه يطير وكبده من شدة الوجد تذوب ، وقال هذه الأبيات التى تعبر عن الحزن العميق والداء الدفين . قال الصمة :

حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا

فما حسن أن تأتى الأمر طائعا ... وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا(١)
قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى ... وقل لنجد عندنا أن يودعا(٢)
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا ... وما أحسن المصطاف والمتربعا
ولست عشيات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر أعرض دوننا ... وجالت بنات الشوق يحنن نزعا(٣)
بكت عينى اليسرى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفت نحو الحى حتى وجدتنى ... وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا(٤)

---

(١) الحنين : ألم الشوق . المزار مكان الزيارة . والشعب القبيلة . وحسن مبتدأ، وأن تأتى فاعل سد مسد الخبر، ويجوز أن يكون مبتدأ وحسن خبره . وقوله أن داعى الصبابة : أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وداعى الصبابة أسمع خبره . ومعنى البيتين : حننت إلى ربا وأنت آثرت البعد عنها وليس بجميل أن تختار الفراق طائعا ثم تجزع لأن داعى الشوق أسمعك وحرك منك مشاعرك .

(٢) يخاطب رفيقيه فى السفر ويسألهما أن يقفا لتوديع نجد وساكنى الحمى منه ، ثم قال : قليل لنجد وساكنيه التوديع لأن حقهما أعظم من ذلك . والحمى : موضع فيه ماء وكلأ يمنع منه الناس . والمعنى : « وليست عشيات الحمى برواجع عليك ، إنك وإن أفرطت فى الجزع فان أيام وصلك لاتكاد تعود ، فتوجع لها وابك فى آثارها تجد فى البكاء راحة مما تعانى من الوجد ومن حرقة الحب » .

(٣) البشر جبل . وأعرض : أبدى عرضه . وجالت تحركت ، وبنات الشوق مسبباته ، والمعنى لما تباعدنا عن نجد وحجز بيننا وبينه هذا الجبل وتحركت بنات الشوق نوازع كثيرة الحنين ، بكت عينى الصحيحة وهى اليسرى ، فلما سألتها أن تكف شاركتها أختها فى البكاء ، وأشار بهذا إلى عصيان نفسه عليه وأن اللوم يزيدها تماديا .

(٤) الليت صفحة العنق . والأخدع عرق فيها . يقول مازلت ألتفت نحوهم حتى وجدتنى وجع العنق ، وانتصب ليتاً على التمييز ، ثم قال : وأتذكر أوقاتى بالحمى ، حين كان الدهر مسعدا والحبيب مسعفا مقارباً ثم انثنى على كبدى واضعا يدى عليها مخافة تصدعها ، شوقا إلى وصالها وحسرة على مافاتنى منها .

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدعا

وهذه القصيدة من اختيارات أبى تمام ، صدر بها باب النسيب ، وهى جديرة بذلك ، فهى على قلة أبياتها تصور لك الحنين إلى الإلف ، وحيرة نفوس المحبين وتمثل العادات العربية التى تطوى القلوب على الصبابة ، وتتحكم فيها الخيلاء الكاذبة وتعبر عن شعور المرء بالكرامة وتحمله فى سبيلها مالا يطيق من الآلام .

إن الشاعر فى هذه الأبيات لا يلجأ إلى الخيال ليؤثر عليك بل يندر أن تجد فيها صورة خيالية . إنما اتخذ الحقيقة وسيلة للتعبير عن معانيه ، وهى مع ذلك تؤثر فينا تأثيراً قوياً لصدقها فى التعبير عن شعور صاحبها وقرب معانيها من نفوسنا وعذوبة ألفاظها على ألسنتنا وحسن نغمها وجمال جرسها فى مسامعنا .

وتصور هذه الأبيات نفوساً كريمة حكم عليها القضاء ولعبت بها الأهواء فخرجت من ديارها ونزحت عن أوطانها وغلبها حنين لا يدفع ولوعة من أثر الفراق لا تغالب ، وأصحابها لا يملكون إلا أن يرسلوا عبرات تخفف عن نفوسهم ألم الحب وتطفىء ما يتقد بين جوانحهم من نار الفراق .

ومن هذا الغزل قول أبى صخر الهذلى :

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الدهر
فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

ومن الغزل الذى كانت تفتتح به القصائد قول ابن قيس الرقيات يمدح عبد العزيز بن مروان حيث قال فى مطلع قصيدته :

لم يصح هذا الفؤاد من طربه وميله فى الهوى وفى لعبه

وهذا ذو الرمة يمدح بلال بن أبي بردة الأشعرى ، فيقول فى المطلع :

أراح فريق جيرتك الجمالا كأنهمو يريدون احتمالا

وهذا جرير يجيد الغزل مع دينه وعفته فيقول :

بان الخليط ولو طووعت ما بانا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا
حى المنازل إذا لا نبتغى بدلا بالدار دارا ولا الجيران جيرانا
إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا
يا حبذا جبل الريان من جبل وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نفحات من يمانية تأتيك من قبل الريان أحيانا

٢ — الغزل القصصى :

جرى بعض من شعراء هذا العصر فى ميادين اللهو والمجون ، مستجيبين لما يتردد فى نفوسهم من شهوات عارمة ، ونزوات طارئة ، فراحوا يتتبعون الحسن فى كل مكان ، ويترصدون الجمال فى كل موطن ، ويطاردون النساء فى كل واد . لا يحجزهم قيد من دين ، ولا فرق من سلطان . وأخذوا يقصون ما قارفوا ، ويصفون ما شاهدوا ، أو يتخيلون ما يشتهون من متع تنزع إليها غرائزهم : ويصورون ذلك قصائد رائعة تفيض بالعبث والمجون ، وتزخر باللذات العارمة ، وتثير الفتنة النائمة ، وتوقظ الشهوة الغافية .

وقد شاع هذا اللون الماجن من الشعر فى الحجاز ، ولعل السبب فى ذلك أن خلفاء بنى أمية قد احتجزوا هناك شباب الهاشميين ، وأغدقوا عليهم الأموال الطائلة ، وأغرقوهم بالخيرات الكثيرة ، وسلطوا عليهم الفراغ والغنى ، ليصرفوهم عن شئون الخلافة وسياسة الدولة ، فلما شرقوا بالنعيم ،

وأتخموا بالترف ، وضاقوا بالفراغ ، انصرفوا إلى مجالس الغناء ، وتتبع النساء ، ومغازلة الحسان ، والتعرض لمن فى كل مكان .

وهكذا شاع هذا اللون وذاع ، حتى شغل الناس به ، وفتن النساء بروعته وسحره ، وحتى كانت كل امرأة محجبة محصنة ، تتمنى أن يقال فيها شعر ، تتباهى به على أترابها ، وتفخر على لداتها .

والشاعر القصصى ، لايتعلق قلبه بامرأة واحدة ولا يقف حياته على محبوبة بعينها ، وإنما يقطف من كل بستان زهرة يانعة متأرجة ، فهو يهيم بامرأة يعجبه حسنها ويستهويه جمالها ، حتى إذا رأى أخرى أعجبه منها معنى آخر ، طار إليها ، وتعلق بها ، وهكذا لاتشبع نفسه ، ولا يقنع حسه .

وقد شاع فى هذا النوع الإباحى من الغزل الفن القصصى ، وهو وإن اتكأ على دعامة جاهلية من شعر امرىء القيس ، فقد استكمل عناصر القصة ، وحبك أطرافها ، واستوفى شخوصها ، ورسم لها الألوان والظلال ، التى تستثير المشاعر ، وتهيج العواطف . وزعيم هذه الطائفة عمر ابن أبى ربيعة .

ومن شعراء الغزل القصصى أيضا الحارث بن خالد المخزومى ، ومن أشهر قصائد الغزل القصصى قصيدة عمر بن أبى ربيعة العينية .

يقول عمر بن أبى ربيعة فيها من غزله القصصى حيث تغزل وقص حديثا طريفا له مع بعض النسوة :

ألم تسأل الأطلال والمتربعا ببطن حليات دوارس بلقعا(١)

---

(١) الطلل : ما بقى من آثار الديار ويجمع على طلول وأطلال . والمتربع منزل القوم فى وقت الربيع . وحليات ـ بضم الحاء وفتح اللام وتشديد الياء . اسم موضع ، ودوارس : جمع دارس وهو الذى عفا وتغيرت معالمه . والبلقع : القفر .

إلى السفح من وادى المغمس بدلت ... معالمه وبلا ونكباء زعزعا (١)
فيبخلن أو يخبرن بالعلم بعدما ... نكأن فؤادا كان قدما مفجعا (٢)
بهند وأتراب لهند إذ الهوى ... جميع وإذ لم نخش أن يتصدعا (٣)
وإذ نحن مثل الماء كان مزاجه ... كما صفق الساقى الرحيق المشعشعا (٤)
وإذ لانطيع العاذلين ولا نرى ... لواش لدينا يطلب الصرم مطمعا (٥)
تنوعتن حتى عاود القلب سقمه ... وحتى تذكرت الحديث المودعا (٦)
فقلت لمطريهن بالحسن إنما ... ضررت فهل تستطيع نفعا فتنفعا
وأشريت فاستشرى وإن كان قد صحا
فؤاد بأمثال المها كان موزعا (٧)
وهيجت قلبا كان قد ودع الصبا ... وأشياعه فاشفع عسى أن تشفعا (٨)
فقال تعالى انظر فقلت وكيف بى ... أخاف مقاما أن يشيع فيشنعا (٩)

---

(١) المغمس - بفتح الميم وكسرها مشددة - موضع معروف ، والوبل المطر الشديد العظيم القطر . والنكباء : الريح المنحرفة عن مهبها ؛ والزعزع الشديد .

(٢) نكأ الجرح : قشره قبل تمام برئه .

(٣) جميع : مجتمع .

(٤) صفق الشراب : قلبه ونقله من إناء إلى آخر ليرق ويصفو . والرحيق : الخالص من الخمر . والمشعشع . الممزوج بالماء .

(٥) الواشى : السائر بين الناس بالسعاية والنميمة . والصرم : الهجر والقطيعة .

(٦) تنوعتن : وصفن . والحديث المودع : الذى جرى عند الوداع .

(٧) أشريت : أغريت . واستشرى الفؤاد : عظم وجده واشتد لهيبه . والمها : جمع مهاة وهى البقرة الوحشية . وموزعا : مغرى مولعا .

(٨) الصبا - بكسر أوله - جهله الشباب والفتوة . وأشياع الصبا : نوازعه وملذاته .

(٩) يشنع : يقبح ويفظع .

فقال اكتفل ثم التثم فأت باغيا ... فســـلم ولا تكثر بأن تتورعا (١)
فإني سأخفي العين عنك فلا ترى ... مخافة أن يفشو الحديث فيسمعا
فأقبلت أهوي مثل ما قال صاحبي ... لموعده أزجي قعوداً موقعا (٢)
فلما توافقنا وسلمت أشرقت ... وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا (٣)
تبالهن بالعرفان لما عرفنني ... وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا (٤)
وقربن أسباب الصبا لمتيم ... يقيس ذراعا كلما قسن إصبعا (٥)
فلما تنازعنا الأحاديث قلن لي ... أخفت علينا أن نغر ونخدعا (٦)
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً ... إليك وبينا له الشأن أجمعا (٧)

---

(١) اكتفل البعير وتكفله إذا أخذ كساء فعقد طرفيه ثم ألقى مقدمه على كاهل البعير ومؤخره على عجزه ، وركب بين العقدة والسنام ، وهذا الكساء يسمى بالكفل . والتثم : شد اللثام على وجهك لتستتر به عن عيون الناس . ولا تكثر بأن تتورعا : ولا تهيب وكن جريئا .

(٢) أهوى : يقال هوت العقاب على الصيد إذا انقضت عليه ، وهوى الرجل إذا أبعد في سيره وجد فيه ، وهذا المعنى الأخير هو المناسب هنا . وأزجي القعود : أسوقه وأدفعه . والبعير الموقع : الذي تنتشر فيه آثار الدبر لكثرة أسفاره .

(٣) زهاها : أخذها الزهو والتيه والإعجاب بحسنها وجمالها ، وتتقنع تلبس القناع ، والمعنى : أن الزهو بجمالهن والتيه بحسن وجوههن منعهن من التقنع والتستر .

(٤) تبالهن : تصنعن البلاهة والغفلة عن معرفتي ، أكل وأوضع يقال : أكل الرجل بعيره إذا أعياه وأجهده ، وأوضعه : حمله على السير السريع .

(٥) معنى البيت : أنهن قد بادلته الغرام وسهلن له سبله : وكلما أقبلن عليه قليلا أقبل هو كثيراً .

(٦) تنازعنا الأحاديث . تبادلناها .

(٧) هو خالد الخريت . وكان عمر يتخذه رسولا بينه وبين النساء .

فما جئتنا إلا على وفق موعد على ملأ منا خرجنا له معا (١)
رأينا خلاء من عيون ومجلسا رميث الربا سهل المحلة ممرعا (٢)
وقلن : كريم نال وصل كرائم فحق له فى اليوم أن يتمتعا

والدارس لغزل ابن أبى ربيعة يرى فيه عذوبة وخلابة ، وهو يشبه من بعض الوجوه غزل امرىء القيس ، وينحو نحوه فى قص ما يدور بين المحبين من أحاديث الهوى ، وما ينعمون به من وصال وملذات وإن كان شعر امرىء القيس أجزل وأفخم وأقوى أسلوبا وأحكم نسجا ، وشعر عمر أكثر تصرفا وابتداعا وافتنانا ، فهو بحق زعيم شعراء الغزل ، وباعث هذا الفن كغرض مستقل فى الأدب العربى .

والناقد يرى ألفاظ هذه القصيدة عذبة سائغة ، ومعانيها بينة واضحة لاتحتاج إلى شرح وبيان ، وحسب الأديب أن يقرأها فيجد لهـــا لذة وحلاوة ، وروعة وطلاوة ، وتنفذ معانيها إلى قلبه لبساطتها وروعة تأثيرها وسلاسة تصويرها ، وجمال قصصها . .

رائية عمر فى الغزل القصصى :

ورائية عمر أشهر قصائد فى الغزل القصصى ، فهذه القصيدة للشاعر الأموى ابن أبى ربيعة الذائع الصيت (٢٣ — ٩٣ هـ) مشهورة بين الأدباء والنقاد والدارسين . يتخذونها عنوانا لشعر عمر بن أبى ربيعة ، وإن كان فى شعره الكثير مما هو أجمل منها وألطف موقعا فى النفس ، وفى هذه القصيدة يتمثل روح عمر وما فيه من خفة وظرف ، كما يتمثل حظه الغريب من تيسير

---

(١) الملأ كجبل : التشاور والاتفاق .

(٢) الرمث ـ بكسر أوله وسكون ثانيه ـ نبت ترعاه الإبل وتقبل عليه . ورميث الربا : رباه مكسوة بالرمث ، وممرع : خصيب كثير الكلأ .

الشعر وتسهيله واختيار الألفاظ الحلوة المألوفة التى لا تبلغ بها السهولة إلى الإسفاف ولا تصل بها القوة إلى الغلظة والغرابة ، والتى تمثل أحسن تمثيل لغة قريش فى هذا العصر ، وهى قصيدة صغيرة ممتعة مؤثرة مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر ؟

والقصيدة نظمها عمر على طريقته المبتكرة القصصية ، ولما سمعها جرير قال : مازال يهذى هذا القرشى حتى قال الشعر .

بدأها الشاعر بذكر صاحبته « نعم » وسؤال نفسه أهو منصرف عنها فى يوم من الأيام ، ثم يذكر حاجته إليها وكلفه بها ، وتعذر الاتصال بينه وبينها ، واستحالة سلوه عنها ، وعجزه عن الصبر عن لقائها :

تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر
ولا قرب نعم إن دنت لك نافع ولا نأيها يسلى ولا أنت تصبر

ثم يذكر الشاعر أن هناك عقبة دون ما يريد من حب « نعم » لو عرضت لغيره لانتهى عن هذا الحب إلى يأس مريح ، ولكنه لا يرعوى ولا يزدجر ، ولا يفكر فيما يعترض حبه من صعاب ، وهذه العقبة هى أنه لا يستطيع أن يزور نعما أو يدنو منها حتى يحس من ذى قرابة لها بغضا له وحقداً عليه ومكرا به وتهيؤا لإيذائه ، وهو مع ذلك يتجنب أو يحاول أن يتجنب زيارتها رفقا بها وإشفاقاً عليها ، فقد عرف حبه إياها وتبعه الرقباء لا يفارقونه ، فهم يشهرون به إن زارها ويشهرون به فى شىء من النكر لا يحبه :

ألكنى إليها بالسلام فإنه يشهر إلمامى بها وينكر

فانظر إليه كيف يتجنب زيارة نعم مخافة التشهير والنكير ، ثم لا يلبث هو أن يشهر بها نفسه فيقول :

بآية ماقالت غداة لقيتها بمدفع أكنان : أهذا المشهر ؟

ثم انظر إليه كيف يصور ما يقع بين النساء من حوار إذا عرض لهن رجل كن يعرفنه فأنكرنه لما تغير من شأنه :

قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه أهذا المغيرى الذى كان يذكر
أهذا الذى أطريت نعتاً فلم أكن وعيشك أنساه إلى يوم أقبر
فقالت : نعم ، لاشك غير لونه سرى الليل يحي نصه والتهجر
لئن كان إياه لقد حال بعدنا عن العهد والإنسان قد يتغير

فنعم تنكره ، وأسماء تعرفه ، وتعلل ما كان من تغييره بكثرة ماهو فيه من سرى الليل وسفر النهار ، ثم يدفع هو عن نفسه ويصدق ما ذهبت إليه أسماء من تعليل ، فيقول إن نعما إنما رأت رجلا لايستقر ، فهو متعرض لحر الشمس ، متعرض لبرد الليل ، أخو سفر ، جواب أرض ، تتقاذفه الفلوات ، فهو أشعث أغبر ضئيل نحيل ، لولا أن عليه بقية من نعمة ، ثم يستلذ هذا التشهير لما فيه من ذكرى محببة إليه فيمضى فيه ، ويستأنف قصة حلوة كثر أمثالها فى شعره حتى عرف بها ، وحتى ذكر كلما قرىء مثلها فى شعر شاعر آخر . ويجمل هذه القصة أنه أراد لقاء صاحبته ليلة وهى نازلة مع أهلها بذى دوران فتجشم سرى الليل ، ثم أخذ يصف ملاقاتها وما دار بينهما من حوار فى أسلوب قصصى رائع إلى أن يقول :

فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى ألم تتق الأعداء والليل مقمر
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً أما تستحى أو ترعوى أو تفكر
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وعلى هذا النحو من الغزل القصصى أو القصص الغزلى ، يمضى عمر بن أبى ربيعة فى كل شعره ، وسواء أكان قصصه هذا تصويراً لما وقع أم خيالا صرفا أم مزاجا من الحق والخيال ، فهو يصور على كل حال حياة المترفين

فى الحجاز وميولهم وأهواءهم ومذاهبهم فى التعبير عن هذه الميول والأهواء ، كما أنه يصور حيـــاة بعض نساء العرب وميولهن وأهواءهن وطائفة من أخلاقهن .

وعمر بن أبي ربيعة زعيم الغزل القصصى فى عصر بنى أمية بل فى الشعر العربى إلى هذا العصر الذى نعيش فيه .

وقد ولد فى اليوم الذى مات فيه عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ ومات سنة ٩٣ هـ ، ونشأ فى أسرة غنية من بنى مخزوم فى مكة نشأة حسنة ، فيها ترف ونعمة ، وكان أخوه الحارث بن أبى ربيعة رجلا صالحاً تقياً ، وكان من ولاة عبد الله بن الزبير على البصرة ، ولما شب عمر بن أبى ربيعة انصرف إلى الشعر عن كل شىء إلا حياة المترفين ، وكان فيما يقول الرواة يقضى عامه بمكة فى لهو وقول للشعر ، حتى إذا كان موسم الحج خرج من مكة فى زينة حسنة فاستقبل الحاج من حيث يأتون من العراق والشام والمدينة ، وتعرض لنساء الأشراف وبناتهم حتى يراهن ، ولم يكن يتحرج أن يرقبهن أثناء الطواف بالكعبة حتى إذا انصرف عن مكة قال فيهن الشعر ، وظل كذلك إلى أن مات .

ولقد ابتدع عمر فى الشعر فناً جديداً كل الجدة ، إذ جعل الغزل غرضا يقصد لنفسه لا لشىء آخر كما جعله الشعراء الغزلون من أهل البادية ، وسلك إلى هذا الغرض طرقاً ولكنها كلها طريفة ، وأظهر ما تمتاز به هذه الطرق أنها كانت قصصية ، فـــلم يكن عمر يتحدث عن النساء كما تعود الشعراء أن يتحدثوا عنهن ، وإنما كان يتحدث عن نفسه ، ويقص ما وقع له معهن ، أو ما تخيل أنه قد وقع له معهن ، فكانت قصيدته لذلك قصة غرامية قصيرة ، ولكنها من العذوبة والرقة ودقة الوصف وتصوير ما يجده الحس والقلب بحيث تملؤك إعجاباً بها واطمئناناً إليها ، ولم يكن فى أكثر حالاته يقص كما يقص غيره من الشعر ، وإنما كان يبعث فى قصصه حياة قوية ، فينطق

الأشخاص ويحدث بينهم من الحوار الدقيق ما يلذ ويسحر ، ولو أتيح له أن يطيل وينوع لوصل إلى اختراع الشعر التمثيلي من بعض النواحي . وديوانه ضخم فيه شعر كثير وليس من شك فى أنه لايجمع كل ما قال عمر .

ولقد كانت العرب تقر لقريش بالتقدم عليها فى كل شيء إلا فى الشعر حتى كان عمر بن أبي ربيعة فأقرت لها الشعراء به أيضا ، وكان أكثر الشعراء الإسلاميين يحجمون عن التشبيب بالنساء امتثالا لأمر الدين ومحافظة على الآداب العربية الإسلامية ، وكان أكثر تشبيبهم فى بكاء الأطلال ومنازل الأحباب .

فلما ظهر عمر سلك فى الغزل طريقاً لم يسلكوه : فوصف أحوال النساء فى منازلهن وتزاورهن ومحادثتهن ومداعبة بعضهن لبعض وتلاومهن وما يعتدن قوله من الكلام والعبارات فى أسلوب يغلب عليه القصص ، وحكاية ما شاهـــده فى شعر رقيق ، ولفظ رشيق ، ومعنى أنيق ؛ وبهر الشعراء بهذه الطريقة، حتى قال فيه جرير : وهو من شعراء الغزل : هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار ، وكذلك قال الفرزدق . ولسهولة شعر عمر وقرب فهمه من جميع الطبقات وشدة تأثيره فى قلوب الخلعاء وأهل اللهو أولع به المغنون والمغنيات من القيان والموالى إنشاداً وتلحيناً ، ولذلك قال فيه بعض متورعي الأنصار : ما عصى الله بشيء كما عصى بشعر ابن أبي ربيعة (١) .

---

(١) قالت ظبية لمولاتها فاطمة بنت عمر بن مصعب : مررت بجدك عبد الله وأنا داخلة منزله وهو بفنائه ومعي دفتر فقال : ما هذا معك ، ودعانى فجئته وقلت شعر ابن أبي ربيعة ، فقال : ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر ، ان لشعره لموقعا من القلوب ، ومدخلا لطيفا ، لو كان شعر يسحر لكان هو ، فارجعى به ، ففعلت .

إن عمر بن أبي ربيعة شاعر الحجاز الكبير في القرن الأول للهجرة ، أطرف شخصية أدبية في الأدب العربي القديم ، وحياته وشعره صورة فنية متميزة للحياة العربية في بيئة الحجاز في أزهى عصوره الإسلامية ، وما أجمل الحديث عن عمر وأعذبه ، عمر شاعر الغزل القصصي ، وزعيم مدرسة الغزليين في هذا العهد ، وسلالة الأشراف من قريش ، والذي عاش لا يهجو ولا يمدح ، وإنما ينظم في فنه الشعري الجديد قصائده وآياته ، الجديد حقا في الشعر العربي ، الذي كان له فضل ابتداعه ، والحياة من أجله ، والدعوة إليه ، ومن ثم نال شعره اهتمام الأدباء والنقاد والدارسين في القديم والحديث اهتماما لم ينله الكثير من الشعراء الأقدمين .

وإذا كان حديث الباحثين عن عمر موضـــع عناية الأدباء واهتمام القراء ، فإن الحديث عن عمر من شاعر أديب حجازي معاصر يجعل لبحثه أهمية فوق أهمية الموضوع نفسه .

وإني لأضع بحث الشاعر الحجازي ابراهيم الفلالي عن شاعر الحجاز الخالد في صدر مكتبة عمر الأدبية ، لأنه يكتب وهو أعرف الناس ببيئة الحجاز الأدبية والفكرية والاجتماعية ، وبنفسية شاعر كان يعيش في هذه البيئة ، ويتأثر بها ، ويتجاوب معها .

= ومن المصادر لدراسة عمر بن أبي ربيعة وشعره :

الأغاني ١ : ٣٠ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ابن خلكان ١ ٠ ٣٧٨ ، عمر بن أبي ربيعة لجبرائيل جبور ، وهل يخفى القمر لرئيف خوري ، شاعر الغزل للعقاد ، حب ابن أبي ربيعة لزكي مبارك ، التطور والتجديد في الشعر الأموي لشوقي ضيف ، حديث الأربعاء ١ : ٣٧٢ ، الشعر الغنائي في مكة ـ شوقي ضيف ، الأدب القصصي لموسى سليمان ، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام .

ومن هذه الزاوية اندفع الفلالى الشاعر فى صدر كتابه يصور منهجه فى كتابه للقراء : « ستجد(١) أيها القارىء العربى المسلم قطعة من تاريخنا أقدمها لك فى محاضرة ألقيت فى رابطة الأدب الحديث بالقاهرة ، وسوف تجد فى تضاعيف الحديث عن هذا الشاعر الحجازى تطورات المجتمع فى فترة من تاريخ موطننا — الحجاز — الذى قام بنشر الدعوة الإسلامية ، وسوف ترى كيف تطورت حياة المجتمع الحجازى ، ولعلك تجد شبها بين تطوره فى ذلك العهد وتطوره فى العهد الحاضر ، ولعلك أيضا تلمس كيف استطاعت العبقرية الحجازية قديماً أن تستفيد وتفيد من ذلك التطور، فتسهم فى بناء الحضارة من الناحية الفنية ، ومن الناحية الفقهية ، وكيف ترك تفوق آبائك الحجازيين الفنى فى اللغة والغناء والموسيقى وابتكارهم فى هذه الفنون وسبقهم الشعوب العربية كلها أثرا خالداً مازال عصرنا متأثراً به تأثراً غير منكور » .

ويلتفت الفلالى الشاعر إلى أهمية بحثه عن عمر ، فيقول بعد قليل من كلامه الأول : « ولعلك واجد فى محاضرتى شيئا لم تجده فيما قرأته عن عمر فى كل ما كتب عنه(٢) .

ومن ثم تحدث المؤلف عن عصر عمر ومجتمعه ، والأسباب المختلفة التى أدت لذيوع موجة الغناء والمرح فى الحجاز فى عصر عمر ، من سياسية واجتماعية وسوى ذلك ، ثم تحدث عن عشيرة عمر وأسرته ، وعن مولده ونشأته ، بيد أن المؤلف يوجز إيجازاً شديداً فى حديثه عن نشأة عمر ، وما كان أحراه بأن يطيل كل الإطالة ، وأن يفيدنا الفائدة التى لا تترقب مثلها إلا من مثل شاعرنا الفلالى فى جلده على البحث وفى ذكائه وألمعيته .

---

(١) ص ٨ وما بعدها

(٢) ص ١٢

ويتحدث المؤلف عن صداقات عمر وصحبه ، وانتقاله إلى مكة ، ويدفع عن عمر مايلصقه به الجاهلون من الكتاب ، فيذكر لنا أن عمر « قد عرف لنفسه مكانتها ، فلم يتبـــذل فى شعره ، ولم يرنا فحشا فى الكثرة الكاثرة مما نظم(١) .

وينتهى المؤلف الشاعر الفلالى من هذه الجوانب كلها ، ليبتدىء حديثا عذبا جميلا عن شعر عمر ، وما أدق وصفه لشعره بأنه كان « مذكرات يومية يسجل فيها حياته(٢) الخاصة » ، وما أطرف الجوانب الغامضة التى كشف عنها الفلالى فى كتابه من حياة عمر وشخصيته وشاعريته وغزله وآراء النقاد فيه ، القدامى والمحدثين منهم ، ومكانته فى الشعر الحجازى ، وحكمه الكثيرة فى شعره ، ويتكلم على عمر الإنسان الفنان وعن خلقه وأين مات ؟ وعلى غير ذلك من شتى الموضوعات .

ومع ذلك فإن حديث الفلالى عن شاعرية عمر حديث موجز يلائم طبيعة الموقف والظروف التى كتب فيها ، ولكنى مع هذا الإيجاز الشديد الذى لجأ إليه المؤلف ، أعتقد أن قارىء هذا الكتاب الصغير الحجم ، يخرج بصورة عن شخصية عمر لايخرج بها حينما يقرأ ماكتبه الأدباء والدارسون عن عمر وحياته .

وهناك آراء متعددة فى الكتاب لها سمتها من الطرافة وروعة التصوير . ومع ذلك فإنى أزعم أن الفلالى لم يفرغ بعد من عمر ، وأن عليه واجبا أدبيا كبيراً ، وهو أن يعاود الكتابة عن عمر وشخصيته وشعره مرة أخرى ، وهذه هى رائية عمر ، يقول :

---

(١) ص ٤٨

(٢) ص ٥٢

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر
نهيم إلى نعم فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر
ولا قرب نعم إن دنت لك نافع ولا نأيها يسلى ولا أنت تصبر
إذا زرت نعما لم تزل ذو قرابة لهـــا كلما لاقيتها يتنمر
عزين عليه أن ألم ببيتها يسر لى الشحناء والبغض مظهر
بآية ماقلت غداة لقيتها بمدفع أكنان : أهذا المشهر (١)
قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه أهذا المغيرى، (٢) الذى كان يذكر
فقالت نعم لا شك غير لونه سرى الليل يحيى نصه والتهجر (٣)
لئن كان إياه لقد حال بعدنا عن العهد والإنسان قد يتغير
رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر
أخا سفر جواب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر
قليل على ظهر المطية ظله سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشها ظل غرفة وريان ملتف الحـــدائق أخضر
ووال كفاها كل شىء يهمها فليست لشىء آخر الليل تسهر

ثم يقول :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت مصابيح شبت بالعشاء وأنور (٤)
وغاب قمير كنت أرجو غيوبه وروح رعيان ونوم سمر (٥)

---

(١) المشهر : الذى شهر أمره ، مدفع أكنان : موضع .
(٢) نسبة الى جده المغيرة .
(٣) التهجر : السير فى الهاجرة .
(٤) أنور : جمع نار ، ويقال أنور أيضا .
(٥) رعيان : جمع راع ـ سمر : جمع سامر ـ روح رعيان : أى روحوا ابلهم عشاء .

ونفضت عنى النوم أقبلت مشية الـ ... حباب وركنى خيفة القوم أزور (١)
فحييت إذ لاقيتها فتولهت ... وكادت بمكنون التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان : فضحتنى ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك إذ هنا عليك ألم تخف ... رقيباً وحولى من عدوك حضر
فوالله ما أدرى أتعجيل حاجة ... سرت بك أم قد نام من كنت تحذر
فقلت لها : بل قادنى الشوق والهوى ... إليك وما عين من الناس تنظر
فلما تقضى الليل إلا أقله ... وكادت توالى نجمه تتغور
أشارت بأن الحى قد حان منهمو ... هبوب ولكن موعدك عزور (٢)
فما راعنى إلا مناد برحلة ... وقد لاح مفتوق من الصبح أشقر
فلما رأت من قد تثور منهمو ... وأيقاظهم قالت : أشر كيف تأمر
فقلت أباديهم فإما أفوتهم ... وإنما ينال السيف ثاراً فيثأر (٣)
فقالت : أتحقيقاً لما قال كاشح ... علينا وتصديقاً لما كان يؤثر (٤)
فإن كان ما لابد منه فغيره ... من الأمر أدنى للخفاء وأستر
أقص على أختى بدء حديثنا ... ومالى من أن تعلما متأخر
لعلهما أن تبغيا لك مخرجا
وأن ترحبا سرباً بما كنت أحصر (٥)
فقامت كئيباً ليس فى وجهها دم ... من الحزن تذرى عبرة تتحدر
فقالت لأختيها أعينا على فتى ... أنى زائراً والأمر للأمر يقدر

---

(١) الحباب بضم الحاء : الثعبان . أزور : مائل .
(٢) عزور : موضع بمكة .
(٣) أباديهم : : أظهر عليهم .
(٤) يؤثر : يحكى .
(٥) السرب ، بالفتح الصدر ، وبالكسر : النفس . أحصر من حصر ، كفرح : ضاق ذرعا .

فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا ... أقلى عليك الهم فالخطب أيسر
يقوم فيمشى بيننا متنكراً ... فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجنى دون من كنت أتقى ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر (١)
فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى : ... ألم تتق الأعداء والليل مقمر
وقلن : أهذا دأبك الدهر سادراً ... أماتستحى أو ترعوى أو تفكر (٢)

وقال يزيد بن الطثرية :

بنفسى من لو مر برد بنانه ... على كبدى كانت شفاء أنامله
ومن هابنى فى كل شىء وهبته ... فلا هو يعطينى ولا أنا سائله

٣ — الغزل العذرى :

الغزل العذرى هو الذى يصدر عن عاطفة صادقة ، وحب عميق ، وصبابة متأججة ، وهوى مشتعل ، ملك على المرء قلبه ، وسلب لبه ، وطغى على جميع مشاعره ، وصرفه عن الحياة وشهواتها ، وسلط كل ما فيه من عاطفة وإحساس إلى المعبودة التى لا يرى فى الحياة أجمل منها ، وإن لم تكن من أجمل النساء ، فلها يعيش ، وعليها يقف حياته وفنه ، وحبه وشعره . وعماد هذا اللون الصدق فى العاطفة ، والعفة فى القول ، والتفانى فى المحبوب والضراعة فى الحب ؛ فلا يتناول الشاعر الوامق مفاتن الجسم ، ولا محاسن الأعضاء ، ولا ما يثير الشهوة ، أو يناقض العفة . وإنما يعتمد على المعانى الروحية والنوازع القلبية ، ويشكو ما يكابد من آلام البعد ، وقسوة الحرمان والصد ، وتجهم الأيام ، ومعاكسة الزمان ، وقد تقنعه النظرة العاجلة ، أو الوعد المكذوب كما يقول جميل :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى ... لو ابصره الواشى لقرت بلابله

(١) المجن : الترس ، المعصر : المرأة راهقت العشرين .
(٢) السادر : الذى لا يبالى ما يصنع .

بلا وبألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخره لانلتقى وأوائله

فهو لون حزين باك ، يستثير الشفقة ، ويبعث الرحمة ، ويدعو إلى الرثاء يزهد صاحبه فى الحياة ، حتى يسترخص كل غال فى سبيل من يحب ، ويستعذب كل ألم من أجله ، ويتمنى لنفسه أسوأ الأمانى ، وأنكد الحالات وشر ألوان الضرر ، مادام ذلك من أجل المحبوبة :

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخـــفى على كلامها

وهذا اللون الذى يقف فيه الشاعر حياته وحبه وشعره على محبوبة واحدة ، هو الذى يعرف بالحب العذرى ، نسبة إلى بنى عذرة ، وهى قبيلة بدوية من بنى قضاعة ، اشتهر شبابها بالحب البرىء الصادق ، والهوى العفيف المضنى ، والموت فى سبيل المحبوب . حتى قيل لرجل منهم : مابال العشق يقتلكم يا بنى عذرة ؟ فقال : لأن فينا جمالا وعفة ! . وهذا النوع لم يكن له وجود قبل هذا العصر ؛ فهو بهذا يعد جديداً كل الجدة . ومن أظهر شعرائه : جميل بثينة ، وقيس بن الملوح صاحب ليلى العامرية ، وقيس ابن ذريح صاحب لبنى ، وكثير عزة على المشهور . ومن أمثلته قول جميل (٨٢ هـ) :

وما زلتمو يابثن حتى لو اننى من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا
إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادنى النأى المفرق بعدكم سلوا ولا طول التلاقى تقاليا
ولا زادنى الواشون إلا صبابة ولا كثرة الناهين إلا تمـــاديا
وأنت التى إن شئت كدرت عيشتى
وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التى ماإن صديق ولاعدى يرى نضو ماأبقيت إلا رثى ليا
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة وفى النفس حاجات إليك كما هيا

وهذه دالية جميل فى الغزل :

ألا ليت أيام الصفاء جديد ... ودهرا تولى يابثين يعود (١)
فنغنى كما كنا نكون وأنتم ... صديق وإذ ماتبذلين زهيد (٢)
وما أنسى م الأشياء لاأنسى قولها ... وقد قربت نضوى : أمصر تريد (٣)
ولاقولها : لولا العيون التى ترى ... أتيتك فاعذرنى فدتك جدود (٤)
خليلى ماأخفى من الوجد ظاهر ... ودمعى بما أخفى الغداة شهيد (٥)
ألا قد أرى والله أن رب عبرة ... إذا الدار شطت بيننا ستزيد (٦)
إذا قلت : مابى يابثينة قاتلى ... من الحب ، قالت : ثابت ويزيد (٧)

(١ ، ٢) جديد : تعود جديدة ، ونغنى : نقيم ، وتكون : توجد ، وما تبذلين : أى ما تنيلين من الوصل . يقول : ليت عهود الصفاء والسعادة التى ارتضعنا أفاويقها تعود فنرفل فى حلل السعادة ونحتسى كئوس الرفاهية وتصبح كما كنا بالأمس وقد قرت منا العيون وأثلجت الصدور .

(٣) م الأشياء : من الأشياء ، والنضو : المهزول من الحيوان ، يريد ناقته ، المعنى : مهما أنسى من شىء فلست أنسى قولها لى وقد قربت ناقتى : أتريد مصر ؟

(٤) الجدود : جمع جد بالفتح ، وهو أبو الأب . المعنى : ولا أنسى أيضا قولها : لولا خشية العيون والرقباء لحظيت بلقائك أما وإنى لاأستطيع ذلك فإننى أدعو لك بالسلامة وأفتديك بالأهل .

(٥) الوجد : الحب الشديد ، والغداة مابين الفجر وطلوع الشمس . يريد أن مايعتلج فى نفسى من الجوى والحب عنيف عارم يكاد يذيب حشاشتى ، وينبىء عن ذلك ما يفيض أحيانا من شجونى .

(٦) العبرة : الدمعة أو الحزن من غير بكاء ، وشطت : بعدت ، وستزيد : خبر عبرة ، والجملة خبر أن المخففة . والمعنى : إننا إذا افترقنا وضرب النوى بيننا بجرانه فسيكثر بكائى وتشتد لوعتى .

(٧) ثابت : باق . والمعنى : إذا قلت لها إن الحب سيقتلنى قالت : إنه باق وسيزيد أيضا .

وإن قلت : ردى بعض عقـــلى أعش به
مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد (١)

فلا أنا مردود بما جئت طالبا ... ولا حبها فيما يبيـــد يبيد (٢)
جزتك الجوازى يابثين ملامة ... إذا ما خليل بان وهو حميد (٣)
وقلت لها : بينى وبينك فاعلمى ... من الله ميثاق له وعهـــود (٤)
وقد كان حبيكم طريفا وتالدا ... وما الحب إلا طارف وتليد (٥)
وإن عروض الوصل بينى وبينها ... وإن سهلته بالمنى لصعود (٦)
فأفنيت عيشى بانتظارى نوالها ... وأبليت ذاك الدهر وهو جديد (٧)
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليـلة ... بوادى القرى إنى إذن لسعيد (٨)

---

(١) ردى بعض عقلى : كناية عن طلب وصالها . والمعنى : تتدلل عليه ، وتشمخ بحبها ، فإذا نشد وصالها خيبت أمله .

(٢) يبيد . يبلى ويزول . والمعنى : لم أنل ماطلبت من وصالها ، ولا الحب يفنى لأستريح .

(٣) الجوازى جمع جازية ، وهى المكافأة والبيت دعاء . والمعنى : إذاجوزى الأحبة بالثناء عليهم وقت الفراق فليس لك فى نفسى سوى العتب واللوم .

(٤ ، ٥) الطارف : الجديد ، والتليد : القديم . والمعنى : قلت لها على رسلك يابثينة كيف تعرضين عنى وتصعرين خدك لى وقد تعاهدنا من قبل على الحب منذ أمد طويل ولا زلت أهيم بك وجدا .

(٦) العروض : الطريق فى عرض الجبل ، وصعود مرتفع . والمعنى : إن الوصل صعب المنال مهما تسهله بالوعود .

(٧) النوال : الوصال وأبليت الدهر : كناية عن كثرة مصابرته وذبول شبابه . والمعنى : لقد طال انتظارى وصالها وقضيت شبابى فى سبيل حبها والظفر بها .

(٨) ليت شعرى : ليت علمى أى ليتنى أعرف ، ووادى القرى : بالحجاز شمال المدينة . المعنى : يتمنى المبيت بهذا الوادى حيث كان الأحبة يقيمون .

وهل أهبطن أرضا تظل رياحها ... لهـــا بالثنايا القاويات وئيد (١)
وهل ألقين سعدى من الدهر مرة ... وما رث من حبل الصفاء جديد (٢)
وقد تلتقى الأهواء من بعد يأسة ... وقد تطلب الحاجات وهى بعيد (٣)
سبتنى بعينى جؤذر وسط ربرب ... وصدر كفائور اللجين وجيد (٤)
فمن يعط فى الدنيا قرينا كمثلها ... فذلك فى عيش الحياة رشيد (٥)
يموت الهوى منى إذا ما لقيتها ... ويحيا إذا فارقتها فيعـــود (٦)
يقولون : جاهد ياجميل بغزوة ... وأى جهاد غير من أريد ؟ (٧)
لكل حديث بينهن بشاشـــة ... وكل قتيـــل بينهن شهيـد (٨)

---

(١) الثنايا : جمع ثنية وهى طريق فى الجبل أو الجبل نفسه ، والقاويات : الخاليات ، ووئيد صوت شديد . والمعنى : هل أحيا ثانية فى تلك الأرض الخالية التى تعزف فيها الرياح حيث كنت أعيش ناعما بالهوى العذرى .

(٢ ، ٣) رث : بلى ، و « ما » مبتدأ خبرها : جديد . والمعنى : هل أحظى بلقاء سعدى مرة ويعود وصلنا ويتجدد حبنا بعد أن رث حبـــله ربما يسمح الدهر بذلك .

(٤) سبتنى أسرتنى ، والجؤذر : ولد البقرة الوحشية ، والربرب القطيع من بقر الوحش ، والفائور : الطست والجفنة ، واللجين : الفضة ، والجيد : العنق وهو مبتدأ خبره محذوف تقديره : لها . يقول : تبلت فؤادى وملكت على أقطار نهاى بحالها الأخاذ ولحظ عيونها النفاذ وجسدها الرعبوب الربرب البض .

(٥) القرين : الصاحب والزوج ، ورشيد : موفق . والمعنى أنها رائعة حقا فمن يوفق إلى مثلها جمالا وفتنة يتمتع بالعيش وتهنأ له الحياة .

(٦) يموت الهوى : يفتر الحب ، ويحيا : يشتد . والمعنى : انى اذا حظيت بوصالها نقعت غلتى وشفيت أوامى وجفت حدة الوجد ، فإذا افترقنا يعتلج الجوى عارما بين أضالعى .

(٧ و ٨) جاهد بغزوة : يريد به نسيان حبه بالجهاد ، والبشاشة : السرور والبهجة . والمعنى : يطلب اليه أصحابه أن يقطع حبل وصاله وينسى حبه بالجهاد =

تائية كثير المشهورة فى الغزل العذرى :

وكثير عزة شاعر أموى مشهور فى الغزل والنسيب ، ويعد من فحول الشعراء ومقدميهم فى العصر الأموى ، وتائيته مشهورة شهد لها النقاد ، وهى فى الغزل . وقد توفى عام ١٠٥ هـ . . . قال كثير عزة :

خليلى هـذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت (١)

وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا ... ولا موجعات القلب حتى تولت (٢)

فقد حلفت جهداً بما نحرت له ... قريش غداة المأزمين وصلت (٣)

= والانشغال بالغزو فيجيبهم أنه لا يجاهد سوى هذا الحب ، على أنه كيف يتسنى له السلو وهو يشمل بسلاف حديث الأحبة العذب ، بل لا تثريب على من قضى نحبه فى حبهن .

وهذه مصادر لدراسة جميل وشعره :

الأغانى ـ طبقات الشعراء لابن سلام ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ، جميل بثينة للعقاد سلسلة اقرأ عدد ١٣ ، الحب العذرى لموسى سليمان ، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ، أعلام الأدب فى عصر بنى أمية .

(١) الربع : الدار ، والقلوص : الناقة الشابة . وعقل البعير قيده ـ يسأل رفيقيه أن يقفا معه ساعة فى منزل حبيبته وفاء لها وقياما بحقه من الدعاء والبكاء فيه لخلوه من ساكنته ، ولأن له فى نفس الشاعر ذكريات ماضية .

(٢) ما كنت أعرف آلام الحب قبل الاتصال بها ولا تباريح الغرام حتى شقيت بفراقها والبعد عنها .

(٣) الجهد : الطاقة والمراد المبالغة ، والنحر الذبح . والمأزمان مضيق بين جمع وعرفة وآخر بين مكة ومنى ، يقول : حلفت عزة بالذى تنحر له الذبائح وتقدم له القرابين لتقطعنى .

أناديك ماجج الحجيج وكبرت بفيفا غزال رفقة وأهلت (١)
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها كناذرة نذراً فأوفت وحلت (٢)
فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت (٣)
ولم يلق إنسان من الحب ميعة تعم ولا غماء إلا تجلت (٤)
كأني أنادي صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشي بها العصم زلت (٥)

---

(١) أناديك أجالسك وهو جواب القسم حذف منه لا ، مثل قوله تعالى : « تالله تفتأ تذكر يوسف » ، والحجيج جمع حاج ، وفيفا غزال : مكان بمكة . والرفقة الأصحاب . وأهلت : رفعت صوتها بالتلبية والدعاء .

أى لا أجالسك أبداً ما قصد الناس مكة للعبادة وتوجهوا إلى بيت الله زائرين معتمرين .

(٢) الحبل الوصل والعهد والنذر : ما أوجبه المرء على نفسه . وحلت . خرجت من العهد فيه . والمعنى أن عزة فى قطيعته كأنها تقوم بواجب عليها فهى تفعل ذلك مبادرة إليه حريصة عليه .

(٣) وطنت النفس لكذا : مهدتها له وأعددتها لاحتماله . وذلت : سهلت ولانت . والمعنى : « ان المصائب وان عظمت اذا تلقاها المرء بالصبر عليها هان أمرها واحتمل عبؤها » .

(٤) الميعة : الشدة الغماء الكرب ، تجلت : زالت وانكشفت ، والبيت مكمل لسابقه ـ يقول كل غمرات الحب تنكشف وكل آلام الغرام تزول فالنأى يسلى واليأس يريح .

(٥) الصم : جمع أصم وهو الصلب ، والعصم الوعول جمع وعل وهو التيس الجبلى ـ يقول : قد أعرضت عنى لا تجيب ندائى كأنى أدعو صخرة صلبة ملساء لا تستقر عليها الوعول ، يصف اعراض عزة وعدم اصغائها وعطفها عليه فيشبهها بالصخرة فى أنها لاتسمع نداء ولاتجيب دعاء .

صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت (١)
أباحت حمى لم ترعه الناس قبلها وحلت تلاعا لم تكن قبل حلت (٢)
فليت قلوصى عند عزة قيدت بحبل ضعيف غر منها فضلت (٣)
وغودر فى الحى المقيمين رحلها وكان لها باغ سواى فبلت (٤)
وكنت كذى رجلين رجل صحيحة
ورجل رمى فيهـــا الزمان فشلت
وكنت كذات الظلع لما تحاملت على ظلعها بعد العثار استقلت (٥)

---

(١) الصفوح : المعرضة الهاجرة يعنى أنها بخيلة بوصلها .
المعنى : أن عزة امرأة هاجرة نافرة لأن طبعها البخل فمن سئم منها هذا الخلق قاطعته ، وهذا البيت يصور لك طبع المرأة للعشوقة ودلالها .

(٢) الحى : ما يحمى ويدافع عنه . والمراد قلب الشاعر الذى احتلته ، ويرعاه الناس : يدخلون إليه ، والتلاع : جمع تلعة وهى الأرض المرتفعة . والمعنى : أنها غزت قلبا ممتنعا عن النساء لم تستطع امرأة قبلها غزوه ، والبيت استعارة تمثيلية .

(٣) غر : قطع . والمعنى : يتمنى كثير أن تغل ناقته حتى يطول مقامه عند عزة .

(٤) رحل الناقة : ما يوضع على ظهرها كالسرج ، باغ : طالب . بلت : ذهبت ، وهو من تمام البيت الأول .

(٥) شلت يبست . والظلع عيب فى المشى . تحاملت على ظلعها : تكلفت الناقة السير على رغمها . استقلت : استقام مشيها . يقول : كنت فى إقبالها تارة وادبارها أخرى وفى طمعى فيها ويأسى منها كرجل صحت منه رجل ومرضت أخرى فإن أراد الحركة بالصحيحة جذبته المريضة وهو تصوير لحاله فى حبه وأنه صار الى حال لايمر ولايحلو . ومعنى البيت الثانى أن الأمل واليأس ظلا يختصمان الى أن غلب اليأس منها فانصرف عنها فهو كظالعة حاولت مرارا أن تسير مع ظلعها حتى =

أريد الثواء عندها وأظنها ... إذا ما أطلنا عندها المكث مات (١)
فما أنصفت أما النساء فبغضت ... إلى وأما بالنوال فضنت (٢)
فإن تكن العتبى فأهلا ومرحبا ... وحقت لها العتبى لدينا وقلت
وإن تكن الأخرى فإن وراءنا ... مناديح لو سارت بها العيس كلت (٣)
خليلي إن الحاجبية طلحت ... قلوصيكما وناقتي قد أكلت (٤)
فوالله ثم الله ما حل قبلها ... ولا بعدها من خلة حيث حلت (٥)
وما مر من يوم على كيومها ... وإن عظمت أيام أخرى وجلت

= استقام لها السير . وهناك معنى آخر وهو: أنه كان فى بقائه عندها كرجل أشل عاجز عن الحركة أو كناقة عرجاء تنهض بعسر ومشقة ، يتمنى مايعطل سفره فيبقى عند محبوبته عزة .

(١) الثواء الإقامة . يقول : إنها امرأة ملول وظنى أنها لا تحتمل طول المقام عندها .

(٢) لقد بغضت بجمالها النساء إلى فلم يكن لغيرها موضع من قلبى ولا نصيب من حبى وقد بخلت بوصلها .

(٣) العتبى : الاسم من الإعتاب . المناديح: الأماكن الواسعة البعيدة . والعيس: الإبل البيض يخالط بياضها شقرة ، كلت أعيت عن السير ـ والمعنى : إن كانت تنكر منى أمرا وتريد أن أنزع عنه فذلك لها وهو علينا يسير وإن كانت تريد القطيعة فالأرض واسعة والنساء غيرها كثير ، وكل غانية عزة .

(٤) طلحت : أكلت وأتعبت . والحاجبية لقب عزة يخاطب رفيقين فيقول : إن عزة أنهكت ناقتيكما كما أتعبت ناقتى ـ يصور مبلغ مايعانيه فى حب عزة وطلبها.

(٥) انه لم يمر عليه فى حياته يوم هنىء كيوم وصالها . وان كانت هناك أيام أخرى حافلة بالسرور . ولك أن تقول : لم يمر يوم فى الآلام والأهوال كيوم عرفها فيه .

وأضحت بأعلى شاهق من فؤاده فلا القلب يسلاها ولا العين ملت (١)
فيا عجبا للقلب كيف اعترافه وللنفس لما وطنت كيف ذلت (٢)
وإني وتهيامي بعزة بعـــد ما تخليت مما بيننا وتخلت (٣)
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها كناذرة نذرا فأوفت وحلت

والشاعر هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن الخزاعي ، وقد أكثر الشعر في محبوبته عزة بنت حميد فنسب إليها وعرف بها . كان يتشيع ، يعتقد أن علياً وبنيه أحق الناس بالخلافة . وكان مع تشيعه يفد إلى بني أمية يمدحهم ويأخذ جوائزهم ، والرواة يحدثوننا أنه كان قصيراً دميماً ناقص العقل ويقرنونه إلى جميل والمجنون وأضرابهما من شعراء الغزل المقدمين فيه . والقصيدة في النسيب وهو باب له مكانة في الأدب العربي ومنزلة سامية في النفوس ، لأنه يتعلق بأسمى عاطفة إنسانية هي الحب . ورواة الأدب يتحدثون عن هذه القصيدة فيرفعون من شأنها ويشيدون بكثير من أجلها ، ويعدونها من عيون الشعر الغزلي ، فيقولون تائية كثير كما يقولون رائية عمر وعينية قيس ، وأنا أقرأ هذه القصيدة فلا تقع في نفسي ولا أجد لها ما وجد هؤلاء الرواة ، بل أجد فيها صورة صادقة لكثير القصير الذي يطاول الطوال ، الضعيف الذي يباطش الأقوياء ، المدعي في عشقه وتشيعه ومذهبه وكل ما يتصل به حتى أبيه الذي ينسب إليه وعشيرته التي يعتز بها .

---

(١) الشاهق : المرتفع . أي أصبحت عزة في أعلى مكان من قلبه ، فلا القلب يستطيع السلو ، ولا العين تمل النظر إليها .

(٢) اعترافه : صبره على آلام الحب - يتعجب الشاعر من صبره على ما يقاسيه من آلام ومن نفسه كيف استعذبت المذلة في الغرام .

(٣) التهيام : الهيام وهو جنون العشق . تخلى من الشيء : تركه . الغمامة : السحابة أو البيضاء خاصة ، تبوأ المكان نزل فيه . المقيل : النوم نصف النهار .

قد يكون عذر هؤلاء أن مقاييس الجودة عندهم هى أن اللفظ مستعمل فيما وضع له وأن الأسلوب عربى جار على ما ألفته العرب فى طرائق تعبيرها وأن القافية لا عيب فيها ووزن الشعر صحيح مستقيم ، لكن ذلك لا يكفى فى الحكم لها بالخلود والصدارة فى ديوان الشعر .

إنها لا تصور شعوراً بالحب صادقا ولا نفساً بنار العشق محترقة ولا إنسانا صافى الطبع مرهف الحس قوى العاطفة ينقلك إلى الجو الذى يعيش فيه ، فترثى له وتشفق عليه إن لم تشاركه فى آلامه التى يقاسيها .

إنها لا تصور نفس شاعر متيم قد استعبده الحب وأضناه الغرام ، إنما تدل على إنسان مدع للعشق ، يظهر لك حينا أنه متهالك فى هواه ، ويتراءى حينا آخر أنه جلد قوى لا يبالى بقطع أواصر المودة ، فهو مكافىء لمن يحب وصلا بوصل وهجرانا بهجران .

وقد يخدعك فتظن أنك أمام شاعر متبول ، يهذى فى إثر صاحبته ، فهو يرسل أنات محزونة ويخرج زفرات مكلومة وليس كذلك ، إنها الصيغة المحكمة والنسج المتين ، فيلتبس عليك صدق الشاعرية بصدق الشعور ، إن مايبدو فى هذه القصيدة من سيما الحب لا يرجع إلى عاطفة مشبوبة ، ولا إلى نار بين الجوانح مضطرمة ، ولا إلى موجدة تثور حينا وتختفى حينا ، إنما يرجع إلى تقليد لبعض الشعراء العذريين أمثال جميل والمجنون ، فإن شعر الغزل فى هذا العصر قد صار صناعة يتعاطاها من لم يعرف الهوى ولم يذق ظلم حبيب ولم يكتو بنار الحب . وأقف بك على بعض هنات ترجع إلى المعنى وأخرى إلى اللفظ . يقول كثير :

فقلت لها ياعز كل مصيبة إذا وطنت يوما لها النفس ذلت

نعم إن المصائب تهون إذا هيئت النفوس لقبولها ، فلو أنه قال هذا المعنى فى الاستهانة بنكبات الدهر أو توطين النفس على الموت فى الحروب أو الاستخفاف بكل مايعترض الإنسان فى هذه الحياة من صعاب لكان

معنى رائعاً ولكان قد وضعه فى موضعه اللائق به ، وبعبارة أخرى لو كان ذكره فى باب الشجاعة لكان شاعراً خليقاً بالتقدير ، ولكنه ذكره فى باب الغزل فى مقام يجمل فيه التذلل فى الهوى ويستعذب فيه الأنين والشكوى وإظهار أن كل مافى الحياة من خطوب يمكن احتمالها والصبر عليها إلا مفارقة الأحباب فتلك النائبة العظمى التى لا تطاق .

وكل مصيبات الزمان وجدتها سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

ومما يؤخذ عليه أيضاً فى هذه القصيدة قوله :

وإن تكن الأخرى فإن وراءنا مناديح لو سارت بها العيس كلت

ونحوه مما يدل على عدم المبالاة بالهجر وقلة الاحتفال بإعراض الحبيب ، فإنه لو كان محبا صادق الصبابة عاشقا قوى العاطفة لكان حديث الفراق يروعه مخافة أن يكون فراق الأحبة مقرونا به ، يروى أن كثيرا لقى الأحوص فقال له : لقد قلت فأحسنت فى كثير من شعرك ولكن خبرنى عن قولك :

فإن تصلى أصلك وإن تعودى لهجر بعد وصل لا أبالى

أما والله لو كنت من فحول الشعراء لباليت ولو كسر أنفك ، هلا قلت كما قال نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب

والذى عابه على الأحوص وقع هو فى أسوأ منه ، فأين هو من فحول الشعراء الذين يصورن المرأة بأنها مطلوبة ممتنعة وأنهم لا يستطيعون هجرها والبعد عنها ولا يتصورون الحياة بدونها وإذا وجدوا فى نفوسهم شيئا من عوامل السلو أعانوا عليها وخاصموها حتى تنزل على حكم الهوى :

وإذا وجدت لها وساس سلوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

بل ربما حدثتهم أنفسهم التى برح بها الشوق أنهم قادرون على السلو عنها والتسلى بأخرى سواها فإذا بدا مايحبون وهت عزائمهم ونقضوا ما أبرموه :

لقد كنت آتيها وفى النفس هجرها ... بتاتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فجاءة ... فأبهت لاعرف لدى ولا أنكر
وأنسى الذى قد كنت فيه هجرتها ... كما قد تنسى لب شاربها الخمر
ويمنعنى من بعض إنكار ظلمها ... إذا ظلمت يوما وإن كان لى عذر
مخافة أنى قد علمت لأن بدا ... لى الهجر منها ماعلى هجرها صبر
وأنى لاأدرى إذا النفس اشرفت ... على هجرها مايبلغن بى الهجر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

وأحب أن أقف بك عند تلك الأمنية البدوية الساذجة :

فليت قلوصى عند عزة قيدت ... بحبل ضعيف غر منها فضلت

يود أن يقيم بجوار غزة فيشتهى أن تضل ناقته فى الصحراء ضلالا بعيدا ويكون فى إقامته عندها كرجل أشل يعجز عن الحركة والنهوض أو كناقة عرجاء لايستقيم لها المسير إلا بعد عناء . وهى على سذاجتها وبداوتها خير من أمنية تصورها هذه الأبيات التى قالها كثير :

وددت وبيت الله أنك بكرة ... هجان وأنى مصعب ثم نهرب
كلانا به عر فمن يرنا يقل ... على حسنها جرباء تعدى وأجرب
تكون لذى مال كثير مغفل ... فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله ... علينا فما ننفك نرمى ونضرب

قد تمنى كثير من الشعراء مثل هذه الأمانى وكلها تغلب عليها بداوة المعنى وسذاجته ، وتطبع بطابع الأنانية وحب الذات ، فمن أسوئها قول الشاعر :

من اجلها أتمنى أن يلاقينى ... من نحو بلدتها ناع فينعاها
كيما أقول افتراق لاجتماع له ... وتضمر النفس يأساً ثم تسلاها

ومن أحسنها :

تمنيت من حبى عليه أننا ... على رمث فى البحر ليس لنا وفر

على دائم لا يعبر الفلك موجه ومن دوننا الأهوال واللجج الخضر
فنقضى هموم النفس فى غير رقبة ويغرق من نخشى نميمته البحر

ثم انظر إلى هذا البيت :

خليلى إن الحاجبية طلحت فلوصيكما وناقتى قد أكلت

ألست ترى اضطرابا فى الوزن منشؤه أنه أدخل القبض فى حشو الطويل فاختل النظم ونباعنه السمع وهو فى الوقت نفسه سخيف المعنى ، أليس محصوله أننا تعبنا فى طلب هذه المرأة ، فأكل السامعين والقارئين بذكر القلوص والناقة وأكلت وطلحت، مع مافى إسناد هذين الفعلين إليها من فساد الذوق ورداءة الطبع .

والقصيدة فيها محاسن استمالت المتقدمين فقدموه بها ، فهى تصور لك الغزل فى عهد بنى أمية وأنه صار فناً مستقلا يقصد إليه الشعراء، وتقدم لك صورة حسية رائعة تصور منازل الأحباب مر بها عشاق معاميد فوقفوا يبكون زمانا موليا قضوه فيها ثم ولى بآمالهم وأحلامهم ولم تبق إلا ذكريات هذا الماضى نصور لك حبيباً ظالما مسرفا فى ظلمه هاجراً قاسيا فى هجره لايسمع لشكاة ولا يرق لأنين ، تمثل الظن الكاذب والرجاء الخائب والحبيب المؤوس منه، فتراه بعينك وتلمسه بيديك فيخرج من حيز المعقول إلى دائرة المحسوس واضحا لالبس فيه ولا غموض . فى هذه القصيدة صور بيانية رائعة فقد أكثر فيها من التشبيه والتمثيل حتى ند البيت الخالى منها . إنك حين تقرأ هذه القصيدة وتتعرف الوجوه الفنية فيها تميل إلى رأى القائلين بأن الشعراء فى عصر بنى أمية كان فيهم من يتوخى ضروبا من البديع ويتعمد أن يجتمع له فى شعره فنون من البيان .

ولم تمنعه شاعريته من الوقوع فيما يشبه أن يكون خطأ قد يرجع إلى الضرورة الشعرية كالتعبير بثم فى موضع الفاء فى قوله ثم أبكيا حيث حلت ،

وكالحشو فى قوله لو تمشى بها العصم زلت ، وفى قوله : غداة الأرمين وقوله بفيفا غزال ، وكالتهافت فى قوله : فوالله ثم الله ؛ والقصيدة على كل حال تعتبر من القصائد المشهورة فى اللغة العربية وشعر العرب .

وهذا مجنون ليلى : يقول فيما يقول من غزله العذرى :

ألا أيها البيت الذى لا أزوره ... وإن حله شخص إلى حبيب
هجرتك إشفاقاً وزرتك خائفاً ... وفيك على الدهر منك رقيب
سأستعتب الأيام فيك لعلها ... بيوم سرور فى الزمان تثوب

ويقول أيضا مجنون ليلى قيس بن الملوح العامرى (٦٧ هـ) :

أعد الليالى ليلة بعد ليلة ... وقد عشت دهراً لا أعد الليالى
أرانى إذا صليت يممت نحوها ... بوجهى وإن كان المصلى ورائيا
تمر الليالى والشهور وتنقضى ... وحبك مايزداد إلا تماديا
خليلى لاواقه لاأملك الذى ... قضى الله فى ليلى ولا ماقضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها ... فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا ؟
أمضروبة ليلى على أن أزورها ... ومتخذ ذنبا لها أن ترانيا ؟
ولو كان واش باليمامة داره ... ودارى بأعلى حضرموت اهتدى ليا
وإنى لأخشى أن أموت فجاءة ... وفى النفس حاجات إليك كما هيا
وإنى ليثنينى لقاؤك كلما ... لقيتك يوما أن أبثك مابيا
وقالوا به داء عياء أصابه ... وقد علمت نفسى مكان دوائيا

ويقول قيس بن ذريح :

تمنيت أن تلقى لبيناك والمنى ... تعاصيك أحيانا وحينا تطاوع
ومامن حبيب واهق لحبيبه ... ولاذى هوى إلا له الدهر فاجع
فيا قلب خبرنى إذا شطت النوى ... بليلى وصدت عنك ماأنت صانع؟

فواكبدى من شدة الشوق والأسى ... وواكبدى إنى إلى الله راجع
نهارى نهار الواله‍ين صبابة ... وليلى تنبو فيه عنى المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ... ويجمعنى بالليل والهم جامع
كأن بلاد الله مالم تكن بها ... وإن كان فيها الناس قفر بلاقع
ألا إنما أبكى لما هو واقع ... وهل جزع من وشك بينك نافع
لقد ثبتت فى القلوب منك محبة ... كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

وفى هذه الأبيات نجد مسحة حزينة باكية ، ودموعا غزاراً يسكبها الشاعر على حبه ، وهياما شديداً بلبناه وذكرياته معها . ونجد عاطفة صادقة، ومشاعر متأججة ، ووجدانا متوقد الإحساس ، ملتهب الألم . وهذه هى عناصر الغزل العذرى الذى نبغ فى القرن الأول الهجرى ، وكان من أعلامه : مجنون ليلى ، وقيس بن ذريح(١) ، وجميل ، وكثير ، وسواهم .

وقيس فى البيت الأول يخاطب نفسه مولها حزينا فيقول : تمنيت لقاء محبوبتك لبنى ، والحظ يعاصيك حينا ويطاوعك حيناً آخر ، وفى البيت الثانى يقول فى حكمة عالية : أنه مامن حبيب وفى لحبيبته ، ولا صاحب هوى غالب على قلبه ، إلا الدهر فاجع له ، مفرق لوصـــله ، مشتت لحبه وأحبابه . وفى البيت الثالث يزداد قيس تولها فى حبه ، وتفجعا فى تهيامه فيسائل قلبه : خبرنى ياقلب ماذا أنت فاعل إذا فرق الدهر بينك وبين أحبابك وشطت النوى بلبنى ، وطال الفراق بها ، ولم يعدلك أمل فى وصالها ولقائها ؟ وفى البيت الرابع يصف متوجعا حزينا ولهه وحزنه وحيرته وماداخل قلبه من حبها وكبده من شدة الشوق والأسى ، وما أروع مايقول: « وواكبدى إنى إلى الله راجع » يريد أن يقول: إنه ميت لامحالة من شدة الحزن

---

(١) كان قيس من حاضرة المدينة وكان ينزل فى ظاهرها (٤١٨ الفرج بعد الشدة للتنوخى ط الخانجى) .

والشوق ، وإن مصيره إلى الله لاريب ، وأمره بيده ـ تعالى ـ يصرفه كما يشاء . وفى البيت الخامس يتحدث عن نهاره فى الحب وليله ، نهاره المملوء بالحزن لفراق لبناه ، وليله المملوء بالألم حتى لايكاد يستقر به المضجع ، فهو فى سهاد وقلق وهموم موصولة لانهاية لها .

وفى البيت الذى بعده يصف كيف يقضى نهاره بالحديث عن لبنى والمنى فى لقائها ، وكيف يخلو بالليل إلى همومه وأحزانه حتى ليمسى فيه وليس معه إلا الهم والأسى وكأنما جمعه بالهم جامع لايغالب وقدر لاينازع . وما أروع مايصور فى البيت السابع من شدة حبه للبنى فالدنيا كلها صحراء جرداء إذا خلت من محبوبته وقفر موحش إذا لم تكن لبنى فيها . . وفى البيت الثامن ، يقول : إن بكائى وحزنى للفراق الذى حدث والهجر الذى كان ، ولكن لاينفع الجزع والبكاء ، لأنه لايرد مامضى ، فقد وقع الفراق ولاحيلة له فى ما وقع ، ولقد كان قيس جزعا حزينا وهو ولبنى فى وصال ، فماذا ينفع الجزع والفراق اليوم سريع ، والوصال غير متوقع ، والنوى قد باعدت بينه وبينها .

وقيس فى القصيدة كلها حزين دامع العينين استبد به الألم والأسى والحيرة والجزع ، لفراق لبنى ، الدنيا كلها تبكى معه ، والبلاد كلها موحشة إذا لم تكن لبنى فيها ، وليس له من راحم إلا الأمل والمنى فى أن يعيد الدهر ما بينهما من وصل مقطوع .

وما أروع مايصور الشاعر من همومه وأحزانه فى ليله ونهاره ، وما اعترى كبده من شدة الشوق وقلبه من شدة الوله ، ونفسه من كثرة الحنين . هذا هو الشاعر فى حكمته فى البيت الثانى وفلسفته فى البيت الأخير ، وفى حيرته وألمه وأحزانه فى أبيات القصيدة كلها .

ولقد نشأ فى عصر بنى أمية ، وبتأثير البيئة والإسلام والروح العربية

الأصيلة فن جديد من الغزل هو الغزل العذرى ، نسبة إلى قبيلة عذرة المشهورة بالهيام والجمال والتصوف الروحى فى الحب ، وهذا الغزل يقف عليه الشاعر قصيدته ، ويملؤها وجدا وحنينا ، وبكاء وأنينا وأحزانا وأشجانا وعفة ، وطهرا ووصفاً لآلام الروح وتباريح الفؤاد وعذاب النفس فى الحب ، وهكذا كانت هذه القصيدة(١)

أغراض أخرى :

وهناك أغراض متعددة ، قال فيها الشعراء ما كثروا ، وصوروا ما أجادوا ، لم يتخلفوا عن أقرانهم ، ولم يضعفوا فى ميدانهم ، وإنما نهضوا سباقين ، وجالوا فى كل فن منها مبرزين ، ومن هذه الأغراض :

الوصـــف :

ومن نماذجه الكثيرة قول أبى النجم يصف فهود عبدالملك بن مروان:

فهى ضوار من مضرّيات
تريك آماقاً مخططات
سوداً على الأشداق شائلات
تلوى بأذناب موقّفات

وقال الفرزدق يصف ذئباً :

وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت لنارى موهنا فأتانى(٢)

---

(١) راجع عن قيس : ٨ : ١١٢ الأغانى ، ٣٩٩ الشعر والشعراء ، ٢٠٧ الموشح ١ : ٣٤ - ٤٧ حديث الأربعاء ، ١٢٠ المؤتلف ، ٣٨٩ و ٧١٠ اللآلىء ، الأمالى ، ١ : ٣٣٦ جورجى زيدان ، ١٩٤ و ٢٠٠ و ٢٠١ ج ٢ بروكلمان .

(٢) أطلس : أغبر اللون . عسال : مضطرب فى مشيته ، موهن : نحو من نصف الليل .

فلما أتى قلت : ادن ، دونك ، إننى وإياك فى زادى لمشتركان
فبت أقد الزاد بينى وبينه على ضوء نار مرة ودخان(١)
وقلت له لما تكشر ضاحكا وقائم سيفى من يدى بمكان
تعش ، فإن عاهدتنى لاتخوننى نكن مثل من ـ ياذئب ـ يصطحبان
وأنت امرؤ ـ ياذئب ـ والغدر كنتما أخيين كانا أرضعانا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى رماك بسهم أو شباة سنان(٢)
وكل رفيقى كل رحل ، وإن هما تعاطى القنا قوماهما ، أخوان

ويقول الأخطل فى وصف الخمر :

وتظل تتحفنا بها قروية إبريقها برقاعه ملثوم
فإذا تعاورت الأكف زجاجها نفحت فشم رياحها المزكوم

ويقول الوليد بن يزيد :

من قهوة زانها تقادمها فهى عجوز تعلو على الحقب
أشهى إلى الشرب يوم جلوتها من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلت ورق جوهرها حتى تبدت فى منظر عجيب
فهى بغير المزاج من شرر وهى لدى المزج سائل الذهب
كأنها فى زجاجها قبس تذكو ضياء فى عين مرتقب

ويقول الأخطل كذلك فى وصف الكأس :

وكأس مثل عين الديك صرف تنسى الشاربين لها العقولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثا بغير الماء حاول أن يطولا
مشى قرشية لاشك فيها وأرخى من مآزره الفضولا

---

(١) أقد : أقطع .
(٢) الشبا : الطرف .

وقال يصف السكران :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ... ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل
نهاديه أحياناً وحيناً تجره ... وما كان إلا بالحشاشة يعقل
إذا رفعوا صدرا تحامل صدره ... وآخر مما نال منها محمل

ولشاعر يصف مدينة همذان :

وكيف أجيب داعيكم ودونى ... جبال الثلج مشرفة الرعان
بلاد شكلها من غير شكلى ... وألسنها مخالفة لسانى (١)

وقال حندج بن حندج المرى :

فى ليل صول تناهى العرض والطول ... كأنما ليله بالليل موصول
لا فارق الصبح كفى إن ظفرت به ... وإن بدت غرة منه وتحجيل
لساهر طال فى صول تململه ... كأنه حية بالسوط مقتول (٢)
متى أرى الصبح قد لاحت مخايله ... والليل قد مزقت عنه السرابيل (٣)

---

(١) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذانى ـ طبع ليدن سنة ١٣٠٢ ، صفحة ٢٣١ .

(٢) صول : بلد فى الخزر من بلاد الترك ، والغرة : بياض فى جبهة الفرس ، والتحجيل بياض فى قوائمه وقوله : لساهر الجار والمجرور متعلق بقوله : بدت ، ويعنى به نفسه ، والتململ القلق ـ ومعنى الأبيات : يصف ليل تلك البلد بتناهى الطول وأنه إن ظفر بالصبح أو بدت له غرته فلا يفارقه لأنه بات فيه قلقا منزعجا كأنه حية مضروبة بالسياط .

(٣) المخايل الطلائع والعلامات والسرابيل أراد بها الظلام ، وجملة متى أرى الصبح استفهام فى موقع التمنى والمشكول المشدود ، والراكد الساكن ـ ومعنى الأبيات : يتمنى ظهور علامات الصبح وانه لطوله كالمربوط لايتحرك وأن نجومه ثابتة لاتزول كأنها قناديل معلقة .

ليل تحير ماينحط فى جهة ... كأنه فوق متن الأرض مشكول
نجومه ركد ليست بزائلة ... كأنما هن فى الجو القناديل
ماأقدر الله أن يدنى على شحط ... من داره الحزن ممن داره صول
الله يطوى بساط الأرض بينهما ... حتى يرى الربع منه وهو مأهول(١)

وقال ذو الرمة (٤٥ — ١١٧ هـ) يصف الصحراء بالليل :

ودوية مثل السماء اعتسفتها ... وقد صبغ الليل الحصا بسواد
بها من حسيس القفر صوت كأنه ... غناء أناسى بها وتنادى

ويقول فى وصف الفلاة بالليل كذلك :

للجن بالليل فى حافاتها زجل ... كما تجاوب يوم الريح عيشوم(٢)
هنا وهنا ومن هنا لهن بها ... ذات الشمائل والأيمان هينوم
دوية ودجى ليل كأنهما ... بم تراطن فى حافاته الروم

وقال بعض الحجازيين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها، وهو عمر بن أبى ربيعة ؛ وهذه الأبيات فى حماسة أبى تمام وهى فى ديوان عمر :

خبروها بأننى قد تزوج ... ت فظلت تكاتم الغيظ سراً
ثم قالت لأختها ولأخرى ... جزعاً : ليته تزوج عشراً

---

(١) ماأقدر الله : لفظه تعجب ومعناه الطلب والتمنى ، والشحط : البعد ، والحزن : اسم موضع والبساط : الأرض الواسعة والربع الدار — ومعنى البيتين : انه يتمنى أن يجمع الله بينه وبين من يحب على بعد مابينهما من الدار حيث لاندانى بين من داره الحزن ومن داره صول ، وأن يطوى شقة البعد بينهما ليرى الدار ومن فيها .

(٢) صوت هينمة تسمع ولا تفهم .

وأشارت إلى نساء لديها ... لا ترى دونهن للسر سترا
ما لقلبي كأنه ليس مني ... وعظامي كأن فيهن فترا
من حديث نما إلى فظيع ... خلت في القلب من تلظيه جمرا

وقال حطان بن المعلى يصف حاله وحال بناته :

أنزلني الدهر على حكمه ... من شامخ عال إلى خفض
وغالني الدهر بوفر الغنى ... فليس لي مال سوى عرضي
أبكاني الدهر ويا ربما ... أضحكني الدهر بما يرضي
لولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض إلى بعض(١)
لكان لي مضطرب واسع ... في الأرض ذات الطول والعرض(٢)
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني من الغمض(٣)

شعر الحماسة :

قال قطري بن الفجاءة الخارجي :

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو طلبت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لن تطاعي

---

(١) الزغب : الشعر اللين الصغير، وكني بهذا عن الضعف والصغر . رددن الخ. أي تتابعن وكثرن كل واحدة جنب الأخرى .

(٢) المضطرب : الاضطراب والحركة . المعنى . لولا خوفي من ضياعهم لكان لي مجال واسع في الأرض وانما لزمت مكاني بسببهن .

(٣) المعنى : أنه لا يطمئن الا اذا كانوا سالمين بأجمعهم .

فصبراً فى مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيطوى عن أخى الخنع اليراع (١)
سبيل الموت غاية كل حى ... وداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنون إلى انقطاع (٢)
وما للمرء خير فى حيـــاة ... إذا ماعد من سقط المتاع

وقال سعد بن ناشب :

سأغسل عنى العار بالسيف جالباً ... علىّ قضاء الله ما كان جالباً
وأذهل عن دارى وأجعل هدمها ... لعرضى عن باقى المـذمة حاجباً
ويصغر فى عينى تلادى إذا انثنت ... يمينى بادراكى الذى كنت طالباً
فإن تهدموا بالغدر دارى فإنها ... تراث كريم لا يبالى العواقبا
إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانبا

والشاعر هنا فى هذه القصيدة غاضب ساخط وثائر أبى، ملئت نفسه غضبا وسخطا لهدم داره والاعتداء على كرامته وعدم الحفاظ على شرفه ، فهو مصمم على مقابلة قوة الوالى بقوته وبسيفه لا يفكر فى الأمر ولا يتدبر فيه لا يهمه النتائج ولا يبالى بها يريد أن يفتدى عرضه بأى ثمن وبأية تضحية لا يهمه من الأمر شىء إلا أن يسترد شرفه المهان وكرامته المسلوبة وعرضه المستذل ، وهو يتمادى فى السخط والغضب فيعلن أن داره تراث لرجل كريم لا يبالى العواقب يخوض الحروب ويقتحم المخاطر ولا ينثنى عن اقتحامها ولا يريد له صاحبا إلا سيفه فى المعارك التى يرمى نفسه فيها ، انه إذا عزم على الأمر لم تقف فى سبيله عقبة ولم تثنه عنه الشدائد والخطوب بل إنه فخر رزام وقائدها فى الحروب يعزم على الأمر فينفذ ماعزم عليه دون تردد أو احجام أو تفكير فى النتائج مشيره نفسه وصاحبه سيفه . وما أروع

---

(١) الخنع . الذل والضيم ، واليراع : الجبان المستطار .
(٢) يعتبط : يمت شابا .

ما مثل لتصميمه وعزمه وتنفيذه لمـــا هم به فى قوله « إذا هم ألقى بين عينيه عزمه » .

والشاعر هنا منقاد لطبيعته البدوية فهو ميال للانتقام كاره للنظام خارج على القانون ذاهل عن ماله وداره فى سبيل المحافظة على عرضه ، ذو عزيمة ماضية لا تعتريها حيرة ولا تثنيها عقبة ، شجاع يخوض الجيوش ويقتحم العقبات ، واثق بنفسه معتمد على بأسه ، يركب الهول وحيداً لا يصحبه إلا سيف صارم ، يرعى وده ويحفظ عهده فلا يخون فى شدة ولا ينبو عن ضربة . مستبد برأيه ، يمضيه منفرداً ، فلا يحتاج إلى مشير يبصره بالصواب ويرشده إلى قصد السبيل ، لأن ذلك فى رأيه عجز تأباه كرامته وتنفر منه سجيته ، متوعد لأميره الذى هدم داره مصمم على أخذ ثأره ، مهما ركب فى طريقه من أهوال ، فهو يمهل أمره ولا يهمله ، يتربص به الأيام على فرصة تمر فينتهزها وخصاصة تظهر فيهجم عليه منها . ولئن عجز الآن عن الانتقام فطالب الثأر لا ينام .

ومعانى الشاعر هنا ترجع فى جملتها إلى الوصف بالشجاعة وقلة المبالاة وإمضاء العزم والاستبداد بالرأى وانتهاز الفرص للأخذ بالثأر ، وهى معان تلائم أشد الملائمة باب الحماسة من أبواب الشعر العربى ، وألفاظها جزلة قوية ، وأسلوبها متين رصين خال من التكلف برىء من التعقيد .

ويؤخذ على الشاعر هنا أنه ترك الفكر فى العواقب فترك عظيما مما يتحلى به الرجال وهو الحزم ، والعرب تقول : رو تحزم فإذا تبينت فاعزم . ومن كلامهم : قبل الرماء تملأ الكنائن . فلاشك فيه أن الإقدام على الضرر وركوب الأمر على الخطر مما لا يحمده عاقل ومما ينكر الدين .

ونحن هنا لا نذم شعره ، إنما نذم فكره ورأيه ، ولكنه عبر عن رأيه

بأسلوب قوى ، وخيال خصب وعاطفة ثائرة ، وانفعال شديد . . أما رأيه فيناقضه قول الشاعر :

وأوقف عند الأمر لم يتضح له وأمضى إذا ما شك من كان ماضيا

وكان سعد بن ناشب من شعراء العصر الإسلامى ، عاش فى دولة بنى أمية ، ونسبه يرجع إلى بنى مازن بن مالك بن عمرو من تميم ، وهو غير مشهور الذكر بين شعراء عصره ، لقلة آثاره الأدبية ، وندرة المروى عنه ، وشعره فى المرتبة الثانية ، ولعل سبب اختيار قصيدته هذه ، ماتضمنته من معانى الاعتزاز بالنفس ، وإباء الضيم .

وقد نظمها هذه القصيدة حين اتهم فى قتل وهرب ، فأمر قاضى البصرة بهدم داره ، تنكيلا وإرهابا ، وكان من عادة الأمراء يومئذ ، هدم دار من يتهم هو أو أحد قبيلته فى قتل ، أو يأتى بحدث يستنكره الحكام الطغاة .

وقد روى أن سعدا ، دخل يوماً على الحجاج فقال : أيها الأمير ، عصى عاص من عرض العشيرة ، فخلق(١) على اسمى ، وهدمت دارى ، وحرمت عطائى ، قال الحجاج : هيهات ، أما سمعت قول الشاعر :

جانيك من يجنى عليك وربما تعدى الصحاح مبارك الجرب
ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارف(٢) صاحب الذنب

قال : ولكنى سمعت الله قال غـــير هذا ، قال : وما ذاك ؟ قال : إنه يقول :

(يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون) .

---

(١) وضعت عليه دائرة لمنع عطائه . (٢) المذنب . (٣) اكتب له ورقة .

فطلب الحجاج كاتبه فأتى به ، فقال له : افكك لهذا عن اسمه، واصكك(٣) له بعطائه ، وابن له منزله . ومر منادياً ينادى فى الناس، صدق الله، وكذب الشاعر .

وقد بدأ الشاعر قصيدته بعزمه على غسل العار الذى لحقه ، بهدم داره ، وذكر أنه لاتهمه الديار ولا الأوطان فى سبيل احتفاظه بعزته وإبائه ، وأن نجاحه فى مطالبه ووصوله إلى أغراضه ـ ومن هذه الأغراض الثأر لنفسه ـ لا يعادله شىء مهما غلت قيمته ، ثم أرغى وأزبد ، وهدد وتوعد ، وذكر ماتصف به من جسارة وشجاعة ، وما عرف به من شدة المراس . وقوة الشكيمة ، والقصيدة توشك أن تكون صيحة من الصيحات البدوية ، وصدى لنغمة من نغمات الجاهلية إذ أن صاحبها قريب المكان من الصحراء ، حديث العهد من الحمية الجاهلية .

ومعانيها صورة منقولة عما تغنى به الشعراء من قبله ، وترديد ردده من سبقوه ، من الفخر بحماية الأعراض ، والغض من شأن المال ، واقتحام ميادين الهلكة من غير خوف ولا وجل . وقد كرر الشاعر معنى عدم (المبالاة بالعواقب) ثلاث مرات فى قصيدته ، فقد ذكر ذلك فى البيت الأول والرابع والأخير .

ويبدو على ألفاظ القصيدة خشونة البداوة ، ويمتاز أسلوبها بما عرفت به التراكيب فى هذا العصر ، من المتانة والقوة .

وأما قطرى فى قصيدته السابقة فهو يقف فى المعركة ، ويشترك فى القتال ويناوش الأبطال ، وتبدأ نفس الشاعر البطل تفزع من هول الحرب وشدة النضال ، ولكن الشاعر يعيدها إلى طمأنينتها وإلى ثباتها وصلابتها ، حتى يطالبها بالصمود والاستهتار بالموت ، والنضال من أجل العقيدة والدفاع عن المذهب والرأى ، وقطرى يصور كل ذلك تصويرا رائعا .

ففى البيت الأول يقول الشاعر أنه حدث نفسه فى المعركة لتثبت وتقدم

على القتال بعزيمة قوية وقلب رابط الجأش فلا تفزع ولا تجبن . . كل ذلك والهول شديد ، والفزع محيط بالناس من كل جانب والأبطال تتصارع والنفوس تطير من الهول شعاعا .

وفى البيت الثانى يسلى الشاعر نفسه ويسرى عنها بأن الأجل مكتوب وأن العمر مقدور وأن الإنسان مهما تمنى أن يزيد عمره وتطول حياته فان يغنيه هذا التمنى شيئا ولن يمده فى عمره دقيقة ولا يوم ولا أقل من ذلك ولا أكثر.

وفى البيت الثالث يسأل نفسه الصبر فى مجال الموت ويحثها عليه لأن الخلود فى الحياة محال مادام لابد من الموت .

وفى البيت الرابع يقول الشاعر لنفسه إن الحياة وطول العمر ليس مما ينعم به ويعز به الإنسان ولا يستحقه إلا الجبناء والأذلاء .

وفى البيت الخامس يقول : إن الموت نهاية كل الأحياء وإن المنادى به سوف ينادى به على كل الناس ـ جميعا، إذا أن سببه لابد أن ينال كل الناس .

وفى البيت السادس يقول الشاعر : إن من لم يدركه الموت شابا يسأم من الحياة وينالـه طول الأوصاب ولابد أن يسلمه ـ فى يوم من الأيام ـ الموت إلى أجله المقدور .

والبيت السابع يقول فيه : إن الحياة لاقيمة لها ولا فائدة منها إذا ماهرم الإنسان وصار جسما عليلا وعد حينئذ من الأشياء التى لايحسب لها حساب .

والأبيات كلها نغم واحـــد وفكرة موصولة ، ودعوة إلى الشجاعة والدفاع عن الرأى والاستهانة بالموت ، والشاعر متأثر فيها بالعاطفة الدينية وبالحكمة الإسلامية وبروح القرآن الكريم .

وكان قطرى أحد أعلام الشعراء الأمويين وهو قطرى بن الفجاءة المازنى أحد رؤس الخوارج ـ وزعمائهم الأشداء وقادتهم الأكفاء وأحد

الأبطال الفرسان كان شاعرا متحمسا لرأيه ومذهبه ، وخطيباً بليغا مؤثرا .

فى شعره عاطفة التضحية ونغمة الإخلاص والفناء فى العقيدة وحب الجهاد والتفانى فى الدفاع عن الشرف والعرض ، مع حماس شديد ، ورقة نفس وإباء . . .

وأسلوبه قوى جزل بليغ ، وكان قطرى من أفصح العرب بيانا وأبلغهم لسانا نشأ متأدبا بآداب الإسلام منطوية جوانحه على الإخلاص له وحب تعاليمه .

واشتهر بالورع والتقوى ، ولما رأى مظالم بنى أمية خرج عليهم أيام عبد الله بن الزبير وقاتل جيوشهم ، ونكل بجيوش الخلافة الأموية وسلم عليه أتباعه بالخلافة حتى قتل بطبرستان عام ٧٩ هـ .

الهجاء :

ومن هجاء الفرزدق لجرير :

ولو ترمى بلؤم بنى كليب ... نجوم الليل ماوضحت لسارى
ولو لبس النهار بنو كليب ... لدنس لؤمهم وضح النهار
وما يغدو عدى بنى كليب ... ليطلب حاجة إلا بجار

وقوله كذلك فى هجاء جرير :

فإن تك كلباً من كليب فإننى ... من الدارمين الطوال الشقاشق
هم الداخلون البيت لاتدخلونه ... على الملك ، والحامون عند الحقائق
ونحن إذا عدت معد قديمها ... مكان النواصى من وجوه السوابق

ومن قصائد الهجاء المشهورة قول جرير يهجو الراعى النميرى فى قصيدته التى مطلعها :

أقلى اللوم عاذل والعتابا ... وقولى إن أصبت لقد أصابا

ومنها :

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناس كلهم غضابا

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ومن نماذج الهجاء قول قعنب بن ضمرة :

أن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ... منى وما سمعوا من صالح دفنوا

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ... وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم ... لبئست الخلتان : الجهل والجبن

وقال عبد الرحمن بن الحكم .

لحا الله قيساً قيس عيلان إنها ... أضاعت ثغور المسلمين وولت

فشاول بقيس فى الطعان ولا تكن ... أخاها إذا ما المشرفية سلت

وقال مالك بن أسماء فى الهجاء :

لو كنت أحمل خمر أيوم زرتكمو ... لم ينكر الكلب أنى صاحب الدار

لكن أتيت وريح المسك يفغمنى ... وعنبر الهند أذكيه على النار

فأنكر الكلب ريحى حين أبصرنى ... وكان يعرف ريح الزق والقار

وقال الطرماح يهجو بنى تميم :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سبل المكارم ضلت

ولو أن برغوثا على ظهر نملة ... يكر على صفى تميم لولت

وقد انتشر الهجاء فى هذا العصر انتشاراً كثيراً ، لكثرة أسبابه ، وتعدد دواعيه ، فقد كان هناك هجاء سياسى بين شعراء الأحزاب كما أسلفنا ، وهجاء

شخصى بين الشعراء أنفسهم ، دعت إليه المنافسة على أبواب الخلفاء والولاة أو العصبية للقبيلة .

ولقد أفحش الشعراء فى هذا الباب ، وألحوا على ذكر المثالب والعيوب، ونبشوا ما حرص الإسلام على دفنه ، من إثارة الخصومات، وبعث العداوات وأشهر ضروب المهاجاة فى العصر الأموى المهاجاة بين جرير والفرزدق والأخطل ، فقد قذفوا كل عرض ، وانتهكوا كل حرمة . وشجعهم على ذلك حرص الخلفاء على أن ينصرف الناس باستماع هذا الشعر ، والخلاف فيه ، عن معارضتهم فى السياسة ، ومنازعتهم على السلطان .

والدارس لما فاضت به قرائح الشعراء فى هذا العصر يرى أنهم لم يتورعوا ولم يحجزهم تقى ولادين ، عن رمى المحصنات . وقذف الأعراض حتى كان الناس يستجيرون بقبر غالب أبى الفرزدق من هجائه فيجيرهم . وكان جرير كذلك مولعا أشد الولع بالوقوع فى الأعراض ، ويعد النساء شطر الهجاء ومادة الإقذاع ، حتى ليقال إنه دعا رجلا من شعراء بنى كلاب إلى مهاجاته. فقال الكلابى : إن نسائى بأمتعتهن ولم تدع الشعراء فى نسائك مترفقا .

ولكثرة ما أثم الشعراء ، وماخاضوا فيه من إفك وإثم ، أحس بعضهم بشناعة ما أجرم ، وشناعة ماقذف من عرض ، وهتك من ستر ، وخرق من حرمة ، حتى إن الفرزدق نسك فى آخر عمره وتعلق بأستار الكعبة ، وعاهد الله أن لا يكذب فى شعره ، ولا يشتم مسلما .

ومن الهجاء هذه القصيدة الدالية للفرزدق ، وهو أحد الشعراء الثلاثة ، الذين حملوا لواء الشعر فى العصر الأموى ، والفرزدق بخاصة أحيا ثلث اللغة العربية فى شعره ، واسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال من بنى مجاشع بن دارم التميمى وكنيته أبو فراس ، ويقال إن الأبيات للبرج التميمى وكان الحجاج قد وجهه لقتال الأزارقة فهرب إلى الشام وقال هذه الأبيات ، ونسبت إلى مالك بن الريب فى كتاب الكامل للمبرد :

إن تنصفونا يال مروان نقترب منكم وإلا فاذنوا ببعاد (١)
فإن لنا عنكم مراحا ومذهبا بعيس إلى ريح الفلاة صوادى
مخيسة بزل تخايل فى البرى سوار على طول الفلاة غوادى (٢)
وفى الأرض عن ذى الجور منأى ومذهب
وكل بلاد أوطنت كبلادى (٣)

---

(١) تنصفونا تعاملونا بالعدل . واذنوا اعلموا من أذن بالشىء يأذن إذنا وأذنه بالفتح فيهما علم به ـ يقول : إن عدلتم فى معاملتنا أقنامعكم وفى ولايتكم وعلى ولاء لكم ، وإن جرتم فاعلموا أنا قادرون على الخروج عليكم والبعد عنكم .

(٢) مراحا : مصدر ميمى من راح الرجل يروح ويريح روحا وريحا ذهب وتباعد. والعيس الإبل البيض يخالط بياضها شقرة والذكر أعيس والأنثى عيساء. والصوادى العطاش من صدى كتعب عطش . ومخيسة مروضة مذللة اسم مفعول من خيس الدابة راضها وذللها . وبزل بضمتين سكن للضرورة جمع بزول كصبور وصبر من بزل البعير طلع نابه فهو وهى بازل وبزول وذلك إذا بلغ التاسعة . والبرى جمع برة حلقة تجعل فى أنف البعير . والتخايل والاختيال المرح والنشاط. والسوارى السائرة بالليل من سرى يسرى . والغوادى السائرة بالنهار . والمعنى: إن خرجتم فى معاملتنا عن العدل ابتعدنا عنكم وخرجنا من ولايتكم إلى فلاة لم تنلها قدرتكم ولم يبلغها سلطانكم بابل نجيبة تحن إلى الصحراء منقادة لأمرنا موقوفة على إرادتنا قادرة قوية على قطع المسافات البعيدة ، مطيقة ، تواصل سرى الليل بسير النهار .

(٣) المنأى مكان النأى وهو البعد والمذهب مكان الذهاب ، وأوطنت مبنى المجهول يقال أوطنت الأرض ووطنتها توطينا واستوطنتها إذا اتخذتها وطنا تقيم فيه . يقول : فى الأرض أماكن فسيحة تنجيك من احتمال الضيم وكل بلاد أقمت بها وطاب لك العيش فيها هى كسقط رأسك ومحل ولادتك :

تلق بكل بلاد إن أقمت بها أهلا بأهل وجيرانا بجيران

كشف لك فى هذا البيت أن نفسه تطيب بالسفر وتسلو عن الأهل والبلد إذا لم تجد عدالة تعيش فى ظلها ولم الإقامة فى دار يسودها الظلم ؟

وماذا عسى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن خلفنا حفير زياد (١)
فباست أبي الحجاج واست عجوزه عتيد بهم ترتعى بوهاد (٢)
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد إياد
زمان هو العبد المعز بذله يراوح صبيان القرى ويغادى (٣)

النقائض فى عصر بنى أمية (٤)

فن جديد من الشعر فى العصر الأموى ، استلزمه الجدل السياسى والقبلى والاجتماعى والأدبى، ونبغ فيه كثير من الشعراء كجرير والفرزدق والأخطل

---

(١) الجهد الطاقة وخلفنا تركنا وراءنا . وحفير زياد نهر حفره زياد بن أبيه . يقول : إذا فارقت مملكته وتباعدت عن سلطانه وجاوزت حدود عمله فلا قدرة له على .

(٢) عتيد مصغر عتود وهو مارعى وقوى من أولاد المعز وأتى عليه حول . والبهم أولاد المعز الصغار الواحد بهمة للذكر والأنثى . وباسته متعلق بفعل محذوف وهى من شتائم العرب المفحشة وعتيد منصوب على الذم . والمعنى : أنه فى خسته ودناءته ورياسته لأمثاله أشبه بعتود مع بهم .

(٣) يقول : لولا عبد الملك بن مروان وبنوه لظل الحجاج معلم كتاب وهم يذكرون أن الحجاج كان معلما بالطائف وكان لقبه كليبا وفى ذلك يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ماترى وآخر كالقمر الأزهر

والعرب تحط من أقدار المعلمين وتضرب بهم المثل فى الضعف وتنهى عن مشاورتهم ، وروى الجاحظ أنهم كانوا يقولون : لاينبغى لعاقل أن يشاور أحداً من خمسة : الغزال والقطان والمعلم وراعى الضان والرجل الكثير المحادثة للنساء، وتلك بقية من أميتهم .

(٤) هى جمع نقيضة من نقض البناء أى هدمه ، ونقض الحبل أى حله ، قال تعالى : ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، وناقضته مناقضة أبطلت كلامه وأتيت بما ينافيه .

يقول أحدهم قصيدة فى موضوع وغالبا مايكون الفخر أو الهجاء، فيهب الآخر للرد على الشاعر والأخذ بالثأر منه ، فينظم قصيدة على نمط القصيدة الأولى وزنا وقافية غالبا ، يبطل فيها معانى الشاعر الأول وكل أفكاره ، بعكس المعارض ، والمعارضة التى هى تأييد لكل أفكار القصيدة المعارضة ، وتخالف المنافرة أيضا ، التى هى أن يفتخر الرجلان بشعرهما ويحتكمان إلى آخر ليفصل بينهما فى القضية .

وإذا كانت النقائض القبلية قد وجدت فى العصر الجاهلى فيما قيل فى يوم الكلاب الأول ، والكلاب الثانى ، والنقائض الدينية قد وجدت فى عصر النبوة بين حسان وابن الزبعرى وضرار بن الخطاب مثلا ، فإن النقائض الأموية فن سياسى وأدبى جديد نشأ بتأثير الحاجة إليه فى شئون السياسة والعصبية والأدب ، فالجانب السياسى والأدبى منه جديد كل الجدة، أما الجانب القبلى الاجتماعى فهو تطور للجدل القبلى الجاهلى القديم .

وقد اشتدت معركة الهجاء بين جرير والفرزدق والأخطل ودخل فيها الكثير من الشعراء الأمويين ، وفى هذه المعركة قيلت أكثر النقائض المأثورة التى جمعها أبو عبيدة (٢١٣ هـ : ٨٢٨ م) ، وأشهرها نقائض جرير والفرزدق ونشرها أنطونى بيفان فى ثلاثة أجزاء ، ونشر الأب أنطون صالحانى نقائض جرير والأخطل .

والنقائض تصور الشعر الأموى تصويرا قويا واضحا ، وتمتاز هذه النقائض بما سادها من روح الإسفاف والمبالغة، ونهش الأعراض والتعرض للحرمات والكرامات : مما تمثله نقائض هؤلاء الشعراء، ومما لا داعى لتسجيل صورة لها فهى معروضة فى جميع كتب الأدب الأموى ، وبخاصة فى كتاب النقائض لأبى عبيدة .

ومن طريف صور شعر الهجاء قول شاعر يهجو امرأته وقد طلقها :

رحلت أنيسة بالطـــلاق وعتقت من رق الوثاق (١)
بانت فلم يألم لها قلبي ولم تبك المآقى (٢)
ودواء مالا تشتهيـــ ـه النفس تعجيل الفراق (٣)
لو لم أرح بفراقها لأرحت نفسى بالإباق (٤)
وخصيت نفسى لا أريـ ـد حليلة حتى التلاقى (٥)

الفخر :

ومن نماذجه هذه الصورة الشعرية للطرماح وهى تجمع بين الفخر والحكمة ، قال شاعرنا الطرماح يصور شقاءه بالئام :

لقد زادنى حبا لنفسى أننى بغيض إلى كل امرىء غير طائل (٦)

---

(١) قوله « بالطلاق » موضع الباء نصب على الحال : أى رحلت ومعها طلاقها ، يقول : كنت كالأسير الموثق ففككت وثاقى .

(٢) جعل البكاء للمآقى مجازاً ، وهو جمع موق ، وهو طرف العين الذى يلى الأنف ، وهو مخرج الدمع ، ولذلك جعل الفعل لها .

(٣) يريد تعجيل فراقه ، فجعل اللفظ عاما والمراد الخاص ، وعلى هذا قوله « من رق الوثاق » يريد وثاقها .

(٤) « الإباق » الهرب ، والراحة وجدانك الروح بعد مشقة ، و « مالك رواح » أى راحة ، والتراويح فى رمضان منه ، وكذلك تراوحته الأمطار ، وافعل ذلك فى سراح ورواح .

(٥) الحليلة : الزوج ، سميت بذلك لأنها تحاله : أى تنازله . حتى التلاقى : إلى وقت تلاقى الخلق فى يوم القيامة .

(٦) غير طائل : أى لاقيمة له ولا وزن له ، والمعنى زادنى بغضا إلى كل رجل لاخير فيه حبا لنفسى .

وأنى شق باللئام ولا ترى شقيا بهم إلا كريم الشمائل (١)
إذا ما رآنى قطع الطرف بينه وبينى فعل العارف المتجاهل (٢)
ملأت عليه الأرض حتى كأنها من الضيق فى عينيه كفة حابل (٣)
أكل امرىء الفى أباه مقصرا معاد لأهل المكرمات الأوائل (٤)
إذا ذكرت مسعاة والده اضطنى ولا يضطنى من شتم أهل الفضائل (٥)
وما منعت دار ولا عز أهلها من الناس إلا بالقنا والقنابل (٦)

والطرماح من طى نشأ بالشام واتبع آراء الأزارقة من الخوارج وكان صديق الكميت الشاعر مع شيعية الكميت ، وأنشد للكميت يوما للطرماح قول الطرماح :

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال الكميت : إى والله وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة

---

(١) أى وزادنى حبا لنفسى شقائى باللئام ينتقصوننى ويزدرونى ، ولا يشق باللئام إلا كرام الناس وأفاضلهم .

(٢) رآنى أى أبصرنى . قطع الطرف أى رد طرفه عنى وقطع نظره إلى . المتجاهل الذى يدعى الجهل وليس بجاهل ، والمعنى . اذا رآنى قطع نظرى عنى وتكلف الجهل .

(٣) ملأت عليه الأرض أى ضيقتها عليه . كفة الحابل الحفيرة التى تنصب الحبال فيها لأنها تجعل كالطوق . الحابل صاحب الحبالة ، والمعنى : ضاقت على العدو الأرض بما رحبت وصارت فى نظره أضيق من كفة الحابل

(٤) أكل امرىء وجد أباه عاجزا عن نيل ما يكسبه من الفضائل وينبهه يعادى أهل المجد والشرف والسابقين .

(٥) المسعاة : السعى . اضطنى بوزن افتعل من الضنى أى أنه يضنى اذا ذكر صنيع والده لقبحه ومع هذا يشتم أهل الفضائل .

(٦) القنا الرماح . القنابل : جماعات الخيل . والمعنى : العز بالقوة والغلبة على الأعداء .

وكان شاعرا مجيدا من فحول الشعراء الإسلاميين عاش فى عصر بنى أمية وحارب الأمويين بسيفه ولسانه حتى لقى ربه .

وفى هذه الأبيات السبعة يصور الطرماح شخصيته ونفسه وفضائله ويذكر كيف حقد عليه اللئام وعاداه كل إنسان لم يستطع الوصول إلى منازله فى الفضل والعزة .

ففى البيت الأول يقول: إننى أزداد حبا لنفسى حين أرانى بغيضا مكروها من كل امرىء خامل عاجز عن السعى عن درك المجد الذى أدركته .

وفى البيت الثانى يقول: ومما زادنى حبا فى نفسى أننى أرانى أشقى باللئام من الناس وبأخلاقهم ولا يشقى بهم إلا كرام الناس .

وفى البيت الثالث يصور تجاهل اللئيم لشخصية الطرماح فيقول : إنه يعرف الشاعر ولكنه يتجاهل وجوده حقداً يملأ قلبه وبغضاء تشتعل نارها فى نفسه وجوانحه لخموله مع ذيوع ذكر الشاعر ومجده . وكما يقول الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وفى البيت الرابع يقول الطرماح: إن شخصيته أحاطت بهذا اللئيم المتجاهل من كل مكان وسدت عليه رحاب الأرض بما وسعت فهو يملأ عليه الأرض كلها حتى إنها لتضيق بهذا اللئيم وكأنها من الضيق حفرة صغيرة .

وفى البيت الخامس يتعجب الشاعر من حقد هؤلاء اللئام ويقول : إن كل إنسان وضيع ليس له مجد ولا حسب يصبح معاديا لأولى الفضائل والأدب والحسب من الناس .

وفى البيت السادس يقول : إن هذا اللئيم إن ذكرت سيرة أبيه ناله الألم والضنى والفزع لسوء أصله وقبح فعله ، ولكنه لا يناله هذا الألم وهو يشتم الناس ويسب أهل الفضل والفضائل منهم .

وفى البيت السابع يقول الشاعر: إن المنعة والعزة لا تكتسب إلا بالرماح والقتال فالعز بالقوة والغلبة على الأعداء، وهو معنى واحد تناوله هذا الشاعر الأموى فصوره أحسن تصوير ووضحه أكمل توضيح وأبان عنه إبانة كاملة.

وصف الانفعالات النفسية:

قال رجل من شذاذ بنى تميم يدعى أبا النشناش (١):

وسائلة أين الرحيل وسائل ... ومن يسأل الصعلوك أين مذهبه (٢)
مذاهبه أن الفجاج عريضة ... إذا ضن عنه بالنوال أقاربه
وللموت خير للفتى من قعوده ... عديما ومن مولى تعاف مشاربه
ليدرك ثارا أو ليكسب مغنما ... ألا إن هذا الدهر تترى عجائبه
فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى ... ولا كسواد الليل أخفق طالبه
فعش معذرا أو مت كريما فإننى ... أرى الموت لا يبقى على من يطالبه

المدح:

قال جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

أتصحو؛ أم فؤادك غير صاح ... عشية هم صحبك بالرواح (٣)
تقول العاذلات: علاك شيب ... أهذا الشيب: يمنعنى مراحى؟ (٤)
تعزت أم حزرة ثم قالت: ... رأيت الواردين ذوى امتناح (٥)

---

(١) كان أبو النشناش من ذؤبان تميم وفتيانهم، وكان يعترض القوافل بين طريق الحجاز والشام فيجتاحها.

(٢) الصعلوك الفقير الذى لا مال له.

(٣) تصحو: تترك الباطل. الرواح: الذهاب عشية. ويصح أن تكون أم بمعنى بل.

(٤) المراح: الاختيال والتبختر.

(٥) أم حزرة: زوج جرير. امتناح: عطاء.

تعلل وهى ساغبة بنيها ... بأنفاس من الشبم القراح (١)
سأمتاح البحور لجنينى ... أذاة اللوم وانتظرى امتياحى (٢)
ثنى بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثنى — يافداك أبى وأمى — ... بسيب منك إنك ذو ارتياح (٣)
فإنى قد رأيت على حقاً ... زيارتى الخليفة وامتداحى
سأشكر إن ردرت على ريشى ... وأنبت القوادم فى جناحى (٤)
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح (٥)
وقوم قد سموت لهم فدانوا ... بدهم فى مملمة رداح (٦)
أبحت حمى تهامة بعد نجد ... وما شىء حميت بمستباح (٧)

ومن شعراء المدح جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم ، ومنهم أبو دهبل الجمحى القرشى ، وأمه من هذيل ، مدح معاوية وعبد الله بن الزبير ، وكان ابن الزبير ولاه بعض أعمال اليمن ، ورثى الحسين بن على وابن الأزرق ، ووفد على سليمان بن عبد الملك (٨) .

---

(١) تعلل : تشغل وتلهى ساغبة جائعة الشيم البارد من الماء القراح الصافى .
(٢) متح الماء استقاه واستخرجه من البئر والمراد العطاء الذى يناله من عبد الملك بن مروان المشبه بالبحر عطاء .
(٣) السيب العطاء ذو ارتياح أى إلى الكرم .
(٤) القوادم جمع قادمة الريش فى مقدم الجناح وهى كبار الريش وضدها الخوافى والمراد إن أعززتنى .
(٥) المطايا جمع مطية ، الراح جمع راحة بطن الكف .
(٦) سموت لهم : خرجت إليهم محاربا . دانوا خضعوا . دهم خيل سود ، الواحد أدهم . المملمة الكثيرة المجتمعة رداح كتيبة ثقيلة .
(٧) أبحت حللت . الحمى ما يحميه الإنسان ويمنعه — اشارة الى حروبه فى بلاد العرب
(٨) ٧ : الأغانى ١١٤ - ١٤٥ .

الرثاء :

ونماذجه كثيرة فى الشعر الأموى : قال جرير يرثى زوجته :

لولا الحياء لهاجنى استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد أراك كسيت أجمل منظر ... ومع الجمال سكينة ووقار
والريح طيبة إذا استقبلتها ... والعرض لادنس ولا خوار
وإذا سريت رأيت نارك نورت ... وجها أغر يزينه الإسفار
صلى الملائكة الذين تخيروا ... والصالحون عليك والأبرار

وقال كعب الغنوى يرثى أخاه :

تقول سليمى مالجسمك شاحباً ... كأنك يحميك الشراب طبيب
فقلت نحول من خطوب تتابعت ... على كبار والزمان يريب
لعمرى لئن كانت أصابت منية ... أخى فالمنايا للرجال شعوب
فإنى لباكيه وإنى لصادق ... عليه وبعض القائلين كذوب
أخ كان يكفينى وكان يعينى ... على نائبات الدهر حين تنوب
هو العسل الماذى ليناً وشيمة ... وليث إذا لاقى الرجال قطوب
كعالية الرمح الردينى لم يكن ... إذا ابتدر الخيل الرجال يخيب
وداع دعايا من يجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقالت أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس أمير اليمن للخليفة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فى رثاء طفليها ، وكان معاوية قد بعث قائده بسر بن أرطاة إلى اليمن ، ففر من وجهه عبيد الله ، فعمد بسر إلى طفليه الصغيرين فذبحهما بمدية ، فقالت أمهما ترثيهما :

يا من أحس بابنى اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يا من أحس بابنى اللذين هما ... سمعى وقلبى ، فقلبى اليوم مزدهف

يامن أحس بابنى اللذين هما مخ العظام ، فمخى اليوم مختطف
نبئت بسراً ، وما صـــدقت ما زعموا من قولهم ومن الإفك الذى اقترفوا
أنحى على ودجى ابنى مرهفة مشحوذة ، وكذاك الإثم يقترف
حتى لقيت رجالا من أرومته شم الأنوف لهم فى قومهم شرف
فالآن ألعن بسراً حق لعنته هذا لعمر أبى بسر هو السرف
من دل والهة حـــيرى مدلهة على صبيين حلا ، إذ غدا السلف

وقال عبدالله بن عمر الأموى (١) يرثى بنى أمية حين نكبهم العباسيون وهى من روائع الرثاء للدول :

تقول أمامة لما رأت نشوزى عن المضجع الأنفس
وقلة نومى على مضجعى لدى هجعة الأعين النعس
أبى : ماعراك ؟ فقلت الهموم منعن أباك فلا تبلسى(٢)
عرون أباك فحبسنه من الذل فى شر ما محبس
لفقد العشيرة إذ نالها سهام من الحرب لم تبأس
رمتها المنون بلا أنصل ولا طائشات ولا نكس(٣)
بأسهمها الخالسات النفوس متى ما اقتضت مهجة تخنس(٤)

---

(١) شاعر مجيد من شعراء قريش أدرك الدولة العباسية ويكنى أباعدى ، ويلقب بالقبلى ، وكان رغم انتسابه الى بنى أمية يميل الى بنى هاشم .

(٢) أبلس الرجل : يئس من رحمة الله .

(٣) نصل السهم : حديدها . ونكس : جمع نكس - بكسر النون وسكون الكاف : أضعف السهام ، ومعنى البيتين : أن المنون رمتها بسهام لانصال لها ولا هى طائشة ولا ضعيفة .

(٤) خنس النفس : أخذها من حيث لا تتقى . وخنس : اختفى وانقبض .

فصرعاهم فى نواحى البلا ... د تاقى بأرض ولم ترمس(١)
كريم أصيب وأثوابه ... من العار والذام لم تدنس(٢)
وآخر قد طار خوف الردى ... وكان الهمام فلم يخمس
فكم غادروا من بواكى العيو ... ن مرضى ومن صبية بؤس
إذا ما ذكرتهم لم تنم ... لحر الهموم ولم تجلس
يرجعن مثل بكاء الحما ... م فى مأتم قلق المجلس
فذاك الذى غالنى فاعلمى ... ولا تسأليني فتستنحسى
أفاض المدامع قتلى كدا ... وقتلى ببكة لم ترمس(٣)
وبالزابيين نفوس ثوت ... وقتلى بنهر أبى قرطس
أولئك قومى تداعت بهم ... نوائب من زمن متعس
أذلت قيادى لمن رامنى ... وألزقت الرغم بالمعطس
فما أنس لا أنس قتلاهم ... ولا عاش بعدهم من نسى

ومن أشهر قصائد الرثاء فى هذا العصر قصيدة لمالك بن الريب يرثى نفسه ، وكان قد خرج للغزو فى جيش سعيد بن عثمان إلى خراسان فأدركته المنية ، وهو عائد من هناك :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه ... وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
لقد كان فى أهل الغضا لو دنا الغضا ... مزار ولكن الغضا ليس دانيا
ألم ترنى بعت الضلالة بالهدى ... وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا
تذكرت من يبكى على فلم أجد ... سوى السيف والرمح الردينى باكيا
وأشقر محبوك يجر لجامه ... إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا

---

(١) ترمس : تقبر .
(٢) الذام : الذم .
(٣) كدا الثنية السفلى مما يلى باب العمرة بمكة .

ولكن بأكناف السمينة نسوة عزيز عليهن العشيـــة مابيا
صريع على أيدى الرجال بقفرة يسوون قبرى حيث حم قضائيا
ولما تراءت عند مروة منيتى وخل بها جسمى وحانت وفاتيا
أقول لأصحابى ارفعونى فإنه يقر بعينى أن سهيل بداليا
فياصاحبى رحلى دنا الموت فانزلا برابية إنى مقيم ليـــاليا
أقيما على اليوم أو بعض ليلة ولا تعجلانى قد تبين شانيا
وقوما إذا ما استل روحى فهيئا لى السدر والأكفان ثم ابكيا ليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعى وردا على عينى فضل ردائيا
ولا تحسدانى بارك الله فيكما
من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذانى فجرانى بردى إليكما فقد كان قبل اليوم صعباً قياديا
أقلب طرفى فوق رحلى فلا أرى به من عيون المؤنسات مراعيا
وبالرمل منا نسوة لو شهدننى بكين وفدين الطبيب المداويا
وما كان عهد الرمل عندى وأهله ذميما ولا ودعت بالرمل قاليا
فمنهن أمى وابنتاها وخالتى وباكية أخرى تهيج البواكيا

وعندما تريد أن تتعرف إلى المعانى التى أراد الشاعر أن يصورها فى قصيدته تجده يقول :

١ — ألا ليتنى أعرف ، وأنا مشرف الآن على التلف والهلاك : هل أمد بأسباب السلامة والبقاء ؟ فأعود إلى وطنى الغضا لأبيت ولو ليلة واحدة بأكنافه ، أسوق كما كان شأنى فى أوقات الصحة والسلامة هذه النوق الطوال القوائم المسرعات فى السير .

٢ — ولكن من أين لى هذا ، وأنا على ما أنا عليه من وشك التلف

والهلاك ؟ فليت الركب الذى كنا فيه لم يقطع جانب الغضا ونواحيته ، وليت الركاب التى سارت بنا إذ قدر لها أن تقطعه سارت بنا فيه ليالى كثيرة لا هذا الزمن اليسير الذى فارقناه فيه .

٣ — لقد كان لى فى أهل الغضا لو كان الغضا قريبا منى موضع زيارة يشفى غلة الشوق إليهم ، ويسلينى عما أصابنى ونزل بى ، ولكن من أين لى هذا ؟ والغضا بعيد ليس بقريب .

٤ — قد يسلينى عما صرت إليه ، ومانزل بى ، أنى استبدلت الهدى بالضلال ، وأصبحت غازيا فى جيش سعيد بن عثمان ، يعنى بعدما كان من فتكه ، وقطعه للطريق .

٥ ، ٦ — تذكرت كما يتذكر من يدركه الموت من يبكى على من الأهل والأحباب فلم أجد إلا هذه الأشياء الملازمة لى ملازمة الأمل والأحباب : سبنى ورمحى ، وفرسى الذى تركه موتى بما قدم من أسباب ضعفى ، وعجزى بلا كافل يكفله ، ولا ساق يسقيه .

٧ — وليس معنى هذا أنى لا خليل لى من الناس يبكينى . فإن هناك حيث قومى بالسمينة نسوة يعز عليهن مانزل بى فى هذه العشية .

٨ — أنا صريع ملقى على أيدى الرجال بأرض خالية لا عشير بها ولا أنيس ، وفى هذه الأرض سيسوون قبرى لأن بها قد وقع ونزل بى القضاء .

٩ ، ١٠ — وحين ترامت لى ، وظهرت عند هذه المدينة الخراسانية — مرو — أسباب منيتى بادية شيئا فشيئا ، واختل جسمى واضمحل ، وأتى حين موتى لم أجد من سبيل إلى الاتصال بأهلى ووطنى سوى رؤية هذا النجم العربى الذى يطلع على قومى . فأنا أقول لأصحابى : ارفعونى لأراه فتقر به عينى . وذلك كقول القائل :

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنـــا تدانى
نعم . وأرى الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علانى

١١ — فياصاحبي رحلي، ورفيقي سفري . إنه لم يبق من وجه لسفر مثلي فانزلا بي في مكان مرتفع لتسووا به قبري فإني مقيم ليالي كثيرة متطاولة .

١٢ — امكثا على رعايتي ، والقيام بشأني سائر هذا اليوم ، أو سائره وبعض الليل . فإني لن أجارز هذين الوقتين ، ولا تعجلا بفراقي فإنه لا وجه للملل مني . فشأني كما قد ظهر وتبين نذير بموت قريب غير بعيد .

١٣ — وقوما إذا ما نزعت روحي بما يجب لي عليكما من حق الصحبة : من تهيئة السدر لحنوطي وغسلي ، ومن تهيئة أكفاني وابكيا لموتي ، وعلى فراقي .

١٤ — واحفرا مضجعي بأطراف الأسنة ، فإنها هي ما معكما أو لان الفرسان من أمثالي لاينبغي أن تحفر قبورهم إلا بها وافعلا بي ما تقتضيه السنة : من رد ردائي على وجهي .

١٥ — وأنهاكما ياصاحبي ـ بارك الله لكما في كل ما آتاكما ـ أن تحسداني على هذه الأرض الواسعة التي انفردت بعرضها وحدي .

١٦ — إذا ما أردتما إنفاذ وصيتي لكما بتجهيزي ، ودفني فجراني بثوبي إليكما . فإن ذلك أصبح ميسوراً لكما بعد موتي ، أما قبله فما كان أحد يطمع في مثل ذلك مني .

١٧ — إني ليعاودني في هذا الموقف الحاسم من مواقف الفراق الذي جرت العادة في مثله أن تحيط بالإنسان عيون المؤانسات المراعيات من الحبائب المشفقات الحانيات، ذكراهن ومشهدهن . فأحول بصري من حول رحلي مكذبا لعلي لعلي أرى منهن واحدة فلا أجد . فياللوعة الوحدة ، وياللفعل النوى ، وياللوحشة الفراق والاغتراب .

١٨ — بمواطنى ومنازل أهلى منهن نسوة لو حضرننى ، ورأين مابى لبكين على مصابى ، ولقلن للطبيب : فداؤك الآباء والأمهات ، وكل ما يكون من الفداء لو شفاه الله بعلاجك .

١٩ — وما كان هذا الفراق الذى أعانيه لوطنى لأنى ذممت عهده والعيش فيه ولا لأنى ودعت من فيه كارها له أوكارها لى ، وذلك كقول القائل :

فوالله مافارقتكم قالياً لكم ولكن مايقضى فسوف يكون

٢٠ — فمن هؤلاء المؤنسات المراعيات اللوانى لو حضرن حالى لبكين على وفدين الطبيب المداوى ، من لايشك فى مودته ، وحبه لى: أمى وأختاى وخالتى وزوجى التى لن تجد فقدا كفقدى ، ولن تبكى أحداً مثلى فهى تهيج ببكاها كل من حضرها فتثيره على البكاء والانتحاب .

وكان مالك بن الريب المازنى التميمى شاعراً إسلاميا مجيداً نشأ فى بادية بنى تميم قرب البصرة ونظم الشعر الرقيق الجيد ونال الناس بالشعر والهجاء فطلبه الولاة وفرمنهم ثم أخذه معه سعيد بن عثمان بن عفان والى خراسان من قبل معاوية . ولما عاد مالك من خراسان مرض ، فنظم هذه القصيدة الرائعة يذكر فيها مرضه وغربته ، وينعى نفسه ، ويرثيها .

ويروى أن مالك بن الريب كان من أجمل العرب جمالا وأبينهم بيانا ، فلما رآه سعيد أعجبه فقال له : ويحك يامالك ماالذى يدعوك إلى مايلغينى عنك من العداء وقطع الطريق ؟ قال أصلح الله الأمير : العجز عن مكافأة الإخوان ، قال : فإن أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل وتتبعنى؟ قال نعم أصلح الله الأمير ، أكف كفا ما كف أحد أحسن منه فاستصحبه وأجرى عليه خمسمائة دينار فى كل شهر ، وكان معه حتى قتل بخراسان .

٢ — أساليب الشعر الأموى وألفاظه

١ — الأسلوب فى اللغة الطريق وعنق الأسد والسطر من النخيل والوجه والمذهب والفن ، والأسلوب الأدبى يعرفه ابن خلدون فى حديث طويل بأنه « المنوال الذى ينسج فيه التراكيب أو القالب الذى يفرغ فيه (١)، فهو يراه فى الصورة الأدبية الممتازة التى يحتذيها الأدباء والشعراء وينسجون فى أدبهم وشعرهم على منوالها . ويعرفه بعض المحدثين بأنه طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الاقناع والتأثير ، أو هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير (٢) ، ويعرفه آخر بأنه المعنى المصوغ من ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفعل فى نفوس سامعيه ؛ ويعرفه آخرون بأنه طريقة اختيار الكلمات ونظمها لتؤثر فى نفس القارىء أو السامع ، ويذكرون أن له غرضين : نقل الحقائق أو المعانى إلى ذهن السامع أو القارىء ، ونقل شعور الكاتب أو المتكلم إلى نفسيهما للتأثير .

ونعرفه نحن بأنه نهج الكاتب والشاعر فى صوغ أدبه وشعره وأداء أفكاره ومعانيه ، والطريقة التى يسير عليها فى اختيار كلماته وتراكيبه ، ومايؤثر فى لغة تعبيره وتصويره من سهولة أو غرابة ومن عذوبة أو جزالة ومن وضوح أو خفاء وطبع أو صنعة ، وألوان الصنعة فى شعره وأدبه من تشبيه واستعارة وكناية وطباق ومقابلة وتعليل ومبالغة ، وتورية وتدبيج وعكس ومشاكلة ؛ وطرق الأداء التى يسير عليها فى صياغته من تقديم أو تأخير وذكر أو حذف وفصل أو وصل وإيجاز أو إطناب إلى غير ذلك من شتى أوصاف الأسلوب ، ومايراعيه الكاتب والشاعر من أوصاف فى بدء كلامه وفى فصوله وخاتمته .

---

(١) ٥٧٠ مقدمة ابن خلدون . (٢) راجع ٣٣ - ٣٩ الأسلوب للشايب .

والأسلوب هو الوسيلة التى ينقل بها الأديب والشاعر فكرته وعاطفته وآراءه ومعانيه إلى الناس . ومقياس جودة الأسلوب هو القدرة على نقل ذلك والتعبير عنه بدقة وقوة تأثير .

ويمتاز أسلوب الشعر بما فيه من حرارة وعاطفة وقوة تأثير ، ولطف تخييل ، وما يشتمل عليه من طبع وصدق وإخلاص وقدرة على إلهاب المشاعر ، وتأجيج العواطف ، وإثارة الانفعالات النفسية العميقة .

إن الشعر موسيقى خالدة أبدية ، لألحانها أثر فى القلب ، وهزة فى النفس والوجدان ، لا يعدلها أثر .

٢ — ولقد تأثر الشعر العربى فى عصر بنى أمية بعوامل متعددة ، كان لكل عامل منها أثره الخاص فى ألفاظه وأساليبه :

١ — فقد التفت العربى إلى القرآن الكريم ، وجعل يستظهر آياته ، ويتملى من بلاغته ، ويعجب بأساليبه البارعة ، وألفاظه العذبة ، وديباجته المشرقة ، واستمع إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما يلتمع فيها من جوامع الكلم ، وسلامة الأسلوب ، وإشراق البيان ، فكان لهذا أثره فى تهذيب لفظ الشعر وأسلوبه ، وترقيق حواشيه وصفاء ديباجته .

٢ — وإلى جانب ذلك عنى القوم برواية الشعر الجاهلى واستظهاره ، وإحياء آداب القدماء ، بما تنطوى عليه من جزالة الألفاظ ، وضخامة الأساليب ، فكان لابد أن تتأثر لذلك أذواقهم . وتنطبع عليه ألسنتهم ، ويظهر ذلك فى منطقهم .

٣ — ثم كان هناك شعراء غمرتهم الحضارة ، واستولى عليهم الترف ، وعاشوا فى ظلال النعيم الذى أتيح لهذه الدولة . وللحضارة أثرها فى رقة اللفظ ، وعذوبة المنطق ، وسهولة الأسلوب .

٤ — كما كان هناك شعراء آخرون عاشوا فى البادية ، أو عاشوا بروح البادية ، وانطبعت فى نفوسهم صورها الخشنة ، وأطيافها الجافية ، فكانوا

بدويين فى تفكيرهم ومنطقهم وأسلوب شعرهم ولم يغيروا من مناهجهم فى الشعر شيئاً أكثر مما صنع المخضرمون .

ومن هنا وجدت فى الشعر نزعات مختلفة ، ومذاهب متباينة وألوان متعددة كانت نتيجة لاختلاف هذه العوامل :

فهناك من الشعر ما يروعنا بحلاوة جرسه ، ورقة لفظه ، وعذوبة أسلوبه وسماحة منزعه ، وتدفق الأنغام الشجية التى تنساب من بين ثناياه . وهو الشعر الذى تأثر بأدب الإسلام ، أو عاش فى الحواضر المترفة . ومن أصحاب هذا النوع شعراء الغزل الحجازيون : كعمر وجميل والأحوص ، وبعض شعراء الأمصار كجرير ، الذى كان الفرزدق يقول فيه : ما أحوجنى مع فسوق إلى رقة شعره ، وأحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى » .

وكذلك تجد فى الشعر الأموى ما يطالعنا بجزالة لفظه ، وقوة أسلوبه ، ومتانة تركيبه ، وغرابة منزعه ، ووعورة مسلكه ، وبداوة سمته ، وذلك هو الشعر الذى تغذى أصحابه بآثار الجاهليين ، وارتضعوا أفاريق القدماء ، وعاشوا بروح البادية ، وانطبعوا بطابعها ، كالفرزدق وذى الرمة والقطامى والأخطل وقطرى بن الفجاءة .

٣ — ومن السمات البدوية التى شاعت فى هذا العصر ظهور الأراجيز وكثرتها فقد عنوا بها عناية جعلتها تقرب من القصائد فى أكثر خصائصها ، فبعد أن كان البدوى ينظم منها بضع مشطورات يحدو بها الإبل أو يصفها أو يصف ظبيا أو ظليما أو ثورا وحشيا ، أخذ الفحول من الرجازين يطولون الأراجيز وينحون بها منحى القصائد ، ويضمنونها أغراضها من المدح والهجاء والفخر والرثاء ، وصاروا يمهدون لهـــذه الأغراض بالنسيب ، وذكر الديار وآثارها ، والظعائن وحدوجها ، ويقصدون بها الخلفاء والولاة .

ويرى بعض الأدباء كابن قتيبة أن الأغلب العجلى أول من اتخذ الرجز صناعة فنية ، وأطال فيه ، وجوده . أما أبو عبيدة فيذكر أن العجاج هو

أول من أطاله وقصده وشبب فيه ووصف الرحلة ، إلى الممدوح كما فعل الشعراء بالقصيدة ، فكان فى الرجاز كامرىء القيس فى الشعراء .

ومن الرجازين فى العصر الأموى غير العجاج والأغلب العجلى : رؤبة ابن العجاج ، وأبو النجم ، ودكين . . . ومن أمثلة الرجز قول أبى النجم :

إنى وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطانى ذكر
فما رآنى شاعر إلا استتر فعل نجوم الليل عاين القمر
عيشى تميم واصغرى فيمن صغر وباشرى الذل وأعطى من عشر
وأمرى الأنثى عليك والذكر

٣ — المعانى والأخيلة

أما معانى الشعر فى هذا العصر فهى المعانى التى تداولها الشعراء قبله ؛ بيد أنهم توسعوا فيها ، وزادوا عليها بما تهيأ لهم من مظاهر الحياة ، وألوان الحضارة ، وسعة الثقافة ، والاختلاط بأمم ذات حضارات ومعارف متنوعة ، بل إن من هذه الأمم من تم نضجه الأدبى ، واستوى فنه العربى ، فقال الشعر بالعربية متأثرا بثقافته وما ورث من أفكار ومعان وأخيلة .

ومن هنا غلبت على معانى الشعر الدقة والعمق وترتيب الأفكار ، وكثرت الحكم والأمثال ، وتنوعت التشبيهات ، وسما الخيال ، وبدت صبغة الجدة واضحة فى بعض المناحى والأغراض .

والخيال ملكة خصبة تقدر على تخيل الأشياء وتصوير العواطف والآراء تخيلا وتصويرا يوضح لنا نواحيها الغامضة ويعرض علينا مافيها من أسباب الروعة والجمال عرضاً مؤثرا تحسبه حقيقة أو كالحقيقة الملموسة ، يأخذ الشاعر الأشياء المألوفة التى يراها الناس جميعا ثم يعمل فيها خياله فيخرجها

فى صورة جديدة لم نكن نتوهمها ، فليس الخيال دائما مجافاة للحقائق وبعداً عن المألوف وقدرة على الإغراب والإتيان بما لايكون ، بل المهم أنه مرآة تنطبع فيها الصور فيعكسها وقد صفاها من كل شائبة وأخرجها إخراجا جديدا والخيال خادم للحقيقة وغايته تصوير ماحجب عنا من حقائق الوجود . وهو فى حسن اختيار التفاصيل المميزة وحركة الذهن فى انتقاء هذه التفاصيل وضم بعضها إلى بعض وترتيبها ، فالشاعر يشعر بما حوله ويعتاد الملاحظة الدقيقة فى الحياة المحيطة به مما يتصل بالإحساس والشعور والعاطفة والتفكير ويلاحظ ذلك جملة وتفصيلا فتسجله ذاكرته بدقة ثم يركز ذلك فى ذهنه وأعماق شعوره تركيزا تاما ، ويأخذ فى الغوص فى أغوار الذهن على التفاصيل ودلالاتها ، مستغرقا فى نشوته الروحية وفى تأملاته ، وفى تصوره وتخيله استغراقا تاما يساعده على نشر المطوى من الملاحظات واظهارها فى فن جميل وآية من سحر القريض وهذا الاستغراق وتلك النشوة والغبطة بالتعبير عن النفس يفجران ينبوعا من القوة الباطنة يلهم الشاعر روائع الشاعرية وآثارا من الفن والجمال ، فمادة الشعر الأولى فى العواطف الإنسانية من حب وحزن وأمل ويأس وغير ذلك مما يشعر به الشاعر ويحس به الإنسان ، وهذه العواطف هى الينابيع الصادقة للشعر (١) ، وهى التى يعمل الخيال عمله لتصويرها ويسعى ليركب الصور المودعة فى العقل الباطن ومشاهده ليصوغها فنا شعريا يعبر

---

(١) والقدماء من النقاد يختلفون فى مادة الشعر اختلافا كبيرا ، فالجاحظ يراها فى الأسلوب والنظم كما يدلنا على ذلك قوله : والمعانى مطروحة فى الطريق وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وجودة السبك فانما الشعر صياغة وضرب من التصوير (٤ / ٣ الحيوان) ، وعلى رأى الجاحظ يسير عبد القاهر فى الدلائل ، أما قدامة فيرى أن مادة الشعر هى المعانى (١٤ نقد الشعر) ، والآمدى وابن خلدون يريانها فى الألفاظ (١٨٣ الموازنة ، ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون) .

عنها ويوضح ما خفى منها ، فليس الشعر صورا وألفاظا وعبارات ، إنما هو عواطف الشاعر وشعوره يركبها خيال صناع وملكات قادرة ومقدرة فنية موهوبة فى صور من الألفاظ والأساليب ، وجمال الشعر وروعته موقوفان على مدى إحساس العاطفة وقدرة الخيال على تصويرها ، فإذا كانت صور الخيال ناشئة عن عاطفة سقيمة أو سطحية كان الأثر الأدبى متكلفا مصنوعاً لاحظ له من التقدير ، وإذا كان عمل الخيال محكما وإحساس العاطفة قوياً نال الشعر حظه من الجودة والإعجاب ، والخيال إذا كان عمله وتأليفه لصور جديدة احتيرت عناصرها من بين الحقائق والمشاهدات المبعثرة المخزونة فى الذاكرة وألفت تأليفاً جديدا سمى خيالا مبتدعا ، ونهاية هذا الحديث أن هناك صلات وثيقة بين الخيال والعاطفة فهو الذى يصورها ويبثها قوية مؤثرة ، وقوة الخيال مرتبطة بقوة العاطفة ، فإذا كانت صادقة قوية خلقت خيالا رائعا ، وإذا أردنا للأدب قوة وخلودا فعلينا أن نعنى بتهذيب الشعور ليكون إدراك الشاعر للحياة صادقا عميقا وآثاره الأدبية جميلة رائعة ، وخياله الأدبى موهوبا ملهماً ، فالخيال أنفع المواهب والملكات فى فن الشعر لأنه المعبر عن العاطفة واللغة الطبيعية لأداء الانفعالات والعواطف الإنسانية .

طوائف الشعراء الأمويين

انقسم الشعراء الأمويون طوائف ، من حيث أغراضهم الشعرية ، ومن حيث اتجاهاتهم الفنية :

(ا) فهم من حيث الأغراض جماعات ثلاث :

١ — أما الأولى فشعراء الغزل : وقد مر بنا ذكر الكثير منهم، ونماذج من أشعارهم ومذاهبهم فى الغزل . ومن أشهرهم : جميل بن معمر المتوفى عام ٨٠هـ ، وكثير عزة المتوفى عام ١٠٥ هـ ، ونصيب ، والأحوص .

ويمتاز شعر الغزليين على وجه العموم بالرقة والعذوبة والسهولة .

٢ — والثانية الشعراء السياسيون : الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن الأحزاب السياسية ، والعصبيات القبلية ، وإذاعة المفاخر والمثالب ؛ ومن هؤلاء : جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، والكميت ، وابن قيس الرقيات ، ممن انتموا إلى الأحزاب السياسية يؤيدون أصحابها . وينصرونهم بقوة البيان ويشيدون بدعواتهم فى قصائدهم ومقطوعاتهم ، ويجمعون حولهم القلوب ، ويفرقون فى سبيل مذهبهم الوحدة ، حتى صار شعرهم غذاء للعصبيات ، ومادة للمفاخرات والمهاترات ، يروى أن الهاشميين حرضوا الكميت الشاعر على إثارة العصبية بشعره ، قال المسعودى فى مروج الذهب : إن عبيد الله ابن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب قال للكميت : إنى قد رأيت أن تقول شيئا تغضب به بين الناس ، لعل فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها بعض مانحب ، فأنشد قصيدة ذكر فيها مناقب بنى نزار من ربيعة ومضر ، وأطنب فى وصفهم وفضلهم على بنى قحطان ، وعرض بما كان من شأنهم مع الأحباش وغيرهم ، ومن هذه القصيدة قوله :

لنا قمر السماء وكل نجم تشير إليه أيدى المهتدينا
وجدت الله إذ سمى نزاراً وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات وللناس القفا ولنا الجبينا

٣ — والثالثة: الشعراء الهجاءون: الذين أكثروا من الهجاء، وعاشوا عليه، وتبادلوا المناقضات، يحيون بها العصبية، ويثيرون العداوة، ويتبارون فى فنون الهجاء المقذع، والتباهى بأحساب الجاهلية ومآثرها وأيامها ونبش مادفنه الإسلام من مثالب القبائل ومعايبها، ومن هؤلاء: جرير والفرزدق والأخطل والراعى والبعيث.

(ب) وهم من حيث اتجاهات الشعراء الفنية، فى عصر بنى أمية انقسموا جماعات وطوائف:

١ — فالأولى، شعراء البادية: الذين لم يتأثروا بالحياة الجديدة كبير تأثر، ولم يغيروا من عيشهم تغييرا يذكر: فظلوا يحاكون نمط الجاهليين فى نظم القريض أسلوبا وألفاظا ومعانى وخيالات، ومن هؤلاء: ذو الرمة والرماح بن ميادة، سمع الفرزدق ذا الرمة ينشد، فوقف عليه، فقال: كيف ترى ماتسمع ياأبافراس؟ قال: ماأحسن ماتقول، قال فما لى لاأذكر مع الفحول؟ قال: قصر بك عن غايتهم بكاؤك فى الدمن، ووصف الآبار والعطن.

ولذلك كان شعر هذه الطبقة بدويا جزلا فخم الألفاظ والأساليب.

٢ — والثانية، شعراء الأمصار: كمكة والمدينة ودمشق والبصرة والكوفة، ممن كانوا عربا خلصا، وقد تأثر هؤلاء ببيئتهم وعصرهم وبالقرآن الكريم وبالثقافات التى ذاعت بينهم، وأتى شعرهم حضريا رائعا سلسا فى جزالة، وإن امتاز شعر الحجاز بالرقة والسلاسة أكثر من غيره، ومن هؤلاء: ابن قيس الرقيات، وجرير والأخطل والفرزدق وعمر بن أبى ربيعة.

٣ — والثالثة ، الشعراء الموالى : الذين كانوا من أصول غير عربية : كنصيب . وعبد بنى الحسحاس، وقد كانا من عنصر حبشى ، وكزياد الأعجم والبعيث وأبى نخيلة وموسى شهوات وهم من أصول فارسية .

ولا شك أن شعر هؤلاء كان صورة لما ورثوه من دماء وثقافة ومشاعر وأفكار وخواطر ووجدانات . . فبدت فيه المعانى الجديدة ، والأخيلة والتشبيهات الغريبة ، واضحة ملموسة .

(ج) بعض الشعراء الأمويين :

١ — أبو وجزة الشاعر (توفى عام ١٣٠هـ [١]) معد بنى سعد بن بكر . وكان رسول الله مسترضعا فيهم عند حليمة السعدية .

٢ — عقيل بن علفة من (ذبيان [٢]) — شاعر أموى مقل مجيد .

٣ — شبيب بن البرصاء من ذبيان [٣] ، شاعر أموى فصيح ، عاش فى البادية .

٤ — يزيد بن الحكم [٤] شاعر أموى، وكان شاعر ثقيف فى الإسلام.

٥ — عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب [٥] ، قتله أبو مسلم .

٦ — المتوكل الليثى [٦] وهو شاعر اسلامى مجيد ، من الكوفة .

---

(١) ٢٣٩ — ٢٥٣ : ١٢ الاغانى .

(٢) ٢٥٤ — ٢٧٠ : ١٢ الأغانى ويروى أنه قال لإسحاق بن يحيى : بالرفاء والبنين والطائر المحمود : فقال له يابن علفة . إنه يكره أن يقال هذا ، فقال عقيل إين أخى ماتريد إلى ما أحدث، إنهذا قول أخوالك فى الجاهلية لايعرفون غيره .

(٣) ١٧١ — ٢٨٠ : ١٢ الأغانى . (٤) ٢٨٦ — ٢٩٦ : ١٢ الأغانى .

(٥) ٢١٥ — ١٣٨ : ١٢ الأغانى . (٦) ١٥٩ — ١٦٨ : ١٢ الأغانى .

٧ — أرطاة بن زفر ، شاعر اسلامى فصيح ، وكان امرأ صدق،شريفا فى قومه ، جوادا ، وهو من ذبيان (١) .

٨ — أبو دهبل وهب الجمحى ، قال الشعر فى آخر خلافة على ومدح معاوية وعبد الله بن الزبير (٢) ولاه ابن الزبير بعض أعمال اليمن ، وكان سيد شريفا ، وذكر الجاحظ شعرا له (٣) ، وينسب هذا الشعر ليزيد بن معاوية يتغزل به فى راهبة ، وينسب كذلك للأحوص .

٩ — دكين بن رجاء بن فقيم ، راجز إسلامى أموى معاصر للفرزدق وجرير ، مدح عمر بن عبد العزيز وهو والى المدينة (٤) .

١٠ — عمرو بن أحمد الباهلى : شاعر أدرك الإسلام فأسلم وغزا مغازى الروم ، وتوفى على عهد معاوية أو فى عهد عثمان بن عفان عن سن عالية ، وهو كثير الغريب صحيح الكلام (٥) .

---

(١) ١٩ - ٤٤ : ١٢ الأغانى .
(٢) ٦ : ١٥٠ الأغانى .
(٣) ٤ : ١٠ الحيوان .
(٤) ٢٨٧ الشعر والشعراء طبع أوربا ، وشرح شواهد الشافية ص ١٠٠ الشاهد ٤٥ .
(٥) راجع ص ٩٤ البديع لابن المعتز تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى .

الفرزدق شاعر العصر الأموى

ولد الفرزدق حوالى سنة ١٩ هـ فى خلافة عمر رضى الله عنه ، وكانت عشيرته من بنى مجاشع بن دارم ممن نزل البصرة من بطون تميم أول اختطاطها عند الفتح ، وكانت لهم خطط ودور بالبصرة ينزلونها فى بعض فصول السنة ويتبدون فى بعضها الآخر .

وكان أبوه غالب بن صعصعة ينزل السيدان من بادية البصرة بالقرب من كاظمة على ماء كانت تنزل حوله قبائل شتى من قيس وتميم . وكانت البصرة فى أول أمرها تعتبر معسكراً للمقاتلة من العرب لايخالطهم فيها إلا مواليهم ، فكانت بذلك بيئة عربيـــة . فنشأ الفرزدق مابين السيدان والبصرة فصيح اللهجة ملماً بدقائق اللغة حافظاً غريبها عالما بأخبار العرب وأيامها وأيام تميم وخاصة أيام بنى دارم فى الجاهلية والإسلام ، وحبب إليه الشعر منذ طفولته فنظمه فأعجب به أبوه ، وكان من شيعة أمير المؤمنين على ، فأتاه عقب فراغه من وقعة الجمل ومعه ابنه الفرزدق ، فسأله عنه فقال : « هذا يوشك أن يكون شاعراً مجيداً ! » فقال : « أقرئه القرآن فهو خيرله » . فما زالت كلمة أمير المؤمنين تعمل فى نفس الفرزدق دهراً طويلا حتى عمل بها بعد أن جاوز الثلاثين .

وكان أبوه غالب كريماً متلافا سيداً شجاعاً ، وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعمر حتى مات فى إمارة زياد وخلافة معاوية ودفن بكاظمة ، وكذلك كان جد الفرزدق صعصعة من أكرم الناس فى الجاهلية وأشرفهم ، وكان شاعراً مقلا يلقب بمحيي الموءودات ، لأنه كان إذا علم برجل يهم بوأد ابنته للفقر اشتراها منه بناقتين لقوحين وجمل ، فجاء الإسلام وقد فدى ستين وثلثمائة موءودة لم يشاركه فى هذه المكرمة أحد ، حتى أنزل الله

تحريم الوأد فى القرآن . ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم وعلمه آيات من القرآن ، وسأله : هل له فى فداء الموءودات من أجر ؟ فقال له : « هذا من البر ولك أجره إذ من الله عليك بالإسلام » .

فبذلك يفتخر الفرزدق على جرير ، لأن آباءه كانوا أذلاء ، وفطر الفرزدق على الهجاء من صغره . قال عن نفسه : « كنت أهاجى شعراء قومى فى خلافة عثمان بن عفان ، فكان قومى يخشون معرة لسانى منذ يومئذ » .

وهجا جرير البعيث وقومه مجاشعا وهم رهط الفرزدق أيضا فاضطر الفرزدق إلى الرد عليه وقال :

لعمرى لئن قيدت نفسى لطالما ... سعيت وأوضعت المطية للجهل
ثلاثين عاماً ما أرى من عماية ... إذا برقت إلا شددت لها رحلى
فإن يك قيدى كان نذراً نذرته ... فمابى عن أحساب قومى من شغل
أنا الذائد الحامى الذمار وإنما ... يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

ثم هجا جريراً وهجاه جرير ، فما يقول قصيدة حتى ينقضها عليه جرير ، ولا يقول جرير قصيدة حتى ينقضها الفرزدق ، وتورط معهما فى تهاجيهما أكثر من ثمانين شاعرا منهم الأخطل ، فظهر جرير عليهم كلهم وأسقطهم وثبت له الفرزدق والأخطل . ومات الأخطل وبقى الآخران يتسابان سائر حياتهما . وكان جرير فى العشر السنوات الأولى من تهاجيهم يقيم منعزلا بالبادية باليمامة ويرسل بالقصائد إلى من بالبصرة من بنى يربوع . والفرزدق مقيم بالبصرة حيث الرواة وجمهرة العرب ، فأرسلت إليه يربوع وأحضرته إليها فكانا يتهاجيان . فإما أن يتلاقيا بالمربد وقد يؤدى ذلك إلى اقتتال بنى يربوع وبنى المجاشع ، وإما أن تجتمع يربوع ورواة جرير عليه بالمربد ، وتجتمع مجاشع ورواة الفرزدق عليه بمقبرة بنى حصن ، والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما بالبصرة .

وفى خلال تهاجيهما يهجو كل منهما بعض أنصار الآخر أو من يتعرض له ، فهجا الفرزدق فى أول تهاجيهما بنى فقيم وبنى نهشل ، فاستعدوا عليه زياداً ، وهو والى العراق من قبل معاوية ، وكان رجل جد ، فطلبه زياد فهرب إلى المدينة المنورة وعليها سعيد بن العاص ، وهو وال على المدينة لمعاوية ، ومدحه فأمنه سعيد ، فأقام فى المدينة يختلف إلى قيانها ويستمع إلى غنائهن ، ولم تطل الأيام حتى عزل سعيد وولى مروان بن الحكم ، فأخذه بما كان يقول وينشد من أخبات قوله وأرسل يطلبه . فلما جاءه قال : « أتدرى مامثلك ؟ حديث تحدث به العرب أن ضبعاً مرت بحى قوم ، وقد رحلوا ، فوجدت مرآة ، فنظرت وجهها فيها ، فلما نظرت قبح وجهها ألقتها وقالت: من شر ما اطرحك أهلك ولكن من شر ما اطرحك أمير ك ! - يريد زياداً - فلا تقيمن بالمدينة بعد ثلاثة أيام » فخرج يريد اليمن . فلما كان فى أثناء الطريق علم بموت زياد فخر ساجداً ورجع .

ولما مات معاوية وخالف أهل المدينة على يزيد ، وكاتب أهل الكوفة الحسين بالخلافة واستنهضوه إليهم سار إليهم فى أهل بيته ، فلقيه الفرزدق فى الطريق قادماً من العراق ، فسأله الحسين عن أهل الكوفة ، فقال له : « يا ابن رسول الله قلوبهم معك وسيوفهم مـــع أعدائك ! » ومضى كل لطيته .

ولما دعا عبد الله بن الزبير بمكة لنفسه بايعه أهل العراق ، وبعث إليهم أخاه مصعباً ، وكانت تميم البصرة فيمن دخل فى دعوته ، ومنهم رهط جرير والفرزدق . فولى ابن الزبير على البصرة الحارث بن أبى ربيعة المخزومى القرشى الملقب بالقباع ، وهو أخو عمر بن أبى ربيعة ، وكان متنسكا يروى عنه الفقه والحديث ، فأغضبه تسابب جرير والفرزدق ، وكره منهما إذاعة الفاحشة بين المؤمنين ، فهدم الدارين اللتين كانا ينزلانهما بالبصرة لينتهيا ، فذلك حيث يقول الفرزدق وكان قد هرب منه .

أحارث داري مرتين هدمتها ... وأنت ابن أخت لاتخاف غوائله
وقبلك ما أعييت كاسر عينه ... زياداً فلم تقدر على حبائله
فآليت لا آتيه تسعين حجة ... ولو كسرت عين القباع وكاهله

وفي ذلك يقول جرير :

أحارث خذ ماشئت منا ومنهم ... ودعنا نقس مجداً تعد فواضله
فما في كتاب الله تهديم دارنا ... بتهديم ماخور خبيث مداخله

ثم لما انتكث فتل ابن الزبير وماجت العراق بالفتن اختفى خبرهما حتى قتل عبد الملك بن مروان مصعباً ، وولى أخاه بشراً على العراق ، وكان أديبا يحب الشعراء ويعجبه أن يغرى بينهم فجعل من أخص مادحيه الفرزدق وجريراً . فلما مات وآلت ولاية العراق إلى الحجاج كانا من مادحيه . ثم اتصلا بعبد الملك بن مروان وزاحما الأخطل في مدحه ، إلا أن الأخطل صانع الفرزدق وناصره على جرير كما علمت وبقي الفرزدق وجرير يتكسبان بالشعر ، بمدح عبد الملك وإخوته والحجاج وولاته زمن عبد الملك والوليد وسليمان وهشام ، إلا أن الفرزدق لسوء سيرته وجهامة طبعه كان الولاة يحبسونه ويضطهدونه . ومن هؤلاء عمر بن عبد العزيز ، نفاه مرة عن المدينة ، وحبسه مالك بن المنذر والي البصرة من قبل خالد بن عبد الله القسري . ولما كبر الفرزدق خمدت فيه ثورة الشر وتنسك وتاب وتوفي بالبصرة عام ١١٠ هـ ودفن في مقبرة بني تميم بعد أن عمر نحواً من مائة سنة .

نشأ الفرزدق مع أبيه وأهل بيته يقيم بالبصرة بعض السنة وبباديتها بسيدان وكاظمة من ناحية سيف البحر بقية السنة ، فجاءت أخلاقه في جملتها خليطاً من أخلاق أهل البدو وأخلاق أهل الحضر ، وهو إلى جفاء أهل البدو وغلظ طباعهم أقرب .

ولم يكن أهل بيته الأدنون وضعاء الأنفس سافطي الهمة كأهل جرير

وأبيه عطية ، بل كانوا أغنياء كراما إلى حد الإسراف ، وبخاصة أبوه غالب . وعمر الفرزدق طويلا ورويت له أخبار كثيرة نستخلص منها عامة أخلاقه :

كان الفرزدق باراً بأبيه متفانيا فى محبته موقراً له فى حياته وبعد مماته ، حتى لقد كان يجير من يعوذ بقبر أبيه غالب بكاظمة . وكان فى استطاعته أن يعيش فى مال أبيه رخى البال هنىء العيش لو لم يستمع إلى تحريش السفهاء بينه وبين الناس . على أن انطباعه على الشعر منذ طفولته ولد فيه حب الانتصار والغلب والمباهاة ، وهى أخص صفات البدوى . ولم تكن المغالبة فى الشعر إلا بالهجاء والسباب والاقذاع فى القول . فخرج الفرزدق شريراً سليط اللسان عريضا للشر يبادىء من لم يبادئه به . وكان ذلك سبباً فى تأديب الولاة له بالحبس والنفى والتشريد مراراً فلم ينتفع بتأديبهم . فخافه الأشراف والعلماء فداروه بالمال والمقال .

وكان مع ذلك جبانا فروقة كثير الهرب من الولاة ممن يرى منه الجد فى الانتقام منه . وكان فاجراً لا يتورع عن ريبة . وربما تاب عن قذف المحصنات واقتراف المحظور ثم يعود . وحج مراراً وحده أو مع بعض الأمراء وأقام بمكة أو بالمدينة . فلم يؤثر ذلك فى تهذيبه .

وكان الفرزدق مع مدحه خلفاء بنى أمية يتشيع لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسره أحياناً ويظهر أحياناً على فلتات لسانه . على خلاف ما كان عليه أهل البصرة من النصب لعلى وآله لأنهم كانوا عثمانية منذ واقعة الجمل . ولعله ورث التشيع من أبيه غالب منذ قدومه على على وتعريفه أن ابنه من شعراء مضر فأمره أن يحفظه القرآن ، فما زالت كلمة أمير المؤمنين تختلج فى صدره حتى قيد نفسه ليجمع القرآن بعد أن حج وتاب . وكان يقدم على السيدة سكينة بنت الحسين متيمناً مستمنحاً .

وكان الفرزدق فخوراً إلى حد الغلو بنفسه وآبائه كثير التحدث عنهم

فى شعره ، وما من قصيدة له إلا غلب عليها فخره بآبائه لا يبالى أكانت فى مدح خليفة أم سوقة أم هى فى هجاء أم رثاء .

وكان نزر الكلام فى المدح قليله فى الفخر فجعل جرير يظهر عليه أحيانا من هذه الناحية ، والفرزدق كأكثر الشعراء قليل الوفاء ـ مدح الحجاج فى حياته وهجاه فى مماته .

وقال الفرزدق الشعر منذ طفولته فأعجب به أبوه غالب إذ لم يكن هو شاعراً . ولم يقل الشعر أحد من أهل بيته من هذه الطبقة ، وإنما كان صعصعة جده يقول المقطعات الهينة المقدار ، يقولها فى شأن نفسه ، وقد قيل للفرزدق : « مالك وللشعر وما كان أبوك غالب شاعرا ولا كان صعصعة شاعراً . فمن أين لك هذا ؟ » قال : من قبل خالى العلاء بن قرظة الذى يقول :

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

وظهر لشعره من أول أمره روعة وقوة أسر . وقد انتحى به ناحية الهجاء لما فطر عليه من طبيعة الشر وحب اللجاجة ولدادة الخصام . فهاجى شعراء قومه ، فلقوا منه شراً مستطيراً وتخوفه الأشراف وصانعوه . وأطمعه ذلك فى اتخاذ الشعر حرفة يتكسب بها وقد كان له فى مال أبيه وقومه غنية أى غنية ! . .

وكان الفرزدق قوى الذاكرة فحفظ من شعر الجاهلية والإسلام الكثير العزيز . وجمع من اللغة وتاريخ العرب فى جاهليتها عامة وأيام قومه خاصة مالم يبزه فيه شاعر من أهل زمانه حتى ولا جرير والأخطل .

وكان طويل النفس فى الهجاء والمناقضات والفخر ، حتى لتزيد بعض أبيات قصائده فيها على المائة ، قصير النفس فى المدح فلا يكاد مدحه يبلغ ثلث ما فى القصيدة من النسيب والفخر .

ومع فحولته فى الشعر وحسن تأتيه ومواتاته له فإنه كان يحسد من دونه من الشعراء على البيت أو الأبيات القليلة يقع له فيها المعنى البديع ، وخاصة إذا كان الشعر فى فخر لا يراه الفرزدق يليق بهذا الشاعر فيغصبه أبياته ويقول له : « أنا أولى بها منك » ! ويضمها إلى شعره فـــلا يستطيع الشاعر أن ينكرها عليه لعجزه عن مجاراته .

وشعر الفرزدق السياسى ويشمل مدحه وهجاءه ونقائضه ، ذو شهرة كبيرة ، ومكانة عالية ؛ ونماذجه كثيرة .

وأسلوب الفرزدق قوى شديد الأسر . ولذلك قيل: الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر لسهولة شعر جرير وعذوبة أسلوبه .

وقد أكثر النقاد فى الموازنة بين جرير والفرزدق ، يفضل بعضهم جريراً ، ويفضل الآخرون الفرزدق ، ويقف الباقون فى أمر تفضيل أحدهما على الآخر ؛ وجملة الأمر أن جريرا والفرزدق احتلا الصدارة فى زمانهما ، وكانت منزلتهما عالية عند الملوك والولاة والشعب ، وأن جريرا تفوق فى مدائحه ، والفرزدق تفوق فى فخره .

وللفرزدق قصة شعرية فريدة فى بابها وتعد من صور القصة الشعرية فى الأدب العربى ، وتمثل سبق الشعراء العرب القدامى إلى هذا الفن ، وهى فى قص قصة ذئب مع الشاعر ، قال الفرزدق .

وأطلس عسال ، وما كان صاحبا ... دعوت لنا رى موهنا فأتانى (١)
فلما دنا قلت أدن ، دونك إننى ... وإياك فى زادى لمشتركان
فبت أقد الزاد بينى وبينه ... على ضوء نار مرة ودخان

---

(١) الأطلس : الذئب فى لونه غبرة تميل إلى السواد . عسال: يضطرب فى مشيته. الموهن نحو نصف الليل ، وقال الأصمعى : هو حين يدبر الليل أى آخر الليل .

وقلت له لما تكشر ضاحكا ... وقائم سيفى من يدى بمكان
تعش فإن عاهدتنى لاتخونى ... نكن مثل من ياذئب يصطحبان
وأنت امرؤ ياذئب والغدر كنتما ... أخيين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى ... رماك بسهم أو شباة سنان (١)
وكل رفيق كل رحل، وإن هما ... تعاطى القنا قوماهما ، أخوان (٢)

---

(١) شباة السنان : طرفه أو حده .
(٢) القنا : الرماح .

الأخطل شاعر بنى أمية

غياث أو غوث بن الصلت بن طارقة التغلبي ، وكنيته أبو مالك ، وقد كان مالك أكبر أولاده ، والأخطل هو ذو الخطل أو الطويل الأذنين المسترخيهما .

وأشهر معانى الخطل : الخفة والسرعة والحمق والطول والمنطق الفاسد المضطرب والكلام الكثير الفاسد ، والاضطراب فى الإنسان والفرس والرمح .

وقد ولد الأخطل فى الحيرة من أبوين تغلبيين وكانت ولادته سنة ٦٤٠ ميلادية . وقد كانت قبيلة تغلب جمرة القبائل العربية ، ومن أمنعها وكانت تقيم فى أرض الجزيرة أى بين دجلة والفرات .

فى هذه القبيلة العزيزة نشأ الأخطل عزيزاً منيعاً . وقد تحلى بفصاحة شعرائها وتغنى ببطولة فرسانها وشجعانها وشاء الله أن تموت أمه وهو لم يزل صغيراً ، فتزوج أبوه بامرأة غيرها . وكل إليها تربية ولده غياث ، وقد ولدت زوجة أبيه إخوة له من أبيه .

ولم يزل الأخطل يتعاطى الشعر ، وبخاصة الهجاء ، حتى لمع نجمه على صغر سنه وبات الناس يحسبون له حساباً ، وقد أدت به جرأته إلى الاصطدام بشاعر تغلب كعب بن جعيل ، ولم يزل به حتى تغلب عليه وأسكته بل أخمله وانتزع منه لقب شاعر تغلب الفحل ، ولما بلغ الأخطل أشده تزوج بزوجته الأولى أم مالك التى ولدت له مالكا وغيره .

وفى إبان ذلك العهد كانت دمشق عاصمة الدولة الأموية يوم ظهر الأخطل ، فأمها الشعراء من كل حدب وصوب ، وفى جملتهم شاعرنا ، طمعاً فى أعطيات خلفائها الذين فتحوا باب بيت المال على مصراعيه للشعراء

وغيرهم من المؤيدين والمناصرين ، وحدث أن شبب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية أول الخلفاء الأمويين ، الأمر الذى أحفظ ابنه يزيد فدخل على أبيه غاضباً وذكر له ما كان من أمر عبد الرحمن ، فهدأ أبوه روعه واستمهله ريثما يفد عليه وفد الأنصار ، أما يزيد فلم يرقه مسلك أبيه هذا بل طلب إلى كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار فقال له كعب : « أرادى أنت إلى الكفر بعد الإيمان ؟ والله لا أهجو قوما نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن سأدلك على غلام فى الحى كافر كأن لسانه لسان ثور » ، يعنى الأخطل ، وربما كان كعب يرمى إلى إيقاع الأخطل فى التهلكة ، ولكنه أعلى منزلته من حيث لايحتسب ، فطلب يزيد من الأخطـــل أن يهجو الأنصار ، فتهيب هذا الموقف فى البدء ، وخشى غضب معاوية غير أن يزيد أكد له أنه يحميه ، ودله على المواطن التى يهجوبها الأنصار فهجاهم بقصيدته الرائية التى يقول فيها :

خلوا المكارم لستم من أهلها ... وخذوا مساحيكم بنى النجار
إن الفوارس يعلمون ظهوركم ... أولاد كل مقبح أكار
ذهبت قريش بالمكارم والعلى ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

ولم تكد قصيدة الأخطل هذه تنتشر حتى أحدثت ضجة بين الأنصار الذين هاجوا ، فدخل أحد شعرائهم ، النعمان بن بشير ، على معاوية ساخطاً ثم كشف عن رأسه وقال : يا أمير المؤمنين أترى لؤماً ؟ فدهش معاوية وقال : « لا بل أرى كرماً وخيراً ما ذاك » ؟ فقال النعمان : « زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا » فخشى معاوية سوء المغبة واسترضى النعمان بأن وهبه لسان الأخطل وأمر رجال الشرطة بأن يقبضوا على الأخطل ويسلموه إلى النعمان ليفعل بلسانه ما يشاء إلا أن يزيد أنقذه من ذلك العقاب ، ولم يزل يسترضى والده حتى رضى .

ولما تولى يزيد مقاليد الخلافة ظل الأخطل على موالاته ونصرته له ليس

بشعره فحسب بل يحمل قبيلته التغلبية على الانضمام إلى القبيلة الكلبية فى محاربة القبائل القيسية الموالية للزبيريين أعداء بنى أمية ، وعندما قضى يزيد نحبه حزن عليه الأخطل كثيرا ورثاه ، وخلف يزيد ولده معاوية الثانى ثم مروان بن الحكم ، وظل الأخطل نصير الأمويين وشاعرهم المفضل .

ثم تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ، وكان عبد الملك يؤثره ويقدمه ، وقال له يوما : أنت شاعر أمير المؤمنين ، ويوما : أنت شاعر بنى أمية ، ومرة أخرى : أنت شاعر العرب .

ودخل على عبد الملك وأنشده رائيته الرائعة التى مطلعها :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

وهى القصيدة التى هنأ بها عبد الملك بظفره فى العراق حيث قتل مصعب ابن الزبير وقضى على أنصاره القيسيين فسر الخليفة منه وأجازه . ونستجلى مما تقدم ما كان الأخطل من منزلة عالية عند الأمويين ولقد كان نفسه عارفا بهذه المنزلة فأخذ يمن عليهم ويدل فى شعره مظهراً فضل قومه عليهم كما جاء فى قصيدته الرائية المذكورة :

بنى أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغوطة الخبر

ولما كانوا جمعوا حولهم كلمة العرب ، فكل من الطرفين إذاً كان لاغنى له عن الآخر لأنه كان متمماً له ، وقد كان الأخطل مع بنى أمية مصداقا لما قال أبو تمام الطائى :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة المعالى كيف تؤتى المكارم

وكان حال بنى أمية مع الأخطل مطابقاً لقول أحد الشعراء المتأخرين:

لولا الكرام وماسنوه من كرم لم يدر ناظم شعر كيف يمتدح

وبقى الأخطل على ولائه الأمويين حتى قضى نحبه ، إنما اختلف

المؤرخون على الزمن الذى مات فيه ، والأرجح أنه توفى فى خلافة هشام ابن عبد الملك سنة ٧١٠ م فيكون قد عاصر معاوية الأول ويزيد الأول ومعاوية الثانى ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد ابن عبد الملك وأخاه سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وهشام ابن عبد الملك .

وكان الأخطل كثير الاعتداد بشاعريته ، فقد ذكر المرتضى فى أماليه أن عامراً الشعبي — القاضى والعالم الفقيه — دخل يوما على الخليفة عبد الملك بن مروان فرأى الأخطل بين يديه ، ولم يك قد تعرف إليه بعد ، وبعد أن سلم وجلس سأل عبد الملك الأخطل . « ويحك من أشعر الناس ؟ » فقال الأخطل : « أنا يا أمير المؤمنين » فغضب الشعبي وسأل الخليفة : « من هذا يا أمير المؤمنين الذى يزعم أنه أشعر الناس » قال : « الاخطل » فالتفت الشعبي إلى الأخطل وقال له : يا أخطل أشعر منك الذى يقول :

هذا غلام حسن وجهه ... مستقبل الخير سريع التمام
للحارث الأكبر والحارث الأصغر والحارث خير الأنام
لخمسة آباؤهم ماهم ... هم خير من يشرب صوب الغمام

وهى أبيات من قصيدة للنابغة الذبيانى ، فقال الأخطل : « من هذا يا أمير المؤمنين ؟ » قال « الشعبي » عندها تراجع الأخطل وقال : « صدق والله ، النابغة أشعر منى » وفى رواية أنه قال : « إن أمير المؤمنين إنما سألنى عن أشعر أهل زمانه ، ولو سألنى عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حريا أن أقول كما قلت » .

ويعرف للأخطل حفاظه على عروبته بأسلوبه اللغوى الفصيح ، ذلك الأسلوب الذى تغلب عليه المسحة الجاهلية ، فهو وعر الألفاظ شديد الأسر كالشعر الجاهلى ، بل ربما زادت وعورة ألفاظه ، فى بعض القصائد

على وعورة ألفاظ بعض الشعراء الجاهليين كعمرو بن كلثوم وعنترة العبسى وغيرهما ، وهذا ما دفع أباعمرو بن العلاء أحد كبار النقاد المشهورين إلى قول كلمته المأثورة : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية مافضلت عليه أحداً » .

خلف الأخطل بعده شعراً غزيراً تألف منه ديوان كبير ، أما شعره فيقسم إلى قسمين اثنين : سياسى وخمرى ، وفيه قصيدة واحدة فقط فى الرثاء قالها فى يزيد بن معاوية ، ويتخلل شعره السياسى والخمرى شىء من الشعر الوصفى قاله فى الخمرة ونهر الفرات ، والصيد وحمار الوحش، وما إلى ذلك .

وكانت مدائحه السياسية كلها فى بنى أمية وعمالهم ، وأشهر ممدوحيه يزيد بن معاوية ووالده ، وعبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، ثم الحجاج بن يوسف عامل الأمويين على الحجاز والعراق ، وعكرمة الفياض كاتب بشر بن مروان عامل الكوفة ، وفى الديوان شعر يمدح به الأمويين عامة والمروانيين خاصة ، وكان شعره أوجع صفعة صفع بها أعداؤهم وناهضو أعراضهم من الأنصار والقيسيين والكلبيين وغيرهم ، فكان لعمله هـــذا الأثر العظيم فى تثبيت دعائم الدولة الأموية وإرساء قواعدها ، وإكثار أنصارها ومريديها ، إذ لايخفى ماكان للشعر من الهيمنة والسيطرة على عقول الناس وقلوبهم فى ذلك العهد ، ويجمل بنا هنا أن نسرد شيئاً من تلك الأماديح ، قال يمدح الخليفـة عبد الملك بن مروان فى قصيدته الرائية المشهورة :

إلى امرىء لا تعرينا نوافله ... أظفره الله فليهنأ له الظفر
الخائض الغمر والميمون طائره ... خليفة الله يستسقى به المطر
ثم استقل بأثقال العراق وقد ... كانت له نقمة فيهم ومدخر
فى نبعة من قريش يعصبون بها ... ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عيافو الخنا أنف ... إذا ألمت بهم مكروهة صبروا

أعطاهم الله جداً ينصرون به ... لاجد إلا صغير بعد مختصر
هم الذين يبارون الرياح إذا ... قل الطعام على العافين أو قتروا
بنى أميـــة نعماكم مجللة ... تمت فلا منة فيها ولا كدر

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك :

لولا الوليد وأسباب تناولنى ... بهن يوم اجتماع الناس بالثلم
إذا لكنت كمن أودى ووأده ... أهل القرابة بين اللحد والرجم
بنى أمية قد أجدت فواضلكم ... منكم جيادى ومنكم قبلها نعمى
لولا بلاؤكم فى غير واحدة ... إذا لقمت مقام الخائف الزرم
لولا تناولكم إياى ماعلقت ... كفى بأرجائها القصوى ولاقدمى
لقد خشيت وشاة الناس عندكم ... ولا صحيح على الأعداء والكلم

ومثل هذا الشعر كان أبو مالك يمدح بنى أمية وينشر فضلهم فى الآفاق فيسير ذكرهم مع الركبان ويتحدث بجودهم كل لسان .

ويقول الأخطل فى وصف الكأس :

وكأس مثل عين الديك صرف ... تنسى الشاربين لها العقولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثا ... بغير الماء حاول أن يطولا
مشى قرشية لاشك فيها ... وأرخى من مآزره الفضولا

ويقول الأخطل فى مدح بنى أمية :

إن يحملوا عنك فالأحلام شيمتهم ... والموت ساعة يحمى منهم الغضب
كأنهم عند ذاكم ليس بينهم ... وبين من حاربوا قربى ولانسب
كانوا موالى حق يطلبون به ... فأدركوه وما ملوا وما لعبوا

الكميت بن زيد الأسدى

٦٠ — ١٢٦ هـ

ألوان من حياته :

الكميت شاعر فحل مشهور ، من شعراء الدولة الأموية ؛ وأحد البلغاء الخطباء الفصحاء ، وممن يضرب بهم المثل فى البلاغة والبيان ، ذلكم هو الكميت بن زيد الأسدى .

وموطن الكميت هو الكوفة ، والكوفة من أشهر البلاد الإسلامية ، وأذيعها صيتاً فى اللغة ، والأدب ، والشعر ؛ وهى مجال الصراع السياسى بين الشيعة وبنى أمية ، وكانت عاصمة على ، وبقربها قتل الحسين بكربلاء ، وأكثر أهلها شيعة يتعصبون لعلى وآل بيته . ووالد الكميت هو زيد بن خنيس ابن مجالد من أسد من مضر من نزار ، وقومه بنو أسد مشهورون بفصاحة اللغة وسلامة الملكات .

ولد سنة ٦٠ هـ ، ونشأ بالكوفة بين قومه بنى أسد إحدى قبائل العرب الفصحاء من مضر ، فلقن العربية ، وعرف الأدب والرواية ، وعلم أنساب العرب وأيامها ومثالبها ، بمدارسة العلم ، والأخذ عن الأعراب . وكانت له جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تقصان عليه أخبارها وأشعار أهلها ، فتخرج أعلم أهل زمانه فى ذلك ، وأقر له حماد الراوية بالسبق عليه ، وقال الكميت الشعر وهو صغير ، وكان لا يذيعه ولا يتكسب به ، ويكتفى بحرفته — تعليم صبيان الكوفة بالمسجد — . ولما حصف شعره وقوى أسره ، ولاسيما فى قصائده التى أعلن فيها تشيعه لبنى هاشم وآل على ، أخذ يتصل بالولاة ، والهاشميين ، يمدحهم وينال جوائزهم .

الكميت شاعر بنى هاشم السياسى :

ولما قال الكميت (١) بن زيد الأسدى الهاشميات ، قدم البصرة ، فأتى الفرزدق ، فقال : ياأبافراس إنك شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك ! قال : ومن أنت؟ فانتسب له ، فقال : صدقت ! فما حاجتك؟ قال : نفث على لسانى ، فقلت شعرا ، وأحببت أن أعرض عليك مافلت ، فإن كان حسنا أمرتنى بإذاعته ، وإن كان غير ذلك أمرتنى بستره ، وسترته على . فقال : يابن أخى أحسب شعرك على قدر عقلك ، فهات مافلت راشداً ، فأنشده :

طربت — وما شوقا إلى البيض(٢) أطرب
ولا لعبـــاً منى وذو الشيب يلعب

قال : بلى : فإنك فى أوان اللعب فالعب ، فقال :

ولم يلهنى دار ولا رسم(٣) منزل ولم يتطربنى بنان مخضب

قال : فما يطربك يابن أخى ؟ فقال :

وما أنا ممن يزجر الطير همه أصاح غراب أم تعرض ثعلب(٤)

قال : فما أنت ؟ ويحك ! وإلى من تسمو ! فقال :

ولاالسانحات(٥) البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أعضب

---

(١) خزانة الأدب ص ٢١٧ ج ٤ ، المسعودى ص ١٩٠ ج ٢

(٢) البيض : جمع بيضاء يريد النساء .

(٣) ورسم : أثر ، يتطربنى : يحملنى على الطرب .

(٤) الزجر للطير : هو التيمن والتشاؤم بها ، والغراب أعظم ما كانت العرب تتطير به . وهذا نوع من العيافة .

(٤) السانح مارلاك ميامنه ، والبارح : مارلاك مياسره ، وكان أهل نجد يتيمنون بالأول ويتشاءمون بالثانى ، وأهل العامة بالعكس . والأعضب : الثور المكسور القرن ، وكانوا يتشاءمون به .

قال : أما هذا فقد أحسنت فيه . فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى ... وخير بنى حواء والخير يطلب

قال : من هم ؟ ويحك ! قال :

إلى النفر البيض(١) الذين بحبهم ... إلى الله فيما نابنى أتقرب

قال : أرحنى ، ويحك ! من هؤلاء ؟ قال :

بنى هاشم رهط(٢) النبى فإننى ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

قال : لله در بنى أبيك ! أصبت وأحسنت ؛ إذ عدلت عن الزعانف والأوباش ، إذن لا يصرد (٣) سهمك ، ولا يكذب قولك .

ثم مر فيها ، فقال له : أظهر ثم أظهر ، فأنت والله أشعر من مضى ، وأشعر من بقى .

فقدم المدينة فأتى أبا جعفر محمد بن على بن الحسين ، فأذن له ليلا ، وأنشده قصيدته « من لقلب متيم مستهام » ، فلما بلغ من الميمية قوله :

وقتيل بالطف(٤) غودر منهم ... بين غوغاء أمة وطغام

بكى أبو جعفر ، ثم قال : يا كميت ! لو كان عندنا مال لأعطيناك ، ولكن لك ما قال رسول الله لحسان بن ثابت : لا زلت مؤيدا بروح القدس ما ذببت عنا أهل البيت !

فخرج من عنده فأتى عبد الله بن الحسن على فأنشده فقال له : إن لى ضيعة أعطيت فيها أربعة آلاف دينار ، وهذا كتابها ، وقد أشهدت لك بذلك شهودا ، وناوله إياه .

---

(١) البيض : المشهورون من الأشراف .

(٢) الرهط : القوم والقبيلة .

(٣) صرد السهم : أخطأ أو نفذ حده ، ضد .

(٤) الطف : موضع قرب الكوفة ، وقتيل الطف هو الحسين عليه السلام .

فقال : بأبي أنت وأمي ! إني كنت أقول الشعر في غيركم ، أريد بذلك الدينا والمال ! ولكني والله مافلته فيكم إلا لله ! وما كنت لآخذ على شيء جعلته لله مالا ولا ثمنا ، فألح عبد الله عليه ، وأبى من إعفائه .

فأخذ الكميت الكتاب ومضى ، فمكث أياما ، ثم جاء إلى عبدالله فقال : بأبي أنت وأمي ، يابن رسول الله ، إن لي حاجة ، قال : وماهي ؟ وكل حاجة لك مقضية ، قال : كائنة ما كانت ؟ قال : نعم ، قال : هذا الكتاب تقبله . وترنجح الضيعة ! ووضع الكتاب بين يديه ! فقبله عبد الله .

ونهض معه عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (١) فأخذ ثوبا ، فدفعه إلى أربعة من غلمانه ، ثم جعل يدخل دور بني هاشم ، ويقول : يا بني هاشم ، هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صمت الناس عن فضلكم ، وعرض دمه لبني أمية ، فأثيبوه بما قدرتم ! فيطرح الرجل في الثوب ماقدر عليه من دراهم ودنانير ، وأعلم النساء بذلك ، فكانت المرأة تبعث ما أمكنها ، حتى إنها لتخلع الحلي عن جسدها . فاجتمع من الدنانير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهم .

فجاء بها إلى الكميت فقال له : أتيناك بجهد المقل ، ونحن في دولة عدونا ، وقد جمعنا هذا المال ، وفيه حلي النساء كما ترى ، فاستعن به على دهرك . فقال : بأبي أنت وأمي ! قد أكثرتم وأطيبتم ، وما أردت بمدحي إياكم إلا الله ورسوله ، ولم أك لآخذ لذلك ثمنا من الدنيا ، فارددْه إلى أهله ، فجهد به عبد الله أن يقبله بكل حيلة فأبى ، فقال : إن أبيت أن تقبل فإني رأيت أن تقول شيئا يغضب منه بعض الناس ، لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما نحب فنكافئك بما نحب فابتدأ الكميت ، وقال قصيدته التي يذكر

---

(١) من زعماء آل البيت ومن رجالات قريش ، أقام بالكوفة ورشحه أهلها للملك وبويع بالولاية ، وحاربته بنو أمية ، فتوجه إلى خرسان ، ولكن أبا مسلم حبسه ، ثم أعمل تدبيره في قتله (راجع ١٢٧ ج ٢ أعلام الأدب في عصر بني أمية لخفاجي) .

فيها مناقب قومه من مضر ، وربيعة وإياد وأنمار (١) ويكثر فيها من تفضيلهم ، ويطنب فى وصفهم ، وأنهم أفضل من قحطان .

فثارت العصبية فى البدو والحضر ، وانحرف أهل اليمن إلى الدعوة العباسية ، وأعقب ذلك انتقال الدولة عن بنى أمية ، إلى بنى هاشم .

ومن هذه القصيدة :

وجدت الله إذ سمى نزارا وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات وللناس القفا ولنا الجبينا (٢)

وكان الكميت من شعراء مضر وألسنتها المتعصبين على القحطانية ، المقارعين ، العالمين بالمثالب .

الكميت يهجو اليمانية وآثار ذلك فى حياته :

وكان حكيم بن عياش الأعور الكلبى ولعاً بهجاء مضر ، فكانت شعراء مضر تهجوه ويجيبهم ، وكان الكميت يقول : هو والله أشعر منكم ، قالوا : فأجب الرجل . قال : إن خالد بن عبد الله القسرى (٣) محسن إلى فلا أقدر أن أرد عليه . قالوا : فاسمع بأذنك ما يقول فى بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ، وأنشدوه ذلك ، فحمى الكميت لعشيرته ، وقال قصيدته المذهبة : ألا حييت عنا يامرينا ، وهى التى هجا فيها أهل اليمن (٤) ، وبلغ خالداً خبرها ،

---

(١) الأغانى ص ١١٠ ج ١٥

(٢) نقض دعبل هذه القصيدة على الكميت ، وذكر مناقب اليمن وفضائلها وملوكها ، وذلك فى قصيدته التى منها :

أفيق من ملامك يا ظعينا كفاك اللوم مر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالى يشبين الذوائب والقرونا

(٣) هو والى الكوفة لهشام وقد وليها عام ١٠٥ هـ ، وعزل عنها عام ١٢٠ هـ ، وحبس وصودرت أمواله ، ثم قتل فى عهد الوليد بن عبد الملك عام ١٢٦ هـ .

(٤) كان هارون مولى الأزد يرد على الكميت ويفخر بقحطان (٧ : ٧٥ الحيوان ـ ط الخانجى) .

فقال : لا أبالى ما لم يجر لعشيرتى ذكر ، فأنشدوه القصيدة وفيها ذم لعشيرة خالد ، فأحفظته عليه ، ثم قال : فعلها ، والله لأقتلنه ! ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن ، وتخيرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب ، فرواهن الهاشميات ، ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعا ، فلما أنس بهن استنطقهن ، فرأى فصاحة وأدبا ، فاستقرأهن القرآن فقرأن ، واستنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت بن زيد الأسدى ، قال : وفى أى بلد هو ؟ قلن : فى العراق ، ثم بالكوفة . فكتب إلى خالد ـ وهو عامله على العراق ـ : ابعث إلى برأس الكميت بن زيد ، فبعث خالد إلى الكميت فى الليل ، فأخذه وأودعه السجن ، ولما كان من الغد أقرأ من حضره من مضر كتاب هشام ، واعتذر إليهم من قتله ، وآذنهم فى إنفاذ الأمر فيه فى غد . ثم قال لأبان بن الوليد البجلى ـ وكان صديقا للكميت ـ أنظر ما ورد فى صديقك ، فقال : عز على والله ذلك .

ثم قام أبان ، فبعث إلى الكميت رسالة مع غلام له وأركب الغلام فرسا وقال له : أنت حر إن أدركت وأديت إليه الرسالة والفرس لك . وفى رسالته إلى الكميت : « قد بلغنى ماصرت إليه وهو القتل ، إلا أن يدفع الله عز وجل ، وأرى لك أن تبعث إلى حبّى(١) ، فإذا دخلت إليك تنقبت بنقابها ، ولبست ثيابها وخرجت ، فإنى أرجو ألا يؤبه لك » . فأرسل الكميت إلى أبى وضاح حبيب بن بديل وإلى فتيان من بنى عمه من أسد ، فدخل عليه حبيب فى حبسه ، فأخبره الخبر ، وشاوره فيه ، فسدد رأيه .

ثم بعث الكميت إلى حبى امرأته فقص عليها القصة وقال لها : أى ابنة عم ، إن الوالى لا يقدم عليك ، ولا يسلمك قومك ، ولو خفته عليك لما عرضتك

---

(١) هى زوج الكميت .

له ، فألبسته ثيابها وإزارها ، وقالت له : أقبل وأدبر . ففعل ، فقالت : ماأنكر منك شيئاً إلا يبساً فى كتفك ؛ فأخرج على اسم الله ـ وأخرجت معه جارية لها ـ فخرج ، ولم يلتفت إليه الحرس وسار حتى دخل منزل أبى الوضاح ولما مضى على السجان وقت نادى الكميت فلم يجبه ، فدخل ليعرف خبره ، فصاحت به المرأة : وراءك ! لا أم لك ! فشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خالد ، فأخبره الخبر ، فأحضر حبى ، وقال لها : ياعدوة الله احتلت على أمير المؤمنين ، وأخرجت عدوه لأمثلن بك ، ولأصنعن ولأفعلن ! فاجتمعت بنو أسد وقالوا : ماسبيلك على امرأة منا خدعت ! فخافهم ، وخلى سبيلها ! وسقط غراب على الحائط فنعب ، فقال الكميت لأبى الوضاح : إنى لمأخوذ ، وإن حائطك لساقط ، فقال : سبحان الله ! هذا مالا يكون إن شاء الله ، فقال له : لابد من أن تحولنى ، فخرج به إلى بنى علقمة ـ وكانوا يتشيعون ـ فأقام فيهم ، ولم يصبح حتى سقط الحائط الذى سقط عليه الغراب .

وأقام الكميت مدة متوارياً حتى إذا أيقن أن الطلب قدخف عنه خرج ليلا فى جماعة من بنى أسد على خوف ووجل ، وكان عالما بالنجوم متهديا بها ، فلما صار سحيرا صاح بالفتيان : هوموا(١) ، وقام هو يصلى ، ثم رأى واحد منهم شخصا ، فتضعضع (٢) له ، فقال الكميت : مالك ؟ قال : أرى شيئا مقبلا ، فنظر إليه ، فقال : هو ذئب قد جاء يستطعمكم ، فجاء الذئب فربض ناحية ، فأطعموه يد جزور فتعرقها (٣) ، ثم أهووا له بإناء فيه ماء فشرب منه ، وارتحلوا ، فجعل الذئب يعوى ، فقال الكميت ماله ؟ ويله ! ألم نطعمه

---

(١) أصل التهويم والتهوم : هز الرأس من النعاس .
(٢) تضعضع : خضع وذل .
(٣) تعرق العظم : أكل ماعليه من اللحم .

ونسقيه ؟ وما عرفنى بما يريد ، هو يعلمنا أنا لسنا على الطريق ، تيامنوا يا فتيان ، فتيامنوا ، فسكن عواؤه !

الكميت فى الشام :

ولم يزل الكميت يسير حتى جاء الشام ، وتوارى فى بنى أسد وتميم ، ورحل إلى أشراف قريش - وكان سيدهم يومئذ عنبسة بن سعد بن العاص - فمشت رجالات قريش بعضها إلى بعض ، وأتوا عنبسة ، فقالوا : يا أبا خالد ، هذه مكرمة قد أتاك الله بها ، هذا الكميت بن زيد لسان مضر ، كتب أمير المؤمنين فى قتله ، فنجا حتى تخلص إليك وإلينا . قال : فمروه أن يعوذ بقبر معاوية بن هشام ، فمضى الكميت ، فضرب فسطاطه عند قبره ، ومضى عنبسة ، فأتى مسلمة بن هشام فقال له : يا أباشاكر مكرمة أتيتك بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها ، فإن علمت أنك تفى بها وإلا كتمتها قال : وماهى ؟ فأخبره الخبر ، وقال : إنه قد مدحكم بما لم يسمع بمثله ، فقال : علىّ خلاصه .

ودخل على أبيه الخليفة هشام - فى غير وقت دخول - فقال له هشام : أجئت لحاجة ؟ قال : نعم ، قال : هى مقضية إلا أن يكون الكميت ، فقال : ما أحب أن تستثنى على فى حاجتى . وما أنا والكميت ؟ فقالت أمه : والله لتقضين حاجته كائنة ما كانت ، قال : قد قضيتها ولو أحاطت بما بين قطريها(١) ، قال : هى الكميت ياأمير المؤمنين ، وهو آمن بأمان الله عز وجل وأمانى ، وهو شاعر مضر ، وقد قال فينا قولا لم يقل مثله ، قال : قد أمنته وأجزت أمانك له ، قال : فاجلس له مجلسا ينشدك فيه ماقال فينا .

---

(١) القطر : الجانب والناحية .

فى مجلس هشـام :

وعقد المجلس وارتجل الكميت فى هذا المجلس خطبة ماسمع بمثلها قط . وامتدح بنى أمية بقصيدته الرائية التى ارتجلها ارتجالا حتى إنه لم يحمع منها إلا تلك الأبيات التى حفظها الناس فى هذا المجلس ، وقد سئل عنها الكميت فقال : ما أحفظ منها شيئاً إنما هو كلام ارتجلته .

وقد بدأ قوله فى المجلس بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ، ثم قال : « أما بعد ، فإنى كنت أتدهدى فى غمرة ، وأعوم فى بحر غواية ، أخبى على خطلها ، واستنفرنى وهلها ، فتحيرت فى الضلالة ، وتسكعت فى الجهالة ، مهرعا عن الحق ، جائراً عن القصد ، أقول الباطل ضلالا ، وأفوه بالبهتان وبالا ، وهذا مقام العائذ ، مبصر الهدى ، ورافض العماية . فاغسل عنى يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجرم » .

ثم أنشد قصيدته التى أولها :

قف بالديار وقوف زائر

وفيها يقول :

ماذا عليك من الوقو ف بها وأنك غير صاغر
درجت عليها الغاديا ت الرائحـات من الأعاصر(١)

وفيها يقول :

والآن صرت إلى أميـة والأمور إلى المصائر

فجعل هشا يغمز مسلمة بقضيب فى يده ، ويقول : اسمع اسمع .

وفيها يقول :

كم قال قائلكم لعـا لك عنـد عثرته لعـاثر

---

(١) الأعاصر : جمع إعصار ، وهى الريح تثير السحاب ، أو التى تهب من الأرض كالعمود نحو السماء . والأصل فى الجمع الأعاصير ولكنه خفف بحذف الياء كالمفاتح فى المفاتيح .

وغفرتمو لذوى الذنو ب من الأكابر والأصاغر
أبنى أمية إنكم أهل الوسائل والأوامر
نُقتى بكل ملمة وعشيرتى دون العشائر
أنتم معادن للخلا فة كابراً من بعد كابر
بالتسعة المتتابعين خلائفا وبخير عاشر
وإلى القيامة لاترا ل لشافع منكم وواتر(١)

ثم قطع الإنشاد وأعاد خطبته ، فقال : « إغضاء أمير المؤمنين سماحته وصباحته ، ومناط المنتجعين من لانحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلا عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين » فقال هشام : ويلك ياكميت ! « من زين لك الغواية ودلاك فى العماية » . قال : « الذى أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه العهد ، فلم يجد له عزما » .

قال له : فأنت القائل :

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها ويا حاطبا فى غيرك حبلك تحطب

قال : بل أنا القائل :

وجدنا قريشا قريش البطاح على مابنى الأول الأول
بهم صلح الناس بعد الفساد وحيص من الفتق ما رعبلوا(٢)

قال هشام : فأنت القائل :

لاكعبد المليك أو كوليد أو سليمان بعد أو كهشام
من يمت لايمت فقيداً ومن يحى فلاذو إل ولا ذو ذمام

---

(١) شافع وواتر : أى لمن يتتابع منكم فيكون شفعاً فى العدد أو وترا .
(٢) حاص الرجل الثوب : خاطه . رعبل الثوب : مزقه .

ويلك ياكميت ! جعلتنا ممن لايرقب فى مؤمن إلا ولا ذمة . قال : بل أنا القائل :

فالآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصائر

قال له : فأنت القائل :

فقل لبنى أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركمو أجيعا
بمرضى السياسة هاشمى يكون، حيا لأمته ربيعا

قال : لا تثريب يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تمحو قولى الكاذب . . .
قال : بماذا ؟ قال : بقولى الصادق :

أورثته الحصان أم هشام حسبا ثاقباً ووجها نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البد ر فأمسى له رقيباً نظيرا
وكساه أبو الخلائف مروا ن سنى المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكن وجدتها له معانا ودورا

وكان هشام متكئا ، فاستوى جالساً وقال : هكذا فليكن الشعر . ثم قال : لقد رضيت عنك ياكميت ، فقبل يده : وقال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تزيد فى تشريفى فـــلا تجعل لخالد على إمارة قال : قد فعلت وكتب له .

الكميت بعد العفو عنه :

وقد أراد الكميت أن يبعد عنه نطاق المراقبة والشبهات ، فأخذ يمدح هشاما بعد عفوه عنه ، ويمدح الأمراء والولاة ورجالات الدولة ، وينال جوائزهم ؛ ورجع الشاعر إلى الكوفة بعد أن نال العفو ، ونال الأمن والأمان من أن تمتد إليه يد خالد والى الكوفة ، وقد مدح خالدا إبعادا لشره عنه

ولما عزل خالد وولى الكوفة بعده يوسف بن عمر الثقفى عام ١٢٠ هـ ، صمت الكميت خوفا من بطش الوالى الجديد .

ومع أن الكميت مدح يوسف إلا أنه لم يسلم من مكره ، إذ قتله جند يوسف وهو فى مجلسه ينشده مدحه عام ١٢٦ هـ

يروى أن الكميت لما مدح يوسف بن عمر والى العراق بعد خالد القسرى أشار فى مدحـــه إلى استطعام خالد الماء حين خرجت عليه الجعفرية (١) ، وهو على المنبر . قال الكميت :

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن ... كمن حصنه فيه الرتاج المضبب (٢)
وما خالد يستعطم الماء فاغرا ... بعدلك والداعى إلى الموت ينعب (٣)

وكان الجند الذين على رأس يوسف يمانية ، فتعصبوا لخالد ووضعوا ذباب سيوفهم فى بطن الكميت ، فلم يزل ينزف الدم حتى مات .

---

(١) أتباع أبى جعفر محمد بن على العلوى .

(٢) البراح : المتسع من الأرض . الرتاج : الباب العظيم ، وهو الباب المغلق وفيه باب صغير . ومضبب : عليه ضبة ، وأهل مكة يسمون المزلاج ضبة .

(٣) فاغرا : فاتحا فمه . العدل (بالكسر) النظير . ينعب : يرفع صوته كنعيب الغراب . والمعنى أن خالدا الذى استطعم الماء لا يساويك فى مقـــام القتال حين يرفع المنادى إلى الحرب صوته .

شعر الكميت وشاعريته

آراء النقاد فى الكميت :

كان حماد الراوية يصف شعره بأنه خطب ، يريد أنه يشتمل على الحجاج والمناظرة والجدل والإقناع والبرهان ، وهذا وإن كان حماد يريد به الذم إلا أنه أبلغ الجوانب فى شاعرية الكميت فى رأينا .

وسئل معاذ الهراء عن أشعر الناس ؟ فقال : من الجاهليين : امرؤ القيس ، وزهير ، وعبيد بن الأبرص ، ومن الإسلاميين : الفرزدق ، وجرير ، والأخطل . فقيل : يا أبا محمد ، ما رأيناك ذكرت الكميت ، قال ذلك أشعر الأولين والآخرين . . وفيه يقول أبو عكرمة الضبي : لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان ، ولا للبيان لسان . وقال أبو عبيدة : لو لم يكن لبنى أسد منقبة غير الكميت لكفاهم : حببهم إلى الناس ، وأبقى لهم ذكراً . وقيل : فى الكميت خصال لم تكن فى شاعر :

كان خطيب بنى أسد ، وفقيه الشيعة ، وحافظ القرآن ، وكان ثبت الجنان ، وكان كاتبا حسن الخط ، وكان نسابة ، وكان جدليا ، وهو أول من ناظر فى التشيع مجاهراً بذلك . وقال الفرزدق فيه : هو أشعر من مضى ومن بقى (١) .

شاعرية الكميت وبواعثها

بواعثها :

كانت شاعرية الكميت قوية متأججة ، ومواهبه خصبة مشتعلة ، وكانت هناك أسباب وبواعث عديدة تقوى من شاعريته ، وتصقل من ملكته ، وتهذب من فطرته الشعرية :

---

(١) كان محمد بن سهل راوية الكميت (٧ : ١٨ الحيوان ـ ط الخانجى) .

١ — وأولى هذه الأسباب وراثته للبلاغة والشعر عن قومه بنى أسد المشهورين بالشعر من قديم ، ومن أشهر شعراء بنى أسد فى الجاهلية عبيد ابن الأبرص ، وفى الإسلام الكميت .

٢ — وثانى هذه الأسباب استعداده الفطرى لقول الشعر والنبوغ فيه ، وميله إليه ، ورغبته فى نظمه .

٣ — وثالث هذه البواعث بيئة الكوفة الأدبية ، وكثرة من نبغ فيها من الأدباء والشعراء ، وكثرة عناية العلماء فيها بالشعر ، فوق ما سوقها المشهور « كناسة الكوفة » من أثر فى نهضة الشعر وفى ازدهاره .

٤ — ورابع هذه البواعث الظروف السياسية التى كان يعيش فيها الكميت مما جعل لكل حزب شاعرا أو شعراء يدافعون عنه ، وذلك مما شجع الكميت على قول الشعر والنبوغ فيه . وعلى تجويده فى الجانب السياسى وهو الأهم من بين موضوعات الشعر فى عصره .

٥ — وخامس هذه الأسباب هو عقيدة الكميت الشيعية التى دفعته للدفاع عن الشيعة ومدح زعمائهم ورثاء شهدائهم وقراع أعدائهم ، ونضال بنى أمية المعتدين عليهم .

٦ — وسادس هذه البواعث هو ثقافة الكميت الأدبية الواسعة ، التى جعلت منه شاعرا عالما نسابة جداليا مناظرا راوية ناقدا واسع العلم بالشعر وبأيام العرب وأخبارها وأشعارها ، وكان ببذ حمادا الراوية الكوفى فى هذا المضمار ، ويروى أنهما كانا يتناظران فى الشعر وروايته ، فكان الكميت يبذ حمادا فى هذا المجال .

أهم أغراض الشعر عند الكميت :

١ — كان أهم أغراض الشعر عند شاعرنا الكميت هو الشعر السياسى الذى تجلى فى هاشمياته ، التى اشتملت على كل أغراض الشعر من فخر ومدح وهجاء ورثاء وحماسة .

والكميت فى هذا الجانب من شعره قوى الشاعرية ، مشتعل الخيال ، ثائر العاطفة ، محتدم الخيال ، متلاحم الأسلوب ، غزير المعانى ، كثير الإجادة ، كثير الحكمة وضرب المثل ، يدعو إلى العدالة فى الحكم ، وإلى الإنصاف فى السياسة ، وإلى الاستماع لصوت الشعوب . ولقد كان الكميت شاعرا مخلصا لعقيدته الشيعية ، ومامدحه الأمويين إلا لون من ألوان التقية أو الدهاء السياسى ، وهذا مما يجيزه الشيعة ، ويفسر ذلك ماروى عن المستهل بن الكميت ، قال : قلت لأبى : ياأبت ! إنك هجوت الكلبى ، ففخرت ببنى أمية ، وأنت تشهد عليهم بالكفر ، فالاخرت بعلى وبنى هاشم الذين تتولاهم . قال يابنى : أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بنى أمية ، وهم أعداء على عليه السلام ، فلو ذكرته لترك ذكرى وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت عليا له ، ولا أجد له ناصراً من بنى أمية ، ففخرت عليه ببنى أمية وقلت : إن نقضها على قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غما وغلبته .

٢ — وللكميت شعر آخر غير الهاشميات ، ويشتمل على أغراض عديدة من وصف وغزل ومدح ، والشاعر فى هذا اللون من الشعر متوسط الشاعرية ، لايبذ غيره من الشعراء .

وجملة الأمر أن الكميت كان شاعرا مطبوعاً على قول الشعر ، ونظمه ، فى كل وقت وكل غرض .

وكان سليم ملكة العربية ، وقد ضمن له ذلك استظلاله بهذا العصر الذى لم يتحيف الملكات فيه نقص ولا اعتدى عليها اختلاط ، وقد انضم إلى ذلك علمه الواسع بلغات العرب ومفاخرهم ومثالبهم ، وكان زمنه يتطلب ذلك ليرضى الشاعر سامعيه ، ويكفيهم حاجة نفوسهم لنهش الأعراض ، أو تعداد المناقب . فاجتمعت بذلك للكميت أسباب الكمال فى شعره : رصانة لفظ ، وطول نفس ، وبعد إشارة .

وكان لكثرة ما حفظ من شعر القدماء أثر عظيم فى جودة شعره حتى

لقد تسبق إليه عبارات من كلام هؤلاء القدماء فتزين قوله ، ولكن بعض المتعصبين عليه كخلف الأحمر كان يعد ذلك من معايبه ، ويدعى أن الكميت يسرق كلام الشعراء .

وقد أحدث شعر الكميت آثاراً سياسية بعيدة المدى حتى لقد عد هذا الشعر من أقوى العوامل فى حياة دولة بنى أمية وفى نهايتها ، يقول صاحب الأغانى : « ولم تزل عصبيته للعدنانية ، ومهاجاته شعراء اليمن متصلة ، والمناقضة بينه وبينهم شائعة فى حياته ، وبعد وفاته ، حتى ناقض دعبل وابن أبى عيينة قصيدته المذهبة ، فأجابهما أبو الزلفاء البصرى مولى بنى هاشم عنها » ، ولقد كان ذلك فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى : أى بعد وفاة الكميت بنحو مائة سنة . ويقول الجاحظ فى بيان المدى الذى بلغه شعر الكميت من التأثير فى سياسة الدولة : ما فتح للشيعة الحجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هى لم تصلح لحى سواهم ... فإن ذوى القربى أحق وأوجب
يقولون لم يورث ولولا تراثه ... لقد شركت فيه بكيل وأرحب (١)

هاشميات الكميت :

هى ست قصائد قالها الشاعر فى الدفاع عن الهاشميين ، ونضال خصومهم من بنى أمية ، وتبلغ نحو ٥٦٣ بيتاً ، ومعها بعض مقطعات تبلغ نحو العشرين بيتا .

وأولى هذه القصائد قصيدته الميمية التى مطلعها :

من لقلب متيم مستهام ... غير ما صبوة ولا أحلام

وثانيتها قصيدة البائية :

(١) هما حيان من همدان .

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب

وثالثتها قصيدته البائية أيضا التي مطلعها :

أنىّ ومن أين آبك الطرب من حيث لا صبوة ولا ريب

ورابعتها قصيدته اللامية :

ألا هل عم في رأيه متأمـــل وهل مدبر بعد الإساءة مقبل

وخامستها قصيدته البائية :

طربت وهـل بك من مطرب ولم تتصـــاب ولم تلعب

وسادستها قصيدته العينية :

نفى عن عينيك الأرق الهجوعا وهم يمترى منهـا الدموعا

وللهاشميات منزلة كبرى في الأدب والنقد والشعر وقد جعل الخوارزمي من جهلها ليس بمعدود من بين الشعراء .

وسمة الهاشميات الواضحة هي تمجيد آل البيت وذكر المظالم التي لحقت بهم في عصر آل أمية والدفاع عنهم ، وذكر فضائلهم ، ومثالب خصومهم .

مصادر لدراسة الكميت :

وقد تحدث عن الكميت كثير من الأدباء والنقاد منهم أبو الفرج الأصفهاني في كتابه « الأغاني »(١)، وابن قتيبة في كتاب « الشعر والشعراء » وصاحب خزانة الأدب (٢) ، وصاحب الجمهرة (٣) . وللأستاذ الصعيدي كتاب « الكميت شاعر العصر المرواني » ، وقد نشر قصائده الهاشميات في هذا الكتاب . ونشرها كذلك الأستاذ محمـــد شاكر الخياط ، والمستشرق هروفتس .

---

(١) ج ١٥ ص ١١٣ (٢) ج ١ ص ٦٩ (٣) ص ١٨٧

وتحدث عن الهاشميات شوقى ضيف فى كتابه « التطور والتجديد فى الشعر الأموى (١) » .

وقد درس عبد الحسيب طه الأستاذ فى كلية اللغة العربية الكميت وشاعريته وشعره فى كتابه « أدب الشيعة » دراسة واسعة قيمة خصبة (٢) » .

وقد ترجم له المؤلف فى الجزء الثانى من كتابه « أعلام الأدب فى عصر بنى أمية » ، وكثيرون من مؤرخى الأدب فى هذا العصر : كالزيات ، ومحمود مصطفى ، وأصحاب الوسيط ، والمفصل ، وغير هؤلاء .

١ — من هاشميات الكميت قوله :

ألا هل عم فى رأيه متأمل . وهل مدبر بعد الإساءة مقبل (٣)
وهل أمة مستيقظون لرشدهم فيكشف عنه النعسة المتزمل (٤)
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى
مساويهم لو كان ذا الميل يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا على ملة غير التى نتنحل
كلام النبين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية نفعل
رضينا بدنيا لانريد فراقها على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها لنا جنة (٥) مما نخاف ومعقل (٦)
أرانا على حب الحياة وطولها يجد بنا فى كل يوم ونهزل

---

(١) ص ٢٣٣ - ومابعدها من المرجع المذكور .
(٢) راجع ص ٢١١ وما بعدها من المرجع المذكور - طبعة ١٩٥٦ بمطبعة السعادة بمصر .
(٣) أى أما آن للعاقل أن ينتبه وللنائم أن يستيقظ .
(٤) الملتف . (٥) وقاية . (٦) ملجأ .

٣ — ومن الهاشميات هذه القصيدة التى نذكر بعضا منها :

من لقلب متيم مستهام ... غير ما صبوة ولا أحـلام
طارقات ولا ادكار غوان ... واضحات الخدود كالآرام(١)
بل هواى الذى أجن وأبدى ... لبنى هاشم فروع الأنام(٢)
للقريبين من ندى والبعيدي ... ن من الجور فى عرى الأحكام
والمصيبين باب ما أخطأ النـ ... ـاس ومرسى قواعد الإسلام(٣)
والحماة الكفاة فى الحرب إن ... لف ضرام وقوده بضرام
والغيوث الذين إن محل النا ... س فأوى حواضن الأيتام
والولاة الكفاة للأمر إن طرّ ... ق يتثنا بمجهض أو تمام(٤)

ويقول فى وصف رسول الله منها :

أسرة الصادق الحديث أبى القا ... سم فرع القدامس القدام
خير حى وميت من بنى آ ... دم طرأ مأمومهم والإمام

وفيها يذكر الحسين ، فيقول :

وقتيل بالطف غودر منـه ... بين غوغاء أمة وطغام(٥)

---

(١) طارقات : وصف الأحلام ، والادكار : التذكر . غوان : جمع غانية ، وهى المرأة الجميلة .

(٢) أجن مضارع جن (كنصر) : أستر وأخفى ، ومثله أجن (كأكرم) . فروع : جمع فرع وهو أعلى الشىء .

(٣) مرسى قواعد الإسلام : من أرسى الشىء بمعنى ثبته وأقره .

(٤) طرقت الحبلى : إذا خرج شىء من المولود وبقى شىء . اليتن . المولود الذى خرجت رجلاه قبل رأسه ويديه . المجهض : الذى ألقته أمه قبل تمامه .

(٥) الطف : موضع قرب الكوفة .

تركب الطير كالمجاسد منه ... مع هاب من التراب هيام(١)
وتطيل المرزآت المقاليت ... عليه القعود بعد القيام(٢)

٣ — ومن هاشميات الكميت أيضا قوله :

نفى عن عينك الأرق الهجوعا ... وهم يمترى منهـا الدموعا
دخيل فى الفؤاد يهيج سقما ... وحزناً كان من جذل منوعا
لفقدان الخضارم من قريش ... وخير الشافعين معا شفيعا(٣)
لدى الرحمن يصدع بالمثانى ... وكان له أبو حسن قريعا(٤)
حطوطاً فى مسرته ومولى ... إلى مرضاة خالقه سريعاً
واصفاه النبى على اختيار ... بما أعيا الرفوض له المذيعا
ويوم الدوح دوح غدير خم ... أبان له الولاية لو أطيعا(٥)
ولكن الرجال تبايعوها ... فلم أر مثلها خطراً مبيعا
فلم أبلغ بها لعناً ولكن ... أساء بذاك أولهم صنيعا
فصار بذاك أقربهم لعدل ... إلى جور وأحفظهم مضيعا
أضاعوا أمر قائدهم فضلوا ... وأقومهم لدى الحدثان ريعا(٦)
تناسوا حقه وبغوا عليه ... بلا ترة وكان لهم قريعا(٧)

---

(١) المجاسد : الثياب المزعفرة . الهيام : الذى يتساقط من نفسه .
(٢) المقاليت : جمع مقلاة وهى المرأة التى لا يعيش لها ولد .
(٣) يعنى بخير الشافعين النبى صلى الله عليه وسلم .
(٤) القريع : المختار .
(٥) الدوح : الشجر العظيم ، وغدير خم : موضع بين مكة والمدينة قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم لعلى : « اللهم وال من والاه » الحديث .
(٦) الحدثان : صروف الزمان ، والريع : الطريق . ويحتمل أن يكون ريع فعل ماض بمعنى أفزع .
(٧) الترة . الثأر : والقريع : السيد .

فقل لبنى أمية حيث حلوا ... وإن خفت المهند والقطيعا(١)
ألا أف لدهر كنت فيه ... هداناً طائعاً لكم مطيعا(٢)
أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركم أجيعا
ويلعن فذ أمته جهاراً ... إذا ساس البرية والخليعا(٣)
بمرضى السياسة هاشمى ... يكون حيا لأمته ربيعا(٤)
وليثاً فى المشاهد غير نكس ... لتقويم البرية مستطيعا(٥)
يقيم أمورها ويذب عنها ... ويترك جدبها أبداً مريعا(٦)

ألوان من شعر الكميت فى غير الهاشميات :

١ — قال الكميت يمدح خالد بن عبد الله (٧) :

لو قيل للجود من حليفك (٨) ما ... إن كان إلا إليك ينتسب
أنت أخوه وأنت صورته ... والرأس منه وغيرك الذنب
أحرزت فضل النضال (٩) فى مهل ... فكل يوم بكفك القصب (١٠)

---

(١) المهند : السيف ، والقطيع : السوط .
(٢) الهدان : الجبان .
(٣) الفذ : الفرد وهو أول القداح ، يعنى به قاتل على ، والخليع : الوليد بن عبد الملك .
(٤) الحيا : المطر والخصب ، والربيع معروف وهو يعم الناس بالخير فيكون مثله . (٥) النكس : الدنى المقصر .
(٦) المريع : المخصب .
(٧) هو أمير العراق المقتول سنة ١٢٦ هـ .
(٨) حليفك هو الذى يعاهدك على أن يكون أمركما واحدا فى النصر والحماية
(٩) المباراة فى الرمى .
(١٠) هو كل نبات ذى أنابيب والواحدة قصبة ، وأحرز القصب أو قصب السبق غلب .

لو أن كعبا (١) وحاتما (٢) نشرا كانا جميعا من بعض ما تهب
لاتخلف الوعد إن وعدت ولا أنت عن المعتفين (٣) تحتجب
ما دونك اليوم من نوال ولا خلفك للراغبين منقلب (٤)

٢ — وهذا مثال لغزل الكميت وهو غزل ضعيف متكلف ، يروى أن الكميت وفد على الخليفة يزيد بن عبد الملك (٥) فى دمشق ، ومدحه فقال له الخليفة : يا أبا المستهل ، هذه سلامة القس جارية حاذقة عرضت علينا ، أفترى أن نبتاعها ؟ قال الكميت : إى والله يا أمير المؤمنين ، فما أرى أن لها مثلا فى الدنيا فلا تفوتنك ، قال الخليفة فصفها فى شعر حتى أقبل رأيك ؛ فقال الكميت :

هى شمس النهار فى الحسن إلا أنها فضلت بقتل الظراف
زانها دلها وثغر نقى وحديث مرتل غير جاف
خلقت فوق منية المتمنى فاقبل النصح يابن عبد مناف

فضحك يزيد ، وقال : قد قبلنا نصحك ياأبا المستهل ، وأمر له بجائزة .

ولما سمع خالد هذه الأبيات أمر للكميت بمائة ألف درهم .

٣ — ويروى صاحب الأغانى أن الخليفة هشاما وقعت له رقعة فيها أبيات تشتمل على هجاء خالد القسرى ، وهى :

---

(١) هو كعب بن مامة من إياد أحد أجواد العرب المضروب بهم المثل فى الكرم .

(٢) هو حاتم بن عبد الله الطائى الجواد الطائر الصيت والشاعر المجيد ، مات قبيل الإسلام .

(٣) طلاب المعروف والرزق .

(٤) دون بمعنى أمام : أى ليس بعد نوالك نوال ولا خلفك أحد يرجى .

(٥) تولى يزيد الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ هـ ، ومات ١٠٥ هـ .

تألق برق عنـــدنا وتقابلت ... أثاف لقدر الحرب أخشى اقتبالها(١)
فدونك قدر الحرب وهى مقرة ... لكفيك واجعل دون قدرجعالها(٢)
ولن تنتهى أو يبلغ الأمر حده ... فنلها برسل قبل ألا تنالها(٣)
فتجشم منهـا ما جشمت من التى ... بسور أهرت نحو حالك حالها
تلاف أمور الناس قبل تفاقم ... بعقدة حزم لاتخاف انحلالها
فما أبرم الأقوام يوما لحيلة ... من الأمر إلا فلدوك احتيالها
وقد تخبر الحرب العوان بسرها ... ـ وإن لم تبح ـ من لايريد سؤالها

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة فجمعوا ، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم ، فقال : شعر من تشبه هذه الأبيات ، فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميت بن زيد الأسدى .

٤ — ملحمة الكميت :

ومن شعر الكميت ملحمة طويلة بائية رواها أبو زيد فى كتابه « الجمهرة » ، وجعلها إحدى الملحمات السبع التى رواها فى كتابه ، وهى من الشعر السياسى الذى كان ينظمه الكميت ليناضل به بنى أمية ويندد بحكمهم للعالم الإسلامى ، وتبلغ ستة وخمسين بيتا :

ألا لا أرى الأيام يقضى عجيبها ... بطول ولا الأحداث تفنى خطوبها
ولا عبر الأيام يعرف بعضها ... ببعض من الأقوام إلا لبيبها

---

(١) يقال : « اقتبلت الأمر إذا استأنفته » ، يريد بتقابل الأثافى القدر الاستعداد للحرب وإنما جعل الحرب قدرا لأنها تضطرب بمن فيها كما تضطرب القدر عند الغليان .

(٢) الجعال : خرقة ينزل بها القدر . ومعنى مقرة لكفيك : أى خاضعة لها ، يريد تمكنه من الأمر وقبضه على زمامه .

(٣) الرسل : الرفق والتؤدة .

ولم أر قول المرء إلا كنبله ... به وله محرومها ومصيبها
وما غبن الأقوام مثل عقولهم ... ولا مثلها كسباً أفاد كسوبها
وما غبن الأقوام عن مثل خطة ... تغيب عنها يوم قيلت أريبها
ولم أر باب الشر سهلا لأهله ... ولا طرق المعروف وعثاً كئيبها
وأكثر مآتى المرء من مطمأنه ... وأكثر أسباب الرجال ضروبها
ولم أجد العيدان أقذاء أعين ... ولكنما أقذاؤها ما ينوبها
من الضيم أو أن يركب القوم قومهم
ردافاً مع الأعداء ، إلبـاً ألوبها

ومنها :

رمتنى قريش عن قسى عداوة ... وحقد كأن لم تدر أنى أريبها
توقع حولى تارة وتصيبنى ... بنبل الأذى عفواً جزاها حسيبها
رمتنى بالآفات من كل جانب ... وبالدرياء مرد فهر وشيبها
بلا ثبت إلا أقاويل كاذب ... يحرب أسد الغاب كفتاً وثوبها

إلى أن قال :

إذا نحن منكم لم ننل حق إخوة ... على إخوة لم يخش غشاً جيوبها
فأية أرحام يعاذ بفضلها ... وأية أرحام يؤدى نصيبها
جمعنا نفوساً صاديات إليكم ... وأفئدة منا طويلا وجيبها
وهل يعدون بين الحبيب فراقه ... نعم داء نفس أن يبين حبيبها
ولكن صبراً عن أخ لك ضائر ... عزاء إذا ما النفس حن طروبها
وإن لم يكن إلا الأسنة مركباً ... فلا رأى للمضطر إلا ركوبها
ستذكرنا منكم نفوس وأعين ... ذوارف لم تضنن بدمع غروبها
إذا وأدتنا الأرض إن هى وأدت ... وأفرخ من بين الأمور مقوبها
وأسكت در الفحل واسترعفت به ... حراجيج لم تلقح كثافاً سلوبها

وبادرهـــا دفء الكنيف ولم يعن
على الضيف ذى الصحن المسن حلوبها

ويبدو أن الكميت قال هذه الملحمة فى عهده الأول قبل أن يقول هاشمياته ويأخذه بنو مروان بالشدة ، لأنه يهدد فى هذه الملحمة ويتوعد ويخاطب بنى مروان بشىء من الشدة ، لا يبلغ شدته فى الهاشميات ولا يناسب حاله بعد أن عفا هشام عنه لأنه عاش بعد عفوه عنه خائفا يلين ويدارى ويجتهد فى الإرضاء والبعد عما يوجب السخط كما يقول بعض الباحثين .

مسكين الدارمى

شاعر أموى شريف من سادات قومه بنى دارم ، عمر إلى أواخر العصر الأموى ، وهو شاعر مقل ، على أنه من الفحول قل أن تجد فى شعره سفسافا أو مرذولا ، وكيف يكون ذلك وهو من النابتين فى بحبوحة العروبة فى بطون بنى تميم ، وقد ألهب بنو أمية جذوة الشعر وفتحوا اللسنها باللسنها ، وأندوا أصوات الشعراء ، بما يبذلون من جزيل العطاء .

وهو ربيعة بن عامر بن أثيف بن شريح بن عمرو بن زيد بن عبد الله بن عدس بن دارم . وسمى بالمسكين لما جاء فى شعره ، وهو :

أنا مسكين لمن أنكرنى ولمن يعرفنى جـــد نطق (١)
لا أبيع الناس عرضى إننى لو أبيع الناس عرضى لنفق

فسمى مسكيناً ، وكأنه مل هذا اللقب من بعد فصار يسلى نفسه ويقول:

سميت مسكيناً وكانت لجاجة إنى لمسكين لربى راغب

ويثبت خلاف ماتتطلبه المسكنة من الخمول فيقول : إنه وإن سمى مسكيناً معروف فى الناس ذائع ، وإن الأسماء علامات ترتفع بأصحابها فيقول:

وإن أدع مسكيناً فلست بمنكر وهل تنكر الشمس ذر شعاعها (٢)
لعمرك ما الأسماء إلا علامة منار ، ومن خير المنار ارتفاعها

وكان مسكين ، ممن قضت عليهم مناحى السياسة ودواعى الاقتصاد وحب الحياة أن يكون من المتعصبين لبنى أمية ، يدافعون عن دولتها ولاسيما فى عهد معاوية . وقد كان خلفاء هذه الدولة وعلى رأسهم هذا الخليفة قد اشتروا ألسنة الشعراء فأحدثوا معنى من التكسب بالشعر ، وانتكب به ، عملا على تحقيق الأهداف السياسية كما هى عادة الملوك والأمراء والسادة والرؤساء .

---

(١) نطق كثير النطق . (٢) ذر بمعنى طلع .

وكانت ألسنة الشعراء هى العامل الأول إذ ذاك فى توطيد الملك ، فهى أسرع انتشاراً وأعمق أثراً وأطول رواية وأكثر تعميراً من الجرائد السيارة اليوم

وقد وقف مسكين هذا نفسه موقفا مشهورا فى التاريخ لولاه ما استقر الملك لآل أبى سفيان ولا انتقل من معاوية إلى ابنه بعده . لقد كان هذا الانتقال ينكره عُلية القوم حتى من أصحاب الخليفة معاوية وجلسائه وكبار رجال الدولة (١) وإن شيئا ينكره هؤلاء يقل الأمل فيه ، لذلك احتال يزيد حتى عمل مسكين قصيدة ، وأنشدها أمام الخاصة من وجوه بنى أمية فى مجلس معاوية يحتج فيها بالمقدمات الشعرية ، ويورطهم بقضاء الشعر الذى لامرد له ، وهكذا الشعر :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم

احتج مسكين بمقدماته الشعرية التى تقول : إن الخلافة لله يبوئها حيث يريد ، ثم ينتقل من هذا إلى أن المنبر إذا خلاه ربه فإن الأمير يزيد ، ويقرر ذلك بأنه على الطائر الميمون والجد صاعد ولكل أناس جدود . ويهنىء الخليفة قبل أن يكون خليفة ، ثم يدعو له بتخليد بيت الملك فوقه تشيد له أطناب وعمد . وتوقد فى كنفه النيران للقرى ، وعلى قدور كالجوابى تحتها أثاف وكود ... وسكت الناس فاطمأن معاوية ومضى .

قال أبو الفرج الأصفهانى : كان يزيد بن معاوية يؤثر مسكينا الدارمى ويصله ويقوم بحوائجه عند أبيه ، فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهيب ذلك وخاف أن لا يمالئه عليه الناس ، لحسن البقية فيهم ، وكثرة من ترشح للخلافة ، وبلغه فى ذلك ذرور كلام (٢) كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر ، فأمر يزيد مسكينا أن يقول أبياتا وينشدها معاوية فى مجلسه إذا كان حافلا بوجوه بنى أمية ... ودخل مسكين والخليفة جالس وابنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليه وأشراف الناس فى مجلسه فمثل بين يديه وأنشأ يقول :

---

(١) ١٨ : ٧١ الأغانى .

(٢) أى طرف منه .

إن أدع مسكينا فإنى ابن معشر ... من الناس أحمى عنهم وأذود
إليك أمير المؤمنين رحلتها ... تثير القطا ليلا وهن هجود
وهاجرة ظلت كأن ظباءها ... إذا ماالتقتها بالقرون سجود
ألاليت شعرى مايقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد
بنى خلفاء الله مهلا فإنما ... يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربى خلاه ربه ... فإن أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجد صاعد ... لكل أناس طائر وجـــدود
فلازلت أعلى الناس كعباولا تزل ... وفود تسامیها إليك وفود
ولازال بيت الملك فوقك عالياً ... تشيد أطناب له وعمود

وعند ذلك قال معاوية : ننظر فيما تقول يامسكين ، ونستخير الله ، ولم يتكلم أحد من بنى أمية إلا بالإقرار والموافقة، ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلا صلته . وإن جديراً بمن وهب ملكا أن يحكم فيما يريد وأن لا يغلى له شيء فى المملكة .

هذا موقف من الشعر السياسى لمسكين وضعه حيث ترى .

على أن معاوية كان قبل هذا الموقف لايحفل به ، ولا يقدره قدره ، إلا أن يكون يزيد هو الذى يشفع له ، وكأنما كان فى يزيد إحساس باطن أو اعتقاد كامن بأن مسكينا يترشح لهذا الموقف .

وتحدثوا جميعاً أن مسكينا قدم على معاوية يطلب عطاء مما كان يهب معاوية للمؤلفة قلوبهم عنده ، فأبى عليه ، وكان أول أمره لايفرض إلا لليمن ، فخرج مسكين وهو يقول : حثاً لمعاوية يطوى معنى التهديد للخليفة مع التسلية لنفسه :

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازى بغير جناح
وما طالب الحاجات إلا مغرر ... وهل نال شيئاً طالب بجناح

على أن معاوية لم يعطف عليه إلا بعد حين . ويظهر أن ذلك المعنى السياسى — مع ما كان من تهارش بين الشعراء وتنافس على الحظوة فى ميدان المجادة — كان له أثره فى التهاجى بين الشعراء . فقد بثه فى الشعر فى ذلك العهد مع نقص الوازع الدينى وإحياء ما أمات الإسلام من الجاهلية الأولى ، وكثرت المخاصمات بين الشعراء : كجرير والفرزدق ، والأخطل والبعيث ، ومسكين شاعرنا الذى منى بالتهاجى بينه وبين الفرزدق ، والفرزدق شاعر أموى كريم النفس ، لا يبالى أن لا يصيب مرضاة هؤلاء الخلفاء اعتزازاً بمجد قومه ، وبدينه ، لهذا كان يتعصب لآل البيت العلوى ، ويفخم شأنهم فى أحرج المواقف ، وأمام الخلفاء الأمويين أنفسهم ، على أنه كان من علو النفس بحيث يقول فى مجلس سليمان الخليفة وقد تنافس الشعراء فى مدح الأمير ، يقول الفرزدق مفتخراً بأبيه :

وركب كأن الريح تطلب عندهم ... لها ترة من جذبها بالعصائب
إذا أبصروا ناراً يقولون ليتها ... وقد خصرت أيديهم نار غالب

وكان مسكين غير ذلك ودون ذلك ، فوقع بينهما ما كان بين شعراء ذلك العصر ، وكان بينهما شعر يجمع بين الهجاء والفخر شأن ذلك النوع من الشعر ، وكانت نهاية ذلك يوم مات زياد بن أبيه وكان محسناً إلى مسكين ومسيئاً إلى الفرزدق ، إلى حد أنه مازال هارباً يتنقل بين مكة والمدينة حتى مات زياد فقرت بلابله ، وكان سبب ذلك أن الفرزدق هجا بنى فقيم فأرفث فيهم ، فاستعدوا عليه زياداً وهو على العراق ، فلما مات زياد رثاه الفرزدق معرضا بشاعرنا بقوله :

أمسكين أبكى الله عينك إنما ... جرى فى ضلال دمعها فتحدرا
بكيت على علج بميسان كافر ... ككسرى على عداته أو كقيصرا
أقول له لما أتانى نعيه ... به لا بظبى بالصريمة أعفرا

ورد عليه مسكين بقوله :

ألا أيها المرء الذى لست قاعدا ... ولا قائما فى القوم إلا انبرى ليا
فجئنى بعم مثل عمى أو أب ... كمثل أبى أو خال صدق كخاليا
كعمرو بن عمرو أو زرارة فى الندى ... أو البسر من كل فرعت الروابيا

ولمسكين أغراض أخرى كالحكم والفخر والشباب والشيب ، وهذه بعض أبيات له فى الحكم :

ولست إذا ماسرنى الدهر ضاحكا ... ولا خاشعا ماعشت من حادث الدهر
ولا جاعلا عرضى لمالى وقاية ... ولكن أقى عرضى فيحرزه وفرى
أعف لدى عسرى وأبدى تجملا ... ولا خير فيمن لا يعف لدى العسر
وأنى لأستحيي إذا كنت معسرا ... صديقى وإخوانى بأن يعلموا فقرى
وأقطع إخوانى وما حال عهدهم ... حياء وإعراضا وما بى من كبر
ومن يفتقر يعلم مكان صديقه ... ومن يحى لا يعدم بلاء من الدهر

رابعاً ـ النثر الأموى[1]

— ١ —

النثر الأدبى أو الفنى هو الكلام الذى يصور العقل والشعور ، ولا يتقيد بوزن أو قافية .

ويرى الباحثون من الأدباء المحدثين ، ومن بينهم الدكتور طه حسين ، أن القرن الأول الهجرى لم يكن فيه نثر فنى يعتد به ، إنما كان الشأن للشعر ، وقد احتذى الدكتور فى ذلك حذو الأستاذ مرسيه الفرنسى ، وهو أول من ذهب إلى ذلك ، وإلى أن النثر الفنى فى الأدب العربى يبتدىء بابن المقفع ، وابن المقفع فى نظر هؤلاء أول ممثل للتطورات الجديدة فى الإنشاء العربى ، وهو أول مؤلف للإنشاء الأدبى فى اللغة العربية ، وقد آمن الدكتور طه حسين بهذا الرأى وبأن الشعر أسبق من النثر الفنى فى آداب اللغة العربية ، وأذاع ذلك فى كثير من مؤلفاته ، وقد ثار بعض الباحثين فى وجه هذه النظرية وهاجموها .

وهذه النظرية ـ وهى أن الشعر سبق النثر الفنى فى الوجـــود ـ نجد أصولها عند أرسطو فى كتابه « الشعر » فهو يقول فيه :

« والأقدم من الأشعار الأقصر والأولون كانوا يقرون الاعتقاد فى النفوس بالتخييل الشعرى ، ثم نبغت الخطابة بعد ذلك ، وهى نوع من أنواع النثر ، وقد عمم بعض المحدثين من المستشرقين ذلك الحكم ، فذهبوا إلى أن الشعر أسبق من النثر الفنى وجودا ، على أن بعض المستشرقين من علماء الألمان كجولد زيهر وبروكلمان يؤكدون بأن السجع كان المرحلة التى عبرها النثر إلى الشعر عند العرب .

---

(١) مجلة الديار اللبنانية عدد ٣١ آذار ١٩٥٩ م .

ونحن لا نميل إلى هذا الرأى الجديد ولا نؤيده ، فالقرآن أثر من آثار النثر الفنى ، وكذلك الكتب الدينية والأدبية القديمة التى يشير إليها القرآن الكريم ، وكثير من الأمم القديمة كان لها نثر فنى قبل الميلاد بكثير : فلليونانيين آثار كبيرة فى الخطابة من قبل الميلاد بقرون عديدة ، وللرومانيين آثار فيها قبل الميلاد وبعده ، فلماذا لا يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون ؟ مع أن لعبد الحميد الكاتب آثارا كبيرة فى النثر الفنى وهو قبل ابن المقفع على أى حال ، والقدماء من النقاد يؤيدون سبق النثر للشعر ، فابن رشيق يقول : وكان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها ، وصنعوا أعاريض جعلوها موازين للكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا ... وكذلك صنع كثير من الباحثين كالزهاوى وسواه .

وإذاً فالنثر الفنى فى الأدب العربى وجد قبل القرآن بقليل وصاحب نزول القرآن وتأثر به تأثراً عظيما ، ثم اتصل المسلمون بالفرس بعد الفتح الإسلامى ، واحتذوهم فى ألوان من أدبهم احتذاء ظهر أثره فى النثر الفنى منذ آخر القرن الأول الهجرى على أيدى بعض الكتاب .

كان كثير من الكتاب والموالى يعرف اللغة الفارسية(١) ، وبعضهم كان يعرف الرومية أو اليونانية أو السريانية مما كان له أثر فى النثر .

فزيد بن ثابت تعلم كما يقال الفارسية من رسول كسرى والرومية من صاحب النبى ، والحبشية من خادم النبى ، والقبطية من خادمه ، وتعلم السريانية بأمر الرسول الكريم ، وأمره الرسول بتعلم كتابة اليهود كما يقول أحمد أمين(٢) ، وأبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وأستاذ عبد الحميد الكاتب ، وأحد الواضعين لنظام الرسائل نقل رسائل أرسطو إلى الاسكندر إلى العربية مما يدل على معرفته للغة غير اللغة العربية ، وله رسائل فى مائة ورقة

---

(١) ١ : ٢٩٥ البيان والتبيين للجاحظ . (٢) ١٧١ فجر الإسلام .

كما يقول ابن النديم فى الفهرست (١) ، وكان جبلة بن سالم كاتب هشام أحد النقلة من الفارسى إلى العربى ، وكذلك كان عبد الحميد الكاتب يعرف الفارسية ، وقد استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى اللسان العربى ، وهو أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية ، وكذلك كان ابن المقفع وهو من سلالة فارسية عريقة ، ومن ذلك يظهر بوضوح أثر الثقافات والأدب الفارسى على الخصوص فى تطور الكتابة والنثر الفنى فى أدب لغتنا العربية ؛ ويقول الجاحظ عن غيلان الدمشقى الذى قتله هشام بن عبد الملك : إن له رسائل بليغة(٢) . والظاهر أن غيلان كان يعرف الرومية .

وعبد الحميد الكاتب هو الذى سهل سبيل البلاغة فى الترسل ، وعنه أخذ المترسلون ، وهو أحد كتاب القرن الثانى الذين فهموا الفصول كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين ، وهو أول من فتق أكمام البلاغة ، وسهل طرقها وفك رقاب الشعر ، وآلت إليه زعامة الكتابة فمهد سبلها ووضع معالمها ، ورسم لها رسوما خاصة فى بدئها وختامها والإطناب فيها مرة والإيجاز أخرى . فكان بذلك شيخ الكتاب ، وبحق لقد قيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد .

ثم ازداد أثر الفارسية فى النثر الأدبى ؛ فنقل الفرس إلى العربية القصص الغرامى كما نقلوا الغزل بالمذكر إلى الشعر العربى .

وظهر ابن المقفع (المتوفى عام ١٤٣هـ) وأحدث أثره فى النثر الأدبى ، وفى تطوره ، وكان ابن المقفع من عنصر فارسى ، وهو أحد النقلة من الفارسية إلى العربية .

---

(١) ص ١١٧ الفهرست لابن النديم .
(٢) ١ : ٢٩٥ البيان والتبيين .

وابن المقفع هو إمام المنشئين فى آخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى ، وكان إمام الطبقة الأولى من الكتاب فى العصر العباسى ، وهى الطبقة التى أدركت الدولتين ، ومن شخصياتها : يحيى بن زياد الحائى وعمارة ابن حمزة وأبو أيوب وزير المنصور وكاتبه ، وقد آخى ابن المقفع فى طريقته بين التفكير الفارسى والبلاغة العربية ، وكان مقدما فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السير . فأدبه وإن كان عربى اللفظ والأسلوب فهو أعجمى الفكر والتأليف ، فقد استخلص من الأسلوب الفارسى والعربى طريقة عرفت به وأخذت عنه ، وتظهر مزيته فى ترتيب أفكاره وحسن تقسيمها ، من حيث يغلب على أسلوب عبد الحميد الصبغة العربية ، كما تشيع فيه الحكمة التى يروضها بعذوبة ألفاظه وسلامة أسلوبه ، وحقا لقد كان أمة فى البلاغة ورصانة القول وشرف المعانى مع وضوح الغرض وسمو الأسلوب ، وهو أكثر كتاب عصره تأنقا فى صوغ الجملة فكان يقوم فى النثر بما كان يقوم به زهير فى الشعر ، وهو أحد الكتاب الذين لم يلتزموا السجع فكان فى كلامهم قليلا ، ولكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ فى الفصول والمقاطع إلا فى مواضع يسيرة ، وقد اهتموا ببسط المعانى وتأكيدها وتركوا مذهب الإيجاز الذى كان شائعا فى القرن الأول إلى الإطناب وتنويع العبارة ، وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات وتوخى الافهام .. وابن المقفع أول من أفسح مكان الأدب العربى بالترجمة ، فهو الذى ترجم كليلة ودمنة مما ينم على جهد بذله المترجم فى تحرير الخصائص الهندية الصميمة التى للكتاب الأصلى ، بنشاشترا ، ليجعله ملائما للذوق العربى ، وأضاف إليه فصولا جديدة فى مواضع مختلفة .

— ٢ —

ولقد تهيأ للنثر الأدبى فى هذا العصر من العوامل والمؤثرات ، مانهض به ، ورفعه إلى الازدهار والقوة :

١ — فقد استقر العرب بعد اضطراب ، واجتمعوا بعد تفرق ، وتحضروا بعد بداوة ، واجتمع لهم من سلطان الملك ، وسمات الحضارة . وثقافة الفكر وتنظيم الحياة ، ماجعلهم يشعرون بحاجتهم إلى كلام مهذب ، وأسلوب رشيق وفكرة مرتبة ، ومعنى تمتلك به النفوس ، وتجتذب الأفئدة .

٢ — ومن الأسباب التى جعلت نثر هذا العهد قوى العبارة جزل الأسلوب ، شديد الأسر ، ضخم المظهر ، لاتخونه روعة الأداء ، ولا تتخلف عنه نضارة البلاغة ، أن دولة بنى أمية قامت بحد السنان ، وقوة البيان ، وكما كان السيف من أسلحتهم فى توطيد الملك ، واستلاب الحكم ، والاستيلاء على شئون المسلمين ، كان البيان القوى يحاول أن يخادع الناس ، وأن ينتزع من صدروهم مايؤمنون به ، من أحقية آل البيت ، وأن يجتذبهم إلى سياسة الأمويين ، ويخضعهم بالقول المعسول واللفظ الخلاب لسلطانهم المستحدث . وهذا أفاد النثر تهذيباً وصقلا ، وعاد عليه بكثير من الجودة وحسن البهاء ، وصفاء الرونق .

٣ — وكذلك استفاد القوم من بلاغة القرآن ، وروعة بيانه ، وسمو أسلوبه ، ومن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تهذيب منطقهم ، وتطور أساليبهم ، أكثر مما استفاد أسلافهم . ذلك أن هؤلاء الأسلاف شغلوا بالغزو والجهاد ومدافعة الأحداث الملمة ، ومقارعة الخطوب المدلهمة ، عن حفظ القرآن وترديده واستظهار الأحاديث النبوية وترتيلها . فلم يكن أحد منهم يجد من فراغ وقته واتساع الفرصة أمامه ، مايمكنه من حفظ

القرآن ، بل كان قصارى مايستطيع أن يحفظه آيات يؤدى بها صلاته ، ويقيم بها عبادته حتى كان أنس بن مالك يقول: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فى أعيننا » ؛ وإذا صح ماروى من أن ابن عمر مكث ثمانى سنوات يحفظ البقرة ، فلا يمكننا أن نرد ذلك إلا إلى الأحداث المطيفة ، والشواغل الصارفة ، من تمكين للدين ، ونشر للوائه ، ومجاهدة لأعدائه .

أما هؤلاء الأمويون فقد قلت لديهم الصوارف ولم تعد تشغلهم الحروب فانصرفوا بكل مافيهم من رغبة مستعرة ، وميول مشبوبة منهومة ، إلى كتاب الله يستظهرون آياته ، ويفهمون حكمه وعظاته ، وينصتون إلى مافيه من سحر البلاغة وروعة البيان ، وسمو التعبير ، وجمال التصوير ، وماذا يمنعهم من ذلك ، وقد يسر لهم ذكره ، وهيئت لهم أسباب الحصول عليه ، ثم رأوا أعلام الصحابة يتصدون لتعليم المسلمين ، وشرح ماغاب عنهم من معانى الكتاب ، والإفاضة فى بيان مايحمله إليهم من كريم الآداب ، وجميل العظات ، فابن عباس (٦٨ هـ) يجلس لذلك بمكة ، تضرب إليه أكباد الإبل ، وتقطع له الصحارى والفيافى . وزيد بن ثابت (٤٥ هـ) بالمدينة يشرح للناس حديث الوحى ، ويبصرهم بأحكامه ، وينير لهم من سبل الهداية ما يرغبهم فى العلم ، ويدعوهم إلى التفقه فى الدين ، والانتهال من مناهل الشريعة . وهكذا .

وأخذ الناس يعنون عناية خاصة بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى من البلاغة فى الذروة والسنام . فجعلوا يتلقفونها ، ويصغون معجبين إلى لحن القول ينساب فى كلماتها ، وإلى إشراق البيان ونصاعته وسماحته ، ينضر مبانيها .

رددوا هذه الأحاديث ، واستدلوا بها فى كل مايعرض لهم من شأن ، أو يقع لهم من مشكلات ، وبدأوا يدونونها ، ويجمعون ماتفرق منها فى صدور الرواة ورؤوس الثقات ، حتى تم لهم جمعه فى عهد عمر بن عبد العزيز...

ومن هنا طبع نثرهم بطابع القوة التى شاموا بروقها ، واستنشقوا عبيرها ، من كلام رب العالمين ، وآثار أفصح المرسلين .

٤ — وكذلك استجد للأمة من مظاهر الملك ، وانفسح لديها من آفاق الحياة ، وتهيأ لها من عوامل النمو والتطور ، ما يدعو إلى تهذيب اللغة ورقى الأساليب .

وإذا كانت بعض هذه المظاهر مما يمكن أن يشغل الناس عن دينهم ويصرفهم بعض الشىء عما كانوا فيه من توغل فى العبادة . فقد وجد الخلفاء والولاة أنه لا بد من تذكيرهم بخالقهم ، وتهييجهم إلى الطاعة ، وإثارة مشاعر الخوف والتقوى التى قد تنميها زخارف الدنيا ، ويغطى عليها ماتزاحم لديهم من مفاتن الحياة ؛ ولهذا رتب معاوية الوعاظ فى المساجد ، يذكرون الناس حين تنتابهم غفوة ، ويدعونهم إلى الصراط المستقيم حين تميل بهم هفوة . ويقصون عليهم على نظام الكتاب الكريم ما حل بغيرهم من الأمم حين جانبوا الحق ، وتنكبوا الهداية . وكان من أشهر هؤلاء الوعاظ الحسن البصرى ومحمد بن سيرين .

وكان هؤلاء يعمدون إلى الإفاضة فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تبصر الناس بما يسعدهم فى دنياهم وينجيهم فى أخراهم . ولا ينكر أحد ماهذا من أثر بالغ فى تهذيب اللفظ وروعة المعنى ، ودقة الفكرة ، وقوتها فإن العظة دائماً لاتقع من النفس موقعاً مقبولا ، ولا تأخذ مكانها من القلب فى يسر وسماحة ، إلا حين تلبس ثوباً براقا من اللفظ الجميل والأسلوب الموثق والفكر المرتب .

٥ — وقد رأى خلفاء بنى أمية أن الناس قد يداخلهم الحنق على هذا السلطان الذى اغتصبوه ، ويتردد فى نفوسهم النزد من أجل هذا الملك الذى سلبوه ، فأرادوا أن يصرفوهم عن مثل هذه الأفكار برواية ماترك العرب من شعر ونثر ، بعد أن كادت الحروب والغزوات والانصراف إلى

الدين الجديد تقطع مابينهم وبين ذلك من الصلات . وقد بالغوا فى الالتفات إلى هذه الناحية يستخرجون كنوزها . ويظهرون نفائسها . ويحيون ماكاد يندرس من أعلامها ، وأخذوا يشجعون الرواة ، ويغدقون عليهم سنى الجوائز ، وعظيم الهبات ، ويوسعون لهم فى مجالسهم ويؤثرونهم بعطفهم ، والناس يستمعون إلى هذه الأشعار فتستولى على نفوسهم بلاغتها ، ويأخذ بألبابهم رونقها ، وينطبع فى أذهانهم ما تتميز به من الجزالة وشدة الأسر ، وضخامة اللفظ ، وهذا سر ما نلمحه فى أدب هذا العصر من قوة وفحولة ومن أصالة الملكة ، واقتدار بالغ على الأداء والتصوير .

٦ — ومن البين أنه لابد أن يكون لاختلاط العرب بغيرهم وامتزاج الثقافات واتصال المعارف أثر قوى فى تهذيب ألفاظهم ، وترتيب أفكارهم ، وصقل مداركهم .

ومن هنا رأينا نثرا لا يعتمد على الفكرة الطارئة ، ولا اللمحة العارضة ، ولا الخاطر العابر ، إنما يعتمد على تسلسل الأفكار وقوة الحجة واتزان المنطـــق .

وهذه العوامل جعلت النثر الأدبى رائع الأسلوب ، قوى النسج محكم الأداء والتصوير . .

وهكذا ، وفى عصر بنى أمية ، بدأ النثر الفنى يسير إلى نهضته الأدبية الرائعة ، وظهر أثر الثقافة الأدبية فيه ظهورا واضحاً ، وكانت هذه الثقافة متنوعة تشمل :

١ — القرآن الكريم الذى أثر فى ملكات العرب وهذب من ألسنتهم ، ورقق من مشاعرهم وطباعهم ، فى عصر صدر الإسلام . ثم زاد هذا التأثير فى العصر الأموى : بحفظ العرب له ، وقراءتهم إياه ، بعد أن انتشرت مصاحف عثمان فى الأمصار ، وبطول الفترة التى قضوها فى الإفادة من بلاغة القرآن ، بعد أن استراحوا من الفتوحات وهداية الشعوب إلى الإسلام .

٢ — حديث رسول الله ، وكان المسلمون يحفظون منه الكثير ، ثم دون ووزع على الأمصار فى عهد عمر بن عبد العزيز ، فاتسعت إفادة الناس منه ، وتأثرهم ببلاغته .

٣ — مجالس القصص والوعظ ، التى كانت ثقافة أدبية عامة ، وقد كان يتحدث فيها للناس كل بليغ وخطيب وأديب يسحر القوم بلاغة وبيانا .

٤ — الأدب والشعر الجاهلى ، الذى اجتهد بنو أمية فى إحيائه وتشجيع روايته وتدوينه ، وتقريب رواته إليهم . . وقد أكسب إحياؤه النثر الفنى قوة وجزالة وروعة وبلاغة .

٥ — أدب البلغاء والفصحاء منذ ظهور الإسلام ، وهو كثير جدا ؛ وكان له أثره فى تقويم الألسنة ، وتهذيب الملكات ، وكانت خطب الوفود التى تفد على قصور الخلفاء والأمراء دروسا كبيرة فى البلاغة والبيان ، ويروى أن شباب الكتاب كانوا إذا حضر وفد لهشام حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم [1] كما كانت مجالس المؤدبين والرواة والشعراء والنقاد حافلة بالكثير من مظاهر النشاط الأدبى ، مما كان له أثره الجليل فى تقويم الأذواق وإرهاف المشاعر ، وتهذيب الملكات .

٦ — وقد أفاد العرب من اختلاطهم بالموالى والعناصر الأجنبية ، فسمعوا عن ثقافات الأمم القديمة ، ورويت لهم ، وتحدثوا بها فى مجالس سمرهم ، مما أكسب العقول عمقا وفهما ومعرفة وثقافة . وظهر أثر ذلك فى تقدم العلوم ونهضة الفنون والآداب ، وكان للأسرى المسلمين فى بلاد الروم أثر كبير فى ذلك .

---

(١) ١٧٩ / ٣ العقد الفريد .

— ٣ —

خصائص أسلوب النثر الأموى :

ويمكننا أن نقول إن من أهم هذه الخصائص :

١ — إثارة خيال السامع باستخدام المجازات القوية .

٢ — الإكثار من الألفاظ القوية البالغة التأثير .

٣ — دقة التعبير وصفاؤه وخلوصه من شوب اللكنة والعجمة واللحن إلا قليلا .

٤ — ترك التزام السجع لما فى ذلك من التكلف المكروه ويروى أن معاوية أملى كتابا إلى رجل فقال فيه : لهو أهون على من ذرة أو كلب من كلاب الحرة ، ثم قال : امح « من كلاب الحرة » واكتب « من الكلاب » كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما اشبه السجع (١) ؛ وكانوا يقسمون الكلام إلى فصول وفقر صغيرة يجمعها غالبا الازدواج والتقارب فى الوزن.

٥ — الاهتداء بأساليب القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، والاتذاؤها فى القوة والبلاغة والبيان .

— ٤ —

وقصارى القول مايلى :

١ — أن العوامل التى أدت إلى ازدهار النثر الفنى كثيرة منها :

أولا : نضوج الثقافة العربية الإسلامية من علوم الدين واللغة والأدب، وإقبال الكتاب عليها وتمثلهم لها . واحتذاؤهم حذوها .

ثانيا : رواية أصول الأدب العربى شعرا ونثرا ، خطابة ووصايا وحكما وسجعا وقصصا وأخبارا وأنسابا . والعكوف على استظهار ذلك ومحاكاته ؛ وقد شمل ذلك شعر العرب القدامى والإسلاميين وخطب

(١) رسائل الجاحظ .

الرسول ووصاياه ، وخطب الخلفاء والصحابة ، وبلاغات البلغاء وحكمهم ومأثور كلامهم ، حتى هـــذا العصر ، وبخاصة خطب الإمام على بن أبى طالب وحكمه .

ثالثا : أثر القرآن الكريم والحديث النبوى فى تهذيب الألسنة وترقيق الطباع ، وإنضاج الملكات .

رابعا : اتصال العقل العربى بالثقافات الأجنبية وتأثره بآداب الفرس واليونان والرومان والهند وغيرهم .

٢ — أما أثر الثقافة الفارسية فى النثر الفنى : فقد كانت هذه الثقافة تتجمع فى البصرة ، وتجد فى حلقاتها متسعا للدراسة ، ومجالا للفهم والاستزادة والترجمة ، فظهر بشار والشعراء الذين هم أصل من فارسى ، كما ظهر ابن المقفع وغيره من الكتاب الذين يرجعون إلى أصول فارسية ، وقد تمثلت الثقافة الفارسية وتأثيرها فى النثر الفنى فى عبد الله بن المقفع بترجمته لأصول الآداب الفارسية إلى اللسان العربى من أمثال كليلة ودمنة والتاج والأدب الصغير والكبير وخداينامه وغيرها . . فقد غذت هذه الترجمات النثر الفنى بكثير من الموضوعات الجديدة والأغراض الجليلة والحكم والمعارف المفيدة .

٣ — وأما أثر الثقافة اليونانية الرومانية : فقد تمثل هذا الأثر فى اتصال الكتاب فى الشام بهذه الثقافة واستفادتهم منها وترجمتهم لها ، وأخذهم منها كل مفيد فى تلقيح النثر الفنى وإخصابه .

والممثل لهذه الثقافة هو عبد الحميد الكاتب كما يرى الدكتور طه حسين الذى ذهب إلى أن ثقافة عبد الحميد كانت يونانية ، وأنه تأثر بثقافة اليونان ونقل بعضا منها ، وأخذ عنها ، وأكسبه ذلك منزلة عالية فى النثر الفنى العربى (١) .

---

(١) راجع : الفن ومذاهبه فى النثر لشوقى ضيف : ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ، ورسائل البلغاء جمع محمد كرد على ، والنثر الفنى لزكى مبارك ، ومجلة الأدب والفن من مقال فى النثر وتطوره للمستشرق جب .

ا ــ الخطابة فى العصر الأموى

— ١ —

الخطابة (١) فن من فنون النثر ، ولون من ألوانه ، وهى فن مخاطبة الجمهور الذى يعتمد على الإقناع والاستمالة والتأثير .. فهى كلام بليغ ، يلقى فى جمع من الناس ، لإقناعهم برأى ، أو استمالتهم إلى مبدأ ، أو توجيههم إلى مافيه الخير لهم .

والخطابة ضرورية لكل مجتمع ، فى سلمه وحربه ، فهى أداة الدعوة إلى الرأى ، والتوجيه إلى الخير ، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين ، والزعماء والمصلحين . فهى ضرورة من ضرورات الحيـــاة الاجتماعية والدينية والسياسية .

وإنما تقوى الخطابة وتنهض فى عصور الحرية ، وفى ظلال الديمقراطية حيث يستطيع الناس أن يعبروا عن آمالهم وآلامهم ومشاعرهم وأفكارهم ، فى ظلال الحرية تتقارع الآراء ، وتتصارع الأفكار ، وتتنازع المبادىء وتتنافس المذاهب ، وتتعدد الخصومات ، وفى ذلك كله غذاء للخطابة ، ومدد لها ، وداع إليها .

والخطابة قديمة قدم حياة الجماعات ، وجدت فى الأمم القديمة كقدماء المصريين واليونان والرومان ، وازدهرت فى بعض العصور ، التى كان يشمل الناس فيها جناح من الحرية ، كاليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ومابعده ،

---

(١) يقول مؤلف نقد النثر : الخطابة مأخوذة من خطبت .. واشتق من ذلك الخطب وهو الأمر الجليل ، لأنه إنما يقام بالخطب فى الأمور التى تجل وتعظم ، والخطبة الواحدة من المصدر (الخطابة) والخطبة (بكسر الخاء) : اسم المخطوب به (٩٤ و ٩٥ نقد النثر) .

حيث نشأ . « بيركليس » ثم « ديمستين » ، وكالعرب فى العصر الجاهلى وعصر صدر الإسلام والعصر الأموى .

والخطب إما سياسية أو قضائية أو دينية أو اجتماعية تلقى فى المحافل العامة .

— ٢ —

ويمتاز الأسلوب الخطابى بشدة الإقناع وروعة التأثير ، وقصر الجمل ، والازدواج أو السجع بينها ، ومراعاة المقام وحال السامعين . كما يمتاز بجمال الأسلوب، وجودة المعانى وتخيرها، ويقول قدامة فى نقد النثر : « يجب أن يكون الخطيب عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له .. فقد قيل: لكل مقام مقال »(١) .. « وأن يكون فى جميع ألفاظه ومعانيه جاريا على سجيته، غير مستكره لطبيعته ، فإن التكلف إذا ظهر فى الكلام هجنه وقبح موقعه »(٢) .

ويقول قدامة بن جعفر كذلك فى كتابه « نقد النثر » : من أوصاف الخطابة: أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد ، وتوشح بالقرآن وبالسائر من الأمثال ، فإن ذلك مما يزين الخطب عند مستمعيها ، وتعظم به الفائدة فيها ، ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله فى أولها : « البتراء » ، وكل خطبة لا توشح بالقرآن والأمثال : « الشوهاء » ، ولا يتمثل الخطيب فى الخطب الطوال التى يقام بها فى المحافل بشىء من الشعر ، فإن أحب أن يستعمل ذلك فى الخطب القصار ، والمواعظ والرسائل فليفعل ، إلا أن تكون الرسالة إلى خليفة ، فإن محله يرتفع عن التمثيل بالشعر فى كتابه إليه ، ولا بأس بذلك فى غيرها من الرسائل .

وأن يكون الخطيب أو المترسل عارفا بمواقع القول ، وأوقاته، واحتمال

---

(١) ص ٩٦ نقد النثر طبعة ١٩٣٩ (٢) ١٠٥ المرجع .

المخاطبين له ، فلا يستعمل الإيجاز فى موضع الإطالة ، فيقصر عن بلوغ الإرادة ، ولايستعمل الإطالة فى موضع الإيجاز ، فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة ، ولايستعمل ألفـــاظ الخاصة فى مخاطبة العامة ، ولا كلام الملوك مع السوقة ، بل يعطى كل قوم من القول بمقدارهم ، ويزنهم بوزنهم ، فقد قيل : « لكل مقام مقال » .

وإذا رأى من القوم إقبالا عليه ، وإنصاتا لقوله ، فأحبوا أن يزيدهم ، زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم . وإذا تبين منهم إعراضا عنه ، وتثاقلا عن سماع قوله ، خفف عنهم . فقد قيل : « من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مئونة الاستماع منك » . وليس يكون الخطيب موصوفاً بالبلاغة إلا بوضع هذه الأشياء مواضعها ، وأن يكون على الإيجاز إذا شرع فيه قادراً ، وبالإطالة إذا احتاج إليه ماهراً . وقد وصف بعضهم البلاغة بما قلناه فقال — وقد سئل عنهـا — : « هى الاكتفاء فى مقامات الإيجاز بالإشارة ، والاقتدار فى مواطن الاطالة على الغزارة » ، وقال الشاعر فى هذا المعنى :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء

وقال جعفر بن يحيى : « إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً ، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار هذرا » ، فبين مايحمد من الإيجاز ، ومايحتاج إليه من الإكثار .

فأما الموضع الذى ينبغى أن يستعمل كل واحد منهما فيه : فإن الإيجاز ينبغى أن يستعمل فى مخاطبة الخاصة وذوى الأفهام الثاقبة ، الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره ، وبجمله عن تفسيره ، وفى المواعظ والسنن والوصايا التى يراد حفظها ونقلها ، ولذلك لاترى فى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم والأئمة شيئاً يطول ، وإنما يأتى على غاية الاقتصار

والاختصار . وفى الجوامع التى تعرض على الرؤساء ، فيقفون على معانيها ولايشغلون بالإكثار فيها . وأما الإطالة : فنى مخاطبة العوام ، ومن ليس من ذوى الأفهام ، ومن لايكتفى من القول بيسيره . ولاينفتق ذهنه إلا بتكريره وإيضاح تفسيره ، ولهـــذا استعمل الله عزوجل فى مواضع من كتابه تكرير القصص . وتصريف القول ، ليفهم من بعد فهمه ، ويعلم من قصر علمه . واستعمل فى مواضع أخرى الإيجاز والاختصار لذوى العقول والأبصار .

— ٣ —

ولقد رفع القرآن من منزلة النثر ، فاحتلت الخطابة المنزلة التى كانت للشعر من قبل ، لأن العقيدة الجديدة ـ وهى ماهى ـ تستلزم الخطابة وتستدعيها ، فضلاعن كثرة التنازع السياسى والدينى بعد عصر عمر . فكان عصر صدر الإسلام من أعظم العصور الأدبية أثراً فى الخطابة إذ استكملت عناصرها الفنية والأدبية ، وظهر الكثير من أعلام الخطباء ، وإمامهم الرسول الأعظم محمد صلوات الله عليه ، وكان ازدهارها نتيجة لمؤثرات كثيرة منها :

١ — الدعوة الإسلامية العظمى والخصومة بين أنصارها ومعارضيها استدعت رقى الخطابة .

٢ — رفع الإسلام من شأن العقل ، وخفض من غلواء العاطفة .

٣ — الرقى السياسى والاجتماعى ، إذ أصبحت العرب أمة واحدة ، لها رئيس أعلى ، ونظمت شئونها الاجتماعية تنظيما استدعى الخطابة ، سواء كان من الخليفة أو قواده أو عماله ، أم من أفراد الأمة وخطبائها ، أم فى مجالس القضاء والشورى والفصل فى الأمور .

٤ — سلامة الملكات وقوة الطباع وعذوبة الألسنة ، والقدرة على

الارتجال ، وذيوع آثار بلاغة القرآن والحديث فى النفوس والعقول والأذواق (١) .

٥ — كثرة الخلافات حول الخلافة بعد موت الرسول وبعد مقتل عمر ، وما يستلزمه ذلك من كثرة فن الخطابة والحجاج بين الآراء والأفكار والأحزاب السياسية .

٦ — كثرة الحاجة إليها فى شئون الدين والاجتماع والسياسة إلى غير ذلك من أسباب رقى الخطابة ونهضتها وقوتها فى هذا العصر الكريم .

— ٤ —

أما فى العصر الأموى فقد كانت كل الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية تساعد إلى حد بعيد على ازدهار الخطابة ورقيها فى عصر بنى أمية :

١ — فالثورات السياسية ، وكثرة الحروب والفتوحات ، واشتداد الخلاف بين الأحزاب التى نشأت وكثرت فى هذا العهد من شيعة وأمويين وخوارج وزبيريين وروافض وسواهم ، والتنازع بين العقائد والمبادىء ، كل ذلك عمل عمله فى نهضة الخطابة وسموها .

٢ — وقربهم من العصر الجاهلى أمدهم بسلامة الملكات ، وبلاغة القول ، كما أمدهم الإسلام والقرآن الكريم بصحافة الرأى ، وسلامة الفكرة وحسن البيان مما كان له أثره فى الخطابة الأموية .

---

(١) وإذا كان قد ورد عن بعض الرجال فى هذا العصر آثار قليلة جدا من العى والعجز فهذا نادر ضئيل جدا . كما ورد فى الكامل أن يزيد بن أبى سفيان ولاه أبو بكر ولاية فى الشام فصعد على المنبر فتكلم فارتج عليه ، فقطع الخطبة . وقال : سيجعل الله بعد عسر يسرا ، وبعد عى بيانا ، وأنتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أمير قوال ، فكان ذلك منه بلاغة مابعدها بلاغة اعتذار ، مما أشاد به عمرو بن العاص حين سمع هذه الكلمات .

٣ — والحرية التى كان يعتقد العربى أنها جزء من فطرته ونفسه ، كانت تدفعه إلى القول ، دون خوف من خليفة . أو حذر من ذى سلطان ... إلى قوة العقيدة وشدة الحاجة إلى الخطابة .

وكانت موضوعات الخطابة فى هـذا العصر كثيرة متعددة ، تزيد بما استجد فى شئون الدين والسياسة والاجتماع .

فاستعملت فى الدعاية السياسية عند الفرق والأحزاب (١) ، وفى الجدل الدينى عند الخوارج والشيعة وسواهما ، وفى الوفادة على الخلفاء وولاتهم ، وفى المناقضات والمفـاخرات والمحاورات التى كانت تدور بين العصبيات المختلفة فى السياسة والاجتماع والآداب . كما كان الخلفاء والولاة والأمراء يستعملونها أداة للوعيد والإنذار والتهديد . وكثر اصطناعها فوق ذلك فى أغراض الجاهلية وصدر الإسلام من تحريض على قتال ، أو وصية بمعروف ، أو توضيح حكم دينى ، أو تهنئة بفوز . .

ولقد كان الأمويون يعلمون الفتيان الناشئين الخطابة ، ويدربونهم عليها واستمر ذلك مذهبا للعباسيين أيضاً ، حكى الجاحظ فى « البيان والتبيين » ، قال : مر بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ) على ابراهيم بن جبلة ، وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف عليه وكأنه لم يعجبه كلام إبراهيم ، فدفع إلى الفتيان صحيفة من تحبيره وتنميقه ، فإذا فيها من كلام كثير :

ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ، فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين الخ .

---

(١) راجع كلام الجاحظ عن خطباء الخوارج ٢١٤ - ٢١٦ : ٣ البيان والتبيين ط الخانجى ، وحديثه عن خطباء البيت الأموى (١ : ٤٥ - ٤٨ و ٩٨ - ١٠٤) البيان والتبيين ط الخانجى .

مما يدلك على أن شأن الخطابة عظم فى هذا العصر حتى رأوا الحاجة ماسة إلى تعلمها ، بل كان شباب الكتاب إذا قدم وفد على دمشق حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم لشيوع حب الخطابة فيهم (١) .

ولقد ظهر فى خطابة هذا العصر تلك العوامل التى كانت تتنازع الأمة ، فإن دولة بنى أمية لم تقم على الدين لعلمهم أن مظهره لا يقبل منهم ، وفى الأمة أمثال الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وغيرهم من كبار الصحابة ، لذلك جعل الأمويون معولهم على السياسة ، فبان ذلك فى خطابتهم ، فلم يحفلوا فيها باقتباس آيات القرآن كما كان يفعل السلف الصالح ، حتى لقد غلا بعضهم ، فترك حمد الله فى أولها كما فعل زيادة فى خطبته البتراء . وقد كان أشهى إليه أن يتمثل ببيت شعر من أن يحلى خطبته بشىء من كلام الله .

على حين نرى النزعة الدينية عند مثل مصعب بن الزبير تحمله على أن يجعل بعض خطبه كلها من القرآن الكريم كما خطب ، فلم يزد على قوله : بسم الله الرحمن الرحيم . طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين (وأشار بيده نحو الشام) ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (وأشار بيده نحو الحجاز) ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (وأشار بيده نحو العراق) .

وهكذا تبدو فى خطابتهم النزعة السياسية ، ويغلب عليها التحرر من الرسوم الدينية ، فيكثر فيها الاستشهاد بالشعر ، ويقل الاقتباس من القرآن الكريم ، وربما غلا بعضهم ، فترك الحمد فى أول الخطبة ، كما صنع زياد

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٦٧

فى خطبته البتراء ، وهـذا النوع من الخطب السياسية كان يغلب عليـه ضخامة اللفظ ، وقوة الأسر ، والعنف فى الخطاب ، والمبالغة فى الوعيد والتهديد والإسراف فى السب والشتم ، حتى لقد استن معاوية سنة سيئة ، هى سب (على) على المنابر فى خطب الجمعة ، وظلت تلك السنة مرعية ، حتى أبطلها الخليفة الورع : عمر بن عبد العزيز ، وجعل مكانها قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

وبجانب ذلك ظهرت النزعة الدينية ، وكانت تتجلى واضحة فى خطب الجماعات التى تناوىء الخلفاء وترى أن بنى أمية لا يصلحون لقيادة الأمة ، ولا لحكم المسلمين . وتتميز خطابة هؤلاء بالتزام الحمد فى أولها ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكثرة الاستشهاد بآيات الكتاب الكريم والاقتباس منه ، حتى إن بعضها كان كله اقتباسا منه .

كما يشيع فى هذه الخطب التحذير من الدنيا وغرورها ، والتخويف من الآخرة وأهوالها ، ونحو ذلك من ألوان التأثير الدينى الذى تتطامن له النفوس وتخبت القلوب ، وترق المشاعر .

وهذه الخطب ذات النزعة الدينية ، هى فى الواقع خطب سياسية ، تهدف إلى تغيير الأوضاع ، وقلب الأنظمة ، ومناوأة الحاكمين . وإنما وسمت بهذه السمة ، لأنها تتشح ببردة الدين ، وتصطبغ بصبغته ، للتأثير على النفوس ، والوصول إلى الأفئدة ، ولأنها صادرة من أناس لهم نزعات دينية قوية ، متمكنة من نفوسهم ، ولهم رسالة خاصة يعملون على تحقيقها .

وكان من سنة الخلفاء والولاة أن يخطبوا الناس بأنفسهم يوم الجمعة ، حتى جاء الوليد ، وكان كثير اللحن ، عسر اللسان ، فأناب عنه من يخطب

الناس ، فأخذت الخطابة منذ ذلك الحين تقل عناية بنى امية بها ، ويولون عنايتهم للكتابة الفنية .

أشهر الخطباء :

وقد نبغ فى الخطابة الكثير من البلغاء والفصحاء والمقاول المصاقع .

فمن الأمويين معاوية ، وعبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز .

ومن ولاتهم : زياد ، والحجاج ، وقتيبة بن مسلم ، وخالد بن عبد الله القسرى ، والمهلب بن أبى صفرة .

ومن العلويين : الحسين بن على ، وحفيده زيد .

ومن الخوارج : عمران بن حطان ، وقطرى بن الفجاءة ، وأبو حمزة الإباضى .

وكان إلى جانب هؤلاء : عبد الله بن الزبير ، وأخوه مصعب . . ومن رؤساء القبائل : صعصعة بن صوحان ، وسحبان بن وائل ، وخالد بن صفوان (المتوفى سنة ١٣٥ هـ) وسواهم . . .

نماذج للخطابة

١ — خطب الحجاج بالكوفة عام ٧٥ هـ فكان مما قال :

أنا ابن جلا (١) وطلاع الثنايا متى أضـــع العمامة تعرفونى

والله يا أهل العراق ، إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها (٢) ، وإنى لصاحبها . وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى (٣) .

إنى والله يا أهل العراق ما يقعقع لى بالشنان (٤) ؛ ولا يغمز جانبى كتغماز التين (٥) ، ولقد فررت عن ذكاء (٦) وفتشت عن تجربة . وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها ، فوجدنى أمرها عوداً ، وأصلبها مكسرا (٧) ، فرماكم بى لأنكم طالما أوضعتم (٨)

---

(١) قال صاحب لسان العرب : ابن جلا رجل مشهور بالفتك فيكون سحيم قد قال ذلك على التشبيه أى أنا كابن جلا فى الغارة والشدة اهـ .

(٢) ينع ، كضرب ومنع ، أدرك . شبه رؤوس العصاة المخالفين لأولياء أمورهم بالثمار التى تم نضجها فلم يبق إلا أن تقطف وتزال عن أغصانها .

(٣) إنما تكون الدماء بين العمائم واللحى من الضرب بالسيوف فى الجباه وأحرار الوجوه .

(٤) القعقعة صوت الجلود اليابسة ، الشنان جمع شن ؛ وهو الجلد اليابس (كسهم وسهام) والمراد لا أفزع مما يفزع ذوى العقول .

(٥) أى لست بضعيف لين الجانب .

(٦) فر الدابة كشف عن أسنانها ، الذكاء تمام السن أو حدة ، والمراد هنا المعنى الثانى .

(٧) الكنانة : جعبة السهام ، عجم العود : عضه ليبلو صلابته ، أمرها من المرارة وهى طعم شجر المرار ، المكسر : اسم مكان ، وهو موضع الكسر .

(٨) الايضاع السرعة فى السير .

فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة (١) ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل (٢) ؛ فإنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، (٣) .

٢ — وخطبت فى أهل الكوفة السيدة زينب (٤) بعد مقتل الحسين أخيها رضوان الله عليه فقالت :

« ياأهل الكوفة ! . . أتبكون ؟ ! . . فلا سكنت العبرة ، ولا هدأت الرنة ! .. إنما مثلكم مثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، ألا ساء ماتزرون ! . . إى والله ، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلا ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها (٥) بغسل أبداً . وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ومدار حجتكم ، ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة ؟ .. لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء ! . . أتعجبون لو أمطرت السماء دما ؟ . . ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم ، وفى العذاب أنتم خالدون ! .. أتدرون أى كبد فريتم (٦) ، وأى دم سفكتم ، وأى كريمة أبرزتم ! .. لقد جئتم شيئا إدا ،

---

(١) السلمة : شجرة شائكة يعسر خرط ورقها فيشد بعضه إلى بعض، ثم يضربها الخابط فيتناثر ورقها .

(٢) غرائب الإبل : أى الإبل الغريبة عن مواطنها ، وهى تضرب حين تدخل بين الإبل ويكون ضربها بلا شفقة لأنها لاتهم الضارب .

(٣) راجعها فى البيان والتبيين ٢ : ٣٠٨ ط الخانجى .

(٤) هى بنت الإمام على ، وأمها فاطمة الزهراء ولدت فى شعبان عام ٥ هـ ، وتزوجت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب (١ - ٨٠ هـ) ، ودخلت مصر فى أول شعبان عام ٦١ هـ ، وتوفيت فى ١٤ رجب ٦٢ هـ .

(٥) لن ترحضوها : لن تغسلوها وتطهروها . (٦) قطعتم .

تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا ! .. يامحمداه ، هذاحسين بالعراء ، مزمل بالدماء ، مقطع الأعضاء ! . يامحمداه ! . بناتك سبايا ، وذريتك قتلى !.. يا أهل الكوفة ! لعذاب الآخرة أخزى وأنتم لا تبصرون ! . كلا إن ربى وربكم بالمرصاد ! . » .

٣ — وقالت ليزيد وقد مثلت أمامه بعد مقتل الحسين :

« أمن العدل ـ يا ابن الطلقاء ـ تخديرك بناتك وإماءك وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم كالأسارى ، قد هتكت ستورهن ، وأصحلت أصواتهن ، مكشفات تجرى بهن الأباعر ، وتحدو بهن الأعادى من بلد إلى بلد ، لايراقبن ولايؤوين ، يتشوفهن القريب والبعيد ، ليس معهن قريب من رجالهن ؟! . . وكيف يستبطأ فى بغضتنا من نظر إلينا بالشنق والشنآن ، والإحن والأضغان ؟! . أتقول : « ليت أشياخى ببدر شهدوا » غير متأثم ولامستعظم ، وأنت تنكث ثنايا أبى عبد الله بمخصرتك ؟ .. ولم لاتكون كذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإهراقك هذه الدماء الطاهرة: دماء نجوم الأرض من آل عبد المطلب ؟! وإنك لتردن على الله وشيكا موردهم، وعندذلك تود لو كنت أبكم أعمى ، وأنك لم تقل : لاهلوا واستهلوا فرحا ! . اللهم خذ بحقنا ، وانتقم لنا ممن ظلمنا ! .

أيزيد ! . . والله مافريت إلا فى جلدك ، ولاحززت إلا فى لحمك ؛ وسترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم برغمك ، ولتجدن عترته ولحمته من حوله فى حظيرة القدس ، يوم يجمع الله شملهم من الشعث : « ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لايضيع أجر المؤمنين » ! .

« وستعلم أنت ومن بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين ، إذاكان الحكم

ربنا والخصم جدنا ، وجوارحك شاهدة عليك ، فبئس للظالمين بدلا ! .. هنالك تعلم أينا شر مكانا وأضعف جندا ! . . مع أنني ـ والله ـ أستصغر قدرك وأستعظم تقريعك ، غـــير أن العيون عبرى ، والصدور حرى وما يجزى ذلك أو يغنى وقد قتل أخى الحسين ؟ . . ألا إن حزب الشيطان يقربنا إلى حزب السفهاء . ليعطوهم أموال الله عوناً على انتهاك محارم الله » .

٤ ــ وقالت أمامه أيضا :

« صدق الله يايزيد ! .. (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) . . أظننت ـ يايزيد ـ أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى ، أن بنا هواناً على الله ، وأن بك عليه كرامة ؟ ! . . وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك ، فشمخت بأنفك ، ونظرت فى عطفيك جذلان فرحا ، حين رأيت الدنيا مستوسقة لك ، والأمور متسقة عليك ؟! . إن الله إنما أمهلك فهو قولهم: « ولا يحسبن الزوا كى يعتامها عسلان الفلوات ، فلئن اتخذتنا فى الحياة مغنما لتجدننا عليك مغرما حين لاتجد إلا ما قدمت يداك تستصرخ بابن مرجانة ويستصرخ بك ، وتتعادى وأتباعك عند الميزان . وقد وجدت أفضل زاد تزودت به قتل ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ! . . فوالله ما اتقيت غير الله ، وما شكوت إلا الله ، فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا يرحض عنك عار ما أتيت أبداً !! . . »(١) ! .

---

(١) أكناف : جوانب . عطفيك : جانبيك ، يمينك وشمالك . مستوسقة : مجتمعة مطيعة ، متسقة : معتدلة مساعدة . ابن الطلقاء : إشارة إلى قول النبى لكفار مكة ـ ومنهم آباء يزيد ـ يوم الفتح : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وإنه لتذكير وتبكيت ! . . أصحلت أصواتهن : الصحل بفتح الصاد والحاء ـ كما فى اللسان ـ انشقاق الصوت ، وأن لايكون مستقيما ، يزيد مرة ويستقيم =

٥ — خطبة لمعاوية بالمدينة عام ٤١ هـ :

إنى والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتى ، ولكنى جالدتكم (١) بسيفى هذا مجالدة . والله لأحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا مايستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك دبر (٢) أذنى ، وتحت قدمى ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فاقبلوا منى بعضه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه . . وإياكم والفتنة ، فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة .

٦ — خطبة لعبد الملك بن مروان :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستعجلوا قدرى .

اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام ، حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك .

= أخرى ، وأن يكون معه فى الصدر حشرجة . الأباعر : الجمال . تحدو بهن : تنقلهن . يتشوفهن : يتطلع إليهن فيراهن . الشنأ والشنآن : العداوة والبغضاء . الإحن والأضغان : الأحقاد . غير متآثم : غير خائف من الإثم . تنكث : تنبذ وتضرب . ثنايا : أسنان . المخصرة : قضيب كالعصا يمسكه الخطيب عند حديثه . نكأت القرحة : قشرت الجرح فعاد مؤلما . استأصلت الشأفة : أهلكت كل شىء . وشيكا : قريباً . فريت : قطعت . الشعث : التفرق . عترته : ذريته . تنطف : تسيل . يعتامها عسلان الفلوات : تفترسها ذئاب الصحراء . لا يرحض : لا يغسل .

(١) أى حاربتكم .

(٢) أى وراء : أى لم أصغ إليه .

٧ — خطبة لزياد بن أبيه يعلن فيها جنوحه إلى معاوية :

أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله فى دوام العافية لكم ، فقد نظرت فى أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم ، فوجدتهم كالأضاحى ، فى كل عيد يذبحون .

ولقد أفنى هذان اليومان ، يوم الجمل وصفين ، ما ينيف على مائة ألف ، كلهم يزعم أنه طالب حق ، وتابع إمام ، وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول فى الجنة .

كلا ؛ ليس كذلك ، ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم .

وإنى لخائف أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لامرىء بسلامة دينه .

وقد نظرت فى أمر الناس ، فوجدت أحمد العاقبتين العافية ؛ وسأعمل فى أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله .

٨ — خطبة للحجاج بعد أن قتل ابن الزبير ، وبعد أن رمى الكعبة عام ٧٣ هـ :

ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة ، حتى رغب فى الخلافة ، ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شىء مانعاً للعصاة ، لمنع آدم حرمة الجنـــة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة .

٩ — خطبة أبي حمزة الخارجي في مكة :

دخل أبو حمزة الخارجي مكة سنة ١٣٠ هـ فصعد المنبر متوكئاً على قوس له عربية ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يتأخر ولا يتقدم إلا بإذن الله وأمره ووحيه . . ثم تحدث عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . ثم عن معاوية وعن ابنه يزيد ، ثم اقتص خلفاء بني أمية خليفة خليفة (١) ، فلما انتهى إلى عمر بن عبدالعزيز أعرض عنه ولم يذكره ، ثم تحدث عن الشيعة ، ثم أقبل على أهل الحجاز فقال :

يا أهل الحجاز أتعيرونني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شبابا . أما والله إني لعالم بتنابعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم ماتركت الأخذ فوق أيديكم (٢) .

شباب والله مكتهلون (٣) في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة (٤) وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أقراء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقا إليها وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة (٥) كأن

---

(١) اقتص أبو حمزة خلفاء بني أمية خليفة خليفة : ذكر قصة كل منهم ذاما معددا .

(٢) الأخذ فوق أيديكم : الضرب عليها حتى تخضعوا وتذلوا ،

(٣) اكتهل : صار كهلا والكهل من وخطه الشيب .

(٤) أنضاء عبادة : جمع نضو وهو المهزول من الإبل وغيرها وكذلك أطلاح جمع طلح ، يريد أن العبادة أنهكتهم حتى صاروا كالبعران المهازيل من شدة السهر في وسط الليل وآخره .

(٥) شهق شهيقا وشهاقا وتشهاقا : تردد البكاء في صدره .

زفير (١) جهنم بين أذنيـــه ، موصول كلالهم (٢) بكلال الليل ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قدما ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرع إليه سباع الأرض ، وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عين فى منقار طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله ، ثم قال (أوه أوه أوه) ثم بكى ونزل اه .

وأبو حمزة الخارجى : أحد نساك الاباضية ، أتباع عبد الله بن إباض ، وهم فرقة من الخوارج ظهرت فى آخر دولة بنى أمية وقامت دولتهم باليمن فى جنوب الجزيرة واستولوا على الحجاز سنة ١٢٩ أيام مروان بن محمد ، وهم إلى أهل السنة أقرب ولازالت لهم بقية ببلاد المغرب وزنجبار حتى اليوم.

وأبو حمزة من خطباء الخوارج المشهود لهم بالفصاحة واللسن ، وفيه يقول مالك بن أنس الفقيه الأصبحى : خطبنا أبو حمزة على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة شك فيها المستبصر ، وردت المرتاب ، يريد بالمستبصر نفسه ، وماذلك إلا لما أورده من جيد الكلام وساطع الحجة وقويم البيان وسواء المنطق : وله خطب رائعة محكمة النسج قوية الأسر ، طالما عبقت فى حللها وخطرت فى مطارفها ، فهزت أعطاف الدنيا ، وملأت أسماع الزمن ، ومن ذلك خطبته فى وصف أصحابه التى يقول فيها : شباب والله مكتهلون فى شبابهم الخ .

---

(١) زفر زفيرا وزفراً : أخرج نفسه بعد مده إياه .

(٢) الكلال : التعب والإعياء .

١٠ — خطبة عبد الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير (عام ٧١ هـ):

صعد عبد الملك المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

أيها الناس : إن الحرب صعبة مرة ، وإن السلم أمن ومسرة ، وقد زبنتنا الحرب وزبناها (١) ، فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهي أمنا .

أيها الناس : فاستقيموا على سبل الهدى ، ودعوا الأهواء المردية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرا ، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة ؛ فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فليعد ، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصاري :

من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة ... يصل بنار كريم غير غدار (٢)
أنا النذير لكم مني مجاهرة ... كي لا ألام على نهي وإنذار
فان عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا ... أن سوف تلقون خزيا ظاهر العار
لترجعن أحاديثا ملعنة ... لهو المقيم ولهو المدلج الساري (٣)
من كان في نفسه حوجاء يطلبها ... عندي فإني له رهن بإصحار (٤)

---

(١) أي دفعتنا ودفعناها ، والزبن : الدفع ، ومنه حرب زبون بفتح الزاي ، وكذلك منه : اشتقاق الزبانية لأنهم يدفون أهل النار إلى النار .

(٢) الترة والوتر : الثأر .

(٣) أدلج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فقد ادلج (بتشديد الدال) . الساري : السائر بالليل .

(٤) الحوجاء : الحاجة . إصحار : أي لا أستتر عنه ولو في الأماكن الحصينة ، مأخوذ من أصحر القوم : برزوا إلى الصحراء .

أقيم عوجته إن كان ذا عوج كما يقوم قدح النبعة البارى (١)
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه عندى وإنى لدراك بأوتار

ولقد هدد الزبيريون خلافة بنى أمية تهديدا خطيرا : عبد الله بن الزبير فى الحجاز ، وأخوه مصعب فى العراق ، لذلك جهدت الخلافة الأموية فى الكوفة القضاء على دولة الزبيريين الناشئة ، وكان انتصارهم على مصعب وقتلهم له مثار فرح كبير لعبد الملك بن مروان . وخطبته بعد مقتله فيها افتخار بشجاعة الأمويين ، وفيها تهديد ووعيد لخصومهم وفيها دعوة للجماهير إلى الهدوء والانصراف عن الثورات واللجوء إلى السلام ، وفيها تلخيص لسياسة ذلك العصر البعيد : الشعوب تطالب الحكام بسياسة الخلفاء الراشدين ومعدلتهم وإنصافهم ، والحكام يحكمون الشعوب بالسياسة لا بالدين الذى كان يلتزمه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رحمة الله عليهم .

١١ — وصية أسماء بنت أبى بكر لابنها عبد الله بن الزبير :

وأسماء هى بنت أبى بكر الصديق ، رضى الله عنهما ، وشقيقة عائشة أم المؤمنين ، وكانت بارة تقية ، راجحة العقل ، كريمة النفس ، تزوجها الزبير ابن العوام ، أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن السابقين إلى الإسلام ، فولدت له عبد الله فى المدينة المنورة ، وكان أول مولود ولد بها من أبناء المهاجرين .

وعبد الله بن الزبير بن العوام ، ينتهى نسبه إلى قصى ، الجد الخامس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، نشأ باراً تقيا ، متأدبا بآداب الدين الحنيف ، متحليا بالأخلاق السامية ، والشمائل العالية ، وكان خطيباً مفوها ، يملك القلوب

---

(١) العوج بفتح العين : فى كل ما كان منتصبا مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج ، بالكسر : ما كان فى بساط أو أرض أو معاش أو دين . وقيل بالفتح مصدر ، وبالكسر اسم منه . القدح : السهم قبل أن يراش ، جمعه قداح . النبعة : واحدة النبع ، وهى شجر القسى والسهام .

بسحر بيانه ، وقوة برهانه ، بايعه أهل مكة والحجاز بالخلافة ، بعد قتل الحسين بن على ، رضى الله عنهما ، وامتد سلطانه إلى العراق واليمن ومصر ، واشتد النزاع بينه وبين ملوك بنى أمية ، فلما تولى خلافة دمشق عبد الملك بن مروان ، أرسل لقتال عبد الله بن الزبير جيشا قويا ، بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى ، فسار إليه ، وحاصره فى مكة مدة طويلة ، فتفرق عنه أكثر أصحابه ، ولم يترفع الحجاج عن ضرب الكعبة بالمنجنيق فتهدم جزء منها ، وكسر الحجر الأسود ، ولما رأى ابن الزبير ما فيه أهل مكة من ضيق ، عزم على قتال الحجاج ، ليفرج عن الناس كربهم ، بانتصار أحد الفريقين ، وقبل خروجه إلى الميدان ، ذهب إلى أمه ، ليتزود منها بالنظرة الأخيرة ، وليسمع نصائحها الثمينة فى هذا الموقف الرهيب ، فأوصته بتلك الوصية الغالية ، التى يجدر بكل أم أن تقف على ما فيها من أخلاق كريمة ، وصفات نبيلة ، وتنشىء عليها أبناءها منذ نعومة أظفارهم ، وقد مات عبد الله شهيداً يوم خروجه ، وصلبه الحجاج بعد قتله فى المعركة تشفيا منه ، وإرهابا لأنصاره ، وهذا نص الوصية :

دخل ابن الزبير على أمـــه أسماء بنت أبى بكر ، فى اليوم الذى قتل فيه ، وقد رأى من الناس ما رأى ، من خذلانهم ، فقال :

يا أمه ! خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، فلم يبق معى إلا اليسير ، ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ .

فقالت : أنت والله يا بنى أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك ، يتلعب بها غلمان بنى أمية .

وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ،

وأهلكت من قتل معك ، وإن قلت كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين . وكم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ، والله لضربة بالسيف فى عز ، أحب إلى من ضربة بسوط فى ذل ، قال : إنى أخاف إن قتلونى أن يمثلوا بى ، قالت : يابنى ! إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها ، فدنا منها وقبل رأسها وقال :

هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعيا إلى يومى هذا ، ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه ، ولكننى أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتنى بصيرة مع بصيرتى . فانظرى يا أمه ، فإنى مقتول من يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمى لأمر الله .

فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ، ولا عملا بفاحشة ، ولم يجر فى حكم الله ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به ، بل أنكرته ، ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى .

اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منى لنفسى ، أنت أعلم بى ، ولكن أقوله تعزية لأمى ، لتسلو عنى .

فقالت أمه : إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا إن تقدمتنى ، وإن تقدمتك ، فنى نفسى حرج ، حتى أنظر إلام يصير أمرك .

قال يا أمه ! جزاك الله خيرا ، فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد .

فقالت : لا أدعه أبداً ، فمن قتل على باطل ، فقد قتلت على حق ، ثم قالت : أللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب ،

والظماً فى هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين ، ثم ودعها وخرج (فلم يعد) .

من أعلام الخطباء فى هذا العصر

زياد بن أبى سفيان

١ — ٥٣ هـ

١ — أمير عربى ، وسياسى داهية ، وعبقرى ذائع الشهرة ، وكاتب وخطيب ، ومتكلم بليغ .

ولد زياد فى العام الأول من الهجرة ، ويحيط بنسبه غموض كثير ، فأمه سمية كانت أمة للحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب المشهور ، ويقال إن أحد زعماء الفرس قد وهبه إياها ، وإنه زوجها لغلام رومى يسمى « عبيدا » كان من موالى ثقيف ، فولدت له زياداً ، ومن ثم قيل له : زياد بن سمية ، أو زياد بن عبيد . ولما استلحق معاوية زياداً بنسب أبيه عام ٤٤ هـ صار يسمى زياد بن أبى سفيان ، وكان أبو سفيان قد ادعاه فى الإسلام ، وقال : إن سمية اشتملت عليه وأنا على الشرك ، وإنى كنت أخشى سطوة عمر بن الخطاب ، وكثير من الباحثين يسمونه زياد بن أبيه .

٢ — نشأ زياد فى شباب الإسلام وعزته ، وسمع القرآن وحفظ الكثير من بلاغته ومن روائع البلاغة النبوية ، وتثقف بالثقافة العربية الذائعة فى بيئته ، ونشأ بليغاً مفوهاً ، وكاتباً وخطيباً مجيداً .

واتخذه المغيرة بن شعبة حين ولى الكوفة كاتباً له ، وكذلك استكتبه أبو موسى الأشعرى لما ولى البصرة فى خلافة عمر ، وشاهد عمر ذكاء زياد ودهاءه وسعة عقله ، فعزله وقال : خفت أن يحمل الناس فضل عقله . ويروى عن عمر

حين سئل عن ذلك أنه قال : لا لخيانة ولا لعجز وإنما كراهية أن يحمل الناس فضل عقله ، وكان عمرو بن العاص يقول عنه : لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه ، وقد ولاه على عام ٣٩ هـ بلاد فارس فضبطها وحمى قلاعها وأعاد الأمن والسلام إلى ربوعها .

ويروى الطبرى أن فارس كانت قد امتنعت عن أداء الخراج وأن علياً استشار الناس فى رجل يوليه هذه البلاد النائية ، فقال له جارية بن قدامة : ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صليب الرأى عالم بالسياسة لما ولى ؟ قال : من هو ؟ قال : زياد ، قال على : هو لها ، وولاه عليها وعلى كرمان ، ووجهه فى أربعة آلاف فارس فدوخ بهم تلك البلاد ونشر الأمن فى ربوعها ، وكان أهل فارس يقولون : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى .

وظل زياد والياً عليها لعلى وللحسن بن على بعده ، فاغتم به معاوية ، وفكر فى أمره فأرسل إلى المغيرة بن شعبة فلما دخل قال : « لكل نبأ مستقر ولكل سر مستودع ، وأنت موضع سرى وغاية ثقتى » ، فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين إن تستودعنى سرك تستودعه ناصحاً شفيقاً ورعاً صديقاً ، فما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس ومقامه بها وهو داهية العرب ومعه الأموال ، وقد تحصن بأرض فارس وقلاعها ، ويدبر الأمور ، فما يؤمننى أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعادها جذعة .

قال المغيرة : أتأذن لى فى إتيانه ؟ قال : نعم ، فخرج إليه فلما دخل عليه وجده وهو قاعد فى بيت له مستقبل الشمس فقام إليه زياد ورحب به وسر بقدومه وكان له صديقا ، فلما تفاوضا فى الحديث ، قال له المغيرة : أعلمت أن معاوية استخفه الوجل حتى إليك ، ولا نعلم أحداً يمد يده إلى هذا الأمر غير الحسن ، وقد بايع معاوية ، فخذ لنفسك قبل التوطين ، فيستغنى عنك

معاوية ، قال : أشر على وارم الغرض الأقصى فإن المستشار مؤتمن . قال : أرى أن تصل حبلك بحبله وتسير إليه وتعير الناس أذناً صماء وعيناً عمياء ، قال يا ابن شعبة : لقد قلت قولا لا يكون غرسه فى غير منبته ، لا أصل له يغذيه ، ولا ماء يسقيه ، كما قال زهير :

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل

ثم قال : أرى ويقضى الله . وقدم زياد على معاوية ، ففرح بذلك وسر له وولاه البصرة وخراسان وسجستان ، ثم أضاف إليه الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة ، فصار والى المصرين ، وهو أول من جمعا له . وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر ، ويقيم مثلها بالكوفة ، وكان العراق فى فتن مظلمة ، فأقر فيه بسياسته الأمن والسلام والهدوء ، ثم جمع معاوية له ولاية الهند والبحرين وعمان ، وطمع زياد فى ولاية الحجاز ، ولكن أجله قد حم فمات عام ٥٣ هـ ، ودفن بالثوية إلى جانب الكوفة .

وكان زياد يقول : لو ضاع حبل بينى وبين خراسان لعرفت آخذه ، وكان مكتوباً فى مجلسه أصول سياسته وهى : الشدة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف ، المحسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته .

٣ — بلاغته وخصائصها : كان زياد بليغاً مفوها ، وخطيباً ساحراً ، وفصيحاً لا يجاريه فى فصاحته أحد . وحسبك فى وصف بلاغته ماروا الجاحظ عن الشعبى قال : ماسمعت متكلماً على منبر قط فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً ، فانه كلما أكثر كان أجود كلاما . ويقول الجاحظ فيه : كان زياد وابنه عبيد الله بن زياد غايتين فى صحة المعانى وجودة اللفظ ولهما كلام كثير محفوظ(١) ، ونشأ ابنه عبيد الله فى الأساورة(٢) بالبصرة(٣) .

---

(١) ٩٦ رسائل الجاحظ نشر السندوبى .

(٢) قوم من العجم نزلوا البصرة قديماً (٣) ٢ : ١١ البيان والتبيين ط الخانجى

وقد نمى هذه البلاغة فى نفسه نشأته العربية فى ثقيف ، وذكاؤه ومواهبه وملكاته العربية ، وإحاطته علماً بلغات العرب وأساليبها ، وحياته فى عصر ازدهر فيه الأدب وفنونه ، ونبغ فيه أعلام الخطباء والأدباء والشعراء . وكان زياد عليما بلغة العرب وأساليبها حتى قال فيه الشعبي كما سبق : ماسمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا عليه إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما .

ويروى لزياد خطبته الطويلة المشهورة المسماة : بالبتراء(١) التى لم يحمد الله تعالى فى أولها ، وقد قالها حين قدم البصرة والياً عليها من قبل معاوية ، وذلك فى آخر ربيع الأول سنة ٤٥ هـ ، وتحتوى هذه الخطبة على روائع الكلم ، وبديع الحكم ، وبيان سياسته فى حكم العراق وما جاوره من بلاد فارس ، ولما انتهى منها ، قام إليه عبد الله بن الأهتم فقال : أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب ، فقال زياد : كذبت ، ذلك نبي الله داود ، فقال الأحنف : قد قلت فأحسنت أيها الأمير ، والثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثنى حتى نبتلى ، فقال زياد : صدقت .

وقام أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج : فقال : أنبأ الله بغير ماقلت ، قال الله تعالى : (وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ماسعى)، فأوعدنا الله خيراً مما أوعدتنا يازياد، فقال زياد : إنا لن نصل إلى الحق فيك وفى أصحابك ، حتى نخوض فى الباطل خوضا .

وهذه الخطبة تمثل النثر فى العصر الأموى ، وهى تفصح عن شخصية زياد الطاغية ، وبلاغته العالية .

---

(١) ١ : ٧٢ المرجع السابق .

٤ — نصوص من خطبة زياد البتراء : أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء(١)، والضلالة العمياء (٢) ، والغى الموفى بأهله على النار مافيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم (٣) ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب العظيم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدى(٤) الذى لايزول ، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات (٥) ، واختار الفانية على الباقية ، ولاتذكرون أنكم أحدثتم فى فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه ، من تركم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله . ما هذه المواخير (٦) المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل ؟ ألم يكن منكم نهاء تمنع الغواة عن دلج الليل (٧) وغارة النهار ، قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس ، كل امرىء منكم يذب عن سفيهه . صنيع من لايخاف عاقبة ، ولايرجو معاداً ، ماأنتم الحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم (٨) حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً فى مكانس (٩) الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض

---

(١) جهالة جهلاء : شديدة مثل ليلاء .

(٢) الضلالة العمياء : التى لاهدى معها

(٣) السفيه : سيء الخلق وضده الحليم .

(٤) السرمدى : الدائم .

(٥) كناية عن تمكن الشهوات من نفوسهم وانصرافهم إلى متاع الدنيا .

(٦) المواخير : جمع ماخور ، بيت الريبة والفحش .

(٧) دلج الليل : السير فيه ، والمراد بهنا الفتك .

(٨) قيامكم دونهم : دفاعكم عنهم .

(٩) الكنوس : جمع كانس ، وهو الظبي يدخل فى كناسه أى مأواه ، والمراد أنهم عكفوا على المعاصى .

هدما وإحراقاً . إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف . وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى [١] ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد [٢] أو تستقيم قناتكم [٣] ؟ إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى ، فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها [٤] فى ، واعلموا أن عندى أمثالها . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله فإياى ودلج الليل ؛ فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم . وإياى ودعوى الجاهلية [٥] فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوما أغرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حيا . فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى . ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ماعليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كانت بينى وبين أقوام إحن [٦] فجعلت ذلك دبر [٧] أذنى وتحت قدمى . فمن كان منكم محسناً

---

(١) الولى : السيد ، والمولى : العبد ، المراد أنه يأخذ السيد بذنب عبده . وكذا الباقى .

(٢) مثل يضرب لتتابع الشر وأصله أن أخوين خرجا فى طلب إبل لهما ، فرجع سعد ولم يرجع سعيد .

(٣) المراد حتى تستقيموا . وشبههم بالقناة وهى عود الرمح .

(٤) اغتمزوها فى : عدوها من عيوبى .

(٥) دعوى الجاهلية : كناية عن التناصر بتأثير العصبية سفها وجهالة ، وأصلها يا لفلان استغاثة .

(٦) الإحن : جمع إحنة : الحقد .

(٧) أى خلفها : والمراد أنى طرحت ذلك .

فليزدد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له ستراً حتى يبدى لى صفحته (١) فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس أيها الناس ؟ إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة (٢) ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفيء (٣) الله الذى خولنا ؛ فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ، ولو أتانى طارقا بليل . ولا حابساً عطاء ولا رزقا عن إبانه ، ولا مجمراً لكم (٤) بعثاً . فادعو الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذى إليه تأوون .

وهذه الخطبة يراها القارىء لها بمثابة إعلان حكم عرفى فى العراق . . فأخذ الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح فى جسمه السقيم ، أمر ليس جاريا على القانون الشرعى الذى يقصر المسئولية على المجرم ، وإنما ذلك شىء يلجأ إليه الطغاة ، وخاصة عند اضطراب الأمن ، لإرهاب الناس وتهديدهم . وقد سن زياد فى خطبته عقوبات لم يسنها الإسلام ، فمن ذلك ماسنه للجرائم المحدثة كما قال : « من

---

(١) صحفة الرجل : عرض وجهه والمراد حتى يجهر بالعداوة .

(٢) ذادة : حماة ، جمع ذائد أى مدافع .

(٣) الفيء : مال الخراج أو الغنيمة ويطلق على الظل كناية عن الحمى . إبان الشيء : أوانه .

(٤) تجمير الجند أو البعث حبسهم فى أرض العدو .

نقب عن بيت نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً » . ومن ذلك عقوبته للمدلج ـ أى السائر بالليل ـ وقوله من أحرق قوماً أحرقناه . . كل ذلك من مظاهر الحكم العرفى الذى أعلنه زياد فى البصرة ، حتى صار يعاقب على الظنة ، ويأخذ بالشبهة ويقسو فى معاملة الخوارج والشيعة والناقمين عليه وعلى بنى أمية ، قسوته على المجرمين ، وقد خافه الناس خوفاً شديداً ، فاستتب الأمن ، وهدأت أحوال العراق الثائرة ، وسكنت الفتن والثورات ودخل الناس فى طاعة بنى أمية رغباً ورهباً .

ومن ذلك ندرك بعض الخصائص الأدبية لخطبة زياد هذه ، التى تمثل نفسيته وروحه وشخصيته أتم تمثيل .

فهى مثلا قوية الأسلوب ، جزلة الألفاظ ، يعتمد زياد فيها على التأثير الخطابى ، وعلى السجع أحيانا ، وعلى قصر الفقرات ، وعلى أسلوب التهديد والوعيد الذى ملئت به الخطبة .

وفيها كذلك روح الثائر الأدبى ببلاغة القرآن الكريم واضحة . ووحدة الخطبة ظاهرة ، فهى فى موضوع سياسى واحد متصل معروف . . وهى وثيقة أعلن بها زياد الحكم العرفى فى العراق ، ثم هى من أولها إلى آخرها تنصب على الغرض الذى قيلت من أجله ، فلا حشو ولا إغراب ولا حوشية ولا ابتذال .

وإنما هى البلاغة الطبيعة ، والفصاحة السلسة ، التى تجرى كما يجرى الماء فى النهر : لينا فى شدة ، وهدوءاً فى ثورة ، واطراداً فى تتابع ، دون التواء أو انقطاع أو استطراد أو عى أو ضعف . . وألفاظ الخطبة ذات تأثير صوتى قوى ، وعلى الجملة فالخطبة صورة لسياسة زياد وسياسة الدولة حيال خصومها والعابثين بالأمن فيها ، فى أول عهد معاوية ، وبدء حكم الأمويين .

وقصارى القول أن زيادا كان كما قيل فيه بحق وكما تمثله خطبته : من ذوى الأحلام الوافرة ، والأذهان الحاضرة واللسان الفتيق . كما كان من أقوى العمد التى قام عليها عرش بنى أمية ، وكان على ثم معاوية يجدان فيه اليد المصرفة ، والرأى الجميع ، واللسان الذرب ، وأى أريب أديب داهية كان فى جلدته ؟ وقد اطمأن له الخليفتان : على ، ثم معاوية ، لأنه راض لهما الأمور ، وسدت به الثغور ، ولأنه أحكم لهما السياسة ، وقاد الناس بالحزم والشدة حينا ، وحينا آخر بالرفق والكياسة ، وقاتله الله من ملك فى ثياب عربى ، وحاكم فى زى بدوى ؛ ولولا استبداده ، وأنه سن للحجاج وللطغاة من بعده سياسة البطش والطغيان لكان من أعظم الشخصيات الإسلامية فى عصر بنى أمية .

سحبان وائل

هو سحبان بن زفر بن إياد الوائلى مضرب المثل فى الخطابة والبلاغة . نشأ فى الجاهلية فى (وائل) قبيلته وقد ظهرت المنافسة فى البلاغة ؛ وقامت أسواق العرب تخدم اللغة والأدب ، وكان متوقد الذكاء ، فبرع فى التعبير ، ثم ظهر الإسلام فكان من المستجيبين لدعوته ، والمكارعين من حياضه ، ثم ظهر الخطباء فى الخلاف بين على ومعاوية فقويت ملكة البيان عنده ، والتحق بمعاوية فكان يعده للمناسبات لقوة عارضته وسرعة خاطره ، وقد تحدث الجاحظ وغيره أنه قدم على معاوية وفد من خراسان وفيهم سعيد ابن عثمان ، فطلب معاوية سحبان فلم يجده فى منزله فاقتضب من بعض الأماكن اقتضابا وأدخل عليه . فقال له معاوية تكلم . فقال : أحضروا لى عصا ، قالوا ما تصنع بها وأنت فى حضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ما كان يصنع موسى وهو يخاطب ربه ، فأحضرت فلم يرضها وطلب عصاه .

ثم خطب من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ، ولا ابتدأ معنى إلا استوفاه حتى دهش الحاضرون ، فأشار إليه معاوية بيده فأشار سحبان إليه لا تقطع كلامي ، قال معاوية : الصلاة . قال سحبان : الصلاة أمامك نحن في صلاة وتحميد ووعد ووعيد، قال معاوية: أنت أخطب العرب ، قال سحبان : والعجم والجن والإنس، وهذا إن صح إعجاب وزهو ويقال إنه كان يتصبب عرقا ، مما يدل على أنه كان يجهد نفسه كثيرا، والعجب أنهم يذكرون له ذلك كله ثم لا يروون من خطبه ما يلقى الضوء الكافي عندنا على مقـــدار بيانه ولعل ميله إلى الإطالة كان يحول دون الحفظ فالرواية .

وقد نقلوا أنه قال في بعض خطبه :

إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار، فخذوا من دار ممركم لدار مقركم ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حييتم ، ولغيرها خلقتم ، إن الرجل إذا هلك قال الناس ماترك ، وقالت الملائكة ماقدم ، قدموا بعضا يكون لكم ، ولا تخلفوا كلا يكون عليكم .

الحجاج بن يوسف الثقفي

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي من فصحاء العرب ودهاتهم وساستهم ، وأشهر ولاة بني أمية الذين وطدوا لهم الملك والسلطان ، وكان لسانه وقلمه وسيفه في طاعة الأمويين وخدمتهم، ولد سنة ٤١ هـ في عهد معاوية، ونشأ في الطائف وهو بلد تحيط به البداوة، ويتعلم الناشيء فيه الفصاحة وأخبار العرب وأشعارهم ، وكان الحجاج هو وأبوه يعلمان الصبيان بالطائف حينا من الدهر ، ثم لحق بروح بن زنباع الجذامي أحد أعوان الخليفة عبد الملك ، فكان جنديا في شرطته ثم ظهرت كفايته

وإخلاصه للخليفة فقلده أمر العسكر ، وكان أول ما اشتهر من أمره قيادته الجيش الذى وجه لقتال عبد الله بن الزبير ، فحاصره بمكة ثم قتله وصلبه سنة ٧٣ هـ ، ثم أرسل إليه عبد الملك عهده بولاية الحجاز واليمن واليمامة ، وبعد ثلاث سنين كتب إلى عبد الملك إنى حزت الحجاز بشمالى وبقيت يمينى فارغة فبعث إليه عهده بالعراق وهو فى غاية الاضطراب فساسها بعسفه وجبروته . وقد طال عهده فى تولى الأعمال وانتهى بأمرين بارزين فى تاريخه : أحدهما محمود والآخر مذموم ، أما المحمود : فجمعه الناس تحت راية واحدة لعبد الملك وابنه ، وأما المذموم : فهو إذلاله الأمة العربية وقتله نخوتها ، وهو السبب فى بسط رقعة عبد الملك وابنه مع كثرة الخلاف وتعدد الفرق ، وقد استهان فى ذلك الصدد ببقايا الصحابة وأجلاء التابعين .

ولذا يقال إن الحسن البصرى سجد شكراً لله حين أخبر بموته سنة ٩٥ هـ .

ولقد كان الحجاج مع جوره وقسوته من حداثته ، شجاعا فى الحرب كريما فى السلم يرجع إلى الحق ، ويحب الصراحة ويشجع عليها ويدقق فى اختيار العمال .

أما فصاحته وعلو كعبه فى الأدب ، فقد بلغ حد الاستفاضة . قال الأصمعى : أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل ، الشعبى ، وعبد الملك ، والحجاج . وابن القرية ، والحجاج أفصحهم .

وصور أدبه مالك بن دينار فقال : ما رأيت أحد أبين من الحجاج ، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق ، وإساءتهم إليه وصفحه عنهم ، حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين وقد امتاز بوضع النقط والشكل للصحف لما كثر التصحيف فى العراق .

ومن كلام الحجاج الذى يروى لبلاغته :

لما قدم أميراً على العراق دخل المسجد وقد غطى أكثر وجهه بعمامته

فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ومكث ساعة لايتكلم ثم نهض فقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

ياأهل العراق إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى .

ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتدزيم(١) قد لفها الليل بسواق حطم(٢)

ليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم

قد لفها الليل بعصلبى أروع خراج من الدوى(٣)

مهاجر ليس بأعرابى

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو أشد(٤)

لابد مما ليس منه بد

إنى والله ياأهل العراق مايقعقع لى بالشنان ولا يغمز جانبى كتغماز التين ، ولقد فررت عن ذكاء(٥) وفتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته فعجم عيدانها ، ثم أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بى(٦) ، لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مرا قد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة . . إلى آخر هذه الخطبة البليغة .

---

(١) اسم فرسه أو ناقته .

(٢) جمعها بمن لايقطع السير .

(٣) يقول إن الليل جمعها برجل شديد ذكى خراج من الشدائد .

(٤) فى القاموس الوتر مطلق القوس : والعرد الشديد والبكر بالفتح الفتى من الإبل .

(٥) فر الدابة كشف عن أسنانها ليعرف سنها .

(٦) الكنانة جعبة السهام وعجم عيدانها فى الأصل عضها ليختبر صلابتها ولكن المقصود أنه فكر فى من حوله من العمال أنهم أقمع للفتنة ، ضجع بالفتح وبالتشديد مستعار للملازم للشىء المستقر فيه .

وكتب إلى الوليد :

لولم يكن لكعب من حرمته مايغفر له عظيم جريرته لوجب ألا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذى تأمله القلوب ولا تعلق به الذنوب ، وقد استشفع بى إليك فوثقت له منك بعفو لايخالط سخط لحقق أمله وصدق ثقتى بك تجد الشكر وافياً بالنعمة ، فكتب إليه الوليد :

قد شكرت رغبته إليك ، وعفوت عنه لمعوله عليك ، وله عندى مايحب فلا تقطع كتبك عنى فى أمثاله وفى سائر أمورك .

(ب) الكتابة فى العصر الأموى

تمهيد :

كان العربى فى الجاهلية أمياً لايقرأ ولا يكتب ، صناعته حرب يشنها ، أو معركة يخوضها ، أو مفاخرة يدلى فيها بمفاخره ، أو منافرة يسعى لها بمآثره ، لم يكن يجلس إلى العلماء ، أو يحضر حلقة مؤدب ، أو يتزود بقبس من ثقافة .

وفى صدر الإسلام ، أخذت الكتابة تنتشر ، بتشجيع الرسول صلى الله عليه وسلم وحلفائه ، للحاجة إليها فى تصريف شئون الدولة ومرافقها ، فقد عنى بها الرسول صلوات الله عليه عناية فائقة ، منذ دخل المدينة ، وانتصر على قريش فى بدر ، فجعل فداء الأسير تعليم عشرة من المسلمين الكتابة ، وحث على تعلمها ، واتخذ كتاباً للوحى ، وكتاباً آخرين لإحصاء الغنائم ، والإجابة على رسائل الملوك ، وغير ذلك من مختلف الشئون .

ولما اتسعت الدولة ، وأنشأ عمر بن الخطاب الدواوين ، كثرت العناية بالكتابة وعظم الاهتمام بها ، وكان من الدواوين التى دونها : ديوان الجيش لكتابة أسماء الجند وأنسابهم وأعطياتهم ، وديوان الخراج لتنظيم إيرادات

الدولة ومصروفاتها . وكان عمـــر يقول لـكتابه : « إن القوة على العمل ألا تؤخروا عمل اليوم لغد ، فإنـكم إذا فعلتم ذلك تذاءبت عليـكم الأعمال ، فلا تدرون بأيها تبدأون وأيها تؤخرون » .

وكانت الـكتابة فى ذلك العهد ـ عصر صدر الإسلام ـ بسيطة فى مظهرها بليغة فى جوهرها ، يغلب عليها الطبع وترك التـكلف والصنعة والتعمل ، وتشيع فيها السهولة . ويغلب عليها الإيجاز ، دون أن يبدو فيها أثر للتأنق والتهذيب والتنقيح واختيار الأساليب والألفاظ .

تطور الـكتابة فى العصر الأموى :

جاء العصر الأموى ، والـكتابة على هذا النحو . فزادت العناية بها ، لاتساع أعمال الخلفاء ، وكثرة شئون الحـكم ، وتعدد الدواوين فقد زاد معاوية على ما كان منها فى عهد الخلفاء الراشدين :

١ — ديوان الرسائل : الـكتابة الرسائل التى تصدر عن دار الخلافة ، وقد اتخذ معاوية كاتبه على الرسائل عبيد الله بن أوس الغسانى ، وظلت سنة الخلفاء اصطناع كتاب للرسائل ، وكانت الرسائل التى تصدر عن الديوان تفيض بيانا ، وينضرها جمال الأسلوب وسحر البلاغة . إذ كان الخليفة هو الذى يتولى إملاء الرسائل بنفسه . فلم تظهر للـكتاب شخصية ، إلا فى عهد سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه على الرسائل ، إذ كان ينوب عن الخليفة فى الـكثير منها ، ويذيل بعض الرسائل بما يدل على أنه منشئها . وكان الطابع العام للرسائل التى تصدر من هذا الديوان أو ترد إليه . بساطة المظهر ، وعدم التـكلف فى الخطاب حتى إن الـكاتب ليبدأ بتقديم اسمه على اسم من يرسل إليه ولو كان الخليفة . وظلت هذه الحالة مرعية ، حتى جاء الوليد بن عبد الملك ، فأنف أن يـكتب إليه مع تأخير اسمه . ومن هنا أخذت الرسائل سمتا آخر ، يلائم رغبة الخلفاء ، ويرضى كبرياءهم . ولم يخرج على هذا النهج فيما بعد إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد الـكامل .

٢ — ديوان الخاتم : ومهمته أن يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع ليصدر منه مختوماً ، لايدرى حامله مافيه ، ولا يستطيع أن يغيره . وسبب إنشاء هذا الديوان على ما ذكره الفخرى فى كتابه (الآداب السلطانية) : أن معاوية أحال رجلا على زياد أمير العراق بمائة ألف درهم ، فمضى الرجل وجعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك ثم تبين حقيقة الأمر ، فأمر بوضع ديوان الخاتم ، فصارت التوقيعات تصدر منه مختومة .

٣ — أما دواوين الخراج فقد استمرت الكتابة فيها بلغة البلاد المفتوحة ، حتى تم تعريبها فى عهد عبد الملك بن مروان ، فى مصر والشام والعراق ، من القبطية والرومية والفارسية ، على النحو الذى أشرنا إليه .

أنواع الكتابة :

ونحن هنا لانعنى بدراسة آثار ديوان الخاتم ، ولا ديوان الخراج أو الجيش ، لأن الكتابة فيها لم تكن تعتمد إلا على الأرقام والإحصاء ، دون أن يكون لها حظ من بلاغة القول ، ولا نصيب من جمال الأسلوب .

وإنما نعنى بدراسة ما كان يصدر عن (ديوان الرسائل) من الكتب البليغة ، الصادرة إلى الولاة والقواد وعمال الدولة ؛ وهى كتابة سياسية فى أغلب الأمر .

ويعنينا كذلك أن ندرس ما استجد للكتابة فى آخر هذا العصر من (الرسائل الإخوانية) . التى كان ينشئها الكتاب البلغاء ، فتحمل مافى قلوبهم من مودة وإخاء ، أو تصور ما تجيش به مشاعرهم من مختلف الخوالج والنزعات ، أو تعبر عما يتردد فى نفوسهم من أفكار وآراء . فى أسلوب رائق ، ولفظ فائق وتصوير جميل .

فهذان اللونان هما أهم ما أثر من الكتابة الفنية فى هذا العصر ، وهما أبرز ما نعنى بدراسته ، ونهتم بالحديث عنه .

خصائص الكتابة الفنية :

(ا) يجد الناظر إلى الكتابة الفنية أنها مرت بطورين ا وانقسم بها هذا العصر إلى عهدين :

١ — فالعهد الأول من قيام الدولة عام ٤١ هـ ، إلى زمن الوليد ابن عبد الملك . وكانت الكتابة فيه تسير على نمطها فى صدر الإسلام . من الإيجاز والوضوح والسهولة والبساطة وقلة التكلف . . وكان أغلبها يملى ارتجالا ، ويصدر عن ديوان رسائل الخليفة أو دواوين رسائل الولاة .

ويقول الدكتور طه حسين فى كتابه « من حديث الشعر والنثر (١) » كانت الرسائل تصدر عن الخلفاء والأمراء فى أول أمرها يسيرة سهلة الأسلوب لا تكلف فيها ، ولم تظهر الرسائل الفنية التى تأنق فيها أهلها إلا فى أوائل القرن الثانى . . ويروى أن معاوية أملى على كاتبه « لهو أهون على من ذرة ، أو من كلب من كلاب الحرة ، ثم قال لكاتبه اكتب : « أو من الكلاب ، كأنه كره السجع .

٢ — والعهد الثانى من أيام الوليد إلى نهاية الدولة ، وقد أخذت الكتابة فيه تتدرج فى التأنق والصنعة والإطناب وإشراق البيان ، حتى صارت صناعة فنية لها أصولها وقواعدها ، وكان زمامها فى هذا الطور بأيدى الموالى المثقفين بثقافة عربية واسعة ، والذين أضافوا إلى هذه الثقافة ما ورثوه من ثقافات أممهم العريقة فى العلم ، فمنهم من كان يعرف الفارسية أو الرومية أو اليونانية أو السريانية ، وآداب هذه اللغات المتنوعة ، كأبى العلاء سالم

(١) ص ٥٢ و ٥٣ من حديث الشعر والنثر .

كاتب هشام بن عبد الملك ، وأستاذ عبد الحميد الكاتب ، وأحد الواضعين لنظام الرسائل ، وصنعة الكتابة [١] ، وكجبلة بن سالم كاتب هشام أيضاً وكان يعرف الفارسية ، وكعبد الحميد بن يحيى الكاتب الذى يضرب به المثل فى صناعة الكتابة فيقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وقد احتفل بالكتابة وتأنق فيها ، ونقلها إلى مرحلة جديدة ، احتلت فيها المنزلة الرفيعة التى كانت للخطابة .

(ب) ويجعل الدكتور طه حسين نشأة الكتابة الفنية مدينة لعبد الحميد وعبقريته اللماحة [٢] ، ويختلف الباحثون فى ثقافة عبدالحميد المكملة لثقافته العربية : فالبعض يرون أنه كان يجيد الفارسية ويعرف آدابها وينقل عنها إلى العربية ، ومن هؤلاء الدكتور زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى [٣] » ، وسواه ، ويستدل هؤلاء على ثقافته الفارسية بقول أبى هلال العسكرى عنه إنه « استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى اللسان العربى [٤] » ، ويرجح الدكتور طه أن عبد الحميد كان شديد الاتصال بثقافة اليونان [٥] ، والذى نذهب إليه أن تطور الكتابة على يدى عبد الحميد الكاتب لم يكن إلا أثرا من آثار التطور العقلى والأدبى للأمة العربية لاغير .

منزلة عبد الحميد الكاتب :

والحق أن عبد الحميد جدير بأن يكون شيخ الكتاب ، لما حباه الله

---

(١) يروى صاحب الفهرست فى صفحة ١٧١ أنه ترجم إلى العربية رسائل أرسطو إلى الإسكندر .

(٢) ٤٠ و ٤١ - ٥٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين .

(٣) ٥٧ : ١ النثر الفنى .

(٤) ٦٩ الصناعتين ، ٨٩ ح ٢ ديوان المعانى .

(٥) ٤٢ ، ٤٤ و ٦٦ من حديث الشعر والنثر .

من مواهب عظيمة . وصفات جليلة ، وذكاء نادر ، ولأنه تلميذ لسالم مولى هشام ، وكانت ثقافته خليطاً من العربية واليونانية ، ثم كان صديقاً مخالطاً لابن المقفع الذى يجيد الفارسية والعربية . فاجتمع لعبد الحميد أسمى ما فى بلاغة العرب واليونان والفرس .

مذهب عبد الحميد فى الكتابة :

استطاع عبد الحميد الكاتب بمواهبه وثقافته أن يبتكر فى الكتابة الفنية مذهبا كان من أهم أصوله ما يلى :

١ — القدرة على الإيجاز فى غير إخلال حين يكون الإيجاز مطلوبا ، وعلى الإطالة فى غير إملال حين يكون الطول مرغوباً فيه ، حتى قيل إنه كان يكتب فى سطر واحد ما يكتبه فى صفحات ، ولقد روى أنه كتب إلى أبى مسلم الخراسانى حين أظهر الدعوة لبنى العباس على لسان مروان بن محمد كتاباً يستميله فيه ، وقال لمروان : لقد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذاك وإلا فالهلاك ، وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على بعير ، فلما وصل إلى أبى مسلم أمر بإحراقه قبل أن يقرأه ، وكتب على جذاذة منه :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى
عليك لئوث الغاب من كل جانب

وقالوا : إنه كان لقدرته على الإيجاز فى موضعه ، والإطناب فى مكانه يتخير لكل منهما محله الذى يناسبه ، فيطنب فى الإخبار بالفتوح ، والحث على الجهاد ، والوعد والوعيد ، ويوجز فى أخبار الهزائم ووصف الأعداء ، ومن إيجازه قوله موصياً بشخص : « حق موصل كتابى إليك كحقه على ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله » وطلب منه مروان أن يكتب لعامل أهدى إليه عبداً أسود ، فكتب إليه : لو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهديته » .

٢ — وقد أكثر عبد الحميد من الرسائل الإخوانية ، وكانت قبله قليلة ضئيلة .

٣ — كما أطال فى البدء والختام وأكثر من تنويعهما حسب المقام ، وأطال فى البدء بنوع خاص بعبارات التحميد والثناء بما يعد جديداً فى هذا العصر ، كالإتيان بكثير من التحميدات فى أساليب متنوعة وصور مختلفة ، وكالبدء ببسم الله ثم إتباعها بالحمد لله فاصلا بينهما بأما بعد .

٤ — تجويد الأسلوب والعنابة به (١) عناية كثيرة .

عوامل نهضة الكتابة فى آخر العصر الأموى :

تلك هى منزلة الكتابة فى العهد الثانى من عصر بنى أمية ، وذلك هو مكانها الرفيع الذى بلغته فى ذلك الطور ، ويرجع سر ازدهارها إلى ما يأتى :

١ — اتساع أعمال الدولة وديوان الرسائل ، مما استدعى العناية بالكتابة والكتاب .

٢ — عناية الكتاب بها وجعلها صناعة فنية عتيدة ، مع تعدد ثقافاتهم العربية والأجنبية . التى كان لها أثرها فى الكتابة ، حتى ليقال: إن عبدالحميد أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية (٢) .

٣ — ضعف الملكات من أثر الاختلاط وتشعب الأعمال، فقل الحرص على الخطابة ، وأخذت الكتابة فى الظهور والذيوع .

٤ — كان للموالى - من أبناء الفرس والروم واليونان ورثة الثقافة

(١) يقول طه حسين : ربما لم يوجد كاتب يعدل عبد الحميد فصاحة لفظ وبلاغة معنى واستقامة أسلوب ، فهو أحسن من كتب العربية .

(٢) ٥٧ : ١ النثر الفنى .

والمدنية ـ أثر كبير فى نهضة الكتابة ، وتحولها إلى صناعة فنية ، لها منهجها وأسلوبها وطرق أدائها ، ونظامها فى البدء والختام : وكان لأذواقهم أثر فى اتسامها بالسهولة والوضوح ، وفى البعد عن الغريب والوحشى والتعقيد والتنافر وتفكك المعانى والأفكار ، فاشتدت الصلة بين كل جملة وأختها : وقل الاقتضاب والاعتراض بين أجزاء الكلام .

وقصارى القول أن الكتابة الفنية بلغت فى هذا العصر غاية لا تدرك . ومنزلة لا تنال .

فن التوقيعات :

على أننا لا نحب أن نترك الكلام عن الكتابة الفنية ، دون أن ننبه إلى لون جديد منها ظهر بوضوح فى هذا العصر ، ذلك هو (التوقيع) ، وهو الكتابة على هوامش الرسائل التى ترفع إلى الخلفاء والولاة وذوى الشأن بما يفيد العلم بها ، وإبداء الرأى فيها .

وتمتاز هذه التوقيعات بالإيجاز . ولطف الإشارة ، وقوة الإثارة ، وسلامة العبارة ، وكثيراً ما يكون التوقيع آية مقتبسة ، أو حديثاً مروياً ، أو حكمة صائبة أو مثلا سائراً ، أو بيتاً من الشعر .

ويقال إن أول ماعرف من ذلك كان لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إذ كتب إلى سعد بن أبى وقاص فى بنيان : « ابن مايستر من الشمس ويكن من المطر » ، ووقع إلى عمرو بن العاص : « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك » .

ووقع سعيد بن العاص فى كتاب لزياد يخطب إليه فيه : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

ووقع عبد الملك فى كتاب للحجاج شكا فيه أهل العراق : « ارفق بهم ، فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ، ومع الخرق ما تحب » .

وكتب عمر بن عبد العزيز توقيعا على كتاب عامل له يستأذنه فى تجديد بناء مدينة : « ابنها بالعدل ، ونق طرقها من الظلم » .

وكتب إليه عامله على الكوفة يخبره أنه فعل فى أمر فعل عمر بن الخطاب فوقع له : « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده » .

ولقد دعا إلى ذيوع التوقيعات ، ما تكاثر فى هذا العصر من مظاهر الملك ، وتنوع من شئون الدولة ، وتعدد من حاجات الناس ومطالبهم ، وكان لابد للخلفاء والولاة أن يدلوا فى كل ذلك برأى ويشيروا بما لديهم من تدبير ، ومن هنا اضطروا إلى الإيجاز فى التعليق ، واصطناع الحكمة فيما يختارون من توقيع .

نصوص من الكتابة الفنية فى العصر الأموى

١ — بين الحجاج وعبد الملك بن مروان

كان عروة بن الزبير عاملا على اليمن لعبد الملك بن مروان ، فاتصل به أن الحجاج يجمع على مطالبته بالأموال التى بيده وعزله عن عمله ، ففر إلى عبد الملك وعاذ به ، تخوفا من الحجاج ، واستدفاعاً لضرره وشره ، فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يقول :

أما بعد فإن لواذ (١) المعترضين بك ، وحلول الجانحين إلى المكث بساحتك ، لاستلانتهم دمث (٢) أخلاقك ، وسعة عفوك ، كالعارض (٣)

---

(١) لاذ به لواذا ولياذا ولوذا لجأ إليه وعاذ به .

(٢) دمث دمثا ، كفرح فرحا ، فهو دمث : لان وسهل . والدماثة : سهولة الخلق .

(٣) العارض : السحاب المعترض فى الأفق .

المبرق لأعدائه لا يعدم له شائما (١) ، رجاء استمالة عفوك ، وإذا أدنى الناس بالصفح عن الجرائم ، كان ذلك تمرينا لهم على إضاعة الحقوق ، مع كل ضال ، والناس عبيد العصا ؛ هم على شدة أشد استباقا منهم على اللين ، ولنا قبل عروة بن الزبير مال من مال الله ، وفى استخراجه منه قطع لطمع غيره ، فليبعث به أمير المؤمنين ، إن رأى ذلك ، والسلام . . فكتب إليه عبد الملك ، ردا على رسالته :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين رآك — مع ثقته بنصيحتك — خابطا فى السياسة خبط عشواء (٢) الليل ؛ فإن رأيك الذى يسول لك أن الناس عبيد العصا هو الذى أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أحرجك العامة بعنف السياسة ، كانوا أوشك (٣) وثوبا عليك عند الفرصة ، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعى ولا هداه ، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك ، وقد وليت العراق قبلك ساسة ، وهم يومئذ أحمى أنوفا ، وأقرب من عمياء الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم ، واللين أهون ، والإفراط فى العفو أفضل من الإفراط فى العقوبة . . والسلام .

تعليق على النصين :

يمثل هذان النصان البلاغة العربية وهى فى الذروة ، والملكات الأدبية وهى فى قمة فصاحتها وسلامتها ؛ ويمثلان على الخصوص بلاغة الحجاج وعبد الملك بن مروان — والثانى خليفة أموى عظيم ، والأول من أشهر الولاة لبنى امية من حكام الأقاليم — تمثيلا قويا واضحا .

وفى نص الحجاج روح الطغيان والاستبداد ظاهرة كقوله « الناس

---

(١) شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين يمطر .
(٢) العشواء : الناقة التى لا تبصر أمامها ، فهى تخبط بيديها كل شىء .
(٣) أى أسرع .

عبيد العصا ، مما لم يفت عبد الملك الخليفة الرد عليه ، وتفنيد رأى الحجاج فيه ، وتسفيه سياسته ، ونقد نظام إدارته للعراق .

وفى نص عبد الملك يبدو عقله السياسى فى القمة ، وخطته فى سياسة الرعية ، ورأيه فى حكم العراق خاصة ، والأقاليم العربية عامة ، وهو رأى له بالإسلام صلة وبسياسة العصر الحديث شبه .

٢ — رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب

كان عبد الحميد بن يحيى الكاتب من أشهر الأدباء والبلغاء والكتاب الذين نبغوا فى الدولة الأموية ، بل كان شيخ الكتاب ، وأول من أطال الرسائل ونوع فى أغراضها وأساليبها ، وتخرج فى البلاغة والكتابة على ختنه (١) أبى العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب دولته وأحد بلغاء عصره

لقد كان عبد الحميد الأستاذ الأول لأهل صناعة كتابة الرسائل ، فهو أول من مهد سبلها ، وميز فصولها ، وأطالها فى بعض الشئون . وقصرها فى بعضها الآخر ، وأطال التحميدات فى صدرها وجعل لها صوراً خاصة ببدئها وختمها ، على حسب الأغراض التى تكتب فيها ، بل هو الذى رقى هذه الصناعة التى كانت من مهن الموالى ، حتى صارت بعده سلما يعرج فيه الكاتب إلى مرتبة ليس فوقها إلا الخلافة : وهى مرتبة الوزارة ، وكان لبلاغته عمل يعجز عنه السحر فى خلب الأفئدة وجذب النفوس ، فيقال إنه لما ظهر أبو مسلم الخراسانى بدعوة بنى العباس كتب إليه عن مروان كتاباً يستجلبه به وضمنه ما لو قرىء لأدى إلى وقوع الخلاف والفشل ـ وقال لمروان : قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره فإن لك ذلك وإلا فالهلاك ، فبعث به إلى أبى مسلم ، فبادر بحرقه خوفا من التأثر ببلاغته ، وقال :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى إليك ليوث الغاب من كل جانب

---

(١) الختن : من كان من قبل المرأة كالأب والأخ .

وقد بعث عبد الحميد بهذه الرسالة إلى الكتاب يوصيهم فيها ، ويوجههم إلى آفاق كثيرة من صناعة الكتابة ، ويوسع مجال القول أمامهم . . وهذه نصوص منها ، قال عبد الحميد :

أما بعد ـ حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ـ فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين ، أصنافا ، وإن كانوا فى الحقيقة سواء ، وصرفهم فى صنوف الصناعات ، وضروب المحاولات ، إلى أسباب معاشهم ، وأبواب رزقهم . فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلدانهم ؛ لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كاف إلا منكم ، فوقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون وأبصارهم التى بها يبصرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يبطشون . فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم . . وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم . . أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج فى نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره أن يكون حليما فى موضع الحلم ، فهما فى موضع الحكم ، مقداما فى موضع الإقدام ، محجاما فى موضع الإحجام ، مؤثرا للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوما للأسرار ، وفيا عند الشدائد ، عالما بما يأتى من النوازل ، يضع الأمور فى مواضعها ، والطوارق فى أماكنها ، قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به ، يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ، ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل أمر عدته

وعتاده ، وبهيء لكل وجه هيئته وعادته . . فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب ، وتفهموا فى الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ؛ ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم وأروا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها ، وسيرها فإن ذلك معين لكم على ماتسمو إليه همكم ، ولا تضيعوا النظر فى الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سفيها ودنيها وسفساف الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة ، وارباءوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات . وإياكم والكبر والسخط والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذى هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم .

والرسالة — كما ترى — تمثل أسلوب عبدالحميد وخصائص كتابته الأدبية ، من الدقة فى الإطناب والإيجاز واستعمال كل منهما فى المقام الذى يناسبه ، ومن وضع صور للبدء والختام فى الرسائل ، ومن تخير الألفاظ ذات الجرس القوى والمعنى الفخم ، يصوغها فى الأساليب السهلة الرائعة ، مع قوة الحجة وترتيب الفكر ووضوح المنطق ، والميل إلى الإقناع ، ومن تجافى الغريب ، والبعد عن السوقى ، وإيثار الجزالة والعذوبة . إلى ما فى الرسالة من بيان مكانة الكتاب فى ذلك العصر ، وهى أشبه بمكانة الصحفيين اليوم ؛ وما اشتملت عليه من الأخلاق التى يجب أن يتحلوا بها ، ومن الثقافات التى يجب أن يتزودوا بزادها . والرسالة وثيقة خطيرة فى مقاييس البلاغة والنقد عند الكتاب فى القرن الثانى الهجرى .

٣ — موازنة بين قطعتين من النثر

ا — كتب عبد الحميد بن يحيى على لسان مروان بن محمد عهدا إلى ابنه عبد الله بن مروان حين وجهه إلى قتال الضحاك بن قيس الشيبانى :

استكثر من فوائد الخير ، فإنها تنشر المحمدة ، وتقيل العثرة ، واصبر على كظم الغيظ ، فإنه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة ؛ وتعهد العامة بمعرفة دخائلهم ، وتبطن أحوالهم ، واستثارة دفائنهم ، حتى تكون منها على رأى عين ، ويقين خبرة ، فتنعش عديمهم ، وتجبر كسيرهم ، وتقوم أودهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح فاسدهم ، فإن ذلك من فعلك بهم يورثك العزة ، ويقدمك فى الفضل ، ويبقى لك لسان الصدق فى العامة ، ويحرز لك ثواب الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منـــك ، وقلوبهم المتنحية عنك . قس بين منازل أهل الفضل فى الدين والحجى والرأى والعقل والتدبير والصيت فى العامة ، وبين منازل أهل النقص فى طبقات الفضل وأحواله ، والخمول عند مباهاة النسب ؛ وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل ، ويستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل ، وتبلغ درجة الشرف فى أحوالك المتصرفة بك ، فاعتمد عليهم مدخلا لهم فى أمرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستمعا منهم ، وإياك وتضييعهم مفرطاً ، وإهمالهم مضيعا .

هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسراً ، وجمع لك شواذها مؤلفاً ، وأهداها إليك مرشداً ، فقف عند أوامرها ، وتناه عن زواجرها ، وتثبت فى مجامعها ، وخذ بوثائق عراها ، تسلم من معاطب الردى ، وتنل أنفس الحظوظ ، ورغيب الشرف ، وتعل درج الذكر ، والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد ، وتتابع المزيد ، وبلوغ الأمل .. إلى آخر هذا العهد الطويل البليغ .

ويذكرنا هذا العهد بعهد الإمام على بن أبى طالب الذى كتبه للأشتر النخعى حين ولاه أمر مصر ؛ قال الإمام على فيما قال :

اعلم يامالك أنى قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول من قبلك من عدل وجور ، وأن الناس ينظرون فى أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك كما كنت تقول فيهم ، إنما يستدل على الصالحين بما يجرى الله لهم على ألسنة عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح فأملك هواك ، وشح بنفسك عما لايحل لك ؛ فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت وكرهت ؛ وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك فى الدين ، وإما نظير لك فى الخلق ، يفرط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فإنك فوقهم ، وولى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك ، وقد استكفاك أمرهم ، وابتلاك بهم . ولا تنصبن نفسك لحرب الله ، فإنه لايدى[1] لك بنقمته ؛ ولاغنى بك عن عفوه ورحمته ؛ وليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق ، وأعمها فى العدل ، وأجمعها لرضى الرعية ، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مئونة فى الرخاء ، وأقل معونة فى البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقل شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأخف صبرا عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة . وإنما عمود الدين ، وجماع[2] المسلمين ، والعدة من الأعداء ؛ العامة من الأمة . فليكن صفوك لهم ، وميلك معهم .

---

(١) اى لاطاقة لك : مثنى يد .

(٢) جاع الشىء : مجتمع أصله .

ب — ونحن هنا نستطيع أن نوازن بين هذين العهدين فى إيجاز :

نلاحظ على أسلوب عبدالحميد الميل إلى الإسهاب والترسل ، أما أسلوب الإمام ففيه جنوح إلى الإيجاز مع البلاغة الطبعة المواتية ، وعبد الحميد يعلل بلاغة كلامه بما حفظ من كلام الإمام فى أول نشأته ، ونلاحظ أن الإمام عليا كرم الله وجهه قد زود بهذا العهد قائده الأشتر النخعى حين ولاه «مصر التى « جرت عليها بلاد قبله من عدل وجور » والتى كانت حديثة عهد بفتنة ذهبت بالخليفة المظلوم عثمان . فكان من الحق أن ينهج له القصد ويهديه السبيل . أما عبد الحميد فقد كتب العهد فيما زعموا إلى ولى العهد وهو ذاهب إلى الحرب ، وعجب أن يزود القائد وهو غاد إلى القتال برسالة تقع فى قرابة خمسين صفحة من هذا الكتاب ، وأكثره مما لاصلة للحرب به ، وما رأينا أحدا من المؤرخين أثبت هذا العهد فى هذا المقام ، وما عهدنا فى مثل هذا الموطن إلا الايجاز ، وقد يكون عبد الحميد كتب هذا العهد ولا غرض له إلا أن يعارض عهد الإمام على كرم الله وجهه . لذلك لاتجد لهذا العهد رباطا يربطه ، ولامداراً يدور عليه ، بل أكثره جمل مترادفة ، وموضوعات منتزعة ، لاتكاد تجمعها ألفة ، أوتصلها قرابة .

وانظر إليه حين يسوق إلى وليه بعض النصائح التى لايصلها غرض ولا وشيجة ، كيف ينوه بها فى قوله « هذه خصال . . . » ويسوق فى هذا التنويه عشرين جملة متتابعة .

أما الإمام على رضى الله عنه فقد دق فى ترسله دقة لايصل إليها أهل الإيجاز ، وذهبت كل فقراته المتلاحقة بمعنى خاص لايقوم به غيرها ، وانظر إلى وصفه لأهل الخاصة كيف يقول فيه : «وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة فى الرخاء ، وأقل معونة فى البلاء . وأكره للإنصاف ،

وأسأل بالإلحاف وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأخف صبراً عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة » .

فهذه الجمل المتناسقة المتقابلة لم تقع على معنى واحد ، بل وقع كل منهما على معنى خاص لابد منه .

ومهما كان فقد تأثر عبد الحميد ببلاغة الإمام على تأثراً كبيراً ظهر فى عهده هذا .

٤ — وكتبت السيدة زينب بنت على عليه السلام إلى الخليفة يزيد ابن معاوية بعد مقتل الحسين :

صدق الله ورسوله يايزيد: ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون ، أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى . أن بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة ! وان هذا لعظيم خطرك ! فشمخت بأنفك ونظرت فى عطفك جذلان فرحا ، حين رأيت الدنيا مسوقة لك ، والأمور متسقة عليك . وقد أمهلت ونفست . وهو قول الله تبارك وتعالى (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم . إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) .. أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك نساءك وإماءك ، وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هتكت ستورهن ، وصحلت حدوجهن (١) مكتئبات تحدى (٢) بهن الأباعر ويحدوبهن الأعادى ، من بلد إلى بلد ، لايراقبن ولا يؤوين ، يتشوفهن (٣) القريب والبعيد ، ليس معهن ولى من رجالهن . وكيف يستبطأ فى بغضتنا من نظر إلينا بالشنف والشنآن ، والإحن والأضغان . أتقول « ليت أشياخى ببدر شهدوا » ، غير متأثم ولا مستعظم ، وأنت تنكت ثنايا أبى عبد الله بمخصرتك ، ولم

---

(١) صحلت : انشقت . والحدوج جمع حدج - بكسر الحاء - مركب للنساء كالمحفة .
(٢) حدا البعير والفرس أسرع . (٣) يتشوفهن : أى يمتلهن .

تكون كذلك ، وقد نكأت (١) القرحة واستأصلت الشأفة. باهراقك دماء ذرية رسول الله محمد ، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب . وليردن على الله وشيكا موردهم ، ولتودن أنك عميت وبكمت . وأنك لم تقل : فاستهلوا وأهلوا فرحا . اللهم خذ بحقنا وانتقم لنا ممن ظلمنا . والله ما فريت إلا فى جلدك ، ولا حززت إلا فى لحمك ، وسترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم برغمك ، وعترته ولمته فى حظيرة القدس يوم يجمع الله شملهم ، ملمومين من الشعث — وهو قول الله تبارك وتعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » ، وستعلم من بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين . إذا كان الحكم الله ، والخصم محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجوارحك شاهدة عليك ، بئس للظالمين بدلا ، وأيكم شر مكانا وأضعف جندا ، مع أنى والله ياعدو الله وابن عدوه أستصغر قدرك ، وأستعظم تقريعك غير أن العيون عبرى ، والصدور حرى ، وما يجزى ذلك أو يغنى عنا ، وقد قتل الحسين عليه السلام ، وحزب الشيطان يقربنا إلى حزب السفهاء ، ليعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله ، فهذه الأيدى تنطف من دمائنا ، وهذه الأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الزواكى يعتامها عسلان (٢) الفلوات ، فلئن اتخذتنا مغنما ، لتتخذنا مغرما ، حين لاتجد إلا مافدمت يداك ، تستصرخ يا ابن مرجانة ويستصرخ بك ، وتتعاوى ويتعاوى بك عند الميزان . ووجدت أفضل زاد زودك معاوية ، فتلك ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما اتقيت غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكد كيدك ، واسع سعيك وناصب جهدك ، فوالله لا يرخص عنك عار ما أتيت إلينا أبداً ، والحمد لله الذى ختم بالسعادة والمغفرة ، لسادات شبان الجنان ، فأوجب لهم الجنة ، أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله ، فإنه ولى قدير (٣) .

---

(١) نكأ القرحة : حكها .

(٢) عسلان : جمع عاسل : الذئب ، واعتام الشىء اختاره .

(٣) مضت هذه القطعة فى ص ٢٤٣ على أنها خطبة لها أمام يزيد .

تراجم لأشهر الكتاب فى العصر الأموى

عبد الحميد الكاتب

واضع الأصول الفنية للكتابة فى الأدب العربى

١ — عبد الحميد الكاتب شخصية غريبة فى تاريخ التراث الأدبى عند العرب ، وحياته غامضة أشد الغموض . لأن الخلافة العباسية أسدلت عليه سجبا كثيفة من الإهمال والنسيان ، باعتباره الكاتب السياسى الأول لدولة بنى أمية ، ولقبه الجاحظ فى كتابه المشهور « البيان والتبيين » بعبد الحميد الكاتب أو الأكبر ، ويعظم النقاد العرب من منزلته فى الأدب العربى ، فيقولون فيه : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » .

وكان أبوه يسمى يحيى ، من سلالة غير عربية ، من أهل الشام ، الذين دخلوا فى الاسلام وتعلموا العربية ، ولا يعرف متى ولا أين ولد عبد الحميد فى أرض الشام ؛ وإن كان من المرجح أنه ولد فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ : ٧٠٥ - ٧١٥ م) ، فى دمشق أو قريبا منها .

وكانت الدولة آنذاك للأمويين ، وعاصمتهم السياسية مدينة دمشق ، التى بنوا فيها المساجد والمدارس والقصور ، وأنشأوا فيها الحدائق والدواوين والحصون والقلاع ، وأصابها من عناية الأمويين ماصارت به قبلة الناس من كل صوب وحدب ، فاتسع عمرانها ، وصبغت بصبغة حضارية واضحة المعالم ، وصارت موطنا رفيعا من مواطن الثقافة والأدب فى العالم الإسلامى ، ووفد إليها الناس فى مختلف شئونهم ، وأصبحت تعد من أعظم مدن العالم وأجملها ، ونعم سكانها بالعدل والأمن والثراء ، ونعمت كل العناصر الأجنبية فيها بالحرية ، وعاملهم المسلمون بالتسامح ، حتى رضوا بسلطان العرب ، وطرحوا المسيحية ، ودخلوا فى الإسلام ، وتعلموا العربية كما يقول غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » .

وكانت الشام أحد الأقاليم الكبرى فى الامبراطورية الإسلامية آنذاك ،

وتشمل : فلسطين ، والأردن ، ودمشق ، وحمص ، وقنسرين . . وتتصل بإقليم العراق ، وبإقليم « الجزيرة وأرمينية » بصلات وثيقة .

وفى ظلال الأمويين اتصل الفكر العربى بالثقافة والآداب الاغريقية والرومانية فى الشام ومصر ، وكان الأدب الرومانى السائد فيهما قبيل الفتح العربى تطويرا جديدا للآداب اليونانية فى عصرها الاسكندرى الرومانى ، هذا العصر الذى يبدأ بدخول أثينا فى حكم الرومان فى القرن الأول قبل الميلاد ، وينتهى بالفتح الاسلامى لهذه البلاد فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى . . كما اتصل العقل العربى كذلك فى مدن العراق بالثقافة الفارسية القديمة ، وبخاصة فى مدينة البصرة المشهورة ؛ وكان ملوك إيران ، وبخاصة سابور بن أردشير فى أواسط القرن الثالث الميلادى ، وكسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) ، قد بذلوا كثيرا من الجهد فى نقل الثقافة الاغريقية إلى ثقافة بلادهم ، وقام التراجمة السريانيون ، بذلك العبء ، حيث نقلوها أولا إلى الفارسية ، ثم نقلوها إلى لسانها السريانى ؛ ونقلوها أخيرا إلى اللغة العربية فى ظلال العصر الإسلامى وفى عهد الأمويين والعباسيين .

٢ — تعلم عبدالحميد الكاتب اللغة العربية وبلاغة العرب ، وتفوق فيهما ، فسلس لسانه ، وجادت لغته ، وظهرت مواهبه فى الأدب والبلاغة والبيان والخطابة والكتابة وعمل فى أول أمره معلما ، وتنقل فى البلدان .

وكانت ثقافة الأديب آنذاك مزيجا من الثقافة العربية الإسلامية ، ومن التاريخ والأنساب والقصص والسير ومعرفة أيام العرب وتاريخ العجم ، وأحيانا يضاف إلى ذلك ثقافة أجنبية أخرى كالثقافة الفارسية أو الاغريقية أو الرومانية أو المصرية القديمة أو الهندية ؛ وفى رسالة عبد الحميد إلى الكتاب مايوضح لنا أصول الثقافة الأدبية فى عصره .

وقد تتلمذ عبد الحميد فى الكتابة على أبى العلاء سالم الكاتب السياسى لهشام بن عبد الملك (١٠٥ - ٢٥ ؛ هـ : ٧٢٤ - ٧٤٣ م) ، ويروى ابن النديم

فى «الفهرست» أن أبا العلاء ترجم إلى العربية رسائل أرسطو إلى الإسكندر، وذلك يدل على تضلعه فى الثقافة والآداب واللغة اليونانية ، وكان أبو العلاء أحد الواضعين لنظام الرسائل الأدبية ، ولتقاليد الكتابة الفنية وله رسائل كثيرة كما يذكر ابن النديم ، وكان صهرا لعبد الحميد ، إذ كان زوج أخته ، وكان جبلة بن سالم الذى تولى الكتابة السياسية فى ديوان الرسائل لهشام أيضا صديقا حميما لعبد الحميد الكاتب ، وكان جبلة يعرف الفارسية وهو أحد المترجمين منها إلى العربية ، كما كان صديقا حميما لعبد الله ابن المقفع (١٠٦ - ١٤٢ هـ : ٧٢٥ - ٧٦٠ م). وابن المقفع فارسى الأصل، وأحد المترجمين من اللغة الفارسية إلى اللسان العربى كذلك . . وذلك كله يدعنا نرجح أن عبد الحميد إلى جانب ثقافته العربية كان يعرف اليونانية والفارسية .

فزكى مبارك فى كتابه النثر الفنى يرجح أن عبد الحميد كان يجيد الفارسية ويعرف آدابها ، وينقل منها إلى العربية ؛ ويؤيد ذلك قول أبى هلال العسكرى (١٩٥ هـ : ١٠٠٥ م) فى كتابيه : « الصناعتين » ، و « ديوان المعانى » إن أبا هلال « استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى ، فحولها إلى اللسان العربى » ويقول زكى مبارك : إن عبد الحميد أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية .

ويؤيد الدكتور طه حسين فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » أن عبد الحميد كان شديد الاتصال بثقافة اليونان متأثر بها أشد التأثر فى فصوله الأدبية .

٣ — وذاعت شهرة عبد الحميد الكاتب ، وعرفت مواهبه الأدبية ، وثقافاته الكثيرة ، فقربه إليه الأمير الأموى مروان بن محمد حاكم إقليم الجزيرة وأرمينية ، هذا الإقليم الغنى الممتد الأطراف ، الذى كان يشمل : بلاد الموصل ، وأزربيجان وولايات أرمينية ، وكان مروان قد

تولى الإمارة على الإقليم بعد وفاة والده محمد بن مروان الأموى ولم يلبث الأمير الأموى مروان أن قاد جيشا كثيفا من أبناء الجزيرة وأرمينية ، وزحف به على الشام فاستولى على حمص وقنسرين وسواها من المدن ، ثم زحف على دمشق ودخلها بجيشه ، وتولى أمور الخلافة الأموية ، وبايعه الشعب بخلافة المسلمين فى قصر الخلافة عام ١٢٦ هـ : ٧٤٤ م ، وأخذت البيعة لمروان فى جميع مدن الشام ، ولما بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة سجد لله شكرا وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان : لم لا تسجد ؟ فقال : أعلى أن كنت معنا فطرت عنا ؟ قال مروان : إذن تطير معنا ، قال : الآن طاب لى السجود وسجد .

كان عبد الحميد يتولى شئون ديوان الرسائل الأمير مروان بن محمد أثناء ولايته للجزيرة وأرمينية ، وصار وثيق الصلة به وازدادت مكانته عنده ، ووثق فيه الأمير ثقة كبيرة كان عبد الحميد جديرا بها ، وصدرت عنه رسائل سياسية كثيرة فى ذلك العهد ؛ ولما تولى مروان الخلافة صار عبد الحميد الكاتب الأول له فى ديوان الرسائل بدمشق . وصدرت عنه رسائل أدبية وسياسية ذات شهرة فنية كبيرة .

شاهد عبد الحميد كل الأحداث السياسية التى مرت بالعرش الأموى أثناء حكم مروان بن محمد (١٢٦ - ١٣٢ هـ : ٧٤٤ - ٧٥٠ م) ، ورأى الزحف العباسى الكبير الذى بدأ من خراسان ، واستمر حتى نهر الزاب الذى بلغته قوات العباسيين فى جمادى الآخرة عام ١٣٢ هـ ؛ وبلغته أنباء المعركة الكبرى التى دارت على نهر الزاب بين جيوش الخليفة مروان وجيش المسودة من العباسيين ، والتى انتهت بهزيمة مروان وجيشه فى أوائل رجب ١٣٢ هـ ، وهرب مروان إلى الشام فمصر ، وهرب كاتبه وصديقه عبد الحميد إلى البحرين ، ودخل العباسيون دمشق واستولوا على قصور الأمويين وكنوزهم ، وجدوا فى تشريد الأمويين والقضاء عليهم فى كل مكان ، وعلى أنصارهم فى جميع مدن الشام ؛ وكذلك جدوا فى البحث

عن مروان بن محمد حتى قبضوا عليه فى بلدة « بوصير » من أعمال الجيزة وقتلوه لليلتين بقيتا من ذى الحجة عام ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م . وكان مروان قد أمر خادما له أن يدفن فى الصحراء خاتم النبى وبردته وعصاه وكان يعتز بها خلفاء بنى أمية ويتوارثونها . وذلك حين فاجأته جيوش العباسيين ، ولما قبضوا على الخادم قدم للقتل ، فطلب إليهم أن يضمنوا حياته ليكشف لهم عن مكان هذا الكنز الإسلامى الكبير ، وفعلوا فأرشدهم إلى مكانه فأخذوه وبعثوا به إلى أبى العبـــاس السفاح الخليفة العباسى فى العراق ، والذى أطلق عليه لقب السفاح لكثرة ما قتل من الأمويين وأنصارهم . . وأما بنات مروان وجواريه فقد أخذن بعد قتل أبيهن إلى صالح بن على فتكلمت أمامه بنته الكبرى « أم مروان » تسأله العفو وأن يلحقهن بحران مدينة مروان المفضلة فى حياته ففعل ، فأخذن يبكين مروان عند دخولهن إليها بكاء مريرا كما يروى المسعودى فى الجزء الثانى من تاريخه « مروج الذهب » .. وأما أولاد مروان : عبد الله ولى عهده ، وقائده فى أكثر المواقع ؛ وعبيد الله ؛ وغيرهما فقد هربوا إلى النوبة فالحبشة فى جماعة من الأمويين ، وقتل عبد الله هناك . ونجا عبيد الله كما يذكر الطبرى فى الجزء التاسع من تاريخه ، ويذكر ابن الأثير أن المقتول هو عبيد الله .. وأما مزنة امرأة مروان فتظاهر فى بغداد عام ١٦٠ هـ فى قصر الخليفة المهدى أمام الخيزران فى ثوب مرقع ما تستر به جزءا من جسدها إلا انكشف جزء آخر مع الجال والعظمة وسوء المظهر وشقاء الحال كما يذكر التنوخى فى كتابه « الفرج بعد الشدة »

بعد معركة الزاب وهزيمة مروان ومعه عبد الحميد بن يحيى الكاتب كتب هذا العبقرى العظيم إلى أسرته رسالة مؤثرة يقول فيها :

أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والشرور ؛ فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها

مستزيداً (١) لها . وقد كانت أذاقتنا أفاويق (٢) استحلبناها ، ثم جمحت (٣) بنا نافرة ، ورمحتنا (٤) مولية . فلح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ؛ فالدار نازحة (٥) ، والطير بارحة (٦) ، وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعـــدا ، وإليكم وجدا فإن تتم البلية إلى آخر مدتها ، يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الإسار والذل شرجار . . نسأل الله الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين :

رسالة كلها بكاء ودموع وحيرة ، ولا يرى فيها عبد الحميد من خلال الأحداث إلا القتل أو الأسر ، وهو يودع أسرته فيها وداعا مؤثراً ؛ ولا نعلم من أمر أسرته شيئا ، لأن التاريخ لم يعن بها ولا بربها منذ يوم الهزيمة المروعة ؛ هزيمة القائد فى المعركة التى خسر فيها كل شىء حتى حياته .

وألح مروان على صديقه عبد الحميد أن يهرب ، فقد ينجو من القتل ، أو أن ينضم إلى أعدائه من العباسيين ، فقد يستطيع أن يقدم خدمة لخليفته المهزوم ، وقال له مروان : إن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن فيك ، فاستأمن إليهم ، وأظهر الغدر بى ، فبذلك تنفعنى فى حياتى أو بعد مماتى ، قال عبد الحميد :

---

(١) يقول إن الانسان : فى شكايته الدنيا لاينتصف منها بل كأنه يستزيدها .

(٢) الأفاويق : جمع أفواق . والأفواق : جمع فيقة وهى اللبن الذى يجتمع فى الضرع بين الحلبتين .

(٣) جمحت الدابة : غلبت راكبها .

(٤) رمح الفرس : رفس .

(٥) النازح : البعيد .

(٦) البارح من الطير ما مر من ميامنك إلى مياسرك ومن الناس من يتشاءم به .

أسر وفاء ثم أظهر غدرة فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

يا أمير المؤمنين إن الذى أمرتنى به أنفع الأمرين لك وأقبحهما بى ، ولكنى سأصبر حتى يفتح الله عليك ، أو أقتل معك .

ولما ضاق بهما الأمر دعاه مروان إلى الهرب ، وأصر مروان على رأيه فاختفى عبد الحميد هاربا فى الأرض ؛ ولكن إلى من يهرب ؟

كان صديقه عبد الله بن المقفع فى العراق يكتب لداود بن هبيرة حاكم العراق من قبل مروان ، وكان ابن المقفع يزور دمشق وعبد الحميد الكاتب أحيانا ، إذا سار إلى عاصمة الأمويين مع أميره العظيم .. ولما اكتسحت جيوش العباسيين العراق ، قتلوا داود وأهله فيمن قتلوهم ، ونجا ابن المقفع من القتل بفراره فى ذلك الحين ، وظهر ابن المقفع في البحرين ، ولجأ إليه هناك صديقه عبد الحميد الكاتب ، وأقام عنده فى داره ، ولكن عيون العباسيين عرفت مكانه ، ففاجأه الطلب وهو فى دار ابن المقفع ؛ وهنا تظهر عظمة الرجلين المفكرين الكبيرين ، الذين ظلا على الأجيال حتى اليوم فخراً للفكر العربى ، قال الجند ، وهم شاكو السلاح : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، إشفاقا على صديقه ، وأوشك الجند أن يفتكوا بابن المقفع لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلا : ترفقوا بنا ، فإن لكل منا علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ، وليمض البعض الآخر إلى من وجهكم ليذكر له تلك العلامات ، فلم يجد الجند مناصا من ذلك ، وفعلوا وعادوا بأوصاف عبد الحميد كاملة ، فقبضوا عليه ، وقتل عام ١٣٢ هـ : ٧٥٠ م .

وهكذا خسر الفكر والأدب العربى أعظم رجاله ، وأروع شخصية يعتز بها تراثنا العقلى على مر العصور .. وكذلك كان حظ ابن المقفع فقد استمهله القدر عشرة أعوام ، ثم قتل عام ١٤٣ هـ : ٧٦٠ م فى عهد المنصور العباسى .

٤ — كان عبدالحميد عبقرية كبيرة ، وذهنا لماحا ، وذكاء خصبا ، وأدبا جماً ، ونبلا موفوراً ، وملكا فى ثياب عربى . . مع ثقافة واسعة ، وعلم بسياسة الدولة وشتى أمورها ، وإدراك لكل مسئوليات الرجل السياسى وواجباته مع قدرة فائقة على تملك ناصية البيان ، وزمام التأثير ، وروعة التعبير .

ويروى عنه أنه حين ظهرت الدعوة إلى العباسيين فى خراسان بقيادة أبى مسلم الخراسانى الفارسى زعيم الدعاة ، كتب عبد الحميد إليه على لسان الخليفة الأموى مروان بن محمد كتابا يستميله فيه إلى جانب الأمويين ، وحمل الكتاب على جمل لكبر حجمه ، وقال عبدالحميد للخليفة : لقد كتبت كتابا متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذاك وإلا فالهلاك . فلما وصل الكتاب إلى أبى مسلم أمر بإحراقه قبل أن يقرأه ، وكتب على جذاذة منه :

محا السيف أسطار البلاغه وانتحى إليك ليوث الغاب من كل جانب

وهذا يدلنا على عظمة كتابات عبد الحميد السياسية ، التى كانت بمثابة مقالات الصحف اليومية السياسية الذائعة اليوم ، وكان عبد الحميد يقدر على تصوير المعنى تصويراً بارعا لا يقدر عليه أحد من الكتاب . . أهدى وال من ولاة مروان إلى الخليفة عبداً أسود ، فطلب مروان من عبد الحميد أن يكتب إليه متهكما ، فبعث إليه عبد الحميد برسالة موجزة أشد الإيجاز يقول فيها : لو وجدت لونا شراً من السواد ، وعددا أقل من الواحد ، لأهديته » . . وبراعته ، أو قدرته على الإيجاز ، مشهورة ، كتب يوصى بشخص : « حق موصل كتابى إليك كحقه على ، إذ جعلك موضعا لأمله ، ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فصدق أمله » .

إن عبد الحميد كان جديراً أن يعد فى عصره وبعد عصره : شيخ الكتاب ، وإمام المنشئين والمترسلين فى الأدب العربى : فقد كان أمة وحده فى بلاغة العبارة ، ورصانة الأسلوب ، ودقة المعانى ولطفها ، وعظمة الخيال

وروعته ، وشدة التأثير وامتلاك ناصية البيان ؛ وكان يفصل جمله تفصيلا ، ويزينها أحيانا بقليل من السجع ، ويحليها بألوان من الوشى الفنى المطبوع .

٥ — ويرى الدكتور طه حسين وبعض النقاد أن عبد الحميد هو الذى ظهر على يديه النثر الفنى فى الأدب العربى ، وهو الذى أنشأ الكتابة الفنية إنشاء فى اللغة العربية ، هذه الكتابة التى يعتمد فيها الكاتب على التحبير والتنميق، إذ لم تظهر فى رأيهم فى العصر الجاهلى ولا فى عصر صدر الإسلام . وإن كان بعض مقدماتها وعناصرها قد أخذ فى الظهور فى عهد الخلفاء الراشدين ، أما هى جملة فقد تأخرت إلى العصر الأموى لتظهر فى رأيهم على يدى عبد الحميد الكاتب ، بتأثير الثقافة اليونانية فيه ، كما يقول الدكتور طه ، فهو الذى ترك آثارا كبيرة فى نهضة الكتابة ، وحولها إلى صناعة فنية ، لها مناهجها وأصولها وتقاليدها الأدبية ، ولها نظامها فى البدء والختام ؛ وكان لذوقه الحساس أثر كبير فى اتسام الكتابة بالسهولة والوضوح ، وفى البعد عن الغريب والوحشى والتعقيد والتنافر وتفكك المعانى والأفكار ، فاشتدت الصلة بين كل جملة وأختها . وقل الاقتضاب والاعتراض بين أجزاء الكلام .

ويرى الأستاذ مرسيه الفرنسى ، والمستشرق الانجليزى جب فى كتابه « تراث الإسلام » ، أن النثر الفنى يبتدىء بابن المقفع ، وأن القرن الأول الهجرى لم يكن فيه نثر يعتد به ، إنما كان الشأن فيه للشعر ؛ وابن المقفع فى رأيهما ورأى تلاميذهما أول ممثل للتطورات الجديدة فى الإنشاء العربى ، وأول مؤلف للكتابة الفنية الأدبية .

ولكن جمهرة كبيرة من النقاد العرب القدامى والمحدثين ، ومن بعض المستشرقين ، تصر على أن النثر الفنى ظهر فى الجاهلية ؛ واستحكمت نهضته بنزول القرآن الكريم ، وبالحديث النبوى الشريف ، وببلاغات البلغاء فى صدر الإسلام من خلفاء وقواد وولاة وغيرهم ، ونهج البلاغة مشهور

مقامه فى النثر الفنى ، وإن زعم البعض أن الشريف الرضى انتحله ، فإن فيه نصوصا لا يمكن أن يقال عنها إنها منتحلة ، وكثير من الأمم القديمة كان لها نثر فنى قبل الميلاد بكثير ، كاليونان والرومان والفرس والمصريين القدماء ، فلم لا يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون . ويبعد الدكتور طه القرآن الكريم عن مجال الاحتجاج فى هذه الخصومة الأدبية ، وإن كان القرآن فى الذروة العليا من النثر الفنى . والنثر الفنى فى الآداب الأوربية لم يزدهر بين عشية وضحاها ، بل تطور من عصر إلى عصر حتى بلغ غاية نهضته وازدهاره ، فلم لا يكون كذلك فى الأدب العربى ؟ بدليل أن النثر الفنى عند ابن المقفع هو نثر متقدم حى خلاق ، وليس بدائيا ؛ ونشك كل الشك فى أن ابن المقفع كتب هذا النثر الفنى الرفيع دون أن يكون له سابقون فى تاريخ الأدب العربى القديم .

فالنثر الفنى وجد قبل القرآن وصاحب نزول القرآن وتأثر به تأثراً عظيما ، ثم اتصل العرب بالآداب الأجنبية التى ظهرت آثارها فى كتاباتهم الأدبية منذ أوائل القرن الثانى الهجرى على يدى عبد الحميد وابن المقفع ، والأحوال الاجتماعية الجاهلية التى يرى الدكتور طه أنها لم تكن تساعد على نشأة النثر الفنى ، لا يمكن أن يشترك فيها عرب نجد وعرب الحجاز فى الحكم على حد سواء ، فإذا جاز لنا أن نقول عن العرب النجديين القدماء إن حياتهم لم تكن تساعد على إنشاء النثر الفنى ، فإنه لا يجوز لنا أن نذهب هذا المذهب ونحكم به على عرب الحجاز القرشيين ، الذين عرفوا الحكومة السياسية المنظمة وطبقوها فى مكة ، والذين عاشوا فى ظلال ترف ورخاء وألوان حضارية من العيش كثيرة . .

٦ — إن عبد الحميد بلا ريب كان ذا أثر كبير فى الكتابة الأدبية فى عصره ، فهو الذى سهل سبيل البلاغة فى الترسل ، وعنه أخذ المترسلون ، وهو أحد الذين كتبوا الفصول الأدبية كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين

كما يقول الدكتور طه ، وهو أول من فتق أكمام البلاغة وسهل طرقها ، وفك رقاب الشعر ، وآلت إليه زعامة الكتابة ، فمهد سبلها ، ووضح معالمها ، ورسم لها رسوما خاصة فى بدئها وختامها ، والإطناب فيها مرة والإيجاز أخرى ، فكان شيخ الكتاب ، ويحق ماقيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد . وقد ساعد عبد الحميد على إحداث هذا التأثير الأدبى الكبير الذى ظهر فى صورة مذهب فنى جديد فى الكتابة مايلى :

ا — نضوج الثقافة العربية الإسلامية ، من علوم الدين واللغة والأدب ، وإقبال الكتاب عليها ، وتمثلهم لها ، واحتذاؤهم حذوها .

ب — رواية أصول الأدب العربى ، شعرا ونثرا ، خطابة ووصايا وحكما وأمثالا وسجعا وقصصا وأخبارا وأنسابا ، والعكوف على استظهار ذلك ومحاكاته ، وعلى استظهار الشعر الجاهلى والإسلامى كذلك . وخطب الرسول ووصاياه ، وخطب الخلفاء والصحابة ، وبلاغات البلغاء وحكمهم ومأثور كلامهم ، حتى عصر عبد الحميد ، وبخاصة خطب الإمام على بن أبى طالب وحكمه .

ج — أثر القرآن الكريم والحديث النبوى فى تهذيب الألسنة ، وترقيق الطباع ، ونضوج الملكات .

د — اتصال العقل العربى بالآداب الأجنبية ، وتأثره بثقافات الفرس واليونان والرومان والهند وغيرهم .

ه — عناية الكتاب بكتابة الرسائل ، وجعلها صناعة فنية عتيدة .. إلى جانب اتساع أعمال الدولة وديوان الرسائل الذى كان يرؤسه كبار الأدباء والكتاب ، ممن أنشأوا الرسائل البليغة على ألسنة الخلفاء والأمراء . وقد استدعى كل ذلك العناية بالكتابة والكتاب .

وقد استطاع عبد الحميد أن يتصرف فى نثره الفنى تصرفا ذكيا يجمع بين

طرفى الإيجاز والإطناب ، ويراعى شتى الأحوال والمقامات ، وكان لقدرته على الإيجاز فى موضعه والإطناب فى موضعه . يتخير لكل منهما محله الذى يناسبه ، فيطنب : الإخبار بالفتوح ، والحث على الجهاد ، وفى الوعد والوعيد ، ويوجز فى أخبار الهزائم ووصف الأعداء . . كما أطال فى فواتح رسائله الأدبية وخواتيمها ، بما يعد جديدا فى هذا العصر ، كالإتيان بكثير من التحميدات فى أساليب متنوعة وصور مختلفة ، وكالبدء ببسم الله ثم إتباعها الحمد لله ، فاصلا بينهما بأما بعد وغير ذلك . . وبهذا عد عبدالحميد من أوائل من صنعوا الأصول والتقاليد الفنية فى النثر الفنى العربى والكتابة الأدبية .

وقد أكثر عبد الحميد من الرسائل الإخوانية ، التى ينشئها الكتاب البلغاء ، فتحمل مافى قلوبهم من مودة وإخاء ، أو تصور ما تجيش به مشاعرهم من مختلف العواطف والنزعات ، أو تعبر عما يتردد فى نفوسهم من آراء وأفكار ، فى أسلوب رائق ، ولفظ جميل ، وتصوير مؤثر .

ولعبد الحميد رسائل بليغة ذكر ابن النديم أنها تجتمع فى ألف ورقة لم يصل إلينا منها إلا القليل ، وفى دار الكتب المصرية رسالة تنسب إليه ، وقد جمع محمد كرد على فى كتابه « رسائل البلغاء » كثيرا من الفصول الأدبية التى تروى لعبد الحميد .

وقد ذاعت طريقة عبد الحميد وابن المقفع فى توخى السهولة وسلامة التعبير ، مع العناية بإجادة المعنى ، بين الكتاب فى عصرهما وفى العصور الأدبية كلها .

وهكذا مات هذا العبقرى الكبير ، وذهب الزمان بجل آثاره الأدبية والفكرية والسياسية ، وخسر الأدب العربى بذلك خسارة فادحة (١) ، ولمكانته فى الكتابة قال ابراهيم بن العولى : ما تمنيت كلام أحد من الكتاب يكون لى مثل عبد الحميد .

---

(١) راجع عن عبدالحميد : الفهرست لابن النديم ـ مروج الذهب للمسعودى =

النقد فى العصر الأموى

كانت البلاغة العربية فى هذا العصر ملء المشاعر والأذواق ، وكان العرب بطبيعتهم الأدبية يحكمون على الكلام أحكاما فيها فطنة ودقة ، وإن لم يهتدوا إلى أصول النقد وقواعده .

وكانت جماعات النقاد فى هذا العصر تتمثل فى الأدباء والشعراء والرواة وفى الخلفاء وفى غيرهم . وعلى أيديهم أصبح النقد أكثر دقة وأوفر عمقا ، وأدنى إلى التحليل والتعليل .

وهذه صور من النقد فى عصر بنى أمية ، تدل على ذوق ، وتشير إلى فهم لخصائص الكلام ، وتوحى بفهم النقاد لأصول البلاغة فى التعبير والمعنى والغرض . .

١ — انتقد عبد الملك ابن قيس الرقيات لضعف قافيته حين أنشده :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعننى وقرعن مروتيه
وجبينى جب السنام ولم يتركن ريشاً فى منكبيه (١)

= أمراء البيان لمحمد كرد على ـ رسائل البلغاء جمع محمد كرد على ـ من حديث الشعر والنثر لطه حسين ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام وأعلام الأدب فى عصر بنى أمية (جزءان) ومن بلاغة العرب والأدب العربى فى ظلال الأمويين والعباسيين وهى من تأليف محمد عبد المنعم خفاجى ـ تاريخ الأدب العربى للزيات ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، والوسيط ، والمفصل . والمجمل فى الأدب العربى والأخيران اشترك فى تأليفهما طه حسين وأحمد أمين ـ الفن ومذاهبه فى النثر لشوقى ضيف ـ أدب السياسة للحوفى ـ فن المقالة الأدبية لمحمد عوض محمد .

(١) جب : قطع .

فقال له : أحسنت لولا أنك خنثت فى قوافيك .

٢ — ودخل كثير عزة يوما على سكينة بنت الحسين ، فقالت له : أنت القائل :

فما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها (١)
بأطيب من أردان عزة موهنا
وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها (٢)

أى زنجية منتنة تتبخر بالمندل الرطب إلا طاب ريحها . ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيباً وإن لم تطيب (٣)

٣ — واجتمع الكميت ببعض الشعراء فأنشدهم من شعره حتى إذا بلغ قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة
وإن تكامل فيها الأنس والشنب (٤)

عقد نصيب واحدة فقال له الكميت ماذا تحصى؟قال : خطأ : باعدت فى القول ، ما الأنس من الشنب ؟ ـ يريد أنه جمع بين أمرين لا سبيل إلى جمعهما ـ

---

(١) الحزن : ماغلظ من الأرض . الجثجاث : نبات العرار ، بهار البر .
(٢) الأردان جمع ردن كقفل وهو الكم . الموهن : من أول الليل إلى نحو نصفه . المندل : العود .
(٣) قيل لكثير : مالك لاتقول الشعر أجبلت ، قال : والله ماكان ذلك ، ولكن فقدت الشباب فما أطرب ، ورزئت عزة فما أنسب ، ومات ابن ليلى فما أرغب ، يعنى عبد العزيز بن مروان (١ : ٣٠ الأمالى ، ٣ : ٤١٣ العقد) .
(٤) الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان .

٤ — واجتمع بعض الشعراء عند كثير عزة وفيهم عمر بن أبي ربيعة فأقبل كثير على عمر ينقد قوله :

قالت تصدى له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت فى خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تشتد فى أثرى (١)

وقال : إن الحرة إنما توصف بالحياء والامتناع وأنها مطلوبة لاطالبة.

٥ — ويروى أن الكميت عارض باثية ذى الرمة التى مطلعها :

* ما بال عينيك منها الماء ينسكب *

فقال :

هل أنت فى طلب الإيقاع منقلب
أم كيف يحسن من ذى الشيبة اللعب

وأنشدها ذا الرمة فقال له : ويحك إنك لتقول قولا ما يقتدر إنسان أن يقول لك أصبت ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تجيء به ولا تقع بعيداً عنه .

وامتدح ذوالرمة قصيدة للكميت بأنه أحسن فى ترقيص قوافيها .

٦ — ومن صور النقد قولهم فى ابن أبي ربيعة : إن لشعره موقعاً من القلب وعلوقا بالنفس ، وما قدموا به عمران بن حطان على الشعراء لأنه يقول وهو صادق فيفوقهم وهم يكذبون ، وقالوا : إن جريراً يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر . وكان جميل يقول فى عمر بن أبي ربيعة : إنه يجيد مخاطبة النساء وإن أحداً لم يخاطبهن بمثل ما خاطبهن به عمر ، وجرير يعترف للأخطل بأنه أشعرهم فى وصف الخمر ومدح الملوك وهكذا .

٧ — وقدمت ليلى الأخيلية على الحجاج فأنشدته :

---

(١) اسبطرت : أسرعت .

إذا ورد الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها
غلام إذا هز القناة سقاها

فقال لها : لا تقولى غلام ولكن قولى همام .

٨ — وأنشد كثير عزة قوله :

ألا ليتنا ياعز من غير ريبة بعيران نرعى فى خلاء ونعزب
كلانا به عر فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدى وأجرب(١)
إذ ماوردنا منهلا هاج أهله إلينا فلا تنفك نرمى ونضرب

فقالت له عزة : لقد أردت لى الشقاء الطويل .

٩ — وأنشد عبد الملك قول نصيب :

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى ؟

فقال بعض الحاضرين : أساء القول أيحزن لمن يهيم بها بعده ؟ قال عبد الملك لو كنت قائلا فماذا تقول ؟ قال :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

فقال عبد الملك : أنت أسوأ قولا ، ثم قال الوجه أن يقال :

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فلاصلحت دعد لذى خلة بعدى

١٠ — أنشد ذو الرمة بلال بن أبى بردة يمدحه :

رأيت الناس ينتجعون غيثاً فقلت لصيدح : انتجعى بلالا (٢)

---

(١) العر : الجرب .

(٢) أى سمعت هذه العبارة « الناس ينتجعون غيثا » قال المبرد : المعنى سمعت هذا اللفظ أى قائلا ينطق به . . وصيدح اسم الناقة .

فلما سمع بلال : فقلت لصيدح ، قال : ياغلام مر لها بقت ونوى[1] يريد بذلك قلة فطنة ذى الرمة للمدح .

ووقف ذو الرمة أمام عبد الملك ينشده :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب[2]

فقال عبد الملك : وما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ؟ وكان بعبد الملك رمش[3] فلا تزال عينه تدمع فتوهم أنه يعرض به .

١١ — واستأذن جرير على سكينة بنت الحسين فلم تأذن له ، وخرجت جاريتها فقالت : تقول لك سيدتى : أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

قال : نعم، قالت : أفلا أخذت بيدها فرحبت بها وأدنيت مجلسها وقلت لها مايقال لمثلها ، أنت عفيف . فخذ هذين الألفين من الدراهم والحق بأهلك .

١٢ — وعاب رواة الشعر فى العصر الأموى على الشماخ بن ضرار قوله :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

وقالوا : كان ينبغى أن ينظر لها مع استغنائه عنها ، فقد قال رسول الله الأنصارية المأسورة بمكة ، وقد نجت على ناقة لها ، حين قالت يارسول الله ، إنى نذرت إن نجوت عليها أن أنحرها ، فقال لبئس ما جزيتها .

وعابوا على ذى الرمة متابعة الشماخ فى هذا إذ يقول :

إذا ابن أبى موسى بلالا بلغته فقام بفأس بين عينيك جائر

---

(١) ١٧٨ الموشح .

(٢) كلى جمع كلية أو كلوة بالضم وهى من المزادة رقعة مستديرة يحرز عليها تحت العروة .. مفرية مشقوقة . سرب الماء كفرح : سأل فهو سرب أى سائل .

(٣) الرمش : تفتل فى شعر الأهداب وحمرة فى الجفون مع ماء يسيل .

وفضلوا عليهما فى هذا المعنى قول عبد الله بن رواحة الأنصارى :

إذا بلغتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء (١)
فشأنك فانعمى وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلى ورائى (٢)

وقال الفرزدق فى هذا المعنى :

عـــلام تلفتين وأنت تحتى وخير الناس كلهم أمامى
متى تأتى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى (٣)

وجاء أبو نواس بعد ذلك فقال فى هذا المعنى وأبدع فيه .

وإذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

١٣ — وأخذوا على الفرزدق قوله :

إذا التفت الأبطال أبصرت وجهه مضيئاً وأعناق الكماة خضوع

فقالوا أساء القسمة وأخطأ الترتيب ، وإنما كان الأجدر أن يقول أبصرته ساميا وأعناق الكماة خضوع . . وعابوا على الأخطل قوله فى عبد الملك :

وقد جعل الله الخلافة فيهم لأبيض لاعارى الخوان ولاجدب (٤)

---

(١) الحساء جمع حسى وهو موضع رمل تحته صلابة ، فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة ان يغيض ومنعت الأرض السماء أن تنشفه . فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء .

(٢) لا أرجع مجزوم لأنه دعاء فلا هى الجازمة له ومعناه اللهم لا أرجع (ص ٦٨ الموشح) .

(٣) الأنساع جمع نسع بالكسر ، وهو سير ينسج عريضا على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال والقطعة نسعة ، والدبرة بكسر الدال وفتح الباء قرحة الدابة والجمع دبر بفتح الدال والباء وأدبار .

(٤) الخوان : مايؤكل عليه .

فقالوا لو مدح به حرسياً لعبد الملك لقصر به .

١٤ — وعابوا على الأحوص قوله لعبد الملك بن مروان :

وأراك تفعل ماتقول وبعضهم مذق الحديث يقول مالا يفعل (١)

فقالوا : إن الملوك لا تمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة وإنما تمدح بالإغراق والتفضل بما لا يتسع غيرهم لبذله .

١٥ — ووفد عمر بن أبي ربيعة على عبد الملك فقال له أنت القائل :

أأترك ليلى ليس بيني وبينها سوى ليلة إني إذاً لصبور

قال : نعم ، قال : فبئس المحب أنت ، تركتها وبينك وبينها غدوة .

١٦ — ولما أنشد عبد الملك قول كثير في أخذه الخلافة :

فما تركوها عنوة عن مودة ولكن بحد المشرفي استقالها

أعجب به أشد العجب ، وكان الأخطل حاضراً فقال: ماقلت والله ياأمير المؤمنين أحسن منه ، قال : وماقلت ؟ فأنشد :

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالي ملك لا طريف ولا غصب

ثم قال جعلتها لك حقاً وجعلك قد أخذتها غصباً ، قال صدقت ، إقراراً منه بصواب ماذهب إليه .

١٧ — ويروى أن الأخطل حين أنشده قوله :

فإذا تعاورت الأكف زجاجها نفحت فشم رياحها المزكوم

أعجب به ، وقال للشعبي وكان حاضراً سمعت بمثل هذا يا شعبي ؟ فقال الشعبي : أشعر منه والله أعشى قيس حيث يقول :

من اللائي حلن على المطايا كريح المسك تستل الزكاما

فقال : صدقت .

---

(١) مذق الحديث : مخلوط الحديث من مذق كنصر إذا خلطه .

١٨ — ويروى المرزباني [1] أنه اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية نصيب وراوية كثير وراوية جميل وراوية الأحوص ، فادعى كل منهم أن صاحبه أشعر . ثم تراضوا بسكينة بنت الحسين فأتوها فأخبروها . فقالت لصاحب جرير : أليس صاحبك الذى يقول ؟ :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أحلى للزيارة من الطروق ، قبح الله صاحبك وقبح شعره .

ثم قالت لصاحب كثير : أليس صاحبك الذى يقول ؟ :

يقر بعينى ما يقر بعينها ... وأحسن شىء مابه العين قرت
كأنى أنادى صخرة حين أعرضت ... من الصم لو تمشى بها العصم زلت
صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة ... فمن مل منها ذلك الوصل ملت
خليلى هذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

فليس شىء أحب إليهن ولا أقر لأعينهن من النكاح أفيحب صاحبك أن ينكح قبحه الله وقبح شعره .

ثم قالت لصاحب جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلى معى ماطلبتها ... ولكن طلابيها لما فات من عقلى
فإن وجدت نعل بأرض مضلة ... من الأرض يوما فاعلمى أنها نعلى
خليلى فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

ما أرى لصاحبك هوى . . إنما يطلب عقله ، قبح الله صاحبك وقبح شعره .

ثم قالت لصاحب نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :

---

(١) الموشح ص ١٥٩

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فواحزنى من ذا يهيم بها بعدى ؟

كأنه يتمنى لها من يعشقها بعده ، قبح الله صاحبك وقبح شعره ، ألا قال:

أهيم بدعد ماحييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

ثم قالت لصاحب الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول ؟ :

من عاشقين تواصلا وتواعدا ليلا إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم عيشة وألذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قبح الله صاحبك وقبح شعره . ألا قال : تعانقا .

١٩ — ولسليمان بن عبد الملك حكم حكم به على الشعراء الثلاثة الفرزدق وجرير والأخطل (١) .

٢٠ — وأشاد الفرزدق وجرير والأخطل وذو الرمة فى مجلس عبد الملك ابن مروان بمزاحم العقيلى وشعره (٢) .

٢١ — وسأل عبد الملك أعرابيا عن أمدح وأهجى وأفخر وأغزل وأحسن وأقبح بيت قيل ، فأجابه الأعرابى (٣) .

٢٢ — وجلس الشعراء فى مجلس عبد الملك بن مروان ، فأخذ كل منهم يقدم شاعرا من الجاهليين (٤) .

٢٣ — وقال مالك بن الأخطل عن جرير والفرزدق : وجدت جريراً

---

(١) ١٨٩ الشعر والشعراء .

(٢) ٢ : ١٥٥ ديوان المعانى، وراجع أخبار مزاحم فى الأغانى (١٧ : ١٥٠ ، ٣ : ٤٥ خزانة الأدب) .

(٣) ٧٦ و ٧٧ : ١ ديوان المعانى .

(٤) ١ : ١٥٢ المرجع .

يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر ، فقال له الأخطل : الذى يغرف من بحر أشعرهما (١) .

إلى غير ذلك من صور النقد فى هذا العصر وهى كثيرة لاتحصى .

ومن مشهورى النقاد فى هذا العصر عبد الملك بن مروان ، وسكينة بنت الحسين . يروى أن الفرزدق الشاعر خرج حاجاً (٢) ، فلما قضى حجه عدل إلى المدينة ، فدخل إلى سكينة بنت الحسين ، فسلم ، فقالت له : يافرزدق (٣) ، من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، قالت : كذبت ، أشعر منك الذى يقول :

بنفسى من تجنبه عزيز ... على ومن زيارته لمام
ومن أمسى وأصبح لا أراه ... ويطرقنى إذا هجع النيام

فقال : أما والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . قالت : أفيعوه ؛ فأخرج . ثم عاد من الغد ، فدخل عليها ؛ فقالت يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟ فقال أنا ؛ قالت كذبت ، صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياء لعادنى استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار
كانت إذا هجر الضجيع فراشها (٤) ... كتم الحديث وعفت الأسرار
لايلبث القرناء أن يتفرقوا ... ليل يكر عليهم ونهار

---

(١) ٢ : ١٧٣ البيان والتبيين .

(٢) الاغانى ص ٢٨ ج ٨ ، مصارع العشاق ص ٧٤ ، المحاسن والمساوىء ص ١٣٣ طبع ليبزج .

(٣) الفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب ، نشأ بالبصرة وأخذه أبوه برواية الشعر فنظمه ونبغ فيه ، وتعرف بولاة البصرة ومدحهم وهجاهم ، ثم رحل إلى خلفاء بنى أمية بالشام ومدحهم ونال جوائزهم ، مات سنة ١١٠ هـ .

(٤) الضجيع : الزوج ، وهجرها أن يغيب عنها ، يصفها بالعفاف .

فقال : والله لئن أذنت لى لأسمعنك أحسن منه ؛ فأمرت به فأخرج .

ثم عاد إليها فى اليوم الثالث ، وحولها مولدات لها كأنهن التماثيل ؛ فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأعجب بها ، وبهت ينظر إليها . فقالت له سكينة : يا فرزدق ؛ من أشعر الناس ؟ قال أنا ، قالت كذبت ، صاحبك أشعر منك حيث يقول :

إن العيون التى فى طرفها مرض ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا

فقال : لئن تركتنى لأسمعنك أحسن منه فأمرت بإخراجه ، فالتفت إليها وقال : يابنت رسول الله ؛ إن لى عليك حقاً عظيما . قالت : وما هو ؟ قال : ضربت إليك آباط الإبل من مكة إرادة التسليم عليك ؛ فكان جزائى من ذلك تكذيبى وطردى ، وتفضيل جرير على ، ومنعك إياى أن أنشدك شيئا من شعرى ، وبى ماقد عيل منه صبرى ، وهذه المنايا تغدو وتروح ، ولعلى لا أفارق المدينة حتى أموت ، فإذا أنامت فمرى بى أن أدرج فى كفنى ثم أدفن فى ثياب هذه الجارية (١) .

فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية ، فخرج بها آخذا بريطتها (٢) ، ثم قالت له يافرزق ، احتفظ بها وأحسن صحبتها : فإنى آثرتك بها على نفسى بارك الله لك فيها .

---

(١) يشير إلى الجارية التى أعجبته .
(٢) الريطة : الملاءة .

فهرست الكتاب

القسم الأول من الكتاب

الصفحة	الموضوع
هـ	تمهيد
ز	القسم الأول من الكتاب
١	الحياة الأدبية فى عصر بنى أمية
٢ — ٣٢	الحياة السياسية فى العصر الأموى
٩	الأحزاب السياسية وآثارها فى الأدب
١٣	تلخيص
١٤	عناية الدولة بالأدب واللغة ومظاهرها
١٦	ذيوع اللغة وقيامها بمطالب الحضارة
١٩	ظهور اللحن والعمل على مقاومته
٢٢	الحفاظ على العربية ووضع النحو
٢٦	وضع الشكل
٢٧	وضع النقط
٢٩	بدء تدوين العلوم
٣٣ — ٥٣	الحياة الثقافية فى ظلال الأمويين
٤٤	سوق المربد وأثره الأدبى
٤٩	الموالى فى خدمة الثقافة واللغة
٥١	اتصال الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية
٥٤	مجالس الأدب فى هذا العصر
٥٦	صور من العناية باللغة والأدب
٧٦	خلاصة
٧٧ — ١٧٦	الشعر فى عصر بنى أمية ـ تمهيد
٧٩	نهضة الشعر فى العصر الأموى
٨٢	بيئات الشعر فى العصر الأموى
٨٣	المؤثرات العامة فى الشعر الأموى
٨٦	التطور والتجديد فى الشعر الأموى
٨٦	أغراض الشعر الأموى
٨٨	الشعر السياسى
١٠٠	شعر الشعوبية
١٠٢	الغزل
١٠٣	الغزل التقليدى
١٠٨	الغزل القصصى
١٢٢	الغزل العذرى
١٣٩	أغراض أخرى ـ الوصف
١٤٣	شعر الحماسة
١٤٩	الهجاء
١٥٣	النقائض فى عصر بنى أمية
١٥٥	الفخر
١٥٨	وصف الانفعالات النفسية

الصفحة	الموضوع
١٥٨	المدح
١٦٠	الرثاء
١٦٧	أساليب الشعر الأموى وألفاظه
١٧٠	المعانى والأخيلة
١٧٣	طوائف الشعراء الأمويين
١٧٧	الفرزدق شاعر العصر الأموى
١٨٥	الأخطل شاعر بنى أمية
١٩١	الكميت الأسدى
٢١٦	مسكين الدارمى

الصفحة	الموضوع
٢٢١	النثر الأموى
٢٣٢	الخطابة فى العصر الأموى
٢٤١	نماذج للخطابة
٢٥٣	من أعلام الخطباء : زياد
٢٦١	سحبان
٢٦٢	الحجاج
٢٦٥	الكتابة فى العصر الأموى
٢٧٣	نصوص من الكتابة
٢٨٣	عبد الحميد الكاتب
٢٩٥	النقد فى العصر الأموى

لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

الأدب العربي وتاريخه

في العصرين الأموي والعباسي

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي

دار الجيل
بيروت

القسم الثانى من الكتاب

الحياة الأدبيـــة فى العصر العباسى الأول

١٣٢ — ٣٣٤ هـ

العصر العباسى الأول

١٣٢ — ٣٣٤ هـ

يبدأ هذا العصر منذ أن أعلن أبو العباس السفاح فى الكوفة قيام الخلافة العباسية ، ولقد أخذ أبو العباس فى توطيد دعائم الدولة الجديدة ، وتثبيت أركانها ، وتتابع الخلفاء من بعده ، يسيرون على نهجه من النهوض بها ، والقضاء على خصومها ، والعمل على بناء مجدها ، وعلى رفع منارة العلم والأدب والحضارة فى جميع جوانبها ، كل ذلك والخلافة فى قبضتهم ، والنفوذ خالص لهم ، والسلطان بأيديهم ، والأمر لهم وبهم ؛ لارأى لأحد إلى جانب رأيهم ، ولا تدخل من أجنبى فى شئونهم ، لأن العناصر الأجنبية الدخيلة كانت لاتزال تأتمر بأمرهم ، وتخضع لمشيئتهم ، ولا تتطاول إلى مقام توجيههم ، فضلا عن مناوأتهم ، واغتصاب النفوذ منهم ؛ بل كان أقل غرور أو تطاول أو تدخل فى شئون الملك يبدو من أحد منهم ، خليقاً بأن يثير عليه الخليفة ، وأن يدفعه إلى البطش به والقضاء عليه ، كما فعل السفاح بأبى مسلم الخراسانى وزيره الفارسى ، والمنصور بأبى سلمة الخلال مع أن كلا منهما يعد أكبر مؤسس لخلافة العباسيين ، وكما صنع الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بحسن بن سهل صهره ووزيره ، والمعتصم بالأفشين .

هكذا كان سلطان الخلفاء بالرغم من تقريبهم للموالى وقيام سياستهم على الاعتزاز بهم ، لما بذلوه من مجهود فى سبيل تأسيس الدولة . وعلى هذا النحو من النفوذ والقوة ، كانت الخلافة فى عصر السفاح فالمنصور فالمهدى فالهادى فالرشيد فالأمين فالمأمون فالمعتصم فالواثق فالمتوكل الذى ولى الخلافة عام ٢٣٢ هـ ، والذى كان آخر الخلفاء من ذوى النفوذ والسلطان منذ قيام الدولة .

وفى عصر المتوكل أخذ الحزب التركى العسكرى يتآمر على الخلافة والخليفة ، ويحاول التدخل فى شئون الدولة ، وانتهى الأمر بمصرع المتوكل بأيديهم عام ٢٤٧ هـ . وبذلك ينتهى عهد نفوذ الخلفاء (١) ، ويبدأ عهد آخر جديد يسود فيه نفوذ الأتراك وتشتد هيمنتهم على الخلافة .

ويستمر هذا العهد من عام ٢٤٧ حتى فتح البويهيين لبغداد عام ٣٣٤ هـ .

وهذا العصر بعهديه هو أزهى عصور الإسلام ؛ وصفحاته المشرقة أنصع الصفحات فى التاريخ السياسى والأدبى للعرب .

ولا بدع فقد بلغت فيه الدولة الإسلامية المظفرة منتهى ما تطمع إليه من المجد والسلطان ، وغاية ما تصبو له من حضارة ومدنية ، وثقافة وعرفان .

كانت مملكة العباسيين فيه تمتد من شواطىء المحيط الأطلسى إلى حدود الهند والصين ، وكان نفوذ الخلفاء العباسيين بالغاً غايته فى العالم المعروف آنذاك ، يذكر اسمهم فى بيزنطة أو روما أو الصين ، فترتعد الفرائص وتخفق القلوب وتنحنى الهامات ، وتسير جيوشهم المنصورة فى كل مكان ، وترتفع رايتهم فى كل أفق ، حيث يستظل بظلها الملايين العديدة من سكان الدنيا ، ويدينون لها بالولاء والوفاء . . وكان لخلفاء بنى العباس ولاة فى كل إقليم ، وحكام فى كل قطر ، ينشرون الأمن والعدل والنور والعلم ، ويجبون الأموال والضرائب باسم أمير المؤمنين . وخليفة المسلمين — وكانت اللغة العربية تسير حيث يسير نفوذ الخلفاء ، ويتعلمها الناس من كل لون وجنس ، وكانت آدابها تسير معها أينما سارت ، وتستقر حيثما استقرت .

---

(١) يختلف مؤرخو الأدب فى نهاية هذا العصر ، فالبعض يجعلون نهايته من بدء خلافة المتوكل عام ٢٣٢ هـ (ضحى الاسلام ج ١ ص ب ، تاريخ أدب اللغة العربية لجورجى زيدان ١٧ / ٢ ، وتاريخ الأدب للزيات ص ٢١١) ، والبعض الآخرون يجعلون نهايته مصرع المتوكل عام ٢٤٧ هـ .

وفى هذا العصر نبغت الفنون الإسلامية ، وازدهرت الآداب العربية وترجمت الثقافات الأجنبية ، وقامت المدارس والجامعات فى كل مكان ، تثقف العقول ، وتهذب النفوس ، وتحض على المعرفة ، ويجلس فى حلقاتها المسلمون على اختلاف عناصرهم ، وألوانهم وبيئاتهم .

وفيه عاش أئمة العلم والأدب والفكر ، يؤدون رسالتهم ، ويبنون لأمتهم مكانها الرفيع فى عالم الفكر الإنسانى ، ويؤثلون للحضارة مجدها الزاهى ، ويرفعون للفكر منارته السامقة .

وهكذا يمتاز العصر العباسى الأول بغلبة العناصر الفارسية نحوا من مائة عام ، ثم بغلبة العناصر التركية مائة عام أخرى ، كما يمتاز بتجمع الثقافات وظهورها فى الثقافة العربية ، وباتساع حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وبحرية الفكر ونفوذ المعتزلة وسلطانهم ، وبازدهار النهضة العلمية والأدبية ، وظهور الأئمة الفحول فى العلوم والآداب ، وتشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للعلم والأدب . كما يمتاز بنهضة النثر والشعر نهضة ليس لها مثيل فى تاريخ لغة العرب .

قيام الدولة العباسية

— ١ —

لايذكر التاريخ الإسلامى فى ثناياه وأطوائه ، وحوادثه وأحداثه ، أمراً أغرب ، ولاحدثاً أعجب ، من قيام الدولة العباسية ، على أنقاض ملك بنى أمية ، وعرشهم الذى رفعوه على السياسة والدهاء ، وكثرة البذل والسخاء وقوة السلطان وطول البطش والعنف والطغيان .

وكان قيام ملك بنى العباس نتيجة لمقدمات كثيرة ، ونهاية لقصة غريبة مثيرة ، وخاتمة لأسباب تضافرت على القضاء على دولة الأمويين ، ووضع مقاليد الخلافة الإسلامية فى أيدى العباسيين :

١ — وأول هذه الأسباب : اضطهاد الأمويين لآل الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وتشريدهم ونفيهم وحبسهم وإنزال الهون بهم فى كل مكان ، مما يصور بعضه فيما بعد دعبل الشاعر العباسى المشهور ، فى إحدى قصائده حيث يقول :

ملامك فى أهل النبى فانهم ... أحباى ما عاشوا وأهل ثقانى
لهم كل حين نومة بمضاجع ... لهم فى نواحى الأرض مختلفات
أرى فيئهم (١) فى غيرهم متقسما ... وأيديهم من فيئهم صفرات
فآل رسول الله نحف جسومهم ... وآل زياد حفل القصرات (٢)
بنات زياد فى القصور مصونة ... وآل رسول الله فى الفلوات
إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم ... أكفا عن الأوتار منقبضات

ولقد شمل هذا الاضطهاد : البيت العلوى ، ممن ينسبون إلى الإمام على ابن أبى طالب ، ابن عم الرسول الكريم ، والبيت العباسى ، مما ينسبون إلى

---

(١) الفىء : الخراج والغنيمة . صفرات : خاليات .
(٢) حفل القصرات . ضخام الأعناق ، كناية عن سمنهم .

العباس بن عبد المطلب ، عم محمد خاتم المرسلين ، وأكرم الخلق على الله .

ومصرع الحسين بن علي في كربلاء ، ومصارع أهله وأسرته ، ونفي بعضهم من الحجاز ، شاهد على مانقول .

ولما ازداد عنف الأمويين واستبدادهم بالعلويين ، ذهب سادتهم يؤلفون الجماعات ، ويكونون العصابات ، ويعلنون الحروب والثورات على خلفاء بني أمية . وكان الشيعة يرشحون لخلافة المسلمين من آل البيت سيداً بعد سيد : فدعوا للحسن ، ثم لأخيه الحسين ، ثم لأخيهما الأصغر محمد بن الحنفية ثم لابنه أبي هاشم العلوي بن محمد .

وكان أبو هاشم هذا مقيما في الحميمة ، بالقرب من بادية الشام ، حيث أقام علي بن عبد الله بن العباس ، سيد البيت العباسي العريق . ويروي بعض المؤرخين أن أبا هاشم — الذي لم يكن له أبناء يرثون دعوته — رشح لإمامة الشيعة بعده ابن عمه علياً هذا ، وأدلى بنصيبه من الخلافة إليه وإلى أولاده ، وأوصى أولياءه باتباعه ، ويرى آخرون أنه تنازل لمحمد بن علي .

ومهما يكن فقد آلت دعوة آل البيت إلى بيت بني العباس ، فصارت الشيعة معهم ؛ يؤيدونهم ويؤازرونهم ، ونهـــضوا هم بالعبء كابر عن كابر ، وماجد بعد ماجد : علي العباسي ، ثم ابنه محمد بن علي ، الذي ذاعت على يده الدعوة لآل البيت في كل مكان ، وألف أتباعه الجماعات السرية في الكوفة وخراسان ، وكان محمد يبصر دعاته بأساليب الدعوة . والبلاد التي يبثون فيها مذهبهم ، ويوصيهم بتركيز جهودهم في خراسان ، حيث « المشرق ومطلع سراج الدنيا ، ومصباح الخلق » ، وحيث ضعف سلطان بني أمية ، وسلامة القلوب والصدور ، والحب لآل النبي وسلالته .

ثم آلت الدعوة بعد محمد بن علي إلى ابنه إبراهيم ، الذي حبسه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، حتى مات في الحبس ، وقام بالأمر بعده أخوه أبو العباس .

ولقد نجحت دعوة الدعاة نجاحا باهراً ، وآمن بها الملايين من المسلمين ، فى العراق وفارس ، وأخذوا ينازلون الأمويين فى هذه البلاد . فطردوا ولاتهم فى خراسان ، وهزموا جيوشهم فى فارس ، حتى صارت خراسان وفارس ثم أكثر العراق فى قبضة المسودة ، أتباع بنى العباس ، وشيعة آل البيت .

وفى ربيع الأول من عام ١٣٢ هـ ، أعلن أبو العباس السفاح من فوق منبر المسجد الجامع بالكوفة ، بدء قيام الدولة العباسية ، وانتهاء دولة بنى أمية ، وكان من خطبته قوله : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح ، وبهذا لقّب السفاح .

ثم نهضت جيوش السفاح لمنازلة بنى أمية وجنودهم فى الجزيرة والشام . وفى معركة « نهر الزاب » قضى العباسيون على خيرة جيش مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وفر مروان بن محمد إلى مصر ، مهزوماً مدحوراً ، حيث تبعه صالح بن عم الخليفة العباسى ، وقبض عليه ، وقتله فى آخر العام نفسه .

٢ — وثانى تلك الأسباب التى ساعدت على قيام الدولة العباسية : ما كان من اضطهاد الأمويين للموالى عامة .

فقد كانت دولتهم - كما علمنا - عربية أعرابية خالصة ، إذ كانوا يعتزون بالعرب اعتزازاً كبيراً ، ويحتقرون الموالى احتقاراً شديداً ، حتى كانوا لا يستعينون فى دولتهم بأحد منهم ، وكان الحجاج واليهم على العراق يأمر أن لا يؤم بالكوفة إلا عربى(١) ، وكان لا يلى الخلافة أحد من أبناء المولدين الذين ولدوا من أمهات أعجميات(٢) ، وكان العربى فى جيش الخلافة فى فرق

---

(١) ٢٠٧ : ١ العقد الفريد .
(٢) ١٩٧ : ٣ المرجع نفسه .

الفرسان، والموالى فى عداد المشاة ، ومنع الأمويون زواج الموالى بالعربيات بل أبطلوا ماوقع من أمثال ذلك الزواج ، يروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى أن رجلا من الموالى خطب عربية من بنى سليم وتزوجها فذهب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة وشكا إلى واليها إبراهيم بن هشام ، فأرسل إبراهيم إلى هذا المولى ، ففرق بينه وبين زوجته ، وضربه مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال محمد بن بشير فى ذلك :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد
وفى المائتين للمولى نكال وفى سلب الحواجب والخدود (١)

ويقول الأصفهانى : كانت العرب إلى أن عادت الدولة العباسية ، إذا أقبل العربى من السوق ، ومعه شىء ، فرأى مولى ، دفعه إليه ليحمله عنه ، فلا يمتنع ، ولا السلطان يغير عليه ، وصدق الجاحظ إذ يصف دولة الأمويين بأنها عربية أعرابية (٢) .

من أجل ذلك كله حقد الموالى على دولة بنى أمية ، وأضمروا لها الكراهية والحقد والبغضاء . وكان العنصر الفارسى أكثر الموالى حقداً ، وأشدهم موجدة ، وأكظمهم غيظاً وحنقاً على سلطان الأمويين الجائر ، وحكمهم الباطش ، وطغيانهم الشديد لأن له تاريخاً قديما ، وملكا بائداً ، وحضارة موروثة ، وكان الفرس يحلمون باستعادة دولتهم ، واستقلال أمتهم ، وإحياء حضارتهم ؛ ولهذا كان لهم الفضل الأكبر ، واليد الطولى فى قيام ملك بنى العباس ، فالثورة على الأمويين قامت فى بلادهم ، وكانوا هم جندها والمحاربين فى سبيلها وكان منهم القواد الكبار ، الذين حطموا خلافة بنى أمية وعرشهم ، كأبى سلمة الخلال ، وأبى مسلم الخراسانى .

---

(١) الأغانى ١٥٠ ج ٤ و ٢٥٦ : ٢ الكامل ، ٩٣ : ٢ العقد .
(٢) ٢٠٦ ج ٣ البيان والتبيين .

ولهذا كله كان للفارسيين فى بدء الدولة العباسية نفوذ كبير ، ومقام خطير ، مما يصوره لنا داود بن على عم السفاح فى خطبة له : ياأهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا ، أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا » ، وقول أبى جعفر المنصور : « ياأهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا » . وأوصى بهم قبل وفاته ابنه المهدى فقال : « أوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك ، الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لاتخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم . وتكافئهم على ماكان منهم . وتخلف من مات منهم فى أهله وولده » .

٣ — وثالث الأسباب فى قيام الدولة العباسية ، والقضاء على الخلافة الأموية : هذه العصبيات القبلية ، التى أشعل نارها خلفاء بنى أمية ، مما يفسره كثير من الأحداث التاريخية ، والقصائد الشعرية فى هذا العصر ، وهذه العصبيات ظلت ملازمة لعهد الأمويين . . وأخيراً وجدنا مروان بن محمد يتعصب لقومه نزار على اليمن ، فانحرفت اليمن عنه إلى الدعوة العباسية الناشئة .

وكان الخلفاء الأمويون طول ملكهم يؤججون الخلاف بين القبائل العربية ، ليشغلوا الناس عن سيادتهم ، ويصرفوهم عن تتبع أعمالهم .

ولما قام أبو مسلم الخراسانى بأمر قيادة جيوش العباسيين فى خراسان ، لم يجد صعوبة ، فى تأجيج نيران الخصومات بين القبائل وزعمائها : وبذلك أمكنه أن يتغلب عليهم جميعا ، وأن يجعلهم يفنون أنفسهم بأيديهم ، حتى لم يستطع زعماء المضريين ، وجديع بن شبيب الكرمانى سيد اليمانية : وشيبان ابن سلمة الحرورى رئيس ربيعة ، لم يستطع هؤلاء جميعا الوقوف أمام الخراسانيين ، الذين زحفوا كالسيل المنهمر من العراق والشام .

وكان كل عربى شديد التعصب على أبناء القبائل العربية الأخرى . .

مما يصوره لك هذه الأبيات ، يقول رجل من بنى أسد بن خزيمة يمدح يحيى بن حيان :

ألا جعل الله اليمانين كلهم ... فدى لفتى الفتيان يحيى بن حيان
ولولا عريق فى من عصبية ... لقلت : وألفا من معد بن عدنان
ولكن نفسى لم تطب بعشيرتى ... وطابت له نفسى بأبناء قحطان

— ٢ —

فلا عجب إذن أن تنقرض دولة بنى أمية ، وينبثق من الأفق نور جديد ، يؤذن بقيام الخلافة العباسية الفتية الناشئة ، التى بادرت بقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وتشريد الأمويين والقضاء عليهم فى كل مكان . وكان الشعراء يؤججون نار الانتقام فى نفوس العباسيين . دخل سديف الشاعر مولى بنى العباس على السفاح ، فألفى بمجلسه سليمان بن هشام هادئا مطمئنا ، لتأمين أبى العباس إياه ، فأنشد :

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن بين الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان ناكثا بعهد أمانته . . ودخل شبل عبد الله مولى بنى هاشم عليه ، أو على عمه ، وعنده من بنى أمية نحو المائة ، فأنشد :

أصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً ... واقطعن كل رقلة وغراس(١)

(١) الرقلة : النخلة فائت اليد والجمع رقل ورقال .

ذلها أظهر التودد منها وبها منكم لكم المواسى
ولقد ساءنى وساء قبيلى قربهم من نمارق وكراسى
أنزلوها بحيث أنزلها اللـــه بدار الهوان والإتعاس

فأمر بهم جميعاً فقتلوا . . وبهذا البطش والتنكيل ، خلص الملك لبنى العباس ، وقضى على دولة الأمويين وعاصمتهم دمشق الشام ، وخلفتها الكوفة ثم بغداد . . وهكذا تدول الدول ، وتتعاقب الأيام ، ويعز الله من يشاء ؛ ويذل من يشاء ...

— ٣ —

تولى عرش الخلافة فى هذا العصر من بنى العباس خلفاء ، دانت لهم الدنيا ، وخضعت لسلطانهم أمم عريقة ، وحضارات قديمة .

وكان أولهم السفاح ، الذى اشتهر بالبطش والاستبداد ، وجعل الكوفة عاصمة لملكه ، وظل فى الخلافة أربعة أعوام (١٣٢ - ١٣٦ هـ) .

وتولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور ، وظل خليفة أكثر من عشرين عاماً (١٣٦ - ١٥٨ هـ) ، وطد فيها ملك بنى العباس ، وبنى بغداد عام ١٤٥ هـ واتخذها عاصمة له ، كما بنى الرصافة ، وشجع العلوم وترجمة آثار الأمم العريقة فى الثقافة والحضارة ، وكان متقدما فى علم الكلام داهية أديباً مصيباً فى رأيه . جميل التدبير حسن السياسة ، وكانت دولته من أحسن الدول رونقاً ، وأوسعها رقعة ، بيد أنها صبغت فى عهده بالصبغة الفارسية .

وتولى بعده ابنه المهدى ، الذى ازدهرت فى عهده الحضارة وشاع الترف وتقدمت العلوم والفنون والآداب ، وعاش فى رعايته كثير من العلماء والشعراء وكان جواداً كريماً ، وقد نكل بالزنادقة ، ومات عام ١٦٩ هـ ، فتولى بعده ابنه الهادى ، الذى ظل فى الخلافة سنة واحدة ، وخلفه أخوه هرون الرشيد ابن المهدى .

وكان عهد الرشيد واسطة عقد الدولة العباسية ، بلغت فيه ذروة السلطان والجاه ، وكانت بغداد تعج بالعلماء والأدباء والشعراء ، ويروى أنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد من فحولة الشعراء (١) . وكان الرشيد يقتفى فى سياسته آثار جده المنصور ، وفى سماحته آثار والده المهدى ، ولما زاد نفوذ الفرس على يد وزرائه من البرامكة بطش بهم فى عنف وشدة عام ١٨٧ هـ ، ونكبهم نكبة هزت النفوذ الفارسى هزاً عنيفاً ، ومات الرشيد عام ١٩٣ هـ ، وتولى الخلافة بعده ابنه الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ) . ثم ابنه المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) .

ويعد عهد المأمون درة فى تاج الحضارة الإسلامية ، وغرة فى جبين الخلافة العباسية ، أشرقت العلوم فى أيامه ، ونبغ فحول المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء ، وزهت حركة الترجمة ، ونقلت الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وإن كان نفوذ الفرس قد زاد فى أيامه ، لأنهم هم الذين ولوه الخلافة بعد أن قتلوا أخاه الأمين . وتولى الخلافة بعده أخوه المعتصم ، وكان عسكرياً بنشأته وميوله ، ولما خاف من الفرس قرب إليه الأتراك ، فبدأ نفوذهم فى الدولة على أيامه ، وبنى (سامرا) واتخذها حاضرة للملكه عام ٢٢١ هـ ، وسارت فى عهده نهضة العلم والأدب فى طريقها الذى كانت تسير فيه . . وولى بعده ابنه الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) ، ثم ابنه المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) .

وفى عهد جعفر المتوكل على الله اشتد نفوذ الترك ، واستحكم العداء للشيعة ، واضطهد المعتزلة والاعتزال وكانت أيامه أحسن الأيام وأنضرها ، حفلت بأئمة العلم والأدب ، ثم قتله الأتراك عام ٢٤٧ هـ وبذلك بدأ طور

---

(١) ١٧٠ ج ٣ يتيمة الدهر للثعالبى . وحمل الرشيد معه لما سافر إلى الرقة ثمانية عشر صندوقا من الأسفار ليقطع بمطالعتها زمانه ، مع أنه لم يأخذ معه الا نخبة مما فى خزائنه (٥ : ٦٧ الأغانى) .

جديد فى تاريخ الخلافة العباسية ؛ وهو عهد نفوذ الأتراك الذى ظل قريبا من مائة عام أخرى (٢٤٧ — ٣٣٤ هـ) وتولى فيه الخلافة المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى والمقتدر .

— ٤ —

وفى فترة نفوذ الخلفاء كان للعنصر الفارسى مكانة عالية عند العباسيين ، وحظوة كبيرة فى قصورهم ، وكان بيده مقاليد الأعمال ، وتصريف شئون الخلافة ، كان الخليفة عربياً هاشمياً ، ولكن وزراءه وأكثر قواده فارسيون ؛ يزيد سلطانهم ، ويقوى نفوذهم يوماً بعد يوم ، ويزداد تبعاً لذلك شأن الموالى فى الدولة ؛ حتى كان أكثر من تولى الأعمال للمنصور منهم إذ قدمهم على العرب وكثر استخدامهم بعده ؛ حتى زالت رياسة العرب وهيمنتهم . وفى عصر الرشيد زاد نفوذ الفرس ؛ فسيطر البرامكة — وهم من سلالات فارسية قديمة — على شئون الدولة ، إلى أن بطش بهم الرشيد بطشاً عنيفاً عام ١٨٧ هـ . وكان المأمون ينتصر للفرس ؛ إذ كانوا أخواله وهم الذين أعانوه على تولى الخلافة ، وأخذها من يد أخيه الأمين ، ويروى أن عربياً من أهل الشام قال له : « انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان » ، فقال له المأمون : « أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل ، إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، أعرفت ذلك ؟ اعزُب عنى » .

ركن العباسيون إلى الفرس ولم يثقوا بالعرب فأقصوهم عن الحكم والسلطان وأبعدوهم عن تصريف شئون الدولة ، وأذلوهم بالحروب والتشريد والانتقام وسفك الدماء . وتظهر هذه النزعة واضحة فى قول إبراهيم بن محمد رأس الدعوة العباسية فى وصيته لزعيم شيعته ، أبى مسلم الخراسانى : « وإن

أستطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » .

ومن مظاهر نفوذ العنصر الفارسى نقل العاصمة إلى بغداد فى العراق ، لقربها من خراسان موطن الدعوة ، ونقلهم نظام الفرس الكسروى فى الدواوين والسياسة وأساليب الحرب ، واقتباس العادات الفارسية فى كل ناحية حتى فى العيش والطعام ، واحتفاؤهم بالأعياد الفارسية كعيد المهرجان والنيروز وسواهما ، وانتشار ثقافة الفرس وعلومهم وآدابهم . . وكثرة الفرس كذلك فى قصور الخلفاء والأمراء والولاة ، وقصرت عليهم المناصب الكبيرة كالوزارة . . حتى أصبحت الدولة عربية اللغة إسلامية الدين والأخلاق ، فارسية المعيشة والإدارة والسياسة .

ولما تطاول الفرس على مقام الخلافة فى عهد المعتصم كرههم وحذر منهم ، وقرب إليه الأتراك ، وكانت أمه « ماردة » منهم ، وبنى لهم (سامرا) ، وجعلهم قواد جيشه ، ومكن لهم فى الدولة ، ولم يمض غير قليل حتى صار لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة فى عهد المتوكل ، ثم شغبوا عليه فقتلوه عام ٢٤٧ هـ فى قصره « الجعفرى » وقتلوا معه وزيره « الفتح بن خاقان » . . وكان ذلك مصرعاً دامياً لمجد الخلافة ونفوذ الخلفاء . وفى ذلك يقول يزيد المهلبى الشاعر من قصيدة طويلة فى رثاء المتوكل :

لاحزن إلا أراه دون ما أجد ... وهل لمن فقدت عيناى مفتقد ؟

ومنها :

فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد

ويقول البحترى يصف قصر المتوكل بعد مقتله :

تغير حسن الجعفرى وأنسه ... وقوض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه لجاجة ... فعادت سواء دوره ومقابره

إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه
وإذ ذعرت أطـــلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل وهتكت على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليـه بهاءها وبهجتها والعيش غض مكاسره (١)
فأين الحجاب الصعب حين تمنعت بهيبته أبوابه ومقـــاصره ؟
وأين عميد الناس فى كل نوبة تنوب وناهى الدهر فيهم وآمره ؟

ويقول على بن الجهم :

عبيد أمـير المؤمنين قتلنه وأعظم آفات الملوك عبيـدها
بنى هاشم صبراً لـكل مصيبة سيبلى على وجه الزمان جديدها

وصار الأتراك منذ ذلك الوقت حتى نهاية العصر العباسى الأول أصحاب السلطان فى الدولة .

— ٥ —

وكان الخلفاء العباسيون فى هذا العصر يحرصون أشد الحرص على :

١ — نشر الثقافة والحضارة فى أرجاء دولتهم الواسعة ، والعناية بترجمة العلوم المختلفة من الفارسية والهندية واليونانية وسواها إلى اللغة العربية وتشجيع الفنون والآداب فى كل مـكان .

٢ — الاهتمام بأمر الموالى ، وتقريبهم والإغداق عليهم ، وبسط

---

(١) مكاسر : جمع مكسر ، وهو جذع الشجرة حيث تكسر الأغصان ، يقال فلان طيب المكسر أى محمود عند الخبرة .

النفوذ والسلطان لهم ، وكان أظهر الموالى حظاً عند الخلفاء الفرس ثم خلفهم الترك .

٣ — العناية بالمظهر الدينى الذى أقاموا عليه دعوتهم، وشيدوا على أساسه دولتهم ، ومن أولى بذلك منهم ، وهم ورثة سيد الأنبياء ، وذريته ، وخلفاء المسلمين وولاة أمورهم ؟ فلا عجب إذا أن يخرجوا إلى الصلوات الجامعة فى الحشد الحاشد من رجال دولتهم وقواد جيوشهم وأن يخطبوا الناس ويعظوهم ، وعليهم بردة النبى وبين أيديهم أئمة العلماء ورجال الدين، ويصور البحترى فى قصيدة له خروج الخليفة المتوكل على الله لأداء الصلاة الجامعة فى عيد فطر ، تصويراً بارعا رائعاً ، فيقول منها :

فانعم بيوم الفطر عيناً إنه ... يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بمحفل ... لجب يحاط الدين فيه وينصر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت ... تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
وافتن فيك الناظرون فإصبع ... يومى إليك بها ، وعين تنظر
يجدون رؤيتك التى فازوا بها ... من أنعم الله التى لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبى فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابساً ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو ان مشتاقاً تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى إليك المنبر
ووقفت فى برد النبى مذكرا ... بالله تنذر تارة وتبشر
صلوا وراءك آخذين بعصمة ... من ربهم وبذمة لا تخفر

الطابع السياسى فى العصر العباسى الأول

— ١ —

يتميز العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٣٣٤ هـ) (١) بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدولة ، وبنفوذ الفرس فيه حتى خلافة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ)، ثم ضعفت الخلافة وضاعت هيبة الخلفاء وفسدت شئون الدولة ، وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذى بلغ حدا كبيرا بعد ذلك (٢٤٧ — ٣٣٤ هـ) .

وأول من استخدم الأتراك فى الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام ١٥٨ هـ ، ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لاشأن لها فى الدولة بجانب الفرس والعرب (٢) ، وألف المأمون فرقة صغيرة منهم لبسالتهم ، وعاشوا بعيدين عن شئون الدولة وسياستها . لميل المأمون إلى الفرس أخواله .

وكانت أم المعتصم « ماردة » تركية من السغد ، فنشأ ومعه كثير من طبائع الأتراك ، مع الميل إليهم لأنهم أخواله ، وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاولهم على الخلافة بعد قتل الأمين فصار يخافهم على نفسه وضاعت ثقته بهم ، كما ضاعت ثقته بالعرب ، فأخذ يتقوى بالأتراك ويتخير منهم

---

(١) يقسم بعض الباحثين هذا العصر إلى قسمين (ص ٩ ج ٢ تاريخ آداب اللغة لزيدان ، و ٥ ج ٤ التمدن الإسلامى ، ٢١١ تاريخ الأدب العربى للزيات ، ص ب ج ١ ضحى الإسلام) . ويجعل كثير من الباحثين العصرين عصراً واحداً (٣ آداب اللغة فى العصر العباسى للأسكندرى ، ١٦ تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى لمحمود مصطفى ، ١٦٥ ج ١ المفصل) .

(٢) ١٦٧ ج ٤ التمدن الإسلامى .

الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم ، حتى اجتمع لديه آلاف من قبل أن تفضى إليه الخلافة (١) .

ولما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ كان هوى الحزب الفارسى مع ابنه العباس ونادوا به خليفة ، ولكن العباس بايع لعمه المعتصم فسكن الجند (٢) ، فكان ذلك أيضا مما زاد من تقريب المعتصم للجند الأتراك وإيثاره لهم .

وفى عام ٢٢٠هـ استقدم المعتصم عددا كبيرا من الأتراك ، اشتراهم وبذل فيهم الأموال ، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفاً (٣) ثم ازداد عددهم فى جيشه حتى بلغوا السبعين ألفا (٤) . ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت الخصومات بينهم وبين الجمهور ، وبينهم وبين الفرس أتى المعتصم سامرا على شاطىء دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكرا لجيشه ، وحاضرة لملكه ، منذ عام ٢٢١ هـ (٥) ، وأصبحت مدينة عظيمة فى مدة وجيزة (٦) ، وصارت من أجل الحواضر الإسلامية ، وظلت مقر الخلافة حتى عام ٢٨٩ هـ (٧) . أسلم الأتراك ، وأخذوا يتعلمون العربية ويتكلمون بها ، وصاروا موضع ثقة الخليفة وإيثاره ، وكان ذلك ضربة قاضية على العرب ونفوذهم فى الدولة ، وكتب المعتصم إلى عماله بإسقاط من فى دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم وأنزلهم عما كان لهم من قياده الجيوش ، ومنعوا الولايات (٨) .

---

(١) ١٦٨ : ٤ التمدن الإسلامى . (٢) ٣٠٤ : ١٠ الطبرى .
(٣) ٢٣٣ : ٢ النجوم الزاهرة . (٤) ٤ العصر العباسى للسباعى بيومى .
(٥) ٩ : ٤ وما بعدها مروج الذهب .
(٦) ٥٢ و ٥٣ تاريخ الحضارة لبارتولد .
(٧) ١٠٠ : ١ ظهر الإسلام .
(٨) ١٤٤ : ٤ التمدن ، ١٦٥ حضارة الإسلام فى دار السلام .

وانتقلت سياسة الدولة من أيدى الفرس إلى أيدى الأتراك (١) ، الذين أخذوا ينكلون بالفرس والعرب جميعا، وسعوا فى قتلهم ، وموقف الأفشين من أبى دلف وأمره بقتله لولا أن أنقذه ابن أبى دؤاد معروف (٢) .

ولم يمض غير قليل حتى كان لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة والخلفاء ، وخاصة بعد فتح عمورية وقتل بابك عام ٢٢٣ هـ ، وصار أكثر الوزراء وجميع قادة الجيش منهم ، واشتهر من بينهم الأفشين م ٢٢٦ هـ واشناش م ٢٣٠ هـ ، وإيتاخ م ٢٣٥ هـ وسواهم ، وتغلغل نفوذهم فى جميع مناصب الدولة لكثرتهم وبسالتهم وتأييد الخلفاء لهم ، حتى إن الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢هـ) استخلف عام ٢٢٨ هـ أشناس التركى على السلطنة وألبسه وشاحين وتاجا (٣) ، وفى عهده نكل بغا الكبير وجيشه بكثير من العرب(٤) . ولما مات الواثق عام ٢٣٢ هـ ، سعى الأتراك فى ترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم للخلافة لأن أمه (شجاع) خوارزمية تركية ، فتم لهم ماأرادوا ، واستبدوا فى عهده بأمور الدولة وشئون الخلافة ، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثرهم فارسيون ، وزاد فى رعاية الأتراك وتقديمهم ، فزاد طمعهم فى الدولة ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم كثيرو الدسائس والمؤامرات ، كثيرو الطمع فى الأموال ، والعبث بالأمن .

ندم المتوكل على ما فرط ، وأخذ يعمل على كبح جماح الأتراك ، فحبس إيتاخ حتى مات عام ٢٣٥ وأراد عام ٢٤٣ هـ نقل العاصمة من سامرا إلى دمشق ، لكن ذلك لم يتم له ، ثم عزم على قتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم . ولكنهم كانوا يحكمون تدبيراً آخر لقتل

---

(١) ١٧٠ جـ ٤ التمدن (٢) ٥٤ الأذكياء لابن الجوزى .
(٣) ١٣٥ تاريخ الخلفاء .
(٤) ١٢ جـ ١١ الطبرى .

الخليفة (١) ، وتقدم باغر التركى حارس المتوكل ، ومعه عشرة غلمان من الأتراك ، ينفذ المؤامرة التى دبرها القواد الأتراك ، ومعهم المنتصر الذى كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد ؛ ودخلوا على الخليفة ، فقتلوه فى قصره الجعفرى ، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان ، وذلك فى أواخر عام ٢٤٧ هـ (٢) .

وكان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، وكانت هذه الحادثة بدء مصرع الخلافة ومجد الأتراك . وفى ذلك يقول البحترى :

أكان ولى العهد أضمر غدرة ... فمن عجب أن ولى العهد غادره
فلا ملك الباقى تراث الذى مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ويقول المهلبى :

لاحزن إلا أراه دون ما أجد ... وهل لمن فقدت عيناى مفتقد

ومنها: فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد

ورأى يزيد المهلبى هذا يشبه رأى إسحاق بن إبراهيم المصعبى م٢٣٥ هـ فى الأتراك حين شكا المعتصم غدر من اصطنعهم من قوادهم مع وفاء من اصطنعهم أخوه المأمون من الرجال له (٣) . ويقول على بن الجهم :

عبيد أمـــير المؤمنين قتلنه ... وأعظم آفات الملوك عبيدها
بنى هاشم صبرا فكل مصيبة ... سيبلى على وجه الزمان جديدها

---

(١) ٦٥ - ٦٧ ج ٤ مروج الذهب .

(٢) راجع مقتل المتوكل ومراثى الشعراء فيه فى (٢٦٠ - ٢٦٤ ج ١ زهر الآداب) ، ومرثية يزيد المهلبى فيه فى (٣١١ ج ٢ وما بعدها من الكامل للبرد ، ١٨٦ ج ٢ العقد ، ٢٦٣ ج ١ زهر الآداب) .

(٣) راجع ٨ ج ١١ الطبرى .

وإذا كان الشعب يكره الأتراك من بدء اصطناع المعتصم لهم ، فإن هذه المأساة المؤلمة كانت سببا فى زيادة كراهية الرأى العام لهم ، ونقمته عليهم .

ازداد عقب ذلك نفوذ الأتراك فى عهد المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) ، ثم فى عهد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) ، ثم عادوا فخلعوه من العرش ثم قتلوه وأقاموا مكانه فى الخلافة المعتز بالله بن المتوكل عام ٢٥٢ هـ .

كان المعتز يكره الأتراك ، ويريد أن يثأر منهم لأبيه ، ففى عهده قتل وصيف عام ٢٥٣ هـ ، ثم بغا عام ٢٥٤ هـ ، وفى مصرعه يقول البحترى من قصيدة مدح بها المعتز بالله (١) :

أضحى بغاء وأقربوه وحزبه ... وكأنهم حلم من الأحلام
طاحوا فما بكت العيون عليهم ... بدءوهما ومضوا بغير سلام

وبعد قليل سار الأتراك إلى المعتز فوبخوه وطالبوه بالأموال ، ثم عذبوه وضربوه بالدبابيس ، وجروه برجله إلى باب الحجرة ، وأقاموه فى الشمس حافياً (٢) ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ، فخلع المعتز نفسه عام ٢٥٥ هـ ؛ ثم حبسوه وقتلوه ، وولوا مكانه المهتدى بن الواثق ، الذى لم يعجبهم زهده وورعه وحبه للعدالة ، فخلعوه عام ٢٥٦ هـ ومات بعد خلعه بأيام .

وفى عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) اشتد الخلاف بين فرق الأتراك ، فطلبوا أن يكون القائد الأعلى للجيش أحد إخوة الخليفة ، وألا يرأسهم أحد منهم فولى المعتمد أخاه الموفق أمر الجيش والولايات عام ٢٥٧ هـ ، وبعد قليل أصبح السلطان الفعلى للموفق لا للمعتمد ، وصارت كلمته هى العليا على الأتراك وقوادهم ، فكسبح غير قليل من جماحهم ، وأثر ذلك فى حسن الأحوال قليلا .

---

(١) راجع ٢٣٤ - ٢٣٦ ج ٢ ديوان البحترى .

(٢) ١١ ج ١٦٢ طبرى ، ١٣٠ ج ٢ شذرات الذهب ، ٢٠ ج ٤ مروج الذهب

وسار المعتضد بن الموفق فى خلافته (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) سيرة أبيه ، فعمل على رفع شأن الخلافة ، والحد من نفوذ الأتراك بقدر ما استطاع ، ولم يحابهم على حساب القانون والعدالة ، فاقتص من تركى ارتكب معصية (١) ، وقتل قائداً تركيا قتل غلاماً له ومدحه ابن الرومى على ذلك (٢) ، وفى المعتضد يقول ابن المعتز من أرجوزته فى تاريخه :

قام بأمر الملك لما ضاعا ... وكان نهباً فى الورى مشاعا
وكل يوم ملك مقتول ... وخائف مروع ذليل
وكل يوم شغب وغضب ... وأنفس مقتولة وحرب
وكم فتاة خرجت من منزل ... فغصبوها نفسها فى المحفل
ويطلبون كل يوم رزقاً ... يرونه ديناً لهم وحقا
كذاك حتى أفقروا الخلافة ... وعودوها الرعب والمخافة

ومات المعتضد ، فسار ابنه المكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) فى خلافته بسيرة والده من الحزم والعزم والأخذ على يد الأتراك . وبعد وفاته ولى الأتراك أخاه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلا صغيراً ، وأيدوا عرشه ببطشهم وظل خليفة إلى عام ٣٢٠ هـ .

وهكذا كانت أمور الدولة فى هذه الفترة تسير فى طريق بعيد عن المألوف وتتجمع كل سلطة ونفوذ فى أيدى الأتراك ، الذين لم يبالوا بشىء فى سبيل أهوائهم وشهواتهم ، واعتدوا على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء ، وكانوا كثيراً ما ينهبون الدور ، ويتعرضون للحرم والغلمان ، فكرههم الناس كرهاً شديداً ، وكان نفوذهم فى الدولة جرحاً دامياً يؤلم كل عربى صميم ، حتى هجا دعبل المتوفى ٢٤٦ هـ المعتصم لشدة تعصبه لهم :

---

(١) راجع نشوار المحاضرة جـ ١ صـ ١٥٢ .
(٢) ديوان ابن الرومى صـ ٣٠٣ .

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم
وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركى عليه مهانة فأنت له أم وأنت له أب

ويقول العلوى صاحب الزنج م ٢٧٠ هـ :

بنى عمنا وليتم الترك أمرنا ونحن قديماً أصلها وعمودها
فما بال عجم الترك تقسم فيئنا ونحن لديها فى البلاد شهودها
فأقسم لاذقت القراح وإن أذق فبلغة عيش أو يباد عميدها (١)

وقد قام الشعب بعدة ثورات ، أهمها ثورة عام ٢٤٩ هـ التى اشترك فيها الجند الشاكرية ، وقضى عليها الأتراك بعنف وقوة ، وقد حاول بعض زعماء الأتراك التخفيف من حدة شعور الرأى العام وبغضه لهم ، وقاموا بدعايات كثيرة ، كان من أبرعها رسالة كتبها الجاحظ بإيحاء الفتح بن خاقان ، وحاول بها إيجاد جو من الثقة والتفاهم والألفة بين الأتراك وجمهور الشعب ، وقد قدمها الجاحظ إلى الفتح ، والظاهر أنه كتبها فى أيام المعتصم ، ولكنها لم تصل إليه بفعل حاشيته من الفرس والعرب ، فأعاد كتابتها من جديد فى عهد المتوكل ، ودعا فيها إلى وحـــدة الأجناس والعناصر وأشاد فيها بالأتراك وبطولتهم إلى حد بعيد (٢) ؛ وهذه المحاولة وسواها من المحاولات قد فشلت جميعاً فى الوصول إلى الغرض المنشود .

وكثر نفوذ الغلمان فى هذه الفترة وخاصة فى عهد المقتدر ، الذى كان عنده أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان (٣) ، وتولى كثير من الخدم قيادة الجيوش وأهم الأعمال فى الدولة ؛ كبدر غلام المعتضد ، الذى تولى قيادة

---

(١) زهر الآداب جـ ١ صـ ٣٣١ .
(٢) راجع رسالة الجاحظ فى مناقب الترك وهى فى أول مجموعة رسائل الجاحظ .
(٣) راجع التمدن جـ ٤ صـ ١٧٥ ، اداب اللغة لزيدان جـ ٢ صـ ١٥٤ .

الجند ونقش اسمه على الأعلام ، وأبلى فى خدمة مولاه بلاء حسناً ، حتى قتل فى سبيله عام ٢٨٩ هـ . ونشطت النساء . وكثر نفوذهن أيضاً فى الدولة ، وكان معظم ذلك فى عهد المقتدر لتسلط الخدم والحجاب .

وفى ظلال هذه الفوضى السياسية ، استقلت كثير من البلاد عن خلفاء بغداد وأهم هذه الدول المستقلة : الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤ — ٢٩٢هـ) وهى تركية والدولة الإخشيدية بمصر (٣٢٢ — ٣٥٣ هـ) ، وهى تركية أيضاً ، والدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ) وهى فارسية ، والدولة السامانية فى ماوراء النهر (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) وهى فارسية أيضا ، والدولة الصفارية بفارس (٢٥٤ — ٣٩٠ هـ) ، والدولة الدلفية بكردستان (٢١٠ — ٢٨٥ هـ) وهى عربية ، والدولة العلوية بطبرستان (٢٥٠ — ٣١٦ هـ) .

— ٢ —

وقد حفل هذا العصر بكثرة ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة ، مما تجد أخباره ونتائجه فى « مقاتل الطالبيين » ، وسبب ذلك راجع إلى اضطهادهم واضطهاد شيعتهم .

فلقد كثر اضطهاد الشيعة فى هذه الفترة الحافلة ، وأسرف فى ذلك المتوكل على الله فإنه لما تولى الخلافة اضطهد الشيعة ، وشدد النكير ، عليهم ، وصادر أموال العلويين وشيعتهم ، وغالى فى تشريدهم ، وأمر فى عام ٢٣٧ هـ بهدم قبر الحسين بكربلاء (١) .

---

(١) ٢٧٩ ج ٣ محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى بك ، ١٩ ج ٧ وما بعدها ابن الأثير .

وكان الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم (١) ، من حيث كان المأمون يرعى العلويين ولا يؤذى أحداً منهم (٢) .

وكان المتوكل يبغض المأمون والمعتصم والواثق لمحبتهم لعلى (٣) وكان شديد البغض لعلى وأهل بيته ، وذلك راجع لموضع خؤولته من الترك وسلطان الأتراك فى الدولة . وتاريخ الأتراك مملوء بكرههم للتشيع والشيعة ، وبالحروب المتصلة بينهم وهم سنيون وبين الفرس وهم شيعة .. وبذهاب الشيعة ونفوذهم من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وغلبت السنة على الدولة من ذلك الحين .

وسرت فى الدولة بعد المتوكل موجة اضطهاد العلويين والشيعة ، فالمنتصر كان يقاوم العلويين كأبيه (٤) ، وتذكر بعض المصادر أنه أراد أن يحسن صلته بالبيت العلوى ولكن لم تطل مدته (٥) .

ولكن عهد المتعضد كان عهد خير على العلويين ، فإنه لم يتعرض فى أيامه لهم ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً (٦) .

وكان البعض يشنع على آل أبى طالب عند المكتفى فنهاهم عنه (٧) .. وعلى الجملة فإن أغلب هذا العهد كان عهد محنة واضطهاد للعلويين ومن والاهم .

---

(١) العقد جـ ١ صـ ٢٤٩ .
(٢) راجع مناظرة المأمون للفقهاء فى تفضيل على (٢٧٩ - ٢٨٦ جـ ٢ العقد) .
(٣) ظهر الإسلام صـ ٤١ جـ ١ .
(٤) الإدارة الإسلامية لكرد على ط ١٩٣٤ صـ ١٧٣ .
(٥) ظهر الإسلام صـ ٤٤ جـ ١ .
(٦) الفرج بعد الشدة صـ ١٢٢ جـ ١ .
(٧) الأغانى صـ ١٤٣ جـ ٩ .

الطابع الاجتماعى لهذا العصر

— ١ —

ترتكز الحياة الاجتماعية (١) على الحالة الاقتصادية للدولة رقيا وضعفا .

والحياة الاقتصادية فى هذا العصر كانت شديدة الاضطراب والفوضى إلى حد بعيد .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للمقربين لدى الخلفاء والوزراء (٢) ، وكان كبار الملاك يستقلون بإقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين حالة الناس وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين ، حتى الوزراء الذين كانوا يسوغونها أمام ضمائرهم (٣) وأمام الخلفاء ، كما فعل سليمان بن وهب الوزير أمام المهتدى ، وعمت المصادرة وانتشرت بين طبقات الناس وأصبحت بتوالى الأيام المصدر الرئيسى لبيت المال (٤) ، وأنشىء لها ديوان مخصوص (٥) .

وكانت ضرائب الأطيان أساس دخل الخلافة (٦) . ويدل على مدى قوة الدولة أن متوسط جبايتها كان فى أواسط القرن الثالث ـ كما ذكر ابن خرداذبة ـ نحو ثلاثمائة مليون درهم (٧) بعد أن كان فى عهد المأمون

---

(١) يراد بالحياة الاجتماعية ما يؤلف بين أفراد الأمة من الصلات والأسباب .
(٢) ٥٤ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد .
(٣) ١٥٦ : ٧ مهذب الأغانى .
(٤) ١٨٠ : ٤ التمدن الإسلامى : ١٦٩ : الإدارة الإسلامية .
(٥) ٣٥ : ١ ظهر الإسلام و ١٦٩ الإدارة .
(٦) ٥٣ بارتولد و ٦٩ : ٥ التمدن .
(٧) ٦١ : ٢ التمدن .

والرشيد أكثر من ٣٦٠ مليونا (١) ، وفى عهد المعتصم ٣٨٨ مليونا (٢) .

وكانت نفقات المعتضد سبعة آلاف دينار فى اليوم (٣) وذلك نحو مليونين ونصف مليون من الدنانير أو خمسين مليونا من الدراهم فى العام (٤) فالباقى من مجموع الجباية هو الذى يبقى فى بيت المال تحت تصرف الخليفة (٥) .

وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة (٦) حتى ترك المنصور أربعة عشر مليونا من الدنانير ـ ٦٠٠ مليون درهم ـ وترك الرشيد واحدا وعشرين مليونا (٧) ـ وترك المعتضد فى خزانة الدولة أموالا طائلة فوق ماتركه من ثروة خاصة .

— ٢ —

وكانت الدولة الإسلامية فى ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها :

١ — العنصر العربى : أقصى عن النفوذ فى الدولة والخلافة ، وكان للمعتصم فى ذلك أثر معروف ، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون فى الشام والجزيرة حيث كونوا لهم هناك دويلات كثيرة وطابع العربى الزهو

---

(١) راجع ١٧٩ - ١٨١ مقدمة ابن خلدون ، و٥٣ : ٢ التمدن ، و ١٥٢ حضارة الإسلام فى دار السلام .

(٢) وذلك وفق ما ذكر قدامة فى كتاب الخراج ، ٥٩ : ٢ التمدن . ومتوسط الجباية فى العصر الأول كان نحو ٣٦٠ مليونا فى العام ينفق منها على مصالح الدولة نحو ٥ مليونا والباقى يظل فى بيت المال تحت تصرف الخليفة يصرف منه المرتبات والمكافآت ، ٦٩ و ٧٠ : ٥ التمدن .

(٣) ٣٥٣ - ٣٥٥ : ٣ الخضرى بك .

(٤) ٦٦ : ٢ التمدن .

(٥) ٦٧ : ٢ التمدن .

(٦) ١٠١ : ٥ التمدن .

(٧) ٢٣ : ٢ وما بعدها التمدن .

والاعتزاز بالنفس والفضائل والميل إلى الأدب والرغبة فى السيادة .

٢ — العنصر الفارسى : وكانوا عماد النظام السياسى والإدارى للدولة ، ولكن الترك أقصوهم عن منزلتهم التى كانت لهم فى العصر الأول ، فأخذوا يدسون الدسائس والمؤامرات ، ويرمون إلى الاستقلال عن الخلافة ، وكانت الدولة تتأثر بهم فى حياتهم العقلية الخصبة ، وبعاداتهم وتقاليدهم العامة ، وكانوا دعاة الترف .

٣ — الأتراك : وكان لهم النفوذ السياسى فى الدولة ، وقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعاً ، وتولوا شتى المناصب الرفيعة فى الحكومة ، وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة (١) ، وكان فيهم عبث بالأخلاق وشراهة فى جمع الأموال (٢) ، وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة ، فكثرت الجوارى الأتراك فى قصور الخلفاء والأثرياء، حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ، وطابع الترك حب الجندية والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل فى الدين . وحب المال وجمعه من أية سبيل ، مع عدم الرغبة فى الإصلاح .

وهناك عنصران آخران كان لهما أثرهما فى الحياة الاجتماعية فى هذا العصر ، وهما الزنج والروم :

أما الروم : فقد كثر أسراهم فى بيوت الخلفاء والأغنياء ، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات تركيات ، وكانت الجوارى الروميات والغلمان الروم يملأن القصور ، وتعشقهم الشعراء ، فكان للبحترى غلام رومى اسمه نسيم (٣) ، وكذلك كان لسواه من الشعراء ، ومن هذا العنصر : ابن الرومى م ٢٨٣هـ . .

---

(١) ظهر الإسلام جـ ١ ص ٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) معاهد التنصيص ص ١٠ : ١ — مهذب الأغانى جـ ٧ ص ١٩٤ .

وأما الزنج أو السود فكانوا يجلبون من سواحل أفريقيا الشرقية ، وكانوا يعملون فى الزراعة والصناعة وفى بيوت الطبقات المتوسطة ، وليس أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التى هددوا بها الدولة (٢٥٥ — ٢٧٠هـ) وكانت حربا بين الأجناس ، وظلت حتى قضى عليها الموفق عام ٢٧٠ هـ .

وكان الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً(١)،والنفوذ والثروة فى يد الخاصة من الناس مما يستلزم الترف واللهو والمغالاة فى البنيان . فقد أنفق المعتصم على بناء (سامرا) أموالا طائلة ، وكذلك فعل المتوكل فى بناء الجعفرى وسواه من المبانى التى أنفق عليها نحو خمسة ملايين من الدنانير ، وبنى المعتضد قصر التاج فى الجانب الشرقى من بغداد وأتمه ابنه المكتفى ، وبنى المعتضد على بعد ميلين منه قصر الثريا الذى بلغ طوله ثلاثة فراسخ وأنفق عليه نحو نصف مليون من الدنانير،ووصله بالقصر الحسنى بسرداب تحت الأرض بلغ طوله ميلين وكانت تمشى فيه جواريه وحرمه (٢) . وفى تهنئة المعتضد بقصر الثريا نظم ابن المعتز قصيدته :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر ... ولا زلت فينا باقيا واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل ... فلا زال معموراً وبورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مشبه ... ولا ببناء الجن فى سالف الدهر

ويصف فى أرجوزته فى المعتضد قصر الرباب فيقول :

فمن رأى مثل الرباب قصراً ... كم حكمة فيـــه تخال سحراً
أبنية فيها جنان الخلد ... لكل ذى زهد وغير زهد
تخبر عن عز وعن تمكين ... وحكمة مقرونة بالدين
ومظهرات قوة الإسلام ... على أعاديه من الأنام

---

(١) راجع الطبقات الاجتماعية وحياتها فى هذا العصر فى التمدن الإسلامى (٢٠ - ٥٩ : ٥ ، ١٠١ - ١٢٩ : ٥) .

(٢) التمدن الإسلامى صـ ٩٣ و ٩٤ جـ ٥ ، وظهر الاسلام جـ ١ صـ ٩٩ .

وهكذا كان الترف والنعيم حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس وبعض رجال التجارة والصناعة . على حين كان الفقر والبؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس (١) .

وكان من مظاهر الترف فى هذا العصر ـ كما ذكرنا ـ كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور، فكثر نسل الجوارى واختلطت الدماء ، وأشاع هؤلاء الجوارى فن الغناء ، كما نشرن اللهو والمجون بين شتى الطبقات .

— ٣ —

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضا للنحل، ومجالا لدعاية الجماعات السرية وأصحاب المذاهب ، الذين كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادىء الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة . فكان فيها التشيع برجالاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف أقوالها ، والفلسفة بمذاهبها، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوائف الأديان الأخرى بمبادئهم وآرائهم ،

وقد قامت جماعات تكافح الشك فى الدين والمجون فى المجتمع، ويدعون إلى الحياة الإسلامية بأخلاقها ومبادئها وسلوكها ، ومنهم الحنابلة الذين كانوا يقومون بثورات كثيرة فى بغداد لمحاربة المجون والإلحاد والترف . وفى بعض مظاهر هـذا الترف والبذخ ، يقول على بن الجهم واصفا قصر الجعفرى الذى بناه الخليفة المتوكل على الله :

ومازلت أسمع أن الملو ك تبنى على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجا ل يقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الإمام رأينا الخلافة فى دارها
بدائع لم ترها فارس ولا الروم فى طول أعمارها

(١) ظهر الإسلام جـ ١ ص ٩٧ .

وللروم ماشيد الأولون وللفرس آثار أحرارها

ولضيق الرزق وأبوابه على كثير من الناس كثر أهل الكدية ، إذ كانت تدر عليهم أخلاف الرزق .

— ٤ —

وحدث امتزاج شديد بين العناصر والأجناس التى تكونت منها الدولة وأحدث ذلك آثاره فى الحياة الاجتماعية والأدبية ، وقام الصراع بين الموالى والعرب ، وشبت نيران الشعوبية ، وكثر لغط دعاتها ، ممن يسوون الشعوب الأجنبية بالعرب أو يرفعون من شأنهم ويفضلونهم على العرب ؛ وكانت غلبة النفوذ الفارسى ذات أثر كبير فى الحياة الاجتماعية ، فانتشرت الثقافة الفارسية والعادات والتقاليد الفارسية ، وصعد الموالى إلى أعلى مناصب الدولة ، وانتشر الرفيق والغناء ، وكان لهما أثرهما فى الحياة الاجتماعية وفى ازدهار الشعر كذلك .

ولقد فتح الله للمسلمين الأرض ، ودان لحكمهم المشرق والمغرب ، وخضعت لسلطانهم أمم ذات مجد تليد ، وملك قديم ، وحضارة زاهرة ، ومدنية باهرة وورثوا ملك كسرى وقيصر ، وفى أقل من قرن أصبحت دولتهم تمتد من الأندلس ومراكش غرباً إلى الهند والصين شرقاً . وحكم العرب هذه الأقطار والأمصار ، وأقامت بها جيوشهم ، وهاجرت إليها قبائلهم ، واختلطوا بهم وعاشروهم ، ودخل كثير من هذه البلاد المفتوحة فى الإسلام ، وتعلموا العربية لغة القرآن الكريم ، واتصلوا بالعرب فى السكنى والمعيشة ، والتجارة وشتى شئون الحياة ، وتزوج العرب منهم ، وداخلوهم مداخلة شديدة ، حتى نشأ جيل جديد من المولدين ، الذين نسلوا من آباء عرب وأمهات أعجميات (١) .

---

(١) يقصد بالعجم ماعدا العرب ، أى السلالات الأجنبية غير العربية : من فرس وروم وهنود وسريان وحبش وزنوج وسواهم .

وكان العرب قبلا هم السادة والحكام ، وبيدهم شئون الدولة والولاية ، ولهم النفوذ والسلطان ، وكانوا يتعصبون لكل ماهو عربى ، ويضعون الأعاجم فى منزلة دون منزلتهم . ، فلما قامت الدولة العباسية ، بدأ الموالى يرفعون رءوسهم ويعتزون بكرامتهم ، ويمنون بأياديهم على الخلافة ، وينادون بأن لافضل للعرب عليهم ، لأنهم أقدم من العرب حضارة ، وأعرق منهم سلطاناً ، وأخذت شوكتهم تقوى ، ونفوذهم يزداد ، وأصبح منهم الوزراء والقواد ، وكبار الكتاب وحاشية الخليفة ، وعماله وولاته . . . وهكذا زاد امتزاجهم بالعرب ، وتغلغوا فى أنحاء الدولة ، وكان لسياسة العباسيين وما أعلنوه من المساواة بين العناصر والشعوب ، والعرب والموالى ، أثره البعيد .

وحسبنا أن الكثير من العلماء والأدباء ، بل الخلفاء والأمراء ، كانوا من أعجميات : فالهادى والرشيد ابنا « الخيزران » وهى أم ولد من خرشنة - بأرض الروم - ، والمأمون أمه « مراجل » ، والمعتصم أمه « ماردة » والواثق أمه « قراطيس » وهى رومية ، والمتوكل أمه « شجاع » خوارزمية ، أما الأمين فأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور وهى عربية هاشمية - وكان خصوم الدولة كثيراً ما كانوا يلوحون للخلفاء بنشأتهم فى أحضان أمهاتهم الأعجميات . كتب محمد بن عبد الله العلوى للمنصور : « ولا أعرقت فى الإماء ولا حضنتنى أمهات الأولاد » ، فبعث إليه المنصور برسالة يقول : « وأما ما ذكرت من أنك لم تعرق فيك الإماء ، فقد فخرت على بنى هاشم طرا : أولهم إبراهيم ابن رسول الله ، ثم على بن الحسين الذى لم يولد فيكم بعد وفاة رسول الله مولود مثله » ، ويقول الشاعر متألماً من كثرة أولاد الإماء :

إن أولاد السرارى كثرت يارب فينا
رب أدخلنى بلاداً لا أرى فيها هجينا

وكان للجوارى والقيان اللواتى كثرن فى قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء ، أثر كبير فى زيادة الامتزاج والاختلاط ؛ يروى أن الرشيد كان فى قصره ألفا جارية . والمتوكل ضعف ذلك ؛ وكانت هؤلاء الجوارى من عناصر فارسية وتركية ورومية ، وكن يوزعن على الفاتحين ، ويبعن فى الأسواق ، ويهدين كما تهدى الطرف النادرة .

— ٥ —

ولقد نشأ عن تقريب الخلفاء للعجم ، أن بدأ نفوذ العرب فى الاضمحلال وجاء المعتصم فقطع أرزاقهم من دواوين الجند ، وأحل مواليه من الترك محلهم فاندمجوا فى غمار العامة ، وتكسبوا بالزراعة ، والحرف الصغيرة ، وضعفت فيهم الروح العربية ، وزاد امتزاجهم بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمخالطة والمعاشرة والمجاورة .. ومهما يكن من شىء فقد أصبحت دولة الخلافة على سعة رقعتها ، وتعدد العناصر والشعوب فيها ، بفضل هذا الامتزاج الشديد ، والاختلاف البعيد ، قريبة النزعات والميول ، متشابهة الأخلاق والعقائد والتفكير والعادات ، يحكمها حاكم واحد ، وتتكلم بالعربية ، وتدين بالإسلام ، وتربطها وشائج من المودة والمحبة والتعاون والإخاء ، وصلات من المنفعة والمصلحة أو من المصاهرة واختلاط الدماء .

— ٦ —

ولاريب أن هذا الامتزاج كان شديد الخطر ، عظيم الأثر ، فى حياة الدولة الاجتماعية ، حتى لقد ظهرت نتائجه واضحة جلية فى الأخلاق والعادات والتقاليد ، وفى العقول والأجسام ، وشتى نواحى المعيشة والحياة ، مما نستطيع أن نصوره فيما يلى :

١ — انتشرت العادات الفارسية فى المجتمع فى هذا العصر ، بسبب هذا الاختلاط الذى صورناه ، وذلك الامتزاج الذى شرحناه ، سواء فى الطعام أو الشراب أو السكنى ، أو اللهو والغناء . فذاع اللعب بالشطرنج والنرد ، والخروج إلى البوادى والقرى للراحة أو الصيد ، واصطحاب الإخوان للنزهة بين الرياض والوديان ، وأخذ العرب يحاكون الفرس فى العناية بموائدهم ، ووضع الزهور والرياحين عليها ، وفى تنسيق البيوت ، وإعداد الحجرات ، وفى الاحتفاء بالأعياد الفارسية احتفاء شديداً ، ومن بينها عيد النيروز ويوم المهرجان ، حيث حرصوا على أن يتلقوا فيهما التهانى والهدايا .

وذاعت الأزياء الفارسية ، من قلانس وأقبية ، وعمائم ، وسواها .

وتبع ذلك كثرة اللهو والترف حتى إنهم كانوا ينفقون الأموال الطائلة فى غير طائل ، اللهم إلا إشباعاً للنفس ، وإرضاء لداعى اللهو واللذة ، فلا عجب أن غالوا فى مآدبهم وحفلاتهم مغالاة شديدة ، حتى ليروى أن الرشيد لما بنى بزبيدة بنت جعفر بن المنصور اتخذ وليمة لم يكن لها شبيه فيما مضى من المآدب على طول الأيام ، وكانت الهبات فيها لا تتناهى . وكذلك فعل المأمون فى بنائه ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل عام ٢١٠ هـ ، فقد أعطاها فى صداقها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد الشموع الهائلة من العنبر ، وصنع الطعام والمآدب الفاخرة . . وأولعوا بالغناء ، وتفننوا فيه ، وأبدعوا فى ألحانه وجددوا فى آلاته ، وأكثروا فى مجالسه من الملح والعبث والشراب.

وكانت بغداد تعجب أصحاب الثراء لسعة عمرانها ، وبهجة منظرها ، وروعة قصورها ومتنزهاتها وميادينهـــا وشتى مظاهر الحضارة فيها ، قال الشاعر :

أعاينت فى طول من الأرض والعرض
كبغداد داراً ؟ إنها جنة الأرض

صفا العيش فى بغداد واخضر عوده وعيش سواها غير صاف ولا غض
تطول بها الأعمار إن غذاءها مرىء، وبعض الأرض أمرأ من بعض

أما الفقراء وذوو الحاجة فكانوا يضيقون بها ذرعا ، للشقاء والبؤس الشديد الذى كانوا يعيشون فيه ، قال شاعرهم فيها :

تصلح للموسر لا لامرىء يبيت فى فقر وإفلاس
لو حلها قارون رب الغنى أصبح ذا هم ووسواس

ويصور أبو العتاهية غلاء الأسعار فى بغداد تصويراً رائعاً فيقول :

من مبلغ عنى الإما م نصائحـــاً متواليـــه
إنى أرى الأسعـار أســـعار الرعية غاليـه
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشيه
وأرى غموم الدهر را ئحـــة تمر وغاديه
من للبطون الجائعـا ت وللجسوم العاريه
يا ابن الخلائف لافقد ت ولا عدمت العافيه
ألقيت أخباراً إليـــك عن الرعية شافيه

وكان التباين بين طبقة الخاصة وطبقة العامة شديدا : فالنفوذ والثراء وحياة اللذة والنعيم حظ المترفين ، ولغيرهم الشقاء والهم المقيم .

وقد استلزم الترف : المغالاة فى البنيان ، والتنافس فى تشييد القصور ، حتى قيل إن المعتصم أنفق على بناء سامرا أموالا طائلة ، وأنفق المتوكل على بناء « الجعفرى » الملايين من الدنانير ، وأكثروا من تشييد البرك والحدائق والدور والقصور وبيوت العبادة، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والنعيم .

وعلى نمط النظم الفارسية سارت إدارة الدولة ، حتى لقد أنشئت المناصب الرفيعة فى الخلافة ، كمنصب الوزارة الذى تقلده فى هذا العصر أفذاذ من الرجال كأبى سلمة الخلال ، وأبى أيوب الموريانى وزير

المنصور ويعقوب بن داود وزير المهدى ، والبرامكة الذين وزروا للرشيد ، وبنى سهل الذين وزروا للمأمون ، وقد مكن هؤلاء للنفوذ الفارسى ، والتقاليد والعادات والنظم الفارسية فى دولة الخلافة .

٢ — وبتأثير الاختلاط ذاع العبث والمجون والفساد والإلحاد والزندقة التى حاربها المهدى والرشيد حربا لاهوادة فيها ، كما شاعت الشهوات والملذات ، فأقبل الناس على مجالس اللهو والشراب ، والغزل بالمذكر ، وانتشرت الرشوة والخلاعة فى كل مكان ، وكان للقيان والجوارى أثرهن فى هذا الميدان .

وإن كنا لا ننكر أن الامتزاج قد أكسب العربى سعة أفق ، ورحابة صدر وسماحة روح ، حتى أصبح لا يستأثر بالخير ، بل يشرك معه فى الفضل سواه ، وضاعت منه عنجهية البداوة ، وحمية الجاهلية الأولى ، وجفاء الأخلاق ، وخشونة الطباع ، فصار لين العريكة ، موطأ الأكناف ، دمثا مهذبا ، يدين بالمحبة والإخاء .

٣ — وظهر أثر هذا الاختلاط الشديد فى العقول والأفكار ، فاتسعت الثقافة ، ونضج التفكير ، ودقت الأفهام ، وحصفت العقول ، وقويت المدارك . ونمت المواهب ، وجنح الناس إلى العلوم والفنون والآداب ، يروون منها ظمأهم ، ويشبعون نهمهم . كل ذلك أثر للاختلاط ، الذى دعا إلى امتزاج الثقافات ، والعناية بالترجمة ، وإحياء علوم الأمم القديمة من فرس ويونان ورومان وسريان وسواها ، وأخذ العرب يتحضرون ، وينشئون المدارس ويشيدون خزائن الكتب ودور الحكمة ، ويجمعون بين فلسفة اليونان وآداب الفرس وأساطير الهنود ، ومعارف سواهم من الشعوب .

أما أثره فى الأجسام فهو غير خفى أو منكور ، فلا شك أن العربى قد صاهر أبناء الأمم الأخرى ، فكسب بسطة فى الجسم وسلامة فى البدن ،

ونشأ جيل جديد من المولدين يحملون طابع العرب وخصائص العجم (١) ، ويمتازون بفراهة الأجسام ، وسلامة البنية ، ووفرة الجمال ، مع تنوع الموهبة والحذق فى الصناعة . إلى ماسوى ذلك من خصائص ومميزات .

٤ — وكان لامتزاج العرب بالأعاجم آثاره البعيدة فى تهذيب الأفكار ، وصقل الأخيلة ، ونضج الثقافة ، وتجويد ألوان الكلام من شعر ونثر ، حتى ليلمس الدارس الفروق واضحة بين الأدب العربى فى هذا العصر والأدب فى العصور السالفة :

(ا) فلقد نشأ ـ بتأثير هذا الامتزاج ـ فى الأدب فنون أدبية لم تكن موجودة كالقصص والمقامات وأدب الزهد والتصوف وأدب الطبيعة ، وتفشت ألوان الخلاعة والمجون فى الأدب ، كالإغراق والمبالغة فى وصف الخمر والتشبيب بالجوارى والتغزل بالمذكر .

ولاشك أن تفشى هذه الألوان وذيوع تلك الفنون إنما كان بتأثير الاختلاط وامتزاج الحياة العربية بالحياة الأجنبية وما تزخر به من الترف والمفاسد ، وما تحمل بين ثناياها من شهوات طاغية ، ونزوات طائشة ، ومتع آثمة .

ولقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفارسية إلى العربية ، فرأى العرب طراز القصة فى النثر . وأكبوا عليها ، وأعجبوا بها ، حتى لقد نظمه أبان اللاحقى شعرا ، بدأه بقوله :

هذا كتاب أدب ومحنه ... وهو الذى يدعى كليله دمنه
فيه ضلالات وفيه رشد ... وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم ... حكاية عن ألسن البهائم

---

(١) الابن الذى يولد من أب عربى وأم أعجمية يسمى « هجينا » ، والذى يكون من أب عجمى وأم عربية يسمى « مقرفا » .

فالحكماء يعرفون فضله والسخفاء يشتهون هزله
وهو على ذاك يسير الحفظ لذ على اللسان عند اللفظ

(ب) وكان من تأثير الامتزاج أن تطور فن الوصف فى الأدب العربى، ونما نمواً واضحا ، واتسع مجاله ، وانفسح مداه . فهذه مظاهر الحضارة المختلفة من قصور ورياض ، وأنهار وبرك وغدران ، تتوالى صورها أمام أنظارهم ، فتلهب شاعريتهم . وتسمو بأفكارهم ، وتحلق بأخيلتهم .

وهذه أيضا عادات العجم وتقاليدهم وأزياؤهم ، ومواسمهم وأعيادهم ، ومجالس لهوهم وشرابهم وغنائهم ، ومرابع جواريهم وغلمانهم . كل ذلك قد أطلق الألسنة ، وفتق الأخيلة ، وأيقظ المشاعر ، وأذكى الحواس فأخذوا يصفون هذه الألوان التى بهرهم بريقها ، وأسرهم جمالها ، وأخذ بألبابهم مافيها من حسن ونضارة . فوصفوا كل هذه المظاهر أبلغ وصف ، وعبروا عنها أجمل تعبير .

يصنع الأمين لنزهته فى دجلة خمس حراقات على صور الحيوانات ، فيأخذ أبو نواس فى وصفها ، فيقول :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برّاً سار فى الماء راكباً ليث غاب (١)
عجب الناس إذ رأوك على صو رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليها كيف لو أبصروك فوق العقاب (٢)
ذات زور ومنسر وجناحيـ ـن تشق العباب بعد العباب (٣)

---

(١) أى سفينة على صورة الأسد وتسمى الحراقة بالتشديد وفيها مرامى نيران يرمى بها العدو .
(٢) أى فوق سفينته الأخرى التى صنعت على شكل العقاب .
(٣) الزور : الصدر .

تسبق الطير فى السحاب إذا ما استعجلوها بجيئة وذهاب

ويبنى المتوكل قصره « الجعفرى » فيراه على بن الجهم ، فيصفه بقوله :

وما زلت أسمع أن الملو ك تبنى على قدر أقدارها
فلما رأينا بناء الإمام رأينا الخلافة فى دارها
بدائع لم ترها فارس ولا الروم فى طول أعمارها
إذا أوقدت نارها بالعراق أضاء الحجاز سنا نارها
لها شرفات كأن الربيع كساها الرياض بأنوارها

ويصف البحترى الربيع وصفا رائعا فيقول :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوماً
يفتقها برد الندى فكأنه يبث حديثاً كان قبل مكتما
فمن شجر رد الربيع لباسه عليه كما نشرت وشياً منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته يجىء بأنفاس الأحبة نعما

إلى غير ذلك مما حفلت به رياض الأدب ، من صور ومشاهد ، نبضت بها هذه الحياة المترفة اللاهية .

(ج) ولقد ورث العرب كذلك عن الأعاجم غزارة المعنى ودقته ، وعمق الفكرة وتسلسلها ، وحسن الاستقصاء ، وكثرة الاستطراد ، وبراعة التحليل . فظهر ذلك بصورة واضحة فى آدابهم ، ومأثور أشعارهم ، ومن هنا رأينا طول النفس يتجلى فى القصيدة العربية ، لكثرة الاستطراد والاستقصاء والتحليل . كما رأينا شعرهم يحمل الكثير من المعانى الدقيقة ، والأخيلة البعيدة ، والفكرة العميقة .

ومما زاد فى ظهور هذه الآثار أن كثيراً من شعراء هذا العصر كانوا

يرجعون إلى أصول غير عربية ، كبشار وأبي العتاهية وأبي نواس ثم ابن الرومي وغيرهم .

يقول أبو إسحق إبراهيم بن موسى :

غزتني بجيش من محاسن وجهها ... فعبا لها طرفي ليدفع عن قلبي
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها ... يريد اغتصاب القلب قسرا على الحب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا ... جعلت فؤادي في يديها على العضب
وناديت من وقع الأسنة والقنا ... على كبدي : ياصاح مالي وللحب
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر ... قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

ويقول إسحق الموصلي :

أخاف عليها العين من طول وصلها ... فأهجرها الشهرين خوفاً من الهجر
وما كان هجراني لها عن ملالة ... ولكنني أملت عاقبة الصبر
أفكر في قلبي بأي عقوبة ... أعاقبه فيها لترضى فما أدري
سوى هجرها والهجر فيه دماره ... فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن خاف الندى أن يبله ... فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

ويقول مسلم :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دل على القبر

ويقول ابن المعتز في الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

ويقول سعيد بن حميد :

لم آت ذنباً فإن زعمت بأن ... أتيت ذنباً فغير معتمد
قد تطرف الكف عين صاحبها ... فلا يرى قطعها من الرشد

ويصور أثر الحضارة والبيئة هذه القصة الطريفة ؛ فقد روى أن لاثماً لام ابن الرومى فقال له : لم لاتشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى عن مثله ، فأنشده قوله فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له : زدنى ، فأنشده قوله فى الآذريون — وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر إليه وبفرشه فى المنازل :

كأن آذريونها والشمس فيه كالية(١)
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية(٢)

فصاح واغوثاه ؛ تالله لايكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ! ولكن انظر إذا أنا وصفت ماأعرف ، أين يقع قولى من الناس ! هل لأحد قط قول مثل قولى فى قوس الغمام :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا على الجود كنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض(٣)

---

(١) كالية : مخفف من كالئة بالهمز أى ناظرة ، من كلأ بصره فى الشىء إذا رددده.
(٢) الغالية : نوع من الطيب .
(٣) الخود : الشابة الحسنة الخلقة ، وغلائل جمع غلالة (بكسر الغين) وهى شعار يلبس تحت الثوب .

وقولى فى صانع الرقاق :

ماأنس لا أنس خبازاً مررت به	يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر(١)
ما بين رؤيتها فى كفه كرة	وبين رؤيتها قوراء كالقمر(٢)
إلا بمقدار ماتنداح دائرة	فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر(٣)

وقولى فى قالى الزلابية :

رأيته سحراً يقلى زلابية	فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجيناً من أنامله	فيستحيل شبابيكا من الذهب

(د) وبتأثير الامتزاج واختلاط العرب بالعجم المتحضرين كثرت المبالغة والغلو الشديد فى أدب الأدباء ، وشعر الشعراء . . يقول أبو نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه	لتخافك النطف التى لم تخلق

ويقول أبو تمام :

ولو صورت نفسك لم تزدها	على مافيك من كرم الطباع

ويقول بشار فى محبوبته :

إن فى برى جسما ناحلا	لو توكأت عليه لانهدم

ويقول ابن الرومى :

يقتر عيسى على نفسه	وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره	تنفس من منخر واحد

---

(١) دحاه يدحوه : بسطه .
(٢) قوراء : واسعة .
(٣) انداح : اتسع .

كما كثرت الحكم والأمثال والتعليلات ، العقلية فى الأدب : شعره ونثره . .

يقول صالح بن عبد القدوس :

لايبلغ الأعداء من جاهل ... مايبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لايترك أخلاقه ... حتى يوارى فى ثرى رمسه
وإن من أدبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً ... بعد الذى أبصرت من يبسه

ويقول أبو تمام :

ينال الفتى من دهره وهو جاهل ... ويكدى الفتى فى دهره وهو عالم
ولوكانت الأرزاق تجرى على الحجا ... لماتت إذاً من جهلهن البهائم

وقال بشار :

عى الشريف يشين منصبه ... وترى الوضيع يزينه أدبه
والصدق أفضل ماحضرت به ... ولربما ضر الفتى كذبه

وقال أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

ومن التعليلات الطريفة قول أبى تمام :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب

وقوله :

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى(١)

---

(١) عطل من الأدب عطلا ، وعطلا إذا خلامنه ، والعطل : التجرد من الحلى .

وقال العباس بن الأحنف :

لاجزى الله دمع عينى خيراً وجزى الله كل خير لسانى
نم دمعى فليس يكتم شيئاً ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طى فاستدلوا عليه بالعنوان

(هـ) وبتأثير الامتزاج عربت واستحدثت فى اللغة العربية ألفاظ جديدة من لغات الأعاجم ، فزادت ثروتها فى الألفاظ . . . وإن كان للامتزاج آثار سيئة ، مثل شيوع اللحن والعجمة واللكنة فى الألسنة ، حتى أصبح شعر هؤلاء المولدين لايحتج به ، كما كان يحتج بالشعر القديم .

الطابع الثقافى للعصر العباسى الأول

— ١ —

فى العصر العباسى الأول ازدهرت الحياة الثقافية أو العقلية (١) ازدهارا كبيرا، وتلاقت فى الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التى تمثل حضارات الأمم العريقة وآثارها ، فى العلم والثقافة .. كانت الدولة مزيجا من شعوب كثيرة، وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر الثقافات والوراثات .

كان النفوذ فيه للفرس، وانتشرت ثقافتهم انتشارا كبيرا على أيدى الوزراء وكتابهم الفارسيين ، ونقل المثقفون ـ من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية ـ إلى العربية تراث الفرس القديم فى الحضارة والثقافة ، وإنتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادراً عن عقليتين وثقافتين ؛ وكان رجال العلم فى هذا العصر أكثرهم فارسيون ، حتى قال ابن خلدون : إن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم (٢) . . . ودخلت الثقافة اليونانية فى هذا العصر على الفكر الإسلامى بامتزاج الجنسين فى الحياة الاجتماعية وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية ، وإذا كان خالد بن يزيد م ٨٩ هـ أول من ترجم ـ أو ترجمت له ـ كتب النجوم والطب والكيمياء (٣)، فقد عنى المنصور م ١٥٨ هـ بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها ، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بما لديه من كتب الفلاسفة واستخار

---

(١) يراد بالحياة العقلية حركة النفس الإنسانية فى جميع أنواع العلوم والفنون والثقافات والآداب .

(٢) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون .

(٣) ٢١٣ : ١ البيان والتبيين للجاحظ ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم .

لها مهرة التراجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها(١) ، بل كان المنصور أول خليفة قرب المنجمين وترجمت له الكتب من اليونانية والرومانية والفهلوية والفارسية والسريانية (٢) ، وكذلك فعل الرشيد ، وأوفد المأمون الرسل إلى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربى وبعث المترجمين لذلك (٣) .

وأنشأ فى بغداد مدرسة لتخريج المترجمين (٤) وهى مكملة لدار الحكمة التى بناها الرشيد للترجمة ، وإذا كانت الدولة قد قبلت التقاليد الإيرانية فى أمور الدولة، فقد أخذت فى ساحة الحضارة والثقافة أمورا كثيرة من بيزنطة (٥)

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الإسلامى مباشرة وبوساطة الفرس أيضا ؛ أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية ، وليس لهم ثقافة ، وبعد أن تعلموا العربية لم ينبغ منهم فى الأدب والشعر والعلم إلا القليل ، كأحمد بن طولون والفتح بن خاقان .

وكان للإسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة فى الدين واللغة والأدب والشعر ، كانت هى أهم شىء أثر فى الفكر الإسلامى وكانت المورد الأول للناس جميعا

تجمعت هذه الثقافات فى العراق فى العصر العباسى الأول وأحدثت أثرها فى العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل فى امتزاج هذه الثقافات(٦)

---

(١) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ، ٢١ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، وراجع حركة الترجمة فى (٢٢٩ - ٢٣٣ الأدب العباسى لمحمود مصطفى، ١٧٧ وما بعدها و ٢٦٤ و ٢٦٨ - ٢٧٠ : ١ ضحى الإسلام) .

(٢) ٢٤١ : ٤ وما بعدها مروج الذهب .

(٣) ٤٨٠ و ٤٨١ مقدمة ابن خلدون .

(٤) ٢٣٠ الأدب العباسى لمحمود مصطفى .

(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد . (٦) ٣٨٠ ج ١ ضحى الإسلام .

وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدموا معانى الأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها .

ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء والأدباء والشعراء شغلا كبيراً . . وأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، كما أقبل عليها الناشئون ، يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ، ليكونوا ثقافتهم تكوينا سليما وليعدوا أنفسهم للمناصب العالية ، والدرجات الرفيعة .

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية ، والمعارف العامة التى تثقفت بها عقول المستعربين ، تدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص ، حتى إذا نضجت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة فى البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون فى موضوعاتها ، ويستقلون ببحوثها ، فبعد أن كانوا مترجمين ، أصبحوا باحثين ومؤلفين ، وظهرت ثمار هذه النهضة فى العواصم الكبرى فى العالم الإسلامى : كخراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفضل ، ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة ـ من هنود وفرس ، وسريان ويونان وروم وسواهم ـ عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثرها الواسع فى العرب الذين اتصلوا بهم وخالطوهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم العقلية فى طبقات المولدين ، الذين شهروا بالنجابة والذكاء وسعه التفكير وخصب الخيال .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبى فى الأدب واللغة واضحا منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين الذى بدأ فيه بناء الحضارة ، وذاعت فيه ألوان الثقافة ، وقامت بقيامه حركة الترجمة على ساقها ، وأخذ التأثير الأجنبى يبدو بوضوح فى اللغة العربية وآدابها .

زاد امتزاج هـذه الثقافات واتصالها ، بتطاول الزمن وتلاقح العقول وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم فى البلاد الإسلامية .

وفى أوائل العصر العباسى الأول تغلبت نزعة الاعتزال التى أيدها المأمون بكل ما يستطيع وفى آخره وهو عصر النفوذ التركى انتهى سلطان المعتزلة وارتفع شأن المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجدل فى القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة ، كمحمد بن أبى الليث فى مصر ، وأحمد بن أبى دؤاد فى العراق ، من حيث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أئمة المحدثين ؛ وكان هذا الاتجاه يحظى بتأييد الأتراك ويعملون له (١) .

— ٢ —

ومراكز الحياة العقلية كانت كثيرة متعددة ، فنشطت الدراسات الدينية واللغوية فى مصر ، وتفوقت الشام فى الشعر والآداب واللغة (٢) ، وكان للعراق الصدارة فى العلم والأدب والفلسفة ، فكانت بغداد والبصرة وحران أهم مراكز العلم والحضارة . فالجاحظ والكندى بصريان ، والبتانى الرياضى الفلكى م ٣١٧ هـ من حران ، وكانت بغداد تجذب العلماء إليها من كل أرجاء العالم الإسلامى واشتهرت بلخ وخوارزم وأصفهان فى ميدان التفكير والثقافة . فنبغ منها أبو زيد البلخى م ٣٢٢ هـ أحد تلاميذ الكندى المشهور ، وأبو موسى الخوارزمى صاحب المؤلفات القيمة فى الجبر والحساب ، ثم أبو الفرج الأصفهانى مؤلف الأغانى ، وسواهم من العلماء .

وبعد فهذا العصر كان زاخرا بالعلوم ، قديمها وحديثها ، كما كان حافلا

---

(١) راجع ٤١ : ١ ظهر الإسلام .

(٢) راجع ٨ : ١ اليتيمة للثعالبى ، ١٧٧ جـ ١ وما بعدها ظهر الإسلام .

بالعلماء والمفكرين والفلاسفة . . وكانت العلوم المترجمة شرطا فى تكوين ثقافة الكاتب والأديب ، وراج علم النجوم حتى انتشر بين الخاصة وجمهور الناس (١) والأدباء ، وعلى أى حال فلم تكن مناهج التفكير واحدة عند جميع الناس، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده فى العراق ، ويشير ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » على الحالة فى عصره حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق (٢) ، وكانت جماعة الأدباء يضجرون من الثقافات المترجمة وعلومها ، حتى قال ابن المعتز يصف من يؤثره بصداقته :

فإن تطلبه تقتنصه بحانة ... وإلا ببستان وكرم مظلل
ولست تراه سائلا عن خليفة ... ولا قائلا : من يعزلون ومن بلى
ولا صائحا كالعير فى يوم لذة ... يناظر فى تفضيل عثمان أو على
ولا حاسبا تقويم شمس وكوكب ... ليعرف أخبار العلوم من أسفل
يقوم كرباء الظهيرة مائلا ... يقلب فى اصطرلابه عين أحول
ولكن فيما قد عناه وسره ... وعن غير مايعنيه فهو بمعزل

وقد ازدادت الحركة العقلية ازدهارا بعد ذلك ، وظهر أفذاذ من الفلاسفة والمفكرين الذين يعتز بهم العقل الإسلامى .

— ٤ —

وقد نبغ فى جميع ألوان الثقافة الدينية والأدبية والفكرية فى العصر العباسى كثير من أئمة العلماء :

---

(١) واشتهر على بن جور الفارسى - وكان كاتباً مترسلا ذا علم بالنجوم - بادخالها فى شعره (٢٩٣ معجم الشعراء) .

(٢) راجع ص ٢ ومابعدها أدب الكاتب بهامش المثل السائر . وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع ثقافته اليونانية وسواها (راجع ٤٠٢-٤٠٦ ج ١ ضحى الإسلام) .

(أ) فى التشريع الإسلامى نبغ : أحمد بن حنبل م ٢٤٠ هـ، والكرابيسى م ٢٤٥ هـ ، والزعفرانى م ٢٦٠ هـ ، وداود الظاهرى (٢٠٢ — ٢٧٥ هـ) ، وإسماعيل ابن إسحاق قاضى بغداد ٢٨٢ هـ ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل م ٢٩٠ هـ ، والحربى م ٢٨٥ هـ ، ويوسف بن يعقوب القاضى (٢٠٨ - ٢٩٧) ، ومحمد بن داود الظاهرى م ٢٩٧ هـ .

(ب) وفى التصوف : المحاسبى ٢٤٣ هـ والبسطامى م ٢٦١ هـ وسهل التسترى م ٢٨٣ هـ وأبو سعيد الخزاز م ٢٨٦ هـ ، وهو أول من تكلم فى الفناء والبقاء ، ثم إمام الصوفية الجنيد م ٢٩٧ هـ ، ثم الحلاج وقتل عام ٣٠٩ هـ ببغداد .

(جـ) وفى علوم اللغة والأدب : مصعب الزبيرى م ٢٣٦ هـ ، والتوزى م ٢٣٨ هـ ، وأبو العميثل م ٢٤٠ هـ ، وابن السكيت م ٢٤٤ هـ ، ومحمد بن حبيب م ٢٤٥ هـ ، والمازنى م ٢٤٩ هـ ، وأبو حاتم السجستانى م ٢٥٥ هـ ، والزبير بن بكار م ٢٥٦ هـ ، والرياشى أبو الفضل العباس بن الفرج م ٢٥٧ هـ ، والأشناندانى م ٢٥٧ هـ ، وعمر بن شبة م ٢٦٢ هـ ، وابنه أحمد م ٢٧٢ هـ ، والطلحى م ٢٧١ هـ ، والسكرى م ٢٧٥ هـ ، وأبو العباس اليزيدى م ٢٧٨ هـ ، وأبو حنيفة الدينورى م ٢٨٢ هـ ، والمبرد ٢١٠ - ٢٨٥ هـ ، وثعلب ٢٠٠ - ٢٩١ هـ ، والزجاجى البغدادى النحوى م ٣٠٧ هـ . وابن السراج تلميذ المبرد والمتوفى عام ٣١٦ هـ ، والزجاج م ٣١١ هـ ، والأخفش م ٣١٨ هـ ، ونفطويه م ٣٢٣ هـ ، وابن دريد ٢٢٣ - ٣٢١ هـ ، ثم ابن الأنبارى وسواهم .

(د) وفى علم الكلام ظهر من المعتزلة : بشر بن المعتمر م ٢١٠ هـ ، وثمامة ابن أشرس م ٢٢١ هـ ، والنظام (٢٠٠ - ٢٣٥ هـ) ، وابن أبى دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠ هـ) ويحيى بن أكثم م ٢٤٢ هـ ، والعلاف البصرى م ٢٣٥ هـ ، وابن الراوندى م ٢٤٥ هـ ، والجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥ هـ) ، وأبو على الجبائى (٢٣٥ - ٣٠٣ هـ) ، ثم ظهر أبو الأحسن الأشعرى (٢٧٠ - ٣٢٣ هـ) ، وقد استمر

المعتزلة فى العراق يعلمون ويدرسون على يدى الجبائى وتلميذه فى الاعتزال: محمد بن عمر الصيمرى .

(ه) ومن المفكرين والفلاسفة وأقطاب العلماء : ابن ماسويه الطبيب م ٢٤٣ ه ، وابن سهل الطبيب م ٢٥٥ ه ، ومحمد بن موسى بن شاكر ٢٥٩ه ، والكندى م ٢٦٠ ه ، وبنو المنجم ، وأبو موسى الخوارزمى وهو مذيع الحساب الهندى وأرقامه بين العرب ، والفارابى م ٣٣٩ ه ، ثم بعد ذلك ابن سينا م ٤٢٨ ه ، والغزالى ٥٠٥ ه ، والرازى المتوفى ٦٠٦ ه وسواهم . . ومن صدور الفلاسفة والمفكرين والرياضيين والمترجمين الذين كان لهم أثر فى الفكر العباسى : حنين بن اسحاق (١٩٤ - ٢٦٠ ه) ، وأبو معشر الفلكى م ٢٧٢ ه ، والبلاذرى م ٢٧٩ ه ، وابن خرداذبة المتوفى نحو عام ٢٧٨ ه ، وأبو حنيفة الدينورى ٢٨٢ ه ، والسرخسى ٢٨٦ ه ، وثابت ابن قرة (٢٢١ - ٢٨٨ ه) ، واسحاق بن حنين ٢٩٧ ه ، والرازى ٣١١ ه ، وسواهم .

ترجمة العلوم والآداب الأجنبية

— ١ —

كان للعباسيين شغف شديد بالعلوم والآداب وولع كبير بالمعارف والثقافات ، إذ تنوعت حضارتهم ، واتسع عمرانهم ، وامتـــد سلطانهم ، وانفسحت أطراف مملكتهم ، حتى شملت كثيراً من الأمم العريقة فى العلم ، الأصيلة فى الحضارة والمدنية .

وكانت هذه الأمم التى امتد نفوذهم إليها ، وانبسط سلطانهم عليها ، كالفرس والروم ، ذات علوم وآداب ومعارف ، تمخضت عنها عقولهم ، وتفتقت بها قرائحهم ، أو نقلوها عن غيرها من الأمم التى اتصلوا بها من قديم . وقد وجد العرب أنهم أمام معارف يزخر بها العالم إذ ذاك ، ولاغنى لملكهم عنها ، فأقبلوا عليها بكل مافيهم من شوق ونهم ، يترجمونها ويعربونها . ويضيفون إلى قديمها جديداً ، تمخض عنه إدراكهم وتفكيرهم .

فلليونان حكمتها وفلسفتها وطبها ، ولها أعلامها الأفذاذ ، كسقراط وأرسطاطاليس وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وغيرهم .

وللكلدانيين شهرتهم فى الطب والنجوم .

وللهند ثقافة واسعة مدونة فى النجوم والطب والحساب والآداب .

وكان للسريانيين ثقافة واسعة فى الطب والفلك ورصد الكواكب، ولهم مدارس كثيرة تدرس فيها علومهم وآدابهم بالسريانية واليونانية ، كمدرسة الرها ، وقنسرين ، ونصيبين .

وللفرس آداب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان فى أزمنة مختلفة ، فقد ترجموا إلى لغتهم كثيراً من كتب اليونان ، كالمنطق

كما نقلوا من علوم الهند كتباً فى النجوم والطب والآداب . هـذا بالإضافة إلى ما ورثوه من علوم وآداب أصيلة عندهم .

وكان سابور بن أردشير يبعث البعوث إلى بلاد اليونان لجلب كتب الفلسفة ، وترجمتها إلى الفارسية ، وأنشأ مدرسة جنديسابور المشهورة ، وكان أساتذتها من الهنود واليونانيين ، ثم جاء كسرى أنو شروان العادل ، ففتح أبواب دولته للوافدين عليه من الفلاسفة اليونانيين الوثنيين الهاربين من اضطهاد «جوستنيان» قيصر الروم لهم على إثر إقفاله المدارس والمعابد الوثنية وأكرمهم وطلب منهم التأليف والترجمة فى الفلسفة والطب والنجوم ، كما أكرم وفادة العلماء الهنود والسريانيين .

واتصل المسلمون فى هذا العصر بثقافات تلك الأمم وعلومها وآدابها ، فازدادوا حبا لها ، ومعرفة بقيمتها ، ورغبة ملحة فى الإفادة منها . . وكان الفارسيون الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة يشجعون نشرها وتداولها ، كما كان الخلفاء يقبلون عليها ، ويحثون على ترجمتها إلى اللغة العربية .

وهـكذا بدأت الترجمة فى العصر العباسى : صغيرة ناشئة ، ثم أثمرت ثمرها ، وآتت أكلها بعد قليل .

وكان الباعث على العناية بترجمة العلوم إلى العربية : ما آلت إليه الدولة من حضارة ومدنية مما استلزم تشجيع العلوم والآداب ، وكذلك رغبة العلماء فى استخدام المنطق والفلسفة للدفاع عن الدين ، ثم كانت اللغة العربية غالبة على هذه الممالك المفتوحة . فـكان لابد أن تنقل من معارفها وثقافتها أحسن وأروع ماتعتز به من آثار ، ومن هنا نشطت حركة الترجمة . إذ وجدت فى اللغة العربية استجابة وسرعة .

ومن البواعث كذلك تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للترجمة ، التى أصبحت هى الصلة الوثيقة بين العرب وعلوم الأمم القديمة وثقافتها .

ويعتبر كثير من مؤرخى الفكر حركة ترجمة العلوم فى العصر العباسى من أعظم الحوادث الفكرية فى تاريخ المسلمين ، وليس ثمة شك فى قيمة هذه الحركة الجبارة ، التى كان لها أكبر الآثار فى سير الحضارة الإسلامية الإنسانية .

— ٢ —

ولم يؤثر عن العرب قبل عصر نفوذ الخلفاء العباسيين أنهم ترجموا من كتب الأوائل شيئا . اللهم إلا كناش أهرون فى الطب ترجمه ماسرجويه طبيب مروان بن الحكم وأذاع هذه الترجمة عمر بن عبد العزيز فى الناس . وكان خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى عام ٨٩ هـ ذا ولع بالكيماء والطب والنجوم فترجم له فيها ، وهو أول من ترجم له فى هذه العلوم كما يقول الجاحظ (١) وغيره ، ولكن ذلك لايدل على أن حركة الترجمة كانت ذائعة فى عصر بنى أمية ، إذ أنها لم تخط خطوة واسعة إلا بعد ذلك العصر .

أما حركة الترجمة فى العصر العباسى الأول فيمكننا أن نقسمها إلى أطوار ثلاثة :

١ — فالطور الأول : يبدأ من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أى من عام ١٣٦ هـ ، حتى عام ١٩٣ ، وقد مضى عهد السفاح دون عناية منه بالترجمة لقصر حكمه ، ولشغله الشاغل بتأسيس الدولة وتوطيد أركان الخلافة العباسية .

فلما ولى المنصور عنى بترجمة العلوم عناية فائقة ، وخاصة الطب والهندسة والنجوم ، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله أن يصله بما لديه من كتب الفلاسفة . واستخار لها مهرة التراجمة وكلفهم

---

(١) ٢١٣ : ١ البيان والتبيين ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم .

بإحكام ترجمتها إلى العربية (١) ، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والفارسية والسريانية والهندية (٢) .. ولم يترجم له شيء من الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية ، وإنما ترجمت بعد عصره ، وكان المنصور معنياً بعلم النجوم عناية فائقة ، وقرب إليه من المنجمين نوبخت المنجم الفارسي وأولاده، وإبراهيم الفزاري ، كما قرب إليه جورجيس بن بختيشوع السرياني رئيس أطباء مدرسة جنديسابور ، إذ أعجب به واتخذه طبيباً له .. ومن أشهر المترجمين في عهده ابن المقفع .

أما المهدي والهادي فقد شغلا بمحاربة البدع والزندقة ، فألهاهما ذلك عن تشجيع حركة الترجمة .

فلما ولي الرشيد الخلافة كانت الثقافة مزدهرة ، والعلوم منتشرة ، والأذهان متفتحة لقيمة العلم والترجمة ، فأخذ يعمل على تقوية النهضة العلمية بكل ما في قواه من جهد وعزيمة ، فقرب إليه العلماء ، وكان يستصحب معه كلما سافر مائة عالم ، واتخذ أطباء وتراجمة له من السريانيين ، كآل بختيشوع وآل ماسويه ، وقد ترجمت في عهده كتب كثيرة في الطب والنجوم والكيمياء والنبات والحيوان والخيل والفلسفة والأخلاق ، وأنشأ الرشيد في بغداد « دار الحكمة » ، التي كانت تحتوي نفائس الكتب من شتى اللغات، وقد أعيد في عهده ترجمة الكتب التي سبق ترجمتها في عصر المنصور .

وفي هذا الدور الخطير ترجمت كتب كثيرة ، من أهمها : كليلة ودمنة من الفارسية ، وكتاب السند هند من الهندية ، وترجمت بعض كتب أرسطاليس في المنطق وغيره ، وترجم كتاب المجسطي في الفلك ، وأخذ المعتزلة يقرأون هذه الترجمات ، ويتخذون منها مادة للجدل والمناظرة .

وكان البرامكة يشجعون الترجمة والمترجمين تشجيعاً كبيراً ، ويسخون سخاء قادراً على كل مجهود يتصل بالعلم والثقافة . فكان لتشجيعهم أبلغ

---

(١) ٤٨٩ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسي .
(٢) ٢٤١ : ٤ المسعودي .

الآثار فى ازدهار العلوم وتقدم المعارف ونمو حركة الترجمة وتطورها .

٢ — والطور الثانى لحركة الترجمة يبدأ ببداية حكم المأمون وينتهى بنهايته ، وكان المأمون عالما متضلعا واسع الثقافة كثير الاطلاع ، وكان نهمه العقلى والعلمى لاحد له ، وقد أولى الترجمة عنايته الشديدة واهتمامه البعيد ، فأوفد الرسل إلى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين لنسخها بالخط العربى ، وبعث المترجمين لذلك ، وأنشأ فى بغداد مدرسة لتخريج التراجمة .

وقد كان عصر المأمون أزهى عصور الترجمة ، لأنه كانت له مشاركة فى كل العلوم ، وكان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة بمنطق اليونان ولذلك كان ينفق بسعة وسخاء شديد على حركة الترجمة ، حتى أعطى وزن ما يترجم ذهباً ، وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة ، ويرغبهم فى تعلمها ، ويخلو بالحكماء ، ويأنس بمحاضرتهم .

وتبع الأمراء والوزراء الخليفة فى هذا المضمار ، فوفد على بغداد عدد جم من المترجمين من كل نحلة وطائفة .

وكان المأمون فى العرب كبريكليس فى اليونان ، وأوغسطس فى الرومان ، فأتم ما بدأ به آباؤه ، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأمر ولاته بأن يبعثوا إليه بالكتب التى تقع فى أيديهم ، وجعل من شروط الصلح بينه وبين ملك القسطنطينية أن يرسل إليه مجموعة من الكتب النادرة ، ومن المترجمين فى عهده : الحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريق ، ويوحنا بن ماسويه ، وسلم ، وقسطا ، وحبيش ، واصطفان ، وهم مترجمون من اليونانية .

٣ — أما الطور الثالث : من أطوار حركة الترجمة فيبدأ بخلافة المعتصم وينتهى بقتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ .

ففى عصر المعتصم فترت حركة الترجمة ، إذ لم يكن للخليفة تحصيل فى العلم أو رغبة فى المشاركة فيه .

وجاء بعده الواثق ، وكان ذكياً ، واسع الاطلاع ، كبير الثقافة، يشجع العلم والعلماء ، فنشطت الترجمة فى عهده ، واستعادت بعض ما كان لها قبل من نشاط ، وإن كان أكثر ما ترجم فى عصره هو الأسمار والخرافات .

وفى عهد المتوكل على الله تمت ترجمة العلوم النافعة ، كالطب والنبات والنجوم، لأنها كانت تروج عند الخليفة وتلقى تشجيعاً وعطفاً ، وكان المتوكل آخر الخلفاء الذين آزروا حركة الترجمة ، وأعانوا على نقل علوم الأمم إلى العربية لغة القرآن الكريم .

— ٣ —

١ — ومن أشهر المترجمين عن اليونانية: الحجاج بن يوسف بن مطر ، وكان من جملة المترجمين للمأمون ، وقام بنقل كتاب إقليدس والمجسطى إلى العربية ، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحرانى .. ومنهم كذلك قسطا ابن لوقا البعلبكى ، وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً حاذقاً ، ترجم وألف رسائل كثيرة فى الطب . ومنهم موسى بن شاكر وكان من المترجمين للمأمون . وسار على نهجه كذلك أولاده الثلاثة : محمد وأحمد والحسن .

ومنهم آل حنين ، وأولهم حنين بن إسحق العبادى شيخ المترجمين (١٦٤ - ٢٦٤ هـ) وهو من نصارى الحيرة ، ثم ابنه إسحق المتوفى عام ٢٩٨هـ . ومنهم : حبيش الدمشقى وهو ابن أخت حنين بن إسحق وآل بختيشوع وهم من السريان ، وقد خدموا الخلفاء العباسيين من المنصور إلى المتوكل .

وقد ترجم هؤلاء وسواهم كثيراً من علوم اليونان وفلسفتهم وحكمتهم ومعارفهم فى المنطق والطب والهندسة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وغيرها ، ومن أشهر ما ترجموه : كتاب السياسة نقله حنين بن إسحق ، وكتاب الأخلاق ترجمه إسحاق ، وكتب جالينوس وإقليدس . وقد نقل الحجاج بن مطر لإقليدس كتاب أصول الهندسة ، كما ترجموا أصول فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو .

٢ — ومن أشهر المترجمين عن الفارسية: عبدالله بن المقنع، وآل نوبخت، والحسن بن سهل، وجبلة بن سالم، وإسحق بن يزيد، وهشام بن القاسم، وسواهم.

وقد ترجموا عن الفارسية كتباً كثيرة، من أشهرها: كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه ابن المقفع؛ وكتاب خداينامه، الذى ترجمه كذلك ابن المقفع، وسماه كتاب سير ملوك الفرس، وترجم كذلك الأدب الكبير، والأدب الصغير، والدرة اليتيمة، وكتاب التاج فى سيرة أنوشروان. ومن الكتب المترجمة عن الفارسية أيضاً: عهد أردشير، وتوقيعات كسرى، وهزار أفسانة (١)، وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة، وكتاب أدب الحرب، وكذلك عهد أردشير إلى إبنه سابور ترجمه البلاذرى شعرا (٢) إلى العربية، ويقرنه صاحب الفهرست بكتاب كليلة ودمنة (٣).. وسوى ذلك من نفائس المؤلفات.

٣ — ومن مشهورى المترجمين عن الهندية: منكه الهندى الطبيب الذى عالج الرشيد، وصالح بن بهلة الهندى الذى دخل بغداد فى عهد الرشيد أيضاً، ونال شهرة واسعة، واشتدت مخالطته للأطباء... ومنهم محمد بن إبراهيم الفزارى، وابن دهن.

وقد نقل هؤلاء المترجمون عن الهندية الكثير من كتب الطب والنجوم والفلك والرياضة والحساب والتاريخ والأسمار. ومما ترجم من كتب الأدب الهندى: كتاب سندباد الكبير والصغير، وكتاب بيدبا فى الحكمة، وكتاب السند هند — أى الدهر الداهر — فى الفلك وقد ترجمه من الهندية محمد بن ابرهيم الفزارى.

---

(١) معناه ألف خرافة.

(٢) ١١٣ و ١١٤ الفهرست.

(٣) ١٣٦ الفهرست.

٤ — وقد كان هناك مترجمون عن العبرية والقبطية والكلدانية . ومما نقل عن الكلدانيين كتاب الفلاحة ، وكتاب أسرار الكواكب .. وسواهما من نفائس المؤلفات .

— ٤ —

وقد عنى المترجمون عناية خاصة بفلسفة اليونان وحكمتهم ، فترجموا الكثير من آثارهم فيها إلى العربية ، من مثل : مؤلفات أرسطو وشروح علماء مدرسة الاسكندرية القديمة عليها ، وكتب أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس فى الطب ، وعلى الجملة فقد ترجموا أهم ما ابتكره العقل اليونانى فى العلم والفلسفة .

ولكنهم لم ينقلوا إلينا شيئا يذكر من آداب اليونانيين . . فإذا قرأنا ثبت الكتب المترجمة نجدها تبحث فى كل فرع من فروع المعرفة القديمة ، ولا نكاد نعثر على كتاب أدبى يونانى مشهور ترجم إلى اللغة العربية ، مع وفرة ماليونان والرومان من آثار أدبية عالية فى القصص والتمثيل .

على أنهم قد ترجموا بعض مؤلفات فى علوم قريبة إلى الأدب كالتاريخ والأسمار ، فهذا ابن النديم ينقل فى كتابه الفهرست أسماء كتب للروم فى هذين الفنين ترجمت إلى العربية (١) .

وتسافط إلى العرب من الأسرى اليونانيين، ومن الموالى الذين اختلطوا بهم من هذين العنصرين ، كثير من الحكم والأمثال ، ، مما تحفل به مصادر الأدب العربى ، كالبيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وعيون الأخبار . . . وترجم لهم بعض هذه الأمثال والحكم ، مما ينسب لفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو . يروى ابن النديم أن على بن ربن النصرانى نقل كتاباً فى الآداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب (٢) . . وهذه

---

(١) ٣٠٥ و ٣٠٦ الفهرست . (٢) ٣١٦ الفهرست .

الأمثال والحكم على أى حال أبسط ألوان الأدب ، وهى شبيهة بما يعرف منهما عند العرب . وقد كان ولوع العرب بهما حافزاً على ترجمة بعض مايؤثر منهما إلى العربية . بعد تجريدهما مما يختلط بهما من أسماء ، ومايلابسهما من مظاهر حياة اليونان الاجتماعية . . إذ هما حينذاك قريبان من إلف العربى ، وليس فيهما ماينفر منه من أساطير ، ولا يحتويان على أوزان شعرية لاتستسيغها العربية .

وكذلك تساقط إلى العرب بعض آراء فى البلاغة والنقد ، مما يؤثر عن بعض اليونانيين ولكن ذلك كله بعيد عما عرف من روائع الأدب اليونانى القديم ، كالأساطير والملاحم والتمثيليات ، وعما شهروا به من خطابة وكتابة وشعر غنائى ، فلم تترجم إلى العربية إلياذة هوميروس ، ولا ما شابهها من الآثار . . مما يدل على أن المترجمين صرفوا نظرهم عنها ، وأعرضوا إعراضاً عن نقلها الى العربية .

ويمكننا أن نفسر إهمال الأدب اليونانى فى الترجمة إلى العربية بأن العرب كانوا أكثر الناس اعتزازاً بلغتهم ، واعتداداً بأنفسهم . مما جعلهم يحتقرون آداب اليونان ، ولا يقدرونها حتى حق قدرها . . وخاصة لبقاء اليونانيين على النصرانية وبعدهم عن حكم المسلمين ، بخلاف الفرس الذين أسلموا ، وخضعوا للحكم الإسلامى . . ولعل فى هذا مايفسر لنا غض نقاد العرب المتأخرين من أدب اليونان وثقافتهم فى صناعة البيان ، فهذا ابن الأثير يذكر فى كتاب « المثـــل السائر » أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية ، وينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله وكتابته بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعانى ، ويذكر أنه اطلع على ماكتبه ابن سينا فى الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ، ورأى أن ماذكره لغو لايستفيد به صاحب الكلام العربى شيئاً (١) .

---

(١) ص ٢٠ المثل السائر .

وكان العرب يؤمنون بأنهم أوفر الأمم حظاً ، وأعلاهم كعباً ، وأكثرهم آثارا ، فى الأدب والشعر ؛ فهم فى غنى عن أن تترجم لهم آداب الأمم القديمة ، وخاصة أن عنايتهم كانت موجهة إلى نقل ماهم فى حاجة ماسة إليه من ثقافات ومعارف .

وإنما ترجموا ألواناً من الآداب الفارسية ، لأن الأدب الفارسى على العموم قريب من ذوق العربى كقرب مابين الفرس والعرب من صلات وجوار ، والأدب الفارسى فى جملته ليس فيه من الأساطير والحديث عن الآلهة نظير ما تحفل به الآداب اليونانية الوثنية ، ولهذا كان بعض نقاد العرب المتأخرين يصورون إعجابهم بأدب الفرس ، فهذا ابن الأثير يقول فى كتاب « المثل السائر » : إنى وجدت العجم يفضلون العرب فى الإسهاب ، مع الاحتفاظ بالجودة ، فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم ، كما فعل الفرس فى نظم الكتاب المعروف بشاهنامة . وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه . وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن العجم بالنسبة لهم كقطرة من بحر » .

ولم يجد المترجمون حائلا يحول بينهم وبين نقل هذه الآداب الفارسية إلى العربية ، بل كانوا يلقون الكثير من ألوان التشجيع من العناصر الفارسية ذات النفوذ والسلطان فى الدولة العباسية ، وخاصة الوزراء الذين ينتمون إلى أصول أعجمية ؛ وكان المترجمون يتقربون أحياناً إلى هؤلاء الوزراء بترجمة آداب أممهم ، التى تمجد تاريخهم القديم ، وقوميتهم الخالدة ، وملوكهم الأمجاد وأبطالهم المغاوير ، كما كانو يتقربون إلى الخلفاء بترجمة الطرائف الأدبية ، والملح الممتعة ، لتكون مادة للمفاكهة والسمر .

وفى هذا جميعه مايدلنا دلالة واضحة على أنه لم يكن هناك تأثير الأدب اليونانى فى الأدب العربى . . أما التـــأثير الأكبر ، فقد كان لعلومهم وفلسفتهم .

وبذلك نستبين أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً فى الأدب العربى من الآداب اليونانية .

— ٥ —

ولقد أثمرت حركة الترجمة ثمارها النافعة فى العلوم والآداب العربية ، وأحدثت كذلك آثارها الواسعة فى لغة العرب ، فقد كانت الترجمة وسيلة لزيادة ثروة اللغة العربية فى الألفاظ والأساليب ، ففوق تعريب العرب الأسماء الأعجمية لتأدية أغراضهم ومعانيهم وأفكارهم ، ولتقوم اللغة بمقتضيات الملك والسياسة والاجتماع والحضارة ، كذلك عربوا بعض مصطلحات العلوم ، وأكثروا من التوسع فى مدلولات الألفاظ العربية عن طريق المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه وما إليها . . هذا غير ما نال الأسلوب من نماء وقوة وحياة وتجديد ودقة تصوير وبلاغة تعبير .

وقد هذب المنطق والفلسفة أفكار الأدباء ومعانيهم ، وصقل إنتاجهم وخيالاتهم ، وغير نظرتهم إلى الأشياء ، فظهر العمق والترتيب العقلى ، وقل خطأ الأديب أو الشاعر فيما يرجع إلى التفكير ، وصار الكاتب يحرص على سلامة الفكرة ، وصحة التقسيم . وينتقل من المقدمات إلى النتائج ، ويفرق بين الحقائق والمبالغات الكاذبة .

فضلا عن أنه قد نشأت علوم جديدة فى عصر الترجمة كانت أثراً لها ، أمدت اللغة والأدب والشعر بمحصول كبير وثروة واسعة فى النواحى اللغوية والأدبية والعلمية .

على أن حركة الترجمة كان لابد أن يكون لها بعض الأضرار التى عادت على اللغة العربية بأسوأ الآثار ، ومنها :

١ — كثرة استعمال أساليب المنطقيين والفلاسفة وأفعال الكون والبناء للمجهول وصوغ المصادر الصناعية، مثل الكيفية والكمية والذاتيه والعرضية والمائية والحيوانية والإنسانية، وكثرة الفصل بالضمير الغائب، وسوى ذلك مما أورث الألسنة لكنة، والأساليب عجمة، والمنطق التواء، والملكات ضعفاً، والفطرة والطبع تعقيداً وضيقاً.

هذا إلى ما نتج عن كثرة المصطلحات ودقة مدلولاتها من شيوع الأسلوب العلمي، واستحداث أصحاب كل علم لغـــة تأليفية لهـا رموزها ومعانيها وألفاظها، وصعوبة فهم البعيد عن هذا العلم لأغراض العلماء والكاتبين فيه.. وهذه المصطلحات كثيرة متعددة: ففي الفلك والرياضة نجد: المرصد والزيج والتعديل والمخروط والدائرة والمثلث والمربع وفي الطب نجد: الصيدلة والتشريح والجراحة والتوليـد والسوداء والصفراء. وفي الفلسفة نقرأ: الجوهر والعرض والتصوير والتصـديق والموضوع والمحمول والقياس والشكل والكيفية والكمية والماهية والهوية واللانهائية.. إلى غير ذلك من المصطلحات التي كثرت حتى وضعت لهـا معاجم خاصة، منها كليات أبي البقاء، وكشاف اصطلاحات الفنون، وكتاب التعريفات للجرجاني المتوفى عام ٨١٦ هـ.

التأثير الأجنبي

في اللغة العربيـة وآدابها

كان امتزاج العرب بالعجم، وما نشأ عنه من آثار، وماذاع بسببه من أفكار، خطره الشديد، ودويه البعيد، في البيئة الإسلامية العربية.. ومن أظهر ما نتج عن ذلك الامتزاج، وترتب عليه، ترجمة العلوم المختلفة، من شتى اللغات، إلى اللغة العربية كما فصلنا.

ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء

والأدباء والشعراء شغلا كبيراً ، وأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، كما أقبل عليها الناشئون ، يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ، ليكونوا ثقافتهم تكوينا سليما وليعدوا أنفسهم للمناصب العالية ، والدرجات الرفيعة :

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية ، والمعارف العامة التى تثقفت بها عقول المستعربين ، يدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص ، حتى إذا نضجت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة فى البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون فى موضوعاتها ويستقلون ببحوثها ، فبعدأن كانوا مترجمين أصبحوا باحثين ومؤلفين . وظهرت ثمار هذه النهضة فى العواصم الكبرى فى العالم الإسلامى : كخراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفضل ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة ـ من هنود وفرس ، وسريان ويونان وروم وسواهم ـ عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثرها الواسع فى العرب الذين اتصلوا بهم وخالطوهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم العقلية فى طبقات المولدين ، الذين شهرا بالنجابة والذكاء وسعة التفكير وخصب الخيال ، ونحن نعرف أن العرب الذين كانوا يأنفون قبلا من الزواج بالأعجميات ، ويعدونه عيباً ومهانة وجناية على الأبناء ، أقبلوا فى هذا العصر على الزواج منهن ، لما رأوا من وفرة جمالهن ، ونجابة أولادهن ، حتى ليروى أن أهل المدينة كانوا يزهدون فى التسرى ، إلى أن نشأ فيهم على بن الحسين ومحمد بن القاسم وسالم بن عبدالله ، ففاقوا أهل المدينة ورعاً وعلماً ، فرغبوا فيه وأقبلوا عليه .

فليس عجيباً إذن فى هذا العصر أن تكثر طبقات المولدين ، ويكون لها آثارها فى الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبي فى الأدب واللغة واضحا منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين . أما فى عصر بنى أمية فكان أثره قليلا محدوداً ، لقلة الاختلاط ، وأنفة العربى من الزواج بالأعجميات . ونفور العربية من الزواج بأعجمى ، ولأن حركة الترجمة لم تكن قد بدأت بعد ، والحركة العلمية لم تكن قد بلغت حد الازدهار . وكان فحول الأدباء والشعراء والخطباء والكتاب لايزالون يعيشون فى بلاد العرب ، أوقريبا من البصرة والكوفة ودمشق ، وكانت طبقات الموالى لاتزال تكون نفسها فى اللغة ، وتأخذ بنصيبها من الثقافة العربية ، ولم تكن قد نضجت بعد مواهبها وملكاتها الأدبية .

فلما جاء العصر العباسى ، وبدأ بناء الحضارة ، وذاعت ألوان الثقافة . وقامت حركة الترجمة على ساقها ، أخذ التأثير الأجنبي يبدو بوضوح فى اللغة العربية وآدابها .

وقد ازدهرت الثقافة العربية وعلومها ازدهارا كبيراً فى هذا العصر ، سواء علوم اللغة أوالدين أوالأدب أوالفلسفة ، وتلاقت بالثقافات الفارسية واليونانية والهندية ، تلاقت هذه الثقافات المتعددة ، وكان لكل ثقافة منها شيعة وأنصار ، وإن كان كثير من الأدباء قد جمعوا بين مختلف الثقافات .

ولقد كان للإسلام أثر كبير فى هذا الامتزاج ، فإن من أسلم من أبناء الأمم الأخرى كان يقبل على قراءة القرآن ودراسته ، وعلى تعلم العربية وآدابها .

الثقافات الأجنبية وأثرها فى اللغة والأدب

— ١ —

أولى هذه الثقافات الأجنبية هى الثقافة الفارسية ، وترجع صلات العرب بالفرس إلى ماقبل الإسلام ، فقد كان الجوار مدعاة الاختلاط ، وسبباً لتوثيق الروابط السياسية والاقتصادية .

ولقد أقام الأكاسرة إمارة الحيرة على حدود مملكتهم، لحمايتها من عدوان القبائل العربية ، ولتأمين تجارتهم داخل الجزيرة ، كما امتدت فتوحاتهم إلى أطراف البلاد العربية كاليمن والبحرين ، وكان من نتيجة هذا الاختلاط شيوع كثير من الألفاظ الفارسية فى لغة العرب وآدابهم ، كما يتضح ذلك من شعر الأعشى وعدى بن زيد وأمية بن أبى الصلت .

وتأثر كذلك بعض الفرس بالآداب العربية ، حتى ليقال إن بهرام جور — وهو فارسى قديم — تعلم فى الحيرة ، وأخذ الشعر عن العرب ، ونظمه بالعربية والفارسية .

فلما جاء الإسلام خضعت بلاد الفرس للحكم الإسلامى ، وهاجرت القبائل العربية إلى هذه البلاد ، وهاجر الفرس كذلك إلى البلاد العربية ، وحذق الكثير منهم اللغة العربية وعلومها وآدابها ، فكانوا صلة بين آداب الفرس والعرب .

ثم زاد اتصال الأمتين منذ قامت الدولة العباسية بمساعدة الموالى من الفرس ونقلت الخلافة إلى بغداد ، وأنشىء منصب الوزارة وجعل فى الغالب وقفاً على النبغاء الأذكياء من الفارسيين .

ولقد جد الوزراء والكتاب الفرس فى نشر ثقافتهم وآدابهم والتمكين

لمعارفهم فى البيئة العربية ، حتى صار الإلمام بهذه الثقافة والتمكين من تلك الآداب مما يرفع قدر الأديب ، ويجعله ملحوظ المكانة مرموق المنزلة . فإذا كان مطلعاً على تاريخ الفرس وأنظمتهم فى الحكم وطرائقهم فى السياسة ، اشتدت الرغبة فيه وكثرت الحاجة إليه .

يقول عبد الحميد الكاتب من وصيته إلى الكتاب : « واعرفوا أيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ماتسمون إليه بهممكم » ، وقال الرشيد للكسائى معلم بنيه : « رونا من الأشعار أعفها ، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق ، وذاكرنا بآداب الفرس والهند » .

وأصبح للثقافة الفارسية فى بغداد والحواضر العربية مقام كبير ، زاد من شأنه وعظم من خطره حرص الوزراء والكتاب وأرباب النفوذ ممن نبتوا من أصول فارسية على التمكين لها وإشاعتها ، ثم حركة الترجمة الواسعة من الفارسية إلى العربية .

ويظهر أثر الثقافة الفارسية فى لغة العرب فيما يلى :

١ — الألفاظ الفارسية التى عربت ونقلت إلى العربية ، وهى كثيرة لاحصر لها ، مثل الفالوذج لما يسمى عندنا « البالوذة » ، واللوزينج(١) » ، والجوزينج لنوع من الفطائر يحشى باللوز أو الجوز ، والكامخ وجمعه كوامخ وهو مشه للطعام يتخذ من دقيق ولبن وملح ويجفف ، والطباهجة (٢) لطعام من بيض وبصل ولحم ، والسكباج لمرق يعمل من اللحم والخل وأصلها سكبا وسك بمعنى خل وبا بمعنى طعام . . إلى غير ذلك من أسماء الأطعمة .

---

(١) فى اللسان : هى من الحلوى شبه القطائف .

(٢) هو اللحم المشرح فى القاموس ، وفى شفاء الغليل للشهاب الخفاجى : هو الكباب ، وفى اللسان : ضرب من قلى اللحم .

ومثل : الدوشاب وهو نبيذ التمر ، والجلاب لماء الورد ، والمسطار لخمرة حلوة ، قال الأخطل : « حمراً عيونهم من المسطار » وغير ذلك من أسماء الأشربة .. ومثل السمور(١) والسنجاب ، والخشنشار لطير الماء .

ومثل : الدار صيني ومعناه شجر الصين ، والجلنار وهو زهر الرمان ، والبستان معرب بوستان و « بو » معناها رائحة و « ستان » معناها موضع ، والكرويا ، والتوت ، والآذريون لنور أصفر معرب آذركون أى لون النار ، وكانت الفرس تتفاءل به ؛ إلى غير ذلك من أسماء النباتات .

ومثل : الأسطرلاب(٢) . والزيج لخيط البناء ، والمهندز ، والزئبق ، والإكسير ، والمغناطيس ، والزرنيخ .. وغير ذلك من مصطلحات العلوم والصناعات .

ومثل : البربط للعود ومعناها صدر العود لشبهه به ـ وبر بمعنى صدر ـ ولبم الزير وهما من أوتار العود ، والطيلسان لما يلبس فوق الكتف ، والدرفس العلم الكبير والعسكر ، والتخت(٣) لما توضع فيه الثياب ، والدهقان لرئيس القرية ، والدورق لمكيال الشراب كما فى شفاء الغليل ، وفى القاموس المحيط : هو الجرة ذات العروة ، والبيمارستان لموضع علاج المرضى وبيمار معناه مريض واستان موضع .. إلى غير ذلك من الأسماء الفارسية المعربة .

وهكذا أخذ العرب كثيراً من الكلمات الفارسية وصقلوها بما يتفق ولسانهم . وكان هذا التعريف موجوداً منذ العصر الجاهلى ولكنه زاد ونما فى عصر نفوذ الخلفاء العباسيين .

---

(١) دابة يتخذ من جلدها فراء

(٢) آلة لقياس ارتفاع الكواكب عند الفلكيين .. وتعرف بواسطة ذلك الأوقات .

(٣) هو الدولاب

٢ — قيام اللغة العربية بمقتضيات الملك والسياسة والحضارة ، بتأثير الثقافة الفارسية ، التى زادت فى ثروة العربية ، وجعلتها أقدر على النهوض برسالتها ، وبعثت فيها دماء التجديد والقوة والحياة بزيادة الألفاظ اللغوية عن طريق التعريب والتوسع فى مدلولات الألفاظ العربية ، ووضع مصطلحات العلوم .

٣ — ترجمة كثير من المؤلفات الفارسية فى الأخلاق والآداب والسياسة والطب والحكمة والفلسفة إلى اللغة العربية ، مما كان له أثره فى زيادة مادة اللغة العربية وأغراضها ومعانيها وأفكارها .

وأثرت كذلك الثقافة الفارسية فى الأدب العربى تأثيراً كبيراً يظهر بوضوح فيما يلى :

١ — كانت زعامة التجديد فى الأدب العربى شعره ونثره فى عصر نفوذ الخلفاء العباسيين معقوداً لواؤها بيد المثقفين بالثقافة الفارسية والعربية ، فعبد الحميد الكاتب وابن المقفع هما إماما التجديد فى النثر فى هذا العصر ، وبشار وأبو نواس شقا طريق التجديد المولدين فى الشعر .. وكان نتاج العرب الذين يجيدون الفارسية والفرس الذين يجيدون العربية يجمع خير ما فى بلاغات العرب والفرس جميعا من معان وخيالات وأساليب ، لذلك أحدثوا آثاراً واسعة فى الشعر والنثر ، فجددوا فى المعانى والخيالات والأغراض وطرق الأداء ، وبعد أن كان الأدب فى عهد بنى أمية عربياً خالصا ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته ، أصبح فى عهد بنى العباس يزدان بأحلى وأروع ما فى أدب الفرس من معان وأخيلة فتعددت الأغراض واتسع مجال التفكير والخيال وظهر التأنق فى التعبير ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها ، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيار وهو أحد من حذق الفارسية والعربية وأشهر القصاص فى هذا العصر : « كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ،

ومثله كثير ممن أجادوا اللغتين ، وجمعوا بين الثقافتين : كابن المقفع وسهل ابن هارون والفضل بن سهل وسواهم ، ممن كان لهم فضل كبير فى رقى الأساليب العربية ، واقتباس المحسنات البديعية ، واتساع الخيال ، واستحكام المعانى والإبداع والاختراع والتجديد فيها .

وكانت للفرس حكم وأمثال وتصويرات بديعة وأخيلة دقيقة ، وضع ذلك كله تحت أعين العرب ، وكانت المعانى الفارسية ترشد العربى إلى أمثل طرق التصوير والتعبير ، وكان الشعراء ينظمون مايتسرب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أنو شروان مشتهراً بالنرجس ، وكان يقول : « هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر » ، فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء فى رأس درة مركبة فى قائم من زبرجد
كأن بقايا الطل فى جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على كرسى زبرجد أخضر تتوسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر :

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستطرف حسن من خمرة مزة كالجمر فى اللهب

وكان ابن الرومى يأخذ حكم بهرام جور فينظمها شعراً عربيا .. ويقول بزر جمهر : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لاتفنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لاتبقى ، فقال الشاعر العباسى :

فأنفق - إذا أنفقت إن كنت موسراً وأنفق - على ماخيلت - حين تعسر
فلا الجود يفنى المال والجد مقبل ولا البخل يبقى المال والجد مدبر

وقيل لابن المقفع : لم لاتطلب الأمور العظام ؟ فقال : رأيت المعالى مشوبة بالمكاره ، فاقتصرت على الخول ضناً بالعافية . فأخذه العتابى فقال :

وإن جسيمات الأمور مشوبة بمستودعات فى بطون الأساود (١)

وكان العتابى الشاعر لصلته بالثقافة الفارسية جيد المعانى والأخيلة ، وسئل لم كتبت كتب العجم ؟ فقال : وهل المعانى إلا فى كتب العجم ، فالبلاغة لنا والمعانى لهم .

ويقول أبو هلال العسكرى فى رسالته : « التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم » : « للفرس أشعار لا تضبط كثرة ، ولليونانيين أشعار دون الفرس » .

٢ — هذا إلى ماجد من فنون أدبية بتأثير الامتزاج بين العرب والفرس وانتشار الثقافة الفارسية ، كالأدب القصصى ، وأدب الزهد ، وأدب المقامة ، وسواها ، على ما أشرنا إليه سابقاً .

وإن كنا لا ننكر ما سرى إلى العربية بتأثير الثقافة الفارسية ، من ضعف الملكات ، وكثرة العناية بالبديع الذى يحول دون البساطة والاعتماد على الطبع .

— ٢ —

وثانية هذه الثقافات هى الثقافة الهندية فلقد اتسعت الفتوحات الإسلامية وانسابت جيوش العرب المظفرة فى كل مكان ، وفتح محمد بن القاسم الثقفى السند فى عهد الوليد بن عبد الملك وذلك عام ٩١ هـ .

وقد اختلط بعض الهنود بالعرب ، ودخل العرب بعض جهات من الهند ، وبدأ يظهر أثر هذا الاختلاط . فتسربت الثقافة الهندية إلى العالم العربى ، وترجمت بعض مصادرها وأصولها إلى اللغة العربية مباشرة بواسطة العرب الذين تعلموا العربية ، وعن طريق الثقافة الفارسية التى كانت قد التهمت من قبل الكثير من المعارف الهندية .

---

(١) الحيات العظيمة .

وكانت الهند تشتهر بالحساب وعلم النجوم والطب والصناعات والتماثيل والنحت ، وبالحكمة ، التى كان الهنود معدنها ، وبالآلهيات والرياضيات .

ويقول القفطى فى « أخبار الحكماء » (١) : الهند هم الأمة الأولى ، كثيرة العدد . فخمة المماليك . قد اعترف لها بالحكمة ، وأقر بالتبريز فى فنون المعرفة كل الملل السالفة وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة وينبوع العدل والسياسة ، ولبعد الهند من بلادنا قلت آلفهم عندنا ، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم » .

وقد استقدم يحيى بن خالد البرمكى بعض الأطباء من الهند أمثال منكه . ونبغ من الموالى الذين جلبوا من الهند وغنموا فى الحرب ووزعوا على الجند ومن أولادهم : الشعراء والأدباء والعلماء ، كأبى عطاء السندى الشاعر ، وكابن الأعرابى العالم اللغوى المشهور ، وسواهما .

وللهنود نحو وصرف ، ولهم ولع بالشعر ونظمه ، ونقلت عنهم آراء فى البلاغة والأدب . . قيل لبهلة الهندى : ما البلاغة عندكم ؟ فقال : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها . فترجمت فإذا فيها ماترجمته « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الأمة بكلام السوقة .. » الخ (٢) .

وعرف العرب من عقائد الهند ومذاهبها وعلومها الكثير ، واستعانوا بالهنود فى الفلك ..

وعن الهند أخذ العرب كذلك لعبة الشطرنج ، ونظموا فيها الشعر الكثير الجميل ، قال ابن الرومى فى أبى القاسم التوزى الشطرنجى من قصيدة طويلة :

---

(١) ص ٢٦٦ المرجع . (٢) ٧٩ : ١ البيان والتبيين للجاحظ .

غلط الناس : لست تلعب بالشط ـرنج لكن بأنفس اللعباء
لك مكر يدب فى القوم أخفى من دبيب الفناء فى الأعضاء
وأظن افتراسك القرن فالقر ن منايا وشبكة الإرداء
وأرى أن رقعة الأدم الأسمر أرضاً جللتها بدماء
تقرأ الدست ظاهراً فتؤديـ ـه جميعاً كأحفظ القراء

على أن أثر الثقافة الهندية فى لغة العرب كان ضئيلا يتمثل فى هذه الألفاظ الهندية التى عربت ، مثل : الزنجبيل ، وكافور ، والآبنوس ، والببغاء ، والخيزران ، والأهليلج ، وسوى ذلك من أسماء الحيوانات والنباتات المنقولة من الهندية .

أما أثرها فى أدب العرب فيبدو فيما اقتبسته الآداب العربية من القصص والحكم الهندية المختلفة . ولقد تأثر الشعراء بحكم الهند وأمثالهم وأقوالهم فى الفلك ، فهذا أبو نواس يقول :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقلل وأكثر فأنت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار
لايعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج بارد حار

قال ابن قتيبة : وهذا الشعر يدل على نظرة فى علم الطبائع لأن الهند تزعم أن الشىء إذا أفرط فى البرد عاد حاراً مؤذيا .

ومن مظاهر تأثر الشعر بأقوال الهنود فى الفلك قول أبى نواس فى الخمر :

تحيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار

يريد أن الخمر تحيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة فى برج ثم سيرها من هناك وأنها لاتزال جارية حتى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها منه ، وإذا عادت إليه قامت القيامة .

وظهرت كذلك آثار هذه الآراء فى غير الشعر ، يقول ابن قتيبة : قرأت فى كتاب من كتب الهند : « شر المال مالا ينفق منه ، وشر الإخوان الخاذل ، وشر السلطان من خافه البرىء ، وشر البلاد ماليس فيه خصب ولا أمن » .

إلى غير ذلك مما أفاده الأدب العربى من الثقافة الهندية .

— ٣ —

وثالثة هذه الثقافات هى الثقافة اليونانية ، وحين ازدهرت النهضة العلمية فى العصر العباسى ، وشجع العلماء ترجمة العلوم ، أخذ السريان يترجمون الثقافة اليونانية من لغتهم إلى العربية ، كما أذاعت الكتب الفارسية المترجمة الكثير من المعارف اليونانية . . وبذلك بدأت صلة العرب بثقافة اليونان وعلومهم وفلسفتهم وحكمتهم(١) ، ثم نقل إلى العربية العديد من مؤلفات اليونان كما أسلفنا .

ويبدو أثر الثقافة اليونانية فى لغة العرب فيما اكتسبته من ألفاظ متعددة عربت مثل : « البرجد » وهو كساء غليظ مخطط ، والزبرجد ، والياقوت ، والزمرد ، والقيراط ، والأوقية ، والبلغم ، والبرقوق ، واللوبيا ، والترمس ، والجاثليق ، والبطريق .

ومثل : إيساغوجى بمعنى المدخل وسموا به مقدمات المنطق وهى الكليات الخمس : من الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام . ومثل السفسطة والفلسفة بمعنى الحكمة ، والهيولى بمعنى الأصل ، والموسيقا ، والقانون . إلى غير ذلك من أمثال هذه الألفاظ التى لا عد لها .

---

(١) كانت مراكز الثقافة اليونانية فى الشرق كثيرة ، ومن أشهر هذه المراكز : الاسكندرية ـ حران بالجزيرة ـ جنديسابور .

وقد أثر المنطق اليونانى فى الفكر العربى تأثيراً كبيراً إذ أصبح له سلطان على العقول فاصطبغت به طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل . كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضة أثر كبير فى عقول المسلمين .

وكان المتكلمون أكبر عامل فى امتزاج الثقافة اليونانية بالعربية ، وصلة بين فلسفة اليونان وأدب العرب ، فقد قدموا معانى جديدة للأدباء والشعراء لم يكن لهم دراية بها .

على أن الأثر البارز للثقافة اليونانية فى أدب العرب يتجلى فى نقل بعض الحكايات والأسمار القصيرة وترجمة بعض الحكم والأمثال الخلقية والمعانى الفلسفية فتأثر بها الأدب العربى واكتسب منها سعة فى الخيال وتهذيبا فى الفكر .

ويهمنا أن نقرر أن الأدب العربى قد أفاد من المعارف اليونانية ولم يستفد من الأدب اليونانى نفسه ، إذ لم تترجم إلى العربية روائعه لما أسلفنا.

وكان الباعث على الترجمة من اليونانية إلى العربية عوامل كثيرة ، منها أن حياة الحضارة فى الدولة العباسية استلزمت أن تسند بالعلم ، ومنها الرغبة فى استخدام الفلسفة والمنطق للدفاع عن الدين ، ومنها غلبة اللغة العربية على الأقطار المفتوحة ، فكان لابد أن تنقل علوم هذه الأقطار القديمة إلى العربية ، ومن أهم بواعث هذه الترجمة ميل بعض الخلفاء العباسيين إلى العلوم الفلسفية كالمأمون . .

الشعر فى العصر الأول

تمهيد :

إذا كانت آثار الثقافات المترجمة قد صبغت الحياة العقلية والاجتماعية فى هذا العصر بأصباغ جديدة ، فقد كان أثرها فى الأدب واللغة متفاوتا ، فظلت مناهج الأداء والأساليب ولغة الكتاب والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل ، من حيث نضجت معانى الكتاب وخيالات الشعراء ، وعمقت صياغتهم الذهنية وتفكيرهم العقلى ، إلى حد كبير .

وإذا كانت الثقافات الحديثة قد طغت موجتها على كثير من نواحى الحياة والتفكير ، فإن العربية كانت أعز من أن تحنى رأسها للعواصف الجامحة التى تهدم من صرحها الشاهق ، أو تزعزع من ثقتها القوية بالنفس . وظلت كما هى لغة التفكير والأدب ، وإن سايرت حركة الرقى ، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة .

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد وضعت موضع العناية بالترجمة . فإن الأدب اليونانى لم يترجم منه شىء ، ولم يتأثر به الأدب والشعر فى نهضتهما الوثابة فى هذا العصر الحافل (١) ، لتباين الأذواق ، ولاعتداد العرب بنفسهم ولغتهم وأدبهم ، ولاختلاف حياة العرب واليونان التى يصورها الأدب ويكون أوضح مثال لها . وعلى أية حال فإن الثقافة اليونانية قد صبغت عقلية الأدباء والشعراء بآثارها العميقة فى التفكير والخيال والمعانى (٢) وطرافة التقسيم .

---

(١) ٤٥ بارتولد ، ٦٦ الفن ومذاهبه - ٢٨٧ التوجيه الأدبى - ٢٣٥ الأدب العباسى لمحمود مصطفى - ٢٨٠ جـ ١ ضحى الإسلام - ٢٤٤ الزيات .

(٢) وقد أفاد الأدب العربى من القصص والحكم اليونانية التى انتشرت فى الثقافة الإسلامية وعربت ، كثيرا من الألفاظ اليونانية .

وتأثير الثقافة الهندية فى الأدب العربى كذلك كان طفيفا لا يعدو تلك الأفكار التى كانت تتساقط من علم النجوم أو الرياضة فى الشعر ، وهذه القصص الهندية التى أولع العرب بها ، ونقلوها إلى العربية ككليلة ودمنة الذى نقلوه من الفارسية إلى لغتهم ، وتلك الحكم التى تشبه الأمثال العربية ، وهذه الألفاظ التى عربوها وأدخلوها إلى العربية .

وأثر الفرس فى الأدب العربى كبير ، فهم الذين أشاعوا فيه اللهو والمجون ووصف الراح ، وأدب الزهد تأثر كثيرا بنزعات الفرس ، وعنهم نقلت آثار كثيرة من الأدب القصصى ككليلة ودمنة وهزار أفسانه ، والتوقيعات كان للفرس فيها أثر كبير ، وقد ترجمت عن الفارسية توقيعات كسرى ، هذا إلى أنه كان للفرس شعر وأمثال وأدب كثير وضع تحت أعين العرب ، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير فى الأدب كالعتابى وأبى نواس وبشار وسواهم ، فأخرجوا أدباً عربياً فيه معانى الفرس وبلاغة العرب ، وكان الشعراء ينظمون مايتسرب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أنوشروان مشتهراً بالنرجس ، وكان يقول : هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فقال الشاعر :

ويا قوتة صفراء فى رأس درة مركبة فى قائم من زبرجد
كأن بقايا الطل فى جنباتها بقية دمع فوق خد مورد (١)

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على كرسى زبرجد أخضر تتوسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر (٢) :

---

(١) ٢٣٢ ج ٢ زهر الآداب ، وراجع ص ٧٠ من هذا الكتاب .

(٢) وينسب البيت الأول لعلى بن الجهم (٢٣ ج ٢ ديوان المعانى) قال أبو هلال : وهو من قول أردشير : الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على كرسى زبرجد يتوسطه شذور من الذهب .

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستطرف حسن من خمرة مزة كالجمر فى اللهب

وأخذ ابن الرومى معنى حكمة لبهرام جور (١) فنظمه شعرا (٢) . وكان من الفرس كبار الكتاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء (الكتابة الفنية) فى الدواوين ، وكان منهم شعراء أحدثوا آثارا واسعة فى أغراض الشعر ومعانيه ، وأوزانه وتوافيه ، ونقلوا للخلفاء والأمراء والوزراء كثيرا من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وقصصهم وأسمارهم ، مما ظهر أثره فى الأدب العربى واضحا . وإذا كان الأدب فى عهد بنى أمية عربيا خالصا فى المادة والمعنى ، ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته ، فقد كان فى عهد بنى العباس أثرهم أعمق لا فى الأسلوب البيانى ، بل فى التفكير والخيال . وبتأثيرهم تنوعت الأغراض وظهر التأنق فى النثر والشعر ، وطابت الرقة والدماثة ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها .

ويمتاز الأدب فى هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه ، وبصدق تمثيله للحياة الاجتماعية ، وبكثرة الحكم وأخبار الزهاد فيه ، وبتأليف الكتب الجامعة فى الأدب كالبيان والتبيين وعيون الأخبار والكامل والعقد ، وبأن الأدب أصبح فى هذا العصر صناعة علمية فى الإنشاء والتأليف ، وأظهر مايتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال والمبالغة الشديدة والإكثار من الحكمة والمثل والبراهين العقلية . وقد أصاب الأدب كساد وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها مما يبسطه ابن قتيبة فى مقدمة أدب الكاتب بوضوح .

---

(١) فارسى قديم تعلم العربية فى الحيرة وشعربها ، ويقول شمس الدين الرازى فى كتاب « المعجم » : إنه أول من نظم شعراً فارسياً وأخذه عنه العرب وكان علماء الفرس يستهجنون منه قرض الشعر .

(٢) ٢٧٨ جـ ٢ وما بعدها زهر الآداب .

ولقد كان ظهور الموالى ، وعلو شأنهم (١) مما أحيا فى نفوسهم الشعور القومى ، وذكرهم بما كان لهم من مجد بائد ، وعز قديم ، فعلنت الشعوبية ، تنفس عن غيظها المكظوم طول عهد الأمويين ، وتمجد العجم بإعلان مآثرهم وتزرى على العرب بتلمس المثالب لهم ، وتسجل ذلك فى الشعر ، من أمثال بشار ، والمتوكل ، والخريمى ، ومهيار ؛ وفى الكتب يضعها أمثال أبى عبيدة ، والهيثم بن عدى ، وسعيد بن حميد ، وعلان الشعوبى ، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم ويدفع عن العرب ، وينتصر لهم ، أمثال محمد ابن يزيد الأموى ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، بل لقد حاول الجاحظ أن يهدم العصبية الجنسية بما عالجه فى رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، حين استشرى شرها ، وكاد يوقع الفتنة فى صفوف الجند أيام المعتصم .

وتحيز المال فى جانب الحكام والأمراء ، جعل الأدب يستمر فى اتجاهه القديم إلى ناحيتهم ، ويسير فى ركابهم ، يعلى من شأنهم ، ويتغنى بذكرهم ، وغلب ذلك على أكثر أدب العصر ، وبخاصة نتاج أولئك الذين اتصلت أسبابهم بالقصور ، وذاقوا فى رحابها حلاوة النعيم .

وبعد ذلك العصر استمر الأدب فى النمو والازدهار على الرغم من انقسام الخلافة وضعفها . . ويرجع هذا الازدهار إلى تنافس الدول والإمارات الإسلامية فى تشجيع الاباء والشعراء وتمثلهم لبغداد وخلافة بغداد فى العمل على إحاطة عروشهم بالمفكرين وأعلام الشعر والأدب .

وانغماس الأدباء فى الحضارة ، ومشاركتهم فى لهوها الخليع ، ومجونها السافر ، مكن لهم من تصويرها فى جميع جوانبها ، فوصفوها فى مظاهرها الرائعة وفى مباذلها الوضيعة ، وملأ شعرهم بالتحريض على متع الحياة وتحسين الخلاعة والمجون فى صراحة مكشوفة ، وعرى فاضح ، وابتذال مهين ، ومن

---

(١) الأدب العربى للأستاذ أحمد شعرارى .

شاء فليرجع إلى الأغانى ، أو يتيمة الدهر ، أو دواوين كثير من الشعراء ، ليستطلع ذلك فى شعر بشار ، ومطيـــع بن إياس ، ووالبة بن الحباب ، ومسلم بن الوليد ، وأبى نواس ، وحسين بن الضحاك ، وغيرهم من الشعراء .

والزهد ، وهو حركة تقاوم هذه المادية الجارفة ، وتصد عنها بالتنفير من الدنيا والترغيب فى الآخرة ، والتذكير بالموت والحساب : وجد له مجالا فى نتف لبعض الشعراء والعلماء ، وفى كثير من شعر أبى العتاهية ، وفى كل ما صدر عن الزهاد والمتقشفين من أقوال . . وكذلك قسوة الحياة وشقاؤها ، وشظف العيش ، ورنق المشرب ، انعكست صورها فى كتب المقامات ، قصصا للكادحين ، يحتالون على العيش بالمكر والخداع ، وفى أدب المحرومين ، سخطا على الزمان ، وأنينا من البؤس والحرمان . واضطراب نظام الحكم ، وفساد أدائه ، لم يعدم من ينعى عليه ، ويندد به ، أو من يروم علاجه ، ويحاول إصلاحه كابن المقفع .

ولو رجعنا إلى ما وصفناه من معالم هذا العصر ، نبحث عن أشد الظواهر الاجتماعية تأثيرا فى الحياة ، ما وجدنا أقوى من التحام العرب بالموالى وامتزاجهم على الوجه الذى بيناه ، من ظهور الموالى وقوة نفوذهم . فهم الذين أثروا فى المجتمع ، ولونوا الحضارة ، بما ورثوا عن دولهم الدائلة ، وحضارتهم الزائلة ، وصبغوا الدولة بصبغتهم ، وأدخلوا فيها نظمهم وتقاليدهم ، وقد تنبه إلى شىء من هذا بعض من عاصر العهد وشهد مجارى الأمور فيه ، وهذا أبو حيان التوحيدى يصور ذلك كله فيقول : « ضعف أمر الدين ، وتحلل ركنه ، وتداوله الناس بالغلبة والقهر ، فتطاول له ناس من آل الرسول صلى الله عليه وسلم بالعجم ، وبقوتهم ، ونهضتهم وعادتهم فى مساورة الملوك وإزالة الدول ، وتناول العز كيف كان . . ألا ترى أن الحال استحالت عجما كسروية وقيصرية ؟ . هذا الربيع - وهو حاجب المنصور - يضرب من شمت الخليفة عند العطسة ، فيشكو ذلك إلى أبى جعفر المنصور ، فيقول : أصاب الرجل السنة ، وأخطأ الأدب ، وهذا هو الجهل ، كأنه لا يعلم أن السنة

شرف من الأدب ، بل الأدب كله فى السنة ، وهى الجامعة للأدب النبوى والأمر الإلهى ، ولكنها العزة بالإثم ، وقد سموا آيين العجم أدبا وقدموه على السنة التى هى ثمرة النبوة .

تطور الشعر فى العصر العباسى الأول

١ — كان الشعر — ولا يزال — صورة المجتمع فى كل بيئة ، ومرآة الحياة فى كل عصر ، وسجل الأحداث فى كل زمان ذلك لأنه فيض الخاطر ، ونبع الشعور ، ونبضة الحس ، وخلجة النفس ، وفورة الوجدان ، ولأن الشعراء أبلغ من الكتاب استجابة لمظاهر الحياة ، وأسرع تجاوباً مع أحوال المجتمع ، وأشد تأثراً بأحداث البيئة ، وأعمق شعوراً بأسرار الطبيعة ، وأقوى إحساساً بنوازع الآمال والآلام .

ومن هنا نرى الشعر فى كل زمان ومكان ، صدى للحياة ، وصورة للمجتمع ، وانعكاساً للآمال والمشاعر ، وتاريخاً صحيحاً لعصره ومصره ، فهو فى الجاهلية ديوان العرب الذى يسجل مفاخرهم ، ويدون مآثرهم ، ويصور أساليب حياتهم من حرب وسلم ، ونجعة واستقرار ، وبأس ونجدة ، وحماسة وفتوة ، ونحو ذلك من ألوان خلقهم ، وأحوال عيشهم . وأنت تقرؤه فتجد فى صفحته صورة البادية ، بوعورة مسالكها ، ووعوثة شعابها ، وخشونة هضابها ، وترى فيه الرمال والكثبان والرسوم والأطلال ، والأباعر والغزلان ، والصيد والطراد أكثر مما ترى أى شىء آخر .

وهو فى ظلال الإسلام صورة للحياة الجديدة ، يتفاعل معها ويستجيب لدواعيها ، وتتحور أغراضه وألفاظه ومعانيه ، تبعاً لما تقتضيه الدعوة ، وتأثراً ببيانها الحكيم ، وتجاوباً مع ما أتيح للدولة من حظ فى الحضارة ،

وما استجد من شئون فى السياسة ، وما طرأ من عمران وعرفان . فنراه قد خاض فى العصبية ، وجال فى السياسة ، وصال فى المدح والهجاء ، وأيد وعارض ، وجادل وخاصم ، وجد فى ميادين المجدين ، وتقشف فى محاريب الزاهدين ، وتبذل فى مواطن الغزل والمجون مع المترفين الإباحيين .

ومع هذا فإنه لم يبعد كثيراً عن منهجه الجاهلى ، لأصالة العروبة ، وقرب العهد بالبداوة ، وقلة الحظ من الحضارة ، وندرة الامتزاج بالأعاجم ، والترفع عن خلاطهم ، فلم تتغير مناهجه ، أو تتعدد مذاهبه ، أو تتجدد ألوانه ، إلا بمقدار ما سمح به التغير الطارىء فى مناهج الحياة ، وأساليب العيش ، ومظاهر الحضارة . وهو فى جاهليته وإسلامه أنغام شجية تهدهد الأشجان ، وتنهنه العبرات ، وتستثير المشاعر ، وتستفز العزائم ، وتجمل الحياة .

٢ — وإذا كان هذا شأنه والحضارة معدومة أو محدودة ، وخياله المجنح يحلق فى آفاق الجمال ، فيبنى من الصخر قصراً ، وينبت من القفر زهراً ، ويخلق من الرسوم الدوارس ، شخوصا وأوانس ، ويصور من البعر المتناثر لآلىء وجواهر ... فما بالك به فى العصر العباسى ، والحضارة فى الأوج ، والمدنية فى القمة ، والطبيعة فى جلوة ، والأرض فى زينـــة ، والثقافة متنوعة ، والمناظر متجددة ، والعمران فى عنفوان ؟

لقد اتخذ العباسيون عاصمة ملكهم (بغداد) فى ديار الأعاجم ، وامتزجوا بهم كل الامتزاج ، واندمجوا فيهم كل الاندماج . ولهؤلاء ألوان من الثقافات ، وأنماط من العيش ، وأنواع من الخلق وأشتات من العادات والتقاليد . . فكان لهذا كله أثره فى نفوس الشعراء ، كما كان له أثره فى نفوس العرب جميعاً . ووجد الشعراء إلى جانب ذلك من المناظر والمظاهر وألوان الحضارة مالم يألفه خيالهم من قبل ، فهذه رياض ناضرة ، وقصور شاهقة ، ومناظر

مونقة ، وتلك مجالس مفاكهة وسمر ، ومجالى منادمة وطرب ، إلى غير ذلك مما يمد الشعر ويغذيه ويثيره وينميه ، ويجعله يحلق فى أرحب أفق وأعلى سماء .

كذلك كان الشعراء أبلغ من تأثر بذلك كله ، وأول من استجاب إلى هذه الحياة الجديدة ، لأن نفوسهم أعلق بالترف ، وألصق بالمدنية . وهم كذلك أقرب إلى الخلفاء ، وأدنى إلى مظاهر الحضارة فى قصورهم . ولهذا رأينا الشعر يحلق فى كل أفق ويغرد فوق كل فنن ، فهو ينادم على الشراب ، ويعاقر كؤوس الحباب ، ويناكه السمار ، ويساجل الأوتار ، وينشد الحسن ، ويهتف بالجمال وهكذا انتقل من الصحارى المجدبة ، والخيام المطنبة ، إلى الرياض والغياض والقصور والزهور ، والجداول المترقرقة أو المروج المنمقة ، ومطارح اللهو والترف والنعيم .

وكان الشعر إذن كالطائر الصداح ، تجرح لهاته خشونة الحياة ، ويخنق شدوه لفح الهجير ، حتى إذا أشرقت شمس الربيع ، وهبت نسائمه ، وتفتح زهره ، وتضوع عطره ، خفق بجناحه طرباً ، وحلق ماشاء فرحا ، وابتدع أفانين الشدو والغناء وما العصر العباسى إلا ذلك الربيع .

وهكذا يتطور بتطور الأمة العربية ، ويتدرج مع الحياة الإنسانية ، فيكون فى الجاهلية أنغام صبى ، وحماسة فتوة ، وعواطف أثرة وفى الإسلام أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطماع حياة ، ثم يستحير شبابه ، ويكتمل فى صدر الدولة العباسية ، فيظهر فى شعر بشار وأبى نواس وأضرابهما : عبث شباب ، وأغانى طرب ومظاهر ترف . . . » (١)

وظهر فى هذا العصر تياران فى الشعر لكل منهما خصائصه ومميزاته : تيار الشعر البدوى بما يشتمل عليه من خصائص فكرية وفنية ، وتيار الشعر الحضرى بما يتميز به من سمات وخصائص . .

وسنفصل الحديث فى بعض الأسباب لتطور الشعر فى هذا العصر . .

---

(١) الزيات فى تاريخ الأدب العربى ص ٤٧

عناية الخلفاء ومنزلة الشعراء

١ — كان الخلفاء والأمراء فى عصر نفوذ الدولة العباسية عربا ، جرى فى عروقهم دم العروبة ، وتأصلت ملكتها ، وسحرتهم بلاغتها ، ورأوا فى الشعر مجدهم التليد وفخرهم القديم ، فحرصوا على روايته وإحيائه ، واهتزت أريحيتهم لسماعه وإنشاده ، وخلب أفئدتهم القول الرائع ، والبيان الفائق ، واحتلبت عطاياهم المدح الجيد ، والثناء البليغ . ولهذا قربوا الشعراء ، وفرضوا لهم فى بيت المال ، وأغدقوا عليهم العطايا والصلات ، وأغرقوهم بالمنح والهبات حتى تجاوزت آمالهم التكسب بالشعر للعيش والكفاف ، إلى الثراء الواسع والغنى السابغ واختزان المال ، والأخذ بأكبر نصيب من الرفاهية والبذخ والنعيم . حتى رأيناهم يقتنون الثروات الواسعة . ويسامون الملوك فى المنزلة ، ويسارون ذوى اليسار فى نعيم العيش ، وترف الحياة ، وامتلاك القصور والضياع .

قالوا : إن سلما الخاسر مات عن خمسين ألف دينار ، ويحدثنا صاحب الأغانى أنه كان يأتى باب المهدى على البرذون قيمته عشرة آلاف درهم ، ولباسه الخز والوشى ، وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الثمن ، ورائحة المسك والطيب الغالية تفوح منه .

ومروان بن أبى حفصة أعطى مائة ألف دينار غير مرات ، وكان أبو نواس محظوظاً لا يدرى ما يصل إليه ، وكان يتساجل فى الإنفاق هو والعباس بن الأحنف صريع الغوانى ، وكان البحترى ملياً ، قد فاض كسبه ، وكان يركب فى موكب من عبيده (١) .

---

(١) العمدة ١ : ٧٧

وهكذا تفيض كتب الأدب بما لانكاد نصدقه اليوم عن ثراء الشعراء وما كانت تستدره رقاهم السحرية من مال . ولم يقف الخلفاء والأمراء عند سماع الشعر ، والارتياح لإنشاده ، والعناية بأصحابه ، بل كان لهم به بصر وخبرة ، ومشاركة ، ومعرفة ، وحذق وإلمام . فهذا المنصور يفجعه الدهر فى ابنه جعفر ، فتستبد اللوعة بقلبه ، ويسد الحزن عليه منافذ السلوى ، فلا يجد سبيلا للعزاء إلا قصيدة أبى ذؤيب فى رثاء أبنـــائه ، فيطلب إلى الربيع من ينشده من أهل بيته :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع ؟

فلا يجد الربيع من يحفظها ، فتكون مصيبته فى أهل بيته أشد من لوعته فى ابنه ، ثم يبعث إلى القواد والولاة ، حتى يصادف الربيع شيخا مؤدبا ، فيذهب به إلى المنصور ، فينشده المطلع مائة مرة ، حتى إذا بلغ قول أبى ذؤيب : « والدهر لايبقى على حدثانه » ، عرف موطن الإبداع . فاستعاده مائة مرة ، وهو يقول : سلا أبو ذؤيب عند هذا القول .. وكذلك كان المأمون ، وسيأتى من أخباره مايدل على ذوقه وبصره .

وكان الناس يعرفون للشعر منزلته عند الخلفاء ، فيواجهون به أحرج المواقف ، التى يتحاشون المواجهة فيها . كالذى حدث من نقض نقفور ملك الروم عهده مع الرشيد ، بعد أن خضع له وبذل الجزية . فلم يجرؤ أحد على إخبار الرشيد ، حتى بذل يحيى بن خالد الأموال للشعراء على أن يخبروه . فتقدم إليه شاعر من أهل جدة يكنى أبا محمد ، وأنشده :

نقض الذى أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أتاك به الإله كبير

فلما انتهى من قصيدته ، قال الرشيد : أوقد فعل ؟ ثم غزاه وفتح هرقلة وكان الرشيد شاعراً كغيره من الخلفاء العباسيين ، الذين شاركوا فى

النهضة الشعرية بقول الشعر . إلى جانب عنايتهم به . وإغداقهم على قائليه .
يروون أن الرشيد قال فى قينة :

تبدى صدوداً وتخفى تحته مقة فالنفس راضية والطرف غضبان
يا من وضعت له خدى فذلله وليس فوقى سوى الرحمن سلطان

وقال فى رثاء جارية :

فارقت عيشى حين فارقتها فما أبالى كيفما كانا
قد كثر الكلام ولكننى لست أرى بعدك إنسانا

وقال فى جواريه الثلاث : سحر وضياء وخنث :

ملك الثلاث الآنسات عنانى وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطانى

أما الذى لاشك فيه فهو أنه كان أدق حسا ، وأنقى ذوقا ، وأصح فهما وبصراً به من سواه ، ولقد أنشد النعمانى يوماً فى صفة فرس :

كأن أذنيه إذا تشوفا قادمة أو قلماً محرقا

فقال له : دع كأن ، وقل نخال ، حتى يستوى الشعر .

وقالوا : إن المأمون وصف الشطرنج بقوله :

أرض مربعة حمراء من أدم ما بين إلفين موصوفين بالكرم
هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحرب لم تنم
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمعركة فى عسكرين بلا طبل ولا علم

ومنزلة مثل بشار وأبى نواس وأبى تمام والبحترى فى عصرهم معروفة مما يدل على أنه كان عصر ازدهار للشعر ، وعناية شديدة من الدولة والشعب بنهضته ، بل لقد كان الكثير من الأمراء وأبناء الخلفاء شعراء مجيدين ،

من مثل إبراهيم بن المهدى وعبد الله بن المعتز وغيرهما ، ويفيض الصولى فى قسم من أقسام كتابه الأوراق ، فى ذكر الأمراء وأولاد الخلفاء من الشعراء ، ويقال إن المهدى حفظ شعر ذى الرمة فى صباه ، ولولديه جمع المفضل الضبي مختاراته « المفضليات » .

هذا إلى سعة الثقافة الأدبية ، ونمو العلوم العربية ، واتساع الذوق الأدبى باتساع المعرفة والاطلاع ، وغير ذلك ، مما كان له أثره فى زيادة العناية بالشعر والشعراء فى هذا العصر .

ومن الأدلة على فطنتهم بالشعر وتذوقهم له ، ما يروى عن الأصمعى (١) أنه قال :

كان أبو عمرو بن العلاء (٢) وخلف الأحمر (٣) يأتيان بشاراً (٤) ، فيسلمان عليه بغاية الاعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ثم ينصرفان ، فأتياه يوماً فقالا : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قتيبة (٥) ؟ قال : هى التى بلغتكما ، قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالا : فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

---

(١) عبد الملك بن قريب الإمام فى اللغة والأدب ، توفى عام ٢١٦ هـ وتجد الرواية فى الأغانى : صـ ٤١ جـ ٣ ، وفى الدلائل صـ ١٠ وفى المفتاح صـ ٧٥ .

(٢) وفى الأغانى : خلف بن أبى عمرو بن العلاء . وأبو عمرو من أئمة اللغة توفى عام ١٥٤ هـ وخلفه ابنه توفى فى أواخر القرن الثانى الهجرى .

(٣) من أئمة اللغة والشعر والأدب توفى عام ١٨٠ هـ .

(٤) أبو معاذ امام الشعراء المحدثين توفى عام ١٦٧ هـ .

(٥) قائد من كبار القواد المشهورين فى بدء عهد الدولة العباسية .

بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح فى التبكير(١)

حتى فرغ منها . فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ ، كان : إن ذاك النجاح بكرا فالنجاح ، كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت: « إن ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت (بكرا فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة ، قال : فقام خلف فقبل بين عينيه ، فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بمحضر من أبى عمرو بن العلاء — وهم من فحولة هذا الفن — إلا للطف المعنى فى ذلك وخفائه ؟(٢)

ولم تكن السياسة وحدها هى الباعث على الاحتفال بالشعر ، بل التلذذ به والتأدب بآدابه وتعرف أخبار الماضين فيه ، ولهذا كانوا يدنون مجالس الشعراء ويأنسون بهم فى خلوتهم ويقترحون عليهم نظمه فيما يجول بخواطرهم ويسألون العلماء به عما يستغلق من المعانى ويستقدمون الرواة للسؤال عن بيت مفرد ليصلوه بقصيدة أو ينسبوه إلى قائله .

سأل الرشيد أهل مجلسه مرة عن الصدر لقول الشاعر : « ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه » فلم يعرفه أحد وكان الأصمعى مريضاً فأرسل إليه إسحاق الموصلى وبعث معه ألف دينار فأرسل إليه إن هذا عجز بيت لأبى النشناش وصدره (وسائله أين الرحيل وسائل) من قصيدته :

إذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح سواما ولم تعطف عليه أقاربه

والرشيد من أكثر الخلفاء بحثا فى الشعر ، سأل أهل مجلسه مرة عن معنى قول الشاعر :

---

(١) البيت تجده فى الدلائل ص ٢٢١ و ٢٤٣ وفى المطول ص ١٠٢ وفى المفتاح ص ٧٥

(٢) راجع ٩٦ و ٩٧ : ١ شرح الإيضاح للخطيب القزوينى بقلم محمد عبد المنعم خفاجى

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخذولا

فتجادل الأصمعي والكسائي ولجا بين يديه في الخصومة وكان رأيه الفاصل بينهما ... وأعطى الفضل خاتما قيمته ألف وستمائة دينار مكافأة على أحسن بيت قيل في الذئب .. وكان المأمون على غراره ، ولى ابن الجهم ولاية من أجل بيت طلبه فوجده عنده، وكان المأمون يبالغ في إكرام الشعراء ويعفو عنهم وإن تطاولوا عليه، دخل إبراهيم بن المهدى غضبان فقال المأمون : مابك ؟ فقال نال مني دعبل ، فقال : لك في أسوة أما سمعت ماقال :

أيسومني المأمون خطة عاجز أو مارأى بالأمس رأس محمد
إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

فقال : زادك الله حلماً ياأمير المؤمنين ، وذهب عن إبراهيم الغضب .

ولم يجتمع على باب أحد من الملوك مااجتمع على باب المأمون والرشيد من الشعراء ويشبه بهما سيف الدولة الحمداني والصاحب بن عباد ، وإذا ذكر المحبون للشعر المثيبون عليه العارفون بمكانته المميزون لجيده ورديئه فاشد بالبرامكة وآل سهل وآل طاهر .

وقد بلغ من منزلة الشعراء أنهم كانوا يحتكمون في أموال الخلفاء ويفرطون في الدالة عليهم ، ويشفعون فيما لاترجى الشفاعة فيه ، فيفكون رقاب العناة ويجيرون من الموت ويدخلون بين الخليفة وخاصته ، وكتب الأدب مليئة بأخبارهم ؛ وقد بلغ من تأثير الشعر في البيئة الاجتماعية أن نقشوه على جدران المنازل والأندية وفصوص الخواتم وصدور المجالس وطرزوه على الستائر والطنافس ، وعلى الأقداح والكاسات وسائر آنية الذهب والفضة والأعلام والعصائب ، وزينوا به أبدانهم فكتبوه بالحناء على الخدود والأقدام، وكأن المجتمع العربي كله أصبح ذا نفس شاعرة ملهمة ..

٢ — وهذه أمثلة لعناية الخلفاء بالشعر :

(ا) عناية الخلفاء العباسيين فى هذا العصر بالشعر والشعراء معروفة مشهورة يروى أن أبادلامة أقبل على المنصور ، فأنشده :

لوكان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا فى شعاع الشمس كلكمو ... إلى السماء فأنتم أطهر الناس
وقدموا القائد المنصور رأسكمو ... فالعين والأنف والأذنان فى الرأس

فهز أريحيته ، وأنساه حرصه وتشدده ، فقال له : بأى شىء تجد أن نعينك ؟ قال أبودلامة : تملأ لى هذه الخريطة دراهم ، فملئت فوسعت أربعة آلاف درهم .

وقال الربيع بن زياد : قلت للمنصور يوما : إن الشعراء ببابك وهم كثيرون ، فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم : من مدحنى منكم فلا يصفنى بالأسد ، فإنما هو كلب ، ولا بالحية فإنما هى دويبة منتنة تأكل التراب ، ولا بالجبل فإنما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فإنما هو لجب . فمن كان فى شعره هذا فلينصرف فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة الذى دخل فأنشده قصيدة قال منها :

له طينة بيضاء من آل هاشم ... إذا اسود من كوم التراب القبائل
إذا ماأتى شيئا مضى كالذى أتى ... وإن قال إنى فاعل فهو فاعل

فقال: حسبك ، هذا عين الشعر ، قد أمرت بخمسة آلاف درهم .

وهذا ابنه المهدى(١) يدخل عليه عمرو بن سلم الخاسر ، فينشده :

---

(١) كان المهدى يعجب برائية زهير ويقول : ذهب والله من يقول مثل هذا » ٢ : ٢٥٨ البيان والتبيين للجاحظ ط الخانجى »

أليس أحق الناس أن يدرك الغنى مرجى أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدى عدلا ونائلا كأنهما عـــدل النبي ونائله

فقال: أما ماذكرت من الجود ، فوالله ماتعدل الدنيا عندى خاتمى هذا . وأما العدل فإنه لايقاس برسول الله أحد فيه ، وإنى لأتحراه جهدى ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب . ودخل عليه بعدها فأنشده:

إن الخلافة لم تكن بخلافة حتى استقرت فى بنى العباس
شدت مناكب ملكهم بخليفة كالدهر يخلط لينـــه بشماس

فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوباً. ثم دخل عليه بعدها فأنشده:

أفنى سؤال السائلين بجوده ملك مواهبه تروح وتغتدى
هذا الخليفة جوده ونواله نفـد السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوبا، ودخل عليه ابن الخياط فمدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها فرقها على الناس ، وأنشأ يقول :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ماأفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأتلفت ماعندى

فلما بلغ المهدى مافعل أعطاه بكل درهم ديناراً .

ودخل مروان بن أبى حفصة على الهادى فأنشده فى مدحه :

تشابه يوما بأسه ونواله فما أحد يدرى لأيهما الفضل

فقال له الهادى : أيهما أحب إليك ثلاثون ألفاً معجلة أو مائة ألف تدور فى الديوان؟ قال تعجل الثلاثون ألفاً وتدور المائة ألف . قال : بل تعجلان لك جميعاً ، فحمل له ذلك .

وروى الصولى عن سعيد بن مسلم قال : إني لأرجو أن يغفر الله للهادى

بشيء ، رأيته منه . حضرته وأبو الخطاب السعدى ينشده فى مدحه :

ياخير من عقدت كفاه حجزته وخير من قلدته أمرها مضر

فقال الهادى : إلا من ؟ ويلك . فقلت ياأمير المؤمنين : إنما يعنى من أهل هذا الزمان ، فتذكر الشاعر فقال :

إلا النبي رسـول الله إن له فضلا وأنت بذاك الفضل تفتخر

فقال ، الآن أصبت وأحسنت ، وأمر له بخمسين ألف درهم(١).

أما الرشيد فقد جاوز عطاؤه للشعراء كل أمل ، وفاقت عنايته بالشعر كل عناية ، ولا بدع فهو شاعر أديب ، يتذوق الأدب ، ويفهمه فهم العلماء ، ويتأثر بالشعر أبلغ التأثر ، حتى إنه لما آلمه لحن الملاحين الذين كانوا يتغنون فى دجلة ، أمر أبا العتاهية وهو فى السجن أن يعمل لهم شعراً يغنون فيه ليصلح من ألسنتهم ، فعمل أبو العتاهية شعراً فى الوعظ والتذكير بتقلب الأيام ، لينغص على الرشيد سروره إذا سمعه ، وقد غاظه منه أنه لم يأمر بإطلاقه من السجن . فكان الرشيد يبكى وينتحب إذا سمع هذا الشعر الذى كان منه :

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجموح
هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح
كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح
سيصير المرء يوماً جسداً مافيه روح
بين عينى كل حى علم الموت يلوح
كلنا فى غفلة والـ ـموت يغدو ويروح
نح على نفسك يامسـ ـكين إن كنت تنوح

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٧٦ و ١٧٧

لتموتن وإن عمـ ت ما عمـر نوح

ولقد مدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة منها :

وسدت بها دون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر
ترى حوله الأملاك من آل هاشم كما حفت البدر النجوم الزواهر

فأعطاه خمسة آلاف دينار ، وكساه خلعته . وأمر له بعشرة من رقيق الروم ، وحمله على برذون من خاص مراكبه .

ومدحه إبراهيم الموصلي لما ولى الخلافة واستوزر يحيى بن خالد، فقال :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هارون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه فهارون واليها ويحيى وزيرها

فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطاه يحيى خمسين ألفاً .

وقال المأمون يوماً لمحمد بن الجهم : أنشدنى ثلاثة أبيات فى المدح والرثاء ، ولك بكل بيت كورة ، فأنشده فى المدح :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأنشده فى الهجاء :

قبحت مناظرهم لحين خبرتهم حسنت مناظرهم لقبح المخبر

وأنشده فى الرثاء :

ارادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

وكان المتوكل جواداً ممدحاً ، يقال : ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطى المتوكل . دخل عليه على بن الجهم ، وبيديه درتان يقلبهما ، فأنشده قصيدة فرمى إليه بدرة ، فقلبها ، فقال : تستنقص بها وهى والله خير من مائة ألف؟

قال : لا ، ولكنى أفكر فى أبيات آخذ بها الأخرى ، فقال : قل ، فقال :

بسر من را إمام عدل تغرف من بحره البحار
الملك فيـــه وفى بنيه ما اختلف الليل والنهار
يرجى ويخشى لكل خطب كأنه جنة ونار
يداه فى الجود ضرتان عليه كلتاهما تغار
لم تأت منه اليمين شيئا إلا أتت مثله اليسار

فرمى إليه بالدرة الأخرى(١) ، ودخل عليه مروان الأصغر بن مروان ابن أبى حفصة ، فأنشده :

سقى الله نجداً والسلام على نجد وياحبذا نجد على القرب والبعد
نظرت إلى نجـد وبغداد دونها لعلى أرى نجداً وهيهات من نجد
ونجـد بها قوم هواهم زيارتى ولا شىء أحلى من زيارتهم عندى

فلما أتم القصيدة نفحه بعشرين ومائة ألف درهم ، وخمسين ثوباً ، وثلاثة من الظهر ، حتى أنطقه بالشكر فى قوله :

تخير رب الناس للناس جعفراً فملكه أمر العباد تخيرا

فلما انتهى إلى قوله :

فأمسك ندى كفيك عنى ولاتزد فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

قال المتوكل : لا والله لا أمسك حتى أغرقك بجودى ، ولا تبرح أو تسأل حاجة ، فسأله ضياعا كانت قد أقطعت له ، وحيل بينه وبينها ، فردها إليه .

ودخل عليه البحترى وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ، فقال له : قل فى هذا يابحترى : قال البحترى ولم أكن ذا بديهة ، ولكنى اعتزلت جانباً ، فقلت :

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢١٦

ذات ارتجاز بحنين الرعد ... مجرورة الذيل صدوق الوعد (١)
مسفوحة الدمع لغير وجد ... لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ... ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد ... فانتشرت مثل انتثار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد ... من وشى أنوار الربا فى برد
كأنما غدرانها فى الوهد ... يلعبن من حبابها بالنرد

فقال المتوكل : انظروا ماذا فى الخزائن من ماء الورد العتيق ، فادفعوه إلى البحترى . قال فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً ، وبعته بمال .

(ب) ولم يكن عظماء الدولة وولاتها وأمراؤها أقل اهتماماً بالشعر، أو بذلا للشعراء . قالوا إن الزوار كانوا يسمون بالسؤال، حتى كرمهم خالد بن برمك وسماهم الزوار ، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعيم . فقال بشار :

حذا خالدا فى فعله حذو برمك ... فمجد له مستطرف وأصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله ... بلفظ على الإعدام فيه دليل
يسمون بالسؤال فى كل موطن ... وإن كان فيهم نابه وجليل
فسماهم الزوار سترا عليهمو ... فأستاره للمجتدين سدول

فأمر له خالد لكل بيت بألف درهم . وكان يعطيه فى كل وفادة خمسة آلاف ، بل إنه أعطاه مرة أربعة آلاف دينار ، ومرة ثلاثين ألف درهم .

وعلى هذا النحو من السخاء كان الخلفاء والقواد والرؤساء والعظماء والأثرياء يبذلون للشعراء ، ويغدقون عليهم ، وكأنما أخذتهم رقى الشعر ، وصرعتهم شياطينه ، فهم يعطون باليمين وبالشمال ، ويتخرقون فى هذا العطاء

---

(١) الارتجاز : صوت الرعد . مجرورة الذيل كناية عن كونها سحابة طويلة والمراد بصدق الوعد أن برقها ليس خلبا .

حتى كأنهم لا يدرون ماذا يعطون ، وكان الأمراء من حولهم والولاة من قبلهم يصنعون هذا الصنيع ، ويمنحون هذا المنح .

ولو أننا أفضنا فى أخبار هؤلاء وتتبعنا عطاياهم الجسام ؛ وصلاتهم التى تفوق الخيال ، لما اتسع ذلك المجال ، فحسبنا هذا القبس دليلا على عنايتهم بالشعر ، وانطباع نفوسهم على حبه ، وإيثارهم للشعراء ، وتقريبهم ، والإسراف فى مثوبتهم ، حتى صارت لهم منزلة لاتدانيهـــا منزلة ومكانة لا تساويها مكانة ، فالخلفاء يقبلون شفاعتهم ، ويتقبلون إساءتهم ، ويغضون عن أذاهم ، بل ويستمعون لما يقولونه فيهم من هجاء ، ولقد قالوا إن دعبلا هجا المأمون بقوله :

أيسومنى المأمون خطة عاجز ... أو مارأى بالأمس رأس محمد
إن الثرات مسهد طلابها ... فاكفف لعابك عن لعاب الأسود
إنى من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فذهب أبو سعد المخزومى ، وأنشد المأمون هذا الهجاء ، وقال له : أتأذن لى يا أمير المؤمنين أن أجيئك برأسه ؟ فقال له : لا ، هذا رجل فخر علينا ، فافخر أنت عليه ، فأما قتله فلا .

ولم يزد المأمون على أن قال : « قاتل الله دعبلا ، متى كنت خاملا ؟ وفى حجر الخلافة ولدت ، وبدرها غذيت ، وفى مهدها ربيت (١) » .

وقالوا إن المتوكل غضب على محمد بن البعيث ، لخروجه عليه ، فأرسل إليه من أتى به أسيراً ، فأمر بضرب عنقه ، فأنشده :

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلى ... إمام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جبلة من خطيئة ... وعفوك من نور النبوة يجبل
فإنك خير السابقين إلى العلا ... ولا شك فى خير الفعالين تفعل

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢٢٢

فقال المتوكل لجلسائه : إن فيه لأدباً ، وأمر باطلاقه والعفو عنه . وهكذا شفع له مقام الأدب . وجاه الشعر ، وما أعظمه من جاه عند هؤلاء الناس .

بل إن أبعد من هذا دلالة على مكانة الشعراء وعظم جاههم . ما كان من أبي تمام حين شفع للواثق عند أبيه فى ولاية العهد ، فقال :

فاشدد بهرون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار
ولقد علمت بأن ذاك معصم ما كنت تتركه بدون سوار

مجالس الشعر والأدب

قوم يرثون هذا الشغف بالشعر ، ويجلون الشعراء ذلك الإجلال ، ويحلونهم من نفوسهم وقلوبهم تلك المكانة ، وينزلونهم من عنايتهم ورعايتهم هذه المنزلة ، فلا يكتفون بما يسدر مقهم ، أو يغنى حاجتهم ، بل يغمرونهم بالعطاء ويغرقونهم بالثراء ، ويفعمونهم بالترف والبذخ والنعيم ... قوم هذا شأنهم لابد أن تعمر مجالسهم بالأدب ، وتحفل نواديهم بالشعر ، وتزخر قصورهم بالشعراء والأدباء ، ولا بدع فهم عرب تترنح أعطافهم نشوة بالأدب ، وتهتز أريحيتهم نشاطاً له ، وتهفو مشاعرهم صبوة إليه .

ولقد كان للخلفاء والأمراء فى هذا العصر ـ كما كان لغيرهم من رجال الفن والأدب ـ مجالس يتفاكهون فيها بالطريف من الشعر ويتسامرون بالغريب من الرواية ، ويتجاذبون الرائع من القول ، ويتبادلون التعليق والنقد ، ويستجيدون الجيد ويهجنون الضعيف . وكلها تدل على دقة الحس ، ورقة الشعور ، وسلامة الذوق ، وفطرة البيان . كما تدل على عنايتهم بالأدب ، واعتبار مجالسه متعة للنفس ، وغذاء للحس ، وأنساً للروح ، ولذة للعقل والقلب والشعور ؛ وهذا مما يدل على مدى العناية الفائقة التى أولاها الخلفاء والأمراء والولاة للشعر والشعراء فى هذا العصر .

وهذه بعض أمثلة لمجالس الأدب والشعر فى هذا العصر :

١ — قالوا إن المنصور ركب يوماً هجينا فى وقت الهاجرة ، فجعلت الشمس تلمع بين عينيه . فقال لمن حوله : إنى قائل بيتا ، فمن أجازه فله جبتى هذه . وقال :

وهاجرة نصبت لها جبينى يقطع ظهرها ظهر العظاية(١)

فابتدر بشار فقال :

وقفت بها القلوص ففاض دمعى على خدى وأقصر واعظايه

فنزع المنصور جبته وهو راكب ، وأعطاها له ، فباعها بأربعمائة دينار .

٢ — وعقد المهدى يوما مجلسا لمروان بن أبى حفصة حشد فيه وجوه بنى العباس فلما اكتمل عقدهم ، دعا مروان فأنشده :

كأن أمير المؤمنين محمداً لرأفته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهمو سقته به الموت الحتوف الرواصد

فأشار إليه فأمسك ، فقال يابنى العباس ، هذا شاعركم المنقطع إليكم المعادى فيكم ، فآتوه مايسره . فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم ، وأعطاه هرون مثلها ، وأعطاه الجميع كل على قدر حاله ، وأعطاه هو ثلاثين ألفا ، ثم قال له : وسيأتيك منى مايؤديك إلى الغنى ، فقال مروان : قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما سمعت منى ماسأزداد به شعراً .

٣ — وكان الهادى مغرما بجمع السلاح ، فلما وقع إليه سيف عمرو ابن معد يكرب الزبيدى ، عقد مجلسا للشعراء ، واقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم :

حاز صمصامة الزبيدى من بين جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أغمضت عليه الجفون

---

(١) العظاية : دويبة صغيرة ملساء تشبه سام ابرص .

أخضر اللون بين حديه برد ... من زعاف يميس فيه المنون
فإذا ماسللتـــه بهر الشمـ ... ـس ضياء فلم تكد تستبين
مايبالى من انتضاه لحرب ... أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأبصار كالقبس المشـ ... ـعل ما تستقر فيه العيون
وكأن الفرند والجوهر الجا ... ري على صفحتيه ماء معين

فمنحه عشرين ألف درهم .

٤ — وكانت مجالس الرشيد أعمر هذه المجالس ، وأحفلها بالأدب ، لأنه كان عالما شاعراً أديبا ، ذاحس مرهف ، وذوق ناقد ، وبصر بالأدب وغرام بالشعر ؛ كما كان أجزل الخلفاء عطاء ، وأبلغهم تأثيراً وتقديراً ؛ وهو الذى شق عليه امتناع أبى العتاهية عن قول الشعر وحضور منادمته حين أدركته حال الزهد ، فلما لم يفلح فى رده عن هذه الحال ، أمر بضربه ستين عصا ، ثم سجنه وأقسم ألا يخرج من حبسه ، حتى يقول الشعر ، ولكن أبا العتاهية أقسم ألا يتكلم سنة إلا بالقرآن أو الشهادة ، فندم الرشيد وأمر بالتوسعة عليه ، حتى إذا انتهى العام ، قال أبو العتاهية فى امرأته :

من لقلب متيم مشتاق ... شفه شوقه وطول الفراق
طال شوقى إلى قعيدة بيتى ... ليت شعرى فهل لنا من تلاق ؟

فلما سمع الرشيد الشعر ، أعطاه بدل الستين عصا ، ستين ألف درهم .

ودخل عليه أعرابى فأنشده ، فقال : ياأعرابى أسمعك مستحسنا ، وأنكرك متهما ، فقل لنا بيتين فى هذين ـ الأمين والمأمون ـ فقال : ياأمير المؤمنين حملتنى على الوعر القرد(١) ، وأرجعتنى عن السهل الحدرد ، روعة الخلافة ، وبهر الدرجة ، ونفور القوافى على البديهة ، فقال الرشيد : قد جعلت

---

(١) القرد : ماارتفع من الأرض .

أعتذارك بدلا من امتحانك ، فقال : يا أمير المؤمنين نفست الخناق ، وسهلت ميدن السباق ، ثم أنشد :

بنيت لعبـــد الله ثم محمد ذرى قبة الإسلام فاخضر عودها
هما طنبـاها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها

فقال الرشيد : بارك الله فيك ، فسل ولا تكن مسألتك دون إحسانك قال : الهنيدة(١) ياأمير المؤمنين ، فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع .

وروى حماد بن إسحق عن أبيه قال : كنا عند الرشيد ، فحضر الأصمعى والكسائى ، فسأل الرشيد عن بيت الراعى :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثـــله مخذولا

فقال الكسائى : كان قد أحرم بالحج ، فضحك الأصمعى وتهانف(٢) ، فقال الرشيد : ماعندك ؟ فقال : والله ما أحرم بالحج ، ولا أراد أيضا أنه دخل فى شهر حرام ، كما يقال أشهر وأعام إذا دخل فى شهر أو عام . فقال الكسائى : ماهو إلا هذا ، وإلا فما المعنى الإحرام ؟ قال الأصمعى : فخبرونى عن قول عدى بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتـــولى لم يمتـع بكفن

أى إحرام لكسرى ؟ فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال : يريد أن عثمان لم يأت شيئا يوجب تحليل دمه ، فقال الرشيد : يا أصمعى ماتطاق فى الشعر .

ودخل عليه سهل بن هرون ، وهو يضاحك المأمون ، فقال : اللهم زده وابسط له فى البركات ، حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه ، مقصراً عن غده . فقال الرشيد : ياسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده

---

(١) الهنيدة : مائة من الإبل .
(٢) التهانف : ضحك فى فتور واستهزاء .

ومن الحديث أصحه وأبلغه ، ومن البيان أفصحه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه . . قال سهل : يا أمير المؤمنين ماظننت أحداً تقدمنى إلى هـذا المعنى . فقال الرشيد : بل أعشى همدان حيث يقول :

وجدتك أمس خير بنى لؤى وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفا كذاك تزيد سادة عبد شمس

٥ — ولم يكن المأمون بأقل من أبيه فهما للشعر ، وبصراً بالأدب ، وعناية بالأدباء وإفساحا فى مجالسه .

ولقد حضر بمجلسه مرة مروان بن أبى حفصة ، فأنشده :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والنـاس بالدنيا مشاغيل

فلم يطرب المأمون ، ولم يسغ ما قال الشاعر ، وأعرض عنه ، فقال مروان لعمارة بن عقيل : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر ؟ فقال عمارة : ومن ذا يكون أعلم به منه ؟ والله إنا لننشده أول البيت ، فيسبقنا إلى آخره ، قال مروان : إنه لم يتحرك لقولى . فقال عمارة : إنك والله ماصنعت شيئا ، وهل زدت على أن جعلته عجوزاً فى محرابها ، وفى يدها مسابحها ! فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها ؟ هلا قلت فيه كما قال عمك جرير فى عبد العزيز بن مروان :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

فقال مروان : الآن علمت أنى أخطأت .

وقال النضر بن شميل : دخلت على المأمون فى سمره ليلة ، فدار الحديث على ذكر النساء ، فروى المـأمون عن هشام حديث الرسول « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالهـا كان فيها سداد - بفتح السين - من عوز » قلت يا أمير المؤمنين : حدثنا عوف بن أبى جميلة عن الحسن عن على كرم

الله وجهه عن رسول الله . إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد بكسر السين - من عوز ، وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً ، وقال يانضر ، كيف قلت سداد بالكسر ؟ فقلت نعم ، لأن السداد بالفتح لحن ، قال أو تلحنني . قلت : إنما لحن هشام فتبع أمير المؤمنين لفظه ، قال فما الفرق بينهما ؟ قلت : السداد بالفتح القصد فى الدين والسبيل ، وبالكسر البلغة وكل ماسددت به شيئاً فهو سداد . قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قلت : نعم ، هذا العرجى يقول :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

قال المأمون : قبح الله من لاأدب له ، ثم أمر لى بخمسين ألف درهم ، ودفع لى الفضل بن سهل ثلاثين ألفاً ، فأخذت ثمانين ألفاً بحرف واحد .

٦ — واجتمع الشعراء فى مجلس المعتصم فقال لهم : من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور النمرى فى الرشيد :

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت امرأ فالله رافعه ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصما فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فليقل ، فقال محمد بن وهيب الحميرى : فينا من يقول خيراً منه ، وأنشد:

ثلاثه تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
فالشمس تحكيه فى الإشراق طالعة إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه فى الظلماء منبلجاً إذا استنارت لياليه به الغرر

فهش له وبالغ فى جائزته :

٧ — وكذلك كان المتوكل فى مجالسه ، والبحترى يصول فيها ويجول ،

ولقد شهد أبو عنبس الصيمرى بعض هذه المجالس ، فقال : كنت فى مجلس المتوكل والبحترى ينشده :

عن أى ثغر تبتسم وبأى طرف تحتكم

حتى انتهى إلى قوله :

قل للخليفة جعفر ال متوكل بن المعتصم
والمجتدى بن المجتدى والمنعم بن المنتقم
أسلم لدين محمد فإذا سلمت فقد سلم

وكان البحترى من أبغض الناس إنشاداً ، وأشدهم غروراً ، فضجر المتوكل وقال لى : أما تسمع مايقول ياصيمرى ؟ قلت بلى ياسيدى ، فمرنى بما أحببت قال بحياتى : اهجه على هذا الروى ، فقلت :

أدخلت رأسك فى الرحم وعلمت أنك تنهزم
يابحترى حذار وي حك من قضاقضة ضغم(١)
فلقد أسلت بوالديك من الهجا سيل العرم
فبأى عرض تعتصم وبهتكه جف القلم
وبحق جعفر الإما م ابن الإمام المعتصم
لأصيرنك شهرة بين المسيل إلى العلم

فجعل المتوكل يضحك ، ويصفق بيديه ، وخرج البحترى غاضباً .

---

(١) قضاقضة : جمع قضاقض وهو الأسد ، ضغم : جمع ضيغم وهو الأسد .

المحدثون والمولدون

الشعراء المحدثون هم الذين نشأوا فى العصر العباسى وتأثروا بمظاهر الحضارة المختلفة فيه ، والمولدون منهم هم الذين نشأوا من أب عربى وأم أعجمية ، وبعضهم كانت أصولهم كلها أعجمية ؛ وقد يطلق لفظ المولدين على مايطلق عليهم لفظ المحدثين من شهود العصر العباسى وحضارته ومن اتساع أفق الخيال باتساع المشاهد ومختلف المناظر فيه .

وللمولدين حسناتهم وسيئاتهم أما حسناتهم فيمكن أن نعدها فيما يلى :

١ — تناولوا معانى المتقدمين فزادوا عليها وكشفوا عن مواطن الجمال فيها .

٢ — واخترعوا معانى جديدة لم تكن تخطر على بال متقدم .

٣ — وكسوها أسهل الكلام وأعذبه على اللسان وأخفه فى السمع وألصقه بالقلب .

٤ — وفتحوا فى الأدب العربى فتحاً جديداً بزيادتهم فى أغراضه التى جعلته أدباً رفيعاً خليقاً بالعناية به والاحتفال له وصيرته فناً عاليا يهذب النفس ويصقل الفكر ويسمو بالوجدان حين يطالع ماتضمنه من أمثال سائرة وحكم عالية ومواعظ شافية وتصوير لمجالى الطبيعة ومظاهر الكون .

٥ — ولهم فى باب الخيال الشعرى الصور الرائعة التى تسحر النفس وتجل عن الوصف وحسبك أن تستعرض مامر بك فى فن البيان لتدرك بدائع خيالهم وتعلم ماقدمه المحدثون للأدب العربى من حسنات ومن محاسن المولدين .

٦ — براعة الاستهلال وحسن التخلص والخروج لتمام حذقهم وجودة

صنعتهم وعلمهم بأنها مواطن إذا وفيت حقها من التجويد استمالت الأسماع إليها وعطفت القلوب عليها . ومن ابتداءاتهم الحسنة :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحـــل الثانى

على أنهم لم يسلموا من العيب فقد نعى عليهم العلماء أموراً ترجع إلى اللحن فى الإعراب والخروج على أوضاع اللغة وأنهم يسهلون كلامهم حتى يصيروا به إلى الساقط السوقى وأن لهم معانى غامضة متناقضة واستعارات بعيدة أو سخيفة ينبو عنها الذوق وأن فرط شغفهم بالبديع دعاهم إلى استهلاك المعنى وإلى أن يصير الكلام ضرباً من الخداع والتزويق لا تأدية المراد وأنهم قد تدعوهم شهوة الإغراب إلى التشبه بالأعراب فيخلطون بكلامهم الرقيق العذب وأسلوبهم السهل الممتنع الألفاظ الغريبة ، والحق أن هذا تحامل وأن المتقدمين وقع لهم مثل هذه الهفوات ولكن العلماء بالغوا فى الاحتيال لهم والاعتذار عنهم بضروب من التخريج تكشف عن المقابح دون أن تمحوها :

إذا كان وجه العذر ليس ببين فإن اطراح العذر خير من العذر

فإذا لم يسع المتأخرين ما وسع المتقدمين كنا باغين فى الحكم مجاوزين حد الإنصاف وقد يقال إن المتأخرين أهل تجويد وفقه فى اللغة وعرفان للمطرد والشاذ فكان عليهم أن يجتنبوا كلامهم مايهجنه وللقائل وجه ولكن يبدو أن الضرورة تنزل الشعراء فى كثير من الأحيان على حكمها .

ألفاظ الشعر وأساليبه فى هذا العصر

تأثرت ألفاظ الشعر وأساليبه بعوامل ثلاثة : الحضارة ، والغناء ، واختلاط العرب بغيرهم من العناصر الأجنبية .

١ — أما تأثير الحضارة فى ألفاظ الشعر وأساليبه فهو شديد الوضوح، فقد تغيرت الحياة العربية فى هذا العصر الذهبي تغيرا ملموساً يوشك أن يجعلها جديدة كل الجدة فى جميع مظاهر العيش والاجتماع . فقد أظلت الحضارة الناس بظلالها ، وألوانها ، وغمرتهم المدنية بزخارفها وزينتها . حتى رأيناهم يتأنقون فى اللباس ، ويفتنون فى الطعام ، ويزخرفون فى المسكن ويتصنعون فى كل مظهر . فلم يعد مسكنهم بالخيمة التى ترفع عمدها ، وتشد أطنابها فى رمال الصحراء المنبسطة ، وإنما هو غرف تزدان بالمناضد ، وتزركش بالستائر ، وتحلى بالمرصعات ، وتتألق بالثريات ، وبالقرب منها ، قصور الخلافة بسقوفها المحلاة ، وحيطانها الموشاة ، وأرائكها الوثيرة ، وثرياتها الناصعة ، وأبهائها العامرة ، ولياليها الساهرة ، وقيانها المغردة ؛ ولم يعد طعامهم بالثريد أو الحيس ! وإنما هو ألوان وأنواع ، يتأنقون فيه فيطعمونه فى صحاف الذهب والفضة ، ويخلطونه بماء الورد والكافور (١) ، كما يحلون أوانى الشراب بالصور المنقوشة ، والحلى المزركشة ، على نحو ما يصف أبو نواس فى قوله :

تدار علينا الراح فى عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس

وكذلك كان تأنقهم فى الملابس حتى رأينا الرجال يلبسون الثياب المصبغة بألوان الزهر كما يلبس النساء ، والنساء يلبسنها مطرزة موشاة ، وهذا ابن الرومى يشبه بها قوس قزح فيقول :

---

(١) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٠١

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفاً
على الجو دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وكن يحاين الرؤوس بحلى من الذهب ، ويزينها بالعصابات المنضدة ، ويحاكين الفارسيات فى صبغ الشفاه والخدود .

هذه الحضارة الزاهية بألوانها ، ومظاهرها ، وما فيها من جمال وتجميل وزخرف ووشى ، وصنعة وتصنيع ، قد انتقلت من الحياة العامة إلى الحياة الفنية الخاصة ، كما يقول ابن خلدون : « وعلى مقدار عمران البلد يكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ ، واستجادة ما يطلب منها ، بحيث تتوفر دواعى الترف والثروة (١) » وهكذا تأثر الأدب بالمدنية والحضارة ، وكان الشعر دائما أكثر تأثراً ، وأسرع استجابة للمدنية والتحضر ، لأنه المجال للظرف والتأنق ، والمصور للحسن والجمال ، والمحلق فوق الطبيعة بأجنحة الخيال . والموضوع الأول للحن والغناء ، ومن مظاهر تأثير الحضارة فى ألفاظ الشعر وأساليبه . ما يلى :

١ — رقت ألفاظه وعذبت ، ولانت تراكيبه وسهلت ، حتى كاد كل منهما يسيل رقة حاشية ، وأناقة مظهر ، وعذوبة مخرج ، وسهولة بيان . فهجرت الكلمات الغريبة ، ووضحت الأساليب ، وأشرقت ديباجة الكلام .

قال البحترى :

مخلف فى الذى وعد سيل وصـــلا فلم يجد
وهو بالحسن مستبـ ـد وبالدل منفرد
يتثـــنى على قضيـ ـب ويفتر عن برد

---

(١) المقدمة ص ٢٨١ .

قـــد تطلبت مخرجا من هواه فلم أجد
ضاق صدرى بما أجـ ـن وقلبى بما وجد
وتغضبت أن شكو ت جوى الحب والكمد
واشتكانى هواك ذا ب فإن تعف لم أعد

وقال أبو تمام فى وصف الروض :

إن الربيـــع أثر الزمان لو كان ذا روح وذا جسمان
مصوراً فى صورة الإنسان لكان بساما من الفتيان
بوركت من وقت ومن أوان فالأرض نشوى من ثرى نشوان
تختـــال فى مفوف الألوان فى زهر كالحدق الروانى
من فاقع وناصع وقان عجبت من ذى فكرة يقظان
رأى جفون زهر الألوان فشك أن كل شىء فان

ألست ترى أثر الحضارة فى رقة اللفظ وصفائه ، وسماحة الأسلوب وبهائه ، وسجاحة الكلام وإشراقه ؟ . وقد اجتمع مســـلم بن الوليد وأبو نواس وأبو الشيص ودعبل فى مجلس ، فقالوا لينشد كل واحد منكم أجود ماقال ، فأنشدهم أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة فى هواك لذيذة حباً لذكرك فلنى اللوم

فقال أبو نواس إنى أرى نمطاً خسروانياً مذهباً (١) . ويحدثنا ابن رشيق أن أبا العتاهية وأبا نواس والحسين بن الضحاك اجتمعوا يوماً فقال أبو نواس ، لينشد كل منـــكم قصيدة لنفسه فى مراده ، فأنشد أبو العتاهية :

---

(١) الأغانى (ساسى) ١٥ : ١٠٥ .

يا إخوتى إن الهوى قاتلى فيسروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا فى اتباع الهوى فإننى فى شغل شاغل
عينى على عتبة منهلة بدمعها المنسكب السائل

فسلم له أبو نواس وابن الضحاك ، وقالا : أمامع سهولة هذه الألفاظ وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارة ، فلا ننشد شيئاً (١) .

وهكذا لان عيشهم فلانت ألفاظهم ، ورقت شمائلهم فرقت عباراتهم.

٣ — وكان من أثر هذه الحضارة الوارفة ، والمدنية المشرقة ، وما زدان به الحياة من قصور ورياض ، وملاعب حسان ، ومجالس لهو وشدو ، أن خلا أسلوب الشعر من الابتداء بذكر الأطلال وبكاء الديار ، وانصرف الشعراء عن هذا النحو الذى يذكرهم بالبداوة ، إلى مظاهر الحضارة وبريقها . ويبدو أن أول من كسر هذا القيد مطيع بن إياس . ذكروا أنه اجتمع بفتى من أهل الكوفة ، ودار الحديث بينهما فى هذا الشأن ، فقال مطيع :

لأحسن من بيد يحاربها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعا
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما له مقلة فى وجه صاحبه ترعى

وجاء أبو نواس فراح يسخر من ذلك الأسلوب القديم كما فى قوله :

قل لمن يبكى على رسم درس واقفاً ماضر لوكان جلس

وقوله :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقوله :

---

(١) العمدة ١ : ١٠٦

تبكى على طلل الماضين من أسد ... لادر درك قل لى من بنو أسد
لاجف دمع الذى يبكى على حجر ... ولاصفا قلب من يصبو إلى وتد

وقوله :

دع الرسم الذى دثرا ... يعانى الريح والمطرا
ألم تر مابنى كسرى ... وسابور لمن غبرا

وقد كان لهذه الجملة أثرها فى الشعراء . فكان منهم من استبدت به نشوة الراح ، وصرعته حميا الأقداح ، فاستهل قصائده بوصف الخمر . ومنهم من هزه الجمال ، وأرقه طيف الخيال ، فابتدأها بالغزل ، ومنهم من بهره جمال الحضارة ، وسحره بهاء الطبيعة ، فراح يشدو بمحاسنها ، ويتغنى بوشيها ورواثها ، ويجعل ذلك استهلال قصيده وفاتحة موضوعه . وإنا لنرى أبا تمام يمدح المعتصم ، فيقدم بين يدى هذا المدح وصف الربيع ، ويمثل الدهر فى حواشيه الزاهية التى يتمايل فيها الثرى ، كعروس تتثنى فى حليها ، وتتكسر فى زينتها :

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر ... وغدى الثرى فى حليه يتكسر
من كل زاهرة ترقرق بالندى ... فكأنها عين إليك تحدر
تبدو ويحجبها الجهيم كأنها ... عذراء تبدو تارة وتخفر
حتى غدت وهداتها ونجادها ... فتنين فى حلل الربيع تبختر

أرأيت إلى الشعر كيف جعلته الحضارة يختال فى وشيها وزينتها ورقتها !

٣ — على أن هناك ظاهرة جديدة بدأت تظهر فى هذا العصر ، تلك هى أن الشعراء أخذوا يعنون بمطالع القصائد ، ويتخذون لها سمتاً آخر غير ذلك كله . فجعلو المطلع دالا على القصد من أول الأمر ، مشيراً إلى موضوع القصيدة ابتداء ، واختاروا له اللفظ المناسب للمقام رقة أو فخامة ، وسهولة أو جزالة . ومن ذلك ابتداء أبى تمام فى مدح المعتصم بعد فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وقوله في مطلع مرثية :

أصم بك الناعي وإن كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

وقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقد تبع ذلك احتفالهم بختام القصيدة ، فجعلوا البيت الأخير مؤذنا بالفراغ ، مشيراً إلى الانتهاء ، باشتماله على ماتسكن النفس إليه من دعاء أو حكمة أو نحو ذلك .

٤ — وسرى زخرف الحضارة ووشيها ، وما فيها من تصنيع وتجميل إلى الشعر فظهر المحسن البديعي ، وشاعت ألوانه ، من جناس وطباق وتورية ونحو ذلك ، وقد كان أول أمره ساذجا واضحاً في شعر مسلم وأبي نواس والبحتري ، ثم غلا فيه أبو تمام وأوغل ، حتى غض من جمال شعره ، ومازال الشعراء يلحون فيه ، ويتوسعون في فنونه ، حتى كان آخر من انتهى إليه الإبداع فيه ابن المعتز . وسنتحدث عن الصنعة عند المحدثين في بحث خاص .

وانظر إلى الجناس والطباق في شعر مسلم بن الوليد الذي يعد أول من سمى هذه المحسنات بالبديع ! كما يعد أول شاعر ظهرت هذه الألوان بوضوح في شعره . قال يمدح يزيد بن مزيد الشيباني :

يغشى الوغى وشهاب الموت في يده يرمي الفوارس والأبطال بالشعل
(يفتر) عند (افترار) الحرب (مبتسما) إذا (تغير) وجه الفارس البطل
موف على (مهج) في يوم ذي (رهج) كأنه (أجل) يسعى إلى (أمل)

واقرأ هذا الطباق الذي يعد أهم لون كان يستخدمه البحتري . إنه

طباق لا تعقيد فيه ولا تكلف ، ولكنه بسيط ساذج ، أشبه ما يكون بتداعى المعانى ، لا مشقة فيه ولا صعوبة :

منى وصل ومنك هجر	وفى ذل وفيك كبر
وما سواء إذا التقينا	سهل على خلة ووعر
قد كنت حراً وأنت عبد	فصرت عبداً وأنت حر
أنت نعيمى وأنت بؤسى	وقد يسوء الذى يسر

أما أبو تمام فقد كان لتأثره العميق بالفلسفة والثقافات الأجنبية ، يستخدم ألوان البديع استخداماً فلسفياً ، ويمزجها بالتصوير مزجا غريباً حتى يكد الذهن فى فهمه ، ويتعب العقل فى إدراكه .

إنه يصف بعيره وما أصابه من نحول وسقم لكثرة الأسفار فيقول :

رعته الفيافى بعد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

فلا تجد طباقا عاديا بين رعته ورعاها ، إنه بعير يرعى الفيافى وترعاه الفيافى ، وهكذا يمزج بين الطباق والاستعارة والتصوير .

وعلى هذا النحو قوله :

وأحسن من نور تفتحه الصبا بياض العطايا فى سواد المطالب

واقرأ له فى المشاكلة :

أظن الدمع فى خدى سيبقى رسوما من بكائى فى الرسوم

وكذلك كان جناسه يتكىء على التصوير ويلتف على التشبيه والاستعارة :

تطل الطلول الدمع فى كل موقف وتمثل بالصبر الديار الموائل
فقد سحبت فيها السحائب ذيلها وقد أخملت بالنور منها الخمائل

وكذلك (التدبيج) فى مثل قوله :

كأن سواد الليل ثم اخضراره طيالسة سود لها كفف خضر

وهكذا كان أبو تمام يغرب فى المحسنات إغرابه فى معانيه ، حتى إنها لتستنفد منه جهداً شاقا ، إذ يغرقها فى استعاراته وتصويره ، فيجللها الغموض.

ومن مطرف الجناس قول البحترى :

فإن صدفت عنا فربت أنفس صواد إلى تلك الوجوه الصوادف

ومن مقلوبه قول العباس بن الأحنف :

حسامك فيه للأحباب فتح ورمحك فيه للأعداء حتف

ب — وأما تأثير الغناء فى الشعر فى هذا العصر فهو أشد وضوحا . فقد كان للغناء — وهو من أظهر مظاهر هذه الحضارة — أثره فى انتقاء ألفاظ الشعر وجودة اختيارها ، وسهولة الأساليب ، وترقيق حاشية التراكيب .

وكانت مجالسه بجانب مجالس الأدب ، أو مندمجة فيها ، وقد استجاب الشعراء للمغنين ، فنظموا لهم المقطوعات الصغيرة التى تناسبهم ، وتخيروا لهم الألفاظ الرقيقة الرشيقة ، والأساليب السهلة الأنيقة ، والأوزان المستحدثة القصيرة ؛ وكان من أثر ذلك أن نما الشعر الغنائى المهذب الرقيق ، واحتفل الشعراء به ، وتسابقوا فيه ، وذهبوا فى ترقيق معانيه ، وتهذيب أساليبه كل مذهب ، حتى كان منهم من تخصص فيه ، كالعباس بن الأحنف ، الذى يقول عنه صاحب الأغانى : « لولا أن العباس أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاما وخاطرا ماقدر أن يكثر شعره فى مذهب واحد وبجوده » .

وقد أثر الغناء فى أوزان الشعر لأن المغنين كانوا يدخلون فى الغناء ألحانا فارسية ورومية ، فاضطر الشعراء أن يجددوا فى أوزانهم ، على النحو الذى سنتحدث عنه فيما بعد كما يلاحظ أنهم تجنبوا كثيراً — فى شعرهم الغنائى — الأوزان الطويلة ، وقصروها على الأوزان التقليدية الأخرى ، وأكثروا من البحور المجزوءة التى تلائم الغناء .

ويمكن أن نقول إن الغناء قد أثر فى الشعر بوجه عام ، غنائياً كان أو تقليدياً ، من حيث الموسيقى الداخلية ، التى تعنى اختيار الكلمات وترتيبها والمشاكلة بين أصواتها ومعانيها . ومن الممكن اعتبار البحترى أبرع شاعر يصور هذا الجانب . قال البافلانى : « إنه كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقداً شديداً (١) . . . وما يزال يتتبعها حتى يؤلف منها ألفاظا عذبة ، كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الحلى (٢) . اقرأ له فى رثاء المتوكل ، وانظر كيف اختار ألفاظه جزلة ضخمة ؛ لأنه ثائر غاضب كأن لها قعقعة السلاح ؟ وكيف ربط القوافى بالهاء الساكنة . فصوته ينطلق بالكلمات والمقاطع ، ثم ينخفض فجأة كالنائح المتعب :

محل على القاطول أخلق داثره ... وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
تغير حسن الجعفرى وأنسه ... وقوض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنـــه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواء دوره ومقابره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه ... وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهشكت ... على عجـــل أستار وستائره

واقرأ له :

لى حبيب قد لج فى الهجر جدا ... وأعاد الصدود منه وأبدى
يتأبى منعاً ، وينعم إسعا ... فا ، ويدنو وصلا ، ويبعد صداً
أغتدى راضياً وقد بت غضبا ... ن ، وأمسى مولى وأصبح عبداً
وبنفسى أفدى على كل حال ... شادناً لو يمس بالحسن أعدى
مر بى خالياً فأطمع فى الوص ... ل وعرضت بالسلام فردا
وثنى خـده إلى على خو ... ف فقبلت جلناراً وورداً
سيدى أنت ما تعرضت ظلماً ... فأجازى به ولا خنت عهداً

---

(١) إعجاز القرآن ١٠٦ . .
(٢) المثل السائر لابن الأثير ١٠٦ .

أترانى مستبدلا بك ما عشـ ـت بديلا أو واجدا منك ندا
حاش لله أنت أفتن ألحا ظا ، وأحلى شكلا ، وأحسن قدا

فأنت تراه قد استوفى كل ما يمكن من وسائل التفوق فى فن الصوت ، فقد كرر الجيم فى الشطر الأول ، وكرر الدال فى الثانى ، فأحدث فى البيت الأول توافقاً صوتياً ، وفى البيت الثانى يوفق بين الألفاظ ، فيأتى بكلمة (يتأبى) كأنها مشدودة إلى (ينعم) بهذا الرباط المحكم (منعاً) ،وعلى هذا النحو فى شطره الثانى . وانظر إلى الطباق بين يدنو ويبعد ووصلا وصدا . ثم انظر إلى إقبال كل كلمة أختها فى البيت الثالث ، كأن الكلمات من أسرة واحدة ، ثم إلى قوله : بنفسى أفدى وتشابكهما . وكذلك مافى الأبيات من طباق وتقسيم ومقابلة ، وما فى قوافيها من إحكام القرار ، واتحاد عدد الحروف والسكنات والحركات ، مما يسميه البديعيون بالتطريز ، وهكذا تجد الجوانب الموسيقية المعتددة (١) .

ج — أما اختلاط العرب بالعجم فهو أشد تأثيرا فى ألفاظ الشعر وفى أساليبه فى هذا العصر ، فلقد كان لاختلاط العرب بغيرهم من العناصر الأجنبية التى لها ثقافاتها ولغاتها وألفاظها واصطلاحات علومها وفلسفاتها . كان لهذا الاختلاط ، بل لهذا الامتزاج أثره فى ألفاظ الشعر إلى جانب آثاره فى نواحيه الأخرى :

١ — فقد شاعت فى الشعر ألفاظ فارسية بقيت على حالها أو عربت وصقلت ، وربما كان بقاؤها على حالها للتظرف والتفكه ، على نحو ما كان يصنع الأعشى وغيره من الشعراء .

يقول أبو نواس :

خبز إسماعيل كالوشـ ـى إذا ما شق يرفى

---

(١) راجع الفن ومذاهبه فى الشعر العربى لشوقى ضيف ٥٦ .

إن رفاك هـذا أحـذق الأمة كفا
فإذا قابل بالنصـ ـف من (الجردق) نصفا
أحـذق الصنعة حتى لاترى مغرز إشفى (١)

ويقول إبراهيم الموصلى :

إذا ما كنت يوما فى شجاها فقل للعبد يسقى القوم (يرا) (٢)

ويقول العمانى فى وصف من وقف بين الآساد :

لما هوى بين غياض الأسد وصار فى كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد (٣)

أما ماصقلوه وعربوه فكثير : كلفظ آذريون معرب آذركون، أى لون النار ويطلقونه على ورد أحمر الورق مع سواد الوسط أو اصفراره ، يقول ابن المعتز :

عيون آذريونها للشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

وكذلك نيروز معرب نوروز ، ونحو ذلك .

٢ — كما شاعت فى ألفاظ الشعر كذلك الاصطلاحات العلمية التى كانت تجرى على الألسنة فى العلوم الكلامية والفلسفية والكيمائية والهندسية ونحو ذلك . قال أبو نواس :

وذات خد مورد قوهية المتجرد
تأمل العين منها محاسناً ليس تنفد
فبعضها قد (تناهى) وبعضها (يتجدد)

---

(١) الجرد فى الرغيف معرب كردة : والأشفى المثقب .
(٢) اليرا لفظ فارسى معناه ملآن وهو بتشديد الراء .
(٣) آب سرد : هو الماء البارد .

ويقول أبو تمام فى الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الأفعال بالأسماء

ويقول :

هب من له شيء يريد حجابه ما بال لاشيء عليه حجاب

فعبر عن العدم بكلمة (لاشيء) الفلسفية .

ويقول :

صاغهم ذوالجلال من (جوهر) المجـ ـد وصاغ الأنام من (عوضه)

كما يقول :

لن ينال العلا (خصوصاً) من الفتيـ ـان من لم يكن نداه (عموما)

ويقول غيره :

محاسنه (هيولى) كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجال(١)

وعلى هذا النحو سار الشعراء بعد هذا العصر فى الاقتباس من المصطلحات حتى رأينا المتنبي يقول :

إذا كان ماتنويه فعلا مضارعا مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

د — ويجمل الأمر أن عوامل الحضارة والغناء والامتزاج أثرت تأثيرها فى لفظ الشعر وأسلوبه ، بما طرأ عليهما من رقة اللفظ ، وعذوبة الكلام ، وسجاحة التركيب ، وسهولة الأسلوب ، وإشراق الديباجة ، وجمال الاستعارة ولطف التشبيه ، واستحداث البديع والإكثار منه ، والإكثار من النظم فى البحور القصيرة ، وابتداع أوزان جديدة ، واستعمال الألفاظ

---

(١) الهيولى : الأصل .

والمصطلحات الأجنبية ، والعناية بمطالع القصائد وختامها ، والحرص على التناسب بين أجزاء القصيدة .

قال الحاتمى : « مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب ، غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه ، وتخفى معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناع من المحدثين ، يحترسون فى مثل هذه الحال حتى يقع الإتصال ، وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة ... وهذا مذهب اختص به المحدثون ، لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم .. » .

أما الذى هجر فهو اللفظ الخشن ، والكلمة الغريبة ، والتركيب المتوعر ، والاستهلال بذكر الأطلال .

أوزان الشعر وقوافيه فى هذا العصر

١ — حمل الغناء الشعراء على متابعة المغنين بتحرى الأوزان الملائمة للألحان ، وابتداع أوزان أخرى تساير فنون الموسيقى والغناء ؛ وقد رجع الخليل أوزان العرب إلى خمسة عشر بحراً ، وجعلها تلميذه الأخفش ستة عشر بإضافة المتدارك ؛ وراح الشعراء العباسيون يروجون الأوزان القديمة التى تناسب الغناء : كالمتقارب والهزج والرمل والخفيف ونحو ذلك ، فإذا ألموا بالبحور الطويلة نوعوا فيها أو جزأوها .

ولم يكتفوا بذلك ، بل أخذوا يخترعون أوزانا أوحى بها مزاجهم ، أودعا إليها فن الغناء ، فلمسلم بن الوليد قصيدة مطلعها :

يأيها المعمـــود قد شفك الصدود
فأنت مستهـام حالفـــك السهود

---

(١) راجع كتاب « البناء الفنى للقصيدة العربية » للخفاجى .

وأخرى مطلعها :

نبا به الوساد وامتنع الرقاد

وصنع سلم الخاسر أرجوزة يمدح بها موسى الهادى على جزء واحد :

موسى المطر غيث بكر عدل السير باقى الأثر

وهكذا ، ويقول ابن رشيق : إنه أول من ابتدع ذلك فى الرجز ؛ وكان أبو العتاهية مشغوفاً باستحداث هذه الأوزان . كان عند قصاب يوماً فسمع صوت مدقة ، فحكى ذلك فى ألفاظ شعره :

للمنـــون دائرا ت يدرن صرفها
ثم ينتقينا واحـــداً فواحداً

ولما روجع فى هذا قال : أنا أكبر من العروض ، وهو الذى يقول :

عتب ما للخيال خبرينى ومالى
لا أراه أتانى زائراً منذ ليالى

ومن العجيب أن يزعم أبو العلاء أنهم استحدثوا فى هذا العصر المقتضب والمضارع ، وأن الخليل قد سجلهما وليس لهما أصل فى الشعر العربى(١) .

مثال المقتضب قول أبى نواس :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

ومثال المضارع قول أبى العتاهية :

أيا عتب ما يضر ك أن تطلق صفادى

٢ — أما ما استحدثوه من الأوزان العامة ، فبعضه استنبطوه من دوائر البحور المعروفة ، وبعضه جاء على أوزان جديدة .

---

(١) الفصول والغايات ١٣٢

فالنوع الأول يشمل ما يلى :

١ — المستطيل ، وهو مقلوب الطويل (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن) مرتين :

لقدهاج اشتياقى غرير الطرف أحور أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

٢ — الممتد ، مقلوب المديد (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن) مرتين :

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال كلما زدت حبا زاد منى نفورا

٣ — المتوافر ، محرف الرمل (فاعلاتك فاعلاتك فاعلن) مرتين :

ما وقوفك بالركائب فى الطلل ما سؤالك عن حبيبك قد رحل

٤ — المتئد ، مقلوب المجتث (فاعلاتن فاعلاتن مستفع لن) مرتين :

كن لأخلاق التصابى مستمرياً ولأحوال الشباب مستحليا

٥ — المنسرد ، مقلوب المضارع (مفاعيلن مفاعيلن فاع لاتن) مرتين :

على العقل فعول فى كل شأن ودان كل من شئت أن تدانى

٦ — المطرد ، صورة أخرى من المضارع (فاع لاتن مفاعيلن مفاعيلن) مرتين .

ما على مستهام ريع بالصد فاشتكى ثم أبكانى من الوجد

وأما النوع الثانى ، فمنه :

١ — السلسلة (فعلن فعلاتن متفعلن فعلاتان) وهو من اختراعات البغداديين :

السحر بعينيك ماتحرك أو جال إلا ورمانى من الغرام بأوجال

٢ — الدوبيت ، وهو مأخوذ من الفارسية بدليل اسمه ، لأن (دو) بالفارسية معناها اثنان . وسمى بذلك لأنه ينظم ببيتين بيتين ، ووزنه (فعلن متفاعلن فعولن فعلن) :

قد أقسم من أحبه بالبارى أن يبعث طيفه مع الأسحار
يانار أشواقى به فاتقدى ليلا فعساه يهتدى بالنار

٣ — القوما وقد اخترعه البغداديون الذين كانوا يوقظون الناس للسحور فى رمضان ، ولعله مأخوذ من قولهم (قوما نسحر قوما) ، ووزنه (مستفعلن فعلان) ، ولغته ماحونة ، ومنه قول بعضهم :

يا من جنابه شديد ولطف رأيه سديد
ما زال برك يزيد على أفـــل العبيد
ولا عدمنا نوالك فى صوم وفطر وعيد

٤ — المواليا ، وهو فن لا تراعى فيه قوانين العربية دائما وهو على وزن البحر البسيط ، وأول من نظمه بعض صنائع البرامكة بعد أن نكبهم الرشيد وأمر ألا يرثوا بالشعر ، فرثتهم جارية بهذا الوزن ، وأخذ صنائعهم ينوحون عليهم به ، ويكثرون من قولهم (ياموالى) فعرف بهذا الإسم ، وهو مشهور بين عامة مصر بالموالى . وهو على أنواع ، فقد يجىء مصرعا كله ، وقد يختلف مصراع منه ، وقد يخالف بين مصاريعه ، على ما نراه فى المواويل البلدية :

يا عبد ابكى على فعل المعاصى ونوح هم فين جدودك أبوك آدم وبعده نوح
دنيا غرورة تجى لك فى صفة مركب ترمى حمولها على شط البحور وتروح

٥ — كان وكان ، وهو من اختراع البغداديين لنظم الحكايات والخرافات ثم استعمل فيما بعد للنصيحة والوعظ بحكاية ما كان وكان :

قم يا مقصر تضرع قبل أن يقولوا كان وكان
للبر تجرى الجـــوارى فى البحر كالأعلام

٦ — أما الموشح فهو أندلسى النشأة ، أول من ابتدعه هناك مقدم بن معافر من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى فى أواخر القرن الثالث ، ثم انتقل إلى المشرق بعد ذلك ، فهو إذن ليس من مستحدثات عصرنا الذى

ندرسه ، وهم ينظمونه أسماطا أسماطا ، وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة . ويسمون المتعـــدد منها بيتا ، ويلتزمون قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة وأكثر ما تنتهى إلى سبعة أبيات (١) وأوزانه كثيرة ، منها (مستفعلن فاعلن فعيل) :

ياجيرة الأبرق اليمان هل لى إلى وصلكم سبيل

ومنها (فاعلاتن فاعلن مستفعل فاعلن) :

كلى . . . . يا سحب تيجان الربا بالحلى
واجعلى . . . . سوارك منعطف الجدول

٧ — وكذلك الزجل ليس من مخترعات هذا العصر ، فإنه نشأ بعد نضج الموشحات ، إذ أخذ أهل الأمصار ينسجون على منوالها بلغتهم الحضرية من غير التزام إعراب ، وسموا هـذا النوع الزجل ، وأول من أبدع فيه ابن قزمان الأندلسى ، ولا حصر لأوزانه ، حتى قيل : صاحب ألف وزن ليس بزجال :

الفراق نار والوصال جنـة والخلايق بعضهم يعشق
ولهيب الهجر يتوقـــد والوصال م الملاح يشتق

٣ — ولقد تبع بعض هذه الأوزان ـ كما رأينا ـ تغيير طرأ على القافية فلم تعد تلتزم كما كان معروفا من قبل ، بل دعاهم الإفلات من قيود الوزن ، إلى الإفلات كذلك من قيود القافية . على أن من أظهر ما طرأ على القافية هو المسمط والمزدوج والمخمس .

١ — فالمسمط أن يبتدىء الشاعر ببيت مصرع ، ثم يأتى بأربعة أقسمة

---

(١) المقدمة لابن خلدون .

على غير قافيته ، ثم يعيد قسيما على قافية البيت الأول ، وهكذا . وربما خلا من البيت المصرع وكان على أقل من أربعة أقسمة . ومنه :

غزال هاج لى شجنا فبت مكابداً حزناً عميد القلب مرتهناً
بذكر اللهو والطرب
سبتنى ظبية عطل كأن رضابها عسل ينوء بخصرها كفل
ثقيل روادف الحقب

٢ — والمزدوج يتألف من شطرين من قافية ، ثم من آخرين من أخرى ، وهكذا ، كقول أبى العتاهية :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
مازالت الدنيا لنا أذى مزوجة الصفو بأنواع "القذى
إن الشباب حجة التصابى روائح الجنة فى الشباب

وهذه المزدوجة لأبى العتاهية تسمى ذات الأمثال ، وله فيها أربعة آلاف مثل .

٣ — والمخمس أن يؤتى بخمسة أقسام كلها من وزن واحد ، وخامسها بقافية مخالفة الأربعة قبله ، ثم بخمسة أخرى من الوزن دون القافية الأربعة الأولى ، ويتحد القسيم الخامس مع خامس الأولى فى القافية :

ورقيب يردد اللحظ ردا ليس يرضى سوى ازديادى بعدا
ساحر الطرف مذجنى الخد وردا إن يوما لناظرى قد تبدى
فتملا من حسنه تكحيلا
وتصد من خشه فى استباق يمنع اللحظ من جنى واعتناق
أيأس العين من لحاظ اعتناق قال جفنى لصنوه : لا تلاق
إن بينى وبين لقيـــاك مبلا

أخيلة الشعر ومعانيه فى هذا العصر

أثرت الحضارة بنوعيها : المادى ، والعقلى ، فى أخيلة الشعر ومعانيه فى هذا العصر تأثيراً بالغا .

١ — فأما تأثير الحضارة المادية فيهما فى هذا العصر فإنه قد وجد الشعراء فى مختلف مظاهر الحضارة المادية ، مادة لا تنقطع ، ومدداً لا ينفد . وذخراً لا ينتهى ، ومعيناً لا ينضب . فتنوعت معانيهم ، واتسعت أفكارهم ، وانفسح مجال أخيلتهم (١) ، وجادت تشبيهاتهم واستعاراتهم ، ولا بدع فهم يعيشون فى مدن تحفل بمظاهر الأبهة والترف ، وتعمر بفنون البهجة والبذخ ، وتزخر بمختلف المشاهد والصور ، وتكتظ بمجالى الطرف والسمر وتشرق بمغانى اللهو والغزل والمجون . . ذلك إلى طبيعة جميلة مزدهرة الرياض مترقرقة الجداول ، هاتفة الأطيار ، عاطرة الأجواء :

هذه الحضارة المادية خليقة بأن تفتق أكمام القريحة ، وتفجر ينبوع الشاعرية ، عسية أن تفتح مغالق الفكر ، وتفسح مجال الخيال ، جديرة بأن تذكى الإحساس بالحياة ، وتنمى الشعور بالجمال .. وإنما تستمد التشبيهات

---

(١) للخيال شأن كبير فى الأعمال العقلية وفى الحياة العملية نفسها ، فهو خطوة أولى أرقى من الإدراك الحسى ، ومن مجرد التذكر نفسه ، فالتخيل يعين على استغلال الماضى للمستقبل ، ولولاه لأصبحت الحياة فقيرة كل الفقر . ولكانت حياة الإنسان النفسية ضئيلة محدودة ، فهو الأصل فى تكوين المثل العليا ، وهو الذى يعيننا على فهم الحقائق والفنون .

وتبدو صور الخيال الشعرى فى : التشبيه والمجاز والكناية وحسن التعليل والمبالغة وما أشبه ذلك .

من المشاهد ، وتتجدد بتجدد المناظر ، وتتعدد بتعدد الصور ، وإنما يحلق الخيال حين يتهيأ له الأفق الرحب، وينطلق حيث يغريه الفضاء الفسيح الجميل .
اقرأ أثر الحضارة فى التشبيه والخيال عند البحترى وهو يصف الحسان :

لما مشين بذى الأراك تشابهت ... أعطاف قضبان به وقدود
فى حلتى حبر وروض فالتقى ... وشيان : وشى ربا ووشى برود
وسفرن فامتلأت عيون راقها ... وردان : ورد جنى وورد خدود
وضحكن فاغترف الأقاحى من ندى ... غض وسلسال الرضاب برود(١)

واقرأ وصف أبى نواس للعب بالصولجان والكرة :

جن على جن وإن كانوا بشر ... كأنما خيطوا عليها بالإبر
أو سمر الفارس فيها فانسمر ... بين رياض مثل موشى الحبر
مكللات ببهار وزهر ... فانتدبوا فى يوم قر وخصر(٢)
إذ ذر قرن الشمس فى غب مطر ... صوالجاً يصبو إليها من نظر
فلم يعب طول ولا شان قصر ... وقد تنادوا فتراموا بالأكر
أحكمها صانعها لما فطر ... ألطف بالإشفاء خرزاً إذ دسر(٣)
فليس للإشفاء بالجلد أثر ... يحسبن تفاحا تدلى من شجر

وأبو نواس هو الذى ألبس الدمن ثوب الحضارة فقال :

لمن دمن تزداد حسن رسوم ... على طول ما أقوت وطيب نسيم
تجافى البلى عنهن حتى كأنما ... لبسن على الأقواء ثوب نعيم

ولقد كان القدماء يشبهون الحلم بالجبال ويزنونه بها :

---

(١) أى لما ضحكن ظهرت أسنانهن كالأقحوان وقد امتلأ بالندى ، ندى الأسنان وريقها .
(٢) القر : البرد . وكذا الخصر .
(٣) فطر ، شق . الأشفاء . مخرز يثقب به . ودسر . ثقب وطعن .

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

ولكن المتحضر غير البدوى، والحلم فى بغداد وفى القرن الثالث الهجرى غير الحلم فى البصرة وفى القرن الأول : فالحليم الحضرى هو الذى يبتسم لكبار الحوادث ، ويتحدث عنها حديثاً يفيض رقة وظرفاً ، حتى كأنه برد رقيق الحواشى ، كهذا البرد الذى استعاره أبو تمام المتحضر للحلم الحضرى، حيث يقول :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ماماريت فى أنه برد(١)

وهكذا تعمل الحضارة المادية عملها فى تنويع التشبيه ، وتعدد الاستعارة وتجدد المعنى واختراعه ، وسمو الخيال وإبداعه .

٢ — وأما الحضارة العقلية التى أتيحت للشعراء العباسيين ، والتى كانت نتيجة الاختلاط والامتزاج ، والتأثر بمختلف الثقافات . فقد أثرت أثرها البالغ فى معانى الشعر وأخيلته ، إذ أكسبتها ماامتازت به العقليات الأجنبية من عمق التفكير ، وبراعة التحليل ، وكثرة الاستطراد ، واستيعاب المعانى ، وترتيب الأفكار ، وظهر أثر اللقاح واضحاً جلياً فيها ، من حيث الدقة والعمق ، والتحليل والتفصيل ، والابتكار والتجديد ، والترتيب والتنسيق ، والتأثر بالمنطق وأقيسته ، والفلسفة وآرائها .

وهكذا جددت الحضارة المادية والعقلية من الشعر ، فأمدته بالخيال الخصب ، والفكر العميق . والمعنى الدقيق ، ولونته بألوان زاهية كثيرة من التشبيه والاستعارة ، وصبغته بأصباغ طريفة جديدة من الثقافة والفلسفة ، ومزجته بحكمة الهند وأدب الفرس وتأمل اليونان .

ولهذا جاء الشعراء العباسيون بالمرتص المطرب ، الذى يهز المشاعر ،

---

(١) راجع ما كتبه الدكتور طه حسين (من حديث الشعر والنثر) .

ويطير بالقلوب حتى قال أبو الفتح عثمان بن جنى : المولدون يستشهد بهم فى المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ .

فإن كان المتقدمون قد استقلوا بصحة الأداء ومتانة التعبير وحجة القول فإن للمحدثين فضل المعنى الجيد ، والخيال المحلق ، والفكر المنسق .

وسوف نعرض بشىء من التفصيل لأهم ماطرأ على معانى الشعر وأخيلته ، من مظاهر التأثر بهذه الحضارة وألوانها المختلفة :

١ — التجديد فى المعانى القديمة : فقد تناول الشعراء العباسيون معانى السابقين ، فتصرفوا فيها بما توحيه بيئتهم وحضارتهم ، وما يمليه تفكيرهم وثقافتهم ، وحوروا فيها بالزيادة والنقص ، والإيجاز والاطناب والإجمال والتفصيل والتوليد والتحليل والدقة والاستدراك ، حتى صبغوها بصبغتهم وألبسوها ثوب الجدة والطرافة ، فبدت جديدة كأنها من صنعهم ، طريفة كأنها من اختراعهم ، وبهذا سبقوا الأولين ، وبذوهم فى مضمار التنافس والسباق .

يصف النابغة قدرة النعمان ، ويبين أنه لامنجى منه ولا عاصم ؛ فيقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فيجد الشاعر العباسى أن الليل والنهار يتساويان فيما يدركان ، وأنه كان ينبغى أن يأتى النابغة بما لا قسم له ، حتى يأتى بمعنى مفرد ، وهكذا يقول سلم الخاسر :

فأنت كالدهر مبثوثاً حبائله ... والدهر لاملجأ منه ولا هرب

ولو ملكت عنان الريح أصرفها ... فى كل ناحية مافاتك الطلب

ويقول البحترى :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ... ينجيهم من خوف بأسك مهرب

وكان الفرزدق يقول فى ناقته :

علام تلفتين وأنت تحتى ... وخير الناس كلهمو أمامى
متى تأتى الرصافة تستريحى ... من الأنساع والدبر الدوامى (١)

فيجعل جزاءها على بلوغ الممدوح أن يريحها من الأنساع والدبر ، أما أبو نواس فإنه يسخو فى الجزاء سروراً بلقاء الممدوح ، فيطلق راحلته ، ويحرم ظهرها على الركاب ، ويخلع على المعنى بعد ذلك رداء رقيقاً شفافاً من اللفظ والأسلوب :

وإذا المطى بنا بلغن محمداً ... فظهورهن على الرجال حرام

وكان الشعراء من قديم يصفون ممدوحيهم بالبأس والظفر فى القتال ، ويتخيلون أن الطير قد ألفت ظفرهم حتى إنها لتتبعهم فى كل غزاة ، وتحلق فوقهم فى كل ميدان ، ثقة منها بأنها ستغدو معهم خماصاً وتروح بطاناً من لحوم الأعداء ، قال الأفوه الأودى :

وترى الطير على آثارنا ... رأى عين ثقة أن ستمار

وقال النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله ... إذا ما التقى الجمعان أول غالب

فقال أبو نواس :

تتأبى الطـــير غزوته ... ثقة بالشبع من جزره (٢)

فكان فى إيجازه أبلغ مدحاً وأدق معنى . إذ صرح بأن شبعها سيكون

---

(١) الأنساع : جمع نسع وهو سير يشد به الرحل . والدبر بفتحتين : قرح الدابة جمع دبرة .

(٢) تتأبى : تنتظر . الجزر بالتحريك اللحم أو قطعه .

من لحم أعدائه بقوله (من جزره) ثم إنه لم يكتف بتحليقها وقت الغزوة، بل جعلها تتأبى الغزو وتتتبعه، أما مسلم بن الوليد فإنه جعل ممدوحه يعود الطير الشبع، إنها لتتبعه فى كل رحلة ولو لم تكن رحلة حرب:

قد عود الطير عادات وثقن بها ... فهن يتبعنه فى كل مرتحل

ويجىء أبو تمام فيفصل هذا التفصيل.

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى ... بعقبان طير فى الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها ... من الجيش إلا أنها لم تقاتل

فجعلها تنهل فى الدماء، وتقيم مع الرايات، وإن لم تقاتل، وهذه زيادات لابد أن تقع فى ذهن شاعر كأبى تمام يحلل ويستوعب.

وكان جرير يقول:

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناس كلهمو غضابا

فقال أبو نواس:

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

فجعل ممدوحه الفرد العالم كله، على حين جعل جرير القبيلة هى الناس كلهم، على أن العالم أشمل وأعم من الناس، وهكذا يكون بيت أبى نواس أبلغ وأعم وأبعد فى المبالغة، إلى أنه سيق مساق الحكم والكلمات الجامعة.

ولقد قال المعذل بن غيلان قديماً.

ولست بنظار إلى جانب الغنى ... إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

فجاء أبو تمام وقال:

يصد عن الدنيا إذا عن سؤدد ... ولو برزت فى زى عذراء ناهد

فزاد فى تصوير الدنيا وإغراء الغنى قوله: «ولو برزت...»، فجدد

بذلك المعنى ، حتى كاد يستبد به ، وهكذا تحس بجدة القديم ، وطرافة التليد ، وتشعر بحسن تصرف العباسيين فى المعانى القديمة ، حتى ليكادون يستقلون بها ، ويستبدون بنسبتها .

٢ — ابتكار المعانى ودقتها : أما المعانى الجديدة التى ابتكروها ابتكاراً واستنبطوها استنباطاً ، وخلقوها خلقاً ، فإنها تعيى الحصر ، وتفوق العد . ولابدع فقد كثرت بكثرة المشاهدات ، وتعددت بتعدد المناظر ، وتنوعت بتنوع الحضارة ، وتلونت بألوان الثقافة . فكل ماجد فى حياة الشعراء من طبيعة متبرجة ، وحضارة زاهرة ، ومدنية وارفة ، وعادات طارئة ، ألهمهم جديد المعنى ، ومبتكر الخيال وكل ماوقع فى أفكارهم من ثقافة وحكمة وفلسفة أكسبهم استقصاء المعانى فى دقة وعمق تفكير ، ولهذا زخر شعرهم وامتلأ أدبهم بكل جديد دقيق .

ألا ترى أبا تمام كيف يجعل عطايا الممدوح فى حاجة إلى تعويذة ؟ وماتعويذتها ؟ إنها نغمة الطالب ، وسؤال السائل :

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب

وهل كنت تسمع بعشق الأذن قبل بشار ! :

ياقوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا: بمن لاترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ماكانا

وما رأيك فى هذا التشبيه الجديد : أبو نواس يمدح الخمر ولا يشربها خوفا من الخليفة ، كتقعدى الخوارج ، يحرض على الخروج ولايحمل السلاح؟

فكأنى بما أزين منها قعدى يزين التحكيما
كل عن حمله السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق ألا يقيما

ويقول أبو تمام فى فضل الحاسد على المحسود :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

ويصف أبو نواس كؤوس الصهباء ، فيبعث النشوة فى نفوس سامعيه :

فى كؤوس كأنهن نجوم دائرات بروجها أيدينا
طالعات مع السقاة علينا فإذا ماغربن يغربن فينا

وهذا مسلم بن الوليد يستحسن إساءة الواشى ، فيأتى بجديد ، ويغرب فى التفكير :

ياواشياً حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الغرق

ولاغرو فهو صاحب المعنى الدقيق والفكر الطريف ، أليس هو القائل :

أما الهجاء فدق عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل

وأخيراً يقول ابن الرومى :

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فظل يهيم
فالوت إن نظرت وإن هى أعرضت وقع السهام ونزعهن أليم

٣ — استقصاء المعانى وتحليلها : ويتصل بهذه الدقة فى معانى الشعر العباسى ، تحليل المعنى وشرحه وتفصيله ، واستقصاء كل مايتصل به ، واستيفاء عناصره وألوانه وظلاله ، حتى كان هذا الاستقصاء يضطر الشعراء إلى الاستطراد ، ومن هنا طالت أنفاسهم فى القصائد طولا يلفت النظر ، ويدعو إلى العجب . وليس ذلك إلا من أثر الثقافة والفلسفة واتساع الأفكار ، وتتابع المعانى بتتابع الصور والمشاهدات :

ولقد مرت بنا — وستأتى — أمثلة ، استوفى الشاعر فيها المعنى بتحليله واستيفاء عناصره ، وهذا مثل لإسحاق بن إبراهيم الموصلى ، يتجلى فيه المعنى الجديد الدقيق المفصل :

أخاف عليها العين من طول وصلها فأهجرها الشهرين خوفا من الهجر

وما كان هجرانى لها عن ملامة ... ولكننى أملت عاقبة الصبر
أفكر فى قلبى بأى عقوبة ... أعاقبه فيها ارضى فما أدرى
سوى هجرها والهجر فيه دماره ... فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن خاف الندى أن يبله ... فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

وكان يكفى أبا تمام أن يكذب المنجمين الذين قالوا : إن المعتصم لا يفتح عمورية ، فيقول : إن السيف أصدق من الكتب والمنجمين ، ولكنه أخذ يشرح ويحلل على هذا النحو :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

وهكذا كانوا يشبعون المعنى ، ويحللونه ويفصلونه ، ويحتجون بالبراهين والأدلة ، ويعرضونه فى صور مختلفة ، ومعارض متعددة ، ويقلبونه على كل وجه ، ويسلكون به كل سبيل . وذلك كله بفضل ما أمدتهم به الفلسفة والعلوم العقلية من قدرة على التفسير والتحليل ، وما أسعفتهم به الحضارة من وفرة المعانى والأفكار .

ومازالت هذه الظاهرة تشيع وتتسع حتى بلغت نهايتها — وقد تم التأثر بالثقافة والحضارة — فى أواخر هذا العصر . فرأينا قصائد الشعراء تطول طولا عجيبا ، بسبب هذا التحليل والتفصيل ، وإشباع المعانى بالأدلة ، وعرضها فى مختلف الصور ، وحسبك أن تقرأ قصائد ابن الرومى لترى كيف استقرت هذه الظاهرة فى شعره .

قال يحسن الحقد ويزكيه :

لئن كنت فى حفظى لما أنا مودع ... من الخير والشر انتحيت على عرضى
لما عبتنى إلا بفضل إبانة ... ورب امرىء يزرى على خلق محض

ولا عيب أن تجرى القروض بمثلها ... بل العيب أن تدّان دينا ولا تقضى
وخير سجيات الرجال سجية ... توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع ... من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
ولا الحقود المستكنات لم يكن ... لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقض
وما الحقد إلا نوأم الشكر فى الفتى ... وبعض السجايا ينتهين إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذى إساءة ... فثم ترى شكرا على حسن القرض

٤ — قوة التصوير وبعد الخيال : وقد وجد الشعراء فى الحضارة المادية ينبوعا ثجاجا للصور ، وأفقاً فسيحا للخيال ، وأعانتهم الحضارة العقلية بأفكارها العميقة ، وخيالاتها المبدعة ، وتصاويرها الفنية ، على أن يأتوا بكل عجيب يبهر ببراعة الوصف ، ويسحر بروعة التصوير ، ويطير بالألباب فى مطارح الخيال .

يقول بشار فى وصف الجيش والقتال وهو أعمى :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى ... وبالشوك والخطى حمر ثعالبه(١)
غدونا له والشمس فى خدر أمها ... تطالعنا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ... وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رءوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

واقرأ هذه الصورة الرائعة للهيبة من جلال الممدوح ، التى صورها البحترى فاستوفى كل عناصر الإجلال والجلال ، وجمع كل ألوان العظمة والمجد ، إذ صور الحجاب يقومون على سدة الممدوح ، فلا يدخلون أحدا إلا بإذن ، فلما أذن له ودخل ، لم يدر كيف دخل ، لما طالعه من هيبة ،

---

(١) الحصى : العدد الكثير ، الشوك جمع شوكة : السلاح ، الخطى : الرمح ، الثعلب طرف الرمح .

وغمره من جلال ، فانعقد لسانه وبهر جنانه ، ولا ينطقه إلا ما آنسه من بشاشة الممدوح ، وتهلل أساريره ، وحينئذ دنا فقبل يده ، بل قبل الندى فى يده ، بل فى يد امرىء كريم محياه ، سباط أنامله :

ولما حضرنا سدة الأذن أخرت ... رجال من الباب الذى أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة ... أقابل بدر التم حين أقابله
وسلمت فاعتاقت جنانى هيبة ... تنازعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملت الطلاقة وانثنى ... إلى ببشر آنستنى مخايله
دنوت فقبلت الندى فى يد امرىء ... كريم محياه سباط أنامله

وسنقرأ كثيراً من وصف البحترى الذى تتجلى فيه البراعة وروعة التصوير ، فلنرجع إلى بشار لنرى تصويره لفؤاد المضطرب وعين الساهر :

كأن فؤاده كرة ترامى ... حذار البين لو نفع الحذار
يروعه السرار بكل شىء ... مخافة أن يكون به السرار
جفت عينى عن التغميض حتى ... كأن جفونها عنها قصار

ونترك هذه الصور الواضحة مع مافيها من براعة الوصف ، وسمو الخيال . ونتزود منها بوصف البحترى لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديث :

ولما التقينا واللوى موعدنا ... تعجب رائى الدر حسناً ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ... ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

إلى أبى تمام حيث يمثل مذهب الغموض فى الصور ، والإغراق فى التصوير ، والشرود فى الخيال ، وحيث تطالعنا فى شعره تلك الأشباح المتجهمة والصور القاتمة ، على مافيها من سحر تصوير ، وتهاويل خيال .

ولابدع فأبو تمام يتنفس الدم فى معانيه ، لأنه غرق فى الفلسفة إلى أذنيه وكان أكثر الشعراء تأثراً بها . ولئن كان البحترى قد تتلمذ عليه فإن طبيعته البدوية لم تسغ هذه الفلسفات العميقة ، ومن ثم وقف تأثره به عند

الجوانب الظاهرة لقد برع الشعراء العباسيون فى التصوير وتجسيم الخيال، وإلباس المعنويات ثوب الحسيات ، وإنطاق الطبيعة والجماد ، حتى لترى الروض يتحدث ، والجماد يتحرك . ولكن أباتمام أوغل فى ذلك التجسيم ، ولم يكتف بذلك ، بل ركب فى الصور ، ومزج بين الاستعارات . فالصورة تعتمد على صورة ، والاستعارة تتكىء على استعارة ، وكل ذلك يلتف على ما كان يولع به من جناس وطباق ونحو ذلك من ألوان التصنيع ، حتى جلل الغموض معظم صوره .

قال يصف السحاب ويخلع عليه صفات الأحياء :

سحاب إذا ألقت على خلفه الصبا ... يداً قالت الدنيا أنى قاتل المحل
إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى ... له تبعا أو يرتدى الروض بالبقل
إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت ... بطون الثرى منه وشيكا على حمل

وقال يصف روضا :

ومعرس للغيث تخفق فوقه ... رايات كل دجنة وطفاء
نشرت حدائقه فصرن مآلفاً ... لطرائف الأنواء والأنداء
فسقاه مسك الطل كافور الندى ... وانحل فيه خيط كل سماء

فقد عبر عن السحب التى يتلألأ البرق فى أطرافها بالرايات المطرزة التى تخفق بالريح . ولكن ماهذه الصورة المركبة فى الشطر الأول من البيت الثالث ؟ أما مسك الطل فهو رائحة الروض العطرية التى تكون بعد الطل ، وأما كافور الندى فهو الرشاش الذى يكون على أوراق الروض كالكافور ، إنها صورة معقدة على كل حال .

وانظر كيف يعطى لصوره ألوانا حسية ملموسة :

كأن سواد الليل ثم اخضراره ... طيالسة سود لها كفف خضر
، لا تبعدن أبداً وإن تبعد فما ... أخلاقك الخضر الربى بأباعد

نضى ضوؤها صبغ الدجنة فانطوى ... لبهجتها ثوب الظلام المجزع
، راحت غوانى الحى عنك غوانيا ... يلبسن نأيا تارة وصدودا

واقرأ هذا التشخيص :

حتى إذا اسود الزمان توضحوا ... فيه فغودر وهو فيهم أبلق
، لدى ملك من أيكة الجود لم يزل ... على كبد المعروف من فعله برد
، سلوت إن كنت أدرى ما تقول إذن ... جعلت أنمله الأحزان فى أذنى
، تطل الطلول الدمع فى كل موقف ... وتمثل بالصبر الديار الموائل
، دوارس لم يجف الربيع ربوعها ... ولا مر فى أغفالها وهو غافل

وأخيرا يقول فى وصف الربيع :

لما بكت مقل السحاب حيا ... ضحكت حواشى خده الترب
فكأنه صبح تبسم عن ... سحر ضئيل فى ضحى شحب

فإذا انتهينا إلى آخر هذا العصر ، وجدنا فن التصوير الشعرى يستكمل كل أدواته وأصباغه ، ورأينا الشاعر يتخير لموضوعه ما يناسبه من المرائى المتعددة والمشاهد المتتابعة ، التى تمر أمام ناظره ، ورأينا الحضارة وقد صقلت حسه ، وفتقت ذهنه ، والثقافة وقد أورثته الدقة وعمق التفكير ، حتى نرى فنه قد استوى واستكمل عناصره . وهذا ابن الرومى يسلط عدسة تصويره على أحدب ، فلا يترك عنصراً ولا يدع لوناً أو ظلا ، وإنما يستوفى كل ذلك حتى تخرج الصورة ناطقة واضحة ، فعنق الأحدب قصير لقصر أخدعه أى عرقه ، ومؤخر رأسه غائب وغائص بين كتفيه ، وهو متوقع أن يصفع ، وذلك مما يزيد فى انكماشه خوفا من الصفع بل كأنه صفع قبل ذلك ، فذاق ألم الصفع فهو لذلك أشد انكماشا :

قصرت أخادعه وغاب قذاله ... فكأنه متربص أن يصفعا

وكأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا

أرأيت إلى هذه الصورة الناطقة ؟ . . . إنه فن التصوير عند ابن الرومى ، اقرأ تصويره لمغن قبيح الصوت :

وتحسب العين فكيه إذا اختلفا عند التنغم فكى بغل طحان

وتصويره للبخيل :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

٥ — التأثر بالفلسفة والثقافات المختلفة : ومن الظواهر التى نلاحظها فى الشعر العباسى تأثره فى معانيه بالأفكار الفلسفية العميقة ، والثقافات المتنوعة التى اصطبغ بها هذا العصر ، ولو ذهبنا نتتبع هذه الظواهر لطال بنا البحث ، وتشعبت مسالكه ، فحسبنا أن نعرض بعضها الآن : يقول أبو تمام :

فلو صح قول الجعفرية فى الذى تنص من الإلهام خلناك ملهما

والجعفرية قوم من الشيعة ينسبون إلى جعفر بن محمد ويدعون له الإلهام .

ويقول أبو نواس متأثراً بالثقافة الهندية التى عمادها النجوم والرياضة ، فى وصف الخمر :

تخيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار

يريد أنها تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب والنجوم يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقعة فى برج ، ثم سيرها من هناك . ويقول :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقلل وأكثر فأنت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج بارد حار

والهند يزعمون أن الشيء إذا أفرط فى البرد عاد حاراً .

وكان تأثير الثقافة الفارسية واضحا فى الحكم الكثيرة التى كانت تنقل عن الفرس ، حتى ليقال إنه اجتمع فى ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم ، كما كان تأثيرها جلياً فى الصور والأخيلة الدقيقة ، إذ كان الشعراء ينظمون مايتسرب إليهم من الصور الفارسية ، على نحو ماذكروا من أن كسرى كان يقول فى وصف النرجس : إنه ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فنظم ذلك شاعر عباسى ، وقال :

وياقوتة صفراء فى رأس درة مركبة فى قائم من زبرجد
كأن بقايا الطل فى جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

ويقول أبو العتاهية فى الزهد والحكم :

ياعجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم معبر
لا فخر إلا فخر أهل التقى غداً إذا ضمهم المحشر
عجبت للإنسان فى فخره وهو غداً فى قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

أما الثقافة اليونانية فهى أعمق أثراً ، وأوسع مدى فى معانى الشعر . لما امتازت به من الدقة والعمق والتحليل : فهذا نوع من الغزل الواهم يتأثر فيه الحسين بن الضحاك بعناصر أفلاطونية ، وتظهر فيه الصياغة الذهنية :

إن من لا أرى وليس يرانى نصب عينى ممثل بالأمانى
بأبى من ضميره وضميرى أبداً بالمغيب ينتجيان
نحن شخصان إن نظرنا وروحا ن إذا ما اختبرت يمتزجان
فإذا ماهممت بالأمر أو هم بشىء بدأته ويدانى

كان وفقاً ما كان منه ومنى فكأنى حكيته وحكانى

ويقول أبو نواس فى الخمر :

وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبه الشك

ويقول :

صفت وصفت زجاجها عليها كمعنى دق فى ذهن لطيف

ولقد حكى الآمدى أن بعض نقدة الشعر سمع قول العباس بن الأحنف:

وصالكموهجروحبكمو قلى وعطفكموصد وسلمكمو حرب

وأنتم بحمد الله فيكم فظاظة وكل ذلول من مراكبكم صعب

فقال : هذا والله أحسن من تقسيمات إقليدس (١) : ويقسم بشار العمى على هذا النحو :

وعى الفعال كعى المقال وفى الصمت عى كعى الكلم

وتستمر فى هذا التتبع ، فتجد الفلسفة بغموضها وعمقها وتناقضها تسرى إلى المعانى ، فتجمع بين المتنافر ، وتؤلف بين الأضداد ، وتأتى بالغريب العجيب . كيف يهلك الشىء نفسه ؟ . يقول أبو تمام :

صيغت له شيمة غراء من ذهب لكنها أهلك الأشياء للذهب

وماذا تنتظر من أبى تمام إلا أن يجعل النور مظلماً ، والظلام منيراً ، والصحو مطراً . والمطر صحواً :

بيضاء تسرى فى الظلام فيكتسى نوراً وتسرب فى الضياء فيظلم

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من النضارة يمطر

---

(١) اليتيمة ١ : ١٦٦

إنه أبو تمام الذى يجمع بين المتنافرات ، ويأتى بالمعنى الغريب غير المألوف ، ثم يفرغ هذا الفن الفلسفى فى أوعية البديع .

ويقول بشار :

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ف ولكن يلذ طعم العطاء

فتجد فكرة طريفة وقعت فى ذهن الشاعر العباسى ، إذ يجعل العطاء بدون غاية مألوفة .

٦ — استخدام البراهين العقلية وحسن التعليل : وكأنهم أحسوا بهذه الغرابة غير المألوفة ، وهم فى مجتمع يموج بالحوار والنقاش ، فاحتاجوا إلى البراهين العقلية ، والأقيسة المنطقية ، يدعمون بها المعنى الغريب العميق ، ويقربونه إلى المألوف

قال بشار يشرح الإغضاء عن هفوات الصديق ، ويبرهن على خطأ تتبعها :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه مقارف ذنب تارة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وكان أبو تمام يمدح أحمد بن المعتصم ، حتى قال :

إقدام عمر فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فقال بعض الحاضرين : الأمير فوق من وصفت : فارتجل أبو تمام هذا الدليل :

لاتنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

وأبو تمام هو الذى يقول :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فانى رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ويقول :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

ويقول البحترى :

دنوت تواضعاً وعلوت مجدا فشـــأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

ويقول :

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلائق أصفار من الحسن خيب
وحسن درارى الكواكب أن ترى طوالع فى داج من الليل غيهب

ولهذا شاع فى شعرهم حسن التعليل ، وكثر فى أدبهم كثرة ظاهرة .

قال أبو تمام :

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ ـدى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يجف بعد اخضرار قبل روض الوهاد روض الروابى

ويقول :

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

وتطرد هذه الظاهرة ، حتى نرى الشعراء يكلفون بها تبعاً لتكلفهم بتحليل المعانى وشرحها ، فنجد ابن الرومى يطلع علينا بمعنى جديد ، إذ يجعل الإسهاب فى الثناء والمدح هجاء للممدوح ويعلل ذلك أحسن تعليل ، ويفسره بأن المادح يرى أنه لاينتزع عطاء ممدوحه بسهولة لبخله ، بل لابد من أن يطيل الأسباب ليصل إليه ، كما يطيل الحبل إذا استقى من بئر بعيدة الماء :

وإذا امرؤ مدح امرء لنواله ... وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى ... عند الورود لما أطال رشاءه

ووجدناه يقول :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدد

٧ — كثرة الحكم والأمثال : وقد شاعت الحكم والأمثال فى شعرهم ، اقتباساً مما ترجم عن الفرس ، أو من الثقافات الأخرى ، أو ابتكاراً واختراعاً واستنباطاً ، وقد كان فى شعر صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب ومثلها للعجم كما قلنا ، وكان لأبى العتاهية أرجوزة بها أربعة آلاف حكمة .

قال بشار :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم

وقال صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى فى ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله ... كذى الضنى عاد إلى نكسه
وإن من أدبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً ... بعد الذى أبصرت من يبسه

٨ — المبالغة والتهويل : وهى ظاهرة تشيع فى شعر المولدين ممن خالطوا الفرس أو نبتوا من أصول فارسية ، وللفرس غرام بالمبالغة وولع بالتهويل والاغراق ، وقد كان لشعرائهم ورجالاتهم فى هذا العصر مقام كبير لدى

الخلفاء ونفوذ عظيم ، دفعا الشعراء الآخرين إلى محاكاتهم والتأثر بهم فانساق الجميع إلى المبالغة ، وأكثروا منها فى المدح بنوع خاص ، طمعاً فى جزيل الهبات ، وسنى الجوائز .

وينبغى ألا نغفل سبباً آخر ساعد على المبالغة والغلو ، ذلك هو تزاحم المعانى وتفتح آفاقها بتأثير الحضارة ، واتساع مناحى التفكير بتأثير الثقافة والفلسفة ، وتسابق الشعراء وتنافسهم فى ميدان الحظوة والعطاء .

على أن هذه الظاهرة قد ظلت محتفظة بشىء من التعقل والاتزان ، حتى كان العصر التالى ، فجانبت كل إمكان ، وجانت كل مألوف ، واندفع فى تيارها جميع الشعراء .

وكان خلفاء هذا العصر يشجعون على المبالغة ، ولا يطربهم إلا التهويل ، وقد مر بنا أن الشعراء لما اجتمعوا بباب المعتصم لم يقبل منهم إلا من يحسن أن يقول كما قال منصور النمرى فى الرشيد .

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع . . الخ

فقام محمد بن وهيب وأنشد قصيدته :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

وفيها يقول :

فالخلق جسم له رأس يدبره وأنت جارحتاه : السمع والبصر

واقرأ وصف أبى تمام للمعتصم يوم عمورية ، واعجب واطرب لهذه المبالغة : جيش من الرعب يتقدمه إلى الأعداء فيفزعهم ، ونفسه وحدها جيش يغنيه عن قيادة الجيوش :

لم يغز قوماً ولم ينهض إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها فى جحفل لجب

ولكنها مبالغة معقولة ، فكم من بطل نصر بالرعب ، وغزا بقوة الروح وبسالة العزيمة ، ويقول البحترى فى المتوكل :

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى إليك المنبر

فنجد مبالغة ولكنها فى حدود الإمكان ، ويقول أبو نواس فى الهجاء :

رأيت قدور الناس سوداً من الصلى ... وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
يبيتهـا للمعتفى بفنائهم ... ثلاث كنقط الثاء من نقط الحبر (١)
إذا ماتنادوا بالرحيل سعى بها ... أمامهم الحولى من ولد الذر
ولو جئنها ملآ عبيطاً جزورها ... لأخرجت مافيها على طرف الظفر

ويقول بشار الضخم :

إن فى بردى جسما ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدم

ومهما يكن من شىء فإن هذه المبالغات أهون وأيسر من المبالغات التى ظهرت فيما بعد فى شعر المتنبى وغيره .

٩ — تمحيص الأفكار وترتيبها : وأخيرا لقدتهيأ لشعراء هذا العصر من أسباب الحضارة وألوان الثقافة وعمق الفلسفة ودقة المنطق ، مانمى أذواقهم ورقى إحساسهم ، وهذب أفكارهم ، ونسق معانيهم ، فجاءت أفكارهم محصة ، وعناصرهم منظمة ، ومعانيهم متسقة مرتبة . نقرأ قصائدهم فلا نجد نبوا فى الفكرة ، ولا خللا فى المعنى ، ولا اقتضابا فى الغرض ، ولا اضطرابا فى السياق ، وإنما نجد القصيدة بناء واحدا وهيكلا سليما ، وموضوعا متلاحم النسج ، مرتب العناصر .

وقد قرأت وستقرأ كثيرا من القصائد ، يتبين لك فيها حسن الربط بين

---

(١) يريد أن القدر صغيرة جداً حتى إن حواملها الثلاث كنقط الثاء .

المعانى لكثرتها عندهم ، وصدورها عن فكر مرتب وخيال مهذب . كما يتجلى لك فيها التمحيص والتهذيب من شغفهم بالغوص على المعانى واستيفاء عناصرها وترتيب نتائجها على مقدماتها . وهنا تتجلى براعتهم فى الانتقال من غرض إلى غرض ، بما يسمى « حسن التخلص » ، وهو يعتمد خلق المناسبة بين المعنيين ، وإيجاد الصلة بين الغرضين ، حتى يوحد بينهما فى رفق ولطف ودقة ، فلا يكون بينهما شرود أو تقطع أو اقتضاب .

استهل أبو تمام قصيدته فى مدح المعتصم بوصف الربيع ، ثم تخلص إلى المدح هكذا :

خلق أطل من الربيع كأنه ... خلق الأمام وهديه المتنشر

وكان أبو اس يقول :

تقول التى من بيتها خف مركبى ... يعز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب ؟ ... بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى من جريهن غدير
دعينى أكثر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيها الخصيب أمير
فتى يشترى حسن الثناء بماله ... ويعلم أن النائبات تدور

وقال مسلم فى يحيى وجعفر :

أجدك هل تدرين كم رب ليلة ... كأن دجاها من قرونك تنشر
لهوت بها حتى تجلت بغرة ... كغرة يحيى حين يمدح جعفر

وقال البحترى :

رياض تردت بالنبات مجودة ... بكل جديد الماء عذب الموارد
إذا راوحتها مزنة بكرت لها ... شآبيب مجتاز عليها وقاصد
كان يد الفتح بن خاقان أقبلت ... عليها بتلك البارقات الرواعد

وكان من مظاهر ذلك : العناية بمطلع القصيدة ، وجعله مناسباً المقام ، مشيرا المقصود ، كما فى قصيدة « عمورية » لأبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

والاهتمام كذلك بختامها ، وجعله مؤذناً بالفراغ ، شافياً للنفس ، متمما للمعنى ، على نحو قول الشاعر :

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهـــذا دعاء للبرية شـامل

وإن كان ذلك لم يظهر بوضوح إلا بعد هذا العصر .

أغراض الشعر

إنما يستمد الشاعر موضوعاته من المجتمع الذى يكتنفه ، والأفق الذى يظله ، والبيئة التى تنشئه ، والعصر الذى يعيش فيه . ولا شك فى أن لكل بيئة مظاهر حياتها ، وظواهر طبيعتها ، ولكل مجتمع أسلوب عيشه ، وطابع حياته ، ونظام تقاليده وعاداته ، ولكل عصر تأثيره فى حياة الناس وأذواقهم وعاداتهم وتقاليدهم .

ولهذا رأينا أغراض الشعر تختلف باختلاف البيئة ، وتتقلب بتقلب الأزمان ، وتتطور بتطور المجتمع ، وتتأثر بالحضارة أو البداوة ، بالجهل أو العرفان .

وفى العصر العباسى تنوعت مشاهد الحضارة ، وتعددت ألوان الثقافة ، وتجددت أساليب العيش ، وتولدت بالاختلاط عادات ، وجدت فى المجتمع تقاليد . ولهذا رأينا أغراض الشعر تتجه اتجاهاً جديداً ، وتتخذ طابعاً يلائم ما يوحى به العصر من موضوعات :

١ — فهناك أغراض قديمة أصبحت لا تلائم أذواقهم ، ولا تتسق مع

مدنيتهم ، وقد وجدوا فى مشاهد الحضارة ومظاهر الحياة الجديدة ، ما يغنيهم عنها ولذلك هجروها ، بل سخروا منها كل السخرية . ومن هذه الأغراض : بكاء الديار ، ومناجاة الأطلال ، وتتبع الآثار ، ونعت الناقة ، ووصف الصحراء ، ونحو ذلك من مظاهر البادية . وإن كان بعض الشعراء قد ظل على وفائه للقديم ، ورأى أن القول فى هذه الموضوعات إبقاء على التراث العربى ، وحفظ لعمود القصيد .

ولقد رأينا حملة أبى نواس على هذه الموضوعات ، وسخريته منها ، وإحلاله وصف الخمر وإعلان محاسنها محلها . . وما زال سادراً فى نشوته وتهوره ، حتى حبسه الرشيد فأفاق على ذكر الأطلال ، وصحا على نعت القفار ، ولكنها صحوة مخمور يهذى ويسخر ، حيث يقول :

أعرشعرك الأطلال والمنزل القفرا ... فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعانى إلى نعت الطلول مسلط ... تضيق ذراعى أن أرد له أمرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة ... وإن كنت قد جشمتنى مركباً وعرا

٢ — وثمة أغراض جديدة لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، وإنما خلقها الاختلاط بالأعاجم ، أو أوحت بها مشاهد الحياة والحضارة ، أو استحدثتها بعض المعارف والعلوم . وذلك كالغزل بالمذكر ، ووصف العذار ، والخوض فى الدعابة والمجون ، والرمى بالأبنة والذم بالرشوة ، وهجاء المغنين ، والتعصب لبعض أنواع الزهر . . . ثم نظم القصص (١) والحكايات ونظم قواعد العلوم من فقه وغيره ، فيما بعد .

---

(١) ومنها نظم أبان اللاحقى (٢٠٠ هـ) لكليلة ودمنة ، ويعد كليلة ودمنة — من أدب القصص على لسان الحيوان وقد ترجم الكتاب ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، ويذكر الجاحظ فى الحيوان الجزء السابع ماورد فى كليلة ودمنة من أمثال عن الفيل (٧ : ٩٢ الحيوان) .

٣ — أما الأغراض القديمة الأخرى كالمدح والهجاء والرثاء والغزل بالمؤنث ، والوصف والفخر ، والسياسية والزهد ، والحكمة والمثل ونحوها فقد أكثروا منها ، وتوسعوا فيها وطبعوها بطابع العصر والبيئة ، من التحليل والتفصيل ، والمبالغة والتهويل . وسوف نعرض لمختلف أغراض الشعر فى هذا العصر ...

الغزل

أما الغزل بالمؤنث فيكاد — مع أنه عرض قديم — يكون كله إباحياً فى هذا العصر ، وماذا ننتظر من مجتمع تشيع فيه مفاتن المدنية ، ومفاسد الحضارة ، وتنتشر مجالى اللهو والعبث والمجون ، إلا أن تستعر فيه الشهوات ، وتثور الغرائز ، وتتفتح مغالق الميول والنزوات ؟ لهذا كاد الغزل العذرى يموت إلا على بعض الألسنة كالعباس بن الأحنف . أما عامة الغزلين ، فقد تبذلوا فى وصف المرأة ، وتهروا فى الحديث عنها ، وأمعنوا فى هتك حجاب العفة ، وأفحشوا فى تناول العورة ، وأعلنوا كل سر ، وكشفوا كل مستور ، وأذاعوا كل سوأة . ألم يقل بشار :

أمتى بدد هـــذا نقبى ... ووشاحى حله حتى انتثر
فدعينى معـــه يا أمتا ... علناً فى خلوة نقضى الوطر
أقبلت مغضبة تضربها ... واعتراها كجنون مستعر
بأبى والله ما أحسنه ... دمع عين يغسل الكحل قطر

والغزل من أهم أبواب الشعر ، وكان يفتتح به القصيد ، اللهم إلا فى القليل ، كعمرو بن كلثوم فى معلقته التى بدأها بوصف الراح ، وكأبى نواس الذى دعا إلى افتتاح القصائد بذكر الراح :

صفة الطلول بلاغة القدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وتبعه فى ذلك ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل بعكاظ فحومل
غير الريح رسمه بجنوب وشمأل

شهر امرؤ القيس فى العصر الجاهلى بغزله واستهتاره ودبيبه ، وفى العصر الأموى عاش شعراء وقفوا حياتهم وشعرهم على الغزل وحده ، فهم موكلون بالجمال يتبعونه ويصفونه ويتغزلون به ، كعمر (٢٣ - ٩٣)، وجميل وقيس بن ذريح وسواهم . وفى العصر العباسى اشتهر بشار بالغزل ، وكذلك العباس بن الأحنف(١) ، ولحمدان بن أبان اللاحقى قصيدة طويلة فى وصف الحب (٢) ، وكان البحترى أرق الناس نسيبا وأملحهم طريقة لاسيما إن ذكر الطيف وهو الباب الذى اشتهر به ، ولم يكن لأبى تمام حلاوة توجب له حسن التغزل وإنما يقع له من ذلك التافه اليسير فى خلال القصائد (٣) .

وأسلوب الغزل يمتاز بجماله وسلاسته وعذوبته مما لا يصلح شىء منه فى مواقف الجد وأوصاف الحرب ، وإن كان المتنبى يستعمل ألفاظ النسيب والغزل فى ذلك وهو مما لم يسبق إليه وتفرد به (٤) . . . ويشيع فى الغزل التهالك وإظهار الصبابة .

---

(١) قصر شعره على الغزل من بين فنون الشعر (١١٧ : ٣ الرافعى) ، وكان شاعراً ظريفاً مفوها منطيقا مطبوعاً ، وكان صاحب غزل رقيق ولم يكن يمدح ولا يهجو إنما كان شعره كله فى الغزل والوصف (١١٩ طبقات ابن المعتز) ويشبه بابن أبى ربيعة (١١٩ المرجع ، ٨٣ : ٤ زهر ، ٣٣٥ الشعر والشعراء ، ٦٧ : ١ العمدة) وكان شاعراً مجيداً غزلا (٩٢ خاص الخاص) وأشاد به بشار وأبو نواس والعلاف (٨٣ : ٤ زهر) ، وهو من أوائل الشعراء المجيدين (٦٧ المثل السائر) ونوه دعبل بقوله : هى الشمس مسكنها فى السماء (٢٦٩ : ١ ديوان المعانى).

(٢) ٥٧ — ٦٢ الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء .

(٣) ١١٣ : ٢ العمدة .

(٤) ١٦٤ : ١ اليتيمة .

ولابن المعتز مجال كبير فى الغزل، والغزل فى شعره فن تسرى الجودة والحياة والدماثة والرقة والعذوبة فى أعطافه ، وهو فيه مجيد صاحب طبع مطبوع وملكة موهوبة ، ولابدع فى ذلك فقد أنعمت نفسه بألوان الجمال، وأشربت حبه ، وغذيت بمتعه وصباباته ولهوه ولذاذاته ، وكان لطيف الحس رقيق العاطفة ملتهب الإحساس والشعور يسقى شبابه الظامىء من ينبوع الحب المتفجر ، ويجد من بيئته وعصره حرية تسمح له بالهيام بالجمال والتبتل فى معابد السحر والفتنة ، فشدا بألحانه الساحرة أناشيد ناطقة بما فى نفسه وعواطفه من حب ووفاء وما امتزج بروحه وسرى فى دمه من هيام وشغف بألوان الجمال ، وفن ابن المعتز فى الغزل يقف بجانب فن امرىء القيس وابن أبى ربيعة والعباس بن الأحنف وسواهم من المجيدين فى هذا الباب .

ويقول الصولى : «وهو متقدم فى الغزل لأن الشعراء الذين أحسنوا فى الغزل حتى تفردوا به وكان الغزل قطعة من شعرهم قليلون وخاصة من عمل فى المذكر والمؤنث ، وهو أول من حصل هذا وجعله فنين ، وأضاف إليه فنا ثالثاً سماه مجونا وكثره حتى تقدم فيه من سبقه وتبعه الناس»(١) ، ومن شعره فى الغزل قوله :

ياهند حسبك من مصارمتى ... لا تحكمى فى الحب بالظن

وقول فى شريرة محبوبته :

وقلت تعالى ياشريرة نمتزج ... كمثل امتزاج الماء والخمر نصفين

ومن غزله قوله :

بان الخليط ولم تطق صبرا ... ووجـــدت طعم فراقهم مرا

وكأنما الأمطار بعـــدهم ... كست الطلول غلائلا خضرا

---

(١) ١١٤ الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء .

هل تذكرين وأنت ذاكرة ... مشى الرسول إليكم سرا
إن يغفلوا يسرع لحاجته ... وإذا رأوه أحسن العذرا
فطن يؤدى ما يقال له ... ويزيد بعض حديثنا سحرا
قالت لأتراب خلون بها ... وبكت فبلل دمعها النحرا
ما باله قطع الوصال ولم ... يسمح زيارة بيتنا شهرا
حتى طرقت على مخاطرة ... أطأ الصوارم والقنا الحمرا
ياليلة ماكان أقصرها ... لازلت أشكو بعدها الدهرا

فتجد روح ابن أبي ربيعة فى الغزل والحوار ، والتهالك من المرأة على حبه ، وإن كان ذلك مما يذمه النقاد فى فن الغزل ، فالعادة عند العرب أن الشاعر هو المتغازل المتهاوت(١) ، وإنما توصف المرأة بالحياء(٢) ، ولكنك مع ذلك تجد فى القطعة جمالا لايعدله جمال فى وصف الرسول .

ويقول :

لاتلومونى على حب هند ... سحرتنى إنما الحب سحر

ومن غزله قصيدته :

ياغزال الوادى بنفسى أنتا ... لا كما بت ليلة الهجر بتا

ومنه قوله :

تعاهدتك العهاد ياطلل ... حدث عن الظاعنين مافعلوا
فقال لم أدر غير أنهم ... صاح غراب بالبين فاحتملوا
فلا تحليت بالرياض ولا ... النور ومغناى منهم عطل

---

(١) ١١٨ : ٢ العمدة .

(٢) ٢٥٤ ديوان ابن أبي ربيعة والنقاد كثيرا مانقدوا ابن أبي ربيعة فى وصفه لتهالك المرأة على حبه (١١١ : ٢ عمدة ، ٢٥٢ ديوان ابن أبي ربيعة) .

على هذا فما عليك لهم ؟ قلت زفير ودمعة همـــل
وأننى مقفل الضمائر من حب سواهم ماحنت الإبل
فقـال هلا تبعتهم أبدا إن نزلوا منزلا وإن رحلوا
هيهات إن الحب ليس له هم بغير الهوى ولا شغل
تركت أيدى النوى تعودهم وجئتنى عن حديثهم تسل ! !
فقلت للركب لا قرار لنـا من دون سلمى وإن أبى العذل
حتى تبدى فى الفجر ظعنهم وسائق الصبح بالدجى عجل
فلم يكن بيننا سوى اللحظ والد مع كلام لنا ولا رسل

وتجد هنا رقة الأسلوب وجمال الحوار المبتكر وسحر المعانى ولطفها مما يسمو بفن ابن المعتز فى الغزل إلى منزلة عالية .

ومن روائع بشار فى الغزل ، قوله وقد نهاه الخليفة المهدى عن الغزل :

يا منظر حسنـا رأيته من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومـــنى ثوب الشباب وقد طويته(١)
والله — رب محمـد — ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربمـا عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قـد أبى وإذا أبى شيئـا أبيته
ويخضب رخص البنـا ن بكى على وما بكيته
ويشوقـنى بيت الحبيـ ـب إذا ادكرت ، وأين بيته ؟
قام الخليفـة دونه فصبرت عنه وما قليته(٢)

---

(١) تسومنى ، من سام يسوم ، إذا أخذ فى الحديث فى البيع أو الشراء ، الشباب استعارة بالكناية ، والمراد به نضارته وبهجته وفتوته ، وذلك كله كناية عن رغبتها فى مغازلته .

(٢) من القلى وهو الهجر والإعراض .

ونهانى — الملك الهما — م[١] عن النساء وما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع — عهدا[٢] ولا وأيا وأيته
وأنا المطل على العدا — وإذا غلا الحمد اشتريته[٣]
أصفى الخليل إذا دنا — وإذا نأى عنى نأيته[٤]
وأميل فى أنس النديـ — ـم من الحياء وما اشتهيته[٥]

وهذا النص من شعر بشار يصور عذوبة أسلوبه ، وافتنانه فى معانيه ، وانتحاءه جانبا خاصا فى شعره يشبه الجانب القصصى الذى اشتهر به فى عصرنا إيليا أبوماضى وكان بشار شديد الذكاء ، واسع الخيال ، ذا ملكة قوية فى الشعر يعد من أكبر شعراء عصره ، وزعيم المحدثين كافة ، ومن أصحاب المعانى المخترعة فى الشعر العربى ، وقد تصرف فى كثير من فنون الشعر ومعانيه .

وكان فارسى الأصل وأبوه فيما يقال من سبى المهلب بن أبى صفرة ، وكان ولاؤه فى بنى عقيل من قيس عيلان ، ونشأ بشار فى البصرة نشأة عربية خالصة ، فأتقن اللغة وبرع فى الأدب ، وكان شاعراً محاوراً وخطيباً ، واختلف إلى مسجد البصرة وما كان يقام فيه وفى غيره من مجالس المتكلمين

---

(١) الهمام : العظيم الهمة .
(٢) لم أضع العهد : أى لم أحنث به .
(٣) المطل على العدا : المستمر فى إيذائهم . الحمد : الثناء .
(٤) من الدنو وهو القرب . وأصفا الصديق يصفيه مودته : أخلص ووفى لعهد أخوته . والخليل : الصديق . ونأى : من النأى وهو البعد والمراد به الهجر وقطع المودة .
(٥) النديم : الرفيق والمصاحب ، والشارك فى الشراب والميل فى أنس النديم : القيام بمؤانسته . اشتهيته : رغبت فيه ، والضمير يعود إلى الكأس أو الراح وهو مضمر للعلم به من المقام .

وأصحاب المقالات الدينية والسياسية فاضطرب بين هذه المذاهب ، وكاد يستقر رأيه على مذهب المعتزلة ، فقد فتن بواصل بن عطاء زعيمهم ، ومدحه ، ثم وقع الخلاف بينه وبينهم فتركهم وهجاهم واستطار الشر بينه وبين واصل .

ولقد كان شاعراً مجيداً تأثر بالشعراء الإسلاميين وأخذ عنهم ، وكان يحب جريراً ويؤثره على غيره ، وقد أدركه وهجاه فيما يقول الرواة رغبة فى أن ينوه به جرير فيرتفع أمره ولكن جريراً أعرض عنه . وكان بشار عربى النزعة فى الشعر ، حريصاً على متانة اللفظ ورصانته ، فلما يميل إلى تجاوز المألوف فى الألفاظ والأساليب والوزن والقافية ، ولكن مزاجه الفارسى قد ترك فى شعره أثراً ظاهراً ، فسنحت له خواطر ومعان لم تكن تسنح للشعراء من العرب الخلص ، ولا سيما حين كان يتغزل ، فقد مال فى غزله إلى نحو من الفتون والمجون لم يعرفه الغزلون من شعراء الحجاز سواء منهم العذريون وأصحاب المجون ، كان بشار صريحا فى غزله قبيح الصراحة أحيانا .

وكان مسرفا فى الرقة إذا تغزل فذمه الوعاظ والقصاص فى وعظهم وقصصهم وشكاه أشراف الناس إلى السلطان فنهاه المهدى عن الغزل فانتهى على كره ونفاق . ومع ذلك كان يعاود الكلام فى الغزل كما ترى فى هذه القصيدة ، ومازال به إسرافه فى الغزل الفاجر والهجاء المقذع والشك المريب حتى كاد له بعض خصومه عند المهدى فأمر بضربه حتى مات سنة ١٦٧ هـ .

وفى شعر بشار قوة اللفظ ومتانته إذا جد ، واللين والفتور إذا تغزل أو هزل ، وفيه جودة المعانى ودقتها وحسن الاستقصاء لها ، والرواة مجمعون على أنه زعيم الشعراء المحدثين كافة .

ومن شعر ابن المعتز العباسى فى موقف وداع قصيدته :

تعادتك العهاد ياطلل خبر عن الظاعنين ما فعلوا

فقال : لم أدر غير أنهم صاح غراب بالبين فاحتملوا
وقال : هلا تبعتهم أبدا إن نزلوا منزلا وإن رحلوا

وقد مضت آنفا ، ومنها قوله :

كأنما طار من تحتنا قزع على أكف الرياح ينتقل
حتى تبدى فى الفجر ظعنهم وسائق الصبح بالدجى عجل
فلم يكن بيننا سوى اللحظ والـ ـدمع كلام لنا ولا رسل
كم من عداة أبارهم غضبي فلم أقل أين هم وما فعلوا

وأما الغزل بالمذكر فهو غرض جديد من أغراض الشعر العباسى ، وقد سرى إليهم من الفارسيين ، وأول من نظم فيه : حماد عجرد ، ووالبة ابن الحباب ، ثم أبو نواس ، وحسين بن الضحاك ، ويحيى بن زياد ، ومطيع ابن إياس ، وغيرهم من الشعراء الإباحيين ، ممن كانوا يلتقون على موائد الشراب ، وبين أيديهم الغلمان والقيان . فلا يتورعون عن حرام ؛ وسرت هذه الموجة إلى الشعراء الغزلين ، فطغى الغزل بالمذكر على شعرهم ، وتلدم غيرهم حتى شعراء الغزل بالمؤنث فقلبوا ضمير الأنثى إلى ضمير الذكر ؛ وبتأثير ذلك أكثروا من وصف العذار والافتنان فيه ، وقذف الناس بالمرد ، ونبذهم بالابنة ، وغير ذلك من مجالات الكلام ..

وينكر الجاحظ أن يكون العرب قد عشقوا الغلمان ، أو تغزلوا بالمذكر ، فيقول فى رسالته فى « النساء » (١) :

لو تعشق العرب الغلمان ، لنسبوا بهم ، ولجاءهم فيه باب النسيب ، ولتهاجوا به وتفاخروا ، ولتنافسوا فى الغلمان ، ولجرى فى ذلك مالا يخفى ، ولحدثت

---

(١) راجعها فى رسائل الجاحظ نشر السندوبى .

فيه أشعار وأخبار ، والذى يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعانى ، وإن كان هناك شيء من هذا فليس هو إلا فى بعض من ينزل قارعة الطريق أو يقرب الأسواق (١) .

ومن الغزل بالمذكر أشعار كثيرة عباسية تروى فى كتب الأدب العربى وفى دواوين الشعراء العباسيين .

يقول الشاعر سعيد بن هاشم الخالد فى غلام له (٢) :

ما هو عبد لكنه ولد ... خولنيه المهيمن الصمد
شد أزرى بحسن خدمته ... فهو يدى والذراع والعضد
صغير سن كبير منفعة ... تمازج الضعف فيه والجلد
فى سن بدر الدجى وطلعته ... فشله يصطفى ويعتمد
معشق الطرف كحله كحل ... مغزل الجيد حليه الجيد
أنسى ولهوى وكل مأربتى ... مجتمع لى فيه ومنفرد
مسامرى إن دجى الظلام فلى ... منه حديث كأنه الشهد
ظريف مزح مليح نادرة ... جوهر حسن شراره يقد
خازن مافى دارى وحافظه ... فليس شيء لدى يفتقد
ويعرف الشعر مثل معرفتى ... وهو على أن يزيد مجتهد
وصيرفى القريض وزان دنانير المعانى الرقاق منتقد
وواجد بى من المحبة والرأ ... فة أضعاف ما به أجد
إذا تبسمت فهو مبتهج ... وإن تنمرت فهو مرتعد
ذا بعض أوصافه وقد بقيت ... له صفات لم يحوها أحد

---

(١) والنص موجود أيضا فى ٢ : ٤١٧ ، ٤١٨ أمراء البيان لمحمد كرد على .

(٢) معاهد التنصيص للعباسى مخطوطة برلين رقم ٩٢٢٤ ص ١٥ ب .

ويقول شاعر آخر (١) :

ألا ياجامع البصر ة لاخربك الله
وسقى صحنك الغيث من المزن فرواه
فكم من عاشق فيك يرى ما يتمناه
وكم ظبي من الإنس مليح فيك مرعاه
نصبنا الفخ بالعلم له فيك فصدناه
وكم من طالب للشعر بالشعر طلبناه
فما زالت يد الأيا م حتى لان متناه

يقول أبو نواس :

يا بدعة فى مثال يجوز حد الصفات
الوجه بدر تمام بعين ظبي فسلاة
والقد قد غلام والغنج غنج فتاة
مذكر حين يبدو مؤنث الخلوات

ويقول الحسين بن الضحاك فى غلام يستحم :

وابأبى أبيض فى صفرة كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة تلوح فيها عكن بضه
غصن تبدى يتثنى على مأكمة مثقلة النهضه(٢)
كأنما الرمش على خده طل على تفاحة غضه
صفاته فاتنة كلها فبعضها يذكرنى بعضه

---

(١) ٢ : ١٣٠ اليتيمة ، ٦ : ٣١٧ ياقوت الارشاد ، معجم الأدباء .
(٢) المأكمة : اللحمة على رأس الورك وللانسان مأكمتان .

واستعمل أبو نواس لفظ المذكر فى المؤنث فقال :

يا قبرا أبصرت فى مأتم ... يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيذرى الدمع من نرجس ... ويلطم الورد بعناب
أبرزه المأتم لى كارها ... برغم دايات وحجاب (١)
لاتبك ميتاً حل فى قبره ... وابك قتيلا لك بالباب

المدح

رأينا فيما سبق كيف كان الخلفاء فى هذا العصر يتمتعون بالنفوذ الواسع والجاه العريض ، ورأينا كيف كان كلفهم باظهار نفوذهم ، وإعلان هيبتهم ، وإطراء مجدهم ، فقربوا الشعراء ، وأجزلوا لهم العطاء ، ليعلنوا مفاخرهم على الناس ، ويزيدوا من هيبتهم فى نفوس العامة . فأخذ الشعراء يتنافسون فى التمجيد ، ويتسابقون فى التعظيم ، ليحظوا بجزيل العطاء وعظيم الهبات . وقد انتهى بهم ذلك إلى المبالغة فى المدح حتى قاربوا الكفر ، والتهويل فى الثناء حتى خرجوا عن المعقول .

وإنما دعاهم إلى هذه المبالغة البالغة ، رغبتهم فى إرضاء غرور الممدوحين وطمعهم فى أن ينالوا أكبر الجوائز وأسناها ، فقد كان العطاء على قدر المبالغة ، وكان الخلفاء كما رأينا من قبل يتخرقون فى العطاء ، ويسرفون فى المنح ، حتى أثرى الشعراء ، واقتنوا الثروات الطائلة ، والضياع العامرة .

ولقد رأينا أن المعتصم لم يقبل من الشعراء إلا من يمدحه بمثل مدح النمرى للرشيد ، حتى أشبع محمد بن وهيب رغبته ، وأرضى غروره .

ومحمد بن وهيب هذا هو الذى قال فى مدح الحسن بن سهل .

تعظمه الأوهام قبل عيانه ... ويصدر عنه الطرف وهو محاذر

---

(١) المأتم : مجتمع الناس فى الخير والشر .

به تجتدى النعمى وتستدرك المنى وتستكمل الحسنى وترعى الأواصر
قسمت صروف الدهر بأسا ونائلا
فمالك موتور وسيفك واتر
ولو لم تكن إلا بنفسك فاخرا لما انتسبت إلا إليك المفاخر

حتى طرب الحسن ونزل عن سريره إلى الأرض ، وقال : أحسنت والله وأجملت ، ولو لم تقل فى ولا قلت باقى دهرك غير هذا لما احتجت إلى القول ، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، واقتطعه لنفسه . كما رأينا أن جلساء المعتصم لم يقنعوا بتشبيه أبى تمام له بحاتم فى الكرم ، وعمرو بن معد يكرب فى الشجاعة ، وإياس فى الذكاء ، فانتقدوه ، حتى اضطر للاعتذار .

ومن صور المدح قصيدة أبى نواس فى مدح الأمين ويقول منها :

وإذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطىء الحصا فلها علينا حرمة وذمام
ملك إذا علقت يداك بحبله لا يعتريك البؤس والإعدام
فالبهو مشتمل ببدر خلافة لبس الشباب بنوره الإسلام (١)
سبط البنان إذا احتبى بنجاده فرع الجماجم والسماط قيام (٢)
إن الذى يرضى الإله بهديه ملك تردى الملك وهو غلام (٣)

---

(١) يريد بالبهو هنا البيت ، ومشتمل : مزدان : ومعنى الشطر الثانى أنه أعاد للدين سلطانه .

(٢) السبط : السهل الذى لاخشونة فيه ، والبنان أطراف الأصابع وأحدتها بنانة . وسبط البنان : الكريم . والنجاد : حمائل السيف التى يتعلق بها . احتبى بنجاده : لبسه ، وفرع الجماجم : علاها . سماط القوم صفهم .

(٣) تردى : لبس الرداء والمراد أنه ولى الخلافة فتى .

ملك إذا اعتسر الأمور مضى به ... رأى يفل السيف وهو حسام (١)
داوى به الله القلوب من العمى ... حتى أفقن وما بهن سقام (٢)
أصبحت يابن زبيدة ابنة جعفر ... أملا لعقد حباله استحكام (٣)
فسلمت للأمر الذى ترجى له ... وتقاعست عن يومك الأيام (٤)

والبيت الأول والثانى شبيهان بقول الشاعر :

إذا بلغتنى وحملت رحلى ... عرابة فاشرقى بدم الوتين

وقال ذو الرمة :

إذا ابن أبى موسى بلالا بلغته ... فقام بفأس بين وصليك جازر

وقال عبد الله بن رواحة :

إذا بلغتنى وحملت رحلى ... مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك فانعمى وخلاك ذم ... ولا أرجع إلى أهلى ورائى

وقال الفرزدق فى هذا المعنى :

علام تلفتين وأنت تحتى ... وخير الناس كلهم أمامى
متى تردى الرصافة تستريحى ... من الأنساع والدبر الدوامى

---

(١) اعتسرت الأمور اشتدت والتوت ، يفل السيف : يثلمه . والحسام : السيف القاطع ، يريد أن الأمور إذا صعب حلها كان له فيها رأى نافذ سديد .

(٢) عمى القلوب : زيغها . السقام بفتح السين المرض .

(٣) زبيدة أم الأمين جاءت به من هارون الرشيد وهى بنت جعفر ابن المنصور ، الأمل هنا هو المقصود والمأمول . استحكام : قوة . يقول : صرت أملا يعلق الناس حاجاتهم بك فلا يخيب رجاؤهم ، وقوله (لعقد) إلى آخر الجملة صفة لقوله أملا .

(٤) تقاعس : تأخر . يقول : إن أيامك خير الأيام .

وقد عاب الرواة ونقاد الكلام قول الشماخ وذى الرمة ، سمع عبدالملك قول الأول فقال : بئست المكافأة حملت رحله وبلغته بغيته فجعل مكافأتها نحرها وقد قال رسول الله للأنصارية التى نجت من الأسر على ناقته صلى الله عليه وسلم فنذرت أن تنحرها : لبئس ما جزيتها . وهما إلى جانب الخطأ فى المعنى رديئا الأسلوب يتخذهما النحاة مجالا لكثير من سخف التأويل . فأما عبد الله بن رواحة . فقد أحسن إليها مع استغنائه عنها ، دعا لها بأن تعيش ناعمة طليقة خالية من الذم لأنها بلغته ما يأمله من الاستشهاد فى سبيل الله .

ويقول الفرزدق مخاطباً ناقته : متى تناخى فى ساحة أمير المؤمنين تراحى من عناء الرحيل إلى غيره لأننا نصادف من نداه ما نعيش به أغنياء ، وزاد أبو نواس فأعتق ظهورها من الحمل وحماها من الركوب وجعل ذلك حقاً خليقاً بالرعاية ودينا واجب الأداء ، وكلمة الرجال فى بيته تسىء إلى الغرض لأنها تخصص العام وتقيد الإطلاق كما أن حملتنى وحملت رحلى فى الأبيات السابقة حشو جىء بها لإقامة الوزن . وكذلك كلمة زمام فى بيت أبى نواس ، وبيت ابن رواحة الأول فيه إطناب ، وكان يغنى عنه أن يقول إذا بلغتنى الغاية .

وأبو نواس هو الحسن بن هانىء (١٤٥ — ١٩٨ هـ) من شعراء الدولة العباسية ، نشأ فى البصرة ، ثم تحول إلى الكوفة ، وأخذ عن والبة بن الحباب وكان والبة شاعراً ماجناً شراباً للخمر وصافا لها ، ثم انتقل إلى بغداد . وفاق أبو نواس أهل عصره فى وصف الخمر ، وكان مستهتراً كأستاذه ، همه الانبعاث فى الشهوات وقرض الشعر فى أبواب الخلاعة ، ولقد أجاد فى جميع فنونه ، وهو من الشعراء القادرين على التصرف فى الشعر ، مع متانة الأسلوب وجزالة اللفظ وسلامة النظم ، ويعد من مفاخر العربية والمحسنين إليها ، وتوفى سنة ١٩٨ هجرية .

وهذه هى رائية أبى نواس المشهورة فى المدح ، قال أبو نواس يمدح العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور :

أيها المتنـــاب من عفره ... لست من ليلى ولا سمره (١)
لا أذود الطير عن شجر ... قد بلوت المر من ثمره (٢)
قد لبست الدهر لبس فتى ... آخذ الآداب من غيره (٣)
فاتصل إن كنت متصلا ... بقوى من أنت من وطره (٤)
خفت مأثور الحديث غداً ... وغداً أدنى لمنتظره (٥)
خاب من أسرى إلى بلد ... غير معلوم مدى سفره (٦)
وسدته ثنى ساعده ... سنة حلت إلى شفره (٧)

---

(١) المتناب : القاصد المتردد عليك ، والعفر بضم فسكون وبضمتين : طول العهد ، والسمر : حديث الليل خاصة ، يتبرأ منه . . والمعنى : أيها الزائر بعد زمان طويل لست من سمارى فى ليلى .

(٢) يقول : لا أمنعك من الاتصال بهذه المرأة التى خاتنى وستلقى هـــذا المصير ، والبيت من قبيل الاستعارة التمثيلية .

(٣) أى صاحبت الدهر حتى تعلمت من حوادثه ، وغير الدهر : أحداثه .

(٤) الوطر : الحاجة . والقوى : الأسباب والحبـــال ، أى اتصل بمن تحب الاتصال به غيرى فليس بيننا سبب .

(٥) المأثور : المروى . أى خفت مايرويه الناس من الأحاديث السيئة فى غد ، وإن غداً لقريب .

(٦) الخيبة : ضد النجاح . والإسراء : السير ليلا . والمدى : الغاية ، والمعنى : خاب من سار على غير هدى ومن لم ينظر فى العواقب .

(٧) الشفر : منبت الشعر من الجفن ، والسنة : النوم الخفيف ، وهذا تكميل لما قبله ، يصف السارى المسافر بأن النوم يحمله على أن يتوسد ساعده المثنى .

فامض لاتمنن على يداً منك المعروف من كدره (١)
رب فتيان ربأتهم مسقط العيوق من سحره (٢)
فاتقوا بى ما يريبهم إن تقوى الشر من حذره (٣)
وابن عم لا يكاشفنا قد لبسناه على غمره (٤)
كمن الشنآن فيه لنا ككمون النار فى حجره (٥)
ورضاب بت أرشفه ينقع الظمآن من خصره (٦)
علنيه خوط إسحلة لان متناه لمهتصره (٧)

---

(١) المن : ذكر المنعم إحسانه ، وذلك مفسد للاحسان ، ومن كلام العرب : المنة تفسد الصنيعة .

(٢) ربأتهم : حرستهم مخافة أن يدهمهم العدو ، مسقط : وقت سقوط (العيوق) ، وهو نجم يتلو الثريا ، يظهر سحراً ، يفتخر بأنه يحرس إخوانه فى الشدائد .

(٣) يريبهم : يفزعهم ، يقول : اعتمدوا على فى دفع مايحذرون فكنت عند ظنهم .

(٤) كاشفه بالعداوة : أظهره عليها ، والغمر : الحقد ، يقول : أدارى ابن عمى الذى يكمن لى العداوة والبغضاء وأعاشره وكأنى لا أعلم بشىء من أمره .

(٥) كمن : استتر ، والشنآن : البغض ، أى توارت البغضاء فى نفسه كتوارى النار فى الجحر .

(٦) الرضاب : الريق ، والظمآن : العطشان ، والخصر : البرد ، وينقع : يروى .

(٧) علنيه : سقانيه مرة بعد أخرى ، والخوط : الغصن الناعم تشبه به المرأة ، والاسحلة : مفرد اسحل شجر عظيم ينبت بأعالى نجد ، والمهتصر جاذب الغصن ، يقول : سقانى هذا الريق امرأة لينة كأنها الغصن فى تثنيها طيعة لجاذبها إليه .

ثم أدنانى إلى ملك يأمن الجانى إلى حجره (١)
تأخذ الأيدى مظالمها ثم تستذرى إلى عصره (٢)
كيف لايدنيك من أمل من رسول الله من نفره (٣)
فاسل عن نوء تؤمله حسبك العباس من مطره (٤)
ملك قل الشبيه له لم تقع عين على خطره (٥)
لاتغطى عنه مكرمة بربا واد ولا خمره (٦)

---

(١) الضمير المرفوع عائد إلى الحصان الذى قطع الطريق به إلى الممدوح . يقول : بلغنى هذا الحصان ملكا يحمى اللاجىء إليه ، والحجر : حضن الانسان .

(٢) تستذرى : تلتجىء ، والعصر : الملجأ ، أى ينصف اللذين يقصدونه شاكين ، لأنه عادل وسطان محكم .

(٣) النفر : الجماعة ، وهذا البيت معيب لأن حق رسول الله أن يضاف إليه لا أن يضاف إلى غيره . فكان الأنسب أن يقول من هو من نفر رسول الله ، فيكتسب هذا الأمير الشرف بالإضافة إلى السيد الرسول الأعظم .

(٤) النوء : النجم ، وكان العرب يربطون بين المطر وظهور نجوم بعينها . والمعنى : لا تؤمل فى خصب يأتيك به مطر السماء فندى العباس خلف من كل مطر ، وغنى عن كل غيث .

(٥) الخطر : المثل ، يقال هذا خطر له أى مثله ، وقل هنا : معناه فقد وعدم ، أى لا شبيه لهذا الممدوح ولن تقع عين على نظير له .

(٦) لا تغطى : لا تتوارى ولا تستتر ، والربى ما ارتفع من الأرض واحدها ربوة ، والخمر : ماوراك من شجر وغيره ، والمعنى : أنه لا يترك مكرمة إلا فعلها ولا صنيعة إلا أتمها وأحسنها .

سبق التفريط رائده وكفاه العين من أثره (١)
وإذا مج القنا علقا وتراءى الموت فى صوره (٢)
راح فى ثنيي مفاضته أسد يدمى شبا ظفره (٣)
تتأبى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره (٤)
وترى السادات مائلة لسليل الشمس من قمره (٥)
وكريم الخال من يمن وكريم العم من مضره (٦)
فهم شتى ظنونهم حذر المكنون من فكره (٧)

---

(١) التفريط : مصدر فرط رسوله : قدمه وأرسله ، والرائد : الرجل يرسله أهله يلتمس لهم منزلا خصبا ، يقول : إن العباس رائده ـ أى الرائد منه ـ يسبق الرسول ويعرف ببصيرته المستور ، ومعنى الشطر الثانى أنه لقوة بصيرته يعرف الأمور بذاتها فلا يحتاج إلى آثارها التى تعينه فى المعرفة .

(٢) مج : لفظ ورمى ، والقنا . الرماح ، المفرد قناة ، العلق : الدم ، وتراءى الموت الخ : أى ظهر الموت فى أشكاله المتباينة ، فطعين بالرمح ومضروب بالسيف وصريع .

(٣) الثنيان : مثنى ثنى بكسر فسكون وهو ما كنف من طرف الثوب . والمفاضة الدرع الواسعة . والشبا : جمع شباة وهى حد السيف أو السنان فى طرفه ، يقول : إنه يعود من الحرب مدرعا كالأسد وقد احمرت ثيابه من دماء الأعداء .

(٤) تتأبى : تتعمد وتنتظر . والجزر : قطع اللحم .

(٥) سليل : وليد ، والمعنى المولود من أمه التى هى كالشمس عن أبيه الذى هو كالقمر ، وضميره (قمره) للممدوح أو لوالده .

(٦) الممدوح خاله يمنى وعمه مضرى .

(٧) شتى : متفرقة متنوعة . يقول : إن السادات متنوعو الأفكار عما يضمره هو بالنسبة لهم وما يقضى فى شئونهم ، مخافة منه وإجلالا له .

ومن دراسة هذه القصيدة نجد أبا نواس يؤثر فيها الغريب ، وكأنه أراد أن يرضى أبا عبيدة والأصمعى وأضرابهما من اللذين يحفلون بغرابة اللفظ أو يظهر لهم أنه لايقل عنهم علماً باللغة وحفظاً لها وهى على ذلك حافلة بالاستعارة الحسنة والأمثال السائرة والمعانى النادرة . يبرز ذلك كله فى أسلوب جيد ولفظ جزل ووزن راقص يصلح للغناء والتلحين .

وأحب أن أقف معك عند هذا البيت :

تتأبى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وأوازن بينه وبين قول النابغة :

إذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طيرى تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

أراد كل واحد من الشاعرين أن يصف الممدوح بأنه قاهر لعدوه ظاهر عليه يتركه عند اللقاء مضرجا بالدماء، طعاما لآكلات اللحم من الطير . وأن الطير قد علمت ذلك فهى تتبعه فى غدوه إلى القتال واثقة أنها سترجع بطاناً من لحوم أعدائه الذين قتلهم . وقد عمد النابغة إلى وصف شجاعة الممدوح بأن الطير تعلم أن الظفر للممدوح على عدوه فذكر ذلك صريحاً وكنى عن طمعها فى اتساع رزقها عليها بصحبتها له فى غدوه إلى الحرب ، وعكس أبو نواس فنص على هذه الثقة ، ودل على قهره لمن ناوأه بطريق الفحوى .

وأبو نواس وإن كان متبعاً فقد زاد على النابغة بفضل إيجازه وخفة وزنه و باختيار ألفاظه فكلمة (تتأبى) تدل على الترقب والانتظار وأنها مستشرفة لذلك متشوفة إليه ، وكلمة الطير أشمل من عصائب طير ، وكلمة ثقة بالشبع لا يقابلها فى كلام النابغة ما يدل على معناها ، وكلمة جزره تدل على أن عدوه عند الحملة يصير بمنزله الإبل تنحر والشياه تذبح قد استسلمت للقضاء المحتوم

والقدر النازل ، وكلمة « أول غالب » فى كلام النابغة أضعفت المراد لأنه من الجائز أن يكون أول الحملة له وآخرها عليه ، وغاية القول أن النابغة وإن كان قد سبق فإن أبا نواس قد أحسن فى الاتباع وزاد .

ومما عيب على أبى نواس فى هذه القصيدة قوله :

كيف لايدنيك من أمل من رسول الله من نفره

يروى أن راوية أبى نواس قال عندما سمعه ينشد هذا البيت : إنه كلام ردىء موضوع فى غير موضعه لأن سيدنا رسول الله أجدر أن يضاف إليه ولايضاف هو إلى أحد ، فقال له أبو نواس : ويلك إنما أردت أن رسول الله من القبيل الذى هو منه ، كما قال حسان :

ومازال فى الإسلام من آل هاشم دعائم عز لاترام ومفخر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المتخير

وقال أبو تمام يمدح أبا العباس عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب :

وركب كأطراف الأسنة عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه(١)
لأمر عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه(٢)
على كل موار الملاط تهدمت عريكته العلياء وانضم حالبه(٣)
رعته الفيافى بعد ماكان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

---

(١) أطراف الأسنة : أسنة الرماح . عرسوا : نزلوا ليلا . يقول إن هؤلاء الركب ركبوا على مثل أسنة الرماح وهى كور الجمال التى تشبه الأسنة فى الصلابة والمضاء .

(٢) أى هؤلاء الركب ركبوا لأمر وهو نيل العطاء من الممدوح .

(٣) الملاط : عضد البعير . والموار : المتحرك . والحالب : عرق يتصل بأسفل البطن وهو كنية عن الضمور .

إليك جزعنا مغرب الملك كلما
هبطنا ملا صلت عليك سباسبه (١)

إلى سالب الجبار بيضة ملكه وآمله غاد عليه فسالبه (٢)
وقد قرب المرمى البعيد رجاؤه وسهلت الأرض العزاز كتائبه
سما للعلا من جانبيها كليهما سمو عباب الماء جاشت غواربه (٣)
فنول حتى لم يجد من ينيله وحارب حتى لم يجد من يحاربه
وأين بوجه الحزم عنه وإنما مرائى الأمور المشكلات تجاربه (٤)

أرى الناس منهاج الندى بعد ماعفت
مهايعه المثلى ومحت لواحبه (٥)

ففى كل نجد فى البلاد وغائر مواهب ليست منه وهى مواهبه (٦)
إذا ما امرؤ ألقى بربعك رحله فقد طالبته بالنجاح مطالبه (٧)

---

(١) جزعنا الأرض . قطعناها عرضا ، ومغرب الملك . الشام ، وكان أبو تمام بها وكان ممدوحه بخراسان ، والملا . الصحراء ، وصلت عليه . أثنت عليه ، والسباسب جمع سبسب . الأرض المستوية .

(٢) بيضة الملك . حوزته وأصله ، وآمله طالب العطاء منه ، يقول : إنا سرنا إلى من يسلب الجبار ملكه وطالب العطاء منه يسلبه ماله ، فهو سالب ملك الجبار ومسلوب المال من الطالبين .

(٣) يريد بجانبى العلا الشجاعة فى الحرب والكرم ، والعباب معظم الماء وجاشت زخرت وغواربه أعلى أمواجه .

(٤) أين بوجه الحزم أى كيف يشكل عليه الحزم وتجاربه مرآة للمشكلات ومرائى جمع مرآة .

(٥) المهايع واللواحب الطرق الواضحة .

(٦) لما علم الناس الكرم كانت هباتهم ليست منه وهى فى الحقيقة منه لأنه هو الذى علمهم .

(٧) أى من نزل عندك وألقى رحله بربعك ضمن نجح مطلبه .

وهكذا كان المدح يهز أعطافهم ، ويثير أريحيتهم ، ويستدر عطاءهم وهكذا كان الشعراء يمعنون فى المبالغة ، ويهولون فى تصوير الممدوح ، لأنهم يرون ذلك السحر الذى يخلب العقول ، والرقى التى تختلب الصلات ، وكان من أثر ذلك أن وجدنا بعض الشعراء تغريهم كثرة العطاء ويهون عليهم أمر الدين ، فيدنون من الشرك أو يقعون فيه كما قال أبو نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

وكما يقول :

حتى الذى فى الرحم (لم يك صورة) لفؤاده من خوفه خفقان

وقد ظل الشعراء يبالغون فى المدح ، ويغرقون فى الثناء ، وينافس بعضهم بعضا فى ذلك ، حتى رأينا هذه الظاهرة تشيع وتتسع فيما بعد ، وتبلغ نهايتها فى الغلو والتهويل ، ولقد ذكروا أن المستعين بالله قال لشعرائه : لا أقبل إلا ممن قال مثل قول البحترى :

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

فقال البلاذرى : قد قلت فيك أحسن مما قال البحترى ، فقال هات ، فأنشده :

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته يظن الظن البرد أنك صاحبه
وقال وقد أعطيته ولبسته نعم هذه أعطافه ومناكبه

فقال المستعين : ارجع إلى بيتك وافعل ما آمرك به ، فرجع ، فبعث إليه سبعة آلاف دينار ، وضمن له كفايته مدة حياته .

شعر السياسة والعصبية

١ — ورثت الدولة العباسية ما خلفه العصر الأموى من إحياء العصبيات بين اليمانية والمضرية ، فقد بقيت هذه الأحقاد مضطرمة ، لا يخبو لها ضرام

ولا تهدأ ثورة . ومن ثم أخذ شعراء الفريقين يتراشقون بالهجاء ويتساجلون بالفخر . وكان من شعراء اليمانية : مسلم بن الوليد ، وأبو نواس ، ومن المضرية الحكم بن قنبر ، قال مسلم يفاخر قريشاً :

فاخرتنا بما بسطنا لها الفخـ ـر قريش وفخرها مستعار
ذكرت عزها ، وما كان فيها ـ قبل أن تستجيرنا ـ مستجار
إنما كان عزها فى جبال ترتقيها كما ترقى الوبار(١)
أيها الفاخرون بالعز والعـــز لقوم سواهمو والفخار
أخبرونا عن الأعز : أألمنـ ـصور حين اعتلى أم الأنصار ؟
فلنا العز قبل عز قريش وقريش تلك الدهور تجار

٢ — وكان الموالى فى العصر الأموى يكنون الحقد للعرب ، ويضمرون لهم العداوة ، بسبب احتقار الأمويين لهم ، وترفعهم عنهم ، وقد هموا بالدفاع عن أنفسهم ، والإشادة بمفاخرهم ، وتعداد مثالب العرب ، ولكن حريتهم كانت مكبوتة ، بحيث لم يجترىء على إعلان ذلك منهم إلا القليل .

فلما تنسموا نسيم الحرية فى العصر العباسى ، واعتد الخلفاء بهم هذا الاعتداد الذى عرفناه ، بدأوا يجهرون بالعداوة ، ويعلنون المثالب ، ويذيعون مفاخرهم وأمجادهم . ومن هنا أخذت الشعوبية تظهر بوضوح بين العرب والعجم ، بحيث يصح اعتبارها غرضاً جديداً من أغراض الشعر . وكان من شعراء الموالى الشعوبيين : بشار وديك الجن والخريمى والمتوكلى .

٣ — وكان الشعر السياسى يأخذ مكانه بين هذه العصبيات ، ويحتل أرفع المنازل ، لأنه يتصل بسياسة الدولة ، ويتعلق بالخلافة .

كان لبنى العباس شعراء يعتمدون عليهم فى إذاعة محامدهم ، والاحتجاج

---

(١) الوبار بكسر الواو جمع وبرة بفتحها وهى دويبة كالسنور .

لهم فى استحقاق الخلافة ، وأولويتهم بها دون بنى على . ومنهم : مروان ابن أبى حفصة وعلى بن الجهم ، وأبان بن عبدالحميد . وكذلك كان للعلويين شعراؤهم الذين يذودون عنهم ، ويتعصبون لهم ، ويهجون الخلفاء العباسيين ، ويلاحون شعراءهم المتعصبين . ومنهم السيد الحميرى ودعبل الخزاعى ، ومسلم بن الوليد . قال مروان بن أبى حفصة يخاطب بنى على :

خلو الطريق لمعشر عاداتهم ... حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الإله لكم به ... ودعوا وراثة كل أصيد سامى
أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام ؟

وقال الحميرى وكان علوياً :

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمد ... ولا عهده يوم الغدير المؤكدا
فإنى كمن يشرى الضلالة بالهدى ... تنصر من بعد التقى وتهودا
ومالى وتيم أو عدى وإنما ... أولو نعمتى فى الله من آل أحمدا
وإن امرأ يلحى على صدق ودهم ... أحق وأولى فيهمو أن يفندا

ولقد أحسن الرشيد إلى دعبل ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وخلع عليه وأركبه ، حين سمع بعض المغنيات تغنى من شعره :

أين الشبـــاب وأية سلكا ... لا أين يطلب ضل بل هلكا
لاتعجبى يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى
ياليت شعرى كيف يومكما ... ياصاحبى إذا دمى سفكا ؟
لاتأخذوا بظلامتى أحداً ... قلبى وطرفى فى دمى اشتركا

فلم يخفف هـذا من عصبية دعبل للعلويين ، ولم تنسه المكافأة السخية حقده على العباسيين . فلما مات الرشيد قال يمدح أهل البيت ويهجوه :

وليس حى من الأحياء نعلمهم ... من ذى يمان ولا بكر ولامضر

إلا وهم شركاء فى دمائهمو ... كما تشارك أيسار على جزر(١)
قتل وأسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر(٢)
أرى أمية معذورين إن قتلوا ... ولا أرى لبنى العباس من عذر
أربع بطوس على القبر الزكى إذا ... ما كنت تربع من دين على وطر
قبران فى طوس خير الناس كلهمو ... وقبر شرهمو ؛ هذا من العبر(٣)
ماينفع الرجس من قرب الزكى ولا ... على الزكى بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت ... له يداه فخذ ماشئت أو فذر

الوصف :

الوصف (٤) تصوير خواص الأشياء الحسية والمعنوية (٥) ، أوهو ذكر الشىء بمافيه من الأحوال والهيئات(٦) ، وأحسن الوصف ما نعت به الشىء حتى يكاد يمثله عيانا (٧) ، وما استوعب أكثر معانى الموصوف حتى كأنه يصوره لك (٨) .

والوصف أكثر أبواب الشعر العربى ، وكثير من النقاد يرى أن الشعر

---

(١) الأيسار : لاعبو الميسر ، والجزر : النوق يقامرون عليها .
(٢) الخزر بفتح الخاء والزاى جيل من الناس ضيقو العيون .
(٣) يريد قبر موسى الكاظم .
(٤) ويعد ابن رشيق الطرد والخريات من باب الوصف (٢٨٠ : ٢ العمدة) ويتابعه فى ذلك كثير من النقاد ، ويعدون أيضا شعر الطبيعة من باب الوصف (٢٥٢ التوجيه الأدبى) .
(٥) الأسلوب للشايب .
(٦) ٧٠ نقد الشعر .
(٧) ٢٧٨ : ٢ العمدة .
(٨) ١٢٣ صناعتين .

إلا أقله راجع إلى باب الوصف (١) ، وقد وصف شعراء الجاهلية كل ماوقعت عليه أعينهم من شتى ألوان بيئتهم التى عاشوا فيها ومظاهر الحياة التى ألفوها فى هذه البيئة ، وكان امرؤ القيس وأبو دؤاد وطفيل الغنوى والنابغة الجعدى من وصاف الخيل (٢) كما كان طرفة وأوس بن حجر وكعب ابن زهير ٢٤ هـ ، والشماخ من وصاف الإبل (٣) وكان عبيد بن الأبرص مجيدا فى وصف المطر (٤) ، واستمر الأمر كذلك فى العصر الإسلامى ، وانفرد بعض الشعراء بالتفوق فى بعض الأوصاف ، فكان الشماخ من أوصف الناس للقوس والخمر (٥) ، وكان ذو الرمة أوصف الناس لرمل وهاجرة وفلاة وقرادوحية(٦) وأحسن الناس وصفا المطر (٧) ، ويذكر بعض الباحثين أنه يكاديكون أكبر شعراء الوصف فى العصر المتقدم كله(٨) ، وكان ابن أحمر وهو إسلامى قديم وشاعر مجيد وصافا للحيات وعلى قوله احتذت الشعراء (٩) وللتغلبى أجود قصيدة قيلت فى وصف القط (١٠) ،

---

(١) ٢٧٨ : ٢ العمدة : ٢٥١ التوجيه الأدبى .

(٢) اقرأ وصف الجوارى الخمس لخيل آبائهن (١٧٨ : ١ الأمالى) ، ومقصورة أبى صفوان الأسدى فى وصف الخيل (٢٤٠ : ٢ الأمالى) .

(٣) ٢٨٠ : ٢ العمدة . ١٢٥ : ٣ الرافعى .

(٤) راجع قصيدتيه الحائية والقافية فى وصف المطر (١٧٣ : ١ الأمالى : ١٧٨ : ١ الأمالى أيضا) واجع وصف الأعراب للمطر (١٧١ و ١٧٣ : ١ الأمالى) .

(٥) ١٠٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ٢٠٨ : ٢ العمدة .

(٦) ٢٧ الشعر والشعراء (٧) ٣٥ المرجع .

(٨) ٢٥٢ التوجيه الأدبى .

(٩) ٣٧ المؤتلف .

(١٠) راجع ١٦٩ : ٥ الحيوان .

ولعبيد بن أيوب العنبرى إجادة وشهرة فى وصف الصحارى والمجاهل ومافيها من حياة وكائنات [١] ، وكان مزاحم العقيلى ينعت الفلوات فيجيد وشهد له بذلك الفرزدق وجرير والأخطل عند عبدالملك [٢] ، وكان الراعى أوصف الناس للإبل [٣] ، كما كان الفرزدق والحطيئة يجيدان صفات الخيل والقسى والنبل [٤] ... وفى العصر العباسى هجر الشعراء الأوصاف التقليدية فى الشعر العربى فدعا مطيع إلى وصف الجمال لا إلى وصف المهامه والقفار:

لأحسن من بيد تحار بها القطا ... ومن جبلى طى ووصفكما سلعا
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما ... له مقلة فى وجه صاحبه ترعى

ودعا أبو نواس إلى أن تفتتح القصائد بأوصاف الراح :

صفة الطول بلاغة القدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقال :

ياربع شغلك إنى عنك فى شغل ... لاناقتى فيك لو تدرى ولا جملى

وتابعه فى ذلك ابن المعتز فقال :

أحسن من وقفة على طلل ... ومن بكاء فى أثر محتمل
كأس مدام أعطتك فضلتها ... كف حبيب والنقل من قبل

وقال :

أف من وصف منزل ... بعكاظ فحومل

وكان أبو نواس شعوبيا فى مذهبه كما يقول هو :

عاج الشقى على رسم يسائله ... وعجت أسأل عن خمارة البلد
تبكى على طلل الماضين من أسد ... ثكلت أمك قل لى من بنو أسد

---

(١) راجع ٥٠ : ٦ الحيوان .
(٢) راجع ١٥٥ : ٢ ديوان المعانى .
(٣) ٢٨٠ : ٢ العمدة .
(٤) ٢٨٠ : ٢ العمدة .

ومن تميم ومن قيس ومن يمن ؟ ليس الأعاريب عند الله من أحد

ولم يكن يدعو إلى فكرة أدبية جديدة بل إلى إدخال أنواع من المجون فى الشعر [١] ، ولكن ابن المعتز كان ناقدا يبحث فى الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلائم بينهما، وينادى بتحضر الشعر وترك روح البداوة فيه ، والنقاد يختلفون فى هذه المناهج ، فابن قتيبة يدعو إلى المحافظة على سنن العرب فى ابتداء القصائد بذكر الديار والنسيب ثم وصف الرحلة إلى الممدوح والتخلص إلى المدح [٢] . ويرى ابن رشيق أنه لامعنى لذكر الحضرى الديار إلا مجازا [٣] ، وأن ليس بالمحدث من الحاجة إلى وصف الإبل والقفار لرغبة الناس فى الوقت عن ذلك الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها والأولى فى هذا الوقت صفات الخمر والقيان [٤] .

وقد أجاد الشعراء العباسيون فى الأوصاف إجادة بالغة ، وجاءوا فيها بالتشبيه المفرط البعيد [٥] ، على حين كان من قبلهم يجرون فى أوصافهم على الصدق ويسيرون فى ظل الحقائق القريبة ، وهذا مذهب من مذاهب العرب فى أن يصفوا الشيء على ماهو وعلى ماشوهد من غير اعتماد لإغراب ولا إبداع [٦] ، وأشهر قصائد الوصف سينية البحترى التى ليس للعرب مثلها كما يقول ابن المعتز [٧] ، وبرع ابن الرومى فى التصوير وخاصة فيما كان

---

(١) ١٨٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضيف .

(٢) ١٤ و ١٥ الشعر والشعراء .

(٣) ١٩٩ : ١ العمدة . (٤) ١٧٩ : ٢ العمدة .

(٥) راجع ١٢٤ : ٣ الرافعى ... والوصف مناسب للتشبيه ومشتمل عليه وليس به ، والفرق بينهما أن الوصف إخبار عن حقيقة الشيء والتشبيه مجاز وتمثيل (٢٧٨ : ٢ العمدة) .

(٦) ١٨٩ الموازنة .

(٧) ٢١٨ : ١ و ٦٤ : ٢ ديوان المعانى ، ٥٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى ، ٣٣ رسائل ابن المعتز ، ٧ و ٨ مقدمة ديوان البحترى .

يرجع منه إلى باب التهكم والسخرية ، وكان الحمدونى من أصلح الناس شعراً وأقدرهم على الوصف وكان عامة شعره فى طيلسان ابن حرب [١] ، واشتهر بجودة الوصف ابن المعتز [٢] ثم كشاجم بعده [٣] والصنوبرى وهو وحيد جنسه فى صفة الأزهار وأنواع الأنوار [٤] ، وكذلك أبو طالب المأمونى (٣٨٣ هـ) وله شعر كثير فى الأوصاف [٥] ، وكذلك السرى الرفاء وعلى ابن إسحاق الراجحى (٣٥٢ هـ) ثم ابن خفاجة وابن حمديس [٦] ، ولم يكن المتنبى من أهل الأوصاف كما يرى الواحدى [٧] .

وقد اشتهر ابن المعتز بالإجادة فى الأوصاف كلها كامرىء القيس فى الجاهليين وأبى نواس والبحترى وابن الرومى [٨] فى المحدثين ، ورسم صوراً صادقة لكل ماوقعت عليه عينه من أمور الحياة ومظاهر الحضارة ، وفى وصفه رقة وسلاسة ودقة وتفصيل وابتداع فى الأسلوب وتجديد فى التشبيه والاستعارة وإكثار من الصور الحية الرائعة ، وقد نمى ملكته فى نفسه

---

(١) ١٧٦ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٢) ٢٧٩ : ٢ العمدة .

(٣) اشتهر بوصف آلات المنادمة (١٢٦ : ٣ الرافعى) ، وكان يجيد الوصف ويحققه (٢٥٠ رسائل البلغاء) ، وله كثير من قصائد فى الوصف (راجع ٢٨٢ - ٢٨٥ : ٢ العمدة ، ١٠٤ : ٢ وما بعدها زهر الآداب) .

(٤) ٢٥٠ رسائل البلغاء .

(٥) ١٤٩ : ٤ اليتيمة - وله ترجمة فى اليتيمة (١٤٩ - ١٧٩ : ٤) .

(٦) ١٢٠ و ١٢٦ : ٢ الرافعى .

(٧) ويرد عليه العكبرى ذاهباً إلى أنه كان يحسن الأوصاف فى كل فن (١٦٥ : ٤ العكبرى) .

(٨) ويجعلهم ابن رشيق من الذين أجادوا فى كل الأوصاف (٢٧٩ : ٢ العمدة) .

دقة حسه ولطف شعوره وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال وروائع الخيال ورونق الحضارة ، وأنه يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويراً لحسه مما صرفه إلى الإجادة فى هذا الباب الذى تناول فيه وصف ألوان معيشته ومظاهر حياته وأنواع ترفه ولهوه ، وأتى فى ذلك بالرائع البليغ والجيد الممتاز وظهر فيه طابعه الخاص من أوصافه الملوكية التى تستمد صور الأوصاف من صور حياته التى كان يحياها أميرا وولى عهد وشخصية بارزة من شخصيات أسرة الخلافة العباسية التى أغرقها الترف فى عصره إلى حد بلغ فى ذلك مبلغ الأساطير .

وهكذا ظهرت براعة العباسيين فى الوصف وقدرتهم على التصوير وقد ساعدهم على الإجادة فيه والسمو بخياله ومعانيه ، ماردداه من مظاهر الحضارة وألوان الثقافة وكثرة المشاهدات ، مما يفتح أكمام الشاعرية ، وينمى الإحساس بالجمال ، ويقوى ملكة التصوير . ولقد نضجت خواطرهم بكثير من الأوصاف التى تناولت كل ماوقعت عليه عيونهم .

ومن نماذج الوصف قول على بن الجهم يصف الورد :

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه ... حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها ... وراحت الراح فى أثوابها الجدد
وقابلته يد المشتاق تسنده ... إلى الترائب والأحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صبابته ... أو مانعاً جفن عينيه من السهد
بين النديمين والخلين مصرعه ... وسيره من يد موصولة بيد
ماقابلت طلعة الريحان طلعته ... إلا تبينت فيه ذلة الحسد
قامت بحجته ريح معطرة ... تشفى القلوب من الأوصاب والكمد
لاعذب الله إلا من يعذبه ... بمسمع بارد أو صاحب نكد

وقال ابن الرومى يصف القيان العازفات على الأعواد :

وقيان كأنها أمهات	عاطفات على بنيها حوانى
مطفلات وما حملن جنينا	مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديا	ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حافلات	وهى صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى	بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه	وهو بادى الغنى عن الترجمان

ومن أجل قصائد الوصف وصف البحترى لإيوان كسرى ، وفى هذه القصيدة الرائعة يصف البحترى الإيوان بالمدائن، ويرثى دولة الفرس قال :

صنت نفسى عما يدنس نفسى	وترفعت عن جدا كل جبس(١)
وتماسكت حين زعزعنى الدهـ	ـر تماسكاً منه لتعسى ونكسى(٢)
بلغ من صبابة العيش عندى	طفقتها الأيام تطفيف بخس(٣)
حضرت رحلى الهموم فوجهـ	ـت إلى أبيض المدائن عنسى(٤)
أتسلى عن الحظوظ وآسى	لمحل من آل ساسان درس(٥)

---

(١) الجدا : العطاء . الجبس : الجبان اللئيم .

(٢) تماسكت : ثبت واعتصمت . زعزعنى : حركنى بعنف أى حين نالتنى خطوبه . التماسا : طلبا ومحاولة . التعس : الهلاك والشر . النكس : أن ينقلب الرجل على رأسه ، والمراد الهزيمة والسقوط .

(٣) بلغ : جمع بلغة وهى ما يكفى من العيش ولا يفضل . الصبابة : البقية . طفقتها : نقصتها . البخس : الغبن والظلم .

(٤) حضرت رحلى الهموم : طرأت على الأحزان . والعنس : الناقة القوية .

(٥) آسى : أحزن . وآل ساسان : أكاسرة الفرس . درس : دارس .

ذكر تذهم الخطوب التوالى ... ولقد تذكر الخطوب وتنسى(١)
وهم خافضون فى ظل عال ... مشرف يحسر العيون ويخسى(٢)
حلل لم تكن كأطلال سعدى ... فى قفار من البسابس ملس(٣)
ومساع لولا المحاباة منى ... لم تطقها مسعاة عنس وعبس(٤)
نقل الدهر عهدهن عن الجد ... ة حتى غدون أنضاء لبس(٥)
فكأن الجرماز من عدم الأنـ ... ـس وإخلاله بنية رمس(٦)
لو تراه علمت أن الليالى ... جعلت فيه مأتما بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم ... لا يشاب البيان فيهم بلبس(٧)
فإذا مارأيت صورة أنطا ... كية ارتعت بين روم وفرس(٨)
والمنايا موائل وأنو شر ... وان يزجى الصفوف تحت الدرفس(٩)

---

(١) التوالى : المتالية .

(٢) هم : آل ساسان . خافضون : ناعمون . عال : أى قصر مرتفع وهو القصر الأبيض . يحسر العيون : يضعفها إذا نظرت تتبين ارتفاعه . يخسى : يؤلم .

(٣) الحلل : جمع حلة طائفة من البيوت . والبسابس : القفار . ملس : خالية .

(٤) المساعى : المكارم . لم تطقها : لم تقدر عليها . عنس وعبس : قبيلتان .

(٥) أنضاء جمع نضو : المهزول من الحيوان أو الثوب البالى ، ولبس : استعمال أى أبلاها الدهر .

(٦) الجرماز : بناء كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره وكان عظيما بجوار القصر . والرمس : القبر .

(٧) البيان : المنطق الفصيح . اللبس . عدم الوضوح .

(٨) أنطاكية : بلد بالشام ضمت إلى تركيـــا إبان احتلال الفرنسيين لسوريا ، وفيها وقعت معركة بين الفرس والروم وقد صورت فى الإيوان . ارتعت : فزعت .

(٩) موائل : قائمات تنتظر العمل وقت الحرب ، وأنوشروان أحد الأكاسرة . يزجى : يسوق ، والدرفس : العلم الكبير .

فى اخضرار من اللباس على أصـ ـفر يختال فى صبيغة ورس(١)
وعـراك الرجال بين يديه
فى خفوت منهم وإغماض جرس(٢)
من مشيح يهوى بحامل رمح ومليح من السنان بترس(٣)
تصف العين أنهم جد أحيا ء لهم بينهم إشارة خرس(٤)
يغتلى فيهم إرتيـــابى حتى تتقراهم يداى بلمس(٥)
وكأن الإيوان من عجب الصنـ ـعة جوب فى جنب أرعن جاس(٦)
يتظنى من الكآبة أن يبـ ـدو لعينى مصبح أو ممسى(٧)
مزعجا بالفراق عن أنس إلف عز ، أو مرهقا بتطليق عرس (٨)
عكست حظه الليالى وبات المشـ ـترى فيه وهو كوكب نحس(٩)
فهو يبدى تجـلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسى(١٠)

---

(١) الورس نبات ذو صبغة حمراء .

(٢) خفوت : سكون صوت ، الجرس : الصوت .

(٣) المشيح : الحذر ، المليح : الذى يخاف ويحذر أيضا ، والترس : المجن .

(٤) تصف العين : يخيل إليها .

(٥) يغتلى : يزيد ، ارتياب : شك ، تتقرى : تتبع .

(٦) الجوب الخرق ، والأرعن الجبل ذو الرعن وهو أنف يتقدم الجبل . الجلس الجبل العالى فكان الإيوان بالنسبة إلى القصر الأبيض العظيم الذى يشمل الإيوان وغيره من الغرف ، والمقاصير : خرق فى جانب جبل أرعن وجعل الجبل أرعن لما فيه من الأجنحة والطنف ، والأبيات الآتية توضح هذا التشبيه .

(٧،٨) يتظنى : يظن ، أن يبدو : وقت أن يبدو ، ومزعجاً مفعول ثان ، ليتظنى : أى أنه يظن وقت ظهوره للعين مزعجاً بفراقه أليفا أو عروسا .

(٩) المشترى : كوكب سعد .

(١٠) التجلد : تكلف الجلد والصبر ، الكلكل : الصدر أى نازلة ، مرسى : من الإرساء والنزول .

لم يعبه أن بز من بسط الديـ ... باج واستل من ستور الدمقس(١)
مشمخر تعـلو له شرفات ... رفعت فى رءوس رضوى وقدس(٢)
لابسات من البياض فما تبـ ... ـصر منها إلا غلائل برس(٣)
ليس يدرى أصنع إنس لجن ... سكنوه أم صنع جن لإنس
غير أنى أراه يشهد أن لم ... يك بانيه فى الملوك بنكس(٤)
عمرت للسرور دهراً فصارت ... للتعزى رباعهم والتأسى
فلها أن أعينها بدموع ... موقفات على الصبابة حبس
ذاك عندى وليست الدارداری ... باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى
غير نعمى لأهلها عند أهـلى ... غرسوا من زكائها خير غرس(٥)
أيدوا ملكنا وشـدوا قواه ... بحماة تحت السنور حمس(٦)
وأعانوا على كتائب أريا ... ط بطعن على النحور ودعس(٧)
وأرانى من بعد أكلف بالأثـ ... ـراف طرا من كل سنخ وجنس(٨)

---

(١) بز : سلب ، والديباج : الثوب سداه ولحمته حرير ، والدمقس : الحرير الأبيض .

(٢) مشمخر : عال ، ورضوى وقدس : جبلان ، شرفات : ما أشرف من بناء القصر ، يشبه القصر فى ضخامته وارتفاعه بهذين الجبلين .

(٣) الغلائل جمع غلالة : وهى شعار يلبس تحت الثوب ، والبرس : بكسر الباء وضمها القطن أو ما يشبهه .

(٤) النكس : الضعيف الدنىء .

(٥) زكائها : نمائها .

(٦) السنور : كل سلاح من حديد ، وحمس : شجعان ، يشير إلى بلاء الفرس فى إقامة الدولة العباسية .

(٧) أرياط : قائد حبشى فتح اليمن قديماً ، ثم خلفه القائد أبرهة صاحب الفيل وأبناؤه ، ثم طرد سيف بن ذى يزن الأحباش بمعـاونة الفرس ، الدعس : الذود والطعن .

(٨) أكلف : أولع ، السنخ : الأصل والمنبت .

والشاعر أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى الطائى صاحب القصيدة تخرج على أبى تمام ، ولكنه لم يسلك فى شعره نفس الطريقة التى سلكها أستاذه ، وإنما كان يتوسط بعض الشىء فمال إلى الناحية العربية الخالصة ميلا ظاهراً ، فجاء فى شعره شىء من البديع ، والحرص على الصنعة وعلى التدقيق فى المعانى ، ولكن عنايته باللفظ الجزل على أسلوب الفحول من شعراء القرن الثانى ظاهرة جلية ، والبحترى وصاف بارع فى الوصف ، ولكن ميله إلى وصف الحضارة المادية أشد من ميله إلى وصف المعانى ، وهو مصور ماهر لعواطف النفس ، قادر على أن يرثى فيبكيك ، وعلى أن يستعطف فيعطفك ، ويبلغ الغاية فى ذلك من نفسك دون أن يتكلف فيه عناء ، وهو غزل خفيف الروح إذا تغزل ، مادح موفق إذا مدح .

وقد أحيا البحترى عمود الشعر العربى بعد أن زعزعه تجديد بشار وأبى نواس وأبى تمام ، ويمثل فى شعره غاية الذوق والترف الفنى ، وأثر الحضارة فى الشعر وفى صناعته ، وموسيقاه وعذوبة ألفاظه ، وأسلوبه . مما يضرب به المثل ، ومن ثم قال النقاد : « أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحترى » .

والبحترى كما يقول عبد القاهر فى كتاب « أسرار البلاغة » : إنك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب ، ما يعطى البحترى ، ويبلغ فى هذا مبلغه .

وهذه القصيدة فى جملتها ترشد إلى البحترى وخصائص شعره ، وتدل على مكانته من البلاغة ومنزلته فى الشعر ، وطبقته بين الشعراء العباسيين ، وكفى البحترى مجداً أن يكون له مثل هذه القصيدة . فهى فريدة فى الشعر العربى ، وقد سبق بها البحترى إلى فن جديد فى الشعر العربى هو وصف الآثار والمدن البائدة .

فهى من أروع مانظم من قصائد الوصف ورثاء الآثار والدول فى الشعر العربى .

ويبدو أن البحترى نظمها وهو فى قمة مجده الشعرى، وقد ذكرها مرتين فى شعره ، مرة منهما وهو يمدح ابن ثوابة :

قد مدحنا إيوان كسرى وجئنا نستثيب النعمى من ابن ثوابة

ولم يختر يافوت من كل شعر البحترى سوى هذه السينية .

ووحدة القصيدة ظاهرة ، فهى فى موضوع واحد ، وفكرة واحدة ، وهى مرتبطة العناصر متصلة الأجزاء بعضها بالبعض الآخر . وقد وفق الشاعر فى وصف الإيوان ، ووصف إعجابه به وببنائه وبناته ، وفى رسم شعوره ، وهو واقف أمامه يتأمل هذا الأثر الكبير ، ويخشع لجلاله .

وقد بدأ الشاعر قصيدته بالثورة على الزمان ، والنقمة على الحظوظ وعلى رضاه بالإقامة فى العراق وتركه الشام وطنه ؛ فرأى أن يرحل إلى مدائن كسرى عساه يجد فيها مايزيل همه .

ويأخذ الشاعر فى وصف القصر الذى به إيوان كسرى ، فصوره عاليا شاهقا ، حتى لتضعف العين أن تتبين مدى ارتفاعه . وبين ماكان له من سلطان واسع ، وذكر مجد الفرس القديم ، وحضارتهم التى لاتساويها ماكان للعرب فى صحرائهم قبل الإسلام من مفاخر وآثار وأطلال دراسة ، ولا يصل إليها ماكان لقبائلهم من أعمال . . لكن الدهر لم يبق على حظوظ هذه الآثار ، ولم يحافظ على عهدها ، فصارت هذه القصور وكأنها قبور .

ووقف الشاعر أمام صورة فى هذا القصر ملكت عليه قلبه ، وهى صورة معركة حربية دارت عند مدينة أنطاكية بين الفرس والروم ، وقد

أجاد المصور تمثيل الرهبة التى تسيطر على المعركة حتى ليخيل لرائيها أن الموت ماثل فيها ، يريد أن يختطف النفوس ، بينما كان أنو شروان واقفا تحت علمه الكبير يحرض الجيش على القتال ، ولم ينس المصور أن يلون ثوب كسرى وجواده ، وأن يجيد تصوير المتحاربين حتى لكأنهم أحياء حقا ، فيندفع الشاعر إلى الصورة يتحسسها بيده ايرى أصورة هى أم حقيقة .

ويمضى الشاعر بعد ذلك فى وصف الإيوان ، فيصوره كأنما هو من عمل الطبيعة ، لامن صنع الإنسان ، ويتخيله كئيبا أزعجه فراق صاحب يؤنسه أو زوج أرهقه طلاقها ، فانقلبت سعادته شقاء ، ومع ذلك فهو يكافح أحداث الدهر ، والدهر يريد تحطيمه . إنه جليل فى العين لم ينقص من جلاله خلوه من البسط والستور .

ويتساءل البحترى فى دهشة عما أحاط به ، وتملكه من جلال روعة صنع هذا الصرح : أهو من صنع الإنس للجن ، أم من صنع الجن للإنس ؟ .

ويمضى البحترى متخيلا ماكان عليه القصر من ازدحام الوفود ببابه وامتلائه بالمغنيات يخطرن فى أرجائه ، وكأنما كان ذلك من وقت قريب وكأنما قد فارقه السكان أمس أو أول أمس .

ويختم القصيدة بدمعة يذرفها على هذا القصر الذى عمر بالسرور دهراً ثم صار موطن عزاء وتأس .

وهنا يذكر الشاعر البحترى أسباب تمجيده لهذا الأثر العظيم ، وهى : أيادى الفرس على العرب فى إقامة الدولة العباسية وتثبيت أركانها ، وأياديهم كذلك فى القديم فى طرد الحبشة من أرض اليمن ، وسبب آخر كذلك هو أن الشاعر رجل يحب الماجدين من أى شعب وأية أمة .

وصف الطبيعة :

ويتصل بشعر الوصف شعر الطبيعة ووصفها اتصالا وثيقا .

فالطبيعة توحى للشعراء فى كل عصر بكثير من المعانى والآثار الأدبية الرائعة ، وقد افتن بها الشعراء وصوروها فى مختلف مظاهرها ورسموا لها صورا تجمع غالبا بين صدق الأداء وبراعة الوصف وإظهار الدقائق والتفاصيل وحرارة الإحساس .

صورها شعراء الإغريق وخاصة هوميروس فى إلياذته (١) ، كما صورها الشعراء الجاهليون فى قصائدهم وآثارهم التى تشابهت رغم تعددها وخلت من مظاهر التنوع والكثرة وخصوبة التصوير ، ولكنها على أى حال صورة صادقة لتلك البيئة ، فامرؤ القيس فى معلقته يذكر المطر والبرق كما يذكر يوم الغدير ولذاته فى نظرة عابرة ، والأعشى يصف روضة من الرياض فى لاميته ، وعنترة يصف الذباب وهو يغنى بها فى معلقته كما يصف فرسه والمعارك التى خاضها ، وهكذا تجد فى الشعر الجاهلى والإسلامى صورا كثيرة لمظاهر الطبيعة القريبة من نجوم وسماء وأنهار وأماكن وقفار ورمال .

وفى العصر العباسى أخذ الشعراء يهتمون بأوصاف الطبيعة من ربيع ورياض وأزهار وأنهار وبرك ، ومن سماء ونجوم وكواكب ، ورائية أبى تمام فى الربيع ، وهائية البحترى فى وصف بركة المتوكل وجيميته فى الربيع

---

(١) ويرى بعض الباحثين أن شعر الطبيعة شعر حديث ليس له صلة بالأدب اليونانى القديم (راجع ٩٨ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى) .

ملاحظة : شعر الطبيعة هو الشعر الذى يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه ، والطبيعة : الحى مما عدا الإنسان ، والصامت كالحدائق والحقول والغابات والجبال وما إليها (ص ١ ؛ شعر الطبيعة فى الأدب العربى تأليف السيد نوفل ط ١٩٤٥)

مثل جيدة لشعر الطبيعة فى هذا العهد . وللغزال يحيى بن الحكم البكرى الشاعر الأندلسى المشهور لامية مشهورة [١] وصف فيها البحر ورحلته إلى قسطنطينية موفداً من قبل عبد الرحمن بن الحكم بن هشام عام ٢٢٥ هـ إلى امبراطور الروم فى مهمة سياسية ومنها :

قال لى يحيى وصرنا بين موج كالجبال
وتولتنـــا رياح من دبور وشمال
فرأينا الموت رأى العين حالا بعد حال

ولعبد الصمة بن المعذل قصيدة طويلة فى روضة جميلة [٢] ، واشتهر السرى والصنوبرى م ٣٣٤ هـ ، والتنوخى م٣٨٤ هـ بالروضيات [٣] ، ولابن وكيع م ٣٩٣ هـ قصائد فى الرياض [٤] .

وفى الحق أن العباسيين قبل أبى تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز كانوا قلما يلجأون إلى تصوير الطبيعة التى عاشوا فيها ، وقد ألم بها البحترى وأبو تمام إلماما دون أن يتصل حبها بأعماق قلبيهما ، وأقبل ابن الرومى عليها يصورها تصوير العاشق المفتون حيث أولع بالطبيعة وتصويرها وكان يحبها حبا جما فلا فرق عنده بين الطبيعة والشعور ولا يكاد ينظر إلى إنسان إلا تذكر الروضة والبستان [٥] ، وقد علل العقاد ذلك بيونانيته [٦] .

---

(١) ١٤٤ : ١ نفح الطيب .
(٢) ١٥ : ٢ ديوان المعانى ، وراجع ٤٠ : ٢ المرجع نفسه .
(٣) ٣١ : ٢ المرجع .
(٤) راجع ٣٢٩ - ٣٣١ : ١ اليتيمة .
(٥) راجع ٢٨٢ - ٢٨٨ ابن الرومى للعقاد .
(٦) ٢٨٢ المرجع ، وينقد ذلك الرأى صاحب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » (٩١ و ٩٩) .

ووراثته اليونانية أصل فنه الأدبى عند العقاد، ويضيف إليها طه حسين الثقافة اليونانية الإسلامية التى كان يتثقفها الشعراء فى القرن الثالث (١) ، ففيه يونانية أصلية ويونانية مكتسبة أهم من الأولى ، وفيه أيضا إسلامية مكتسبة ففى فنه عناصر ثلاثة تؤثر فيه لا عنصر واحد (٢) .

وكان ابن المعتز شاعر الطبيعة (٣) ووصافها الممتاز ، وله كثير من الآثار فى وصف شتى مظاهرها من رياض وأزهار وقصور وطيور وبرك وميادين ومن نجوم وكواكب وأفلاك وسوى ذلك من شتى أوصاف الطبيعة ، كان يعيش مع الطبيعة عيشة الهائم المتبتل والفنان الشادى والمصور المفتون ؛ منحها شعوره وشعره وهيامه وفنه أكثر من أى شاعر آخر سبقه وأولع بتصوير كثير من مظاهرها المتعددة .

وإن شئت فانظر إلى تصويره للربيع ، حدث جعفر بن قدامة قال : كنت أسرح مع ابن المعتز فى يوم من أيام الربيع بالعباسية والدنيا كالجنة المزخرفة فقال :

حبذا آذار شهر فيه للنور انتشار
ينقص الليل إذا جا ء ، ويمتد النهار
نقشه آس ونسر ين وورد وبهار(٤)
وعلى الأرض اخضرار واصفرار واحمرار

---

(١) ٢٣٧ من حديث الشعر والنثر .

(٢) ٩٣ الفن ومذاهبه .

(٣) ويقول أحد الباحثين عنه : كان يحب الطبيعة ويفتن بها لكنه تستهويه الصورة قبل كل شىء ، وهو فى إخراجه للصور والأشكال يحتال ويتأنق ويكتفى بالإشارة ويستخدم براعة عجيبة (١٨٢ شعر الطبيعة فى الأدب) ، فهو مفتون بالطبيعة يرى فيها صوراً جذابة (١٨٨ المرجع) .

(٤) ١٤٥ : ٩ الأغانى .

فكأن الروض وشى بالغت فيه التجـــار

وانظر إليه يصف الروض والأزهار والطبيعة :

والروض مغسول بليل ممطر جلالنا وجه اثرى عن منظر
كالعصب أوكالوشى أوكالجوهر من أبيض واحمر واصفر
والشمس فى اضحاء جو أخضر كدمعة حائرة فى محجر
نسق عقارا كالسراج الأزهر يديرها كف غزال أحور
تخبر عيناه بفسق مضمر يعلم الفجور من لم يفجر

وأبو هلال يعجب بهـــذه الأوصاف (١) ، ومن شعره كذلك فى وصف روضة :

تضاحك الشمس أنوار الرياض بها كأنما نثرت فيهـا الدنانير
ويأخذ الريح من دخانها عنقا كأن تربتها من مسك كافور (٢)

ويقول :

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت مثل النساء تبرجت لزناة
والريح قد باحت بأسرار الندى وتنفس الريحان بالجنات

وهو من قول ابن الرومى :

أصبحت الدنيا تروق من نظر بمنظر فيه جلاء للبصر
تبرجت بعد حياء وخفر تبرج الأنثى تصدت للذكر

ومن روائع شعر الطبيعة قصيدة أبى تمام فى وصف الربيع ، ومنها :

---

(١) ١٦ : ٢ ديوان المعانى .
(٢) ٢١٤ : ١ فوات .

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر ... وغدا الثرى في حليه يتكسر (١)
بذلت مقدمة المصيف حميدة ... وبدا الشتاء جديدة لا تكفر (٢)
لولا الذي غرس الشتاء بكفه ... قاسي المصيف هشائماً لا تثمر (٣)
كم ليلة آسى البلاد بنفسه ... فيها ويوم وبله مثعنجر (٤)
مطر يذوب الصحو منه وبعده ... صحو يكاد من الغضارة يقطر (٥)
غيثان فالأنواء غيث ظاهر ... لك وجهه والصحو غيث مضمر (٦)
وندى إذا دهنت به لمم الثرى ... خلت السحاب أتاه وهو معذر (٧)
أربيعنا في تسع عشرة حجة ... حقا فإنك للربيع الأزهر (٨)
ما كانت الأيام تسلب بهجة ... لو أن حسن الروض كان يعمر (٩)
أولا ترى الأشياء إن هي غيرت ... سمجت وحسن الأرض حين تغير (١٠)
يا صاحبي تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور (١١)

---

(١) تمرمر : تتمايل ، الثرى : التراب ، الحلى : الزينة ، يتكسر : يتثنى .
(٢) بذلت : امتهنت .
(٣) الهشائم جمع هشيم وهو النبات اليابس المتكسر .
(٤) آسى : ساوى أو أنال ، الوبل : المطر ، المثعنجر : السائل من المطر .
(٥) الغضارة : الخصب والسعة ، يقطر : يسكب الماء .
(٦) الغيث : المطر ، الأنواء : تجمع الأمطار .
(٧) اللمة : الشعر المجاور شحمة الأذن أضافها للثرى وهي الأرض مجازاً . خلت : ظننت ، المعذر : الذي نبت له عذار وهو الشعر النازل على اللحيين .
(٨) الحجة : المرة والسنة .
(٩) يعمر : يعيش كثيرا .
(١٠) سمجت : قبحت .
(١١) تقصيا : تتبعا آخره .

ثريا نهاراً مشمسا قد شابه زهر الربى فكانما هو مقمر (١)
دنيا معاش للورى حتى إذا حل الربيع فإنما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نوراً تكاد له القلوب تنور (٢)
من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين إليك تحدر (٣)
تبدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفر (٤)
حتى غدت وهداتها ونجادها فتنين فى حلل الربيع تبختر (٥)

إن الربيع سحر وشباب . وروعة وجمال . ونور ونور . وورد وزهر ، وطبيعة طلقة متفتحة ، وحياة فتية متجددة ؛ والربيع دائما قد ألهم الشعر روائع القصائد ، وغرر الفرائد والقلائد فلا بدع أن يلهم الشاعر العربى الكبير الخالد أبا تمام فينطق بهذا الوصف الرائع الجميل .

يقول أبو تمام : إن الدهر بمقدم الربيع رقت حواشيه فهى تتمايل ، والثرى امتلأ زهورا ونباتا فهو يتمايل بتمايلها .

والربيع قد اشترك فى ميلاده مقدمة المصيف الحميدة ويد الشتاء الجديدة التى لاتكفر . فلولا غراس الشتاء الذى قدم بكفه له بالماء والنماء لما أثمر الربيع زهرا وروحا وريحانا ، ولرعى الناس فى الصيف هشائم لاتنبت ولا تثمر .

وكم ليلة أعطى الربيع البلاد فيها بنفسه وجوده ، وكم يوم أغدق على

---

(١) شابه : خالطه ، الربى : التلال . (٢) النور الزهر .
(٣) ترقرق : تجرى جريا سهلا ، تحدر : تسكب الدمع .
(٤) الجميم : النبات المغطى الأرض ، العذراء : البكر ، تخفر : تستحى .
(٥) الوهدات : المنخفضات . النجاد : المرتفعات ، الفئة : الطائفة ، الحلل : الثياب ، تبختر : تتمايل .

الحياة والناس المطر والماء فتتقلب الأرض على يديه من صحو إلى غيم ومطر، ومن مطر إلى صحو مشرق فتان نضر يكاد من خصبه يسيل الماء ، فالأرض بالربيع فى غيثين : غيث ظاهر هو المطر المنسكب ، وغيث خفى هو الصحو غب المطر الذى تمتلىء الأرض فيه بالنبات والزهور ، وفى الربيع يتساقط الندى على وجه الأرض حتى ليظن أن السحاب مطرها مطرا خفيفا .

ثم يخاطب الشاعر الربيع الذى صادف بدؤه فى التاسع عشر من ذى الحجة أو فى عام ٢١٩ هـ . فيقول له : إنك حقا للربيع الأزهر المشرق الجميل .

ويذكر الشاعر أن الربيع سوف ينتهى وحسنه سوف يتبدد ، وجماله سوف ينقص . فيقول فى أسف : إن الدهر ما كان يسلب بهجته لو أن حسن الرياض كان دائما أبداً لايزول ولا يحول .

ثم يقول الشاعر إن من الأشياء ما إذا ناله تغيير قبح وصار دميما ولكن حسن الأرض وجمالها فى تغيير الفصول من شتاء إلى ربيع إلى صيف فخريف ، والفصول تسير حتى تكتمل بالربيع ، الذى تكتمل به الأرض بهجة وجمالا .

ثم يخاطب صديقيه المتخيلين فيقول لهما : لو أنكما أمعنتما النظر لرأيتما كيف تنتقل الأرض من حالة إلى حالة وكيف تبدو كل يوم بوجه جديد ، والذى يمعن النظر للطبيعة فى الربيع يعجبه منظر شعاع الشمس الذى يتساقط بالنهار على الزروع وعلى زهور الربى ، فيبدو النهار وكأنما هو ليل مقمر منير .

وما أروع منظر الدنيا فى الربيع ، إنها قبله دنيا معاش وسعى للناس ، فإذا حل الربيع فإنها تنقلب فتصبح دنيا جمـــال وبهجة وسرور ومتعة خالصة .

وما أروع منظر الزهور بين الحشائش والنباتات حيث تبدو تارة وتحجبها النباتات أخرى ، فكأنها عذراء تظهر محاسن وجهها تارة ، ثم تختفي تارة أخرى ، وما أبدع ما اكتست به هضاب الأرض ووهادها من نبات وحشائش حتى لتبدو وكأنها فتنان وجماعتان تتمايلان فى حلل الربيع . حيث تأخذ بطونها تخرج على ظهرها الزهر والزرع والنبات الذى تكاد القلوب تنور به ! واعجب لما تخرجه الأرض فى الربيع من زهرة تترقرق بالندى فتتفتح ويتساقط من فوقها حتى لتظنها عينا تطل عليك وترنو إليك .

وهكذا يصف أبو تمام الربيع وأثره فى إيقاظ الطبيعة ، وإحياء الأرض وما تمتلىء به الدنيا فيه من جمال ونضرة وحسن ساحر .

وفى أسلوب أبى تمام كثير من ألوان الصناعة الشعرية ، وكثير من صنعة البديع من طباق وجناس ومقابلة وسواها ، وذلك فن اشتهر به أبو تمام ، وتفوق فيه . ولغة أبى تمام هنا حسنة وألفاظه فيها بعض الغرابة : ومن بين ألفاظه لفظة « مثعنجر » .

ووصفه للربيع فى جملته وصف لمظاهره المادية الخارجية .

وللصنوبرى (٣٣٤ هـ : ٩٤٥ م) (١) فى الربيع :

إن كان فى الصيف ريحان وفاكهة ... والأرض مستوقد والجو تنور
وإن يكن فى الخريف النخل محترقا ... فالأرض عريانة والجو مقرور
وإن يكن فى الشتاء الغيث متصلا ... فالأرض محصورة والجو مأسور
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا ... جاء الربيع أتاك النور والنور
تبارك الله ما أحلى الربيع فلا ... تغرر فقايسه بالصيف مغرور

والصنوبرى من كبار شعراء الطبيعة فى الأدب العربى ، يجمع إلى ذلك ولوعا شديدا بالسماء والضياء والهواء ، مع التطلع إلى أسرارها الجميلة ، وكان كشاجم صديقا له .

---

(١) ١ : ٦١ فوات الوفيات لابن شاكر .

الصيد والطرد :

من باب الوصف شعر الطرد والصيد ، وقد كثر فى العصر العباسى الصيد ووصف افتراسه ، وكان مألوفا ببساطة فى الشعر الجاهلى لأنه كان مألوفا فى الحياة الجاهلية الساذجة ، وفى شعر النابغة مثل كثيرة له ، وكذلك عند بعض الشعراء سواه : وفى العصر الإسلامى هجر الناس اللهو وعاشوا حياة كلها جد وإقدام ونشاط وعمل ، فانصرفوا عن الصيد إلا قليلا منهم كالشمردل ابن شريك[١] فله فى الصيد والطرد أراجيز حسان[٢] .

وفى العصر العباسى نبغ أبو نواس فى الطرد وكاد أن يخلق هذا الباب خلقا جديداً ، فنظم الأراجيز فى وصف كلاب الصيد : وآلاته وافتراسه ووصف الرحلات التى كان يقوم بها للصيد واشتهر بالإجادة فى هذا الباب وعكف عليه تجويداً وتجديدا ولم يتابعه أحد من الشعراء بعده فيه إلا ابن المعتز الذى اشتهر بالصيد والطرد شهرة أبى نواس[٣] ، ويشيد بطردهما الحاتمى فى مناظرته للمتنبى[٤] ، وللناشىء م ٢٩٣ هـ طرديات على أسلوب أبى نواس[٥] .

وقد وصف شعراء الصيد ورحلاته وآلاته من كلاب وفهود وبزاة وغربان وصقور وسواها من أسلحة ، ووصف لذاته به ولهوه فيه ، كل ذلك فى قصائد يغلب أن تكون من الرجز ويغلب عليها صبغة الغريب ، وهى مع ذلك

---

(١) شاعر إسلامى من بنى غطفان وكان شاعر فصيحاً وفارساً شجاعا (٣٦٦: ١ شرح الحماسة) .

(٢) ١٣٩ المؤلف . (٣) ٢٨٠ : ٢ العمدة ، ١٢٥ : ٣ الرافعى .

(٤) ٥٠٩ : ٦ معجم الأدباء .

(٥) ٤٧١ : ١ وفيات الأعيان .

جميلة ساحرة دقيقة الوصف والتصوير والتشبيه ، وطرديات ابن المعتز هى الباب السابع من ديوانه ، وفيها كثير من الصور البيانية الجميلة والتشابيه الساحرة البديعة مما يرفع من مكانته فى هذا الفن الذى لاينطق فيه إلا القليل من الشعراء ، يقول يصف كلبة الصيد :

لما تعرى أفق الضياء ... مثل ابتسام الشفة اللمياء
وشمطت ذوائب الظلماء ... قدنا لعين الوحش والظباء
داهية محذورة اللقاء ... تحملها أجنحة الهواء
أسرع من جفن إلى إغضاء ... وخطفا موثق الأعضاء
كأثر الشهاب فى السماء ... ويعرف الزجر من الدعاء
بأذن ساقطة الأرجاء ... كوردة السوسنة الشهلاء
ذا برثن كثقب الحذاء ... ومقلة قليلة الأقذاء
صافية كقطرة من ماء

ويقول :

لما غدونا بسحر ... نأخذ أرضا ونذر
وقام رام فابتدر ... أوتر قوسا وحسر
إذا رمى الصف انتشر ... فارتاح من حسن الظفر

ويصف كلاب الصيد فيقول :

عواصف مشابهات الأمد ... لما عدون وعدت خيل الطرد

فبلغ نهاية الجودة فى تشبيهها بالعاصفة ، ويشبهها بزوبعة الريح فيقول :

وزوبعة من بنات الرياح ... تريك على الأرض شدا عجب

لها مجلس فى مكان الرديف كتركية قد سبتها العرب

وقال فى البازى :

يحز أعناق الرياح حزا
وسامها قبضا ونقدا وخزا
يطلب فى رؤوسهن كنزا

والبيت الأخير فى نهاية الروعة والجودة ، ويقول فى كلبة صيد :

وكلبة غدا بها فتيان أطبقهم من يده الزمان
كأنها إذا تمطت جان والنجم فى مغربه وسنان
والصبح فى مشرقه حيران كأنه مصبح عريان

فستجد روعة لا يماثلها روعة فى التصوير والوصف .

الخمريات :

ومن الوصف شعر الخمريات ، وهو كثير فى العصر العباسى ووصف الخمر ومجالسها قديم فى الشعر العربى ، وكان الأعشى إمام هذه الصناعة فى الجاهلية (١) ، وممن ألموا بوصفها عمرو بن كلثوم فى معلقته ، وبعد عهد الجاهلية اشتهر بوصفها أبو محجن الثقفى (٢) وعمرو بن حسان بن هانى (٣) ويزيد بن معاوية (٤) والوليد بن يزيد (٥) وقد ذهب به الشراب كل

---

(١) ٢٤ حلبة الكميت للنواجى . (٢) ١٦٢ الشعر والشعراء .

(٣) ٢٣٢ معجم الشعراء .

(٤) ٩٧ و ٣٤٢ حلبة الكميت ، وله فيها أشعار (٣٠ و ٠٠ و ٤٨ و ١٢٢ و ١٣٩ حلبة الكميت) وربما كان ذلك من دعاية خصومه السياسيين .

(٥) ٩٨ حلبة الكميت ، والأغانى .

مذهب (١) ، ثم أبو الهندى (٢) .. وجاء العصر العباسى وأغرق الشعراء فى وصف الخمر ، وبالغوا فى ذمها وأسرفوا فى الحديث عنها ، والدعوة إليها ، وجعلوا القصيدة وقفا على هذا الفن أو استهلوها بتحسين شربها ، بدلا من وصف الأطلال . أما قبل هذا العصر فلم يكن واصف الخمر فناً مستقلا من فنون الشعر . وكان الشعراء يلمون بها إلماماً ، ويتحدثون عنها فى غير إغراق ولا سرف . حتى جاء أبو الهندى عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحى من مخضرمى الدولتين ، وكان رقيق الدين ، فاسد الخلق ، مدمناً للخمر ، فأخذ يشيد بها ويحض عليها ويزينها للناس ، كما فى قوله :

قل للسرى أبى قيس أتهجرنا ودارنا أصبحت من داركم صددا
أبا الوليد أما والله لو عملت فيك الشمول لما فارقتها أبدا
ولا نسيت حياها ولذتها ولا عدلت بها مالا ولا ولدا

ثم جاء أبو نواس وندماؤه ، فقدموها فى المطالع ، وأفردوا لها القصائد ، وأمعنوا فى نعتها ماوسعهم الإمعان ، وأغرقوا فى مدحها ما وجدوا السبيل إلى الإغراق ، وأكثروا من القول فيها حتى غلبت على شعرهم ، وحتى بلغ ما قاله أبو نواس فيها بضعة آلاف من الأبيات .

ومن فرائده الخمرية :

ياشقيق النفس من حكم نمت عن ليلى ولم أنم (٣)
فاسقنى البكر التى اختمرت بخمار الشيب فى الرحم (٤)

---

(١) ٣٢٨ : ٤ العقد ، وراجع ترجمته فى مهذب الأغانى (٥٧ - ٩٢ : ٧) ، والوليد هو الذى جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها وأخبارها ولغاتها (١٣٤ فهرست) .

(٢) ٢٢ و ٩٦ حلبة الكميت ، ٤١ : ٢ الكامل ، ٣٢٢ : ٤ العقد ، ٥٨ - ٦١ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٣) حكم : مخلاف من اليمن ينسب إليه أبو نواس .

(٤) خمار الخمر مايعلوها من الزبد .

ثمت انصات الشباب لها ... بعد ماجازت مدى الهرم (١)
فهى لليوم الذى بزلت ... وهى ترب الدهر فى القدم (٢)
عتقت حتى لو اتصلت ... بلسان ناطق وفم
لاحتبت فى القوم ماثلة ... ثم قصت قصة الأمم
قرعتها بالمزاج يد ... خلقت للسيف والقلم
فى ندامى سادة زهر ... أخذوا اللذات من أمم
فتمشت فى مفاصلهم ... كتمشى البرء فى السقم
فعلت فى البيت إذ مزجت ... مثل فعل الصبح فى الظلم
فاهتدى سارى الظلام بها ... كاهتداء السفر بالعلم

ولابن طباطبا (٣٥٢ هـ) :

أأترك الشرب والأنوار دائمة ... والطل منها على الأشجار منثور
والغصن يهتز كالنشوان من طرب ... والورد فى العود مطوى ومنشور
لا ، والتى تركتنى يوم فرقتها ... كأنما الرمل فى عينى منثور (٣)

وهذه هى سينية أبى نواس المشهورة فى وصف الخمر، قال أبو نواس فى الخمر:

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس (٤)
مساحب من جر الزقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان : جنى ويابس (٥)

---

(١) انصات أجاب . (٢) بزلت بالمجهول صبت وسالت .
(٣) ٤٩ المغرب لابن سعيد .
(٤) الندامى جمع ندمان جليسك على الشراب . عطلوها أخلوها ، والإدلاج السير أول الليل، والدارس البالى . يريد الشاعر داراً اجتمع فيها بصحبه وشربوا فيها الخمر ثم تركوها وتركوا فيها آثاراً جديدة وقديمة بالية .
(٥) الزقاق جمع زق وعاء الخمر . الثرى التراب الندى أراد الأرض ، والأضغاث جمع ضغث الحزمة من العشب ، والجنى الحديث العهد بالقطع . وهذا البيت بيان الأثر الذى تركوه من الخطوط على الأرض من جر الزقاق ومن حزم الرياحين اليابسة لطول العهد على قطعها والحديثة التى قطعت لوقتها .

حبست بها صحبي وجددت عهدهم ... وإني على أمثال تلك لحابس(١)
تدور علينا الراح في عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس(٢)
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها ... مهاً تدريها بالقسي الفوارس(٣)
فللخمر مازرت عليه جيوبهم ... وللماء مادارت عليه القلانس(٤)

دراسة لهذه القصيدة :

أقام أبو نواس أياما في رفقة كريمة عليه يتمتعون في ظل عيش رخي ، وحياة خالية من الهموم ، تدار عليهم الخمر في كئوس ذهبية فأراك صورة الشرب يتساقون الكئوس ويتهادون بالرياحين وقد ذبل بعضها وبقي بعضها غضا جديداً كعهد الشاربين به ، وأراك الكئوس الفارسية وقد تأنق صانعوها فزينوها بصور تزيدها جمالا ، فهذه صورة كسرى في قرارة الكأس وفي جوانبها فوارس تصطاد الوحش ، وأراك مقدار الخمر في الكئوس وكمية الماء فيها .

---

(١) يريد أنه ألزم من صحبه هذه الدار حيث توفروا على اللهو والشراب وأعادوا العهد على مثل هذا العبث ، وهو حريص على أمثال هذه شديد الاهتمام بها .

(٢) الراح الخمر . والعسجدية منسوبة إلى العسجد أي الذهب ، والمراد أن الكأس مذهبة ، وحباها منحها . وفارس : الدولة المعروفة .

(٣) قرارتها أسفلها ، والمها جمع مهاة البقرة الوحشية . وادرى الصيد ختله . والقسي جمع قوس . والفوارس جمع فارس راكب الفرس ـ والمعنى أن الكأس محلاة بصورة كسرى في أسفلها ، أما جوانبها فمحلاة بصور فرسان ينتهزون غفلة المها ليرموها بسهام أقواسهم .

(٤) الجيب طوق القميص . والقلانس جمع قلنسوة ، يقول : إنهم كانوا يشربون الخمر ممزوجة ، يصبون الخمر حتى تبلغ أعناق صور الفوارس ثم يمزجونها بالماء حتى تغطي رؤسهم .

وهذه القصيدة تصور لك ثورة أبي نواس على القديم فهو فيها لا يبكى طللا ولا يقف على رسم ، إنما يبكى داراً للهو والمجون قضى فيها أياما ثم تركها وفى نفسه حنين إليها وشوق إلى استعادة مثلها . وقد كان أبو نواس ينعى على المقلدين من الشعراء وصفهم لحياة البادية وهم يعيشون فى حياة حضرية بلغت الذروة فى الرقى الاجتماعى والثقافى .

وشاعرية أبي نواس كما تبدو فى هـذه القصيدة قوية فياضة متأججة الشعور مضطرمة العاطفة ، ملتهبة الإحساس ، والشاعر هنا مؤمن بالتجديد حريص عليه يسير على أسلوب القصيدة العربية ومنهجها فى شعره فى كل شىء ؛ إلا فى عرض قصيدته ، الذى كان جله فى وصف الخمر ، والدعوة إلى ترك مساءلة الأطلال .

وقد كان أبو نواس مفخرة من مفاخر العربية وآدابها ، وكان شعره من أقوى مظاهر التجديد فى الشعر العباسى ، لذلك عد رأس مدرسة من مدارس المحدثين بعد بشار ومدرسته الشعرية . وقد جمع أبو نواس فى شعره خلاصـــة من معانى شعر المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ، وأضاف إليها صورا جديدة من معانيه المبتكرة ومعانى الذين عاش بينهم من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى ، وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وآدابها على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين فى الجد والهزل ، وأشهر من حاكاه شاعرنا منهم وصب على قوالب معانيه : بشار بن برد .. وقد كانت أكثر معانى أبي نواس المبتكرة وتشبيهاته البديعة فى الخمريات التى فاق فيها كل من سبقه من أمثال الأعشى والأخطل والوليد بن يزيد فيما نسب إليه من الخمريات إن صدقا أو كذبا ؛ ثم فى الغزل بالمذكر ، ولا غرابة فى ذلك فعنه وعن شيطانه والبة شاع هذا النوع وذاع ، ومن معانيه استمد شعراء المولدين بعده . على أن له فى الأغراض الجدية معانى لم يحم حولها شاعر ، كما أن له فيها وفى غيرها معانى مبتكرة .

والمشهور عنه فى قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم ينحى عليها بحذف الردىء والمكرر ، وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيوناً . فهو من أمثال زهير والحطيئة والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة قصيرة . وكان إذا مدح أصدقاءه ومن له عليه دالة راعى أسلوب الحضريين : دماثته ولينه ورقة نسجه . ومهد للمديح بذم الديار والأطلال والنوق والجمال ، ودعا إلى معاقرة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغانى ومباكرة الرياض ونحو ذلك ، وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد . وكذلك كان يرقق القول فى المقطعات والخمريات ، ويسف إلى أن يقارب .

الحكمة :

الحكمة هى آثار التفكير فى الإنسان والمجتمع والوجود والحقائق والأشياء وهى ثمرات العقل الإنسانى والإحساس الفكرى بالحياة .

والحكمة قديمة فى الشعر العربى نجدها فى الجاهلية فى شعر زهير وأضرابه وفى الإسلام فى شعر كعب الغنوى (١) وكثير من الشعراء ، وكان الحارث بن كلدة طبيب العرب المشهور شاعرا ذا حكمة فى شعره (٢) .

وكان عمران بن حطان أشعر الناس فى الزهد (٣) ، وكان القطامى كثير الأمثال فى شعره (٤) وكان أبو بكر بن محمد بن عبيد الله الكوفى جل أشعاره آداب وأمثال وأدرك الدولتين (٥) . ثم جاء عصر المحدثين ،

---

(١) كان يقال له كعب الأمثال لكثرة مافى شعره من الأمثال (٢٤١ معجم الشعراء) .
(٢) ١٧٢ المؤتلف للآمدى .
(٣) ٩١ المرجع .
(٤) ٢٤٤ معجم الشعراء .
(٥) ٤١ المرجع .

فأكثروا من الحكمة كصالح بن عبد القدوس وأبي العتاهية ومحمود الوراق ، كان صالح من الشعراء الفلاسفة وجميع شعره فى الحكمة والأمثال ، وكان مذهبه مذهب السوفسطائية الذين يزعمون أن الأشياء لا حقيقة لها وله كتاب سماه الشكوك [١] وكان أبو العتاهية لا يكاد يخلى شعره مما تقدم من الأخبار والآثار [٢] ، وأكثر شعره فى الزهد والأمثال [٣] ، وكان أكثر شعر محمود الوراق أمثالا وحكما ومواعظ ، وليس يقصر بهذا الفن عن صالح بن عبد القدوس [٤] . ولأبى تمام كثير من الحكم الاجتماعية فى شعره .

وكانت الحكمة فى العصر الجاهلى مستمدة من تجارب الشاعر وآرائه الخاصة فى الحياة ، وفى العصر الإسلامى كثرت الحكمة وتنوعت بما دخلها فوق ذلك من أثر القرآن والحديث وعلومهما فى التفكير والأخلاق والاجتماع ، وفى بدء عصر المحدثين أضيف إلى تلك العناصر الحكمة الفارسية التى احتذاها الشعراء ونظموا كثيراً من معانيها ، ثم جاءت الفلسفة والحكمة اليونانية ، فلقحت العقول بلقاح جديد ظهر أثره فى هذا الفن فى العصر الثانى على يد أبى تمام م ٢٣١ هـ ، وابن الرومى م ٢٨٣ هـ والناشىء الأكبر ٢٩٣ هـ ثم المتنبي والمعرى .

ويصف المتنبي الحياة والناس فيقول فى حكمة عالية [٥] .

---

(١) ١٣٢ و ١٣٣ ج ٣ الرافعى .

(٢) ٢٣٨ ج ١ الكامل للمبرد .

(٣) ١٢٢ ج ٤ الأغانى .

(٤) ١٧٤ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٥) المتنبي شاهد أواخر العصر العباسى الأول وأوائل العصر العباسى الثانى فهو مخضرم .

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع ليساليه ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الد هر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحى لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

الزهد :

وهو فن جديد نشأ فى الشعر العباسى بتأثير كثرة الترف ، والدعوة إلى الرجوع إلى البساطة ، وتغليب النظر إلى جانب الفقراء ، ونقد المجتمع ، على أن فى شعر الزهد جانبا من جوانب الدين الذى يوجب البساطة فى كل شىء ، ومن شعراء الزهد فى هذا العصر : أبو العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس ، وأبان بن عبد الحميد الكاتب ، الذى نظم كتاب كليله ودمنة للسمر والموعظة ، وقد أخذ الشعراء ينظمون فى هذا الباب وإن لم يكن لهم فيه مضمار ، كأبى نواس وغيره .

ونماذجه فى ديوان أبى العتاهية كثيرة ، فقد أكثر أبو العتاهية فى شعره من الدعوة إلى الزهد والرغبة عن الملذات والانصراف عن الدنيا ، فهو يقول فى شعره :

رغيف خبز يابس تأكله فى زاوية
وكوز ماء بارد تشربه من صافية
وغرفة ضيقة نمسك فيها خالية
أو مسجد بمعزل عن الورى فى ناحية

تدرس فيه دفترا مستندا بسارية
خير من الساعات فى فىء القصور العالية

ومع ذلك فقد كان فى ثراء عريض (١) .

ويقول أبو العتاهية يخاطب الخليفة ، مصورا فى شعره للغلاء فى بغداد :

من مبلغ عنى الإمام نصائحا متوالية
إنى أرى الأسعار أسعار الرعية غالية
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشية
وأرى غموم الدهر را تحة تمر وغادية
يرجون رفدك كى يروا بما لقوه العافية
من يرتجى للناس غير ك للعيون الباكية ؟
من مصيبات جوع تمسى وتصبح طاوية
من يرتجى لدفاع كرب ملمة هى ماهية ؟
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العارية ؟
يا ابن الخلائف لا فقد ت ولا عدمت العافية
إن الأصول الطيبا ت لها فروع زاكية
ألقيت أخبارا إليـ ـك من الرعية شافية(٢)

---

(١) راجع ١٣٩ و ١٥٣ ج ١ ضحى الإسلام .
(٢) ٣٠٤ ديوان أبى العتاهية .

الفخـــر :

١ — يرى ابن رشيق أن الفخر هو المديح نفسه ، ولكن الشاعر يخص نفسه وقومه(١) ، ويراه أديب محدث تأريخا لفضيلة الفرد والجماعة(٢) ، وفى الحق أن الفخر إشادة الشاعر بنفسه أو قومه وتنويهه بأدبه أو حسبه ، ولايدعو إليه عاطفة الأثرة والأنانية فى كل وقت، بل قد يكون الشاعر مضطرا لأن يساجل خصومه ويسجل على أعدائه ماخفى عنهم من صفاته وآدابه ، أوماجحدوه من مآثره وفضائله ، وليس من شك فى أن حب النفس عاطفة من العواطف ، وأن الشعر مجال للعواطف الشخصية والإنسانية جميعا ، والذى نطالب به الشاعر حين يفتخر هو الصدق والتجرد عن مظاهر الكبرياء وتمثيل الحقائق الواقعة التى لاتركن إلى الخيـال بل إلى الواقع نفسه فى تصورها وتصويرها .

وللشعراء المحدثين ، ولابن المعتز من بين المحدثين مجال كبير فى الفخر ، وشعره فيه كثير ، ويشيد بفخره الأدباء والنقاد جميعا ، فيذكره ابن شرف منوها بافتخاراته الملكية وهمانه العلوية (٣) ، ويقول البافلانى : وتجد لابن المعتز فى مواقع شعره من القلب فى الفخر وغيره مالا تجد لغيره لأنه إذاقال:

إذا شئت أو قرت البلاد حوافرا وسارت ورائى هاشم ونزار

أو قال :

قد ترديت بالمكارم دهرا وكفتنى نفسى من الافتخار
أناجيش إذا غدوت وحيدا ووحيد فى الجحفل الجرار

أو قال :

أيها السائلى عن الحسب الأ طيب مافـــوقه لخلق مزيد

---

(١) ١٣٦ ج ٢ العمدة . (٢) ٩٩ ج ٣ الرافعى
(٣) ٢٤٩ رسائل البلغاء .

نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القرى فماذا تريد ؟
ولنا ما أضاء صبح عليه وأنته رايات ليل سود

ويقول من قصيدة له :

وأسهر للمجد والمكرمات إذا اكتحلت أعين بالكرى

فانظره فى هذه القصيدة كلها ، ثم فى جميع شعره ، تعلم أنه ملك الشعر ، وأنه يليق به من الفخر خاصة ، ثم ما يتبعه مما يتعاطاه مالا يليق بغيره بل ينفر عن سواه (١) .

ولأبى نواس(٢) فى عزة النفس وهو من المعانى القريبة من الفخر ، والأبيات عالية الطبقة فى البلاغة ، ويصف فيها أبو نواس انفعالاته النفسية وصفا رائعاً :

ومستعبد إخوانه بثرائه لبست له كبرا ـ أبر ـ (٣) على كبر
إذا ضمنى يوما وإياه محفل يرى جانبى وعراً(٤) يزيد على الوعر
أخالبه فى شكله ، وأجره(٥)
على المنطق المنزور(٦) والنظر الشزر(٧)

---

(١) ٢٠٩ و ٢١٠ إعجاز القرآن .
(٢) من شعراء الدولة العباسية (١٤٥ - ١٩٨ هـ) .
(٣) أبر (فعل ماض) فيكون معناها غلب وقهر ، ويصح أن تكون أفعل تفضيل فيكون معناها أعظم قهرا وغلبة . والمعنى من يتخذ غناه وسيلة لاستعباد إخوانه ، وتكبره عليهم ـ فإنى ألبس له كبرا يغلب كبره ويقهره ، أو كبرا أعظم قهرا وغلبة من كبره .
(٤) صعباً .
(٥) أطعنه ، أو أقطع لسانه .
(٦) القليل .
(٧) النظر الشزر ما يكون بجانب العين ، بغضا وإعراضا ، ومعنى البيت أنى أخالف الغنى المتعجرف فى كل مايكون منه ، وأقطع لسانه وأوذيه ، لما يتكلفه من قلة الكلام والنظر الشزر .

وقد زادنى تيها[1] على الناس أننى ... أرانى أغناهم ، وإن كنت ذا فقر
فوالله لا يبدى لسانى حاجة ... إلى أحد حتى أغيب فى القبر
ولو لم أنل فضلا لكانت صيانتى ... فمى عن جميع الناس حسبى من الفخر

العتـــاب :

ومن نماذجه قول ابن الرومى يعاتب صديقه أبا القاسم الشطرنجى :

يا أخى أين عهد ذاك الإخاء ... أين ما كان بيننا من صفاء
كشفت منك حاجتى هنوات ... غطيت برهة بحسن اللقاء
تركتنى ولم أكن سيىء الظن ... أسيء الظنون بالأصدقاء
يا أخى هبك لم تهب لى من سع ... يك حظا كسائر البخلاء
أفلا كان منك رد جميل ... فيه للنفس راحة من عناء
ياأبا القاسم الذى كنت أرجو ... ه لدهرى قطعت متن الرجاء
لا أجازيك عن غرورك إيا ... ى غرورا وقيت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وماذا ... ك لبخل عليك بالإغضاء
أنت عينى وليس من حق عينى ... غض أجفانها على الأقذاء
مابأمثال ماأتيت من الأمر ... يحـــل الفتى ذرى العلياء
بذل الوعد للأخلاء سمحا ... وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغدا كالخلاف[2] يورق للعين ... ويأبى الإثمار كل الإباء

وفى أبيات ابن الرومى السالفة صورة لصناعته الشعرية ومذهبه فى نظم القصيدة ، فهو يعتمد على الحجاج العقلى وكثرة التـــوليد للمعانى

---

(١) كبرا .
(٢) هو شجر الصفصاف .

والاشتقاق لها والزيادة فيها والدخول إلى مغالقها . . وهو لا يترك منطقا معقولا فى عتاب صديقه إلا ذكره ، ولا بابا من الأبواب يدخل منه لتأييد حجته إلا دخل منه ، وعتاب ابن الرومى هنا عتاب كله حجج وأدلة وأقيسة ، وهذا من باب المذهب الكلامى الذى ذكره علماء البديع فى المحسنات المعنوية للأسلوب .

وألفاظ ابن الرومى عذبة سهلة وأساليبه تلمس فيها بساطة التعبير ، وصدق العاطفة وعمق التجربة ودقته فى تناوله الفنى لأسلوب الصياغة الشعرية ، والتشبيه التمثيلى فى آخر هذه الأبيات تشبيه دقيق بليغ ، إذ شبه وعد صديقه الخلاب الخادع بمظهر شجرة الصفصاف الجميل المونق ، الذى ليس وراءه ثمرة ولا فائدة .

وابن الرومى شاعر مجيد . وعلم من أعلام القريض فى القرن الثالث الهجرى ، ويعد فى الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، وهى الطبقة التى كان من أبطالها : أبو تمام والبحترى وابن المعتز ، وورثت مجد الشعر بعد طبقة أبى نواس ، وكان لها منهجها الأدبى الخاص ، الذى يقوم على العناية بالصناعة الشعرية ، وعلى توليد المعانى وعمق الخيال .

ولد أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى عام ٢٢١ هـ ، من أبوين مختلفى الأرومة ، أمه تنحدر من عنصر فارسى ، وأبوه ينحدر من عنصر رومى ، كان يحتفظ بطبيعته الشاعر ويعتز به طول حياته ، كان مولى لحفيد من أحفاد الخليفة أبى جعفر المنصور ، وولد فى بغداد فى دار بازاء قصر مولاه ، ومات والده فى طفولة الشاعر ، فنشأ ابن الرومى فى ظلال والدته وأخيه الأكبر يعيش هو وأسرته على مال ضئيل خلفه لهم أبوه ، وأخذ يتزود بقسط من ثقافة عصره . فلم يلبث أن أحاط بكل ما يمكن أن يحاط به من العلوم والآداب ، ونبغ فى الشعر ، ونظم القريض وطارت شهرته فى سماء بغداد ، ولكن هذه الشهرة لم تنفعه ، كان فقيراً يريد أن يعيش ، وجائعا

يريد أن يأكل ، وظمآن يريد أن يروى ، وخلق الثياب يبحث عما يلبسه ، وقصد بشعره رجالات الدولة فى عصره مادحا فحرموه العطاء، فعاش ساخطا على الحياة والأحياء :

فى دولتى أنا مغصوب وفى زمنى عودى ظمىء بلا رى ولا بلل

كان شابا جميلا قوى الملكات ، مزوداً بشتى ألوان الثقافة ، فلم يغنه ذلك شيئا فى حياته ، وكان يسمع ويرى حياة الترف التى يحياها فى عصره كثير من الناس ، فتمنى لنفسه حظا من النعمة ، فلم يحظ بطائل ، وهو الشاب الذى ذاق ألم اليتم والشاعر المرهف الإحساس ، فاشتد سخطه على الناس وأمطرهم وابلا من أهاجيه ، التى بغضته إلى الكثير وزادت من آلامه فى الحياة . تزوج فأعقب ثلاثة أولاد فقدهم جميعاً . وفقد بعدهم أخاه ثم زوجته وأمه ؛ فعاش حزينا مهموما .

وكانت هذه الحياة الحافلة بالأحداث سببا فى هذه الطيرة التى لازمت ابن الرومى طول حياته ؛ عاصر المعتصم والواثق والمتوكل المنتصر والمستعين والمعتز ، والمهتدى والمعتمد ، وتوفى فى عهد المعتضد سنة ٢٨٣ ، أو ٢٨٤هـ كما يقول ابن خلكان .

وكان للدم الرومى وأثر الوارثة ، ولحياة الشاعر وبؤسه ، ولثقافته وبيئته ، ولمشاعره المرهفة ووجدانه الرقيق ، كان لذلك كله أثره البعيد فى شاعرية الشاعر وفنه الأدبى ، الذى كان صورة مكبرة لكل ألوان هذه الحياة ، اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس ، وعمق الشعور بالمتناقضات فى نفسه وفى زمنه ، فولدت فى نفسه روح السخرية ، وأشاعت فى فنه هذا اللون الجيد من ألوان الشعر والشعور ، وهو فن الهجاء ، الذى امتاز به الشاعر وأجاده ، حتى حين يهجو من لم يؤذه بشىء ، كما يقول يهجو مغنيا من قصيدة طويلة :

ومسمع لا عدمت فرقته فإنها نعمـــة من النعم
مجلسه مأتم اللذاذات والقصـــف وعرس الهموم والسدم
كأننى من طول ما أشاهده أشرب كأسى ممزوجة بدمى
إذا الندامى دعوه آونة تنادموا كأسهم على الندم

وكان لبؤسه فى الحياة وفقده كثيرا من الأعزاء ، أثر واضح فى إجادته فن الرثاء ، ودالية فى رثاء ابنيه من أجود قصائد الرثاء ومطلعها :

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى بخودا فقد أودى نظير كما عندى

وكذلك جيميته فى رثاء يحيى العلوى الذى قتل عام ٢٥٠ هـ ، وميميته فى رثاء البصرة حين ضربها الزنج عام ٢٥٧ هـ (١) . وشغف قلب ابن الرومى بالحياة ، وتطلعه إلى متعها ولذاذاتها ، وحياته فى مظاهر الحضارة التى كانت تغمر عصره ، وأثر الوراثة فى نفسه ، كل ذلك جعله من أعظم الوصافين فى الشعر العربى ، وقصيدته فى وحيد المغنية مثل من أمثلة هذه الإجادة ، ويقول منها :

يا خليلى تيمتنى وحيد ففؤادى بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد ومن الظبى مقلتان وجيد
تتجلى للناظرين إليها فشقى بحسنها وسعيـــد
تتغنى كأنها لا تغنى من سكون الأوصال وهى تميد
مد فى شاؤ صوتها نفس كاف كأنفاس عاشقيها مديد
فتراه يموت طورا ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد
خلقت فتنة : غناء وحسنا ما لها فيهما جميعا نديد
هى شىء لا تسأم العين منه ولها كل ساعة تجديد

---

(١) ذاد عن مقلتى لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام
، أمامك فانظر أى نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

منظر ، مسمع ، معان من اللهـــو ، عتاد لما يحب عشيد

وكذلك نونيته فى يوم المهرجان مثل ساحر لوصف ابن الرومى الجيد ومنها فى وصف المغنيات وآلات الغناء اللاتى يحملنها :

وقيان كأنها أمهـــات عاطفات على بنيها حوانى
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
كل عود يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادى الغنى عن الترجمان

إلى غير ذلك من روائع قصائده فى الوصف والتصوير ، كما أجاد فى وصف الخمر وفى وصف الأخلاق والعواطف ، ويبلغ فى العتاب الغاية فى الجودة ، كما فى قصيدته فى عتاب أبى القاسم الشطرنجى ، التى مطلعها :

يا أخى أين عهد ذاك اللقاء أين ما كان بيننا من صفاء

وله آيات فى المدح تحوز الإحسان والإجادة ، ومنها نونيته فى أبى الصقر ، ومطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح ورمان

ويقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان

ويمتاز ابن الرومى بتفضيله المعنى على اللفظ كما كان المتنبى ، فهو يطلب صحة المعنى ولا يبالى حيث وقع من مجونة اللفظ وخشونته ، كما يقول ابن رشيق (١) . كان بديع المعانى بعيدها ، كثير الاختـــراع والتوليد فيها ، والاستقصاء لها ، لا يترك فيها بقية لغيره ، والقدرة التامة فى تشقيق المعانى وتفصيلها هى أخص خصائص شاعرية ابن الرومى ، ويقول ابن رشيق

(١) ٨٢ : ١ العمدة .

فيه : « إنه أكثر الشعراء اختراعا للمعانى ، أما أسلوبه فجمع بين الجيد والردىء وروح الصنعة ظاهرة فيه ، وإن كانت فى شعره أقل منها فى شعر ابن المعتز ، لم يكن ابن الرومى يعنى بتهذيب شعره وتنقيحه ، ولو أسقط رديئه لكان فى ذلك أجود الشعراء ، وفى الغالب أن شعراء المعانى كابن الرومى وأبى تمام ، فلما تنهض ألفاظهم بأداء معانيهم ، وقد كان ابن الرومى لايخفل باللفظ إلا بقدر أداء المعنى . وتمتاز قصائده بطول النفس ، مما لايجاريه فيه إلا ابن هانىء الأندلسى ، وقد ساعده على الإطالة أسلوبه الخاص فى تناول كل معنى من معانيه بالإضافة والشرح ، وتقليبه على كل نواحيه كما تمتاز قصائده بالانسجام والوحدة فى تأليفها ، حتى لكأنها قطعة واحدة ، مؤلفة تأليفا منطقيا لاعوج فيها ولا ضعف ولا استطراد .

وخياله خيال يقظ ، حسى فى غالب شعره ، يترك الحس إلى عالم العقل أحيانا ، أوتى ملكة التصوير ولطف التخيل ، وبراعة اللعب بالمعانى والأشكال .

ولا تكاد تجد شاعرا اختلف النقاد فى منزلته الأدبية مثل ابن الرومى ، أهمله صاحب الأغانى إهمالا ، يعلله بعض بالخصومات الأدبية التى كانت بين ابن الرومى والأخفش ، أستاذ أبى الفرج ، ويعلله آخر بأن ابن الرومى كان شيعيا وأبا الفرج كان أمويا . وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومى كانت لاتزال متأججة اللهب ، لأهاجيه فى رجالات الدولة ، وأعلله أنا بأن أبا الفرج لم يرتض مذهب ابن الرومى فى الشعر ، ونهجه فى نظم القريض . يقول القاضى الجرجانى عنه فى وساطته : « وقد نجد كثيرا ينتحل تفضيل ابن الرومى ، ويغلو فى تقديمه ، ونحن نقرأ القصيدة الواحدة من شعره ، وهى قد تناهز المائة أو تزيد ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين . ثم قد تنسلخ قصائد منه ، وهى واقفة تحت ظلها جارية على رسلها (١) ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافى ، وانتظار الفراغ

---

(١) الرسل : التؤدة .

منها [١] ، ويقول ابن رشيق فى عمدته : « وأما ابن الرومى فأولى الناس باسم شاعر ، لكثرة اختراعه ، وحسن افتنانه ، وقد غلب عليه الهجاء [٢] » . ويقول ابن شرف القيروانى فيه : « وابن الرومى شجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، وله فى الهجاء ، ماليس له فى الإطراء ، ولقد كان واسع العطن ، لطيف الفطن [٣] » . ويقول المعرى عنه فى رسالة الغفران : « وابن الرومى أحد من يقال إن أدبه أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة [٤] » . ويقول فيه ابن خلكان : « هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكامنها ، ويبرزها فى أحسن صورها ، ولا يترك المعنى حتى يستوعبه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » . ويقول المسعودى فيه : « كان من مختلق معانى الشعر ، والمجودين فى القصير والطويل ، وكان الشعر أقل أدواته » ، وقد أشاد به أدباء العصر الحديث وعدوه شاعر الفن والتصوير فى الشعر العربى ، ويقول ناقد من المحدثين : إنما جنى عليه وغربه عند أهل عصره ، وفى أذواقهم ، تفرده ، ووحدة ذوقه وبعده عن أذواق الناس ، فلم يألفوه ولم يطربوا له ، طربهم لأشباهه الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعانى على طريقتهم [٥] . وقد صور ابن الرومى رأيه فى شعره فى قصيدته التى يقول فيها :

قولا لمن عاب شعر مادحه ... أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء [٦] والخشب ... اليابس والشوك دونه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق ... رب الأرباب لا البشر
فليعذر الناس من أساء ومن ... قصر فى الشعر ، إنه بشر

---

(١) ٥٤ وساطة .
(٢) ٢٢٥ : ١ العمدة .
(٣) رسائل الانتقاد .
(٤) ١٦١ - ١٦٤ رسالة الغفران .
(٥) مقدمة ديوان ابن الرومى للعقاد .
(٦) قشر الشجر .

الهجاء والمجون :

كان الهجاء يباعث العصبية والخصومات السياسية مألوفا فى هذا العصر، يظهر فى باب الشعر السياسى ، ويتجلى فى ثوب التعصب القبلى ، ويستعلن فى الأحقاد الشعوبية .. وهناك لون جديد من الهجاء لم تدع إليه عصبية ، ولم تثره خصومة سياسية ؛ وإنما كان مرجعه إلى السخرية والتنادر والتهكم ، إزجاء للفراغ وإظهاراً للبراعة فى التقبيح وتوليد المعانى فيه .

فلقد كان من أثر المدنية انتشار المفاسد ، وذيوع المثالب ، وكثرة الفجور ؛ كما كان من آثارها ارتقاء الأذواق ، حتى لم تعد تسيغ كثيراً من المناظر المألوفة من قبل ، أو ترضى عن كثير من العادات الشائعة حينذاك .

فلما ضعف الوازع الدينى . وتوفرت أسباب الراحة ، واتسعت أوقات الفراغ ، ولان جانب العيش . وجد الشعراء فى هذه السوءات والمثالب والمفاسد ، وفى تلك المناظر الشاذة ، والعادات القديمة ، مادة واسعة للهجاء، ومنبعاً فياضاً يستمدون منه مايتندرون به فى مجالسهم ، ويتفكهون فى أسمارهم ومايتسابقون فيه من إظهار البراعة فى الوصف والإبداع فى السخرية والإضحاك .

ولقد راحوا يتتبعون العورات ، ويتقصون العثرات ، ويترصدون للعيوب ، ويرمون بما شاع من لواط وأبنة ورشوة ونحو ذلك ، كما راحوا يذمون اللحى ، ويهزأون بالخلق المشوهة والأنوف الكبيرة ، ويستهجنون أصوات المغنين ، ويسخرون من عادات المتزمتين ، وصاغوا ذلك كله فى شعر مقذع مضحك، يغريك بالضحك من التصوير قبل أن يغريك بالإشفاق على من قيل فيه .

وهكذا شاع المجون وانتشرت سمومه ، بسبب المدنية والإباحية وضعف وازع الدين ، قالوا إن مطيع بن إياس مر ببحيى بن زياد وحماد

ابن اسحق ، فقال لها : فيم تتحادثان ؟ قالا : فى قذف المحصنات ، فقال : أفى الأرض محصنة تقذفانها .

ومن شعر بشار يهجو بخيلا :

كأن عبيد الله لم يلق ماجداً ولم يدر أن المكرمات تكون
إذا جئته فى حاجة سد بابه ولم تلقه إلا وأنت كمين

وقال يهجو المهدى مشيراً إلى تفرد وزيره يعقوب بتدبير الأمور :

بنى أمية هبوا طال نومكمو إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خلافة الله بين الزق والعود

ويقول أبو نواس يهجو بخيلا :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه يقلبه طوراً وطوراً يلاعبه
ويخرجه من كمه فيشمه ويجلسه فى حجره ويخاطبه
وإن جاءه المسكين يطلب فضله فقد ثكلته أمه وأقاربه
يكر عليه السوط من كل جانب وتكسر رجلاه وينتف شاربه

ويقول كذلك فى قدر بخيل :

يغص بحلقوم الجرادة صدرها وينضج مافيها بعود خلال
وتغلى بذكر النار من غير حرها
وتنزلها عفواً بغير جمال

ويهجو البحترى الخثعمى بكبر الأنف فيقول :

رأيت الخثعمى يقل أنفاً يضيق بعرضه البلد الفضاء
سما صعداً فقصر كل سام لهيبته وغض به الهواء
هو الجبل الذى لولا ذراه إذن وقعت على الأرض السماء

ولقد قرأنا لابن الرومى بعض صوره (الكاريكاتورية) البارعة

رأينا تصويره الأحدب ، فلنشهد هذه الصورة لجحظة المغنى :

رأيت جحظة يخشى الناس كلهمو ... إذا همو عاينوه الفالج الذكرا
تخاله أبداً من قبح منظره ... مجاذباً وتراً أو بالعاً حجرا
كأنه ضفدع فى لجة هرم ... إذا شدا نغما أو كرر النظرا
لو كان لله فى تخليدنا قدر ... مع قربه ماأردنا ذلك القدرا

ويقول فى صلعة أبى حفص :

ياصلعة لأبى حفص ممردة ... كأن ساحتها مرآة فولاذ
نرن تحت الأكف الواقعات بها ... حتى ترن بها أكناف بغداذ

ويهجو عمراً فيقول :

وجهك ياعمرو فيه طول ... وفى وجوه الكلاب طول
والكلب واف وفيك غدر ... ففيك عن قدره سفول
وقد يحامى عن المواشى ... وما تحامى ولا تصول
وأنت من أهل بيت سوء ... قصتهم قصة تطول
وجوههم للورى عظات ... لكن أقفاهم طبول
مستفعلن فاعلن فعولن ... مستفعلن فاعلن فعول
بيت كمعناك ليس فيه ... معنى سوى أنه فضول

ويقول :

لو أن قصرك ياابن يوسف كله ... إبر يضيق بها فضاء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ... ليخيط قد قميصه لم تفعل

وهذه ليلة من ليالى أبى نواس الماجنة :

وأحور ذمى طرقت فناءه ... بفتيان صدق ماترى منهمو نكرا
فلما قرعنا بابه هب خائفاً ... وبادر نحو الباب ممتلئاً ذعرا
وقال : من الطراق ليلا فناءنا ؟ ... فقلت له افتح ، فتية طلبوا خمرا

فأطلق عن أبوابه غير هائب ... وأطلع من أزراره قمراً بدرا
ومر أمام القوم يسحب ذيله ... يجاذب منه الردف فى مشيه الخصرا
فقلت له : ماالاسم حييت قال لى ... دعانى أبى (سابا) ولقبنى (شمرا)
فكدنا جميعاً من حلاوة لفظه ... نجن ولم نسطع لمنطقه صبرا
فقلت له جئناك نبتاع قهوة ... معتقة قد أنفدت قدماً دهرا
فقال اربعوا عندى الذى تطلبونه ... قد احتجبت فى خدرها حقباً عشرا
فقلت فماذا مهرها قال مهرها ... إليك فسقنا نحوه خمسة صفرا
فقلت له خذها وهات نعاطها ... فقام إليها قد تجلى بنا بشرا
فشك بأشفاه له بطن مسند ... فسالت تحاكى فى تلألئها البدرا
وجاء بها والليل ملق سدوله ... مدلا بأن وافى محيطاً بها خبرا
ربيبة خدر راضها الخدر أعصرا ... فكانت لها قلباً وكان لها صدرا
إذا أخذتها الكأس كادت بريحها ... تخال بها عطراً وما مزجت عطرا
ومازال يسقينا ويشرب دائبا ... إلى أن تغنى حين مالت به سكرا

ومن مجونه قوله فى تفضيل الغلمان :

وعاذلة تلوم على اصطفائى ... غلاما واضحا مثل المهاة
فقلت لها جهلت فليس مثلى ... يخادع نفسه بالترهات
بذا أوصى كتاب الله فينا ... بتفضيل البنين على البنات

الوثاء :

قال أبو تمام يرثى محمد بن حميد الطوسى :

كذا فليجل الخطب، وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعد محمد ... وأصبح فى شغل عن السفر السفر (١)

(١) السفر : المسافرون ، يقول : إنه بموته انقطعت الآمال لأن الناس لم يكونوا يأملون إلا فيه ، وشغلت الناس الرزية فيه عن أسفارهم وقضاء حاجاتهم.

وماكان إلا مال من قل ماله ... وذخراً لمن أمسى ، وليس له ذخر
وماكان يدرى مجتدى جود كفه ... إذا ما استهلت أنه خلق العسر
ألا فى سبيل الله من عطلت له ... فجاج سبيل الله ، وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة ... دماضحكت عنه الأحاديث والذكر(١)
فتى دهره شطران فيما ينوبه : ... ففى بأسه شطر ، وفى جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... إليه الحفاظ المر والخلق والوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما ... هو الكفر يوم الروع أودونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله ... وقال لها: من تحت إخمصك الحشر !(٢)
غدا غدوة والحمد نسج ردائه ... فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردى ثياب الموت حمراً ، فما دجا ... لها الليل إلا وهى من سندس خضر
كأن بنى نبهان يوم وفاته ... نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ... ويبكى عليه البأس والجود والشعر
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى ... إلى الموت حتى اشتشهدا هو والصبر
فتى كان عذب الروح لامن غضاضة ... ولكن كبرا أن يقال : به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حى لها ... وبزته نار الحرب وهو لها جمر(٣)

---

(١) يقول : إنه مامن قبيلة دحرت فى الحرب حتى فاض الدم من عيونها إلا ذكره الناس بالفخر لأنه هازمها .

(٢) يريد أنه قد ثبت للموت فلا تتحول رجله إلى أن يموت حتى كأن الحشر من تحتها .

(٣) بزته ، يقال بزه ثوبه وابتزه ، سلبه .

وقد كانت البيض المآثير فى الوغى ... بواتر ، فهى الآن من بعده بتر(١)
أمن بعد طل الحادثات محمداً ... يكون لأثواب الندى أبداً نشر
إذا شجرات العرف جذت أصولها ... ففى أى فرع يوجد الورق النضر ؟
لئن أبغض الدهر الحنون لفقده ... لعهدى به ممن يحب له الدهر
لئن غدرت فى الروع أيامه به ... فما زالت الأيام شيمتها الغدر
لئن ألبست فيه المصيبة طيئا ... فما عريت منها تميم ولا بكر
كذلك ماننفك نفقد هالكا ... يشاركنا فى فقده البدو والحضر
سقى الغيث غيثا وارت الأرض شخصه
وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر
وكيف احتمالى للغيوث صنيعة ... بإسقائها قبرا ، وفى لحده البحر
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة ... غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
ثوى فى الثرى من كان يحيا به الثرى ... ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
عليك سلام الله وقفا فإننى ... رأيت الكريم الحر ليس له عمر

وأبو تمام رأس مدرسة من مدارس المحدثين ؛ وهو أبو تمام حبيب ابن أوس الطائى ، يعد رأس الطبقة الثالثة من المحدثين ، وصاحب الطريقة التى تؤثر المعنى وتحتفل به وتتعمد الإكثار من البديع انتهت إليه زعامة الشعر فى عصره فلم يكن أحد من الشعراء يستطيع أن يجرى معه فى ميدان وحسبك أن البحترى سئل عن نفسه وعن أبى تمام فقال : إنما أكلت العيش به .

ولد بقرية جاسم على ثمانية فراسخ من دمشق عام تسعين ومائة من الهجرة ثم انتقل إلى مصر صغيرا فكان يسقى الماء بجامع عمرو وكان المسجد

---

(١) المآثير : جمع مأثور ، والسيف المأثور القديم المتوارث ، وبواتر : جمع باتر وهو القاطع . وبتر ، جمع أبتر ، أى مقطوعة .

إذ ذاك معهدا تدرس فيه العلوم والآداب فعكف على العربية يرويها ويدرسها حتى حفظ الكثير من شعر العرب ، ونبغ فى قرض الشعر ، ثم خرج إلى بغداد فمدح المعتصم ووزيره ابن الزيات والحسن بن وهب صاحب ديوان الرسائل ، ثم ولاه الحسن بريد الموصل فأقام بها إلى أن مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة .

وقصيدته هى فى الرثاء ، وهو أوسع فنون الكلام مجالا وأحفل أبواب الأدب بالحكمة ، وأحرى أن تجد فيه الخبر النادر والمثل السائر والموعظة البالغة ، والمرثى قائد عظيم طالما خرج إلى القتال حميداً ورجع مظفراً منصوراً ، ذلك القائد هو محمد بن حميد الطوسى من بنى نبهان قبيلة من طيء التى ينتسب إليها الشاعر .

خرج هذا القائد لمحاربة بابك الخرمى رئيس الطائفة المنسوبة إليه الخارجة على الخلفاء ، والتى ملأت الأرض فساداً ، وامتدت ثورتها من عهد المأمون إلى عهد المعتصم ، ولم يحالف الحظ القائد فى هذه المعركة فقتل سنة ٢٢٤ هجرية فرثاه أبو تمام بهذه القصيدة .

وقد بدأ القصيدة فعظم من شأن الخطب ووصف العيون التى لا تفنى ماء شئونها بالبخل ، ونسبها إلى التقصير ، فقد مات عميد الناس فى كل نائبة وموضع آمال العفاة والبائسين ، وذكر أنه مات مجاهداً فسهل موته السبيل إلى غزو البلاد وأنه طالما رجع من الغزو مظفراً منصوراً فأطلق ألسنة الشعراء بالثناء عليه وترك وراءه عيونا دامية تبكى قتلاها وتنعى موتاها ، وأن هذا المرثى قضى عمره بين يومين : يوم يقتل فيه الأعداء ويوم يحسن فيه إلى الفقراء :

فيوم لإلحاق الفقير بذى الغنى ويوم رقاب بوكرت لحصاد

ثم اعتذر عنه بأنه لم يقتل حتى أبلى بلاء حسنا ، وحتى تعطلت آلات

القتال فتثلمت السيوف وتكسرت الرماح ، وكانت السبيل إلى النجاة ميسورة والهرب من الموت ممكنا ، ولكنه آثر جميل الذكر وحسن الأحدوثة مابقى الدهر ، ورأى صبراً على الموت أكرم ، وأن وقوف ساعة فى ساحة الموت تعقب حمداً وتورث مجداً :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جبانا

لقد عاش البطل جليداً ، وغدا إلى المعركة حميداً ، وسقط فى ساحة المجد شهيداً ، فما أتى الليل إلا وهو ينعم مع الشهداء فى دار الخلود . . ثم أقبل على عشيرته الأقربين يواسيهم فذكر أن الرزء عام والمصيبة شاملة حتى إن الفضائل تندبه وتبكى عليه وإن كان الصبر غير مستطاع فقد ذهب بذهابه ومثله لاينسى لأنه كان كريم النفس عظيم الخلق رضى العشرة يغضى حياء وتواضعا .

ثم تعجب من الحرب كيف تقتل مسعرها ، ومن الفوارس كيف تفتك بحاميها ، وذكر أن آلات القتال فقدت من يحسن استعمالها ويظهر فى الحروب مزيتها ، وأن الكرم ذهب من الناس فقد قطعت أصوله . وذبلت أوراقه ، ومص الثرى بقية الماء من العود فأصبح هشيما تذروه الرياح ، ثم وصف العيش بعده بأنه مر لايطاق . والحياة بغيضة يهرب المرء منها ويتمنى الموت من أجلها ، وقد كانت فى أيامه كريمة سعيدة ينعم الناس فى ظلالها ويتساقون كؤوس السعادة فى جنباتها . لكنها الأيام لاتؤمن فجعتها ولا تدوم حبرتها . . ثم ذكر أن الفجيعة عمت العرب جميعا فهم مأجورون فيه ومعزون به ، ولاتزال المنايا تختار من يعم رزؤه ويجل مصابه . ثم سأل الغيث أن يتعهد قبره بالسقيا ، ولكنه عاد فأنكر ذلك على نفسه لأن فى القبر البحر الذى تنشأ عنه هذه الأمطار ، وسأل الله فى ختامها أن ينزل رحماته عليه ، وتأس بأن عادة الموت أن ينزل بالكرام ، ويكلف بكل شريف .

ولقد أخذ نقاد الأدب على أبي تمام مآخذ كثيرة : منها رداءة مطلعها وأنه سرق جل معانيها ، وحذا حذو كثير من الشعراء فى خيالها . ذكروا أنه أخذ قوله :

كأن بنى نبهان يوم وفاته

من قول صفية الباهلية :

كنا كأنجم ليل بينها قمر

وقوله :

أمن بعد طى الحادثات محمدا

من قول أبى نواس : « طوى الموت ما بينى وبين محمد »

وقوله :

لئن عظمت فيه مصيبة طيء

من قول عبد الله بن أيوب :

جلت رزيته فعم مصابه

وقوله :

توفيت الآمال بعد محمد

من قول مكنف السلمى يرثى ذفافة :

روى الأغانى قال قال محمد بن موسى كنا عند دعبل فذكرنا أبا تمام فثلبه وقال : هو سروق للشعر ، ثم أخرج دفتراً فإذا فيه : قال مكنف السلمى يرثى ذفافة العبسى :

ألا أيها الناعى ذفافة ذا الندى ... تعست وشلت من أنامل العشر

إذا ما أبو العباس خلى مكانه ... فلا حملت أنثى ولا مسها طهر

ولا أمطرت أرضاً سماء ولا جرت ... نجوم ، ولا لذت لشاربها الخمر

كأن بنى القعقاع يوم وفاته ... نجوم سماء خر من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذفافة ... وأصبح فى شغل عن السفر السفر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ... ويبكى عليه المجد والبأس والشعر
وما كان إلا مال من قل ماله ... وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر

وذلك إسراف منهم فى النقد ، وتحامل لايقوم فى بعضه على أساس ، فإن هذه المعانى مشتركة بين الشعراء ، وليس أحد أولى بها من غـــيره ، ولا ننسى أن دعبلا كان منافساً لأبى تمام معاصراً له وبينهما من الخصومة ما يدعونا إلى الشك فى خبره ، وأبو تمام شاعر وراوية سن للناس طريق اختيار الشعر وحفظ منه مالم يحفظه أحد ، فإذا جرى فى شعره على معانى المتقدمين وأساليبهم وأخيلتهم فذلك راجع إلى كثرة محفوظه وانطباع الصور فى شعوره ، لا إلى سرقة متعمدة ألجأه إليها جدب فى تفكيره أو إملاق فى لغته . . وأبو تمام الرجل الذى يخضع اللغة لمعانيه العميقة وأخيلته المبتكرة ويأتى بالنائى البعيد فيدنيه منك ويقربه إليك وقد تجد عسرا فى بلوغ مرامه لكنه على كل حال لاتعوزه المادة ولاتشعر باستجدائه وقصور باعه لكن ذلك لايعفيه من المؤاخذة ، فقد أخذ بيت صفية ونقله إلى شعره بمعناه وأكثر ألفاظه وقصر عن اللحاق به مع احتذائه له وأخذه منه ، وكذلك أيضاً تقصيره عمن سبقه من الشعراء فى قوله : رأيت الكريم الحر ليس له عمر .

قال طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى ... عقيلة مال الفاحش المتبدد

وقال الحماسى :

وقالوا ماجداً منكم قتلنا ... كذاك الرمح يكلف بالكريم

وقال الخارجى : إن الشراة قصيرة الأعمار .

وقال هو فى قصيدة أخرى فبلغ الغاية :

إن تبتخل حدثان الموت أنفسكم
ويسلم النـــاس بين الحوض والعطن
فالماء ليس عجيباً أن أعذبه يفنى ويمتد عمر الآجن الأسن

فرفع التمثيل من شأن المعنى وبوأه من النفوس موضعاً مرضياً ، واحتج لذلك احتجاجا مقبولا . وكم كان من الحرى بأبى تمام أن يتحدث فى قصائد الرثاء إلى النـــاس فى سهولة ويسر ، وأن يعدد مناقب المرثى ، دون احتفال بالصنعة أو إسراف فى التماس وجوه البديع ، وكان ينبغى أن يشغله الحزن عن توخيها وتوفير العناية عليها ، ويندر أن تجد بيتاً من أبياتها خالياً من صنعة ، ولكنها متينة رائعة تدل على مهارة فائقة وحذق عجيب . انظر إلى هذه الاستعارات الجميلة : توفيت الآمال . فاضت العيون دما . ضحكت الأحاديث . مات مضرب سيفه . ثياب الموت . يبكى عليه البأس . استشهد الصبر . طى الحادثات محمداً . شجرات العرف . سقى الغيث غيثاً . فى لحده البحر . يحيا به الثرى . والطباق فى مثل : بكت ، وضحكت ، وطى ، ونشر ، وأبغض ، ويحب ، وألبست ، وعريت ، وبدو ، وحضر ، وحمر ، وخضر .

والجناس فى مثل : انثغر الثغر ، مضرب سيفه من الضرب . بواتر وبتر . إلى غير ذلك من ضروب البديع الذى كان معنياً به ومتوافراً عليه ، وكان يخرجه أحياناً إلى التكلف : كانثغر الثغر مثلا ، أراد أن يجانس فوقع فى هذا الثقل ، ومثله من قصيدة أخرى له :

قرت بقران عين الدين وانشـــترت
بالأشترين عيون الشرك فاصطلما

وفى القصيدة يقول أبو تمام :

وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما ... هو الكفر يوم الروع أودونه الكفر

وهو شبيه بقول الحماسية :

أبوا أن يفروا والقنا فى نحورهم ... وأن يرتقوا من خشية الموت سلما
ولو أنهم فروا لكانوا أعزة ... ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

ومما لاريب فيه أن أبا تمام أخذ منها وقصر عنها ، لأن محصول كلامه أن الفرار كان ممكناً ولكن كان يلزمه العار فأبت نفسه الدنية ، فردها إلى الموت ، ومحصول كلامها أنهم أبوا الفرار والموت يهجم عليهم ويأخذ بنفوسهم وعلم النجاة بأيديهم والفرار لاعار فيه لأنهم أعذروا بل هو بقاء وحياة .

ومن صور الرثاء قول ابن الرومى يرثى ابنه محمداً :

بكاؤكما يشفى وإن كان لايجدى ... بخودا فقد أودى نظيركما عندى(١)
ألا قاتل الله المنايا ورميها ... من القوم حبات القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتى ... فلله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخير من لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنى فأضحى مزاره ... بعيداً على قرب قريباً على بعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها ... وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه ... فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد
ألح عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد(٢)

---

(١) بكاؤكما : الخطاب لعينيه ، ولايجدى : لاينفع ، وأودى : هلك .
(٢) الجادى : الزعفران ، وهو أصفر .

وظل على الأيدى تساقط نفسه
ويذوى كما يذوى القضيب من الرند(١)

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ... ولو أنه أقسى من الحجر الصلد
وماسرنى أن بعته بثوابه ... ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
ولا بعته طوعا ولكن غصبته ... وليس على ظلم الحوادث من معد(٢)
وإنى وإن متعت بابنى بعده ... لذاكره ما حنت النيب فى نجد(٣)
وأولادنا مثل الجوارح أيها ... فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لايسد اختلاله ... مكان أخيه من جزوع ولاجلد
هل العين بعد السمع تكفى مكانه ... أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى
لعمرى لقد حالت بى الحال بعده ... فيا ليت شعرى كيف حالت به بعدى
ثكلت سرورى كله إذ ثكلته ... وأصبحت فى لذات عيشى أخا زهد
أريحانة العينين والأنف والحشا
ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى

سأسقيك ماء العين ماأسعدت به ... وإن كانت السقيا من الدمع لاتجدى
أعينى جودا لى فقد جدت للثرى ... بأنفس مما تسألان من الرفد
كأنى مااستمعت منك بضمة ... ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
ألام لما أبدى عليك من الأسى ... وإنى لأخفى منك أضعاف ماأبدى
محد ماشيء توهم سلوة ... لقلبى إلا زاد قلبى من الوجد
أرى أخويك البافين كليهما ... يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا ... فؤادى بمثل النار عن غير ماقصد

---

(١) الرند : نبت طيب الرائحة له زهر أصفر يسمى الزينب ، وقد يسمى به الآس وهو نوع من الريحان .

(٢) معد من أعدى : بمعنى نصر وأعان .

(٣) النيب : جمع ناب وهو الناقة المسنة .

والرثاء من أهم موضوعات الشعر ، واشتهر بالإجادة فيه أوس (١) والأعشى وأبو زبيد الطائى ولبيد م ٤١ هـ ، ومتمم بن نويرة وأبو ذؤيب ومالك بن الريب وكعب بن سعد (٢) ، وانفردت به الخنساء ، ثم اشتهر بعد ذلك حسين بن مطير والسكيت فى مراثيه للعلويين ودعبل فى مرثيته معاهد العلويين ، ثم أبو تمام « وهو من المعدودين فى ذلك » (٣) ، ومثله ديك الجن وهو فى هذا أشهر من حبيب (٣) ، وللبحترى فى الرثاء آيات رائعة ومنها مرثيته فى المتوكل ، وكذلك ابن الرومى كما فى مرثيته لولديه « بكاؤكما يشفى وإن كان لايجدى » .

الشعر الحماسى :

ومن روائعه قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية .

وكان أبو تمام صاحب مذهب فى الشعر ، وأميرا فى دولته منذ مطلع القرن الثالث الهجرى حتى وفاته ، كان يتخير ألفاظه تخيرا شديدا ، ويجتهد فى الصناعة البديعية ويدقق فيها غاية التدقيق وخاصة فى الجناس والطباق وبالغ فى تجويد صياغته مبالغة شديدة ، دقق فى معانيه أشد التدقيق ، وتكلف تجويدها أشد التكلف ، وأهمل اللفظ أحيانا حتى يفتر وأحيانا حتى أفسدته العناية ، وتكلف البديع إلى حد شديد ، حتى كاد يقطع الصلة بين الشعر والطبع ، ويجعله صناعة فنية عتيدة ، وقد أكثر فى شعره من ضرب المثل ، ومن الحكمة ، وأغنى اللغة العربية بمعان لم تكن مألوفة فيها .

---

(١) ومرثيته : « أيتها النفس أجملى جزعا » عند الأصمعى لم يبتدىء أحد من الشعراء مرثية أحسن من ابتدائها (٣٤ : ٣ الآمالى) .

(٢) وقالوا ليس للعرب مرثية أجود من بائيته فى أخيه أبى المغوار (١٧٨ : ٢ ديوان المعانى) .

(٣) ١٤١ : ٢ العمدة .

وعمورية إحدى مدن الروم فى آسيا الصغرى ، وكانت قلعة عسكرية حصينة ، ففتحها المعتصم ودك حصونها ، فقال أبو تمام هذه القصيدة :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب(١)
بيض الصحائف لاسود الصحائف فى
متونهن جلاء الشـــك والريب (٢)
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب (٣)
فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض فى أثوابها القشب (٤)
يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب (٥)
أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد والمشركين ودار الشرك فى صبب (٦)
تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتغب فى الله مرتقب (٧)

---

(١) الأنباء : جمع نبأ وهو الخبر . المعنى : السيف أصدق مما تضمنته الكتب ، وكان المنجمون يحذرون المعتصم من فتح عمورية فى هذا الأوان ، وقالوا له : إنا نجد فى الكتب أنها لا تفتح إلا فى وقت نضج التين والعنب فلم يستمع المعتصم لهم.

(٢) الصفائح : جمع صفيحة : السيف العريض ، والصحائف : جمع صحيفة : القرطاس المكتوب ، والمعنى : إن السيوف البيض هى التى تجلو الشك وتزيل الريب لا الصحائف المكتوبة .

(٣) فتح الفتوح : هو فتح عمورية ، وكانت عزيزة على الروم ، محصنة غاية التحصين ، ودافع عنها جيش الروم دفاع الأبطال . وكانت ذات موقع استراتيجى عظيم .

(٤) تبرز : تظهر القشب : جمع قشيب أى جديد .

(٥) المنى : مايتمناه الإنسان . حفل جمع حافل وهى الناقة التى امتلأ ضرعها . الحلب : الحلبة من اللبن . معسولة : حلوة ، والمعنى : إن أمانينا عادت وهى حافلة بالسرور لتحقق ما أملت .

(٦) الجد : الحظ صعد : صعود . صبب : انحدار .

(٧) التدبير : تقدير الشىء على الوجه السليم المأمول الفوز .

لم يغز قوما ولم ينهد إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب (١)
ولم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها فى جحفل لجب (٢)

وهذه القصيدة من عيون الشعر العربى ، وهى طويلة اخترنا منها هذه الأبيات وتمثل الجزالة غاية التمثيل ، وتمتاز بوحدة القصيدة ، وبصدق عاطفة الشاعر فيها ، وبقوة التصوير . وروعة النسج ، ودقة معانى الشاعر فيها .

وأبو تمام فيها ينوه بالمعتصم الخليفة وبجيشه وبالانتصار الذى أحرزه فى هذه المعركة الخالدة باستيلائه على عمورية ودك حصونها ، وتشتيت شمل المدافعين عنها ، وبالتحكم بعد ذلك فى آسيا الصغرى مركز التخطيط العسكرى الرومانى ضد العالم العربى الإسلامى آنذاك .

أبو تمام يشيد بهمة المعتصم وعزيمته ، ويقول : إن سيفه وهو الذى يحل المشكلات ؟ لا نبوءات المنجمين ، وإن فيه الفصل بين الجد واللهو ، ثم يتحدث عن عظمة هذا الفتح وأهميته وأنه أكبر من خطب الخطباء ومن نثر الناثرين . ثم يذكر الفتح وأنه أرضى الأمانى فهى به فى عيد جديد ، وأنه جعل حظ المسلمين فى صعود حظ والكافرين فى هبوط .

وأنه كذلك أثر لحنكة المعتصم وتدبير وشجاعة هذا الخليفة العظيم الذى نصر بالرعب يتقدم جيشه وكأنه معه جيش آخر غير الجيش المحارب، والذى يغنى هو بنفسه وشجاعته عن الجيوش الكثيفة والجنود الباسلين .

وهنا نجد التجربة الشعرية قوية ، والعاطفة الفرحة بانتصار المسلمين ملتهبة ، وخيال الشاعر يقظا مشبوبا ، ومعانيه كثيرة عليها مسحة من ثقافة عالية وذهن خصب ، مع المبالغة فى المعانى ، ومع الحرص على صناعة البديع ؛ من سجع وطباق وجناس ومقابلة ومبالغة وسواها .

---

(١) نهد الرجل : نهض . الرعب بسكون العين أى الفزع والخوف .
(٢) الجحفل : الجيش العظيم . الوغى : الحرب . اللجب : الكثيف .

نماذج أخرى من الشعر

١ — لأحمد بن محمد الافريقى الشاعر المعروف بالمتيم وكان فى بخارى فى أواخر القرن الرابع الهجرى[١] .

تلوم على ترك الصلاة حليلتى ... فقلت: اعزبى عن ناظرى، أنت طالق
لماذا أصلى وأين باعى ومنزلى؟ ... وأين خيولى والحلى والمناطق ؟
وأين عبيد كالبدور وجوههم؟ ... وأين جوارى الحسان العواتق ؟
أصلى، ولافتر من الأرض يحتوى ... عليه يمينى ! إننى لمنافق !
بلى ، إن على الله وسع لم أزل ... أصلى له مالاح فى الجو بارق
فإن صلاة السيء الحال كلها ... مخارق ليست تحتهن حقائق

٢ — ويقول ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد :

خجلت خدود الورد من تفضيله ... خجلا توردها عليه شاهد
لم يخجل الورد المورد لونه ... إلا وناحله الفضيلة عائد
للنرجس الفضل المبين وإن أبى ... آب وحاد عن الطريقة حائد
فصل القضية أن هذا قائد ... زهر الرياض وأن هذا طارد
شتان بين اثنين هذا موعد ... بتسلب الدنيا وهذا واعد
ينهى النديم عن القبيح بلحظة ... وعلى المدامة والسماع مساعد
اطلب بعقلك فى الملاح سميه ... أبد فإنك لا محالة واجد
والورد إن فكرت فرد فى اسمه ... ما فى الملاح له سمى واحد
هذى النجوم هى التى ربتهما ... بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر إلى الأخوين من أدناهما ... شبها بوالده فذاك الماجد
أين الخدود من العيون نفاسة ... ورياسة لولا القياس الفاسد

---

(١) ٢ : ٨١ الإرشاد لياقوت ، ٢ : ١٢ اليتيمة :

وفى هذه القصيدة صنعة لطيفة يقول فيها عبد القاهر: عمل ابن الرومى على قلب طرفى التشبيه فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل ، ثم تناسى ذلك وخدع عنه نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة ثم لما اطمأن ذلك فى قلبه واستحكمت صورته طلب لذلك الخجل علة فجعل علته أن فضل النرجس ووضعه فى منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها ، فصار يتوب من ذلك ويتخوف عيب العائب وغمزة المستهزىء ويجد مايجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها ويفرط حتى تصير كالهزء بمن قصد بها ، ثم زادته الفطنة الثاقبة والطبع المثمر فى سحر البيان ، مارأيت من وضع حجاج فى شأن النرجس وجهة استحقاقه الفضل على الورد فجاء بحسن وإحسان لاتكاد تجد مثله إلا له ومما هو خليق أن يوضع فى منزلة هذه القطعة ، ويلحق بها فى لطف الصنعة قول أبى هلال العسكرى :

زعم البنفسج أنه كعذاره ... حسنا فسلوا من قفاه لسانه
لم يظلموا فى الحكم إذ مثلوا به ... فلشد مارفع البنفسج شانه

٣ — على بن الجهم يتحدث عن الورد :

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه ... حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها ... وراحت الراح فى أثوابها الجدد
وقابلته يد المشتاق تسنده ... إلى الترائب والأحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صبابته ... أو مانعا جفن عينيه من السهد
بين النديمين والخلين مصرعه ... وسيره من يد موصولة بيد
ماقابلت طلعة الريحان طلعته ... إلا تبينت فيه ذلة الحسد
قامت بحجته ريح معطرة ... تشفى القلوب من الأوصاب والكمد
لاعذب الله إلا من يعذبه ... بمسمع بارد أو صاحب نكد

٤ — مروان بن أبى حفصة يحتج للعباسيين بأنهم عصبة النبى فهم ورثته ،

وليس لأبناء فاطمة أن يرثوه ، وذلك من قصيدة له فى مدح المهدى :

يا ابن الذى ورث النبى محمداً ... دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم ... قطع الخصام ، فلات حين خصام
أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام(١)
ما للنساء مع الرجال فريضة ... نزلت بذلك سورة الأنعام
خلوا الطريق لمعشر عاداتهم ... حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الإله لكم ... ودعوا وراثة كل أصيد حامى

٥ — مسلم بن الوليد يفاخر قريشا ، وكان من شعراء اليمانية :

فاخرتنا بما بسطنا لها العذ ... ر قريش وفخرها مستعار
ذكرت عزها ، وماكان فيها ... قبل أن تستجيرنا مستجار
إنما كان عزها فى جبال ... ترتقيها كما ترقى الوبار(١)
أيها الفاخرون بالعز والعز ... لقوم سواهمو والفخار
أخبرونا عن الأعز : أألمذ ... صور حين اعتلى أم الأنصار ؟
فلنا العز قبل عز قريش ... وقريش تلك الدهور تجار

٦ — دعبل الخزاعى فى رثاء الشباب :

أين الشباب وأية سلكا ؟ ... لا أين يطلب ؟ ضل ، بل هلكا
لا تعجبى يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى
ياليت شعرى كيف يومكما ... ياصاحبى إذا دمى سفكا
لا تأخذا بظلامتى أحدا ... قلبى وطرفى فى دمى اشتركا

---

(١) أى وراثة مثل وراثة الأعمام .
(٢) جمع وبرة : دويبة كالسنور .

رواية الشعر

فى العصر الأموى نشطت حركة إحياء الشعر الجاهلى وروايته وتلقيه شفاها من أفواه الأعراب والعجائز وشيوخ القبائل وحكمائها ومعمريها .

وقد اشتدت حركة الرواية فى العصر العباسى عصر التدوين والتأليف ، وضاعف الاهتمام بها كثرة ما دس على الشعراء من شعر ، وما نحلوا من قصائد ، لذلك اتسمت حركة الرواية بسمة نقدية غالبة .

وقد كانت العرب أمة بدوية ، ومن ثم لم يعرفوا الاستقرار الذى يدفعهم إلى العلم ، ويؤهلهم للحضارة ؛ ولم يجلسوا إلى العلم ، ولم تمكنهم ظواهر حياتهم وعوامل بيئتهم من أن يمسكوا بالقلم أو يخطوا باليراع ، ولذلك كانوا يعتمدون على الذاكرة يختزنون فيها ماعرفوا ، ويحتقبون بين ثناياها مايتردد بينهم من ألوان المعارف . فى ذاكرة العربى مايعتز به ويحافظ عليه من أنساب القبائل وأشعارها ومفاخر أيامها ومآثر وقائعها ، كأنه مسطور فى كتاب ومدون فى صحائف ، لايند عنه شىء ، لأن الحافظة الواعية تصونه ، والذاكرة القوية المطبوعة تحميه .

ولقد وصل إلينا الكثير من الغرائب عن رواة العرب وسعة حفظهم مما يعده بعض الناس وهماً من الأوهام أو خيالا من الأخيلة . ولكنها القدرة البارعة التى لم تعتمد على الكتب ولم تعول على الكتابة والتدوين . ويحدثون أن العربى كان يعرف سلسلة نسبه ، ويعرف كذلك أنساب القبائل ، فلايغيب عنه شىء ولا يتسرب الخطأ إلى شىء مما روى .

وكان للعرب عناية خاصة برواية الشعر ، إذ هو سجل مفاخرهم ، وديوان مآثرهم ، وبجمع أحداثهم ووقائعهم ، وعلمهم الذى لم يكن لهم علم

أجل منه ، وكان لكل شاعر راوية خاص يتتلمذ عليه ويروى عنه ، ويحتج لقوله ، ويظهر محاسنه ويذيع أشعاره ، فامرؤ القيس كما يقولون راوية أبي دؤاد الأيادى ، وزهير راوية أوس بن حجر ، والأعشى راوية المسيب بن علس . والحطيئة راوية زهير وابنه كعب .. وهكذا .

وفى عهد الدولة الأموية نشطت الرواية ، وانتعش رجالها كما ذكرنا ، ووجدوا تشجيعاً من الولاة والخلفاء لأغراض سياسية معروفة وليستعينوا بما يرون على فهم القرآن ومعرفة بلاغته ، وإدراك سموه وعظمته ، ورأى العرب أن إحياء الشعر العربى والحرص على روايته إحياء لتاريخ حافل يعتزون بأحداثه ، ويفاخرون بوقائعه ، ويتمجدون بما يحدث عنه من مكرمات ومآثر .

ومن ثم حرصوا أشد الحرص على الرواية ، وتلقف أشعار القدماء ، ومعرفة آدابهم ، وأخذوا يشدون إليها الرحال ، ويكابدون مشاق السفر والانتقال ، وأصبحت البراعة فى رواية غرائب الشعر تعدل القدرة فى إنشائه ، والحفاوة بالرواية فى قصور الخلفاء ومجالس الولاة لاتقل عن العناية بالشعراء المجودين ؛ والفحول المبرزين — وبذلك راجت سوق الرواية ، ونفقت بضاعتها ، وانقطع لها جماعة من أصحاب الملكات القوية وذوى الفطر الموهوبة ، أخذوا يرحلون إلى البادية ، يشافهون الأعراب ويجمعون الغريب ، وينقلون ما ورثوه من هذا التراث المجيد ، وكانوا متحرجين فى رواياتهم ، متثبتين فى كل مايصل إليهم ، فلا يأخذون إلا ممن صحت عربيتهم ، وبعدوا عن كل تأثير أجنبى ، كتميم وقيس ، وأسد وهذيل ، وبعض من كنانة ، وبعض من طى . أما القبائل التى جاورت قطراً أعجمياً أو اتصلت بأمة غير عربية يظن أنها تأثرت بها أو نقلت عنها شيئاً من لهجتها فلم يأخذ الرواة عنها شيئاً . وقيل إن الرواة الذين كانوا يقصدون قبائل البادية لم يأخذوا عن لخم وجذام لأنهما جاوروا أهل مصر ، ولا عن بكر لمجاورتهم للفرس ،

ولا عن ثقيف لمخالطتهم تجار اليمن ، ولا عن قضاعة وغسان لحلولهم بالشام وهكذا .

ولقد وجد كذلك من أعراب البدو قوم أوتوا قوة الذاكرة ووفرة الحفظ ، فأخذوا يرتحلون إلى الحواضر حاملين مامعهم من بضاعة مزجاة ، وتجارة رابحة . وبذل لهم الخلفاء والأمراء من جزيل العطايا وسنى الهبات ماشجعهم على الرواية والانقطاع لها .

ولقد جرت الرواية فى عصر بنى العباس على سنتها فى عصر بنى أمية إذ ظل الرواة يرحلون إلى البادية ، وبقى الأعراب الحافظون ينتقلون من البادية إلى الحاضرة لبيع ماعندهم من أشعار . وعرض مايختزنون من آثار ، حتى فسدت لغتهم ، ولانت ألسنتهم ، وضعفت فصاحتهم ، فقلت الثقة بهم ، وبارت بضاعتهم ، ولم يعد يرغب فيها أحد .

وكانت الرواية أول الأمر هواية نفوس ألفتها ورغيبة قلوب أحبتها وسجية عند بعض الناس ، حملتهم على أن يحفظوا ويختزنوا ماراعهم من أشعار ، وملك قلوبهم واستولى على مشاعرهم من القصائد ، ومن طبيعة المنبعث بشعوره ، المتجه بإحساسه ، الذى لايسيره غرض ، ولا تطغى عليه منفعة ، أن يتحرى الصدق فيما ينقل ، ويتوخى الصحة فيما يجمع .

ولما وضحت شدة الرغبة فى الرواية فيما عندهم ، وقوة الحرص عليها ، وكثر ما أغدق على الرواة من العطايا والمنح أخذوا يجعلون عليهم مهنة تدر عليهم المكسب وتجلب لهم الربح . وبعد أن كانت الرواية هواية نفس أصبحت رغيبة كسب ، فقل فيها بعض الشىء الاعتصام بالأمانة ، والحرص على الصدق ، والمبالغة فى تحرى الصواب . وبذلك وجد الرواة الذين أضافوا إلى الحق باطلا ، وإلى الواقع خيالا ، وإلى الحادثة أحداثا .

كل ذلك لأن همهم الكسب ، ووكدهم أن يروج ما اخترعوه ، ويسير فى الناس ماوضعوه ، فينالهم من وراء ذلك الأجر ، ويصيبهم ما أملوا من كسب . وأسباب الانتحال فى الرواية كثيرة ، فمنها :

١ — كان الأعراب يتخذون الرواية وسيلة للكسب ، وسبيلا لاجتلاب الرزق فيفدون إلى الحواضر بما عندهم للحصول على المال . فإذا نفد ما يحفظون عمدوا إلى الوضع والاختراع . ويحدثنا محمد بن سلام الجمحى أن ابن داود بن متمم بن نويرة ، قدم البصرة فى بعض مايقدم له البدوى من الميرة . فأتاه أبوعبيدة وابن نوح فسألاه عن شعر أبيه ، وقاما له بحاجته وكفياه مؤونته ، فلما نفد شعر أبيه متمم جعل يزيد فى الأشعار ويضعها ، فإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها متمم والوقائع التى شهدها . فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله . ويقول الأصمعى عن أعرابى اسمه أبو ضمضم إنه أنشد لمائة شاعر كلهم يسمى عمرا . ويقول الأصمعى : فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على ثلاثين ..

٢ — حرص الرواة على إرضاء الأمراء وذوى الجاه وأصحاب النفوذ برواية ماتطرب له نفوسهم ، وتفتح له أسماعهم ، من مدائح يزعمون أن آباءهم مدحوا بها فى القدم ليرضوا غرورهم ، كما قال ابن سلام : أخبرنى أبو عبيدة عن يونس قال قدم حماد البصرة على بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى فقال : ما أطرفتنى شيئاً . فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مدحا لأبى موسى الأشعرى . فقال : ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى للحطيئة ولكن دعها تذهب فى الناس .

وصاحب الأغانى يروى أن حماداً تقرب إلى خالد بن عبد الله القسرى

باختراع أبيات نسبها إلى قيس بن الحدادية يمدح بها أسد بن كرز حين نزل به قوم فأكرمهم وأحسن إليهم وتحمل عنهم ما أصابوا من دماء — قال على لسان قيس :

وقد حللنا بقسرى أخى ثقة كالبدر يجلو دجى الظلماء والأفقا
لا يجبر الناس شيئاً هاضه أبداً يوماً ولا يرتقون الدهر ما فتقا
كم من ثناء عظيم قد تداركه وقد تفاقم فيه الأمر وانخرقا

يقول أبو عمرو الشيبانى : إن حمادا أنشد خالداً هذه الأبيات فوصله . والتوليد فيها بين جداً .

٣ — عدم تحرج بعض الرواة من الكذب والاختلاق ، لشهوة تحسها أنفسهم ، وشفاء لداء يتغلغل فى صدورهم ، ورغبة فى إظهار السبق والتفوق ؛ وقد كان على رأس هؤلاء الكذابين الوضاعين : حماد وخلف الأحمر ؛ أما حماد فيقول عنه المفضل الضبي : « لقد سلط على الشعر من حماد ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطىء فى روايته أم يلحن ؟ قال ليته كان ذلك . فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب . ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم . فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله فى شعره ويحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ » .

ولقد أقر حماد بحضرة الخليفة المهدى وهو ولى للعهد بما زاده من عنده فى شعر زهير بن أبى سلمى ، حتى أمر حاجبه فأعلن فى الناس أنه يبطل رواية حماد .

وأما خلف فإنه كان كما يقول ابن سلام ، أفرس الناس ببيت شعر .

ويقال إنه وضع لأهل الكوفة أشعاراً كثيرة ثم نسك فى آخر حياته فأنبأهم بما وضع فلم يصدقه أحد . واعترف هو للأصمعى بأنه وضع أشعاراً . وقيل إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ولامية أخرى على تأبط شراً رويت فى الحماسة .

٤ — على أن بعض الحفاظ من الرواة كانوا حين يتزاحم لديهم ماحفظوا قد يختلط عليهم بعض المتشابه ويلتبس لديهم المتقارب فى المعنى أو فى الوزن أو المتفق فى الروى . فقد يخلطون أبيات قصيدة بأبيات قصيدة أخرى ، أو ينسبون أبيات شاعر إلى شاعر آخر وهكذا ، حتى نسبوا الأبيات الآتية إلى ابن الدمينة وإلى نحو أربعين شاعراً وهى :

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ... ويجمعنى والهم بالليل جامع
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا ... لى الليل شاقتنى إليك المضاجع
لقد ثبتت فى القلب منك محبة ... كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

ولقد كثر الرواة كثرة عظيمة ، ومن بينهم حماد الراوية المتوفى عام ١٥٥ هـ ، وخلف الأحمر المتوفى عام ١٨١ هـ ، وأبو عمرو الشيبانى ، وأبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ ، والأصمعى م ٢١٧ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى م ٢١٣ هـ ، وسواهم ؛ وقد ختمت طبقة الرواة بالمبرد (٢٨٥ هـ) وثعلب (٢٩١ هـ) ، فإليهما انتهت الرواية ، وبهما ختمت ؛ وحركة رواية الشعر فى هذا العصر هى التى حفظت لنا أشهر القصائد القديمة ، وهى التى جعلت الرواة يقبلون على تدوين دواوين الشعراء ، وجمع شعر القبائل المختلفة كهذيل وغيرها ، وقد خلقت لنا هذه الحركة أعمالا جليلة فى البعث الأدبى وفى إحياء الشعر القديم ، وكانت مقدمة لحركة النقد والتمحيص التى تلت حركة الجمع والرواية والتدوين .

طبقات الشعراء

شعراء العصر العباسى الأول كثيرون ، ويختلفون باختلاف نزعاتهم السياسية والاجتماعية والفنية :

١ — فهناك شعراء لهم صبغة سياسية ومن بينهم مروان بن أبى حفصة وكان عباسى الهوى ، وكذلك أبو تمام وابن المعتز ، من حيث كان دعبل شيعى الهوى والنزعة .

٢ — وهناك شعراء تغلب عليهم النزعة الاجتماعية ، وفى مقدمتهم أبو نواس شاعر اللذة ، وابن الرومى شاعر الهجاء فى عصره ، والبحترى شاعر المجتمع بأوسع ما نتصوره من دلالة .

٣ — وهناك شعراء شهروا بمذاهب فنية وهم شعراء الصنعة الذين سنتحدث عنهم بعد قليل ؛ وعلى الجملة فقد كان من أشهر شعراء هذا العصر :

١ — الطبقة الأولى من العباسيين وهم مخضرمو الدولتين كابن هرمة (١٥٠ هـ) ، وأبى دلامة (١٦١ هـ) ، والحسين بن مطير الأسدى ، وأبى حية النميرى ، وسديف بن ميمون ، وأبو الهندى ، وبشار (١٦٧ هـ) وهو إمامهم ويعد إمام المحدثين كذلك ، وصالح بن عبد القدوس (١٦٧ هـ) وحماد عجرد (١٦٨ هـ) ومطيع بن إياس (١٦٩ هـ) والسيد الحميرى (١٧٣ هـ) ، ومروان بن أبى حفصة .

٢ — والطبقة الثانية طبقة المحدثين الذين نشأوا فى صدر الدولة العباسية ، ومنهم أبو نواس (١٩٨ هـ) وهو إمامهم ، ووالبة (١٧٥ هـ) ، وسلم (١٨٦ هـ) ، والعباس بن الأحنف (١٩٢ هـ) ، وأشجع السلمى (١٩٥ هـ) وأبى العتاهية (٢١١ هـ) ، ودعبل (١٤٨ - ٢٤٦ هـ) وسواهم .

٣ — والطبقة الثالثة طبقة أبى تمام (٢٣١ هـ) والبحترى (٢٨٤ هـ) وابن الرومى (٢٨٣ هـ) وابن المعتز (٢٩٦ هـ) وهى طبقة طارت شهرتها فى كل مكان ..

الطبع والصنعة عند المحدثين

١ — بين القدامى والمحدثين من النقاد خلاف كبير فى تحديد معنى الطبع والصنعة : يرى الأولون أن التهذيب الفنى للأسلوب هو الصنعة ، فالمصنوع هو المثقف المهذب من الشعر ؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبى من آثار التجويد والتنقيح ، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة ، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع ، وإلا فهو مصنوع متكلف ، والأديب المطبوع عندهم من كان غير مقلد فى معناه أو فى لفظه ، وكان صاحب موهبة فى نفسه وعقله لا فى لسانه فقط .

ورأى المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاح جديد فى معنى الطبع والصنعة . وأرى أن الأولى فى تحديد معناهما أن نجمع بين الرأيين الذين يتلاقيان ولا يتناقضان ، فالطبع هو الملكة القادرة فى نفس الشاعر والأديب التى توحى إليه بفنه وأدبه وحى الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف وتعب فى "صوغ أو استجداء لترف الأسلوب و"صناعة ؛ أما الصنعة فهى إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفنى وترف الأداء وزخرف الأسلوب ، وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف ؛ وهيامه الفنى بها ، وقصده إليها ، وتعمده لها فى شعره ، حتى ليطلب الفن للفن ، ويستلهم الجمال للجمال ، ويستوحى الشعر من ملكاته الفنية التى استبدت بها هذه النزعة ، مما يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة .

ويجمع جمهور النقاد فى القديم والحديث على عيب الصنعة والتصنيع ، وسموا المصنعين من الشعراء فى العصر الجاهلى : عبيد الشعر ؛ وعابوا شعرهم ، قال الأصمعى الأديب الراوية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والنابغة وأشباههما عبيد الشعر ، وقال : الحطيئة — وهو شاعر إسلامى مشهور — عبد لشعره ،

قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد م ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعي شعره حين وجده كله متخيراً مستويا لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه ، وكان الأصمعي يستحسن التفاوت فى الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة ، وعلى هذا الرأى يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت فى شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه ، ويعده العقاد الآية الناطقة على شاعرية المتنبي وعظيم مكانته فى الشعر .

ولقد كان الشعر العربى أثراً للفطرة والبديهة ، واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة فى الجاهلية وكان أكثره ارتجالا أو ما يشبه الارتجال ، ينظمه الشاعر على البديهة ، ويأتى به عفو الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعانى وتتتابع ، فتنثال عليه الألفاظ وتأتيه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالا ؛ كل ذلك فى سهولة وتدفق وفطرة دون تثقيف وتهذيب وتنقيح ، حتى قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا .

وفى العصر الجاهلى بدأ لون جديد من ألوان التهذيب والصنعة فى الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما .

كان أوس بن حجر من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى محبرا لحسن شعره ، وتتلمذ عليه زهير ، وكان طفيل الغنوى كذلك ، وكان النمر بن تولب من أصحاب التثقيف والتهذيب ، وكان أبو عمرو بن العلاء الناقد الراوية م ١٥٤ هـ يسميه الكيس لحذقه بالشعر ، والنقاد يعدون النابغة الذبيانى أيضاً من المصنعين ، ويقول أنصار الصنعة : إن امرأ القيس أيضاً كان يثقف شعره ويعيد النظر فيه فيسقط رديئه ويثبت جيده ، وكان امرؤ القيس راوية أبى دؤاد الأيادى ، وكان يلوذ به فى شعره ويتوكأ على

معانيه كثيراً ، ولكن شعر امرىء القيس ينفى عنه الصنعة والتصنيع ، وفرق بين أن يجىء عفواً فى شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون مصنعاً ينحت فنه كما ينحت الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أى حال هو زهير ، قال بعض النقاد : عمل سبع قصائد فى سبع سنين كان يسميها الحوليات . وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التثقيف والتهذيب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها ـ خوفاً من النقد والنقاد ـ بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة أو ليلة ؛ وقيل كان ينظم القصيدة فى شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول ؛ وقيل : بل كان يعمل القصيدة فى ستة أشهر ويهذبها فى ستة أشهر ؛ وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائد الحوليات . وقد سار تلامذة زهير على نهج أستاذهم كالحطيئة الشاعر الإسلامى وسواه .

وكان هذا المذهب الفنى فى الشعر الجاهلى ـ مذهب الصنعة والتصنيع ـ أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كعكاظ وسواه بالحكومة الأدبية بينهم وكان النابغة تقام له قبة فى عكاظ ويتحاكم إليه الشعراء ؛ كما كان أثراً للتكسب بالشعر واتخاذه وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها سنى الهدايا والألطاف من ممدوحيهم ؛ وكان ارتباط الشعر الجاهلى بالغناء ورغبة بعض الشعراء فى التجويد والتجديد فى المعانى من أسباب نشأة هذا المذهب الفنى أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلى نفسه وجدنا الفرق كبيراً بين آثار أصحاب الطبع والبديهة كطرفة وامرىء القيس ومهلهل وآثار الشعراء المصنعين .

والمعلقات السبع وهى من أشهر القصائد الجاهلية فى البلاغة الأدبية وأحفلها بمواهب الشاعرية والفن والخيال وخصب الملكات ، كلها من آثار

الطبع الأدبى الموهوب ، وليس فيها شيء من مظاهر الصناعة الفنية : فمعلقة امرىء القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفه ولهوه ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ملحمة تاريخية تصور التاريخ القومى والحربى والسياسى لقبيلة الشاعر « تغلب » ، ومعلقة عنترة حديث عذب جميل بين الحب والحرب والبطولة ، ومعلقه زهير دعوة للسلام وتنفير من الحرب ووصف لأهوالها وويلاتها ، ويكاد يكون زهير فيها أشبه شيء بالمطبوع ويكاد أسلوبه فيها يبعد عن الصنعة وآثارها الفنية ، وشتان بين هذه المعلقة وبين بائية النابغة « كليني لهم الخ » أو بينها وبين قصيدة زهير « صحا القلب عن سلمى » لبعد ما بين الأثر المطبوع والمصنوع .

واستمر مذهب الصنعة بعد العصر الجاهلى ، يظهر فى شعر الحطيئة والراعى النميرى وغيرهما حتى جاء العصر العباسى .

٢ — كان الشعراء المحدثون — وهم الذين نشأوا فى ظلال الدولة العباسية وفى ظلال الامتزاج الذى حدث بين العرب والأمم الأخرى — يقصدون إلى ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التى يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة وسحر الأداء ، من استعارة وتشبيه وجناس وتطبيق ومقابلة وحسن تعليل وسوى هذه الألوان ، التى يقصدونها قصدا ويفتنون فيها افتنانا ، ويحرصون على توشية شعرهم وقصائدهم بها وتجميل آثارهم بزخرفها . وكان الراعى مقدمة لهذا اللون من الصنعة ، فكان كثير البديع فى شعره [١] .

وأول من فتق البديع من المحدثين بشار وابن هرمة [٢] ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا منهما [٣] ، ثم اتبع بشارا وابن هرمة مقتديا بهما العتابى والنمرى ومسلم وأبو نواس [٤] ، فالعتابى يذهب شعره فى البديع [٥] ،

---

(١) ٣٤٢ : ٣ البيان (٢) ١١٠ : ١ العمدة (٣) ٥٥ : ١ البيان
(٤) ١٩٠ : ١ العمدة (٥) ٢٤٢ : ٣ البيان

وكان يحتذى حذو بشار فى البديع (١) ، وكان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين كالنمرى ومسلم وأشباههما (٢)، وأستاذه بشار أبو المحدثين وأستاذهم (٣) ، وكانت تتباين طبقات شعره فيصعد كبيرها ويهبط قليلها بكثيرها وكذلك كان حبيب (٤) ، وكان أبو نواس ثانى بشار فى منزعه لفظا ومعنى وكثيرا ماصب على قوالبه وجرى فى مضماره . حتى قال الجاحظ فيهما : هما واحد والعدة اثنان ! بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ولا تعب من عمل شعر ، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا أذن ، وليس بعد بشار مولد أشعر من أبى نواس (٥) ، وكان أبو نواس يشبه بالنابغة (٦) ، وكان أصير المحدثين شعرا (٧) . والصنعة واضحة بشكل ملموس فى ميميته :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم (٨)

على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهذيبا أدبيا واسعا للشعر ومذهبا جديدا ماثورا إلا على يد المحدثين عامة (٩) وعلى أيدى مسلم وأبى تمام على الخصوص ، فمسلم أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبله إلا النبذ اليسيرة وهو زهير المولدين وكان يبطىء فى صنعته ويجيدها (١٠) ، بل هو فيما زعموا

---

(١) ٥٥ : ١ البيان . (٢) ٥٤ : ١ البيان .

(٣) راجع ٢٠ : ٣ الأغانى ، ١١٠ : ١ العمدة ، ١٣ : ٢ زهر ، ٢٥٠ موشح ص ٣ طبقات ابن المعتز . وكان الأصمعى يقول هو خاتمة الشعراء (٣:٢٣ الأغانى)

(٤) ٢٦٣ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف .

(٥) ١٦١ العصر العباسى للاسكندرى .

(٦) ١١٠ : ١ العمدة . (٧) ١٧٣ : ٣ العمدة .

(٨) وهى فى ديوانه ، وتنسب لمعن بن أوس خطأ .

(٩) ١٧٣ : ١ العمدة . (١٠) ١١٠ : ١ العمدة .

أول من قال هذا الشعر المعروف بالبديع وهو الذى لقب هذ الجنس بالبديع واللطيف[١] ، وأول من أفسد الشعر بالبديع[٢] ، ويشيد به النقاد جميعا فى مذهب الصنعة والبديع منوهين بأثره فى هذا الباب[٣] ، كان يتخذ الصنعة مذهبا يطبق عليه نماذجه بيتا بيتا، فعنى بضروب التصنيع والزخرف المختلفة من جناس وطباق واستعارة ومشاكلة وأقام ألفاظه وتعابيره كما يقيم المثالون تماثيلهم ، وحقا كان مسلم زعيم التصنيع فى عصره فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه فالقصيدة عنده لا تعبر عن خواطر وإنما تعبر عن ألوان[٤] .

٣ — وعمت موجة التصنيع بعد مسلم ، وعلى نمطه وحذوه سار أبو تمام والبحترى . « فكانا يطلبان الصنعة ويولعان بها ، فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتى الأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ، وأما البحترى فكان أملح الناس صنعة وأحسن مذهباً فى الكلام يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة[٥] ، كان لأبى تمام مذهب فى المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء[٦] ، وربما أسرف فى المطابق وفى المجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها[٧]، ولا تجتمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمه[٨] ، وهو أول من شرع البديع وأنبع عيون التقسيم والتصريع

---

(١) ٢٠ : ١ معاهد التنصيص .

(٢) ٨ الموازنة .

(٣) ٦٨ المثل السائر ، ١٠٩ طبقات ابن المعتز ، ٢٧٢ معجم الشعراء ، ٢٤٨ رسائل البلغاء ، ١٣٢ : ٤ زهر الآداب .

(٤) ٨١ و ٨٣ الفن ومذاهبه .

(٥) ١٠٩ : ١ العمدة .

(٦) ١٦٨ : ٧ مهذب الأغانى .

(٧) ٩٦ إعجاز القرآن .

(٨) ٩٢ رسالة الغفران .

والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس (١) ، وعلى أى حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طرقا سابلة وأكثرا منها فى أشعارهما تكثيرا سهلها عند الناس على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفاً (٢) ، وكان أبو تمام يستخدم فى صناعة شعره وشى التصنيع الذى عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشاكلة ، وتصوير وأضاف إليها شيئاً آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد فى تصويره على صبغ التدبيج وقد استوعب الفلسفة والثقافة وحولها إلى فن وشعر فالطباق والجناس والمشاكلة كل ذلك وسواه تجتمع فى شعره فيجلله الغموض فى كثير من جوانبه وأجزائه وهو الغموض الفنى الذى آخذه به النقاد فهو يبتكر أفكاراً وصورا جديدة ولكنه يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تؤدى مايريد وجانب الغموض والمعانى العويصة فى شعره هو الذى أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التى شبت فى فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تبزغ من مذهب البرناسيين، وكان أبو تمام يستخدم الطباق استخداما معقدا يلونه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد (٣) وهو المقابلة ، وكان البحترى يتشبه بأبى تمام وينحو نحوه ويحذو حذوه فى البديع (٤) .

وكان لا يرى فى التجنيس مايراه أبو تمام(٥) ويقل التصنع له فإذا وقع فى كلامه كان فى الأكثر حسنا رشيقا، وتصنعه للمطابقة كثير حسن وتعمقه فى

---

(١) ٣٠٥ الريحانة للشهاب من ظلامة أبى تمام التى ذكرها الشهاب الخفاجى فى ريحانته (٣٠٤ - ٣٠٩) وقد صنفها الخالدى على لسان أبى تمام يشكو فيها الطائى من الواعظ الموصلى الذى كان يغير على شعر أبى تمام فى كلامه وشعره .

(٢) ١١٠ : ١ العمدة . (٣) راجع ١١١ و ١١٥ و ١٢١ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣١ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى . (٤) ١٨٣ : ٧ مهذب الأغانى .

(٥) أى من إسرافه فيه .

وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة فى السلاسة (١) والبحترى على أى حال لم يكن متفلسفا ولم يكن من رجال الفكر العميق ، كان بدويا أعرابيا فظلت أدوات الصناعة عنده ساذجة بسيطة (٢) ، كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقدا شديدا كما يقول الباقلانى ، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى كما يقول صاحب المثل السائر ، بل كانت كالعسل حلاوة (٣) .

أما ابن الرومى فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على اللفظ فيطلبون صحته ولا يبالون حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته (٤) ، فكان يصنع شعره على طريقة المدرسة المحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة الحديثة مدرسة التصنيع (٥) ، فهو حديث فى ثقافته ولكنه لا يستطيع أن ينهض فى فنه بألوان التصنيع وزخارفه وحقا قد شغف بالتصوير ولكن هذا الشغف لا يخرجه إلى مجال المصنعين (٦) ، وهو مع ذلك قد يأتى بألوان الزخرف الفنى فى شعره ، ولكن دون أن يتخذها مذهبا ، وكان يستخدم الطباق والجناس فى شعره ، وهو يشبه البحترى فى ذلك إلا أن البحترى يكثر

---

(١) ٩٦ إعجاز القرآن .

(٢) ٩٠ الفن ومذاهبه .

(٣) ٣٥ طبقات ابن المعتز ، والآمدى يفضل ابتداءاته (٥٥ : ١ العمدة) وكان مقصرا فى الخروج من النسيب إلى المدح (٤١ إعجاز القرآن) ، ويفضله الجرجانى بجودة الابتداء على حبيب والمتنبى وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة (٢٠٥ : ١ العمدة) .

(٤) ١٠٦ : ١ العمدة ، وابن الرومى أكثر الشعراء اختراعا للمعانى (٢٣٢ ج ٢ العمدة) ، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة (١٦١ رسالة الغفران) .

(٥) ٩٤ الفن ومذاهبه .

(٦) ٩٥ المرجع .

من الجناس ، وقد استعار من أبى تمام صبغ التدبيج (١) .

٤ — وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعتز وختم به (٢) ؛ كان ابن المعتز هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن للفن وينظم الشعر ليلهو به ، وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين ، وكان متكلفا مجيداً فى تكلفه كما كان الوليد مطبوعا مجيدا فى طبعه . ويقول عبدالقاهر فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ولم يكن من المطبوعين (٣) ، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع ، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعتز فيقول : وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعا من ابن المعتز فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر وهو عندى ألطف أصحابه شعرا وأكثرهم بديعا وافتتانا وأقربهم قوافى وأوزانا ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب (٤) ؛ ولقد صدق ابن رشيق فى حكمه الأدبى على ابن المعتز وصنعته فإن له من روائع الصنعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاوة الصياغة فى صناعته ما يروع القارىء ويد تبد بإعجاب المنصف من النقاد ، «كان أبو تمام متكلفا للبديع وكان البحترى وابن المعتز يجريان مع الطبع ، وكان مسلم ينهج نهجا وسطا» (٥) . . ولا شك أن ذلك أثر لعصر ابن المعتز وبيئته وحياته ووجدانه وشعوره ، وآية ناطقة بحبه للجمال الساري فى الحياة .

وقد استمر مذهب الصنعة بعد ابن المعتز منهجا فنيا لكثير من الشعر حتى العصر الحديث .

---

(١) وكان يلتزم حركة ماقبل الروى فى أكثر شعره (١٣٣ : ١ العمدة) وكان يلتزم ما لايلتزم فى القافية (١٣٧ و ١٣٨ : ١) العمدة وقد يلتزم الحرف وحركته قبل الروى (١٧٢ سر الفصاحة) . (٢) ١١٠ ج ١ العمدة .

(٣) ٢٦٢ أسرار البلاغة . (٤) ١٠٩ و ١١٠ ج ١ العمدة .

(٥) ١٧٠ وما بعدها الأسلوب للشايب .

تراجم للشعراء :

ابن المعتز الخليفة العباسى الشاعر

حيـــاته :

ولد أبو العباس عبد الله بن المعتز فى شعبان سنة ٢٤٧ ، أو ٢٤٩ كما يقول ابن خلكان ، فى بيت الخلافة ، وولى والده المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ . ومكث فيه ثلاث سنين ، قتل بعدها بيد الأتراك الذين كان بيدهم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة، وكان لنكبة والده أثر عميق فى حياته ونفسيته .

تلقى ثقافته فى الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأئمتها، الذين حفل بهم هذا العصر الزاخر بألوان العلوم والثقافات والآداب، وكان من أساتذته المبرد المتوفى سنة ٢٨٥هـ، وثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ، وسواهما من فحول العلماء.

وظهرت شاعريته فى أول عهده بالشباب ، فامتلأت بها حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب ، فكان البليغ الساحر والشاعر المجيد ، والناقد الواقف على خصائص الأدب والبيان . وله مؤلفات كثيرة جيدة منها : كتاب البديع ، وفصول التماثيل ، وطبقات الشعراء ، وديوانه مطبوع فى جزأين فى مصر والشام .

عاصر ابن المعتز بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسيين، هم: المهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) ، والمعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، والمكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥) ، وعاش بينهم معتزاً بشخصيته ، نبيل النفس ، عظيم الخلق ، يظهر انصرافه عن الخلافة ، وهو فى نفسه ناقم على الحياة التى ملكت سواه مقاليدها ، وقبض عليه عدة مرات أطلق بعدها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول فى شعره :

من يشترى حسبى بأمن خمول من يشترى أدبى بحظ جهول ؟

ولما مات ابن عمه الخليفة العباسى المكتفى بالله عام ٢٩٥ هـ ، ولى الأتراك ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلا ، فثار الناس فى بغداد ، وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز الخلافة عام ٢٩٦ هـ، ومكث فيها ليلة واحدة ، حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة تؤيده القوة الحربية فى الدولة ، وقبض على ابن المعتز ، ووزيره محمد بن داود بن الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦ هـ ، وبذلك انتهت حياة شاعر كبير ، من شعراء العربية المعدودين .

بيئتـــه :

عاش ابن المعتز فى بغداد وسر من رأى ، فى البيئة العامة التى امتاز بها القرن الثالث ، والتى حفلت بألوان الحضارة ، وشتى فنون العلوم والثقافات والآداب ، كما عاش فى بيئته الخاصة الحافلة بألوان الترف والنعيم والمجد ، فى قصور الخلفاء والأمراء ، وكان لذلك كله أثره الواضح فى شخصيته وشاعريته .

شاعريته وخصائصها :

١ — أرهفت نفسية ابن المعتز وحياته وبيئته وثقافته ، مشاعره ووجدانه وإحساسه ، فنشأ شاعراً بطبعه ، ملهم الشاعرية ، قوى الملكات (١) .

ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاعره ، ومايختلج فى صدره من آمال وآلام ، وماتزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة . فشعره صورة لحياته الخاصة أولا ، ولحياة الطبقة المترفة ثانياً ، وللاتجاهات العليا فى السياسة والاجتماع والآداب أخيراً ، وهو فوق ذلك صورة صادقة

(١) ويروى عن ابن مجاهد (٣٢٤ هـ) : من قرأ لأبى عمرو ، وتمذهب للشافعى ، وروى شعر ابن المعتز فقد كمل ظرفه (٢ : ١٠٣ طبقات الشافعية للسبكى) .

للفن الخالص ، الذى يؤمن بالفن للفن ، لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنه كان يحيا حياة فنية خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لمجد أو لمال أو لرضاء خليفة ، إنما كان ينظمه لنفسه ، ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه .

٢ — وقد أجاد فى الشعر السياسى ، كما أجاد فى الفخر ، والإخوانيات ، والغزل . وخمرياته فيها دقة معان ، ورقة تصوير ، وكثرة تشبيهات ، وفنه فيها يقف بجانب فن أبى نواس فى خمرياته .

وكذلك كان فى الصيد والطرد مجيداً مبدعا ، يقتفى فيه آثار امرىء القيس ، وأبى نواس . . . . والعتاب والشكوى من الفنون الشعرية التى تفوق فيها .

وكذلك بلغ ابن المعتز فى الوصف حد الجودة والإبداع ، ورسم صورا صادقة لكل ما وقعت عليه عينه ، من مناظر الطبيعة ومظاهر الحضارة ، ووصفه وصف وجدانى ، له موسيقى عذبة ، وفيه رقة وسلاسة ، ومرح وطبع ودقة وعمق ، وابتداع فى الأسلوب وتجديد فى التشبيه والاستعارة ، وقدنمى ملكته فى نفسه دقة حسه ، ولطف شعره ، وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال ، وروائع الخيال ، ورونق الحضارة ، وأنه كان يقول الشعر إرضاء لنفسه ، وتصويراً لحسه ، مما صرفه إلى وصف الطبيعة ، ومجالس الأنس ، ومطارد الصيد .

أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعتز منها قليلا ، ترك الزهد لأبى العتاهية ، والرثاء لأبى تمام ، والهجاء لابن الرومى ، والمدح للبحترى ؛ وعاش هو شاعر الترف والفن والجمال . وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيق (١) .

٣ — ومعانى ابن المعتز تتصل بنفسه وحسه وحياته ، وهو فيها دقيق

---

(١) ١٦٣ ج ١ العمدة .

الفكرة بعيد المنزع ، محكم التصوير ، مجدد مبتكر حينا ، ومقلد أحيانا أخرى .

٤ — وخياله الشعرى خيال واقعى، يستمد من صور الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ، ما ينطق به من خيال ووصف وتصوير وخياله النشط يعنى بمحسات الأمور ؛ ومرئياتها المشاهدة دون أن يكلف نفسه الجرى وراء عالم المثل والمعنويات .

ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته ، وبالرونق والعذوبة . فى جزالة تشيع فى أعطافه حينا ، وسهولة ورقة يفيض بها شعره أحيانا ، مع جمال فى ترف البيان وألوان البديع ، مما حذا فيه حذو بشار ومسلم وأبى تمام . وتشيع فى أسلوبه الصياغة الفنية ، الممتلئة روحا وحياة وموسيقى ووضوحا ، فى قرب مأخذ ، وجودة قريحة ، وحدة خيال كما يقول :

والصبا ممتلىء حاجة وأمـلا

منزلته الشعرية :

ابن المعتز أديب ساحر ، وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التى نبغت فى القرن الثالث الهجرى ، وهو أمير التشبيه فى الشعر العربى القديم والحديث .

يعد فى الطبقة الثالثة من المحـــدثين ، وهى الطبقة التى خلفت طبقة أبى نواس ، وطبقة بشار زعيم المحدثين .

ويعدون معه فى طبقته أبا تمام والبحترى ؛ وبعض النقاد يجعل ابن الرومى وابن المعتز طبقة رابعة من طبقات المحدثين ، ويجعل أبا تمام والبحترى حاملى راية الطبقة الثالثة فى المحدثين .

ويقول ابن رشيق : طبقة حبيب والبحترى وابن المعتز وابن الرومى

طبقة متداركة ، وتلاحقوا ، وغطوا على من سواهم من الشعراء(١) » .

ويقول : « وليس فى المولدين أشهر اسما من أبى نواس ثم حبيب والبحترى ثم تبعهما فى الاشتهار ابن الرومى وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كأبى نواس فى المحدثين ، وامرىء القيس فى القدماء(٢) » .

المدرسة الأدبية التى يمثلها ابن المعتز :

المدرسة الأدبية التى يمثلها ابن المعتز ، هى مدرسة المحدثين ، التى قاد زمامها أبو تمام والبحترى ، والتى امتازت بميزتين :

الأولى : هى التعمق فى المعانى واستنباطها ، مما يتجلى لك فى شعر أبى تمام وابن الرومى واضحاً ملموساً .

والثانية : هى الصناعة الشعرية المتأنقة ، التى تطلب ألوان الجمال فى الأداء ، وتعتمد على الزخرف البيانى فى الأسلوب ، من : جناس وطباق ، وتشبيه واستعارة وتمثيل ، وكانت العرب - كما يقول ابن رشيق - « لا تنظر فى أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، أو تترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما فعل المحدثون ، ولكن كان نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وماوقع فيه من هذا النوع فعن غير قصد ولا تعمل ، مما عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التثقيف والتنقيح ، وأول من فتق البديع للمحدثين بشار وابن هرمة ، ثم تلدهما فيه مسلم ، والعتابى ، والنمرى ، وأبو نواس ؛ واتبع هؤلاء أبو تمام والبحترى وبن المعتز . . فانتهى علم البديع والصنعة إليه ، وختم به(٣) .

---

(١) ٨٣ ج ١ العمدة . (٢) ٨٢ ج ١ العمدة .

(٣) ١٠٨ - ١١٠ ج ١ العمدة .

فابن المعتز إذاً هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المتكلفة . فقد كان يحب الفن للفن ، وينظم الشعر ليلهو به ، وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين ، وكان متكلفا مجيداً فى تكلفه ، بقدر ما كان الوليد مطبوعا مجيداً فى طبعه ، ويصف ابن رشيق صنعته فيقول : « وما أعلم شاعر أكمل ولا أعجب تصنيعا من ابن المعتز ، فإن صنعته خفية لطيفة ، لا تكاد تظهر فى بعض المواضع ، إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى ألطف أصحابه شعراً ، وأكثرهم بديعا وافتنانا ، وأقربهم أوزاناوقوافى ، ولاأدرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب »[1] .

ويقول الجرجانى فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ، ولم يكن من المطبوعين[2] ، وكان الجرجانى يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع .

ويقول أبو الفرج فى وصف شعره وخصائصه : « هو وإن كان فيه رقة الملوكية ، وغزل الظرفاء ، وهلهلة المحدثين ، فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ، ولا تقصر عن مدى السابقين ، وليس يمكن واصفا لصبوح فى مجالس اللهو بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والرياحين إلى غير ذلك ، أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر ، إلى جيد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البيد والمهامه ، والظبى والظليم ، والناقة والجمل ، والديار والقفار » . والأصفهانى يشير بذلك إلى أن أسلوب ابن المعتز فيه جيد كثير وإلى أن رقة أسلوبه غالبا ترجع إلى حياة الملك التى تستلزم الترف وإلى وصفه لألوان اللهو التى تستدعى رقة الأسلوب ، وإلى بعد نفسية الشاعر غالبا عن أغراض الشعر البدوى ، فرقة شعره ودقة تشبيهاته أثر من آثار البيئة فيه .

---

(١) ١٠٩ ج ١ العمدة .

(٢) ٢٦٢ أسرار البلاغة .

ويقول ابن شرف القيروانى فى رسالة الانتقاد : ابن المعتز ملك النظام له التشبيهات المثليـــة والاستعارات الشكلية ، والإشارات السحرية ، والافتخارات العلوية ، والغزل الرائق ، والعتاب الشائق ، ووصف الحسن الفائق .

فن ابن المعتز فى التشبيه :

طارت شهرة ابن المعتز الأدبية والفنية فى باب التشبيه ، وأتى فى ذلك بما سحر الناس وخلد فى صفحات الشعر والأدب . وسار المثل فى القديم والحديث بتشبيهات ابن المعتز لأنها أظهر سمة وأبلغ تعبير عن شاعريته وتصويره لفنه ، وفى الحق أننا لانجد التشبيه ملكة من الملكات الفنية عند شاعر من الشعراء كما نجده عند ابن المعتز ، ولانجد هذه الكثرة مع تلك الجودة عند أحد سواه . وكان ابن المعتز يقول : إذا قلت كأن ولم آت بعدها بالتشبيه ففضح الله فى (١) .

وجميع النقاد يعترفون لابن المعتز بمكانته الأدبية الكبيرة فى باب التشبيه ، يقول الباقلانى : وأنت تجد فى شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذى يشبه السحر وقد تتبع من هذا ما لم يتتبع غيره ، واتفق له مالم يتفق لغيره من الشعراء (٢) ، ويقول الثعالبى : تشبيهات ابن المعتز يضرب بها المثل فى الحسن والجودة ، ويقال إذا رأيت كاف التشبيه فى شعره فقد جاءك الحسن والإحسان ولما كان غذى النعمة وربيب الخلافة ومنقطع القرين فى البراعة

(١) ١٤٦ ج ١ معاهد التخصيص . ٦٩٣ ج ١ دائرة المعارف للبستانى ، ومقدمة ديوان ابن المعتز المطبوع ببيروت وينسبها الرافعى لذى الرمة (٢٥ ج ٢ آداب العرب للرافعى) ، وهو غير صحيح .

(٢) ٢٠٧ إعجاز القرآن للباقلانى .

تهيأ له من حسن التشبيه مالم يتهيأ لغيره ممن لم يروا مارآه ، ولم يستحدثوا ما استحدثه من نفائس الأشياء وطرائف الآلات [١] .

ويقول المطوعى : جل كلام ابن المعتز فى التشبيه عن أن يمثل بنظير أو شبيه [٢] : ويقول العباسى : هو أشعر الناس فى الأوصاف والتشبيهات [٣] ويقول ابن رشيق : قالت طائفة الشعراء ثلاثة ، جاهلى ، وإسلامى ، ومولد فالجاهلى امرؤ القيس ، والإسلامى ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز ، قال ابن رشيق وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر [٤] ويقول : ولا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ، ويسهل عليه تناولها كان المعتز فى التشبيه [٥] ، ويقول الحصرى : وليس بعدذى الرمة أكثر افتنانا وأكبر تصرفا فى التشبيه من ابن المعتز [٦] ، ويقول الدميرى : هو صاحب التشبيهات التى أبدع فيها ولم يتقدمه من شق غباره [٧] . ويشيد بتشبيهاته كثير من الباحثين [٨] وقد وضع عبد القاهر هذه التشبيهات موضع الدراسة والنقد وأشاد بها فى الأسرار . وتوضع تشبيهات ابن المعتز مع روائع الشعر العربى ، قال الخوارزمى : من روى حوليات زهير واعتذاريات النابغة وخمريات أبى نواس وزهديات أبى العتاهية ومراثى أبى تمام ومدائح

---

(١) ١٨٢ ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب .

(٢) ١٧٤ ج ١ زهر الآداب .

(٣) ١٤٦ ج ١ معاهد التنصيص .

(٤) ٨٢ ج ١ العمدة .

(٥) ٢٥٥ ج ١ العمدة .

(٦) ٢١٩ ج ١ زهر .

(٧) ٨٣ ج ١ دميرى .

(٨) ٢٢٢ ج ٢ شذرات ، ٢٧٠ الوسيط . ٢٤ العصر العباسى السباعى بيومى ٢٤٩ رسائل البلغاء .

البحترى وتشبيهات ابن المعتز ثم لم يخرج إلى الشعر فالموت أولى به .. ويقول بعض المحدثين : فتن الناس ابن المعتز بتشبيهاته كما أسكرهم أبو نواس بخمرياته (١) .

وقد قلده الشعراء فى فن التشبيه وساروا على نهجه فيه . فكان تميم ابن المعز يحتذى حذو ابن المعتز فى التشبيهات ويقف بجانبه ويفرغ فيها على قالبه (٢) . وكان العقيلى أبو الحسن على بن الحسين من أئمة المدرسة التى تعنى بالتشبيه وتجيده وهو من شعراء القرن الخامس وسلك مسلك أبى نواس وابن المعتز فى الخمر وتوليد المعانى (٣) . وكذلك احتذاه فى تشبيهاته : ابن وكيع الشاعر م ٣٩٣ (٤) هـ وأبو نواس والوأواء (٥) ، وابن خفاجه ، وسواهم .

ترجع بواعث هذه الملكة المصورة فى نفس ابن المعتز وأسباب تلك القدرة البارعة على تقدير الأشياء ، وعلى تشبيـــه بعضها ببعض إلى ذهنه الخصب ، وعقليتـه الناضجة ، وثقافته الواسعة ، وإلى إحساسه الدقيق ومشاعره المرهفة ، وهيامه الفنى يتذوق الجمال وتصوره وتصويره ، وإلى مظاهر الحضارة وترف الحياة التى عاش فيها ، وإلى مذهب الصنعة الشعرية الذى آثره ليدل بترف الأسلوب على ترف الخيال والفكر والحياة .

ويمكننا أن نصور التشبيه فى فن ابن المعتز ، تصويراً واضحا ، على نمط من التفصيل ، فنقول : إنه يمتاز بميزات كثيرة ، أهمها مايأتى :

أولا : كثرة التشبيهات فى شعره كثرة هائلة ، حتى لاتخلو قصيدة من

---

(١) ويشيد بها كثير من علماء الأدب والبيان . (٢) ١٨٣ جـ ١ زهر .
(٣) ٢١٤ جـ ١ ظهر الإسلام . (٤) راجع ١٥٢ المثل السائر
(٥) شاعر مطبوع منسجم الألفاظ عذب العبارة حسن الاستعارة جيد التشبيه (١٤٦ جـ ٢ فوات الوفيات) .

قصائده ، ولاقطعة من مقطوعاته ، من عدة تشبيهات نادرة ساحرة ، وكانت هذه الملكة القوية ظاهرة ملموسة فى فن ابن المعتز فى سائر شعره ، وشتى أغراضه ، وإن كثر ظهورها فى أوصافه وخمرياته وغزله وطرده ، وهو فى هذا يبذ جميع الشعراء ، الذين لم يكثر التشبيه فى شعرهم هذه الكثرة ، فقد « عكف ابن المعتز على التشبيه وأفرغ فيه جهده ، وراح يوشى به شعره ، ويطرز به قصائده ، ويظهر فيه براعة معدومة النظير » .

ثانيا : تشبيهات ابن المعتز تشبيهات حسية يعنى فيها بتصوير المحسات ، بإخراجها فى مظاهر حسية يستمدها من بيئته ، هو يصور مظاهر الطبيعة وشتى ألوان الحضارة المادية ، فى صور لها سحرها وجمالها الفنى الرائع . وقلما يعنى بتصوير الوجدانيات والعقليات . لأن خياله لم يؤثر أن يتجاوز نطاق الحياة المادى ومجالها الحسى إلى دائرة التخيل والتصوير للحقائق المجردة البعيدة عن مظاهر الإحساس فى الحياة ، وفاضت صنعته — كما يقول بعض المحدثين (١) — بأصباغ الزخرف الحسى ، الذى لم يغص فى بحار الفلسفة . وهى مع ذلك تفيض رقة ، وتسيل عذوبة ، وتمثل الحضارة المترفة فى أروع صورها وأجلها . مما يفيض بالخيال الرائع ، ويبرز مكان هذه الحياة المترفة التى نشأ فيها وخالطها ابن المعتز ، بما فيها من مداهن التبر ، وأوانى الفضة وصحاف الذهب المحلاة بأنواع الجواهر الكريمة ، واللآلىء النادرة حتى ليخيل إلى القارىء أن هذا الصبغ — مع عذوبته وعدم بلوغه حد التكلف — قد استحال على يد ابن المعتز ، إلى صبغ آخر جديد وذلك هو سر تفرده فى هذا اللون » . ثم هذه التشبيهات الحسية يدور أكثرها على الأشياء المدركة بحاسة البصر ، أكثر من سواها من المحسات ، ولابن المعتز فن مستقل فى تصوير الألوان خاصة من بين سائر المبصرات ، يبلغ فيه غاية الجودة والإحسان ، وسيأتى كثير من مثل

---

(١) ٨٧ و ٨٠ الصبغ البديعى فى اللغة العربية — مخطوط .

ذلك فى شعره وتشبيهاته . وكان ابن المعتز إذا اضطر إلى تشبيهات عقلية ، استمد صورها من المظاهر الحسية فى غالب الأحايين ، فيقول :

رددت إلى التقى نفسى فقرت كما رد الحسام إلى القراب

أو يقول :

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

أو يقول :

لا تجمعوا بالله ويحكمو غلظ الوعيد ، ورقة الوعد

ثالثا : وابن المعتز فى تشبيهه مصور بارع ، ينقل لك بريشته على صفحة شعره البديع صورة مطابقة كل المطابقة لما يصوره من أشياء ، هو فى تصويره ، وغنى بخياله المصور ، وذهنه الخصب ، الذى يقدر الأشياء ، ويقدر الصور بمقدارها ، ثم يخرجها تشبيها شعريا يمثل أصله فى كل خصائصه التى أرادها الشاعر ، وصوره من أجلها . ثم هو لم يحب أن يمثل عواطفه فى تشبيهاته ، لئلا تخرج عن حقائق الأمور التى تمثلها أمام العقل ، وفى رؤية البصر ، ثم هو يظهر لك إصباغ صوره كلها دون أن يمزجها بعضها ببعض ، أو يلونها بلون خاص .

رابعا : وظاهرة أخرى فى تشبيهات ابن المعتز هى دقة التصوير التى امتاز بها وبلغ فيها منتهى الإجادة ، وتقدم بها على كثير من الشعراء الوصافين . فإنه كان يوضح الشبه بين الشيئين توضيحا بالغاً مهما اختلفا فى الجنس وتباعدا فى الخيال ، وكثيرا ما كان يجمع أعناق المتنافرات فى ربقة . ويعقد بين المتباينات معاقد النسب والألفة ، مما يدل على دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر ، ومما يعطيه الناقد فى كثير منه منزلة الحاذق الصانع ،

والمصور الملهم الذى سبق إلى اختراع نوع من الصنعة حتى صار إماما فيه ، وأمسى من بعده عيالا عليه ، وتبعاً له .

فالبنفسج زهر غض يرف ، تبصر فيه زرقة أوراقه وحمرة ساقه ، يشبهه ابن المعتز لا بزهر مثله ولا بنبات آخر شبيه به ، ولكن يشبهه بلهب نار لا يستطيع سوى الحاذق أن يتخذ منه له مثالا ، ثم لم يكتف بذلك ، بل دق فى التصوير ، ونظر نظرة خاصية غريبة ، فشبهه بزرقة النار ، أول ماتشتعل فى الكبريت ، فبلغ غاية التصوير ، وملك زمام الإجادة ، حين يقول :

ولا زوردية تزهو بزرقتها ... بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها ... أوائل النار فى أطراف كبريت

والصبح حين يظهر فى حواشى الظلمة ويدفع الليل دفعاً يشبهه ابن المعتز بأشخاص الغربان ، ولكنه يجعل الغربان بيض قوادم الريش ، ثم يجعل الغربان ذاهبة فى الفضاء ، طائرة فى جو السماء ، يدفعها الخوف لا الرجاء ، فيبدع فى ذلك كله غاية الإبداع حين يقول :

كأنما وضوء الصبح يستعجل الدجى ... نطير غرابا ذا قوادم جون(١)

فيجيد الشبه والتصوير . وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه ، فى أن جعل ضوء الصبح ، لقوة ظهوره ، ودفعه لظلام الليل ، كأنه يحفز الدجى ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها . ثم صور ذلك كله فى قوله : « نطير غرابا » دون أن يقول غراب أو غراب يطير ، وذلك لأن الغراب وكل طائر إذا كان هادئاً واقفاً فى مكانه فأزعج وأخيف وأطير منه كان ذلك أسرع لطيرانه ، ومسيره إلى حيث لا تراه العيون ، وليس كذلك إذا طار عن اختيار ، لأنه يجوز أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول .

---

(١) الجون : الأبيض والأسود من الأضداد ، والمراد به هنا الأسود .

والشمس فى تموج شعاعها وفى إشراقها واستدارتها يشبهها ابن المعتز بتموج نور المرآة ، ولا يقنع بذلك بل يجعل المرآة فى كف الأشل فيقول : « والشمس كالمرآة فى كف الأشل » . ويصور أشعة الشمس فى تلألؤها وإشراقها ووقوع أشعتها على الأرض بالذهب المصبوب على الأرض فيقول فى إجادة :

وشارق يضحك من غير عجبَ كأنه صب على الأرض ذهب

خامساً : وابن المعتز يسبغ على صوره فى التشبيه ظل حياته المترفة المفعمة بألوان النعيم . فيشبه الآذريونة بكؤوس الذهب التى يحفظ فيها الطيب وفيها بقية منه ، ويشبه النرجس بكؤوس الدراتى فى حشوها العقيق ، ويشبه العنب بمخازن البلور .. إلى آخر هذه الأوصاف التى استمدها الشاعر من حياته وبيئته .

أثر حياة ابن المعتز وبيئته فى شعره :

شعر ابن المعتز صور أدبية جميلة تمثل حياته المترفة أتم تمثيل ، ففيه صور كثيرة مستمدة من الأزهار والورد والجواهر الكريمة وحياة الملوك ومظاهرها المختلفة .

فهو مثلا يصف العنب فيشبهه بمخازن البلور ، حين يقول فى ابتداع وتجديد :

كأنه مخازن البلور لم يبق منه وهج الحرور
إلا ضياء فى ظروف نور

ويصف الهلال أول ظهوره ، حيث يرى قوسا من بياض ، محاطا بالظلام ، فيشبهه بزورق من فضة ، قد أثقلته حمولة من عنبر ، والعنبر أسود والزورق حين يكون مثقلا بما يحمل لا يبدو منه فوق سطح الماء إلا جزء صغير أشبه ما يكون بالقوس .

ثم جعل ابن المعتز الزورق من فضة ، ليكون الجزء البادى منه فوق سطح الماء أبيض متلألئا شبيها بالقوس الفضى الصغير الذى ينير من القمر حين يكون هلالا ، ومن هنا جاءت روعة هذه الصورة وطرافتها ، وذلك حيث يقول ابن المعتز فى وصف الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

ويصف الهلال أيضا فيصوره بصورة منجل من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا ، والنرجس هنا يشير إلى ظلام الليل ، والمنجل شبيه بقوس الهلال ، والفضة تشير إلى ضوء الهلال ، والمنجل لا يستعمل إلا فى الحصد ، ولذلك تمم ابن المعتز هذه الصورة الجميلة حين جعل المنجل يحصد من زهور الظلام النرجس وحده ، أى يحصد ما يمثل الظلام فى الكون ، فيقول ابن المعتز فى إجادة بارعة فى وصف الهلال :

كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

ومن من الشعراء يستطيع أن يصور هذه الصور الرفيعة ؟ إن الشاعر المحروم لا يمكن أن يتحدث عن الفضة والذهب والبلور والزهور فى شعره مثلما تحدث عنها ابن المعتز ، وقد سبق بيت ابن المعتز الذى يصور فيه أشعة الشمس وقد أرسلت على الأرض بالذهب المصبوب عليها ، وهو :

وشارق يضحك من غير عجب كأنه صب على الأرض ذهب

ويقول ابن المعتز يصور لهب النار المرتفع من الموقد بأشجار الذهب :

وموقدات بن يضرمن اللهب
يشبعنه من فحم ومن حطب
يرفعن نيرانا كأشجار الذهب

وهذه الصورة رائعة لا حد لجمالها ، وهى جديدة التصوير .

موازنات أدبية :

١ — يقول البحترى فى وصفه العناق :

ولم أنس ليلتنا فى العنا ق لف الصبا بقضيب تضيبا

أخذه ابن المعتز وزاد عليه فى المعنى وفى جودة التصوير ، ودقة التعبير ، فقال :

فلو ترانا فى قميص الدجى حسبتنا فى جسد واحد

وهنا نرى ابن المعتز يرق فى الأسلوب والتعبير والوصف ، ويجيد فى التصوير إجادة بارعة .

٢ — وقال كثير :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

أخذه ابن المعتز فقال :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

فقوله : « سالت عليه شعاب الحى » يقابل الشطر الثانى كله من بيت كثير . فهو أوجز ، على أن « سالت عليه شعاب الحى » أبلغ فى التصوير من قول كثير .

٣ — وقال أبو نواس فى الراح :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء درعلى أرض من الذهب

أخذه ابن المعتز فأجاد حين يقول :

من كميت كأنها أرض تبر فى نواحيه لؤلؤ مغروس

فنجد ابن المعتز يعقد الصورة تعقيداً فنيا واضحا ، ويرسمها بإجادة دون أن تهتز اللوحة التى رسمها ، ونجده مع ذلك مجدداً ، وإن كان لأبى نواس شرف السبق وبساطة الأداء .

٤ — والعامة تشبه الورد بالخد والخد بالورد . وهو من المبتذل، إلا إذا أضيفت إليه زيادة تنقله من العامى إلى الخاصى ، أوضم إليه معنى يشفع به ، كما قال على بن الجهم :

عشية حيانى بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وهذا من قصيدة ، مدح بها إبراهيم بن المهدى ، ولما سمع إبراهيم منه هذا البيت، زحف حتى صار فى ثلثى الفراش ، وقال: يافتى شبهوا الخدود بالورود وأنت شبهت الورود بالخدود (١) . على أن فى بيت ابن الجهم زيادة تبعده عن الابتذال . وهو إضافة بعضهن إلى بعض .

وقال ابن المعتز فى هذا المعنى ، يصور بياض الورد ومافى جوانبه من احمرار :

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

فأبدع فى التصوير والتشبيه . قال القاضى الجرجانى فى وساطته : ولو اتفق له أن يقول حمرة فى جوانبها بياض لكان قد طبق المفصل ووافق شبه الخجل(٢) ، قال عبدالقاهر : إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك فى الورد ، فشبه على طريق العكس ، فقال هذا البياض حوله الحمرة كهذه الحمرة حولها البياض فى وجنة الخجل (٣) ، ويقول ابن رشيق : البيت من سوء المقابلة وإن عده القاضى الجرجانى غلطا فى التشبيه (٤) .

٥ — وقال أبو نواس فى الراح :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

أخذه ابن الضحاك وأحسن :

---

(١) ١٥٨ ج ٢ زهر الآداب . (٢) ١٥١ وساطة .
(٣) ١٧٢ أسرار . (٤) ١٧ ج ٢ العمدة .

كأنما نصب كأسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

وقال ابن الرومى فيه ، وكان أحسن منهما :

فكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

وقال ابن المعتز فزاد عليهم جميعاً :

وكأنه وكأن الكأس فى فمه هلال أول شهر غاب فى شفق

وهو أحسن ماوصف به كأس على فم .

٦ — ولما كان ابن الرومى هو أقرب شاعر إلى ابن المعتز من طبقته ، فسنوازن هنا فى إيجاز بين قصيدتين للشاعرين فى موضوع واحد ، لنرى من هذه الموازنة مدى فن كل من الشاعرين ، ولكن هذه الموازنة لاتعطينا حكما حاسما على شاعرية أيهما ، لأنه كثيراً مايأتى أحد الشاعرين بمعان فى موضوع القصيدة لايأتى بها الآخر ، ومع ذلك فأنا أعرض هاتين القطعتين ، اللتين اخترتهما من شعر الشاعرين لتقاربهما فى الخيال ، ووحدتهما فى الموضوع ، فوق وحدتهما فى الوزن . قال ابن الرومى من قصيدة فى وصف مجلس الراح :

شمس من الحسن فى معصفرة ضاهت بلون لها معصفرها
فى وجنات تحمر من خجل كأن ورد الربيع حمرها
يسعى إليها بكأسه رشأ أنشه الله وذكرها
فى كفه كالشهاب لاح على ظلماء ليل دجت فنورها
إن برزت للهواء غبرها أو قرعت بالمزاج كدرها

ويقول ابن المعتز فى مجلس الراح أيضاً من قصيدة :

ومجلس جل أن نشبهه جن به مزهر ومزمار
وزانه من بنى العباد رشا بالجيد والمقتلتين سحار

قد ركبت كفه مشعشعة إبريقها فى الكأس هدار
يلمع فيها من كل ناحية كوكب نوره إليك نظار
فظلت فى يوم لذة عجب وافى به للسعود مقدار
وقابل الشمس فيه بدر دجى يأخذ من نورها ويمتار

١ — فى هاتين القطعتين وصف للساقى والراح ، وفى قطعة ابن الرومى زيادة وصف القينة التى تغنى فى مجلس الراح .

٢ — وصف ابن الرومى الساقى بالأنوثة ، ووصفه ابن المعتز بالسحر .

٣ — شبه ابن الرومى نور الراح فى الكأس ، بالشهاب فى ظلام الليل ، أما ابن المعتز فقد شبه الكأس بالبدر ، والراح بالشمس . وجعل الكأس يأخذ من نورها ويمتار .

٤ — وصف ابن الرومى الراح بأنها أصفى من الماء وألطف من الهواء ، ووصفها ابن المعتز بكوكب نور متوقد .

٥ — ألفاظ ابن المعتز موسيقية . وأعذب من ألفاظ ابن الرومى .

٦ — وابن الرومى فى جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات ولكن ابن المعتز يقف عند حدود التصوير ، لا يتعمد لمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض ، بل يزجيها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج .

٧ — وابن الرومى يفوته أحيانا ماهو أبلغ فى الوصف . وأروع فى أداء الغرض . من حيث لا يفوت ذلك ابن المعتز . كما رأينا فى وصف ابن الرومى للساقى بالأنوثة ، ووصف ابن المعتز له بالسحر .

وابن المعتز يتفوق على ابن الرومى تفوقا ظاهرا حين يصف مظاهر الترف والملوكية فى حياته . . ويروى أن لائما لام ابن الرومى ، وقال له : لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال : ألا تنشدنى شيئا من قوله ، الذى استعجزتنى عن مثله ؟ فأنشده قوله فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال زدنى ، فأنشـــده قوله فى الآذريون (وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة) :

كأن آذريونها والشمس فيها كالية
مـــداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح : واغوثاه لايكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته ، لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف ، أين يقع قولى من الناس ، هل لأحـــد قط مثل قولى فى قوس الغمام :

يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى فى صانع الرقاق :

ما أنس لاأنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
مابين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقـــدار ما تنداح دائرة فى لجة المـاء يلقى فيه بالحجر

وقولى فى قالى الزلابية :

رأيته سحرا يقلى زلابية فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجيناً من أنامله فيستحيل شبابيكا من الذهب

نقد لشعر ابن المعتز :

أولا : يأخذ بعض الكتاب على ابن المعتز أنه لا يزيد فى صوره الفنية على أن يعطيك نسخة لما يرسم لك ، دون أن يعبر فى تصويره عن خلجات نفسه ومشاعره ، فهو حين يشبه الهلال « بزورق من فضة أثقلته حمولة من

عنبر ، لا يزيد على أن يعطيك نسخة من صورة الهلال ، لا علاقة بينها وبين إحساسه ومع ذلك فلم يحسن فى نقل نسخة تامة الشبه بالهلال ، ويكفى أن تتصور الهلال فى خيالك ثم تتصور بجانبه زورق ابن المعتز ، لتدرك الفارق الكبير ، وتعلم مقدار ما شوه ابن المعتز من منظر الهلال الجميل . وكذلك تصويره للهلال بمنجل الفضة الذى يحصد من زهر الدجى نرجسا ، ففضلا عن أنه لا تشابه بين الهلال والمنجل إلا فى الشكل الخارجى ولا صلة بينهما فى الطبيعة إلا صلة النظرة البصرية . فضلا عن ذلك راح ابن المعتز يصنع المنجل من الفضة ، ثم يجعله يحصد النرجس ، وليكن لهذا النرجس زهر ، وليكن هذا الزهر نابتا فى الدجى ، وليس وراء ذلك كله شىء من العاطفة والإحساس أو إدراك شىء من خفايا الجمال ، وأسرار العاطفة .

وهذا نقد لا يقوم على أساس ، ويتلخص فيما يلى :

١ — أن البيتين السابقين لا يصوران الهلال تمام التصوير .

٢ — أن التشبيه عند ابن المعتز فن خالص ولكن لا حياة فيه .

٣ — أنه فى تشبيهه بعيد الفكرة ، بعيد عن الوضوح .

١ — وردنا على الأول هو أن ادعاء عدم تصوير البيتين للهلال تصويرا تاما سفسطة . ويناقض الناقد نفسه فيه ، ولما شبه هوجو الشاعر الفرنسى الهلال بمنجل من ذهب راع أعلام الأدب الفرنسى ، فكيف يراعون لو كانوا يعلمون بما أتى به ابن المعتز .

٢ — وردنا على الثانى هو أن فن ابن المعتز فى التشبيه لا يخلو كله من التعبير عن عواطفه وشعوره ، وما خلا من ذلك فإنما كان الشاعر فيه يساير الفن الخالص ، لئلا تبعد الصور التى يرسمها عن حقائقها المرسومة ، وأى ضير على الفنان فى ذلك ، وهل اتفق النقاد بعد على أن الفن تصوير ، وعاطفة تلون هذا التصوير بلونها الخاص ؟ اللهم لا ، على أن الفن وحده

مهما سار فى طريقه بعيدا عن العاطفة ، فهو وحـــده مظهر يستثير العاطفة والوجدان .

٣ — وردى على الثالث هو أن نظرية الوضوح والخفاء فى الأدب ، لا تزال محل بحث النقاد للآن ، ولم يتفق عليها بعد اثنان ، فالجاحظ حين كان ينادى بالوضوح والإفهام ، وبأن البليغ من الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك ، إنما كان يدعو إلى أن يجتهد المتكلم فى تهذيب اللفظ وترتيبه ، وصيانته من كل ما أخل بالدلالة ، وعاق دون الابانة ، ولم ير أن خير الكلام العامى المرذول . والقاضى الجرجانى لم يحاسب المتنبى فى وساطته على عمقه فى التفكير والتصوير ، لأن ذلك سمة عامة فى شعر المحدثين ، وعبد القاهر فى أسراره يقسم الغموض إلى ما سببه التعقيد فى الأداء فيرده ، وإلى ما سببه الدقة فى المعنى فيشيد به ، ويرى أن المعانى الشريفة لابد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال إلى سابق ، ورأى بعض الباحثين من المحدثين : أن الغموض فى فن المتنبى هو سر عبقريته الشاعرة ، التى ارتفعت به إلى مقام الخالدين من الشعراء .

ثانيا : ومن ردىء الشعر قول ابن المعتز :

أرى ليلا من الشعر على شمس من الناس

فالجمع بين الليل والناس ردىء ، وقد وقع هنا باردا ، كما يقول أبو هلال (١) :

ثالثا : ويأخذ بعض النقاد على ابن المعتز قوله فى وصف كتاب قد شكلت حروفه :

بشكل يرفع الإشكال عنه كأن سطوره أغصان شوك

---

(١) ٢٤٩ الصناعتين .

لأنه مدح الكتاب بجعل سطوره شوكا ، وإن كان لاحظ الشبه التام فى صورته ، لكنه بالذم اشبه (١) .

ويمكن أن يقال إن ابن المعتز إنما لاحظ الشكل فى الشبه دون ماسواه .

نماذج لشعر ابن المعتز

١ — من شعره فى الغزل :

قف خليلى نسأل لشرة (٢) دارا ... أو محلا منها خلاء قفارا
أليستنى سقما أقام وسارت ... واستجابت قلبى إليها فطارا
لى حبيب مكذب بالأمانى ... جعل الدهر موعدا وانتظارا
أيها الركب بلغوها سلامى ... وانقوا أخذ طرفها السحارا

٢ — وله فى وصف الخمر .

يامن يفندنى فى اللهو والطرب ... دع ماتراه وخذ رأيى فحسبك بى
أفى المدامة تلحانى وتعذلنى ... لقد جذبت جموحا غير منجذب
وقد يباكرنى الساقى فأشربها ... راحا تريح من الأحزان والكرب
مازال يقبض روح الدين مبزله (٣) ... حتى تغلغل سلك الدر فى الثقب
وأمطر الكأس ماء من أبارقه ... وأنبت الدر فى أرض من الذهب
وسبح القوم لما أن رأوا عجبا ... نورا من الماء فى نار من العنب
لم يبق فيها البلا شيئا سوى شبح ... يقيمه الظن بين الصدق والكذب

٣ — وقال فى الفخر :

أيها السائلى عن الحسب الأط ... يب ، ما فوقه لخلق مزيد

---

(١) ٢٥٢ طراز المجالس

(٢) اسم محبوبة كان يتغزل بهـــا الشاعر ، ويتلاعب باسمها كثيرا فينطق به : شر ، وشريرة

(٣) المبزل المثقب الذى يثقب به ختم الدن ، والمصفاة أيضا

نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القربى فماذا تريد ؟
ولنا ما أضاء صبح عليه وأتته رايات ليل سود
وملكنا رق الإمامة ميرا ثا ، فمن ذا عنا بفخر يحيد ؟

٤ — وله كذلك فى الفخر والشكوى :

خليلى إن الدهر ماتريانه نصبرا، وإلا أى شىء سوى الصبر؟
سألتكما بالله ما تعلمانى ولا تكتما شيئا فعندكما خبرى
أأرفع نيران القرى لعفاتها
وأضرب يوم الروع فى ثغرة النحر ؟
وأسال نيلا لايجاد بمثله فيفتحه بشرى ويختمه عذرى ؟
ويارب يوم لايزول ظلامه مددت إلى المظلوم فيه يد النصر
فسبحان ربى مالقومى أرى لهم كوامن اضغان عقاربها تسرى
إذا ما اجتمعنا فى الندى تضاءلوا
كما خفيت مرضى الكواكب فى الفجر
بنو العم لا بل هم بنو الغم والأذى
وأعوان دهرى إن تظلمت من دهرى

النثر الفنى فى العصر العباسى الأول

نهض النثر الفنى فى هـذا العصر نهضة لم يبلغها قبل ذلك فى عصر من العصور ، فقد رقت الأساليب ، وعذبت الألفاظ ، وعمقت المعانى ، وسمت الأخيلة ، وتعددت الأغراض ، واتسقت الأفكار . وذلك كله بما تهيأ للعباسيين من حضارة ومدنية وتعدد فى صور الحياة ، ومظاهر العيش ، وبما توفر لهم من ألوان الثقافات وأنواع المعارف [١] الأجنبية .

وقد كان ابن المقفع من أشهر الكتاب الذين وضعوا أصول النثر الأدبى الفنى فى الأدب العربى ، وقد أسهم مع عبد الحميد الكاتب فى دعم كيان هذا النثر ، وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الأموية ، وشهد ابن المقفع جانبا من أول عصر الدولة العباسية ، وخلفته طائفة من الكتاب تأثروا به تأثرا واضحا بعيد المدى فى تطور النثر الأدبى والكتابة الفنية ، ومنهم : يعقوب ابن داود وزير المهدى ، وأبو الربيع محمد بن الليث الذى كتب للمهدى والهادى والرشيد ، والقاسم بن صبيح ، وسهل بن هرون [٢] ، ويحيى بن برمك ، ثم ابناه: جعفر بن يحيى (١٤٢ — ١٨٧ هـ) وأخوه الفضل ، والحسن ابن سهل [٣] ، وأخوه الفضل [٤] ، وأحمد بن يوسف [٥] ٢١٢ م هـ ، وعمرو

---

(١) راجع بلاغة بنى العباس فى البيان والتبيين للجاحظ (٣ : ٢٦٦ - ٣٨٧ ط الخانجى) .

(٢) راجع : ٥٥ : ١ البيان ، ٢٨٢ : ٢ زهر ، ٢٦٠ : ٣ زهر الآداب أيضاً.

(٣) يشيد به الجاحظ (٨٤ : ١ البيان) ، وله كلمة يعرف بها أنواع الآداب ١٩٥ : ١ زهر .

(٤) تبناه يحيى البرمكى وضمه إلى المأمون (٧٤ المكافأة) وأشاد الحصرى ببلاغته (١٦ — ١٩ : ٢ زهر) .

(٥) له ترجمة فى الأوراق قسم أخبار الشعراء (٢٠٦ — ٢٣٦) وكان عالى =

ابن مسعدة ٢١٧ هـ ، والعتابى م ٢٢٠ هـ (١) ، ومحمد بن يزداد وزير المأمون (٢) .

وفى القرن الثالث الهجرى بلغ النثر الفنى منزلة سامقة ، وامتاز بسهولة العبارة وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب، كما امتاز بجودة المعانى واختراعها ودقة الأخيلة وابتداعها ، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه بل الاحتفال بها والطعن فيما سواها مما شكا منه النقاد (٣) ، ومال الكتاب إلى الإطناب حتى قال ابن قتيبة : « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان « أما بعد فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى الخ » لم يعمل هذا الكلام فى أنفسهم عمله فى نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبتدىء ويحذر وينذر » (٤) . والإطناب مذهب فارسى حتى فى الأساطير وكتابة التاريخ ، يقول ابن الأثير : « والعجم يفضلون العرب فى الإطالة فإن شاعرهم يذكر كتابا من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص

= الطبقة فى البلاغة ولم يكن فى زمانه أكتب منه ، وله شعر جيد (١٤٨ ج ٢ زهر) ، وكان ممن نبلوا بالكتابة (١١ ج ٣ العقد) ، وهو أول من افتتح المكاتبة فى التهانى بالنيروز والمهرجان (٩٥ ج ١ ديوان المعانى) .

(١) راجع ١٧٥ فهرست ابن النديم ، ٣٥٢ معجم الشعراء .

(٢) راجع ٤٢٤ معجم الشعراء .

(٣) ص ٢ أدب الكاتب لابن قتيبة بهامش المثل السائر ، ٤٢ و ٤٣ رسائل الجاحظ حيث يقول الجاحظ : والناشىء من الكتاب إذا وطىء مقعد الرياسة يكون أول بدوه الطعن على القرآن فى تأليفه وألا يرتضى من الكتب إلا المنطق الخ ، ومثل ذلك يقول ابن قتيبة ، وهذا ينفى رأى ابن الأثير من أن الكتاب والشعراء لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢٠ المثل السائر) .

(٤) راجع مقدمة أدب الكاتب

وأحوال كما فعل الفردوسى فى نظم الشاهنامة وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها (١) ، ولم يخل الكتاب فى أوائل العصر العباسى الثانى بالبديع ، والتأنق الكثير فى الأسلوب ، ويعيب البديع الجاحظ بأن «كلامه بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الاستعارات ليس له لفظة مصنوعة الخ» (٢) ، كما عابه الباقلانى بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه (٣) .

وكان حامل لواء الطريقة الجديدة إمام البيان الجاحظ ، واقتدى به كتاب عصره ، كالصولى وابن الزيات والحسن وسليمان ابنى وهب وسعيد ابن حميد وأحمد بن إسرائيل والحسن بن مخلد وابن المدبر وسواهم من الكتاب الذين نشأوا فى هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهند وظهر أثر ذلك فى تفكيرهم وإنتاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الألوان .

وقد تأثر بأسلوب الجاحظ الأدباء الذين آلت إليهم الزعامة الأدبية بعده ، كابن المدبر والحسن بن وهب وابن المعتز الخليفة العباسى الشاعر الأديب المشهور . وآخر من تأثر بالجاحظ هو التوحيدى (المتوفى عام ٤٠٠ هـ : ١٠٠٩ م) ، وقد ذاع فى النثر فى هذا العهد ألوان كثيرة : كأدب التهكم والسخرية ، والرسائل الإخوانية ، والرسالة الأدبية ، والتوقيع ،

---

(١) ٤ ج ٢ المثل السائر ، وقد وجدت رسائل مطولة وكثيرة فى هذا العصر كرسالة الخميس (١٠٧ - ١١١ ج ١٢ - ابن طيفور مخطوط) .

(٢) ٨٢ مقامات البديع - المقامة الجاحظية ، ٢٠٩ ج ٢ زهر .

(٣) راجع ١٩٤ إعجاز القرآن .

والمقامة ، والأدب الوصفى ، وأدب الطبيعة ، وأدب القصة ، وسوى ذلك من فنون النثر الأدبى فى هذا العصر الزاهر المتعدد الثقافات .

وقد ألفت فى هـذا العصر كتب أدبيـة جامعة : كالبيان والتبيين ، والحيوان للجـاحظ ، وأدب الـكاتب ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والـكامل للمبرد . وكذلك وضعت أصول النقد والموازنة والبيان على أيدى الجاحظ وابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وسواهم . . ولا عجب إذا قلنا إن النثر الأدبى قد بلغ غاية نهضته وعنفوان قوته فى هذا العصر الحافل .

ولسوف سنتحدث بالتفصيل عن كل لون من ألوان النثر فى هذا العصر ، مبينين العوامل التى أثرت فيه ، والظواهر التى جدت عليه .

(١) الخطابة فى العصر العباسى الأول

صور من الخطابة :

١ — خطب أبو العباس بالشام بعد مقتل مروان بن محمد فقال :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ، نكص بكم يأهل الشام آل حرب وآل مروان ، يتسكعون بكم فى الظلم ، ويتهورون بكم فى مداحض الزلق ، يطأون به حرم الله وحرم رسوله . ماذا يقول زعماؤكم غداً ؟ يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » : إذاً يقول الله عز وجل : « لكل ضعف ولكن لاتعلمون » .

أما أمير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة ، واغتفر لكم الزلة ، وبسط لكم الإقالة ، وعاد بفضله على نقصكم ، وبحلمه على جهلكم . فليفرخ روعكم(١) ولتطمئن بكم داركم ، ولتعظكم مصارع أولئكم ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

٢ — وخطب سليمان بن على عم أبى العباس ، فقال :

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين » ، قضاء مبرم ، وقول فصل ، وماهو بالهزل . الحمد لله الذى صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعداً للقوم الظالمين ، الذين اتخذوا الكعبة غرضاً (٢) ، والفىء إرثاً ، والدين هزواً ، وجعلوا القرآن

---

(١) يقال أفرخ روعه : أى خلا قلبه من الهم وعلى هذا يكون معنى أفرخ خلا ، ومعنى الروع القلب ، أما قولهم : أفزخ روعه بفتح الراء فالروع هنا الخوف .

(٢) إشارة الى ما نال الكعبة من بنى أمية من هدم وتدمير فى فتنة الزبير .

عضين[1]، ولقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكأين ترى من بئر معطلة وقصر مشيد[2] ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ، أمهلوا والله حتى نبذوا الكتاب ، واضطهدوا العترة ، ونبذوا السنة ، واعتدوا واستكبروا ، وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً » .

٣ — وخطب أبو جعفر المنصور بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني فقال :

« أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة : فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثار يده ، وفلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، وأبداه الله لإمامه بإعزاز دينه ، وإعلاء حقه .

إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه عليكم ، إنه من نازعنا عروة هذا القميص ، أجززناه بخيبة هذا الغمد ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكس بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم نمنعنا رعاية الحق له ، من إقامة الحق عليه » .

٤ — ومن خطبة للمنصور :

يا عباد الله لا تظالموا ، فإنها مظلمة يوم القيامة ، والله لولا يد خاطئة ،

---

(١) العضة : الفرقة ، وجمعها عضون ، والعضة « بالهاء » الكذب وجمعه عضون أيضا . فمعنى جعلوا للقرآن عضين ، جعلوه أجزاء ، فقال بعضهم إنه شعر ، وقال آخرون هو سحر ، وقال غيرهم كهانة . وقيل جعلوه كذبا .

(٢) المشيد : المطلى بالشيد وهو الجص ، والمشيد « كمكرم » المطول

وظلم ظالم ، لمشيت بين أظهركم فى أسواقكم ، ولو علمت مكان من هو أحق بهذا الأمر منى لأتيته حتى أدفعه إليه (١) .

٥ — ومن خطبة للسفاح فى الكوفة حين بويع بالخلافة :

يا أهل الكوفة ، أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا(٢) .

٦ — خطبة للمأمون :

خطب المأمون وقد سلم الناس عليه بالخلافة حين بلغه بخراسان قتل أخيه ، إذ أقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال :

أيها الناس إنى جعلت لله نفسى ، إن استرعانى أموركم أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دما عمدا إلا بحله حدوده ، وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثا ولا نحلة (٣) تحرم على ، ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضاى ، إلا ما كان فى الله وله ، جعلت كله لله عهدا مؤكدا ، وميثاقا مشددا .

إنى أفى رغبة فى زيادته إياى فى نعمتى ، ورهبة من مسألته إياى عن حقه وخلقه ، فإن غيرت أو بدلت كنت للغير(٤) مستأهلا ، وللنكال(٥) ،

---

(١) ٣ : ٢٣ جمهرة خطب العرب

(٢) ٢ : ٢١٣ شرح ابن أبى الحديد

(٣) نحله أعطاه والاسم النحلة

(٤) الغير : الأحداث

(٥) النكال : العقاب

معرضا وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه فى المعونة على طاعته ، وأن يحول بينى و بين معصيته[١] .

وهذه الخطبة فى مناسبة معروفة وموقف رهيب ، إذ خطب بها المأمون الناس لما بلغه قتل أخيه الخليفة ، وقد أقبل الناس عليه يبايعونه بالخلافة ، وفيها يعلن المأمون سياسته نحو رعيته ، وهى أنه سوف يلتزم ماألزمه الله به فى معاملة الشعب ، ويعلن احترامه للدماء والأموال ، وأنه لن يحكم بهواه فى رضا ولاغضب ، وأنه يلزم نفسه العمل بما ألزمه به الله عز وجل ، ويفى بعهده مع الله رغبة فى زيادة نعمته ، ودفعا لحسابه ومسألته . . ويؤكد المأمون العهد وأنه لن يغير أو يبدل شيئا منه وإلا كان للخطوب وللعقاب مستحقا ، ثم يتعوذ بسخط الله ويرغب إليه فى المعونة على طاعته ، وأن يباعد بينه و بين معصيته . . وأسلوب الرسالة فيه إيجاز شديد ، وتشتمل على حكم عالية ، مع البلاغة النادرة والروعة الفائقة ، مما يدل على علو منزلة المأمون فى البلاغة ، وثبات قدمه فى الفصاحة .

٥ — خطبة داود بن على على منبر الكوفة :

كان داود بن على بن عبد الله بن عباس خطيب بنى العباس وأحد مؤسسى دولتهم ، نشأ هو وإخوته - وكانوا اثنين وعشرين رجلا - فى قرية الحميمة من أعمال عمان[٢] ، وكان الوليد بن عبد الملك أجلى على بن عبد الله بن عباس وأهل بيته إليها غضباً عليه ؛ وخوفا من وثوبه إلى الملك والخلافة .

وأخذ هو وإخوته علمهم وأدبهم عن أبيهم على حبر قريش وابن حبرها

---

(١) ١١٩ و ١٢٠ الجزء الثالث من جمهرة خطب العرب لأحمد صفوت ط ١٩٣٣

(٢) بلدة على خط سكة الحديد الحجازية وهى الآن مقر إمارة شرقى الأردن

وبليغها ووارث علم أبيه عبد الله بن عباس وعابد أهل زمانه ، كما أخذوا الفصاحة من البدو النازلين فيهم من قبائل لخم وجذام وتنوخ وغسان وقيس فانطبعت فيهم صفات البدو من الشجاعة والبصر بالقتال وإباء الضيم والاستقلال وفصاحة اللسان والبطش وحب الانتقام ، وجانبتهم صفات الحضر من الانغماس فى الترف والملذات والعكوف على الملاهى .

وكان داود أحد النابغين من إخوته فى هذه الصفات ويزيد عليهم أنه كان بليغهم ولسانهم وأخطبهم فى وقته . وعاجلته منيته قبل أن يستطير سلطانه فى الدولة . ولاه أبو العباس — عقب بيعته بالكوفة — ولاية الكوفة وسوادها ، ثم ولاه إمارة الحاج فى هذه السنة ، وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة ، فقتل من ظفر بهم من بنى أمية فى مكة والمدينة فى هذا العام ١٣٢ هـ — وهو أول موسم ملكه بنو العباس ، وخطبهم الخطبة الآتية بعد ، ثم ذهب عقب الموسم إلى المدينة ، فتوفى بها بعد شهرين من قدومه إليها فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ .

ولداود خطبة بليغة خطبها يوم بيعة أبى العباس السفاح على منبر الكوفة ، وهى . « الحمد لله ، شكراً شكراً إنا والله ماخرجنا لنحفر فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصراً ، أظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، أن أرخى له من خطامه حتى عثر فى فضل زمامه ؟ فالآن (١) حيث أخذ القوس باريها وعادت القوس إلى النزعة (٢) ، ورجع الملك فى نصابه فى أهل بيت النبوة والرحمة ، (والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن فى فرشنا) ، أمن الأسود والأحمر ، لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكم ذمة العباس ، لاورب هذه البنية — وأومأ بيده إلى الكعبة — لانهيج منكم أحداً » .

---

(١) ظرف لأمن الأسود .

(٢) جمع نازع وهو الرامى يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم .

وهذه الخطبة الموجزة البليغة الرائعة تتضمن كل ما يمكن أن يقوله خطيب فى هذا المقام ، وكل ما كان يجب أن يقوله هذا الثائر العظيم فى هذه المناسبة .

وقد اشتملت على حمد الله وشكره على هذا النصر العظيم ، وعلى نفى أن يكون العباسيون قد قاموا بثورتهم لغرض شخصى ، من حب السيطرة أو حب الدنيا ؛ وعلى بيان مثالب الأمويين ومساوئهم فى الحكم . كما تضمنت التصريح بعودة الخلافة إلى أهلها وأصحابها من آل النبى الذين خرجوا لينتصروا للشعب الإسلامى الثائر ؛ ثم أمن داود بن على الناس ، اللهم إلا الأمويين خصوم العباسيين والمطاردين منهم بعد أن دالت الدولة لهم ، وأخذوا منهم مقاليد الخلافة ، وزعامة الإسلام .

وأسلوب الخطبة يمتاز بالجزالة والقوة والبلاغة، وبالإيجاز ، مع مافيها أحيانا من سجع مطبوع . ولا شك أن هذه الخطبة تمثل الملكات العربية السليمة فى هذا العصر .

٦ — ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ابنه فقال:

« أى بنى ، إنى مؤد حق الله فى تأديبك ، فأد إلى حق الله فى الاستماع منى ، أى بنى . كف الأذى ، وارفض البذا (١) واستغن عن الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك إلى الكلام ، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب . واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشاً ، لأنه يرديك بمشورته ، واعلم يابنى أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائماً ، ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك ، فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لاترديك ، وأن نتيجته لاتجنى عليك » .

---

(١) البذاء : السفه والاخاش فى المنطق .

٧ — وخطب المأمون خطبة الجمعة فكان مما قال :

« أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده والتنجز لوعده، والخوف لوعيده . فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه. فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا ، فقد جد بكم (١) ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وكونوا كقوم صيح فيهم فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستدلوا . فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً ، ولم يتركم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة ، وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة »

٨ — وخطب عبد الله بن طاهر بن الحسين الناس وقد تهيأ لقتال الخوارج فقال : « إنكم فئة الله ، المجاهدون عن حقه ، الذابون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ، والداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين . فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين أشروا وتمردوا ، وشقوا العصا (٢) ، وفارقوا الجماعة، ومرقوا من الدين ، وسعوا في الأرض فساداً ،

---

(١) الجد في الأمر : الاجتهاد وضد الهزل ، وقولهم « أجدك لا تفعل » بكسر الجيم استحلاف بالحقيقة ، وبالفتح استحلاف بالبخت ، وإذا قيل « وجدك لا تفعل » فتح لا غير .

(٢) أصل العصا الاجتماع والائتلاف وشقوا العصا أي شقوا الاجتماع والائتلاف وفرقوا الجماعة ، وأصل ذلك أن الحاديين يكونان في رفقة فاذا فرقهما الطريق شقت العصا التي معهما فأخذ هذا نصفها وهذا نصفها ويضرب لكل فرقة .

فإنه يقول تبارك وتعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

فليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجأون ، وعدتكم التى بها تستظهرون ، فإنه الوزر المنيع الذى دلكم الله عليه ، والجنة الحصينة ، التى أمركم الله بلباسها، غضوا أبصاركم ، واخفتوا أصواتكم فى مصافكم ، وامضوا قدما على بصائركم فارغين إلى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله ، فإنه يقول : « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » أيدكم الله بعز الصبر ، وولىكم بالحياطة والنصر » .

٩ — حوار بين المأمون وإبراهيم بن المهدى :

لما ظفر المأمون بعمه ابراهيم بن المهدى [1] أمر بإدخاله عليه ، فجىء به يحجل فى قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له المأمون : لاسلم الله عليك ولاحفظك ولا رعاك ولا كلأك يا إبراهيم ، فقال له إبراهيم على رسلك يا أمير المؤمنين ، ولى الثأر محكم فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن مد له الاغترار فى الأمل هجمت به الأناة على التلف ، وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ، فإن تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ، ثم أنشأ يقول :

ذنبى إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعالى من الكرام فكنه

---

(١) لما عقد المأمون ولاية العهد لعلى الرضا العلوى أنكر العباسيون عليه ذلك وخلعوه من الخلافة وبايعوا بها عمه ابراهيم بن المهدى فأسرع إليه المأمون فهرب وتوارى ولكن المأمون ظفر به .

فأطرق المأمون مليا ثم رفع رأسه فقال : إنى شاورت أبا إسحق والعباس فى قتلك فأشارا على به ، قال : فما قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت لهما : بدأنا له بإحسان ونحن نستأمره فيه ، فإن غير فالله يغير ما به ، فقال : أما أن يكونا قد نصحاك فى عظم قدر الملك وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا ، ولكن أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله . ثم استعبر باكيا ، فقال له المأمون : ما يبكيك ، قال : جذلا ، إذ كان ذنبى إلى من هذه صفته فى الإنعام ، ثم قال يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرمى يبلغ سفك دمى فحلم أمير المؤمنين وتفضله يبلغانى عفوه ، ولى بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب ، وحرمة الأب بعد الأب ، قال المأمون : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وعفو الله بينهما وهو أكبر ما يحاول ، يا إبراهيم لقد حببت إلى العفو حتى خفت ألا أوجر عليه ، أما لو علم الناس مالنا فى العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات ، لا تثريب عليك يغفر الله لك ، ولو لم يكن فى حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك لبلغك ما أملت حسن توصلك ، ولطيف تنصلك ، ثم أمر برد ماله وضياعه .

١٠ — دخل معن بن زائدة الشيبانى على المنصور وقد أسن فقارب فى خطوه فقال له المنصور : لقد كبرت سنك يا معن . قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لجلد . قال على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإن فيك لبقية ، قال هى لك يا أمير المؤمنين ، قال فأى الدولتين أحب إليك ؟ هذه أم دولة بنى أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلى .

١١ — ومن أقوال الوعاظ ما روى أن ابن السماك دخل على الرشيد ، فقال له الرشيد : عظنى . قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك غدا واقف بين يدى الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنة أو نار ، فبكى الرشيد حتى اخضلت لحيته ، فأقبل الفضل بن الربيع

على ابن السماك فقال: سبحان الله ! وهل يتخالج أحد شك فى أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ، فأقبل ابن السماك على الرشيد ، وقال : إن هذا ليس والله معك ولا عندك فى ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى الرشيد حتى أشفق عليه الحاضرون .

تطور الخطابة فى هذا العصر

أسباب رقيها :

كان قيام خلافة بنى العباس انقلابا خطيراً هز المشاعر ، وأثار الخواطر وأهاج النفوس ، وقلب الأوضاع ، ودفع إلى كثرة الجدل والمناظرة ، واستدعى تأليف الجماعات ، وقيام الكثير من الدعوات ، وحض الناس على التشيع لبنى هاشم ، وإعلان السخط والإنكار على بنى أمية ، وسياستهم الجائرة ، وما اقترفوه من سيئات ، وارتكبوه من منكرات .

ولاشك أن حدثا جليلا مثل هذا الحدث ، لابد أن يستعان فيه بالخطابة على جذب القلوب ، وكسب الأنصار ، وتحميس المتشيعين ، وتأجيج نار البغض على الدولة الغابرة ، ودفع الجنود بالبلاغة الباهرة إلى خوض المعارك القاهرة الظافرة .

وكان من شأن بنى العباس أن يقيموا الدعاة ، ويبثوا الخطباء فى كل مكان يعلنون بالحجة الساطعة حقهم فى خلافة المسلمين ، وإمامة الناس بعد سيد المرسلين

كما كان من شأنهم أن يعنوا عنـــاية بالغة بالمواسم الدينية ، والأعياد الإسلامية فهم يخرجون فى مواكب رائعة وجموع حاشدة ، ويسيرون بين الصفوف المرصوصة ، حتى يصلوا إلى المسجد ، ثم يدخلون فى خشوع ووقار

وأبهة وجلال ، وعظمة وبهاء ، ويؤمون الناس ويخطبونهم ، ويلقون عليهم بليغ العظات ، ورائع الآيات ، حرصا منهم على الظهور بمظهر الإمامة الدينية ، والزعامة الروحية ، وإعزاز الدين ، والغيرة على الإسلام ، لأن هذا المظهر هو الذى تأسس به ملكهم وقامت عليه دولتهم .

لذلك كان للخطابة فى عهد نفوذ الخلفاء العباسيين مكانة مرموقة ، ومنزلة كريمة ، وشأن عظيم .

وزاد من نهضتها ورقيها فى مطالع هذا العصر ما كان عليه مؤسسو الدولة من أصالة الطبع ، وسلامة الملكة وفصاحة الألسنة ، لأن خطر العى واللكنة والضعف لم يكن قد ظهر بعد فى مظهره الشديد .

وقد آزر الملكات ما كانوا يأخذون به أنفسهم ، من تعليم الناشئين الخطابة وفنون القول ، يروى (١) أن بشر بن المعتمر مر بإبراهيم بن جبلة ابن مخرمة الخطيب ، وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر : « اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا . ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسبا ، وأحسن فى الأسماع ، وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع ؛ وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك . ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما

---

(١) ١٢٦ : ١ البيان والتبيين للجاحظ ـ الطبعة الثانية ـ نشر التجارية .

عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهـــارهما وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما .. الخ .

وكان كذلك كثير من الخطباء والبلغاء يعيشون فى البادية ، حيث الفصاحة واللسن والبيان وقوة الحجة وشدة العارضة ، وقد كثر وفودهم على الخلفاء للاستمناح والشكوى والاستعطاف وغير ذلك .

فلا عجب إذن أن تنهض الخطابة وتزدهر ، ويعلو شأنها ، وترتفع منزلتها ، ويكثر الخطباء المفوهون .

ولقد كان الرشيد أول من جعل الخطيب يخطب بكلام محفوظ ، فقد استدعى الأصمعى لتأديب ولده ، وقال له : أريد أن يصلى بالناس فى يوم جمعة ، فاختر له خطبة ، وحفظه إياه ، فحفظه عشرا ، فخرج وصلى بالناس ، فأعجب به الرشيد (١) .

ثم وكل الخلفاء والأمراء والولاة الخطابة فى الناس ، إلى خطباء مختارين ، وعهدوا بذلك إليهم ، ماعدا المهتدى بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ)، فقد كان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ، فيخطب الناس ، ويؤمهم(٢) ؛ وفى عام ٢٧٩ هـ صلى المعتضد بالناس صلاة الأضحى ، ولم يسمع منه خطبة (٣) ، وأصبح الخليفة لا يخطب إلا فى الأعياد (٤) ؛ ولمـــا عزم المطيع لله

---

(١) ٢٠ و ٢١ : ٢ الفرج بعد الشدة .

(٢) ٨ : ٢ المسعودى .

(٣) ٩٧ : ٢ تاريخ أبى المحاسن .

(٤) كان الخلفاء الفاطميون يخطبون فى كل جمعة من مسطور يحضر إلى الخليفة من ديوان الإنشاء (٢٧٧ و ٢٨١ : ٢ الخطط للمقريزى) ، وكان الحاكم يخطب فى جامع عمرو جمعة وفى جامع ابن طولون جمعة وفى الأزهر جمعة ويستريح جمعة ، فلما بنى الجامع الحاكمى انتقلت الخطبة إليه (١٣٨ : ١ حسن المحاضرة) .

(٢٣٤ - ٣٦٢ هـ) على الصلاة بالناس فى عيد الفطر لم يعرف مايقوله إذا انتهى فى الخطبة إلى الدعاء لنفسه ، فأرسل فى ليلة العيد إلى أحد العلماء بذلك ، فاختار له دعاء (١) ، وخطب الطائع بعده فى عيد الأضحى (٣٦٣ هـ) خطبة قصيرة (٢) . وفى البصرة كان الخطيب يخطب كل صباح (٣) .

وفى آخر العصر العباسى الأول ضعفت الخطابة بزوال أسبابها ، وأعجمية رجال الدولة ، ولأن الدولة قد توطدت دعائمها ، وحكمت بالاستبداد ، وبطلت الخطابة فى الجيوش ، وضعفت الملكات ، كذلك صار فى الكتابة وقد تنوعت أساليبها وأغراضها غنى عن الخطابة ، فضعف شأنها ، ولم يبق لها إلا مظهرها الدينى ، حيث كان الخلفاء يخرجون للصلوات الجامعة ، ويخطبون الناس ، وآخر خليفة خطب على المنبر هو الراضى (٣١٢ — ٣٢٩ هـ) (٤) .

أنواع الخطابة :

والخطابة فى هذا العصر تتنوع إلى خطابة سياسية ، وخطابة اجتماعية ، وخطابة دينية ، وخطابة أدبية .

ومن السياسية خطب زعماء البيت العباسى ، ومن الخطب الاجتماعية ما كان يلقى فى مختلف المناسبات القومية والاجتماعية ، ومن الخطابة الدينية خطب الوعظ والقصص وخلافهما . ومن الخطابة الأدبية الخطابة فى مختلف المقامات الأدبية التى كانت تحدث فى هذا العصر ، والتى أدت إلى نشأة فن المقامات .

---

(١) ٣٤٩ : ٢ معجم الأدبا. لياقوت .
(٢) ١٠٦ ب المنتظم - مخطوط .
(٣) ١٠٣ : ٢ الحضارة الإسلامية ترجمة أبو ريدة .
(٤) راجع ٢١٢ الأدب العربى للزيات ، ٥٤ ومابعدها الأدب العباسى لمحمود مصطفى ، ١٠٤ ومابعدها العصر العباسى للسباعى بيومى .

دواعيها وموضوعاتها :

وقد تعددت دواعى الخطابة فى عصر نفوذ الخلفاء وتنوعت مظاهرها ، وكثرت ألوانها .

١ — فقد كانت الحاجة ماسة إليها فى تثبيت الملك ، ودعم الدولة ، وتوطيد أركان الخلافة ، وإقناع الناس بأحقية بنى العباس لها ، أو فى مجادلة الخصوم ، وتهديد المعارضين ، والتشنيع على بنى أمية ، بما قارفوا من أخطاء ، واجترحوا من مساوىء ، وفى إثارة النفوس ، وكسب القلوب ، وتحميس الجنود ، والتبشير بفتح ، والتهنئة بنصر ونحو ذلك .

٢ — كما اتخذوها أداة للوعظ ، وتذكير الناس بالآخرة ، وتحذيرهم من غرور الدنيا ومتاعها ، وذلك فى المحافل العامة ، والمواسم الجامعة ، والأعياد الدينية . وجعلها القصاص فى قصصهم وسيلة إلى إثارة المشاعر وإمتاع النفوس بذكر سير الأولين وتاريخ الماضين ومن أشهر القصاص موسى ابن سيار الإسوارى ، وأبو على الإسوارى ، وكان يقص فى فنون كثيرة ويستشهد بالقرآن الكريم فى قصصه ، وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتج به ، ثم قص بعده أبو العباس الضرير ولم يدرك فى القصاص مثله ، وصالح المرى ، وكان صحيح الكلام ، رقيق المجلس ، وقال فيه سفيان بن حبيب حين رأى بيانا لم يحتسبه ومذهبا لم يكن يدانيه . « هذا ليس قاصا ، هذا نذير » .

٣ — كما كانت لسان الوفود الذين يفدون على دار الخلافة ، تأييداً لسياسة ، أو إظهاراً لمحبة ، أو طلبا لحاجة أو شكاية من مظلمة .

٤ — ومما يقرب من الخطابة فى روعة أسلوبها ، وشدة تأثيرها ، وسمو بيانها ، الحوار الذى كان يدور بين البلغاء والفصحاء ، من خاصة القوم ، ورجال الدولة . . . وقد مرت ألوان من هذا الحوار .

خصائصها :

امتازت الخطابة فى هذا العصر بجمال أسلوبها ، وفخامة ألفاظها ، وبعدها عن الحوشية والغرابة ، وعن الابتذال والإسفاف .

كما تمتاز بقوة تأثيرها ، وروعة تصويرها ، لاصطباغها بصبغة الدين وتأثرها بأسلوب القرآن الكريم واعتمادها على الكثير من آياته والاقتباس من عظاته والاستشهاد بكلام الرسول . ويكثر فيها أسلوب الحجاج ، ومعانى الوعد والوعيد والتسفيه والتهديد ، والامتنان بالنعمة ، والشكر على كريم الهمة ، وجليل المودة .

على أن الحضارة التى غرقوا فيها قد أكسبتها غزارة فى المعانى ووفرة فى المادة ورقة فى الأساليب ، ودماثة فى الألفاظ ، مما ضاعف تأثيرها وزاد فى بهائها ورونقها .

أشهر الخطباء :

وقد نبغ فى هذا العصر أعلام من الخطباء المصاقع وفحول من البلغاء المقاول ، ممن نشأوا نشأة عربية قوية ، وورثوا ملكات البلاغة والخطابة من أصولهم العربية ، أو اكتسبوها بالتأدب والتعلم والدرس والحفظ .

وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع ، والشأو البعيد ، من أمثال بنى العباس وبنى هاشم ، وبنى عبدالمطلب ، وعظماء القواد من العرب ، ونابغى الناشئين من الفرس ، والأدباء من أهل الرواية للشعر والأخبار والقصص والأسمار واللغة والأدب والنقد .. ومن ولاة الدولة وخصومها ، من خوارج وعلويين وشعوبيين .

وكان الخلفاء يخطبون الناس ويؤمونهم فى الصلاة ، واستمر ذلك بعد

هذا العصر إلى الراضى المتوفى عام ٣٢٩ هـ ، والذى كان آخر خليفة عباسى خطب على المنبر . ويصف البحترى فى رائية بليغة له خروج المتوكل لصلاة عيد الفطر وإمامته للناس ، وخطبته فيهم ، فيقول فيما يقول :

أيدت من فصل الخطاب بحكمة تنبى عن الحق المنير وتخبر
ووقفت فى بُرد النبى مذكراً بالله تنذر تارة وتبشر

ومن خطباء هذا العصر من الخلفاء : السفاح والمنصور والمهـــدى والرشيد والأمين والمأمون ،

ومن الأمراء : داود بن على المتوفى عام ١٣٣ هـ ، وأخواه عبد الله وصالح وأبناؤه عبد الملك وإسماعيل وعبد الله ، ومنهم : سليمان بن على ، وابنه جعفر وبنوه : سليمان وداود وأيوب .. ممن يصفهم الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » فيقول : « وجماعة من ولد العباس فى عصر واحد لم يكن لهم نظراء فى أصالة الرأى ، وفى الكمال والجلالة ، وفى العلم بقريش والدولة ، وبرجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد ، والنفوس الشريفة ، والأقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الأخبار ، وكانوا يجلون عن هذه الأسماء ، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك »(١).

ويقول الجاحظ فى داود بن على : « كان أنطق الناس ، وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول ، ويقال إنه لم يتقدم فى تحبير خطبة قط ، وله كلام كثير معروف محفوظ » (٢) .

ومن خطباء العلويين الهاشميين : جعفر الصادق ، وعبد الله بن الحسن وأبناؤه : محمد وإبراهيم وموسى .

ومن خطباء بنى طالب : عبد الله بن معاوية .

---

(١) البيان والتبيين الأول ص ٢٦٥
(٢) ٢٦٣ : ١ البيان والتبيين .

ومن الوزراء : الفضل بن سهل وأخوه الحسن ذو الرياستين وزير المأمون وصهره ، وجعفر البرمكى .

ومن الخطباء : سهل بن هارون خازن بيت الحكمة للمأمون(١)، وطاهر ابن الحسين ، وعبد الله بن طاهر ـ ومنهم : العتابى الذى يقول فيه الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ، ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتابى » ومنهم : خالد بن صفوان، وشبيب بن شيبة المتوفى عام ١٧٠ هـ الذى يقول فيه الراجز :

إذا غدت سعد على شبيبها على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس إلى مغيبها عجبت من كثرتها وطيبها

وغيرهم من فحول الخطابة والبلاغة ، وأئمة البيان والفصاحة .

وقد ظهرت فى العصر العباسى الأول طبقة من القصاصين الذين كانوا يعتمدون على الخطابة فى قصصهم ، وقد ذكر الجاحظ فى البيان والتبيين أسماء طائفة كبيرة منهم ؛ كما ظهرت طبقات كثيرة من الوعاظ فى هذا العصر ، ومن بينهم : أبو زكريا الرازى (٢٥٨ هـ)(٢) ، وعلى(٣) بن محمد المصرى (المتوفى ٢٢٨ هـ)(٤) .

وكان كثير من الصوفية من الخطباء البارعين ، والبلغاء المفلقين . .

---

(١) كلام الجاحظ عليه فى البيان والتبيين ٥٩ : ١ .
(٢) زبدة الفكر ١٩ ب ـ مخطوط . (٣) ٨١ ا المنتظم ـ مخطوط .
(٤) ظهر فى العصر العباسى الثانى من الوعاظ : ميمونة البغدادية ٣٦٣ هـ (٩٣ تاريخ أبى المحاسن) ، وأبو الحسين بن سمعون ٣٠٠ - ٣٨٧ هـ (٣١٩ : ٢ معجم الأدباء لياقوت) ثم محمد الشيرازى ٤٣٩ هـ (١ : ١١١ تاريخ بغداد)، ومن الخطباء ظهر فى العصر الثانى : ابن نباته (المتوفى عام ٣٧٤ هـ : ٩٨٤ م) ، وعبد الواحد بن عبد الكريم (٤٩٤ هـ) بنيسابور (٢٨٤ : ٣ طبقات الشافعية للسبكى) .

(٢) الكتابة فى هذا العصر

صور للكتابة فى هذا العصر :

١ — كتب عبد الله بن المقفع فى وصف أحد إخوانه .

« إنى مخبرك عن صاحب لى كان أعظم الناس فى عينى ، وكان رأس ماعظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه ، كان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يتشهى مالا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان فرجه ، فلا يدعو إليه ريبة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يأشر عند نعمة . ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى فيما علم ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة . فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة ، وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بذ القائلين ، وكان يرى ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل فى دعوة ولا يشارك فى مراء . ولا يدلى بحجة حتى يرى قاضيا فهماً ، وشهوداً عدولا ، وكان لا يلوم أحداً على ماقد يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعه إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحبا إلا من يرجو عنده النصيحة ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشكى ولا يتشهى . وكان لا ينقم على الولى ، ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها — ولن تطيق — ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

٢ — وكتب يحيى بن خالد البرمكى وهو فى الحبس(١) إلى هرون الرشيد :

---

(١) كان البرامكة قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها . وغلبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى ملكه ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها =

لأمير المؤمنين ، وخليفة المهديين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رب العالمين من عبد أسلمته(١) ذنوبه ، وأوبقته(٢) عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدثان ، فحل فى الضيق بعد السعة ، وعالج البؤس بعد الدعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد الهجود . ساعته شهر ، وليلته دهر ، فقد عاين الموت ، وشارف الفوت ، جزعاً لموجدتك يا أمير المؤمنين ، وأسفاً على مافات من قربك ، لا على شىء من المواهب ، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك ، وكانا فى يدى عارية والعارية مردودة .

أما ماأصبت به من ولدى فبذنبه ، ولا أخشى عليك الخطأ فى أمره ، ولا أن تكون تجاوزت به فوق حده .

فتذكر ياأمير المؤمنين كبر سنى ، وضعف قوتى ، وارحم شيبتى ، وهب لى رضاك ، بالعفو عن ذنب إن كان ، فمن مثلى الزلل ومن مثلك الإقالة ، وإنما أعتذر إليك بإقرار مايجب به الإقرار حتى ترضى عنى ، فاذا رضيت رجوت إن شاء الله أن يتبين لك من أمرى وبراءة ساحتى مالا يتعاظمك بعده ذنب أن تغفره ، مد الله لى فى عمرك وجعل يومى قبل يومك .

فلم يكن له جواب من الرشيد .

٣ — ومن رسالة لسهل بن هارون وجه بها إلى محمد بن سماعة القاضى :

= وصورتها ، فعزم على نكبتهم . حتى انتهز فرصة رجوعه معهم من الحج سنة ١٨٧ هـ فقتل جعفر بن يحيى ليلا فى طريقه . وقبض على سائر البرامكة وسجنهم .

(١) أسلمته : خذلته ، فأسقطته من علياء مرتبته . أو أسلمته إلى السجن والعذاب .

(٢) أوبقته : أهلكته .

إنى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذى عفة ونزاهة طعمة ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، ليس بظنين فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ فيه ، له سن مع أدب ، ولسان تقعده الرزانة ويسكته الحلم ، تكفيه اللحظة وترشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها ، وقام فى أمورهم فحمد فيها ، له أناة الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه . وقد آثرتك بطلبه ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتيك (١) .

وهذه الرسالة تشبه رسالة ابن المقفع السابقة فى وصف أحد إخوانه .

٤ — رسالة لعمرو بن مسعدة :

كتب إلى المأمون وقد تأخرت أرزاق الجند :

كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت لذلك أحوالهم (٢) .

وكان عمرو بن مسعدة من بلغاء الكتاب فى العصر العباسى الأول ، وكان كاتب التوقيعات بين يدى جعفر البرمكى وزير الرشيد ، وتوفى عام ٢١٧ هـ ، وكان كاتبا بليغا جزل العبارة وجيزها (٣) .

---

(١) ١ : ٢٤٩ الأمالى .

(٢) ٢٣٤ أدب الكتاب للصولى .

(٣) ٦ : ٨٨ معجم الأدباء ، ١ : ٥٥٥ ابن خلكان ، ٥ : ٥٠٢ الوافى بالوفيات ـ قسم ثالث مخطوط بدار الكتب المصرية ، ومجلة المجمع العلمى =

وكانت بلاغة عمرو بن مسعدة مضرب الأمثال ، ولما وقف أحمد بن يوسف على هذه الرسالة الموجزة البليغة الرائعة أعجب ببلاغتها ، وقال : لله در عمرو ما أبلغه ، ألا ترى إلى إدماجه المسألة فى الإخبار ، وإعفائه سلطانه من الإكثار .

ومضمون الرسالة شكوى وطلب إلى الخليفة المأمون بإرسال مرتبات الجند المتأخرة ، ولحواها إخبار بحالتهم مع طى الطلب والشكوى . . وهذا من غير شك مما جعل لها أهمية فى نظر بلغاء العصر العباسى ، ويضم إلى ذلك إيجازها الشديد البليغ الذى جعله أحمد بن يوسف من أسباب بلاغة الرسالة .

وفى رأيى أن هذه الرسالة لاتستحق هذا الاهتمام وذلك التقدير ، لأنها لاتثير فينا إحساسا . ولاتجعل الذوق يلتفت إليها . وليس فيها فى رأى قارئها الخاصى ، بله العادى ، جديد ، وجملة « اختلت أحوالهم » أشبه بالذم منه بالمدح ، ولو قال بعد المقدمة : « على أحسن ماتكون عليه جند يذبون عن الخلافة ، ويتعرضون فوق ذلك لآلام الجوع والنصب ، ويقاسون الحرمان من تأخر وصول أرزاقهم ، واختلال أحوالهم من أجل ذلك » لكان أروع وأبلغ من كلام ابن مسعدة السقيم ، مع اتحاد المضمونين ، وتوافق الأسلوبين فى أغلب التراكيب .

= العربى بدمشق من بحث الأستاذ محمد كرد على ، ٣ : ٥٩ عصر المأمون ، والحياة الأدبية فى العصر العباسى .

فصل للجاحظ فى الحسد (١)

الحسد ـ أبقاك الله ـ داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود . علاجه عسر ، وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، وماظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداويه فى عناء ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء » . وقال بعض الناس لجلسائه : « أى الناس أقل غفلة » فقال بعضهم : « صاحب ليل ، إنما همه أن يصبح » . فقال : « إنه لكذا ، وليس كذاك » فقالوا له : « فاخبرنا بأقل الناس غفلة » فقال : « الحاسد ، إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التى أعطاكها ، فلا يغفل أبداً » . ويروى عن الحسن أنه قال : « الحسد أسرع فى الدين من النار فى الحطب اليابس . وما أتى المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمته عليه » . قال عز وجل : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » .

والحسد عقيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق ، وحرب البيان ، فقد ذم الله أهل الكتاب به فقال : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم » .

فمنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم من الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشر بين الحلفاء ، يكمن فى الصدر كمون النار فى الحجر .

ولو لم يدخل على الحاسد ـ بعد تراكم الغموم على قلبه ، واستكان الحزن فى جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنغص عمره ، وكدر نفسه ، ونكد عيشه — إلا استصغاره نعمة الله عنده ، وسخطه على سيده

---

(١) من رسالة الجاحظ فى الحاسد والمحسود .

بما أفاد غيره ، وتمنيه عليه أن يرجع فى هبته إياه ، وألا يرزق أحداً سواه — لكان عند ذوى العقول مرحوما ، وكان لديهم فى القياس مظلوما . وقد قال بعض الأعراب : « ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد : نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم . والحاسد مخذول وموزور ، والمحسود محبوب ومقصور . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور .

والحسد — رحمك الله — أول خطيئة ظهرت فى السموات وأول معصية حدثت فى الأرض . خص به أفضل الملائكة فعصى ربه ، وقايسه فى خلقه ، واستكبر عليه فقال : « خلقتنى من نار وخلقته من طين » . فلعنه وجعله إبليساً ، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيساً ، وشوه خلقه تشويها ، وموه على قلبه تمويهاً ، نسى به عزم ربه فواقع الخطيئة ، فارتدع المحسود فتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد فى حسده فشقى وغوى . وأما فى الأرض فابنا آدم حسد أحدهما أخاه فعصى ربه وأثكل أباه . وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فقد حمله الحسد إلى غاية القسوة ، وبلغ به أقصى حدود العقوق ، إذا ألقى الحجر عليه شادخا فأصبح عليه نادما صارخا .

ومن شأن الحاسد — إذا كان المحسود غنيا — أن يوبخه على المال ، فيقول : « جمعه حراما ، ومنعه أيتاما ، وألب عليه محاويج أقاربه . فتركهم له خصماء ، وأعانهم فى الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر ، فقال : « لقد كفروا معروفك ، وأظهروا فى الناس ذمك . ليس أمثالهم يوصلون ، فإنهم لا يشكرون ، وإن وجد له خصما أعانه عليه ظلماً . وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشه : أو تفضل عليه بمعروف كفره ، أودعاه إلى نصره خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، وإن سئل عنه همزه ، وإن كان عنده شهادة كتمها ، وإن كانت منه إليه زلة عظمها ، وقال إنه يجب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه القعود .

وإن كان المحسود عالماً قال: « مبتدع لرأيه لامتبع ، حاطب ليل ، ومبتغى نيل ، لايدرى ماحمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل . وإن كان المحسود ذا دين قال : متصنع يغزو ليوصى إليه ، ويحج ليثنى عليه ، ويصوم لتقبل شهادته ، ويظهر النسك ليودع المال بيته ، ويقرأ فى المسجد ليزوجه جاره ابنته ، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته . وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخويص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإقبال على غـــيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك .

وكان عبد الله بن أبى قبل نفاقه نسج وحده ، لجودة رأيه ، وبعد همته ونبل شيمته ، وانقياد العشـــيرة له بالسيادة ، وإذعانهم له بالرياسة ، وما استوجب ذلك إلا بعد ما استجمع له لبه ، وتبين لهم عقله ، وفقد بينهم جهله ، ورأوه لذلك أهلا لما أطاق له حملا .

فلما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقدم المدينة ، ورأى « عبد الله » عز رسول الله ، شمخ بأنفه ، فهدم إسلامه لحسده ، وأظهر نفاقه . وماصار منافقا حتى صار حسوداً ، ولا صار حسوداً حتى صار حقوداً ، فحمق بعد اللب ، وجهل بعد العقل ، وتبوأ النار بعد الجنة . ولقد خطب النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه إلى الأنصار ، فقالوا : « يارسول الله لاتلمه ، فإنا كنا قد عقدنا له الخرز قبل قدومك لنتوجه .

ولو سلم المخذول قلبه من الحسد لكان من الإسلام بمكان ، ومن السؤدد فى ارتفاع ، فوضعه الله لحسده ، وأظهر نفاقه . ولذلك قال القائل :

طال على الحاسد أحزانه ... فاصفر من كثرة أحزانه
دعه فقد أشعل فى جوفه ... ماهاج فيه حر نيرانه
العيب أشهى عنده لذة ... من لذة المـــال لخزانه
فارم على غاربه حبله ... تسلم من كثرة بهتانه

ورسالة الجاحظ « الحاسد والمحسود » التى ينصح فيها القارىء باتخاذ الحيطة والتوقى من سهام الحسد والحاسدين ، من أهم رسائله ، وأبلغ ما كتب من نثر فنى .

وأسلوبه هنا هو أسلوب الجاحظ الذى تظهر فيه شخصيته ظهورا تاما ، حتى لترى فيه رقة الألفاظ وسجاحة العبارة وجمال الأسلوب والزهد فى الصور البيانية ، وهو يتردد بين السجع والازدواج مع ميل إلى الإطناب والترادف ، وتعاور العبارات على الفكرة الواحدة .

والرسالة تمثل النثر الفنى فى عصر الجاحظ ، أصدق تمثيل ، فى بلاغته وجماله وتمشيه مع الحضارة العقلية والفكرية والأدبية التى سادت الأدب والثقافة آنذاك .

وفى هذا الفصل من رسالة « الحاسد والمحسود » يبين ضرر الحسد ، وينفر منه ، ويظهر خفاياه ، ويكشف نفسية صاحبه كشفا ، ويبدو من أسلوب الجاحظ هنا أنه أشبه بالعالم النفسى الذى يفصح عن طوايا النفوس ومشاعرها وأحاسيسها إفصاحا شديدا .

ولا شك أن الجاحظ قد سبق بهذا التحليل النفسى فى أسلوبه الكتاب والبلغاء والأدباء ، وأثرى بذلك الأدب ولغة العرب إثراء شديدا .

وقد ولد الجاحظ بالبصرة ١٦٠ هـ وكانت فى عنفوان الثورة العلمية والأدبية ، فأخذ عن علمائها ، وأدبائها ، كالأصمعى والأخفش والنظام المعتزلى الذى تخرج عليه فيما بعد ، وكانت له مدرسة وتلاميذ صارت لهم وله من الشهرة وذيوع الصيت ما كاد ينسى الناس النظام على قوة جدله ، وشدة عارضته ، وخلابة منطقه وسحر بيانه ، وكثرة جمعه للمسائل ، وإحاطته بالعلوم ، وليس يشك أحد أن الجاحظ كان نادرة من نوادر التاريخ ، وثروة ضخمة فى اللغة والأدب ، ولأسلوبه فى الكتابة مميزات جعلته صاحب طريقة عرف بها ، ونسبت إليه ، منها :

أولا : الإطناب الذى لا تحس فيه مللا ، ولا تشعر منه بسأم ، ولا تود معه أن ينقطع بك حبل الحديث ، لأنه يمزح جده بهزله ، ويستطرد إلى الملح والنوادر والطرف ، استجلابا للنشاط ، وإيقاظا للتفكير ، مستعينا بالترادف ، والاستقصاء للمعانى ، والإيفاء للموضوع .

ثانيا : الاهتمام باختيار الألفـــاظ ، وتنسيق الجمل ، وترابط الأسلوب : واعتماده على المنطق القوى ، والفكر السليم .

ثالثا : تقطيع الجمل إلى فقرات ، والتزام السجع حين يريد اقتياد العواطف وامتلاك زمام الوجدان .

وقد ظهرت هذه الخصائص والميزات فى أسلوبه فى هذا الفصل ظهورا واضحا ليس فيه خفاء .

والجاحظ صاحب باع طويل فى صناعة الكلام وأسلوب الكتابة ، كاد ينفذ به إلى القلوب ، ويخترق الأفئدة ، ويناجى العواطف ويمتلك المشاعر ، ويصل بقلمه المصقول ، وبيانه القوى ، إلى خلجات النفوس ، وخفايا الضمائر ، وله من ذهنه المتوقد ، وعقله الكبير ، ما جعل لمنطقه من التأثير ، وما لحجته من الرهبة ، ماساعده على الوصول إلى هدفه حين يرمى ، ولغايته حين يقصد ، لايستعصى عليه شامس ، ولا يتأبى عليه صعب .

٦ ــ وكتب أحمد بن يوسف يهنىء بمولود :

« أما بعد . فليس من أمر يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنت به بهجاً ، أعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب على من حقك ، وعرفنى من جميل رأيك . فزادك الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاماً سرياً ، أجمل صورته ، وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشتد سرورى بذلك ، وأكثرت حمد الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله باراً تقياً ، يشد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك » .

وكتب فى الذم :

« أما بعد ، فلا أعلم للمعروف طريقاً أحزن ، ولا أوعر ، من طريقه إليك . ولا مستودعا أقل زكاء ولا أبعد ثمرة خير ، من مكانه عندك ، لأنه يحصل منك فى حسب دنى : ولسان بذى ، ونسب قصى ، وجهل قد ملك طباعك ، فالمعروف لديك ضائع ، والشكر عندك مهجور ، وإنما غايتك فى المعروف أن تحرزه ، وفى وليه أن تكفر به » .

٧ — وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عن لسان الخليفة إلى أحد العمال:

« أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس فى واحدة منهما عـــذر يوجب حجة ، ولا يزيل لائمة ، إما تقصير فى عملك دعاك للإخلال بالحزم ، والتفريط فى الواجب ، وإما مظاهرة لأهل الفساد ، ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك ، محلة النكر بك ، وموجب العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم فى الإعذار والإنذار . وعلى حسب ما أنلت من عظيم العشرة . يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والإضاعة ، والسلام » .

٨ — وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وقد تنكر له وتلون عليه:

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ؛ وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ؛ ورجح فى قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت — أيدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء : وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وأن امرأ أمسى وأصبح سالما من الناس إلا ماجنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا النـــاس إلى ذمه ذموه بالحق وبالبـــاطل

فإن كنت اجترأت عليك ـ أصلحك الله ـ فلم أجترىء إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكاناة . ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لى منك أرهبنى فاتقانى ، وأعطانى فأغنانى . فإن كنت لاتهب عقابى ـ أيدك الله ـ لخدمة ، فهبه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأنت ماأنت أهله من العفو دون ماأنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصر ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر وذنبه نسيان ، ومن لايعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك ، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم ـ أيدك الله ـ أن شين غضبك على كزين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك .. واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم .. والسلام .

٩ ـ وكتب عبد الله بن المعتز إلى بعض إخوانه يصف سر من رأى ، ويذكر خرابها :

كتبت إليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأقعد جدرانها ، فشاهد اليأس فيها ينطق . وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عمرانها يطوى ، وكأن خرابها ينشر . وقد وكلت إلى الهجر نواحيها ، واستحث باقيها إلى فانيها . وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها محو الأثر ، والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره إرجاف ، وسروره أحلام . ليس له زاد فيرحل ، ولا مرعى فيرتع . فحالها تصف للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض ، وقرار الملك ، تفيض بالجنود اقطارها ، عليهم أردية السيوف ، وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زبد السيول . على خيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمد بالنقع سائرها ، قد نشرت فى وجوهها غررا كأنها

صحائف البرق ، وامسكها تحجيل كاسورة اللجين ، فى جيش يتلقف الأعداء أوائله ، ولم ينهض أواخره ، وقد صب عليه وقار الصبر ، وهبت له روائح النصر ، يصرفه ملك يملأ العين جمالا ، والقلوب جلالا . لاتخلف مخيلته ، ولا تنقض مريرته ، ولا يخطىء بسهم الرأى غرض الصواب ، ولا يقطع بمطايا اللهو سفر الشباب ، قابضاً بيد السياسة على قطار ملك لاينتشر حبله ، ولا يتشظى عصاه ، ولا تطفى جمرته ، فى سن الشباب لم يجن مأثماً ، وشيب ولم يراهق هرماً . قد فرش مهاد عدله ، وخفض جناح رحمته ، راجما بالعواقب الظنون ، ساعياً على الحق يعمل به ، عارفاً بالله يقصد إليه ، مقراً للحلم ويبذله ، قادراً على العقاب ويعدل فيه ، إذ الناس فى دهر غافل ، قد اطمأنت بهم سيرة ليّنة الحواشى ، خشنة المرام ، تطير بها أجنحة السرور ، ويهب فيها نسيم الحبور ، فالأطراف على مسرة ، والنظر إلى مبرة ، قبل أن تخب مطايا الغير ، وتستقر وجوه الحذر . وما زال الدهر مليا بالنوائب ، طارقاً بالعجائب ، يؤمن يومه ، ويغدر غده .

على أنها ـ وإن جفت ـ معشوقة السكنى ، وحبيبة المثوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك أذفر ، ويومها غداة ، وليلها سحر ، وطعامها هنىء ، وشرابها مرىء ، وللبقاع دول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم ، وبعد اللجاجة انتهاء . والهم إلى فرجة ، ولكل سائلة قرار ، وبالله أستعين وهو المحمود على كل حال :

غدت سر من را فى العفاء فيالها ... قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
وأصبح أهلوها شبيهاً بحالها ... لما نسجتها من جنوب وشمأل
إذا ما امرؤ منهم شكا سوء حاله ... يقولون : لاتهلك أسى وتجمل

١٠ ـ ولأحمد بن يوسف إلى المأمون :

داعى ندالك يا أمير المؤمنين ، ومنادى جدواك ، جمعا الوفود ببابك ،

يرجون نائلك المعهود ، فمنهم من يمت بحرمة ، ومنهم من يدلى بخدمة ، وقد أجحف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ، فان رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيبه ، ويحقق حسن ظنهم بطوله ، فعل إن شاء الله تعالى (١) .

١١ — ولابن قتيبة يقدم كتابه (عيون الأخبار) :

وهذه عيون الأخبار ، نظمتها لمغنل التأدب تبصرة ، ولأهل العلم تذكرة ، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدبا ، وللملوك مستراحا من كد الجد والتعب ، وصنفتها أبوابا ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وهى لقاح عقول العلماء ، ونتاج أفكار الحكماء ، وحلية الأدب ، والمتخير من كلام البلغاء ، وفطن الشعراء ، وسير الملوك ، وآثار السلف .

١٢ — ومن رسائل أبى اسحق الصولى على لسان المتوكل لأهل حمص الخارجين عليه ، وهى من الرسائل التى أغنت عن الجيوش :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوم به من أود وعدل به من زيغ ولم به من منتشر ، استعمال ثلاث يقدم بعضهن على بعض: أولاهن مايتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم مايستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التى لايقمع بحسم الداء غيرها :

أناة ، فإن لم تغن عقب بعدها وعيداً ، فإن لم تغن أغنت عزائمه

وكتب إلى ابن الزيات يستعطفه :

« كتبت وقد بلغت المدية المحز ، وعدت الأيام بك على بعد عدوى بك عليها ، وكان أسوأ الظن وأكثر خوفى أن تسكن فى وقت حركتها ، وتكف عند أذاتها . فصرت أضر على منها ، فكف الصديق عن نصرتى خوفاً منك ، وبادر إلى العدو تقرباً إليك » .

---

(١) ١٦٩ : ٥ معجم الأدباء لياقوت ـ طبع القاهرة .

١٣ — وقال أبو يوسف فى كتاب « الخراج » الذى كتبه للرشيد :

وأنا أرى أن تبعث قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته ، يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به فى البلاد ، وكيف جبوا الخراج على ماأمروا به ، وعلى ماوظف على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك عندك وصح . أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجبة والنكال ، حتى لايتعدوا ماأمروا به ، وماعهد إليهم فيه ، فإن كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل على أنه قد أمر به ، وقد أمر بغيره ، وإن أحلت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترءوا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لم يجب عليهم . وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف ، وخيانة لك فى رعيتك ، واحتجان شىء من الفىء ، أو خبث طعمته أوسوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن تقلده شيئاً من أمور رعيتك ، أو تشركه فى شىء من أمرك بل عاقبه على ذلك عقوبة تردع غيره من أن يتعرض لمثل ماتعرض له ، وإياك ودعوة المظلوم فإن دعوته مجابة .

حالة الكتابة فى هذا العصر

يراد بالكتابة هنا هذا الفن البليغ من النثر الذى أداته القلم وعماده التجويد والتهذيب ، واصطناع الصور الأدبية الرائعة التى تحدث فى النفس ارتياحا وإعجابا ، وتبعث فيها نشوة وهزة ، وهو ما نسميه الكتابة الإنشائية أوالفنية أو الأدبية ، التى يتأنق فيها الكتاب ، ويعنى بها الأدباء ، ويدرسها النقاد والعلماء ، ويحفظها ويتأدب بها الشداة فى الأدب ، لأنها مظهر من مظاهر البلاغة والبيان ، وفيها متعة للنفس ، وغذاء للروح .

أنواع الكتابة وموضوعاتها :

وللكتابة الفنية فى هذا العصر ألوان عدة :

١ — فمنها الرسائل الإخوانية التى يكتبها الأصدقاء بعضهم إلى بعض فى تهنئة أو تعزية أو شكر أو شفاعة أوعتاب ، وما إلى ذلك ، وهى أوسع ميداناً وأكثر افتنانا ، وأعذب بيانا ، وأعلى منزلة ، وأسمى قدراً ، وأقرب إلى الإبانة عن فكرة الكاتب وعاطفته ، وأخلاق الناس ومنازعهم .

٢ — ومنها الرسائل الأدبية المطولة التى يكتبها البلغاء ، يسجلون فيها خواطرهم ويدونون آراءهم فيما يعن لهم من شئون الاجتماع أو الفكر أو الأدب ، أو يعملون على تأييد مذهب وتفضيل فريق على فريق ، أو يكتبونها فى الترويح عن النفس أو الفكاهة والسخرية ، ونحو ذلك ؛ مما يتجلى فى السير والأسمار والخرافات والأخبار والقصص ، كرسائل الخميس التى كان يكتبها البلغاء فى هذا العصر ، لتقرأ فى خراسان تأييداً للدعوة والدولة والخلافة ، وكرسائل ابن المقفع ، وكمكتب الجاحظ ورسائله مثل البخلاء والتربيع والتدوير والحاسد والمحسود ومناقب الترك .

فضلا عن اصطناع الكتابة فى فنون أخرى عديدة : كالوصف والمناظرة ونحو ذلك من الموضوعات التى كانت وقفاً على الشعر .

٣ — ومن ألوان هذه الكتابة الرسائل الديوانية أو الرسمية ، التى تصدر من ديوان الرسائل بنوعيه (الخاتم والتوقيع) ، فى شأن من شئون الدولة ؛ وكانت الكتابة فى هذا الديوان بخلافها فى الدواوين الأخرى الكثيرة ، إذ كانت تعتمد على التأنق فى الأسلوب والجمال فى العبارة والبراعة فى إظهار المعنى بصورة واضحة مقبولة

ونحن نعلم أن المدنية ازدهرت فى عصر نفوذ الخلفاء ازدهاراً بالغاً ، وأعمال الدولة اتسعت اتساعا ظاهراً ، بسبب مخالطة الأعاجم للعرب ،

ونفوذ الفرس فى الدولة ، وسعة سلطان الخلافة فى المشرق والمغرب ؛ فأنشأ الخلفاء العباسيون الكثير من الدواوين التى تقوم بانجاز الأعمال المتعددة ، وخصوا كل ديوان منها بعمل من الأعمال ، وأشرف على تنظيم هذه الدواوين الوزراء الفارسيون وأتباعهم ممن نقلوا النظام الكسروى فى الإدارة وطبقوه فى دولة الخلافة . . ومن الدواوين التى كانت موجودة : ديوان الخراج والنفقات ، وديوان المظالم والشرطة ، وديوان الضيـــاع والإقطاعات ، وديوان الخواص وديوان الجيش ، وديوان المعاون ، وديوان المشرق ، وديوان المغرب . وديوان الحسبة ، وديوان القضاء .

وكان الوزير الذى يقلد منصب الوزارة تسند إليه إدارة تلك الدواوين كلها ، ماعدا ديوان الجيش ، فكان يشرف عليه كبار القواد فى جيش الخلافة وقد يتصرف فيه الخليفة بنفسه أو بواسطة حاشيته . فإذا كان الوزير أثيراً لدى الخليفة ، موثوقا به الثقة كلها ، وشهر بحسن التدبير ، وصواب الرأى ، ألقى إليه الخليفة مقاليد جميع الأمور . ووكل إليه إدارة جميع الدواوين ، فيصبح المشرف على جميع أعمال الدولة ، والمتصرف فى شئون الحرب ، كالفضل بن سهل ، الذى وكل إليه المأمون ذلك كله ، ثقة به ، بعد أن انتصر جيش الخلافة بقيادة طاهر بن الحسين على عيسى بن ماهان بتدبير الفضل وحسن سياسته ؛ ولقبه الخليفة « ذا الرياستين » وكان له علم على سنان ذى شعبتين ، وكتب على سيفه من ناحية رياسة التدبير ، ومن الأخرى رياسة الحرب . . ولخطر منصب الوزير وجلاله اشترط فيمن يتقلده أن يكون عالماً أديباً بليغاً أريباً مصيباً داهية محنكا ، قد أدبته التجارب وعلمته الأيام ، يروى أن المأمون كتب فى اختيار وزير : « إنى التمست لأمورى رجلا جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة فى خلائقه ، واستقامة فى طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن أؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها ؛ يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة ، وتغنيه

اللمحة ، له صولة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء وفهم الفقهاء ؛ إن أحسن إليه صبر ، وإن ابتلى بالإساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه (١) .

والذين تسنموا هذا المنصب الخطير (٢) كانوا من صفوة الناس وأعلاهم أدبا وخلقاً وكفاية ودراية وذكاء وفهماً : كأبي سلمة الخلال وزير السفاح ، وأبي أيوب الموريانى وزير المنصور ، ويعقوب بن داود وزير المهدى ، ويحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد ، والفضل بن سهل وزير المأمون وأخيه الحسن بن سهل وأحمد بن يوسف وسواهم ، ممن كانوا درة فى جبين الدهر ، وغرة فى وجه الخلافة ، وشجعوا العلوم والآداب ، وأيدوا حركة الترجمة ورعوها . وكان لكل وزير كاتب أو أكثر . يعينه على أعماله ، ولولاة الأقاليم كذلك كتاب ، فابن المقفع مثلا كان يكتب لوالى كرمان داود ابن عمر بن هبيرة . وكان أكثر هؤلاء الوزراء والكتاب ممن نبتوا من أصول فارسية ، وكان الوزير قلما يختار لمنصبه إلا إذا كان من أفذاذ الكتاب .

---

(١) ٢١ الأحكام السلطانية .

(٢) قال ابن خلكان : اختلف أرباب اللغة فى اشتقاق كلمة الوزارة على قولين : أحدهما : أنها من الوزر وهو الحمل فكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل ، وهذا قول ابن قتيبة ، والثانى أنها من الوزر بفتح الواو والزاى وهو الجبل الذى يعتصم به لينجى به من الهلاك ، وكذلك الوزير معناه الذى يعتمد عليه الخليفة والسلطان ويلتجىء إلى رأيه ، وهو قول أبى إسحاق الزجاج « ٢٢٩ : ١ وفيات الأعيان .

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن الكلمة ليست عربية بل هى مأخوذة من اللغة الفهلوية من كلمة « فيشيرا » ومعناها الأمر أو التقرير .

ولم يكن لقب الوزير موجوداً فى الدولة لمن يتولى مثل هذا المنصب قبل الخلافة العباسية ، وكان يسمى قبل ذلك كاتبا ومشيرا .

وقد ألفت فى أدب الكتاب والوزراء كتب كثيرة ، منها : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وأدب الكتاب للصولى ، وكتاب الكتاب لابن درستويه ، وكتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ، وكتاب الأحكام السلطانية وسواها ، وألف القلقشندى المصرى أخيراً كتابه الضخم « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » . وحول ثقافة الكاتب وشخصيته يقول أبان ابن عبد الحميد اللاحق من قصيدة رفعها إلى الفضل بن يحيى بن خالد مستميحاً عطفه وفضله ، راجياً أن يكون فى حاشيته . وقائماً بخدمته [1] :

أنا من بغية الأمير وكنز ... من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب ... ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الري ... شة إما تكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة واتقاد ... أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعـ ... ـلم بقول منور الإفصاح
وظريف الحديث فى كل فن ... وبصير بنزهات الملاح
أيمن الناس طائراً يوم صيد ... لغدو دعيت أو لرواح
لست بالناسك المشمر ثوبيه ... ولا الماجن الخليع الوقاح

وهكذا اتسعت الدواوين باتساع الأعمال . وتنوعت بتنوع مطالب الدولة ، بيد أن الكتابة - فيما عدا ديوان الرسائل - كانت لا تتجاوز ضبط الجباية وحساب الإيراد والنفقات والمرتبات ومحاسبة الولاة وتصريف الأمور ، مما لا يخرج عن التسجيل فى الدفاتر ، والتعداد والإحصاء ، وليس

---

(١) يروى أن أبانا لما رفع هذه القصيدة إلى الفضل دعاه فلما دخل عليه أتاه بكتاب فرمى به إليه وقال له : أجب عنه ، فأجاب أبان بما فى نفسه وأحسن . فأمر له بألف ألف درهم ، وكان يرى أول داخل عليه وآخر خارج من عنده ، فحسده أبو نواس فهجاه فأقصاه الفضل عنه .

فى ذلك كله مجال لبراعة أو بيان وإفصاح ، ولا يهتم الباحث الأدبى بالحديث عنه ، إلا من حيث الثقافة العامة الواجب الإحاطة بها وفهمها .

فأما الكتابة فى ديوان الرسائل فهى التى تلقى العناية والاهتمام من كل جانب ، لأن رسائل الدولة ذات البال إنما كانت تصدر عن هذا الديوان ، وترد إليه ، ولذلك تولاه فحول البيان ، وأعلام البلاغة ، وحذاق الأدب ، المحيطون بشتى الثقافات ، فكان ما يصدر عن هذا الديوان مثلا أعلى فى الفصاحة والجمال وتمثيل العواطف والمشاعر ، مع عمق الفكرة وجلال التصوير .

وقد كانت طبقات الأدباء فى صدر الدولة العباسية متعددة ، ومن بينها : طبقة الكتاب ، الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا (١) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٢) وحكم مذهبهم فى نقد (٣) البيان ، وكان جلهم من عناصر أجنبية ، من الفرس والروم والسريان والقبط ، من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتها ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى ، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شداة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م سنة ٢٠٥ هـ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها : إن بشرا مر بإبراهيم بن جبلة ابن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا

---

(١) البيان ١ : ١٠٥ (٢) ٣ : ٣٢٥ (٣) ١ : ٢٤٠

واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تعبيره وتنميقه فى أصول البلاغة وعناصر البيان (١) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٢) ؛ وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد ابن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة صعدوا بفنهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب فى الخلافة الإسلامية .

هذه هى الكتابة الفنية التى عرفت فى هذا العصر .

أما الكتابة العلمية ، التى هى كتابة التأليف والتدوين ، والتى تحفل بالاصطلاحات ، ويراعى فيها دقة الفكر ، وترتيب المقدمات لتؤدى إلى النتائج ، وضبط العبارة ، وتحكيم المنطق ، والتى تعتمد أكثر ما تعتمد على الحقائق ، لا على التهويل والانطلاق مع الخيال والانسياق وراء العاطفة .

نقول : أما هذه الكتابة فلم يكن لها كبير خطر فى هذا العصر ، لأن العلوم كانت لا تزال موضوعاتها مختلطة ، وكانت حينذاك فى بداية التدوين . حاشا كتب الأدب التى كتبت بلغة شبيهة بلغة الرسائل الأدبية ، أما الكتب التى ترجمت فى هذا العصر فى مختلف العلوم والثقافات ، فإنها لم تأخذ السمت التأليفى الذى ظهر بوضوح بعد عصر نفوذ الخلفاء .

نهضة الكتابة فى هذا العصر :

بلغت الكتابة الفنية فى هذا العصر من الرقى والسمو مالم تبلغه فى أى عصر من العصور . وذلك لظهور آثار الثقافات الأدبية والفكرية ، ولكثرة محفوظات الأدباء من آداب العرب والآداب المترجمة ، ويروى أن رجلا سأل ابن المقفع : ما الذى مكنك من البلاغة ؟ قال : حفظ كلام الأصلع

---

(١) ١ : ١٠٤ (٢) ١ : ١٥١

يعنى به الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وكان تشجيع الخلفاء والوزراء والرؤساء للأدب وللكتاب باعثاً على النهوض بالكتابة ، داعياً إلى ارتفاع شأنها ، وسمو منزلتها ، ثم كان التنافس القوى بين الأدباء وتسابقهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافزاً على تجويدها والتأنق فى أساليبها .

ولئن كانت الكتابة فى آخر عصر بنى أمية ، قد صارت صناعة عتيدة ، لها أصولها ومناهجها ورسومها وقواعدها ، بما زاد فيها سالم مولى هشام ، وتلميذه عبد الحميد ، من تهذيب وصقل وتجويد وجمال تصوير ، فقد نهضت وازدهرت فى عصر نفوذ الخلفاء ، وصارت صناعة من أشرف الصناعات وأصبحت سلم الوصول إلى المجد ، والصعود إلى رتبة الوزراء وغيرها من أشرف المراتب وأسمى المناصب ، ونبغ فيها فحول لم يجد الدهر بمثلهم فى البلاغة والفصاحة والحذق والبراعة واللطف وشرف الصناعة ، حتى بذوا فحول الشعر فى عظمة الجاه ، وسعة النفوذ والسلطان .

خصائص الكتابة فى هذا العصر :

(ا) تمتاز الكتابة الفنية فى هذا العصر بعدة ميزات ظاهرة فى الأسلوب واللفظ والمعنى والخيال . ومن هذه الميزات :

١ — سعة الخيال وطرافته ، وعمق المعانى ودقتها وتنوعها وجدتها وسعتها ، وظهور آثار الثقافات الأصيلة والمترجمة فيها ، واستخدام العلم والفلسفة والمنطق فى أدلتها والإقناع بها .

٢ — التأنق فى الألفاظ وحسن تخيرها والبعد بها عن الحوشية والغرابة .

٣ — أما أسلوبها فقد امتاز بالتجويد والتهذيب ، واستعمال المحسنات البديعية ، والإكثار من ألوانها ، مع وضوح العبارة ، وحسن الإشارة ، وجودة الوصف ، وجمال السبك ، وقوة الأداء ، والتنوع فى تخير الأساليب ،

فى جزالة حيناً ، وعذوبة حيناً آخر . وقد عمد الكتاب إلى اختراع المقدمات فى أوائل الرسائل المطولة ، وفى بعض المنشورات والعهود ؛ وإلى تنويع عبارات البدء والختام فى الرسائل ؛ وكانوا يبالغون فى الإيجاز حيناً وفى الإطناب حيناً آخر ، وفق ما تقتضيه الأحوال والمقامات ؛ وكان بعض الكتاب يحرص على الإيجاز ويوصى به ، ولكنه لم يكن السائد فى أسلوب كتابة الرسائل فى هذا العهد ، ويروى عن جعفر البرمكى أنه كان يقول لكتابه : « إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا » .

٤ — وقد اقتبس الكتاب من الكتابة الفارسية أورع ما راقهم منها من تهويل فى الخطاب وتعديد الألقاب ، وإفراط فى استعمال طرفى الإيجاز والإطناب، وشدة تلاؤم الخيالات وابتداعها ، وتلاحم المعانى واختراعها ، والمقدمات التى كانوا يفتتحون بها رسائلهم المطولة ، وبعض عهودهم ومنشوراتهم .

(ب) ونلاحظ أن كتاب الرسائل كانوا يكثرون من التهذيب والتنقيح والتجويد ، وتوخى الصحة والسلامة والبلاغة والبراعة ، حذراً من النقد الذى قوى فى هذا العصر . وقد كان الكتاب يفرقون بين أسلوب وأسلوب وعبارة وعبارة ، ويضعون الفروق بين التراكيب والصيغ ، ويطالبون سواهم بها ، ويحرصون هم عليها ، ويعيبون على من خالفها ، يروى أن عاملا للسيدة زبيدة على بعض ضياعها كتب إليها من رسالة : « وأدام كرامتك » ، فلما قرأت الكتاب وقعت على ظهره : « أصلح خطأك وإلا صرفناك عن عملك » ، فأعاد الإمعان فى أسلوبه فلم يهتد لخطئه ، فعرضه على صديق له ، فقال : إنما كرهت قولك فى صدر الرسالة : « وأدام كرامتك » لأن كرامة النساء دفنهن ، فغير ذلك الدعاء وأعاد عليها الكتاب . فوقعت على ظهره : « أحسنت ولا تعد » . ومن دقتهم فى ملاحظة الفروق بين الأساليب أنهم خصوا « أبقاك الله وأمتع

بك » بالابن والخادم المنقطع إلى كاتب الرسالة وأشباههما ، ولقد كتب محمد ابن عبد الملك الزيات إلى عبد الله بن طاهر رسالة ، وردت فيها كلمة « وأمتع بك » ، فكتب إليك عبد الله :

أحدث عما عهدت من أدبك ... أم نلت ملكا فتهت فى كتبك ؟
أم قد ترى أن فى ملاطفة الـ ... إخوان نقصاً عليك فى أدبك ؟
أكان حقاً كتاب ذى مقة ... يكون فى صدره (وأمتع بك) ؟
أتعبت كفيك فى مكاتبتى ... حسبك ماقد لقيت من تعبك

فرد عليه ابن عبد الملك بقوله :

كيف أخون الإخاء يا أملى ... وكل شىء أنال من سببك
أنكرت شيئاً فلست فاعله ... ولن تراه يخـــط فى كتبك
إن يك جهل أتاك من قبلى ... فعد بفضل على من حسبك
فاعف فدتك النفوس عن رجل ... يعيش حتى الممات فى أدبك

وكذلك جعلوا « أطال الله بقاءك » أرجح وزنا من قولهم « أبقاك الله طويلا » ، قال ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد : « من الألفاظ المرغوب عنها ، والصدور المستوحش منها ، فى كتب السادات والملوك ، على اتفاق المعانى ، مثل « أبقاك الله طويلا » ، وإن كنا نعلم أنه لافرق بين قولهم « أطال الله بقاءك » ، وبين قولهم « أبقاك الله طويلا » ، ولكن جعلوا هذا أرجح وزناً وأنبه قدراً فى المخاطبة ، كما أنهم جعلوا « أكرمك الله وأبقاك » أحسن منزلا فى كتب الفضلاء والأدباء من « جعلت فداك » ، على اشتراك معناه ، واحتمال أن يكون فداءه من الخير ، كما يحتمل أن يكون فداءه من الشر . على أن كتاب العسكر قد أولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاولاتهم ، وجعلوها هجيراهم فى مخاطبة الشريف والوضيع » .

ويروى أن الربيع قال : دخلت على الشافعي وهو مريض فقلت له : « قوى الله ضعفك » فقال : لو قوى ضعفي قتلني ، قلت : والله ماأردت إلا الخير ، قال : أعلم أنك لو شتمتني ماأردت إلا الخير ، قل : « قوى الله قوتك وضعف الله ضعفك » .

وهذه الدقة المأثورة عن الشافعي يؤكدها ماروى عنه أنه قال : « أكره أن تقول : « أعظم الله أجرك في المصائب » ، لأن معناه أكثر الله مصائبك ليعظم أجرك » .

طبقات الكتاب :

١ — الكتاب في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين طبقات :

ا — فالطبقة الأولى: هي التي أدركت الدولتين ، وهي طبقة ابن المقفع ، ويحيى بن زياد الحارثي ، وعمارة بن حمزة ، وأبي أيوب الموريانى . ممن كتبوا للمنصور .

ب — والطبقة الثانية : طبقة أبي عبيد الله معاوية ويعقوب بن داود وزيري المهدي ؛ ويحيى بن برمك ويوسف بن القاسم ممن كتبوا للمهدي والهادي والرشيد .

ج — والطبقة الثالثة: طبقة جعفر بن يحيى ، وأخيه الفضل ، وإسماعيل ابن صبيح ؛ والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل، وأحمد بن يوسف، وعمرو ابن مسعدة ، وأحمد بن أبي خالد الأحول — ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون .

د — والطبقة الرابعة : الطبقة التي ربيت في عصر المأمون وجمعت بين الآداب والبلاغة العربية والدخيلة ، وقرأت كتب اليونان والفرس والهند، وإليها انتهت البلاغة ، وفتحت أبواب البديع ؛ وبذ أعلامها فحول الشعر

فى عظمة الجاه والرياسة ، مثل : الجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم ابن العباس الصولى ، وسعيد بن حميد . والحسن بن وهب ، وسليمان بن وهب ، وسواهم ممن كتبوا للخلفاء بعد المأمون .

٢ — ويجعل بعض الكاتبين[١] هذه الطبقات طبقتين ، الأولى : رئيسها ابن المقفع ، وطريقته تنويع العبارة . وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخى السهولة ، والعناية بالمعنى ، والزهد فى السجع ، وقد حد البلاغة فقال : « هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » ، وقال لبعض الكتاب : « إياك وتتبع الوحشى من الكلام طمعا فى نيل البلاغة فإن ذلك هو العى الأكبر ، وقال الآخر : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » .

والثانية : رئيسها الجاحظ ، وطريقته أشبه بالأولى فى سهولة العبارة وجزالتها ، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة ، وزيادة الإطناب فى الألفاظ والجمل والاستطراد ، ومزج الجد بالهزل ، وتحليل المعنى واستقصائه ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجمل الدعائيـــة .

وهؤلاء الكتاب جميعا صفوة من البلغاء والفصحاء وأرباب البيان ، ممن ملكوا أزمة البلاغة ، وبلغوا أعلى منازل الفصاحة والبراعة ، وامتازت كتاباتهم بطول النفس ، وجمال الأداء ، وبراعة الأسلوب ، وشرف المعانى ، وحسن الابتداع فى الأخيلة ، مع الازدواج حينا ، والسجع حينا آخر . . إلى غير ذلك من الخصائص والميزات التى أفضنا فى شرحها .

---

(١) ص ٢١١ تاريخ الأدب العربى للزيات

أشهر الكتاب فى هذا العصر :

ومن أعلام الكتاب فى هـــذا العصر محمد بن عبد الملك الزيات م ٢٢٣ هـ(١) ، وإبراهيم بن العباس الصولى م ٢٤٣ هـ(٢) ، وسعيد بن حميد ٢٦٠ (٣) هـ ، والحسن بن وهب (٤) م ٢٦٥ هـ (٥) ، وسليمان بن وهب م ٢٧٢ هـ (٦) ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة الكاتب م ٢٧٧ هـ (٧) ، والمرثدى وكان يكتب للموفق (٨) ؛ ونطاحة الكاتب أحمد من إسماعيل بن الخصيب الانبارى كاتب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ؟ وكان بينه وبين ابن المعتز مراسلات وجوابات (٩) ، ومحمد بن مكرم الكاتب م بعد ٢٨٢ هـ (١٠) ،

---

(١) راجع : ١٧٧ فهرست ، ٤٢٥ معجم الشعراء ، ٢٧٨ : ٣ وما بعدها عصر المأمون ، ٢٧ : ١١ وما بعدها الطبرى ، ٣٩ : ٤ مسعودى ، ٤٣ الرسالة العذراء.

(٢) راجع : ٥٦ : ٤ مسعودى ، ١٧٦ فهرست ، ٢١ : ٩ الأغانى وما بعدها ، ٢٠٠ : ١ المفصل ، ٢٠٨ الوسيط ، ٤٢ : ٢ ثمرات الأوراق ، ٩٩ خاص الخاص.

(٣) راجع : ١٧٩ فهرست ، وفيات الأعيان ٥٤ - ٥٧ : ٢ طبعة ١٣١٠ ، ١٧٧ : ٤ ، ١٢٢ : ٤ زهر ، ٩١ : ٤ المسعودى ، ٤٢ : ٢ ثمرات الأوراق .

(٤) راجع : ١٧٧ فهرست - ٥٠٦ سمط اللآلى - ٢٤٨ ابن الرومى للعقاد - ٤٤ : ٣ زهر ، ٢٢١ - ٢٢٣ : ٣ معجم الأدباء .

(٥) وفى معجم الأدباء أنه ولد عام ١٨٦ هـ ومات فى آخر خلافة المتوكل .

(٦) راجع : ٢٤٩ ابن الرومى - ١٧٧ فهرست - ١٥٤ - ١٦٠ : ٧ مهذب الأغانى - ٥٠٦ : ١ سمط اللآلى - ٤٨٥ معجم الشعراء ، ٣٨٦ - ٣٨٨ : ١ وفيات الأعيان ، ٤٦ : ٣ زهر .

(٧) ١٨٧ و ١٨٨ فهرست ، ٣٦ - ٥١ : ٢ معجم الأدباء .

(٨) ١٨٧ فهرست ، ١٦ أدب الكتاب للصولى .

(٩) راجع : ١٨٠ فهرست - ٢٧٧ ج ١ معجم الأدباء ، ويرى عنه الصولى كثيراً جداً فى أدب الكتاب ، وله كتاب طبقات الكتاب .

(١٠) راجع ٤٤٤ معجم الشعراء .

وإبراهيم بن المدبر م ٢٧٩ هـ [١] ، وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٢ هـ) ، وعلى ابن الحسن المتوفى بعد ٣١٠ هـ وقد جاوز التسعين [٢] ، وعلى بن العباس النوبختى م ٢٢٧ عن سن عالية [٣] ، وابن المعتز م ٢٩٦ ؛ وأبو بكر محمد بن يحيى الصولى م ٣٣٦ [٤] وهو الذى جمع ديون ابن المعتز [٥] ، وأبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار الكاتب م ٣١٤ هـ [٦] وحميد بن نصر الكاتب م ٣٠٠ هـ [٧] ، وأبو الحسن جعفر بن محمد بن ثوابة الكاتب وكتب للقاسم [٨] ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثوابة الكاتب وكتب للمعتضد [٩] .

واشتهر هذا العصر بأعلام ذائعة فى الأدب العربى والتأليف فيه ، ومنهم :

(ا) الجاحظ م ٢٥٥ هـ وله كثير من المؤلفات الخالدة منها البيان والحيوان .

(ب) أبو سعيد الحسن السكرى النحوى م ٢٧٥ هـ وكان راوية البصريين وجمع أشعار الجاهلية والإسلام .

---

(١) ٤٥٢ معجم الشعراء ، ٣٤٩ الموشح .
(٢) ٢٩٥ معجم الشعراء .
(٣) ٢٩٥ معجم الشعراء ، ١٤٥ ج ٢ زهر .
(٤) ٤٦٥ معجم الشعراء ، ١٧٤ ج ٢ زيدان ، ٣٤٣ - ٣٤٥ نزهة الالبا ومقدمة أدب الكتاب .
(٥) ١٧٥ ج ٢ زيدان .
(٦) ٢٥٢ ج ٤ تاريخ بغداد .
(٧) ٤٦٣ معجم الشعراء .
(٨) ٤١٧ ج ٢ معجم الأدباء ، ١٨٨ فهرست .
(٩) ١٨٨ فهرست .

(حـ) ابن قتيبة م ٢٧٦ هـ (١) ، وله عيون الأخبار وأدب الكاتب والشعر والشعراء وكتاب الشراب .

(د) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد م ٢٨١ هـ وكان مؤدب المكتفى وله كتب كثيرة (٢) .

(هـ) ابن طيفور أحمد بن أبي طاهر تلميذ الجاحظ (٢٠٤-٢٨٠هـ)(٣)، وله سرقات الشعراء وكتاب بغداد والجامع فى الشعراء واختيار المنظوم والمنثور (٤) .

(و) ومنهم أبو العيناء بن القاسم بن خلاد (١٩١ - ٢٨٣ (٥)) .

---

(١) ١١٥ وما بعدها فهرست ، ٤٤٩ - ٤٥٠ : ١ وفيات الأعيان ، ١٧٠ : ٢ وما بعدها زيدان .

(٢) راجع ١٧٢ : ٢ زيدان .

(٣) ٢٠٩ - ٢١٠ فهرست ، ١٩٧ طبقات الشعراء لابن المعتز ، و٢٥١ الموشح ، ٢١ : ٤ تاريخ بغداد ، ١٥٢ : ١ معجم الأدباء ، ٤٨ و٩٣ و ٩٤ : ١ ديوان المعانى .

(٤) أربعة عشر جزءاً يوجد منه بدار الكتب ثلاثة أجزاء فى مجلد مخطوط هى : الحادى عشر فى بلاغات النساء وقد طبع منفرداً فى مصر ، والثانى عشر ويجمع قصائد ورسائل لا يوجد لها مثيل ومنها المعلقات ، والثالث عشر ويجمع فصولا من رسائل مختارة .

(٥) ١٨١ فهرست - ١٧٥ : ٤ مسعودى - ٤٤٨ معجم الشعراء ، ٣٢١ - ٣٢٤ : ٢ وفيات الأعيان ، ٣١٦ و ٣٢٢ - ٣٣٠ و ٣٣٢ : ١ زهر ، ١٧٠ نكت الهميان - ١٧٠ : ٣ تاريخ بغداد - ١٨٠ : ٢ شذرات الذهب ، ٦١ : ٧ معجم الأدباء ، ١٤٥ : ٣ سمط اللآلى ، ٢١٨ - ٢٢١ : ١ أمالى المرتضى ، ١٩٦ طبقات الشعراء لابن المعتز

(٣) فن التوقيعات

التوقيع فن بليغ من فنون النثر ، ولون رائع من ألوان الكتابة ، وهو عبارة موجزة بليغة يكتبها الخليفة أو الأمير أو الوزير فى أسفل الكتب الواردة إليه ، بإبداء الرأى فيما يرفع إليه من شكوى ، أو يقدم له من رجاء ، أو يستشار فيه من أمر .

وللتوقيع فى اللغة معان متعددة: جاء فى اللسان: وقع [١] ظنه على الشىء قدره وتوهمه . والتوقيع الإصابة . وتنظر الأمر ، وتوهم الشىء، ومن معانيه اللغوية التأثير ، يقال : جنب هذه الناقة موقع . أى أن فيه تأثيرا خفيفاً من الحبال التى تشد عليها ، والمناسبة بينه وبين المعنى الاصطلاحى ، أن التوقيع فى أسفل الكتاب تأثير خفيف ، إلى جانب ما كتب فيه من عبارات طويلة .

ووقع القوم : عرسوا ، أى نزلوا آخر الليل ، كما أن التوقيع يكون فى آخر الكتاب المرفوع . ووقعت [٢] الإبل : بركت أو اطمأنت بالأرض بعد الرى ، فكأن الموقع بعد توقيعه قد اطمأن إلى ما أبداه من رأى .

والتوقيع فى الكتاب إلحاق شىء فيه بعد الفراغ منه ، وقيل هو مشتق من الترقيع الذى هو مخالفة الثانى الأول . قال الأزهرى : توقيع الكاتب فى الكتاب المكتوب أن يجمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ، ويحذف الفضول ، وهو مأخوذ من توقيع الدبر [٣] ظهر البعير . فكأن الموقع فى الكتاب يؤثر فى الأمر .

وفن التوقيع موجود من قديم فى الأدب الفارسى ، ووجد فى الأدب

(١ و ٢) بتشديد القاف .

(٣) الدبر بفتح الدال والباء القرحة فى ظهر البعير .

العربي منذ عصر صدر الإسلام ، ويروى أن أول توقيع عرف كان لعمر حين كتب إليه سعد بن أبي وقاص يستأذنه فى بناء فوقع له عمر : « ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر » . وقد رويت توقيعات كثيرة للخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية . . ولكن هذا الفن قد نضج واستحكم وقوى فى عصرنا هذا عصر نفوذ الخلفاء ، ونبغ فيه كثير من أعلام الكتاب وفحول البلغاء ، وروى منه الكثير كذلك لخلفاء بنى العباس ووزراء دولتهم فى هذا العصر .

وكان الكتاب يتنافسون فى إجادته ، ويتبارون فى بلوغ أقصى الغاية فيه حتى غلبت على توقيعاتهم روعة الإيجاز ، وقوة التعبير ، وجمال التصوير ، وشدة التأثير ، ولطف الإشارة ، وكانت توقيعاتهم أحياناً مثلا أو حكمة أو آية من القرآن أو حديثاً مأثوراً عن رسول الله ، أو بيتاً من الشعر .

وكان الأدباء الناشئون يحفظونها ويروونها ويعنون بجمعها ، وقد يبذلون فى التوقيع الواحد من الدراهم إلى عشرين درهما .

نماذج من التوقيعات :

وقع السفاح فى كتاب لأبى جعفر وهو يحارب ابن هبيرة بواسط : إن حلمك أفسد علمك ، وتراخيك أثر فى طاعتك ، فخذ لى منك ، ولك من نفسك .

ووقع المنصور فى كتاب عبد الحميد صاحب خراسان : شكوت فأشكيناك وعتبت فأعتبناك ، ثم خرجت على العامة ، فتأهب لفراق السلامة .

ووقع لوالى مصر حين كتب يذكر نقصان النيل : طهر عسكرك من الفساد يعطيك النيل القياد .

ووقع فى قصة فقير : سل الله من رزقه . . ووقع المهدى فى قصة رجل حبس فى دم : ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب .

ووقع الرشيد إلى صاحب خراسان : داو جرحك لايتسع .

ووقع فى نكبة جعفر البرمكى : أنبتته الطاعة وحصدته المعصية .

ووقع المأمون فى قصة متظلم من أحمد بن هشام : اكفنى هذا الرجل وإلا كفيته أمرك .

وقال عمرو بن مسعدة : كتبت كتابا إلى عامل فأطلته فأخذه المأمون من بين يدى وكتب : قد كثر شاكوك . وقل شاكروك . فإما اعتدلت وإما اعتزلت . . . وينسب هذا التوقيع لجعفر البرمكى أيضاً .

ووقع المأمون فى كتاب لابراهيم بن المهدى : القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله .

ووقع جعفر البرمكى فى قصة محبوس : العدل أوقعه ، والتوبة تطلقه .

ووقع يحيى البرمكى لمظلوم : طب نفسا فكفى بالله للمظلوم ناصراً .

ووقع طاهر بن الحسين فى قصة مستمنح : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .

تراجم بعض الكتاب

ابن المقفع

١ — ظهر ابن المقفع ، وأحدث أثره فى النثر الفنى وفى تطوره ، وكان الكتاب من قبله قد حولوا الكتابة إلى صناعة لها أصولها الفنية ، وكان بعض منهم يعرفون الفارسية أو الرومية أو اليونانية أو السريانية ، ومن بينهم : أبو العلاء سالم كاتب هشام ، وأستاذ عبد الحميد ، وأحد الواضعين لنظام الرسائل وكان يعرف اليونانية ، وجبلة بن سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأحد المترجمين من اللغة الفارسية إلى العربية[١] ، وعبد الحميد الكاتب أحد أعلام النثر الفنى وأئمته ، وكان يعرف الفارسية .

ويقول بعض الباحثين : إنه استخرج أمثلة الكتابة الفنية التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى اللسان العربى[٢] . وإنه أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية[٣] ، ويصفه ابن النديم بأنه سهل سبل البلاغة فى الترسل وعنه أخذ المترسلون[٤] .

ويقول عنه طه حسين : إنه أحد كتاب القرن الثانى الذين فهموا الفصول كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين ، وإنه كان يعرف اللغة اليونانية[٥] ، وهذا مما لا يوافقه عليه باحث ، ويصف ابن عبدربه فى العقد

---

(١) راجع ص ١٧١ الفهرست لابن النديم .

(٢) ٦٩ الصناعتين طبعة صبيح ، ١٩ : ٢ ديوان المعانى ، وهما لأبى هلال العسكرى . (٣) ٥٧ : ١ النثر الفنى لزكى مبارك .

(٤) ١٧٠ الفهرست لابن النديم .

(٥) ١٠ مقدمة نقد النثر لقدامة وهى بقلم طه حسين .

الفريد عبد الحميد الكاتب بأنه أول من فتق أكمام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر (١) .

ولقد تأثر ابن المقفع ببلغاء عصره وفى مقدمتهم عبد الحميد ، وكان أحد المترجمين من الأدب الفارسى والثقافة الفارسية (٢) ، ولاشك أن ابن المقفع كان إمام الكتاب والمنشئين فى عصره ، وقد آخى فى أسلوبه بين التفكير الفارسى والبلاغة العربية ، ويعد من أبلغ البلغاء ؛ ومن أساطين الفصاحة فى الأدب العربى . . ولغته وتركيب جمله أدنى إلى البساطة والوضوح من كتاب عصره ، وأسلوبه أكثر مباشرة واستقامة ، وأقل تلميحا وإشارة .

وبلا ريب أحدث فى الكتابة الفنية كثيراً من الأصول : فى المنهج والأسلوب وطرق الأداء ، وفى نظامها فى البدء والختام . . وفى تكرار التحميد فى فصول الرسائل ، والتردد بين الإيجاز والإطناب ، وفى تضمينها الكثير من المعانى الدقيقة والحكم العويصة ، والأفكار الاجتماعية والسياسية والعقلية التى لم تكن سائدة بين كتاب عصره . وبذلك كان له فضل كبير على النثر الفنى .

ولا شك أن نثر ابن المقفع الأدبى هو مظهر من مظاهر النثر الفنى فى العصر العباسى الأول ، الذى تأثر بالمؤثرات الجديدة ، وبثقافات الأمم القديمة العريقة ، كل التأثر .

٢ — وقد عاش ابن المقفع ستة وثلاثين عاما ، هى كل عمر هذا الفتى

---

(١) ه : ج ٢ العقد الفريد .

(٢) ٧٢ الفهرست لابن النديم .

الشاب ، الذى أودع الفكر العربى أسمى روائعه ، وأثمن كنوزه ، فإذا استثنينا منها ستة عشر عاما هى مرحلة طفولته وصباه ، كانت هذه الحكم الرفيعة ، والآداب الخالدة ، والآثار الباهرة ، نتاج عشرين عاما ، هى كل حياة ابن المقفع الأدبية والفكرية ، وهو نتاج لو نسب لمعمر بلغ المائة أو جاوزها لكان كثيرا عليه ، ولكان دليل عبقرية فذة ، ومواهب فائقة . .

ولقد شهد له معاصروه بشدة الذكاء وحصافة الملكات ، وبسعة الثقافة ، قالوا : « لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ، واجتمع الخليل وابن المقفع ، فمكثا مدة يتجاذبان أطراف الحديث . فلما افترقا سئل الخليل عن صاحبه فقال : « ماشئت من علم إلا أن عليه أكثر من عقله » وسئل ابن المقفع عن صاحبه فقال : ماشئت من علم إلا أن عقله أكثر من أدبه ، وكان مقدما فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السير » .

ويعد ابن المقفع من أفذاذ الأدباء والمفكرين فى تاريخنا العقلى .

فهو من الجانب الأدبى قد وهب اللغة العربية ثروة طائلة فى الأفكار والمعانى والأغراض ، بل وفى الأساليب أيضا ، ومنحها أعظم ما استطاع أديب عربى أن يمنحها إياه ، من ثراء فى الأداء والتعبير ، وغنى فى التخيل والتصوير ، وسعة فى المعانى والتجارب والتفكير .

بل قد كساها حللا رائعة بمؤلفاته وترجماته ، التى حفظت على العربية شبابها ورواءها . ويذهب لفيف النقاد ، من بينهم المستشرق جب ، والمستشرق الفرنسى موسيه ، إلى أن النثر الفنى مدين فى وجوده فى أدبنا العربى لابن المقفع . فهو فى نظرهؤلاء أول ممثل للتطورات النثرية الجديدة ،

وهو أول مؤلف للإنشاء الأدبي في اللغة العربية . ومهما كان في هذا الرأي من مغالاة ، فإن ابن المقفع هو رائد الطبقة الأولى من الكتاب في العصر العباسي . وقد آخى في طريقته بين التفكير الفارسي والبلاغة العربية ، واستخلص من الأدبين الفارسي والعربي اللذين كان يجيدهما طريقة عُرفت به، وأخذت عنه . وتظهر مزيته في ترتيب أفكاره ، وحسن تقسيمها ، وكان ابن المقفع يروض الحكم الصعبة بسلاسة أسلوبه ، وعذوبة ألفاظه ، حتى لتبدو مشرقة الجبين ، ناصعة البيان . . ولم تكن معانيه تستهلك ألفاظه، ولا ألفاظه تستهلك معانيه . كان يقدر اللفظ على المعنى تقديرا واعيا . وأسلوب ابن المقفع في سلاسته وجزالته وجماله وسحره يمثل رأيه في البلاغة التي كان يعرفها بأنها « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » .

وكان يتجنب الغرابة والحوشية ، ويقول : إياك والتتبع لحوشي الكلام طمعا في نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العي الأكبر » . وفي حرصه على الإيجاز مايبرر قوله « الإيجاز هو البلاغة » إن ابن المقفع من الجانب الأدبي يعد أمة وحده في البلاغة ورصانة القول ، وشرف المعاني ، إلى بيان غرض ، وسهولة لفظ ، ورشاقة أسلوب . . وله فضل كبير في تطور فن القصة في الأدب العربي ، ويصفه الوزير جعفر بن يحيى البرمكي هو وطبقته من الكتاب فيقول : « عبد الحميد الكاتب أصل ، وسهل بن هرون فرع، وابن المقفع ثمر ، وأحمد بن يوسف زهر » .

أما ابن المقفع من الجانب الفكري فعملاق جبار ، ترشدنا إلى ذلك كتاباته وحكمه وآراؤه وتآليفه . كان ابن المقفع واسع الاطلاع على الثقافتين : العربية ، والفارسية ، نقل خير ماقرأ باللغة الفهلوية إلى اللسان العربي ، وزاد عليه الكثير من آثار خبرته وحكمته وتجاربه في الحياة .

نجده في كتابيه : « الأدب الصغير » ، و « الأدب الكبير » ـ اللذين جمع فيهما طائفة من أفكاره وحكمه ومن أقوال الحكماء في الأخلاق

والآداب وتربية النفس وسياسة الملك ـ كان يحاول أن يرسم خطوطا عريضة لمجتمع قوى ، تسوده المحبة والطمأنينة والثقة والصداقة . وفى الكتابين آثار من الثقافة والحكم الفارسية ، وصور من النظم الساسانية فى الحكم . وإذا كان فيهما آثار من مذاهب فلاسفة اليونان فهى منقولة من الفرس ، الذين تأثروا ـ فيما تأثروا ـ بالمذاهب اليونانية . ويرجح كثيرون أن كتابه « الدرة اليتيمة » هو نفس كتاب « الأدب الكبير » .

وكتاب « كليلة ودمنة » كان قد ترجم من الهندية إلى الفهلوية فى عهد كسرى أنوشروان ، وأضاف الفرس عليه أبوابا ، مثل « باب بعثة برزويه » ، فترجمه ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، وأضاف عليه فصولا جديدة مثل « باب غرض الكتاب » ، و « باب الفحص عن أمر دمنة » ، و « باب الناسك والضيف » ، و « باب البطة ومالك الحزين » ، ويرجح بعض المستشرقين ومنهم « هرتل » ، وغيره أن الباب الأول وهو مقدمة الكتاب من إضافة على بن الشاه الفارسى المتوفى عام ٣٠٢ هـ . وفى هذا الكتاب أصول كثيرة لنظام الحكم وسياسة الرعية . ويبدو أن روح الإصلاح الاجتماعى ، التى انطوت عليها جوانح ابن المقفع هى التى دفعته إلى ترجمته . وهو يعد من نفائس الآثار الفكرية ، ومن روائع كتب الأدب العربى ، وقد ترجم إلى اللغات العالمية ، واحتل منزلة سامقة فى الفكر الإنسانى .

ومن الكتب المفقودة ، التى ترجمها ابن المقفع : « خداينامه » أى سير ملوك الفرس وتاريخهم ، وكتاب « التاج » . أما كتب الفلسفة اليونانية التى ينسب إليه ترجمتها ، فترجمها عن الفارسية هو ابنه محمد ، وليست من ترجمة ابن المقفع نفسه .

هذا هو ابن المقفع ، الذى كان ميلاده ، بخوزستان بفارس فى قرية تسمى « جور » ، من أبوين فارسيين ، عام ١٠٦ هـ ـ ٧٢٤ ميلادية ، وكان أبوه قد سماه « روزبة » ، وكان والده « داذويه » يتولى كتابة خراج

فارس للحجاج بن يوسف . ونقم عليه الحجاج فضربه حتى تقفعت يده ، فلقب بالمقفع ، وعرف ابنه بابن المقفع . ونشأ هذا الفتى الصغير مع أبيه فى البصرة ، يستظلان بولاء آل الأهتم ، المشهورين باللسن والخطابة والفصاحة ، وتلقى ثقافته الأدبية فى بيئة البصرة حيث العلماء والرواة والمدارس وسوق المربد . وعمل فى كتابة الرسائل لولاة بنى أمية على بلاد فارس ، فكتب لداود بن هبيرة ، حتى قامت الدولة العباسية فى ٣ ربيع الأول ١٣٢ هـ - ٣٠ اكتوبر ٧٤٩ م ، وقتل داود . ثم كتب لعيسى بن على عم الخليفة العباسى أيام ولايته على كرمان عام ١٢٢ و ١٣٢ هـ ، وأسلم على يديه ، وكتب بعده لسليمان بن على أيام ولايته على البصرة من عام ١٣٣ - ١٣٩ هـ ، ثم ولى البصرة بعده سفيان بن معاوية ، فنقم على ابن المقفع ، لانتمائه لأعمام الخليفة ، الذين غضب عليهم المنصور ، واضطهد ابن المقفع وقتل عام ١٤٣ هـ - ٧٦٠ م .

ومات ابن المقفع بعد أن خلف ثروة عظيمة للأدب والفكر العربى ، وأمثلة رفيعة يحتذيها البلغاء والأدباء فى كل عصر وجيل . مات المفكر العظيم ، الذى جمع بين عقل الحكيم وتفكيره وطبع الأدب وذوقه ، والذى كانت حياته مثالا رفيعا للإنسانية وللسمو النفسى والخلق . . مات هذا الشاب الفارسى الأصل العربى اللسان . ولكن ذكره لم يمت لأن آثاره الأدبية لاتزال حية ، باقية لن تموت .

٣ — ويهمنا أن نعرض هنا نصا لابن المقفع من كتاب كليلة ودمنة ، وليكن هذا النص هو « باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين » .

فهذا النص لعبد الله بن المقفع من كتاب كليلة ودمنة وهو آخر أبواب هذا الكتاب الخالد ، الذى أثرى به عبدالله بن المقفع الأدب العربى ، وقدم للفكر الإنسانى - فى مختلف مراحله - أعظم زاد من الحكمة والمعرفة .

وقد ترجم ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية إلى العربية . لما احتوى عليه من أعظم الأصول فى سياسة الملك ، وفى دعائم الحضارة والاجتماع . وكان الفرس قد ترجموه من السنسكريتية إلى الفهلوية ، ومن عجب أن تفقد الأصول الفارسية كلها لهذا الكتاب الخالد ، ولا يبقى إلا الأصل العربى الذى ترجمه ابن المقفع إلى العربية ، وعنها ترجم الكتاب إلى جميع اللغات العالمية ، وذاعت شهرة الكتاب فى كل مكان ، وطار اسمه فى كل ناحية . يقول ابن المقفع :

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف :

قد سمعت هذا المثل (١) ، فاضرب لى مثلا فى شأن الرجل الذى يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه .

قال الفيلسوف : إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

قال الملك : وما مثلهن ؟

قال الفيلسوف :

زعموا أن حمامة كانت تفرخ فى رأس نخلة طويلة ذاهبة فى السماء ، فكانت الحمامة تشرع فى نقل العش إلى رأس تلك النخلة فلا يمكنها ماتنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة لطول النخلة وسمقها (٢) .

وكانت إذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها ، فإذا

---

(١) هو ماذكره فى الباب السابق ، باب « ابن الملك وأصحابه » من أن الرجل لايصيب الخير إلا بعقله ، وقد يصيب الرجل الجاهل الرفعة والخير ، والرجل الحكيم العاقل البلاء والضر .

(٢) أى علوها ، وهو بمعنى السموق ، وفى الأصل : سحقها ، أى بعدها وذلك لارتفاعها .

انقاض [١] وأدرك فراخها ، جاءها ثعلب قد تعهد [٢] ذلك منها لوقت قد علمه ريثما ينهض فراخها فوقف بأصل النخلة فصاح بها وتوعدها [٣] أن يرقى إليها أو تلقى إليه فراخها . فتلقيها إليه .

فبينما هى ذات يوم وقد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة ، فلما رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم قال لها : ياحمامة مالى أراك كاسفة البال سيئة الحال ؟ فقالت له : يامالك الحزين إن ثعلبا دهيت به كلما كان لى فرخان جاءنى يتهـــددنى ويصيح فى أصل النخلة فأفرق [٤] منه فأطرح إليه فرخى . قال لها مالك الحزين : إذا أتاك ليفعل ماتقولين فقولى له : لا ألقى إليك فرخى ، فارق [٥] إلى وغرر بنفسك [٦] فاذا فعلت ذلك وأكلت فرخى طرت عنك ونجوت بنفسى .

فلما علمها مالك الحزين هـــذه الحيلة طار فوقع على شاطىء نهر ، وأقبل الثعلب فى الوقت الذى عرف فوقف تحت النخلة ثم صاح كما كان يفعل ، فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين فقال لهـا : أخبرينى من علمك هذا ؟ قالت : علمنى مالك الحزين . فتوجه الثعلب حتى أتى مالك الحزين على شاطىء النهر فوجده واقفا ، فقال له الثعلب : يامالك الحزين إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك ؟ قال : عن شمالى ، قال : فإذا أتتك عن شمالك أين تجعل رأسك ؟ قال : أجعله عن يمينى أو خلفى ، قال: فاذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية أين تجعله ؟ قال : أجعله تحت جناحى ، قال : وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحيك ، ماأراه [٧] يتهيأ

---

(١) أى خرج منه الفرخ .
(٢) أى تفقد وعرف .
(٣) أى تهددها .
(٤) أخاف .
(٥) أى اصعد .
(٦) أى عرضها للهلاك .
(٧) أى ما أظنه .

لك ، قال : بلى ، قال : فأرنى كيف تصنع ؟ فلعمرى يامعشر الطـــير فقد فضلكم الله علينا ، إنكن تدرين فى ساعة واحدة ماندرى فى سنة وتبلغن مالا نبلغ ، وتدخلن رؤوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح ، فهنيئا لكن فأرنى كيف تصنع ؟

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحيه ، فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه (١) همزة دق عنقه ، ثم قال : ياعـــدو نفسه ترى الرأى للحمامة وتعلمها الحيلة لنفسها وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكن منك عدوك ، ثم قتله وأكله .

وهذا النص يرشد إلى أن الإنسان يجب أن يعى دروس الحياة كاملة ، وأن ينصح نفسه قبل أن ينصح غيره ، ويحذر من شر الأشرار كما يحذر هو غيره من شرهم ، وأن يكون عميق الإدراك بعيد الفطنة ، لايغتر بكلام محتال مخادع ، أوماكر متلطف .

وأسلوب ابن المقفع مع بلاغته وروعته يكاد هنا يتعثر فى أداء مضامينه ، لأن الترجمة للمعانى الفلسفية الدقيقة لايكاد يقوم بها أسلوب بليغ مهما دقت بلاغته ، وعلت منزلته فى الفصاحة . وانظر إلى قوله : « فشرع فى نقل العش إلى رأس تلك النخلة ، فلا يمكنها ماتنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة » فالأسلوب مفكك غير متلاحم الأجزاء مع ضعف نسجه ، وقلة روعته ، وفى آخر النص يكرر ابن المقفع « فأرنى كيف تصنع » مرتين.

والنص قصة من قصص كتاب كليلة ودمنة ، وهى كأغلب قصص الكتاب قصة على لسان الطير والحيوان يرويها الفيلسوف الهندى بيدبا لمليكه دبشليم مرشدا وموجها ومعلما ، وتبتدى كل قصة بسؤال من الملك للفيلسوف قد سمعت هذا المثل مثلا ، أو قد عرفت ما أخبرت به من الأمر

---

(١) أى كسره .

السابق ، فاضرب لى مثلا فى شأن كذا . فيرد عليه الفيلسوف قائلا : إن مثل ذلك مثل كذا وكذا ، ويسترسل من قصة إلى قصة ، ومن عبرة إلى عبرة ، ومن عظة إلى عظة حتى ينتهى تقريره للحكمة المقصود تقريرها أمام الملك .

ولهذا القصص فوق مضمونه الاجتماعى والفكرى فائدة جليلة لما فيه من التسلية والمتعة والبهجة والتشويق والطرافة .

ومثل ذلك القصص مما ضرب به المثل فى روعته وحكمته ، ومما اهتم به الباحثون والمفكرون والسياسيون اهتماما كبيراً ؛ وفى القرآن الكريم قصص خالدة على ألسنة الطير مثل قصة الهدهد ، وقصة النمل مع سليمان ، وذلك لأن الحكمة إذا جاءت على ألسنة الطيور والحيوانات كان وقعها فى النفس أعظم ، وأثرها فى القلب أكبر ، وكانت فرحة الإنسان بها أشد ، ومتعته بها أجل .

وقد ألف الكتاب قصصا على ألسنة الحيوانات والطير لتعليم الحكمة عن طريق القصة استجماما للنفوس وترويحا للقلوب ، وليكون الجد فى صورة متعة تجتذب إليها العامة ، ويتسلى بها الخاصة . ويقول طه حسين فيه : فى هذا الكتاب حكمة الهند وجهد الفرس ولغة العرب (١) » .

والأصل الهندى للكتاب هو كتاب « بنج تنترا » (٢) ويذكر أن سبب تأليف الكتاب رغبة ملك من ملوك الهند اسمه « السلطان الخالد » فى تعليم أبنائه المعرفة والحكمة ، وحب العلم والعلماء ، وكانوا لا يقبلون على هذا الباب ، فأشار أحد المقربين إلى الملك عليه باستدعاء كاهن برهمى حكيم

---

(١) مقدمة كليلة ودمنة ص ٨ تحقيق عبد الوهاب عزام .

(٢) معناه خمس رسائل .

اسمه « وشنوشرما » لتعليم أبناء الملك فاستدعاه ، ووكل إليه الإشراف على تعليم أبنائه فوضع الكاهن لهم هذا الكتاب ليحببهم فى المعرفة بأسلوب مشوق ، وذلك نحو عام ٣٠٠ ق م .

وترجمة ابن المقفع للكتاب تجعل اسم الحكيم الهندى الذى ألف الكتاب « بيدبا » وقد وضعه للملك دبشليم لتعليمه سياسة الرعية . ولزوم العدل والبعد عن الطغيان ، وقد استعان بيدبا فى تأليفه بتلاميذه حيث مكثوا يؤلفون فيه سنة كاملة ، وجعلوه قصصا على لسان الحيوان لأهمية الفن القصصى فى التهذيب والتوجيه .

ويذكر الفردوسى فى « الشاهنامة » فى سبب ترجمة الكتاب إلى الفهلوية أن الملك أنو شروان سمع من برزويه الطبيب أن فى بلاد الهند عشبا يحيى الموتى فبعث أنو شروان برزويه للبحث عن هذا العشب العجيب . فسافر وظل يسأل عنه ، ويجوب البلاد فى طلبه فلم يعثر عليه فسأل العلماء فى الهند فأرشدوه إلى كليلة ودمنة لأنه بآذا به يحيى القلوب الميتة . فنسخه وقدم به على أنوشروان وترجم الكتاب له من السنسكريتية إلى الفهلوية ، وذلك فى عهد أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) ، ثم ترجم ابن المقفع الكتاب من الفهلوية إلى العربية فى حكم المنصور فى القرن الثانى الهجرى ، وكليلة ودمنة من أبناء آوى . وكان يقال لأحدهما كليلة وللآخر دمنة .

وكان لكليلة ودمنة صداه العميق عند كل الناس فى عصر ابن المقفع وبعد عصره ، حتى قال ابن خلدون : « لقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة » .

الجاحظ شيخ الأدباء فى العصر العباسى

١٥٠ — ٢٥٥ هـ

١ — عاش الجاحظ فى العصر العباسى الأول (١٢٢ — ٢٣٤ هـ) وأدرك سنوات من حكم المنصور ؛ والجاحظ هو عمـــرو بن بحر بن محبوب الكنانى ، ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه .

وقد نشأ بالبصرة فقيرا حائرا ، يعيش بكده وسعيه ، حتى لقد روى أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان(١) ، ثم انصرف إلى العلم والأدب يطلبهما فى البصرة وبغداد ، ويتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد ، ويسمع من الأصمعى وأبى زيد الأنصارى وأبى عبيدة ، ويأخذ النحو عن أبى الحسن الأخفش صديقه ، ويأخذ الكلام عن النظام . هذا مع إدمانه المطالعة ، حتى قيل إنه ماوقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته ، وكان يكترى دكاكين الوراقين ليبيت فيها للمطالعة . وكذلك انقطع للعلم والتأليف حتى أصبح علماً ذائع الشهرة فى هذا المجال ، وأقبل الناس على كتبه ، وعدوا التلمذة عليه شرفا ، ويصور ذلك ماروى عن سلام بن زيد أحد علماء الأندلس ، قال : « كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء الجاحظ ، فخرجت لا أعرج على شىء حتى قصدته وأقمت عليه عشرين سنة .

وقد انفرد الجاحظ بآراء فى التوحيد صارت مذهباً من مذاهب المعتزلة وألحقه المأمون بديوان الرسائل ولكنه استقال منه بعد ثلاثة أيام .

وقد اتصل الجاحظ بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق وأهدى إليه كتابه « الحيوان » ، ولما قتل ابن عبد الملك فى بدء خلافة

---

(١) هو نهر بالبصرة .

المتوكل هرب الجاحظ ثم قبض عليه ، وجيء به مقيدا إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيات فلما نظر إليه قال: والله ماعلمتك إلا متناسيا للنعمة، كفوراً للصنيعة معدنا للمساوىء . فقال له الجاحظ: خفض عليك أيدك الله، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيء وتحسن أحسن من أن أحسن فتسيء ، وأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل من الانتقام مني. فقال له ابن أبي دؤاد : قبحك الله ماعلمتك إلا كثير تزويق الكلام ، ثم قال جيئوا بجداد ، فقال : أعزالله القاضي ، ليفك عني أو ليزيدني؟ فقال : بل ليفك عنك ، فجيء بالجداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا ، فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة ، فإن الضرر على ساق وليس بجذع ولا ساجة (١) ، فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه ، وقال ابن أبي دؤاد لبعض الحاضرين : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال ياغلام سر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى ، واحمل إليه تخت ثياب وطويلة وخفا ، فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر في مجلسه ، ثم أقبل عليه وقال هات الآن حديثك يا أبا عثمان . واصطلحت الحال بينهما ، وأهـــدى إليه الجاحظ كتاب « البيان والتبيين » . .

واتصل الجاحظ أيضاً بالفتح بن خاقان وسافر معه إلى دمشق ووصف مسجدها في كتابه « البلدان » ، كما أنه دخل أنطاكية .

وهكذا قضى الجاحظ أيامه في العلم والأدب والتصنيف حتى أصيب بالفالج في أعقاب عمره وكان ذلك في أواخر خلافة المتوكل ، قيل إن المتوكل وجه من يحمل الجاحظ إليه من البصرة ، فقال لمن أراد حمله : ومايصنع أمير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذي شق مائل ، وعقل حائل .

---

(١) الساجة : شجرة عظيمة خشبها صلب .

وظل كذلك حتى توفى فى آخر خلافة المعتز وذلك عام ٢٥٥ هـ . وقد كان شعار الجاحظ فى طلب العلم قوله : « إذا سمعت الرجل يقول ماترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه مايريد أن يفلح » ، وقوله أيضا : وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة ، فمن أضر ذلك قولهم لم يدع الأول للآخر شيئا ، فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة فى أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا » .

على هذه الطريقة طلب الجاحظ العلم فاطلع على علوم المتقدمين والمتأخرين واستنبط واجتهد وانتقد وزاد وألف فى الأدب والعلم والدين ، وكان إماماً فى كل منها .

٢ — ويقول المرزبانى فيه رواية عن أبى بكر أحمد بن على : كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا وله كتب كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين وفى حكاية مذهب المخالفين، والآداب والأخلاق ، وفى ضروب من الجد والهزل وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس فى تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدرة فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور .

وقال ثابت بن قرة : ماأحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة : أولهم عمر بن الخطاب فى سياسته ويقظته ، والثانى الحسن البصرى فلقد كان من دراى النجوم علما وتقوى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين ،

وشيخ المتكلمين ، ومدره المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سحبان البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام فى الجدل ، وإن جد خرج فى مسك عامر ابن عبد قيس ، وإن هزل زاد على مزيد ، حبيب القلوب ، ومراح الأرواح ، وشيخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه . والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والأدب ، وبين النثر والنظم ، والذكاء والفهم ، طال عمره وفشت حكمته وظهرت خلته ، ووطىء الرجال عقبه ، وتهادوا أربه ، وافتخروا بالانتساب إليه ، ونجحوا بالاقتداء به ، لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب .

ويقول فيه ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلها عيال فيها على ثلاثة ، أما الفقه فعلى أبى حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبى الهذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبى عثمان الجاحظ .

ولقد ألف أبو حيان التوحيدى (٤٠٠ هـ : ١٠٠٩ م) كتاباً فى تقريظ الجاحظ . وقيل لأبى هفان : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك ؟ فقال أمثلى يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما ظن منها بيت فى ألف سنة .

وقد كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية ، فى النصف الأول من القرن الثالث ، وكان مجده الأدبى الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوى فى كل أفق ، ويرن صداه فى سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وقد عاش الناس فى عصره وبعد عصره عيالا عليه فى البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة ، كما يقول ابن العميد ، وعدوا التلمذة عليه شرفا لا يعدله شرف ، ومجداً يدنيهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات

الثقافة الإسلامية فى شتى عصورها ، فألفوا الكتب فى الإشـــادة به ـ كما فعل أبو حيان التوحيدى فى كتابه تقريظ الجاحظ ـــ وبالغوا فى الإشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ، ونهج كبار الكتاب نهجه فى الثقافة والأدب والبيان ، وكان فخر الرجل فى أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ، ويرونها تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الإسلامى بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها فى البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لايسمهم بميسم الخزى والهوان إلى الأبد ، ومن ساء جـــده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لايغفرها الزمن ، كما فعل الجاحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتهكمة « التربيع والتدوير » ، وحسبك أن المأمون كان يقرأ تآليف الجاحظ ويثنى عليها ويستجيدها (١) .

٣ ـــ ومجد الجاحظ الأدبى مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة ، وهو مجد بوأه صرحه الخالد كفايته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة ، فقد عاش الجاحظ محروما من كل شىء إلا من مجد الأدب وشهرة العلم ، ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التى كان يصعد إليها فى عهده كثير من الكتاب ، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة فى ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، لتعرضه لخصومات كثيرة حذراً من أن يأفل به نجم الكتاب ، كما كان يرى سهل بن هارون ، وهذا الإخفاق فى الحياة العامة الذى منى به الجاحظ فى عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه فى رسالته « الزوابع والتوابع » ، ومما جعله يخطىء من يذهب إلى تقديم الجاحظ على

---

(١) ٢١١ جـ ٢ البيان للجاحظ نشر السندوبى ـ ط ١٩٢٧ .

سهل بن هرون ، وإن كان تحكيم التوفيق فى الحياة فى وزن الشخصيات وتقديرها ضلالا وغبنا .

ولكن ماسر هذا الإخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وابراهيم بن العباس إما لأنه كان مقصراً فى الكتابة وجميع أدواتها أو لأنه كان ساقط الهمة أو لأن دمامته وإفراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شيء قد يكون غريبا ولذلك أخـــذ يذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل ، وقد تجد عالما غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة — أيا كانت هذه الأداة — من أدوات الكتابة فذلك مارده الحقيقة المقررة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبى وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك وريب . وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح لايتطلع إلى مجد ينشده أو جاه سلطان يناله ، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر فى هذا الإخفاق فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة حتى إنه ذكر للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الحق أن الجاحظ كان عربيا فى روحه ودمه وحياته ، وكان يتعصب للعرب فى كل شيء حتى فى الثقافة والأدب فى عصر كان النفوذ والسلطان فى الدولة فيه للعناصر الأجنبية لاسيما الفرس ، وكثيرا ماكان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب إلا من اتصل منهم بحبل وزير أو أمير ، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ) والذى أهدى له كتاب « الحيوان » ، وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسن له ، أن يستفيد

شيئا من وراء هذه الصداقة ، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد بن أبي دؤاد الذى سيق إليه الجاحظ مغلولا لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده وطلب حديثه و بيانه وثوقا منه بظرفه وأدبه لا بإخلاصه وولائه .

ثم لاننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب لامواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعته مواهبه العقلية والعلمية والأدبية مكانا عليا ما كان ينتظر أن ترفعه إليه السياسة مهما حلق فى أجوائها ، وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه فى معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض فى ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته فى الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته فى مجد السياسة وسلطانها ، فالجاحظ أولا وقبل كل شىء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعتزلى الذى تتلمذ على النظام ثم عاف تقليد غيره فى العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزليين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفقد والمؤلف النابه وشيخ العربية الذى وعى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات فى شتى علوم الدين والدنيا ، وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٨ — ٢٥٥ هـ) ، وكان له فى صدر شبابه فخر التلمذة على شيوخها فى اللغة والأدب وفى علوم الدين والكلام وفى التفكير والمنطق ، كما كان له فخر صداقة رجال الفكر والسياسة فى الدولة ، وقد استفاد من وراء هذا وذاك نضوجا كبيرا فى عقليته وثقافته هيأه لأن يكون محور الثقافة الإسلامية فى عصره لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع .

٤ — وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة منوعة تحيط بشتى ألوان الثقافات المختلفة التى مارجت الثقافة الإسلامية فى عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين ، وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة

لا تقف عند غاية. وقد خاض الجاحظ فى جداول الثقافات الأخرى التى سرت فى تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثانى الهجرى ؛ وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لا نشك فى أنها أفادت ذلك من أساتذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التى شاعت فى البيئة الإسلامية فى عصر الجاحظ ، ولا شك أن عصر الجاحظ ، وعقليته ، وشغفه بالدراسة والبحث ، وعكوفه على القراءة ، ونشأته بالبصرة ، وتلقيه اللغة عن الأعراب فى المربد والعلماء فى حلقات البصرة ومجامعها العلمية ، وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة العربية فى شتى مناحيها كأبى يوسف القاضى والنظام والأصمعى والأخفش وابن الأعرابى وأبى عبيدة وأبى زيد الأنصارى ، كان له أثره فى ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتعددة الألوان .

وقد اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة وعن طريق المتكلمين وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية (١) ، كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه ، وتوسع فى الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب (٢) وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد ما ، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة فى الأسلوب استعماله القياس المضمر (المذهب الكلامى عند البديعيين(٣)) ، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية وخاصة كتاب المنطق الذى ذكر أنه خرج فى أسلوب سقيم ، فالجاحظ فيما يبدو قد تأثر « بالخطابة » لأرسطو (٤) ، وذلك ما أراه ، وأنكر باحث

---

(١) ٤٠ ج ١ ضحى الإسلام (٢) ٣٨٧ ج ١ المرجع

(٣) ٦٢٠ و ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة فى أسبوع الجاحظ ، وإذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابة (١٥ ج ٣ البيان) فليس ذلك إلا فى مقام الرد على الشعوبيين ، ويحتمل أن يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان .

(٤) راجع ٦٢٢ المرجع السابق .

آخر أن يكون كتاب البيان متأثرا بخطابة أرسطو أو صدى له لأن الجاحظ لم يره (١) وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين (٢) .

ومن البدهى أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إلماما واسعا ، ويبدو لى أنه كان يعرف اللغة الفارسية ، ففى البخلاء يحكى الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق : لو خرجت من جلدك ، لم أعرفك قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام بالفارسية « كراز بوستت بارون بيائى نشناسيم (٣) .

وأثر ثقافته الفارسية واضح فى كتبه وفى « مؤلفه البيان » أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضا فى الحيوان وفى كتابه البيان ، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب الحيوان واستدل بآراء لأرسطو فيه (٤) وكان مصدرا كبيرا له فى كتابه « الحيوان » ، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيراً (٥) ، ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكىء اللسان مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه (٦) ، ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان (٧) ، ويذكر كتب اليونان فى المنطق وأن الحكماء جعلتها معيارا للتفكير (٨) ، ويذكر نوادر ريسموس اليونانى (٩)

---

(١) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ .
(٢) ص ٣ مقدمة نقد النثر .
(٣) ص ١٩ البخلاء ، ١٩ الجاحظ لمردم بك
(٤) ٦١ : ١ البيان
(٥) ٦٩ و ١٢٨ : ١ البيان
(٦) ١٥ : ٣ البيان
(٧) ٧٥ : ١ البيان
(٨) ٧ : ٣ البيان
(٩) ١٦٥ : ٢ البيان

ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم فى الخطابة ذكر(١)، وأقسام الدلالة عند الجاحظ(٢)، هى من تفكير أرسطو. ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها وللهند حكمها وسيرها وعللها ويرى أنها لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة(٣)، وللجاحظ رسالة فى نقد الكندى(٤).

ويذكر الجاحظ فى البيان «صناعة الكلام» ويعنى بها حينا علم الكلام(٥)، وحينا آخر البيان(٦)، ويذكر اصطلاحات أخرى كصناعة المنطق(٧) وصناعة الخطابة ويذكر أحيانا «أصحاب الخطابة والبلاغة(٨)».

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو، فدعوته إلى ترك الوحشى والسوقى(٩) له نظير عند أرسطو الذى دعا إلى «هجر الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها إلا العامة(١٠)»، وقال: «ينبغى ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد فى المتانة مبلغ الأمر

---

(١) ١٥ : ٣ البيان، والظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شىء من خطابتهم

(٢) ٦١ : ١ البيان، وهى فى ٤٠ الرسالة العذراء، ٩ نقد النثر

(٣) ٧ : ٣ البيان

(٤) ٤٢ الجاحظ لمردم بك

(٥) ٦٩ : ١ البيان

(٦) ١٠٨ : ١ البيان. ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٣ : ٤ زهر)

(٧) ٧٩ : ١ البيان

(٨) ١٨٣ : ١ البيان

(٩) ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ : ١ البيان

(١٠) راجع الشفاء لابن سينا، وكل النصوص المنقولة هنا عن أرسطو فهى منقولة من الشفاء

الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا تحوج إلى الكلفة المشنوءة » ، ودعوة الجاحظ إلى الوضوح[١] لها نظير عند أرسطو حيث يذكر « حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الإغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن فى الاغرابات بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون أسقاط الجمهور » ، واللحن وخروجه عن حد البلاغة[٢] موجود فى خطابة أرسطو حيث يوجب أن « يكون اللفظ فصيحا لالحن فيه » ، ويذكر الجاحظ استعمال المبسوط فى مواضعه والمقصور (المحذوف الموجز) فى مواضعه[٣] والإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يوم الإطناب[٤] ، وأرسطو أول من أشار إلى ذلك كله فذكر الإيجاز والإسهاب وأشار إلى أن لكل منهما مقاما . وعلى أى حال فرجع هذا التشابه فى الأفكار أرجحه أن سببه نقل الجاحظ كثيراً عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو فى النقد وعلى الأخص الخطابة والشعر .

ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيراً من النظريات التى شرحها أرسطو فى كتابيه ، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التى ألم بها أرسطو[٥]

---

(١) ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦ : ١ البيان

(٢) ١٢١ : ١ البيان

(٣) ٥١ : ١ البيان . ويشير إلى ذلك فى مواضع أخرى من كتابه (١٤١ و ١٤٧ و ١٦١ و ١٨٠ : ١ البيان)

(٤) ١٢٠ رسائل الجاحظ ، وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للإيجاز مواضعه وللإطالة مواضعها (مقدمة أدب الكاتب)

(٥) كدراسته للاستعارة ، وللرباطات (حروف العطف) وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد ، وللجناس وسواه ، ونظرية أرسطو فى الوصل هى التى يفيض عبدالقاهر فى شرحها فى الدلائل ، ونصيب فى نقده للكميت فى قوله « تكامل فيها الأنس =

لايشير إليها الجاحظ فى بيانه ، وهو على العموم لم يطلع على نفس كتابى أرسطو ، وإنما أرجح اطلاعه على ترجمات لكثير من آرائه فى الكتابين ، ولانشك فى أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التى شاعت فى عصره كثيرا ، ونقل عمن اطلعوا على خطابة أرسطو .

٥ — وللجاحظ فى البيان العربى آثار كثيرة : كرسالته فى تفضيل النطق على الصمت(١) وكتابه البيان والتبيين .

والبيان « أول كتاب ظهر فى الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه(٢) » ويشيد به أبو هلال (٣) ، ويعده ابن خلدون من أركان الأدب(٤) ، والكتاب يبحث فى فنون الأدب والبلاغة ويتناول النقد واللغة ، ويأتى على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين ، وآثارهم الأدبية . وهو من أجل وثائق الأدب فى الجاهلية والإسلام ، ويذكر ابن رشيق أنه لايبلغ جودة وفضلا (٥) ، ويذكر أبو أحمد العسكرى مثلا من تصحيف الجاحظ فيه (٦) ، وينقد ابن شهيد الكتاب (٧) ، ورد عليه بعض المعاصرين (٨) . والكتاب يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم فى البيان ، كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من رأيه

= والشنب ، لأن الشاعر باعد فى القول (١٣٤ ج ١ الأغانى ، ٣٣٥ : ١ الكامل) . وليس أمامنا مايدل على معرفة الجاحظ بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(١) تجدها فى (١٤٨ — ١٥٤ رسائل الجاحظ) .

(٢) ٨٠ العصر العباسى للاسكندرى . (٣) ٦ و ٧ الصناعتين .

(٤) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون (٥) ٢٢٧ : ١ العمدة

(٦) ٥٣ و ٥٤ التصحيف والتحريف (٧) ١٩٨ : ١ ذخيرة

(٨) ٥٠ : ٢ النثر الفنى .

وتفكيره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة (١) . أو كما يصورها بشر بن المعتمر (٢) ، أو كما راها ابن المقفع (٣) ؛ ولهذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربى لما جمعه من النصوص التى توضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربى ، وتعطينا صورة مجملة لنشأته (٤) .

وفى الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة (٥) ، ويتكلم على السجع (٦) ، ويشير إلى التفصيل والتقسيم (٧) ، والاستطراد ، والكناية (٨) ، والأمثال (٩) والاحتراس (١٠) والقلب (١١) ، والأسلوب الحكيم (١٢) ، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب الكلامى بهذا الاصطلاح (١٣) ؛ ويرى الجاحظ أن البلاغة فى النظم لا فى المعانى قال: والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفى صحة الطبع وجودة السبك (١٤)

---

(١) ٧٩ : ١ البيان (٢) ١٠٤ : ١ وما بعدها البيان
(٣) ٩١ : ١ البيان (٤) ٣ مقدمة نقد النثر
(٥) ١١٦ : ١ البيان (٦) ١٩٤ : ١ البيان .
(٧) ١٧٠ : ١ و٩١ : ٢ البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة ، راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين .
(٨) ١٨٠ : ١ و ١ و ٢٩ و ٣١ و٨٥ : ٣ البيان .
(٩) ٨٦و٨٨و١١٤و١٨٣ : ١ ، ٢٢٤ : ٢ البيان .
(١٠) ١٦١ : ١ وما بعدها البيان (١١) ١٨٠ : ١ البيان .
(١٢) ٢٠١ و٢٠٢ : ٢ البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ « اللغز فى الجواب » (١١٦ : ٢ البيان) .
(١٣) ١٠١ البديع ، ٧٦ : ٢ العمدة .
(١٤) ٤٠ : ٣ الحيوان

وهو ما ذهب إليه ابن خلدون (١) ، ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شىء ، والمعنى ليس شيئاً مذكوراً (٢) ، وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لاداعى إلى ذكره هنا خوفا من كثرة الإسهاب . والجاحظ يشيد بالإيجاز ويدعو إليه كثيراً فى بيانه (٣) ، وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف (٤) » ، ويحث على ترك الوحشى والسوقى وعلى الإفهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب فى صناعة الكلام ، وعلى أى حال فالبيان والتبيين أثر أدبى وعلمى نفيس ، والجاحظ يده على البيان العربى لاتجحد ، ويعده ابن خلدون من السابقين فى التأليف فيه (٥) .

ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال (٦) فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان وهى التى أوحت إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان (٧) ، ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ فى البيان كما ذهب إليه بعض الباحثين .

وكتاب « البيان » يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم

---

(١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون (٢) ١٠٥ ملكة الجمال .

(٣) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ١٩٨ : ٢ البيان .

(٤) ٥ : ١ الكامل للمبرد

(٥) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون

(٦) ص ٦ و ٧ الصناعتين

(٧) ومن هؤلاء طه حسين الذى يرى أن الجاحظ هو أول من اهتم بالبلاغة وأول مؤسس للبيان العربى حقا (راجع ص ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر بقلم طه حسين) .

فى البيان كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ، ورسم فيه صوراً صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده . والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ ، وهو ذو قيمة فذة فى تاريخ الأدب والأدباء لاسيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل، وقد عنى فيه الجاحظ بتدوين المثل الساحرة من الأدب العربى : شعره ونثره ، وقاده الاستطراد إلى الإلمام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان .

والكتاب ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التى أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب ، وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والإحاطة التامة بالبيان وبلاغته، وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية وبطلها .

وهو أصل من أصول الأدب ، وهو فى أسلوبه وفى نهجه وفى رواياته وفى آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين فى آدابها .

وقيمته فى البيان العربى خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء فى البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغاياتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصى واتجاهه الأدبى المستقل ، وفيما جمعه الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل إعجاب الباحثين وتقديرهم ، وكفى أن تقرأ فيه: البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة ، أو كما رآها ابن المقفع أو كما تحدث عنها بشر بن المعتمر فى صحيفة من تحبيره وتنميقه إلى غير ذلك من شتى الآراء التى كتبها الجاحظ مستقلا بالتفكير فيها .

وإذا كان للجاحظ فخر التلمذة والرواية ـ فى كتابه ـ عن شيوخ العربية وأدبائها كالأصمعى وأبى عبيدة وابن الأعرابى وابن سلام وابن العاصى

وكإبراهيم بن السندى وعبد الكريم بن روح الغفارى ومحمد بن بشير الشاعر وكثامة والنظام ، وسوى هؤلاء وهؤلاء فيجب أن لاننسى أنه قد كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاءوا بعد عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالتلمذة عليه وعلى كتابه « البيان » : كابن قتيبة وقدامة وأبى هلال والقاضى الجرجانى وعبد القاهر الجرجانى وسواهم .

ولقد خدم الجاحظ البيان العربى فى كتبه عامة ، وكتابه البيان والتبيين خاصة ، فهو أظهر من أفرده بالتأليف وأسبقهم ، فوق ماجمع من مختلف الآراء والمذاهب فيه ، والجمع والإحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد ، ومنزلة العالم فى الجمع لايمكن الغض منها أو الاستهانة بها وإذا قرأت كتب الجاحظ لاسيما « الحيوان » و « البيان » عرفت منزلة الجاحظ فى هذا السبيل .

والجاحظ فوق أثره الكبير فى جمع آراء رجال البيان والبلاغة فى مذاهبهما وعناصرهما فى كتابه « البيان » على الخصوص ، له وراء ذلك فضل خاص وجهد مستقل فيه ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدها من عقليته وثقافته ، وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين فى البيان العربى وقواعده .

٦ — ولقد عاش الجاحظ فى عصر ازدهر فيه الأدب ودراساته ، وحمل لواءه طوائف عدة :

١ — طبقة رواة الأدب العربى من البصريين والكوفيين والبغداديين ، الذين كانوا يروونه إشباعا لنهم فطرهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة ، من أمثال : خلف والأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (١)

(١) ١٠٦ : ١ البيان والتبيين .

ومن عامة رواد الأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة - كما يقول الجاحظ - دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب ، والإخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لا يروون إلا كل شعر فيه غريب (١) .

٢ — وبجوار هذه الطبقة من الأدباء عاش الشعراء الذين طارت شهرتهم فى آفاق الأدب العربى أمثال ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدوس وأبى نواس وأبى العتاهية والسيد الحميرى وأبان اللاحقى ومنصور النمرى وسلم الخاسر وابن أبى عيينة ويحيى بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابى ومسلم وأبى تمام(٢).. وبجوار هؤلاء وهؤلاء وجدت جماعات كثيرة من الخطباء ورجال الأدب والبيان من بيت بنى على وبنى العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لاسيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٣) .

٣ — طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم ، والذين انمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا (٤) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٥) ،

---

(١) ٣ : ٢٢٤ المرجع .
(٢) ١ : ٥٤ المرجع .
(٣) ١ : ١٠٦ البيان .
(٤) ١ : ١٠٥ البيان .
(٥) ٣ : ٢٢٥ المرجع .

وحكم مذهبهم فى نقد البيان (١) ، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاه الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى ، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شداة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى المتوفى سنة ٢١٠هـ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها: إن بشر امر بإبراهيم ابن جبلة بن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وهى فى أصول البلاغة وعناصر البيان (٢) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٣) وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صعدوا بأدبهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب فى الخلافة الإسلامية ، وكان لهذه الطبقة أثرها فى بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام ورسم المذاهب الأدبية التى توائم ذوق بيئتهم وعصرهم مما نراه مبثوثا فى كتاب البيان والتى لا تخرج عن أحكام الذوق الأدبى السليم ولا يتعمد أصحابها فيها مذاهب العلماء فى الشرح والتحليل .

---

(١) المرجع ١ : ٢٤٠

(٢) المرجع ١ : ١٠٦

(٣) المرجع ١ : ١٥١

وللجاحظ مذهب أدبى كامل دعا إليه فى كتابه البيان والتبيين فى مواضع متفرقة منه لاسيما الجزء الأول من كتابه الكبير، وهذا المذهب مستمد من عقليته وثقافته وبيئته، وهو المظهر القوى من مظاهر شخصية الجاحظ الواضحة فى كتابه البيان والتبيين .

ويمكننا إرجاع هذا المذهب إلى عناصره الأولى من: سحر اللفظ وتلاؤم الحروف، ووضوح المعنى، وترك التكلف والتعقيد والإغراب والوحشية والسوقية، ومراعاة المقام وإصابة الغاية، مع الحذق والرفق والتخلص إلى حبات القلوب وإصابة عيون المعانى فى سحر وإيجاز، ومع البعد عما يكره من مظاهر مذمومة فى البيان مما يتعلق بخلق البليغ وخلقه وطبعه أوزيه، ومع الحرص على صبغ ذلك كله بصبغة الرجل وأسلوبه وظهور شخصيته وأثره فيه، ومع مسايرة الأديب للحركة الفكرية العامة فى بيئته، ومع الحرص على إثارة نشاط السامعين والقراء والاحتيال على ذلك: بالفكاهة الجميلة، والاستطراد الساحر، وبراعة الأسلوب وسحره وقوته، وبالرواية الكثيرة لأعلام الأدب والبيان التى تلقى فى روع السامع والقارىء روح الهيبة والإعجاب بهم وبالمؤلف، وبمناقشة الآراء التى تستحق المناقشة والنقد مما تجعل السامع والقارىء متطلعاً مسايراً للمؤلف فى اتجاهاته الفكرية والأدبية، إلى غير ذلك من عناصر هذا المذهب الأدبى التى ترجع إلى المعنى والأسلوب دون حرص على ترف البيان أو طلب لشتى ألوان البديع إلا إذا طلبها الطبع واستدعاها المقام .

ومن الجدير بالملاحظة أن كثرة الرواية فى كتاب الجاحظ التى رآها بعض الباحثين المعاصرين من أسباب ضعف شخصيته إنما هو غرض قصد إليه الجاحظ وأراده، ليشعر القارىء بروحه ويؤمن بما يوجهه المؤلف إليه من آراء وأفكار، وليكتسب به رضاه وتقديره وإعجابه . ولا أحيلك فى فهم مذهب الجاحظ ذلك على صفحة من كتابه، فاقرأ أى صفحة

منه ، وقد ظهر الجاحظ فى عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان : اتجاه يرمى إلى الظهور بمظهر البداوة التقليدى فى الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهى من الأساليب متناسياً روح العصر وذوقه ، واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبألوان الحضارة فى العيش والتفكير ، فمال إلى رقة الأسلوب وسهولته ، مع حرص على إرضاء الطبع والذوق ، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية المنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه إلى الاتجاه الأخير ، وكتابه البيان كله دعوة إلى هذا الرأى ، فهو حينا يشيد بأدب الكتاب ومذهبهم فى البيان ، وحينا يكرر الدعوة إلى الوضوح والإفهام ومسايرة الذوق والطبع ، وحينا ينقد مذاهب الصنعة فى الشعر ، وحينا يدعو إلى ترك التكليف والتعقيد والتعقير وإيثار الأساليب السمحة الكريمة الساحرة .

ومن أجل ذلك كان الجاحظ يلقب حقاً بشيخ الكتاب وعرف بهذا اللقب فى حياته وبعد حياته .

والجاحظ أديب وكاتب ومترسل ومؤلف وناقد ، وليس شاعراً مع أن له شعراً ، ولا يضيره ذلك ، نعم لا يضيره أن يكون كما قال بديع الزمانى الهمذانى فيه : « هو من أحد شق البلاغة يقطف ، وفى الآخر يقف (١) » ، فقد يجيد الرجل فى باب من أبواب الأدب دون باب ولا يغض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه .

ولكن البديع يبدو أنه كان يتحامل على الجاحظ تحامل من يريد أن يزيح من طريقه كل من لهم قدم فى الأدب والبلاغة ليظل هو العلم فى هذا المجال على

---

(١) ٨٢ المقامة الجاحظية ـ مقامات البديع .

مر العصور ، ولذلك تجد البديع ينقد أدب الجاحظ بأنه ، بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، وأن الجاحظ منقاد فيه لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة [1] .

وقد روى للجاحظ شعر قليل ، هو أشبه بشعر العلماء .

وأدب الجاحظ كما يقول فيه بعض الباحثين [2] : أدب واقعي بل طبيعي ، يؤثر فيه التصريح على التلويح ، ويصور الحقيقة كما هي ، ويرى في ذلك السبيل الأقوم ، بل هو يدعو إلى هذا المذهب ، ويعيب من يرغب عنه .

وهو أدب حي ، مستمد من الدرس والتفكير والتجارب ، ولا تكاد تجد مؤلفاً يعطيك من هذه الثلاثة كما يعطيك الجاحظ ، فهو يشارك الرواة في سعة حفظه وروايته ، ويشارك الفلاسفة في تفكيره الحر واعتماده على المعقول ، ويبذ الجميع في ملابسته للناس على اختلاف طبقاتهم وفهمه لروح عصره . ولو قيض لمجموعة مصنفاته البقاء ، لكان لدينا صورة ناطقة عن عصر الجاحظ في كل مناحيه ، وعما وصـــل إليه العلم والأدب والاجتماع .

ويعتمد أدب الجاحظ على عناصر شتى ، أقواها بلاغة العرب في الجاهلية والإسلام ، والكتاب والسنة ، وما نقل إلى العربية من آداب الفرس واليونان والهنود وفلسفتهم ، ولكن أظهر ما يكون فيه الرأي الشخصي والتفكير الحر .

لئن كان ابن المقفع إمام الكتاب في عصر الترجمة ، فالجاحظ إمامهم

---

(١) ٨٢ و ٨٣ المرجع .

(٢) راجع ص ٢٠ و ٢١ الجاحظ لخليل مردم .

فى عصر الوضع والتأليف والإبداع وتكوين الأدب الحضرى المرتكز على أسس العلم والمدنية والتفكير من غير أن يفقد شيئاً من فصاحة البداوة وروعتها .

وهكذا فالجاحظ شرع طريقة التأليف فى الأدب ، وكل من ألف بعده متأثر بطريقته شعر أم لم يشعر . قال ابن النديم فى الفهرست : « ابن خلاد الرامهرمزى حسن التأليف مليح التصنيف يسلك طريقة الجاحظ » وقال أيضا : « الآمدى ملمح التصنيف جيد التأليف يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب » .

ولم يقف أثره عند هذا الحد بل تعداه إلى أن أصبحت الكتاب تترسم خطاه فى الإنشاء بل تقتبس جمله ذات الجلبة فى السمع والروعة فى النفس . قال القاضى الفاضل : « وأما الجاحظ فما منا معشر الكتاب إلا من دخل داره ، أوشن على كلامه الغارة .

٧ — وشخصية الجاحظ فى مؤلفاته وأدبه تطالعك من كل جانب وناحية ، وهى شخصية رجل الفكر الواثق بنفسه وعقله وثقافته ومنزلته فى مجتمعه حتى ليخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم كأنه منهم ، فلم يفن شخصيته فى شخصياتهم ، بل رآهم إخوانه ، وله عليهم حق الصداقة ، ودالة الأخوة ، ولم يجبن عن توجيه العتاب واللوم إليهم فى أحيان كثيرة . وأنت حين تقرأ فى كتب الجاحظ تغيب فى جو بعيد عنك تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها ، وبتوجيهها الساحر لعقل القارىء وفكره وشعوره ، حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعوراً صادقاً أنه قد نقل من جوه هو إلى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة تملك عليك عقلك وعاطفتك وتروعك بكثرة حفظها وروايتها ، كما تروعك بروعة فكرها وجلال بيانها ، وتتركك صريعا فى معارك فكرية ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلمه

البليغ فيها عصا الساحر المتحدى التى تسترعى السمع والبصر . وتبهت الفكر والعقل وتلهب العاطفة والشعور .

والعجب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته فى تآليفه جعلت كثيراً ممن لا يفهمون الجاحظ يرونه « كاتباً لا شخصية له ، تطمس شخصيات من يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه ، وتبدو أمام عينيك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ولا تلمس آثاره بينهم » .

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة فى فكره وفى كتابته وأسلوبه وفى بحثه وتأليفه ، فاذا فكر فبعقل الخاصة ، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم ولمن يفكر فى مجال تفكيرهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ « يستمسك بفائدته ويضن بما عنده غيرة على العلم وشحا بثمرة الفهم ، ولذلك كان كتاب « البيان » موقوفا على أهله ومن كرع فى حوضه ، أما الجاهل والمبتدىء فلا نفع له من كتابه » كما كان ابن شهيد . إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شىء ويرضى شهوته فى تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات (١) وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه إلا رجل مثله فى فكره واتجاهه وثقافته ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته فى كتبه ومؤلفاته ما داموا لا يستطيعون مجاراته فى نواحى ثقافته العقلية والأدبية . وحسب الجاحظ مجدا وخلود ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب البيان والتبيين .

٨ — وللجاحظ مؤلفات كثيرة نذكر بعضها بإيجاز :

---

(١) راجع ٤٩ : ٢ النثر الفنى لزكى مبارك .

(١) كتاب البيان : وقد أهداه إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيان والتبيين » ضجة كبيرة في الأدب والبيان حتى إنه حمل إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات .

وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف ، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهرة والإعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه ، وينال كتابه الذكر والذيوع ، ومن كثرة الاستطراد الذي يستدر به الجاحظ نشاط القارىء وإعجابه كما يقول الجاحظ في تعليله له ، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكرهم في كتابه ترتيباً يتمشى مع التاريخ بعجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ فالجاحظ لو أراد لما أعجزه شيء ، إنما هو مذهبه في الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله — أو كثيرا منها — محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبغ عليها أحيانا روحا توائم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى إليه كتابه من تقدير وإجلال ، وأسلوب الجاحظ الاستطرادي جعل الجاحظ يعدنا في كتابه بأنه سيذكر الشيء ثم لا يذكره ولا يفي بوعده ، وهـذا الأسلوب الاستطرادي أيضاً جعل الجاحظ ينقد نفسه في ترتيب فصول كتابه وجعله يرسم منهجه في أجزاء كتابه في آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع في أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارىء بمزيد من الابتسام ، فهو يعنون فصولا بباب البيان وأخرى يسميها باب الصمت وأخرى باب اللحن أو باب الزهد إلى آخر هذه الألقاب ، التي نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئاً منها ولم يضعها إلا للتغرير بالقارىء واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته .

ويقول بعض العلماء : فخر أهل البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحـــظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل .

(٢) كتاب الحيوان : وقد ألفه الجاحظ قبل كتاب « البيان والتبيين » وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، وهو أول كتاب ألف فى موضوعه ، وقد طبع فى سبعة أجزاء ، ويبحث عن طبائع الحيوان ، وما ورد فيه من الأخبار والقصص والنوادر والخرافات والفكاهة والمجون ، وما قالتـه العرب فيه من الشعر فضلا عما اختبره المؤلف بنفسه .

وفى استطراد الجاحظ الكثير فى هذا الكتاب ، يقف القارىء فى أثناء ذلك على أخبار ممتعة وفوائد قيمة تمثل له المعارف الإسلامية وما بلغته فى القرن الثالث . فهناك أشعار الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين ، وهناك تفسير كثير من آى القرآن والحديث ، وهناك آراء المتكلمين ومذاهب الفرق الإسلامية ، وهناك شبه الملحدين والزنادقة والرد عليهم ، أضف إلى ذلك معارف الهنود واليونان والفرس مما ترجمه العرب ومما تسوق إليه المناسبة فى ذلك الكتاب ، فضلا عن أنه يصور كثيراً من وجوه الحياة فى القرن الثالث .

(٣) كتاب البخلاء : وهو كتاب طريف جمع فيه الجاحظ أخبار البخلاء ونوادر الأشحاء ، وصدره برسالة سهل بن هرون فى البخل وهى من أبلغ وأمتع وأنفس ما كتب فى هذا الموضوع . والكتاب ممتع جذاب لما فيه من نكاهات ساحرة .

ولقد أضاف إليه الجاحظ ما اتفق له من النوادر مع بعض البخلاء ، ولا يخلو من آراء سديدة فى الاقتصاد والتدبير .

(٤) كتاب المحاسن والأضداد : وهو كتاب حسن جمع الجاحظ فيه

نحو ثمانين موضوعا متقابلة ، فهو يعقد للموضوع فصلا يذكر فيه محاسنه ثم يعقبه بضده وهكذا إلى آخر الكتاب . وقد بدأه بذكر محاسن الكتابة وختمه بذكر شيء من محاسن الموت ، وجميع المواضيع التي عالجها ذات بال : كمحاسن الجواب والمشورة والعفو والوفاء وحب الوطن وأضدادها . وقد صرح الجاحظ في المقدمة بأنه لم يسبق إلى هذا الكتاب بقوله : « وهذا كتاب وسمته بالمحاسن والأضداد لم أسبق إلى نحلته ولم يسألني أحد صنعه » والكتاب من أكثر كتب الجاحظ تنسيقاً وترتيبا وأشدها مراعاة لحسن التبويب وضم كل معنى إلى مشاكله . وقد جرى على سننه البيهقي فألف كتاباً سماه « المحاسن والمساوىء » .

(٥) كتاب التاج في أخلاق الملوك : يبحث عما يتعلق بأمور الملوك في السياسة والتدبير وفي حياتهم الخاصة وآداب مجالستهم ورسوم الدخول عليهم ومحادثتهم وما إلى ذلك من أحوالهم العامة والخاصة ، وفيه شواهد عن ملوك الفرس وخلفاء العرب . والكتاب يدل على ما بلغه العرب من العزة والسلطان ورسوخ قدمهم في الحضارة . وما يظن أن رسوم أعرق قصر بالمدنية في الوقت الحاضر تفوق ما ورد في ذلك الكتاب من الرسوم والآداب .

(٦) الفصول المختارة من كتب الجاحظ : وهو كتاب اختاره عبيدالله بن حسان من عشرين كتاباً للجاحظ وهذه أسماؤها : كتاب الحاسد والمحسود ، كتاب المعلمين ، كتاب التربيع والتدوير ، كتاب مدح النبيذ ، كتاب طبقات المغنين ، كتاب النساء ، كتاب مناقب الترك ، كتاب حجج النبوة ، كتاب مسائل القرآن ، وفيه بحث عن خلق القرآن ، كتاب الرد على النصارى ، كتاب المودة والخلطة ، كتاب استحقاق الإمامة ، كتاب استنجاز الوعد ، كتاب تفضيل النطق على الصمت ، كتاب صناعة الكلام ، كتاب مدح التجارة وذم عمـــل السلطان ، كتاب الشارب والمشروب ، كتاب الإمامة ، كتاب مقالة الزيدية والرافضة .

(٧) ثلاث رسائل للجاحظ هى : الرد على النصارى التى مر ذكرها مع الفصول المختارة ؛ ذم أخلاق الكتاب ، رسالة القيان .

(٨) الحنين إلى الأوطان .

(٩) إحدى عشرة رسالة طبعت فى مصر ذكر أكثرها فى الفصول المختارة وما لم يذكر منها هو : فخر السودان على البيضان ، كتاب الوكلاء والموكلين .

(١٠) رسالة فى بنى أمية : وقد سماها بعضهم رسالة النابتة .

(١١) كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير : فيه كثير من الأدلة العقلية على وجود الخالق وحكمته وتدبيره وهو كتاب قيم وأسلوبه عال ولكنه بأسلوب الحكماء أشبه .

ومن كتبه المخطوطة التى لم تطبع بعد : كتاب المعرفة ، كتاب نظم القرآن ، كتاب التسوية بين العرب والعجم ، كتاب السلطان وأخلاق أهله ، كتاب البلدان ، كتاب الأخبار ، كتاب المغنين والغناء والصنعة ، كتاب آى القرآن ، كتاب حانوت عطار ، كتاب التمثيل ، كتاب فضل العلم ، كتاب جمهرة الملوك ، كتاب عناصر الآداب ، كتاب الأمثال ، كتاب الرسالة اليتيمة ، رسالة فى القضاة والولاة ، كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية ، كتاب العالم والجاهل .

(٩) ألوان من نثر الجاحظ

الكلام البليغ :

ومتى شاكل ـ أبقاك الله ـ اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قمنا بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً أن يمنع صاحبه من تأويل الطاعنين ، ويحمى عرضه من اعتراض العائبين . ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور به مأهولة .

ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً فى نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريض . ومن أعاره من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوبا ، خبت إليه المعانى ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكلف ، وأراح قارىء الكتاب من علاج التفهم .

كلام الرسول :

عاب النبى صلى الله عليه وسلم التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وألقى الله عليه من المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام والإيجاز ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة

حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطىء ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر .

وما سمع كلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعـــدل وزنا ، ولا أجل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجا من كلامه صلى الله عليه وسلم .

جوامع كلمه :

يجب للرجل أن يكون سخياً لا يبلغ التبذير ، شجاعا لا يبلغ الهوج ، محترساً لا يبلغ الجبن ، ماضياً لا يبلغ القحة ، قوالا لا يبلغ الهذر ، صموتاً لا يبلغ العى ، حليما لا يبلغ الذل ، منتصراً لا يبلغ الظلم ، وقوراً لا يبلغ الظلم ، وقوراً لا يبلغ البلادة ، ناقداً لا يبلغ الطيش . ثم وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع ذلك فى كلمة واحدة وهى قوله : « خير الأمور أوساطها » ، فعلمنا أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتى جوامع الكلم وعلم فصل الخطاب .

سحر البيان :

قال بعض الربانيين وأهل المعرفة من البلغاء ، ممن يكره التشادق والتعمق ، ويبغض الإغراق فى القول والتكلف والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن مايقول وما يعرض للسامع من الافتتان بحسن مايسمع : أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام ، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه

المتكلم قولا متعشقا ، صار فى القلب أحلى ، وللصدر أملأ . والمعانى إذا كسبت الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرفيعة ، تحولت فى العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها ، بقدر مازينت ، وعلى حسب مازخرفت . والقلب ضعيف ، وسلطان الهوى قوى ، ومدخل خدع الشيطان خفى .

بلاغة العرب :

كل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام أوحين أن يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أوفى حرب . فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى ارسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ثم لايقيده على نفسه ولايدرسه أحدا من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لايتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ومكانه فى البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا إلا ماعلق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم . من غير تكلف ولا قصد ولاتحفظ ولاطلب ، وإن شيئا الذى فى أيدينا جزء منه ، لبالمقدار الذى لايعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب ، وهو الذى يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

ونحن — أبقاك الله — إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والأسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا العلم

على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول فى مثل ذلك إلا فى اليسير والنبذ القليل ، ونحن لانستطيع أن نعلم أن الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبى عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير .

وأخرى أنك متى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخلص ، ومعدن الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، أوخطيب مصقع ، علم أن الذى قلت هو الحق ، وأبصر الشاهد عيانا .

فهذا فرق ما بيننا وبينهم ، فتفهم عنى ـ فهمك الله ـ ما أنا قائل فى هذا ، واعلم أنك لم تر قوما قط وأشق من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه . ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنما ، من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طويل جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن فى قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة . ولو عرفوا أخلاق كل ملة ، وزى كل لغة ، وعللهم فى اختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم ، وما علة كل شىء من ذلك ، ولم اختلقوه ولم تكلفوه ؟ ، لأراحوا أنفسهم ، وتخففت مؤونتهم على من خالطهم .

الكتاب :

الكتاب وعاء ملىء علما ، وظرف حشى ظرفا ، وإناء شحن مزاحا وجدا ، إن شئت كان أبين من سحبان وائل ، وإن شئت كان أعيى من باقل ، وإن شئت

ضحكت من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتك طرائفه ، وإن شئت أشجتك مواعظه . ومن لك بواعظ مله ، وبزاجر مغر ، وبناسك فاتك ، وبناطق أخرس .

ومتى رأيت بستاناً يحمل فى ردن ؟ وروضة تقلب فى حجر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لاينام إلا بنومك ، ولاينطق إلا بما تهوى . آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة .

ولاأعلم جاراً أبر ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولاصاحباً أظهر كفاية ولاأقل إملالا وإبراما ولا أكثر أعجوبة وتصرفا ولا أقل تصلفا وتكلفا ولاأبعد من مراء من كتاب .

ولا أعلم نتاجاً فى حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ، مايجمع لك الكتاب .

صامت ما أسكتته وبليغ ما استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتديك فى حال شغلك ويدعوك فى أوقات نشاطك ، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه .

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك وجود بيانك وفخم ألفاظك ، ونجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك . وعرفت به فى شهر ، مالا تعرفه من أفواه الرجال فى دهر ، مع السلامة من الغرم ومن كد الطلب ومن

الوقوف بباب المكتسب بالتعليم ، ومن الجلوس بين يدى من أنت أفضل منه خلقاً وأكرم عرقا ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة الأغبياء .

قال ابن الجهم : ، إذا غشينى النعاس فى غير وقت نوم — وبئس الشىء النوم الفاضل عن الحاجة — تناولت كتاباً من كتب الحكمة ، فأجد اهتزازى للفوائد، والأريحية التى تعترينى عند الظفر ببعض الحاجة ، والذى يغشى قلبى من سرور الاستبانة أشد إيقاظاً من هدة الهدم . وإذا استحسنت الكتاب واستجدته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه ، فلو ترانى وأنا ساعة بعد ساعة أنظر كم بقى من ورقه مخافة استنفاده وانقطع المادة من قلبه . وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق كثير العدد ، فقد تم عيشى وكمل سرورى » .

فالإنسان لايعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد من أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذ عنده من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التى تخرج فى الكتب ألذ عنده من عشق القيان لم يبلغ فى العلم مبلغا رضياً ، وليس ينتفع بإنفاقه ، حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابى فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤمل فى العلم مايؤمل الأعرابى فى فرسه .

سياسة الحزم :

من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة، وقتل فى موضع القتل، وأحيى فى موضع الإحياء ، وعفا فى موضع العفو وعاقب فى موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، خالف الرب فى تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه . وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء . ولا خير فيمن كان خيره محضا ،

وشر منـــه من كان شره صرفا ، ولكن اخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لايهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والأطماع والإخافة . ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ماعرف منه ، فخير الخير ماكان ممزوجا ، وشر الشر ماكان صرفا .

ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده . لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم . وفى إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة فى جميع الأقطار وفى جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب، دليل على أن الصواب فيه دون غيره، وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوبا . وإنما الشأن فى العواقب وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدوم ومن الانقطاع أبعد .

الصـــوت :

أمر الصوت عجيب ، وتصرفه فى الوجوه عجب ، فمن ذلك أن منه مايقتل كصوت الصاعقة ، ومنه مايسر النفوس حتى يفرط عليها السرور فتقلق حتى ترقص، وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حالق وذلك مثل هذه الأغانى المطربة . ومن ذلك مايكمد ، ومن ذلك مايزيل العقل حتى يغشى على صاحبه كنحو هذه الأصوات الشجية والقراءات الملحنة ، وليس يعتريهم ذلك من قبل المعانى لأنهم فى كثير من ذلك لايفهمون ، وقد بكى ماسرجويه من قراءة أبى الخوخ ، فقيل له : كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ؟ قال : إنما أبكانى الشجا .

وبالأصوات ينومون الصبيان والأطفال والدواب تصر آذانها إذا غنى المكارى والإبل تصر آذانها إذا حدا فى آثارها الحادى وتزداد نشاطا

وتزيد فى مشيها . ويجمع بها الصيادون السمك فى حظائرهم التى يتخذونها له ، وذلك أنهم يضربون بعصى معهم ويعطعطون فتقبل أجناس السمك شاخصة الأبصار ، مصغية إلى تلك الأصوات حتى تدخل فى الحظيرة . ويضرب بالطساس للطير وتصاد بها . ويضرب بالطساس للأسد وقد أقبلت فتروعها تلك الأصوات . وقال صاحب المنطق : الأيايل تصاد بالصفير والغناء ، والصفير تسق به الدواب ، وتنفر به الطير عن البذور .

العـــرب :

لم يكونوا تجارا ولا صناعا ، ولا أطباء ولا حسابا ، ولا أصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع لخوفهم صغار الجزية . ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار لما فى أيديهم وطلب لما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورءوس المكاييل ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشغل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغنى الذى يورث البلادة ، والثروة التى تحدث الغرة . ولم يحتملوا ذلا قط فيميت قلوبهم ، ويصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكان فياف وتربية العراء ، لا يعرفون الغمق ولا اللثق (١) ، ولا البخار ولا الغلط ؟ ولا العفن ولا التخم ، أذهان حديدة ، ونفوس منكرة ، فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم إلى قول الشعر وبلاغة المنطق وتثقيف اللغة وتصاريف الكلام ، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر ، وحفظ النسب ، والاهتـــداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، واحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا فى ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية ؛ وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع وهم من جميع الأمم أفخر ولأيامهم أذكر .

---

(١) الغمق : الفساد من كثرة الأنداء . واللثق : نحوه .

ألوان من رسائل الجاحظ

رسالة فى الاعتذار :

أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار ، وبئس العوض من التوبة الإصرار ، وإن أحق من عطفت عليه بحلمك ، من لم يستشفع إليك بغيرك . وإننى بمعرفتى بمبلغ حلمك وغاية عفوك ضمنت لنفسى العفو من زلتها عندك ، وقد منعنى من الألم مالم يشفه غير مواصلتك .

رسالة أخرى فى الاعتذار :

قال الجاحظ :

تشاغلت مع الحسن بن وهب بشرب النبيذ أياما فطلبنى محمد بن عبد الملك الزيات لمؤانسته فأخبرته باتصال شغلى مع الحسن بن وهب فتنكر لى وتلون على فكتبت إليه رقعة نسختها :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح فى قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت ـ أيدك الله ـ أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء . وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن امرءاً أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ماجنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليك ـ أصلحك الله ـ فلم أجترىء إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة ، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : « عمر كان خيراً لى منك ، أرهبنى فاتقانى ، وأعطانى فأغنانى » .

فإن كنت لاتهب عقابى ـ أيدك الله ـ لخدمة ، فهبه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأت ماأنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد . وتتجافى عن عقاب المصر ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر ، وذنبه نسيان، ومن لايعرف الشكر إلالك والإنعام إلى منك، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم ـ أيدك الله ـ أن شين غضبك على كزين صفحك عنى، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرك مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام .

رسالة فى الشوق :

ما أضاء لى نهار ولا دجاليل مذفارقتك إلاوجدت الشوق إليك قدحز فى كبدى، والأسف عليك قد أسقط فى يدى، والنزاع نحوك قد خان جلدى . فأنا بين حشا خافقة ، ودمعة مهراقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح قد أبليت بماتكابد ، وذكرت ـ وأنا على فراش الارتماض ، ممنوع من لذة الاغتماض ـ قول بشار :

إذا هتف القمرى نازعنى الهوى ... بشوق فلم أملك دموعى من الوجد
أبى الله إلا أن يفرق بيننا ... وكنا كماء المزن شيب مع الشهد
لقد كان ما بينى زمانا وبينها ... كما كان بين المسك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ونجرى فى مودتنا إليه ، فى شعره هذا . وذكرت أيضاً ما رمانى به الدهر من فرقة أعزائى من إخوانى الذين أنت أعزهم، ويمتحننى بمن نأى من أحبائى وخلصائى الذين أنت أحبهم وأخلصهم ، ويجرعنيه من مرارة نأيهم وبعد لقائهم ، وسألت الله أن يقرن آيات سرورى بالقرب منك ، ولين عيشى بسرعة أوبتك، وقلت أبياتاً تقصر عن صفة وجدى وكنه ما يتضمنه قلبى وهى :

بخدى من قطر الدموع ندوب وبالقلب منى مذ نأيت وجيب
ولى نفس حتى الدجى يصدع الحشا ورجع حنين للفؤاد مذيب
ولى شاهد من ضر نفسى وسقمها يخبر عنى اننى لكئيب
كأنى لم أفجع بفرقة صاحب ولا غاب عن عينى سواك حبيب

رسالة له إلى ابن الزيات :

لا والله ماعالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ولا رأيت شيئا هو أنفذ من شماتة الأعداء ولا أعلم بابا أجمع لخصال المكروه من الذل . ولكن المظلوم مادام يجد من يرجوه والمبتلى ما دام يجد من يرثى له فهو على سبب درك، وإن تطاولت به الأيام ، فكم من كربة فادحة وضيقة مصمتة قد فتحت أقفالها وفكت أغلالها، ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك وفى حسن النية بينى وبينك، لامشتت الهوى ولا مقسم الأمل، على تقصير قد احتملته .

إلى الفتح بن خاقان :

كان الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله العباسى ، أكبر رجل فى دار الخلافة ، وكان من عظماء الدولة وأصحاب المكانة والسلطان فيها ، وكان على جانب عظيم من الدهاء والسياسة والفضل ، وكان مقصود الجانب من أكابر العلماء ، وفحول الأدباء ، وأرباب القلم من كل فن ونوع ، وكان محباً للجاحظ ، معجباً بأدبه وفضله وسعة معارفه ، وكان الجاحظ يراه أهلا للإيثار ، ويعتده أثيراً بالاعتبار ، فألف له رسالته المشهورة فى « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » ورفعها إليه بهذه المقدمة الجاحظية البارعة ، قال :

« وفقك الله لرشدك ، وأعان على شكرك ، وأصلحك وأصلح على يديك ، وجعلنا وإياك ممن يقول الحق ويعمل به ، ويؤثره ويحتمل ما فيه مما قد يصد عنه ، ولا يكون حظه منه الوصف له والمعرفة به ، دون

الحث عليه ، والانقطاع إليه ، وكشف القناع عنه ، وإيصاله إلى أهله ، والصبر على المحافظة فى أن لايصل إلى غيرهم ، والتثبت فى تحقيقه لديهم . فإن الله تعالى لم يعلم الناس ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عاملين ، بل علمهم ليعملوا وبين لهم ليتقوا . ولخوف الوقوع فى المضار ، والتورط فى المهالك ، طلب الناس التبين . ولحب السلامة من الهلكة والرغبة فى المنفعة احتملوا ثقل التعلم ، وتعجلوا مكروه المعاناة . ولقلة العاملين وكثرة الواصفين ، قال الأولون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين . وإنما كثرت الصفات وقلت الموصوفات ، لأن ثواب العمل مؤجل ، واحتمال مافيه معجل .

وقد أعجبنى مارأيت من شغفك بطاعة إمامك ، والمحاماة لتدبير خليفتك ، وإشفاقك من كل خلل دخل على ملكه وإن دق ، ونال سلطانه وإن صغر . ومن كل أمر خالف هواه وإن خفى مكانه ، وجانب رضاه وإن قل ضرره . ومن تخوفك أن يجد المتأول إليه متطرقاً ، والعدو عليه متعلقاً . فإن السلطان لايخلو من متأول ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زار ، ومن متعطل متصفح (١) ومن معجب برأيه ذى خطل فى بيانه ، مولع بتهجين الصواب والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان المملكة ، يضع نفسه فى موضع الرقباء ، وفى موضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لايعذر وإن كان مجاز العذر واضحاً ، ولايقف فيما يكون للشك محتملا ، ولايصدق بأن الشاهد يرى مالايرى الغائب وأنه لايعرف مصادر الرأى من لم يشهد موارده ، ولامستدبره من لم يعرف مستقبله . ومن محروم قد اضطغنه الحرمان . ومن لئيم قد أفسده الإحسان . ومن مستبطىء قد أخذ أضعاف حقه ، وهو

---

(١) المتصفح : المقلب لوجوه الأشياء عله يعثر على ما يوجب المؤاخذة والانتقاد .

لجهله بقدره ، ولضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذى بقى له أكثر ، وأن حقه أوجب . ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه . لكان لذلك أهلا وله مستحقاً . قدغره الإملاء ، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ .

ومن صاحب فتنة خامل فى الجماعة ، رئيس فى الفرقة ، نفاق فى الهرج ، قد أقصاه عز السلطان ، وأقام صغوه ثقاف الأدب ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مغيظ لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشفى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمانى ، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب . ومفتون مرتاب ، وخارص (١) لا خير فيه ، وخالف لا غناء عنده . يريد أن يسوى بالكفاة ويرفع فوق الحماة ، لأمر سلف له ، ولإحسان كان من غيره . وليس ممن يرب (٢) قديماً بحديث ، ولا يحفل بدروس (٣) شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحتسبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين . وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق فى مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل فى منازله ؟ !

ثم أعلمتنى بذلك أنك بنفسك بدأت فى تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك ، وإياها حطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه . ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والمؤازرة على الخير ، والمكافحة لأهل الحق . وقد استدللت بالذى أرى من شدة عنايتك وفرط اكتراثك وتفقدك لأخابير الأعداء ، وبحثك عن مناقب الأولياء . على أن ماظهر من نصحك أمم (٤) فى جنب ما بطن من إخلاصك ، فأمتع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك محبته ، وأعاذنا من قول الزور ، والتقرب بالباطل . إنه حميد مجيد ، فعال لما يريد » .

---

(١) الخارص : الكذاب المختلق للأباطيل .
(٢) يرب : يزيد ويصلح .
(٣) الدروس : المحو والابلاء .
(٤) أمم . قريب ظاهر .

النقد فى العصر العباسى الأول

انقسم نقاد الأدب وعلماؤه فى هذا العصر إلى طبقات :

١ — فطائفة من النقاد تقف إعجابها وتقديرها على الشعر القديم ، وتزرى بشعر المحدثين وفنهم لما فيه من إسفاف وإغراق وإحالة ونقص طبع وتفاوت نفس وتباين ملكات ، — وهم علماء الأدب واللغة الذين تثقفوا ثقافة أدبية وعربية خالصة ولم يتزودوا بزاد آخر من الثقافات الحديثة .

ومن هؤلاء : أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ ، وكان أعلم الناس بالعربية وجلس إليه الأصمعى عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامى (١) ، وكان يقيم الموازنة بين الشعراء على أساس عصورهم ، لا على أساس شعرهم حتى قال : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ماقدمت عليه أحداً (٢) » . وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم (٣) ، وكان كما يقول ابن سلام فى طبقات الشعراء : أشد الناس تسليما للعرب .

ومنهم ابن الاعرابى م ٢٣١ هـ ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء (٤) فكان يقول فى شعر أبى تمام : « إن كان هـذا شعراً

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧ ، البيان والتبيين ٢٠٩ : ١ ، العمدة ٧٣ : ١

(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٠٥ .

(٣) العمدة ٧٣ : ١

(٤) الموازنة ٨ ، الموشح ٣٠٤ ، أخبار أبى تمام ٢٤٤

فكلام العرب باطل (١) ، وأنشده ابن الطوسى أرجوزة لأبى تمام على أنها لبعض شعراء هذيل فاستحسنها وكتبها فلما علم أنها لحبيب قال خرقوها(٢)، وكان ابن الأعرابى يعيب شعر أبى نواس فأنشده رجل شعراً له وهو لايعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديدا وكتبه ، فلما علم أنه لأبى نواس أنكره (٣) ، وكان يستشهد فى كتابه النوادر بكثير من أشعار المحدثين، ولعله لو علم بذلك ما فعله (٤) ، وكان يقول : ختم الشعر بابن هرمة (٥) ؛ وكان الأصمعى يقول : ختم الشعر بالرماح (٦) ، وقال : بشار خاتمة الشعراء والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (٧) ؛ وكان أبو حاتم يعيب شعر أبى تمام (٨) .

ومنهم إسحاق الموصلى الذى كان فى كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم(٩) ، فتعصب على أبى نواس (١٠) ، وطعن على أبى العتاهية (١١) ،

---

(١) المرجع السابق .

(٢) التصحيف والتحريف ٨٥ ، المثل السائر ٣١٥ ، أخبار أبى تمام ١٧٥ ، ص ٤٥ ومابعدها من الصناعتين ، رسائل ابن المعتز ١٣ ، الموازنة ١٠ ، وراجع ٥٠ وما بعدها من الوساطة .

(٣) راجع ٢٨٩ : ١ زهر

(٤) أخبار أبى تمام للصولى ١٧٧

(٥) العمدة ٧٣ : ١

(٦) البيان ١٩٧ : ٣

(٧) الأغانى ٢٣ : ٣

(٨) الموشح ٣٠٤

(٩) أخبار أبى تمام ٢٢١

(١٠) راجع ٢٦٣ و٢٦٤ من الموشح ، الأغانى ٢٨ : ٣

(١١) الموشح ٢٥٨ .

وكان لا يعتد ببشار ويقدم مروانا عليه[١] ، وسمع أبي تمام ينشد شعراً له فقال ياهذا لقد شددت على نفسك[٢] ، ومع ذلك فقد كان إنتاجه الأدبي لا يرضى طبقة النقاد التي احتذى حذوها وذلك لأنهم يرونه محدثاً كما فعل الأصمعي معه حين استحسن بيتين أنشدهما اسحاق له فلما علم أن اسحاق صاحبهما عابهما[٣] ، ولم يكن تعصب اسحاق للقدماء في الأدب وحده بل كان كذلك في الغناء أيضاً فكان زعيم طائفة تنكر تغيير الغناء القديم وتعظم الأقدام عليه[٤] .

وكان المأمون — رغم ثقافته الواسعة — يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول : انقضى الشعر مع ملك بني أمية[٥] . ودخل عليه أبو تمام في زي أعرابي فأنشده فجعل المأمون يتعجب من غريب ما يأتي به فلما انتهى إلى قوله :

هن الحمام فإن كسرت عيافة من حائهن فإنهن حمام

فقال المأمون : الله أكبر كنت ياهذا قد خلطت على الأمر منذ اليوم وكنت حسبتك بدويا ثم تأملت معاني شعرك فإذا هي معاني الحضريين وإذا أنت منهم ، فغض به ذلك عنده[٦] .

ومثل ذلك التعصب للقديم موجود في الآداب الأخرى . فقد كان هوراس الشاعر الروماني يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التي يجب أن

---

(١) الأغاني ٢٨ : ٣
(٢) ٨ الموازنة ، وترى برواية أخرى (٢٢٧ الموشح)
(٣) الوساطة ٥٠ ، والموازنة ١٠ (٤) الأغاني ٣٥ : ٩
(٥) ديوان المعاني ٣٦٢ : ١
(٦) ديوان المعاني ١٢٠ : ٢

تدرس ليلا ونهاراً ، فان الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه (١) .

واعتذر الباقلانى عنهم بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذى يميلون إلى الذى يجمع الغريب والمعانى(٢) ، واعتذر ابن رشيق بحاجتهم إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون(٣) .

ب ـ وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبى وحده فى الشعر وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهليا كان أو إسلامياً أو محدثاً كالجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المعتز (٤) ، ونقد ابن المعتز تعصب العلماء على المحدثين لغير سبب (٥) ، وفضل خلف لامية مروان على لامية الأعشى(٦) ، ويشرح الجرجانى والباقلانى مذهبهم فى النقد(٧) .

جـ ـ وطائفة أخرى حكمت الثقافات الحديثة فى النقد كما فعل قدامة فى نقد الشعر ، ومن هؤلاء جماعة من الكتاب تعمقوا فى نقد الشعر ومناهجه ولا سيما بعد إطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو فى نقد الشعر الذى نقله أبو بشر من السريانية إلى العربية (٨) .

ولاختلاف مناهج النقاد فى نقد الشعر كان الشعراء يتشددون فى طلب العدالة الأدبية من النقاد حين يعرضون ما نظموه من شعر عليهم كما فعل ابن

---

(١) قواعد النقد الأدبى ص ١٤٤ وما بعدها

(٢) إعجاز القرآن ١٠٠

(٣) العمدة ٧٣ : ١

(٤) الحيوان ٤٠ : ٣ ، الشعر والشعراء ٧ و ٨ ، الكامل ١٨ : ١ ، العمدة ٧٤ : ١ (٥) أخبار أبى تمام ١٧٤ وما بعدها ، رسائل ابن المعتز ١٤

(٦) العقد ص ٤٠٢ : ٣

(٧) الوساطة ٣٧ وما بعدها ، إعجاز القرآن ١٠٠

(٨) زيدان ١٥٧ : ٣

مناذر م ١٩٨ : فقد أنشد أباعبيدة قصيدته فى رثاء عبدالمجيد بن عبدالوهاب الثقفى (١) :

كل حى لاق الحمام فمودى ما لحى مؤمل من خلود

وهى التى عارض بها قصيدة أبى(٢) زبيد الطائى :

إن طول الحياة غير سعود وضلال تأميل طول الخلود

فقال : احكم بين القصيدتين واتق الله ولا تقل ذاك متقادم الزمان وهذا محدث متأخر ، ولكن انظر إلى الشعرين ، واحكم لأفصحهما وأجودهما (٣) .

﴿ انتهى الكتاب ﴾

---

(١) راجعها فى الكامل للمبرد ٢٨٨ و ٢٩٠ : ٣ ، والمبرد شديد الاعجاب بها ، ٢٢٨٨ : ٢ الكامل

(٢) راجعها فى (٢٨٦ ومابعدها جمهرة أشعار العرب)

(٣) ١ ه طبقات الشعراء لابن المعتز

خاتمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ، نحمده ونشكره ونسأله التوفيق والهداية إلى أقوم طريق ، وبعد فهذه هى خاتمة كتابنا « الأدب العربى وتاريخه فى العصر الأموى والعصر العباسى الأول » الذى اشتمل على قسمين كبيرين : الأول فى آداب العصر الأموى ، والثانى فى العصر العباسى وحركة الأدب العربى فى ظلاله .

ويتميز هذا الكتاب بالدقة والعمق والاستقصاء والشمول ، بجانب الجدة فى بحوثه ودراساته ، واشتماله على كثير من نصوص الأدب فى العصرين مع دراسات واسعة لهذه النصوص . . وكذلك يعد هذا الكتاب أو فى مرجع فى الأدب العربى وتاريخه فى هذين العصرين ، ونحمد الله على مزيد فضله ، وجليل توفيقه ، وهـــدايته لنا فى الطريق الذى رسمناه لانفسنا فى هذا الكتاب .

إنه ولى الحمد ، وواهب الخير ، وهو أجل مأمول ، وأكرم مسئول ، وما توفيقنا إلا بالله ؟

فهرست الكتاب

القسم الأول من الكتاب

الصفحة	الموضوع
هـ	تمهيد
ز	القسم الأول من الكتاب
١	الحياة الأدبية فى عصر بنى أمية
٢ — ٣٢	الحياة السياسية فى العصر الأموى
٩	الأحزاب السياسية وآثارها فى الأدب
١٣	تلخيص
١٤	عناية الدولة بالأدب واللغة ومظاهرها
١٦	ذيوع اللغة وقيامها بمطالب الحضارة
١٩	ظهور اللحن والعمل على مقاومته
٢٢	الحفاظ على العربية ووضع النحو
٢٦	وضع الشكل
٢٧	وضع النقط
٢٩	بدء تدوين العلوم
٣٣ — ٥٣	الحياة الثقافية فى ظلال الأمويين
٤٤	سوق المربد وأثره الأدبى
٤٩	الموالى فى خدمة الثقافة واللغة
٥١	اتصال الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية
٥٤	مجالس الأدب فى هذا العصر
٥٦	صور من العناية باللغة والأدب
٧٦	خلاصة
٧٧ — ١٧٦	الشعر فى عصر بنى أمية ـ تمهيد
٧٩	نهضة الشعر فى العصر الأموى
٨٢	بيئات الشعر فى العصر الأموى
٨٣	المؤثرات العامة فى الشعر الأموى
٨٦	التطور والتجديد فى الشعر الأموى
٨٦	أغراض الشعر الأموى
٨٨	الشعر السياسى
١٠٠	شعر الشعوبية
١٠٢	الغزل
١٠٣	الغزل التقليدى
١٠٨	الغزل القصصى
١٢٢	الغزل العذرى
١٣٩	أغراض أخرى ـ الوصف
١٤٣	شعر الحماسة
١٤٩	الهجاء
١٥٣	النقائض فى عصر بنى أمية
١٥٥	الفخر
١٥٨	وصف الانفعالات النفسية

الصفحة	الموضوع
١٥٨	المدح
١٦٠	الرثاء
١٦٧	أساليب الشعر الأموى وألفاظه
١٧٠	المعانى والأخيلة
١٧٣	طوائف الشعراء الأمويين
١٧٧	الفرزدق شاعر العصر الأموى
١٨٥	الأخطل شاعر بنى أمية
١٩١	الكميت الأسدى
٢١٦	مسكين الدارمى

الصفحة	الموضوع
٢٢١	النثر الأموى
٢٣٢	الخطابة فى العصر الأموى
٢٤١	نماذج للخطابة
٢٥٣	من أعلام الخطباء : زياد
٢٦١	سحبان
٢٦٢	الحجاج
٢٦٥	الكتابة فى العصر الأموى
٢٧٣	نصوص من الكتابة
٢٨٣	عبد الحميد الكاتب
٢٩٥	النقد فى العصر الأموى

القسم الثانى من الكتاب

الصفحة	الموضوع
١	الحياة الأدبية فى العصر العباسى الأول
٢	العصر العباسى الأول
٥	قيام الدولة العباسية
١٧	الطابع السياسى فى العصر العباسى الأول
٢٦	الطابع الاجتماعى لهذا العصر
٤٥ — ٧٥	الطابع الثقافى للعصر العباسى الأول
٥٢	ترجمة العلوم والآداب الأجنبية
٦٣	التأثير الأجنبى فى اللغة وآدابها
٦٦	الثقافات الأجنبية وأثرها فى اللغة والأدب
٧٦ — ٢٧٠	الشعر فى العصر العباسى الأول
٧٦	تمهيد
٨١	تطور الشعر فى العصر العباسى الأول
٨٤	عناية الخلفاء ومنزلة الشعراء
٩٧	مجالس الشعر والأدب
١٠٤	المحدثون والمولدون
١٠٦	ألفاظ الشعر وأساليبه فى هذا العصر
١١٨	أوزان الشعر وقوافيه
١٢٤	أخيلة الشعر ومعانيه
١٤٦	أغراض الشعر
١٤٨	الغزل
١٥٨	المدح
١٦٩	شعر السياسة والعصبية
١٧٢	الوصف
١٨٥	وصف الطبيعة
١٩٣	الصيد والطرد
١٩٥	الخمريات
٢٠٠	الحكمة
٢٠٢	الزهد
٢٠٤	الفخر
٢٠٦	العتاب
٢١٣	الهجاء والمجون
٢١٦	الرثاء
٢٢٦	الشعر الحماسى
٢٢٩	نماذج أخرى من الشعر العباسى
٢٣٧	رواية الشعر
٢٣٨	طبقات الشعراء
٢٣٩	الطبع والصنعة عند المحدثين
٢٤٨	ابن المعتز العباسى
٢٧١	النثر الفنى فى العصر العباسى الأول
٢٧٥	الخطابة فى العصر العباسى الأول
٢٧٥	صور من الخطابة

الصفحة	الموضوع
٢٨٤	تطور الخطابة فى هذا العصر
٢٩٢	الكتابة فى هذا العصر
٢٩٢	صور الكتابة
٣٠٥	حالة الكتابة فى هذا العصر
٣٢٠	فن التوقيعات
٣٢٣	ابن المقفع
٣٣٤	الجاحظ
٣٧٤	النقد فى العصر العباسى الأول
٣٧٩	خاتمة الكتاب

ملاحظة :

لايفوت القارىء تصويب بعض الأخطاء المطبعية ، وفى صفحة ٢ سطر ١٤ من القسم الثانى ذكر اسم أبى مسلم وأبى سلمة الخلال كل مكان الآخر ؟